رواية اسمها سورية

نبيل صالح

مئة شخصية أسهمت في تشكيل وعي السوريين
في القرن العشرين

رواية اسمها سورية

مئة شخصية أسهمت في تشكيل وعي السوريين
في القرن العشرين

الجزء الثاني

رواية اسمها سورية

المؤلف : مجموعة من الباحثين

تحرير وإشراف عام : نبيل صالح

إصدار خاص

الطبعة الثانية 1428 هـ - 2007م

عمليات فنية BJconcept.com

مصطفى الشهابي

الأمير العالم والشاعر

(1893- 1968)

بينما كان الطفل يسير مع أهله، مغادراً مدينته، تطلع إلى الوراء، ليملأ عينيه بجمال المكان، الذي أمضى فيه سنواته العشر كاملة. نظر إلى التلال المتناثرة، وإلى البساتين المنبسطة، وتذكر كيف كان يقضي أوقاته الجميلة. وللحظات، شعر بأنه يريد أن يترك أهله ويعود راكضاً إلى مرتع ذكرياته، وإلى أصدقائه. لم تكن تلك الذكريات تدعه وشأنه، بل كانت تجبره على الغرق في تفاصيلها، وهو مستسلم لها، دون أية مقاومة، سوى ذرف الدموع. وأحس الفتى الصغير بأن هذه هي المرة الأخيرة التي يرى فيها مسقط رأسه.

في مدينته هذه، والتي تسمى (حاصبيا)، الواقعة في وادي التيم، ولد مصطفى الشهابي عام 1893، في قصر الأمراء الشهابيين. وكانت هذه المدينة مركز قضاء حاصبيا، الذي تتبع له تسع قرى، ولكنها جميعاً كانت تتبع إدارياً للواء دمشق، وهو أحد الألوية الأربعة التي تتألف منها ولاية سوريا، التي كانت خاضعة للاحتلال العثماني.

كان مصطفى الشهابي، أحد أفراد أسرة الشهابيين، التي حكمت جبل حوران منذ سنة 1172، أيام الملك العادل نور الدين محمود الزنكي. ومن ثم انتقلت هذه الأسرة إلى مدينة حاصبيا، واتخذت هذا القضاء مركزاً لحكمها حتى سنة 1870.

دخل مصطفى الشهابي مدرسة الحكومة الابتدائية في السادسة من عمره، فدرس فيها مبادئ القراءة والكتابة والقرآن والحساب والجغرافية. وحين بلغ التاسعة، دخل المدرسة الكاثوليكية في حاصبيا، وتعلم مبادئ اللغة الفرنسية. وبعد ذلك بعام واحد، كان لا بد له من أن يغادر حاصبيا، مع عائلته، وذلك بسبب أن الأب الذي كان يعمل كموظف في الدائرة المالية في سوريا، قد انتقل عمله إلى مدينة بعلبك.

عاش مصطفى في مدينته الجديدة سنة واحدة فقط، ودخل أثناءها مدرسة «المطران» لينتقل بعدها إلى زحلة مركز قضاء البقاع. وهناك التحق بمدرسة الموارنة، وقضى فيها سنة دراسية، ومع انتهائها، انتقل إلى دمشق عام 1905، ودخل المدرسة البطريركية الكاثوليكية، فدرس فيها سنتين، تعلم خلالهما العربية والفرنسية ومبادئ العلوم العصرية. وهكذا، فقد تعلم الشهابي الفرنسية صغيراً، تلك اللغة التي أعانته في تحصيله أيام شبابه، وساعدته كي يتابع تخصصه في فرنسا، ثم جعلته يتفرغ في كهولته للكتابة والتأليف.

اختار الشهابي طريق العلم، فغادر بلاد الشام، وهو ابن الرابعة عشرة، وسافر إلى الآستانة لمدة سنتين، التحق خلالهما بمدرسة إعدادية فرنسية، في حي (قوم قبو). وهناك، ومع دخوله أجواء جديدة، فتح ابن الرابعة عشرة عينيه على أفكار مختلفة، جعلته يغير نظرته ورؤيته للحياة. ومع انتهاء السنتين، عاد برفقة أخيه الأمير عارف الشهابي إلى دمشق، والتحق بمكتب عنبر، الذي كان آنذاك المدرسة السلطانية الأولى في سورية. ولم يلبث في مكتب عنبر سوى سنة واحدة، يقول عنها بعد زمن: «أتذكر أني درست سنة واحدة في المدرسة الثانوية الحكومية بدمشق، وهي سنة (1909)، فكان مدرس العربية رجلاً تركياً، شدا شيئاً من لساننا، وهو لا يفرق بين المذكر والمؤنث، ويتكلم العربية بلهجة تركية سقيمة، وكان يدرسنا لساننا بكتاب تركي لتعليم اللغة العربية».

أدرك الشهابي صغيراً، أن السلطنة العثمانية، تحاول تتريك اللغة العربية، عبر مجموعة من الوسائل والإجراءات، وهي تحاذر افتتاح مدارس تدرس باللغة العربية، وشعر باكراً بمدى الخطورة التي تتربص بلغتنا العربية.

في عام 1910، وكان الشهابي آنذاك في السابعة عشرة من عمره، أسست جمعية في دمشق، من كبار رجال العلم والفكر، وسميت «جمعية البعثات العلمية»، فاختارت لدراسة العلوم الزراعية ثلاثة من الطلاب المميزين، هم: الأمير مصطفى الشهابي، وعز الدين التنوخي، وعبد الغني الشهبندر. وبعد اختيارهم، أرسلتهم الجمعية إلى فرنسا، ليلتحقوا بالمدرسة المهنية في مدينة (شالون سور سون). وحصلوا بعد سنة على شهادة الدروس الابتدائية العليا، وتابعوا فيما بعد في مدرسة (غرينيون) الزراعية العليا.

قضى الأمير مصطفى الشهابي ثلاث سنوات في تلك المدرسة، وتخرج منها وهو في الحادية والعشرين من عمره، بشهادة مهندس زراعي عام 1914. عاد بعدها إلى الآستانة، وتقدم إلى فحص شهادة التعادل العثمانية، أسوة بخريجي المدارس الطبية والحقوقية الأجنبية، ونجح في الفحص، وصار بعدها مؤهلاً لاستلام المناصب الحكومية. وفي هذه السنة، نشبت الحرب العالمية الأولى، فالتحق مصطفى بالجيش العثماني، وانتسب إلى المدرسة الحربية باستنبول، ثم التحق بمدرسة البرق والهاتف، وتخرج برتبة وكيل ضابط. وفي عام 1916 انتقل إلى دمشق، حيث تم تعيينه قائداً لكتيبة زراعية.

كانت السلطنة العثمانية تلفظ أنفاسها الأخيرة، في عام 1918، وكانت قد خرجت منهكة من الحرب العالمية الأولى وخائرة القوى. وفي هذه الأثناء، عين الشهابي مديراً لزراعة الجيش بدمشق. وخلال أشهر، وبعد أن قامت الحكومة العربية، ونصب فيصل ملكاً على سورية، بدأ الشهابي حياته الحكومية، فاختير لمنصب مدير الزراعة والحراج لمدة خمس سنين (من 1918 وحتى 1923). ومن ثم بقي أحد عشر عاماً مديراً لأملاك الدولة، وذلك منذ عام 1923 وحتى عام 1934. ثم تسلم منصب مدير الاقتصاد الوطني عام 1935. ولحسن أدائه الحكومي، تسلم وزارة المعارف عام 1936. وفي هذه السنة، وبسبب الإضراب الذي عم دمشق والمدن السورية، عمل المفوض السامي دومارتل، على دعوة رجال الكتلة الوطنية لعقد اتفاق بين السيد هاشم الأتاسي من الجانب السوري، ودومارتل عن الجانب الفرنسي. وفي هذا الاتفاق اعترفت فرنسا لأول مرة باستقلال سورية ووحدتها، على أن تحدد علاقاتهما فيما بعد بمعاهدة يقوم بالمفاوضة من أجلها وفد سوري يتوجه إلى باريس لعقدها مع الحكومة الفرنسية مباشرة.وبالفعل فقد سافر الوفد السوري إلى باريس، وقد تألف من: هاشم الأتاسي، وفارس الخوري، وجميل مردم بك، وسعد الله الجابري، وهم من رجالات الكتلة الوطنية، والسيدين الأمير مصطفى الشهابي، وأدمون الحمصي من الوزراء.

وقضى الأمير مع الوفد ستة أشهر في باريس، ليعود بعدها إلى عمله في وزارة المعارف. ومن ثم عين محافظاً لمدينة حلب حتى عام 1939. وبعد أربع سنوات،

اسندت إليه وزارة الدولة للمالية والاقتصاد الوطني، لينتقل بعدها، ويصبح محافظاً للاذقية، ثم أميناً عاماً لرئاسة مجلس الوزراء عام 1943.

بعد استقلال سورية، وبداية الحكم الوطني وخروج الفرنسيين، عين الشهابي محافظاً لحلب مرة ثانية لمدة سنتين، ثم محافظاً للاذقية للمرة الثانية أيضاً، ولمدة سنتين. وأسندت إليه وزارة العدل عام 1949. وفي بداية عام 1951، وحتى عام 1954، تسلم منصب وزير مفوض، ثم سفيراً لسورية في مصر.

على الرغم من انشغال الأمير الشهابي بالعمل الحكومي ونجاحه فيه، فإنه لم يكن بعيداً عن ساحة العلم ورجالها. ومنذ عام 1926، انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق، وفي عام 1956 انتخب نائباً لرئيس المجمع خليل مردم بك، وتحول إلى رئاسة المجمع عام 1959، وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي عام 1968.

❖ ❖ ❖

اعترف كل من عاش مع الأمير، أنه أحد أكبر رجال العلم والفكر في البلاد العربية، وأحد الداعين لاستقلال البلاد العربية، والمناضلين من أجل وحدتها ومنعتها. وقد نال لجهوده هذه عدة أوسمة، منها: الوشاح الأكبر مع الرصيعة لوسام النيل في مصر.

كان الأمير باحثاً نشيطاً، لم يتوقف قلمه لحظة واحدة، وتجلى هذا النشاط بنشر الأبحاث العلمية وإلقاء المحاضرات. وظهر في طليعة الذين دأبوا على تعريب المصطلحات لإدخالها في مجالات العلوم الحديثة، بعدما وجد أن ألوف الكلمات الأعجمية العلمية تحتاج إلى ما يقابلها في اللغة العربية، فاستخدم كلمات عربية قديمة غير مستعملة، وقديمة منقولة بطريق المجاز، وأخرى حديثة مشتقة بحسب طرائق الاشتقاق في اللغة العربية.

أولع الأمير منذ بداية حياته بالقراءة، ومن ثم بالتأليف والبحث، وحاول جاهداً، رغم انشغالاته الكثيرة، أن يبقى على تواصل حثيث مع ما تنتجه العقول، وقد قال مرة: «إذا عاش المرء عيشة منتظمة، استطاع أن يطالع أو يؤلف بمعدل ساعة أو ساعتين في كل يوم، مهما تكن مهنته المعاشية شاقة». وخلال تسلمه المناصب الحكومية، استطاع أن يجد الوقت ليتابع مستجدات اختصاصه في

الزراعة، ويتعمق به، فكان يتقصى المؤلفات الزراعية الحديثة، ليدرس جديدها وتطورات هذا العلم، فيزيد من معرفته وتجاربه. وبعد ذلك، كان يطبق معارفه تطبيقاً عملياً على أرض الواقع، ويعود ليدرس نتائج هذا التطبيق، ليعتمد الإيجابيات فيه وينحي السلبيات، حتى أصبح من أكبر علماء الزراعة في بلاد الشام.

ألّف الشهابي كتاب «الزراعة العلمية الحديثة» عام 1922، وقد ضم مجموعة الدروس التي ألقاها في مدرسة الغوطة الزراعية، ولخص في هذه الدروس فن الزراعة العامة والخاصة، مع تطبيقاته العلمية في البلاد السورية. وقال الشهابي في مقدمة كتابه هذا: «عرفت أسس الزراعة في أزمنة واغلة في القدم، أي منذ صار الإنسان قادراً على إدراك معالم الطبيعة وتمييز بعضها عن بعض. لقد بدأ يقتات بما يصطاده من الحيوان، وبما يعثر عليه من خضار وثمار، ثم صار يميز صالح النبات عن ضاره، فيلتقط الأول ويطرح الثاني». ثم يتابع الشهابي بعد هذه اللمحة التاريخية، سرد تاريخ الزراعة قديمها وحديثها، فيتحدث عن الأساطير والمعتقدات القديمة، وعن بعض الشعوب التي تقدس الزراعة، وتعزوها إلى آلهة تحميها وتحث الناس على احترافها. وينهي الأمير مقدمة كتابه مبجلاً الجهود والتجارب الدقيقة التي قام بها علماء الزراعة في مختلف العلوم الزراعية في سبيل تقدم البشرية.

أما أبحاث هذا الكتاب، فتنوعت بين تكوّن الأتربة الزراعية وخواص التربة الطبيعية والكيميائية، والمصطلحات والأسمدة بأنواعها، والدورة الزراعية، وزراعة الأرض البعلية.

عمل الشهابي على المصطلح العلمي، وتميز بحرصه على البحث الدقيق والتنقيب العميق، لإبراز المصطلحات العلمية، ذلك أن ألوف الكلمات الأعجمية، يجب الإفادة منها، لجعل لغتنا العربية صالحة للتعليم العالي، ولتلبية حاجات العصر. وقد قال الشهابي، وهو غارق في البحث والتمحيص: «قال أحد النحاة: أموت وفي نفسي شيء من (حتى)، فأنا أقول: أموت وفي نفسي شيء من الألفاظ العربية التي يجب استعمالها في تصنيف الحيوان والنبات». ووجد أنه لا يمكن أن يترك وضع المصطلحات مشتتاً في أي علم من العلوم، وفي أي فن من الفنون، إذ لا بد من ضوابط علمية له وتوحيده.

أصر الأمير على الاتفاق على ألفاظ عربية ثابتة، تترجم بها الأسماء الأجنبية التي تم وضعها، ولا يجوز أن يأتي كل مؤلف جديد بألفاظ جديدة «فقد كفانا اليوم تعدد الألفاظ للمعنى الواحد، ولا أخالنا ناجين من هذه الفوضى، ومن فوضى ترجمة المصطلحات العلمية عامة، حتى يبادر أهل العلم والفنون واللغة إلا الاتفاق على ذلك».

أمام هذه الفوضى، ماذا يمكن للأمير أن يفعل؟

لقد رأى أن علماء الغرب نهضوا بكل حماسة من أجل إبداع آلاف من المصطلحات الجديدة، ضموها إلى لغاتهم، أو إلى اللغة العلمية، في حين أن لغتنا خلو منها، أو من معظمها. ورداً على هذا التقصير، وإخلاصاً للعلم الذي رهن نفسه وسخر جهده له، انكب على التأليف في المصطلحات العلمية الزراعية، وكان واثقاً من نفسه أثناء خوضه لهذا العمل، لأنه متقن لعلوم الزراعة وضليع في اللغة العربية، وأيضاً كان عارفاً جيداً للغة الفرنسية.

جاء كتابه «معجم الألفاظ الزراعية» أول كتاب عربي في هذا المجال، وكان ذلك عام 1943، واعتبر فتحاً في المصطلحات الزراعية. وكان هذا الكتاب ثمرة جهد متواصل، بدأه عام 1923، وأخرجه للنور بعد عشرين سنة من التنقيح والتهذيب والمراجعة. تضمن الكتاب تسعة آلاف لفظ فرنسي أو علمي في الزراعة والعلوم المتصلة بها، وجعل إزاءها ما يقابلها بالعربية، منها ثلاثة آلاف كلمة عربية على الأقل من وضعه وتحقيقه، لم يسبقه أحد إليها من أصحاب المعاجم الأعجمية العربية.

لكي يكون المعجم بشكله الأكمل، وليستحق أن يكون مرجعاً للمؤلفين والكتاب العرب، استمر الأمير في تدقيقه ومراجعته واستدراك بعض مصطلحاته، وأعاد إصداره في طبعة منقحة ومزيدة عام 1957، اشتملت على عشرة آلاف كلمة، ليصبح أهم معجم عربي متخصص.

وقد مدح الشاعر خليل مطران الأمير الشهابي على الفائدة التي قدمها للغة العربية قائلاً:

يا أميراً أهدى إلى لغة الضاد كنوزاً من علمه وَبَيَانِه

ذلك المعجم الزراعي قد كان رجاء حققته في أوانه

عمل لا يكاد يقضيه إلا مجمع بالكثير من أعوانه

وليس هذا المعجم وليد جهد عادي، بل إن واضعه أرهق نفسه في التمحيص بالمصطلحات العلمية العربية لينتقي صحيحها أو أرجحها، ونظر في الكلمات العامية لاستخدام ما يفيد منها. وسار في هذا كله، على منهجية قائمة على طرق وقواعد خاصة بوضع المصطلحات، مستنداً، وبشكل أمين، على القرارات والآراء التي صدرت عن مجمع اللغة العربية في القاهرة والمجمع العلمي بدمشق، وعن لجنة المصطلحات العلمية في كلية الطب في الجامعة السورية.

إلا أن الشهابي لم يكن راضياً تماماً عن إنجازه، فلقد وضع نصب عينيه، تأليف معجم متعدد اللغات (الإنكليزية والفرنسية والعربية) خاص بالعلوم الزراعية، مع تعريف ألفاظه، وظل إلى آخر حياته يبحث وينقب ويخطط لما يجب أن يكون عليه هذا المعجم. ومن أجل هذا، عاد الشهابي إلى المصادر العربية والأجنبية، وما ترجم منها عن الفرنسية والإنكليزية والتركية، المخطوطة والمطبوعة. ولكن عاجلته المنية، ورحلت معه كل أحلامه، دون أن يهم الباحثون ويتابعوا ما قد بدأ هذا الرجل العلامة. وحين صدر (معجم مصطلحات علم النبات)، بدعم عدة مؤسسات وبتضافر جهود كبيرة من علماء ومختصين، بعد عشر سنوات من رحيل الشهابي، كانت الكارثة كبيرة والنتيجة مخزية، إذ تساءل بعض المختصين بهذا العلم عن الهدف من إعداد هذا المعجم الجديد. حتى إن أحدهم صرخ بغضب: «ما صلة هؤلاء بعلم النبات؟ وما هي معرفتهم بالتراث العلمي العربي في علم النبات؟». وجاء هذا المعجم الجديد، ليثبت أن الجهد الذي قام به الأمير منفرداً، أعظم بكثير ومن دون مقارنة، بالجهد الجماعي المؤسساتي، وبرهن على مدى الضعف في التحقيق العلمي.

لم ينطلق الشهابي في عمله من رغبة مجانية في وضع معجم جديد، خاص بالمصطلحات العلمية الزراعية، وإنما وضع قواعد لهذا الموضوع الشائك، وأكد أنه على كل من يريد خوض هذا الغمار أن يتعلمها، قبل أن ينطلق في بحثه. رفض

الشـهابي أن يطلـق أي باحـث آراءه في أصـول كلمـة مـا، ويجـزم أن هـذه الكلمـة الأجنبية أو تلك، هـي مـن أصـل عربـي، أو أن هـذه الكلمـة العربيـة أو تلـك هـي مـن أصل أجنبي، لأن إطـلاق الـرأي بهذا التعسـف، وفي هـذه الموضـوعات المهمـة، يسـيء للغتنا العربية، ويجعلنا صغاراً في أعين علماء الغـرب والأجانـب عامـة. ولـذلك فهـو يقـول محـذراً: «الأسـمـاء الفرنسـية والعلميـة الـتي أتكلـم عليهـا هـي عربيـة، لا لأنهـا تشـبه الأسمـاء العربيـة فحسـب، بـل لأن الثقـات مـن علمـاء النبـات وعلمـاء أصـول الكلم الفرنسية، قد جزموا أنها من أصـل عربـي، وهـؤلاء العلمـاء لا يجزمـون أمـوراً كهذه، إلا بعد مراجعة المستندات المقنعة التي تبين واضع الاسم، وتـاريخ وضـعه لـه، وجريان ذلك الاسم على الألسنة، والتبدلات التي تكون قد طرأت عليه».

اهتم الأمير الشهابي، بإدخال الألفاظ المولَّدة في معجمـه، وهـي الألفـاظ الـتي لم تـذكرها المعـاجم، أو ذكـرت بعضـها وخصـته بقولهـا: إنـه لفـظ مولَّـد أو عـامي، وبقولهـا: هـذه لغـة مصـرية أو شـامية أو غيرهمـا. وهـذه الألفـاظ المولَّـدة، كانـت بالنسبة للشهابي تحتاج إلى دراسة خاصة عميقة لمعرفة صلاحها للدخول أو عـدم الدخول في معجمه.

بحـث الشـهابي في الكتـب المتخصصـة في مجـال الزراعـة والنبـات والحيـوان وغيرها، ورصد ما فيها من الكلمات المولَّدة، وَبيَّنَ كيفية نطقها واختلافه فيما بـين الأقطار العربية، والمعاني الدلالية التي تحملها. وبهذا، فإن الشهابي قد أثـرى اللغـة العربية، وحافظ على أصولها.

وجد الشـهابي أن اسـتخدام المجـاز في مجـال المصـطلحات العلميـة، ذو أهميـة كبيرة، وهو يقول بـأن نقـل الألفـاظ مـن معناهـا الأصـلي إلى معنـى علمـي، كـان ومـا بـرح، مـن أنجـع الوسـائل في تنميـة اللغـة، وفي جعلـها صـالحة لاسـتيعاب العلـوم الحديثة. أما الاشتقاق، فهو وسيلة مـن وسـائل نمـو اللغـة العربيـة، قـديماً وحـديثاً، وهـو بـاب واسـع، فيـه مجـال لتنميـة اللغـة، ولا سـيما المصـطلحات العلميـة. ويـرى الشـهابي ألا يقتصـر الاشـتقاق علـى السـماع، مسـانداً آراء ابـن جـني وغـيره مـن العلمـاء، لكـي تظـل اللغـة العربيـة تنمـو وتتطـور. وقـد أخـذ مجمـع اللغـة العربيـة في القـاهرة بهـذا الـرأي، فأجـاز الاشـتقاق للضـرورة في لغـة العلـوم، ولم يجـزه في لغـة الأدب. ويقـول الشـهابي في هـذا الشـأن: «والاشـتقاق في العلـوم العصـرية هـو اليـوم

ضرورة بادية أمام أعيننا، فنحن في حاجة إلى أن نقول مثلاً: كَهْرَبَ من الكهرباء، ومَغْنَطَ من المغنطيس، ونشّى من النشاء، وبَستَنَ من البستنة، وغراسة من الغرس، وزهارة من الزهر، وحراجة من الحَرجَة».

❖ ❖ ❖

ردأ على الدعوات المتكررة من بعض الباحثين، بوجوب الكتابة بالحرف اللاتيني، بدعوى صعوبة الكتابة بالحرف العربي، دأب الأمير الشهابي على تكريس فكرة الكتابة بالحروف العربية، بدلاً من الاقتباس من مناهج المستشرقين المعروفة، ومن اقتراحات أعوانهم، التي تؤدي إلى تمزق الأمة العربية، وفقدانها للغتها الأصيلة، وقال بأن الفصحى هي لغتنا وستظل اللغة التي توحدنا، وإن اللهجات العامية لن يقرأها أحد.

وحرص الشهابي على أن تكون مظاهر الحياة كلها مصبوغة بالعروبة الخالصة، ومنها إبراز اللافتات والإعلانات والدعايات باللغة العربية. وطبق هذا عندما كان محافظاً لحلب عام 1936، حيث استصدر أمراً من المجلس البلدي، يقضي بأن تكون الكتابة بالعربية في جميع اللافتات والبيانات والإعلانات والقوائم، في المتاجر والمسارح ودور السينما والمقاهي، وكل مرافق الحياة العامة. وأعطى الشهابي أصحاب الأماكن العامة، ثلاثة أشهر لبدء العمل بهذا القرار. ولم تنقض الأشهر الثلاثة حتى ظهرت حلب في مظهرها العربي الذي تمناه الشهابي. وعممت هذه الخطة، فيما بعد، على دمشق والمحافظات السورية الأخرى. أما في مصر، فقد سرى مفعول هذا الأمر بعد الإطاحة بالملكية وإحلال الجمهورية.

رجع الشهابي في أبحاثه إلى كتب التراث، وتناولها بالنقد والعرض والتحليل، وإلى الأمهات من معاجم اللغة، ليبين ما فيها من نواقص وأغلاط ومعايب. وقدم عرضاً لقراءاته التحليلية في المعاجم الحديثة. ومن هذه الكتاب: كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، وكتاب الفلاحة الأندلسية ليحيى بن محمد المعروف بابن العوام الإشبيلي، وكتاب قوانين الدواوين لأبي مماتي. وكل هذه الكتب كانت تعنى بالنبات والزراعة والسقاية.

بعد اطلاعه على الكتب الزراعية الهامة، استغرق الشهابي في البحث في المعاجم اللغوية العربية، مثل «المخصص» لابن سيده، و«الصحاح» للجوهري، و«لسان العرب» لابن منظور، و«القاموس المحيط» للفيروزبادي، و«تاج العروس» للزبيدي. ووقف منها موقف العالم والناقد والباحث عما يفيده من هذا التراث. كشف عن النواقص والعيوب فيها، وحددها ببضعة نقاط، ووجد أن هذه المعاجم خالية من أسماء ألوف من النباتات والحيوانات التي لم يعرفها أجدادنا، وليس لها أسماء بلغتنا. وهي في الوقت نفسه تخلط بين أسماء المواليد في تصنيف الأحياء، عندما تكون أنواعها متقاربة، لذلك لم يفرقوا مثلاً بين الصنوبر والسرو، وبين اللوز والبندق، وبين البط والإوز. ومن عيوب المعاجم أيضاً أن تفسيرها للألفاظ بعيد عن التفسير العلمي، فالشجرة تعرف بأنها كل نبات قام على ساق، سواء أكانت ساقه هشة أم خشبية، وبذلك يجعلون الخشخاش شجرة، وكذلك القنب والخردل، وهي اليوم أعشاب حولية. هذا بالإضافة إلى كثرة الأغلاط العلمية التي تصل إلى حد الخرافات.

ولا يرى الشهابي كثير اختلاف بين معاجمنا القديمة والحديثة، التي ليست إلا صوراً صغيرة مشذبة للمعاجم القديمة، فهي قد اشتملت على معظم الأغلاط القديمة، ولم تعرف ألفاظها تعريفاً علمياً، ومصطلحاتها العلمية قليلة.

لم يتوقف الشهابي عند هذه المراجع والمعاجم فقط، بل رجع إلى الكتب والمراجع العلمية الخاصة بالزراعة وعلم النبات، التي وضعت وترجمت منذ بوادر النهضة العربية، ومنها: (مبادئ علم النبات) و(نبات سورية وفلسطين) للمستشرق الأمريكي جورج بوست، وكتاب (حسن الصنعة في علم الزراعة) للعالم المصري أحمد ندى، وكتاب (حسن البراعة في علم الزراعة) الذي ترجمه هو عن الفرنسية، وكتاب (علم النبات الزراعي) لجون برسيفال، و(كشف الرموز في بيان الأعشاب) للشيخ عبد الرزاق بن حمدوش الجزائري.

شارك الأمير الشهابي في إغناء اللغة العربية، بكثير من الألفاظ والمصطلحات، وأوجد نحو ثلاثة آلاف لفظة عربية جديدة، ليس لها أسماء في لغتنا. كل هذا، لأن الشهابي كان متمكناً من اللغة العربية، وعارفاً بمفرداتها وتطور معانيها. لم يكن

دافعه سوى حبه للغة العربية، وغيرته على وحدة البلاد العربية، وهو كما يقول: «إن هذا الحب بلغ فينا مبلغ العشق لها، بل مبلغ الشغف بها».

قال فيه عبد الغني العطري: «كان الأمير مصطفى الشهابي، من أكثر الرجال ثقافة، ومن أغزرهم اطلاعاً على العلوم الحديثة، والقديمة، ومن أكثرهم خبرة في شؤون الحكم والدولة، وكان مطبوعاً على حب الأدب بشتى ألوانه. قرأ كتب الأدب العربي القديم قراءة درس وفهم، وتابع مسيرة الأدب الحديث من أوائل القرن العشرين، واطلع على آثار كبار الأدباء الفرنسيين، وتثقف بما حوته من أفكار وآراء مختلفة الأشكال والاتجاهات. ومن هنا استطاع أن يجمع بين الثقافتين العربية والغربية».

ذكر عن الشهابي أنه كان شاعراً شفيفاً، محسناً لشؤون نظم الشعر. وهنا مساجلة رائعة، جرت بينه وبين الشاعر الكبير بدوي الجبل، حيث كتب الأمير مصطفى الشهابي إلى الشاعر بدوي الجبل، قائلاً:

أيا شاعر العرب الذي سار شعره ... يدوي فلا يثنيه بر ولا بحر
تذكر بثغر اللاذقية صاحباً ... إذا دب فيه اليأس أنعشه الذكر

فرد عليه بدوي الجبل:

أمير الندى والأريحية والعلى ... أحب من النعمى شمائلك الغر
بيانك لا عطر الجنان وسحرها ... وطبعك لا الشهد المصفى ولا الخمر

توفي الأمير مصطفى الشهابي في دمشق عام 1968، وبعد عشر سنوات أصدرت دار المعاجم كتاب (مصطلحات العلوم الزراعية) وهو معجم إنكليزي عربي مع مسرد إنكليزي عربي، وكان بإشراف الأستاذ أحمد الخطيب، وذلك سنة 1978.

أقام له مجمع اللغة العربية بالقاهرة حفلاً تأبينياً كبيراً، وأصدر د. عدنان الخطيب كتاباً بعد سنة على وفاته، وأهداه إليه، ورصعه بكلمات مؤثرة، منها: «إلى روح فقيد الأمة العربية الأمير مصطفى الشهابي، يوم كنت سيدي في الذروة من مجمع اللغة العربية مفخرة دمشق الخالدة».

رحل الأمير وفي نفسه شيء من الألفاظ العربية التي يجب استعمالها، ولكنه لم يقصر في الدفاع عن اللغة التي كان يعظمها ويعتبرها سيدة اللغات، والتي أوصى أن ينقش على قبره بيت الشعر التالي، الذي نظمه من أجلها :

أم اللغات قضيتُ العمر أخدمها ... فهي الشفيعة في غفران زلاتي

عقبة زيدان

مؤلفاته

- كتاب الأشجار والأنجم المثمرة، تناول فيه بحث ثلاثين نوعاً من الأشجار.
- كتاب البقول، ذكر فيه أهم الخضراوات في بلاد الشام.
- كتاب مسك الدفاتر الزراعية بالطريقة البسيطة.
- كتاب الدواجن في: الخيل والبغال والحمير والبقر والجواميس والضأن والمعز والإبل.
- الشهابيات: وهي مجموعة المحاضرات التي ألقاها في مجمع اللغة العربية بدمشق.
- كتاب الزراعة العلمية الحديثة.
- المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث. ويضم محاضرات ألقاها الأمير على طلاب قسم الدراسات الأدبية واللغوية في معهد الدراسات العليا بالقاهرة.
- معجم الألفاظ الزراعية، باللغتين الفرنسية والعربية.
- معجم المصطلحات الحراجية (إنكليزي - فرنسي - عربي) وقد تم نقلها عن الترجمة الفرنسية المعتمدة من منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة (الفاو).
- ألفاظ الأنواع النباتية باللغتين العربية والفرنسية.
- معجم مصطلحات العلوم الزراعية، إنكليزي - عربي، مع مسرد إنكليزي - عربي، وقد طبع بعد وفاته بعشر سنوات.

سعد الله الجابري

الفارس النبيل

(1894-1947)

في إحدى جلسات محاكمة الزعيم إبراهيم هنانو، سأل رئيسها الزعيم هنانو: إنك تزعم بأنك تقاتل فرنسا باسم الشعب السوري، فهل يمكنك أن تأتيني بشخص سوري واحد كلفك هذه المهمة..؟

سيطر السكون على جو المحكمة، لكن صوتاً انطلق من وسط الحضور ومزق ذلك السكون، حيث وقف شاب أنيق مهذب ليقول باللغة الفرنسية: «أنا أدعى سعد الله الجابري، من أبناء هذا البلد ومثقفيه. أنا والألوف معي كلفنا إبراهيم هنانو مقاتلة فرنسا التي دخلت بلادنا بدون حقّ، ومن حقنا أن نقاوم الاحتلال الأجنبي بقوتنا المسلحة، وإن المجرم يا سيدي الرئيس هو ذلك الذي يعتدي على سلامة الناس وحرية الشعوب، لا ذلك الذي يدافع عن استقلال بلاده، ويجابه حراب السنيغاليين في سبيل تحرير أراضي آبائه وأجداده».

ما إن فرغ الشاب من كلامه حتى دوّت قاعة المحكمة بالتصفيق؛ فغضب رئيس المحكمة ونادى بالحراس: أوقفوا كل من صفّق، ثم التفت إلى سعد الله الجابري قائلاً: تلك هي نظريتك، ولكن إبراهيم هنانو قتل وفتك و دمّر، فماذا ترى في ذلك؟ فأجاب سعد الله: لقد أعلن إبراهيم هنانو الحرب عليكم باسم الشعب السوري العربي، والقتل والفتك والتدمير نتيجة طبيعية للحرب التي خضت غمارها، فقاطعه رئيس المحكمة قائلاً: شكراً لمعلوماتك التي نحن في غنى عنها.

انتهت المحكمة بعد صراع مرير إلى براءة إبراهيم هنانو، فمضى هذا المناضل في طريق النضال السياسي والمطلبي، ومضى معه سعد الله الجابري في نفس الطريق، تجمعهما مهمة أسمى، هي تحرير سورية من الاحتلال الفرنسي.

كان الجابري إحدى الشخصيات السياسية السورية البارزة التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ السياسي الحديث لسورية؛ وتحديداً خلال فترة الانتداب الفرنسي وبداية عهد الاستقلال، وأثرت سيرته ومواقفه في العديد من الأجيال، وفي رسم مسار العمل الوطني السياسي والمطلبي ضد المستعمر الفرنسي، ونظراً لمواقفه وجرأته اعتقل وسجن عدّة مرات، ونفي عن بلده مدة من الزمن.

ولد سعد الله بن عبد القادر لطفي الجابري في حي «السويقة» بمدينة حلب عام 1894، ونشأ في كنف أسرة حلبية عريقة لها كلمتها ومواقفها، تنتمي إلى أغنى العائلات الحلبية المالكة للأراضي وأكثرها شهرة. والده الحاج عبد القادر مفتياً لمدينة حلب، تزوج مرتين وأنجب تسعة أبناء من بينهم سعد الله.

وكانت والدته حسنى ملك شركسية الأصل، عمرته بحبها وحنانها، وأكسبته أرهف الأحاسيس والمشاعر. تروي إحدى قريباته أن سعد الله عندما كان في السابعة، كانت تحتضنه أمه في أحد الأيام، فما كان من سعد الله بعد صمت طويل وهو يتأمل وجهها، سوى أن تأوه من أعماقه وقال بحسرة: «أماه ليتك كنت عربية». فقد كان يفيض بأحاسيس وطنية منذ صغره ونعومة أظفاره.

مع مرور الأيام توفي والد سعد الله، ثم توفيت والدته، فبقي وحيداً في داره، منعزلاً ومتفرغاً لقراءاته واتصالاته مع الأصدقاء الذين كان يرى فيهم بريقاً وطنياً وطموحاً لتحقيق استقلال بلاده التي كانت تئن وقتها تحت نير الاحتلال العثماني واستبداد سلاطينه.

كان سعد الله مؤمناً على الرغم من تكيفه مع عصره وولعه بأحدث الأزياء توخياً لأناقة اشتهر بها؛ حيث كان حسن الهيئة، أنيق المظهر، يفيض حيوية، ويتمتع بحساسية مرهفة. وكان مثالاً في النزاهة، إذ يذكر أحد من عايشوه أنه أعاد إلى الخزينة السورية مبلغ 6 آلاف ليرة سورية زادت عن مصروف الوفد السوري الذي ترأسه إلى الإسكندرية؛ لحضور الاجتماع التأسيسي للجامعة العربية، مع أنه في الوقت ذاته كان مريضاً، ودخل مشفى المواساة في الإسكندرية، فخرج مديوناً بحوالي 12 ألف ليرة سورية، ولم تمتد يده إلى ذلك المبلغ الفائض، وهناك روايات عديدة تتحدث عن مساعدته لمعارفه وأصدقائه المحتاجين أو الذين وقعوا في ضائقة ما.

لم يتزوج سعد الله الجابري، فقد كان عليه أن يفاضل أو يوازن في شعوره، ولا شعوره بين إعطاء كيانه وحياته إلى وطن وشعب، أو إلى أسرة وأولاد؛ وغلبه همّ الوطن وحبه عن أمور وأهواء الشباب من لهو ومجون ونساء، بل وعن جني وتوفير المال، حيث كان كساباً وهاباً، صرف أكثر الأموال التي ورثها عن أسرته على قضايا الوطن.

وكما هو الحال فإن سعد الله ولد في أحضان القلق الاجتماعي والاضطراب النفسي، ووسط آلام ومعاناة شعبه، وشبّ على اجتماعات واتصالات كانت تقوم بها عائلته مع شخصيات حلبية وسورية، لاسيما أخوه الأكبر فاخر الجابري؛ إذ كان يجتمع مع رجالات حلب في داره بالأنصاري أو في «قناق» الشيخ عبد الحميد الجابري في السويقة، حيث كان «الليوان» يضم العديد من الشخصيات الوطنية، كذلك فإن سفر وتنقلات أخيه الكبير إحسان الجابري مع بعض رجالات السياسة من أجل قضية الوطن، قد نمّت وأغنت مشاعره الوطنية.

تلقى سعد الله تعليمه في مدرسة الرشدية الثانوية، وكرّس جهوده في دراسته حتى استطاع أن يكون من بين البارزين والمتفوقين، وحين أنهى دراسته الثانوية في حلب، استقدمه أخوه إحسان الجابري إلى إستانبول؛ لمتابعة دراسة الحقوق في الكلية الملكية السلطانية، ومضى في دراسته مشغولاً بالجد وبهمّ الوطن. وقد وصفه زميله في الدراسة وصديقه العراقي توفيق السويدي: «عرفته عام 1910 وكان شاباً يلتهب حماسة ويتدفق فطنة، كان يميل إلى الدعابة ويستطلف النكتة، ولكنه كان منصرفاً بكلّيته إلى الدرس والمطالعة، وشغوفاً بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان ميالاً إلى التجديد في الاجتماع والسياسة والاقتصاد، وعلى قدر عظيم من الكياسة رغم صغر سنه، كما كان طموحاً إلى العلا، فكأنه أدرك منذ صغره أنه مدعوّ لتحمل عبء عظيم في سبيل وطنه».

تمكن سعد الله الجابري وهو يدرس في إستنبول من أن يراقب بعين بصيرة وعن كثب ما يدور في أجواء السياسة التركية؛ واتصل بالشباب العربي فيها، وأسس معهم جمعية (الفتاة)، حيث أقسموا اليمين للعمل على استقلال البلاد العربية. وفي عام 1913 كان أخوه إحسان يحضر مؤتمر باريس.

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى عاد سعد الله إلى إستانبول، حيث جُند في الجيش العثماني برتبة (كجك ضابط)، وعُين مراقباً على الأرزاق وقوافلها في بلدة (أرض الروم). وقضى سعد الله طيلة فترة الحرب هناك، بعيداً عن الوطن، وكان يرى أن الإنسان لن تكون له قيمة حقيقية وهو بعيد عن الوطن؛ ذلك أن قيمته الحقيقة لا تتجسد بوصفه شخصية إنسانية إلا من خلال كفاحه كي يكون أهلاً لخلق حميد ومزايا حسنة.

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى عاد سعد الله إلى حلب، ودخل في حركة حقوق الإنسان، وأُنتخب مندوباً إلى المؤتمر السوري عن مدينته، وحين قامت الثورات عام 1919 على أثر نيّة الحلفاء تقسيم البلاد العربية ودخول الفرنسيين سوريا؛ كان سعد الله الجابري على اتصال بزعيم الثورة في الشمال؛ يؤيد ثورته ويدعمه، لكنه هرب إلى مصر في إثر الاحتلال الفرنسي لسورية؛ ثم عاد إليها في أوائل سنة 1921 ليدعم ثورة هنانو، وقام بدور كبير لتهيئة جو التلاحم في المدن والبلدات السورية مع ثورة إبراهيم هنانو؛ حيث تلاحمت ثورة هنانو والشيخ صالح العلي في اجتماع (مرعيان) في شباط 1920، كما جدد اتصاله بمن كان معه في الكلية السلطانية، مثل شكري القوتلي وغيره من الرموز الوطنية.

كان الجو العام الذي نشأ فيه سعد الله الجابري يشهد تشكيل جمعيات عربية في إستانبول وباريس والقاهرة وبغداد وبيروت ودمشق وحلب؛ تدعو جميعها إلى نهضة العرب، وتطالب الأتراك بالاعتراف بالقومية العربية، الأمر الذي جعل الأتراك يلجؤون إلى استعمال القمع والاستبداد لمواجهة تلك الدعوات. وكان حزب تركيا الفتاة قد بدأ بعملية تتريك عناصر السلطة العثمانية؛ لكن العرب ردّوا على ذلك بتكوين الجمعيات السرية؛ وعقدوا أول مؤتمر عربي، دعي: (العرب الأحرار)، خارج مناطق السلطنة، وبالتحديد في باريس يوم 17 حزيران عام 1913، وأُتخذت فيه قرارات تدعو إلى ضمان الحقوق السياسية للعرب وإلى إقامة نظام حكم لا مركزي في الولايات العربية.

أما المناخ الفكري الذي رافق نشأة الجابري، فقد شهد صدور عدة كتب، تُظهر الناحية السياسية للحركة العربية، وترد على استبداد السلاطين الأتراك، فصدر في هذا الخصوص كتاب (أم القرى) لعبد الرحمن الكواكبي الذي تكنى

بالفراتي خوفاً من بطش السلاطين؛ وطبعه في مصر، وكذلك طبع كتابه الهامّ (طبائع الاستبداد)، وكتاب (يقظة الأمة العربية) لصاحبه نجيب عازوري الذي صدر في باريس عام 1905.

لاشك في أن تاريخ سوريا الحديث مقرون بنضال هؤلاء الزعماء وعملهم الدؤوب في الشأن العام؛ وحينما انتهت ثورة الزعيم هنانو حوالي 1921/7/12، فإن هنانو لجأ إلى الأردن في رحلة شاقة وطويلة خوفاً من بطش الفرنسيين؛ وذهب إلى القدس رغم نصح أصدقائه بعدم الذهاب، ذلك أن الإنكليز غدروا به وسلموه إلى الفرنسيين، رغم كل الأعراف والقوانين الدولية التي ترفض ذلك، فنقله الفرنسيون إلى حلب وحاكموه أمام المجلس العرفي العسكري، متهمين هنانو بجرائم عادية مثل السلب والنهب وقطع الطرق والقتل، وبدأت محاكمته في 1922/5/15.

وكانت محاكمة هنانو رهيبة، إذ كان العسكر الفرنسيون هم الخصوم والحكام. وكان سعد الله الجابري لا يغيب جلسة واحدة عن تلك المحاكمة العلنية؛ بينما كان أخوه محمد فاخر قد استدعى كشاهد دفاع مع غيره من الوطنيين السوريين.

كان سعد الله من أشد المدافعين عن وحدة سوريا أرضاً وشعباً؛ ووقف بحزم ضد سياسة المستعمر الرامية إلى تجزئة سوريا إلى عدة دويلات صغيرة على أساس طائفي ومناطقي. وفي 22 حزيران أعلن مجلس الاتحاد الوحدة التامة لسورية بناء على تقرير فاخر الجابري؛ كما أعلن عن المجلس التأسيسي. وينقل باتريك سيل في كتابه (The Arab Countries) عن سعد الله قوله: «إن تجزئة سوريا، تتعارض مع بنيتها السياسية والطبيعية والجغرافية، وقد كانت التجزئة نتيجة لتحالف قوى أجنبية، تمت بشكل سري وعلني وفرضت على الشعب السوري بالقوة». ويذكر سعد الله في مذكراته: «أنّ هناك عوامل أساسية تعمل للوحدة في هذه المنطقة؛ بغض النظر عن طبيعة أو شكل هذه الوحدة وأن هذه الوحدة هي الهدف الذي بحثنا عنه في الماضي... يجب علينا إعادة المساومة ومحاولة اقتناع كل منا بالآخر. ومع دمشق كعاصمة، والنظام الجمهوري كأساس، فإننا نصرّ على الوحدة، ولكننا نترك شكل اختيار الوحدة للمواطنين».

ومع نمو المقاومة وتصاعد حركة الاحتجاجات بدأ المستعمر الفرنسي يتراجع شيئاً فشيئاً، وأسهم في تراجعه العديد من العوامل الداخلية والخارجية؛ فإضافة إلى المقاومة وحركة الاحتجاج بدأت تنمو ظاهرة التحرر الوطني والقومي في سورية؛ فضلاً عن اشتداد الصراع الإقليمي والدولي المتعدد المصالح والاتجاهات بين بريطانيا وفرنسا؛ والذي شكّل محوراً لصراع أساسي، يشتدّ أحياناً ويهدأ أحياناً أخرى، وهو صراع ينهض على توسيع مناطق النفوذ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى؛ فضلاً عن دخول الولايات المتحدة الأميركية وألمانيا على خط الصراع في الفترة ما بين الحربين.

هذه العوامل الداخلية والإقليمية والدولية مجتمعة جعلت الحكومة الفرنسية تضطر لمنح بعض الحريات النسبية في سوريا؛ فسمحت بدءاً من عام 1925 بتشكيل جمعية تأسيسية، وكذلك دستور أساسي، ولكن بشرط أن يتم تشكيل أحزاب تشرف على تنظيم الحياة السياسية في البلاد.

وقد استغلت الشخصيات السياسية الوطنية هذه الفرصة، وبدأت بالفعل العمل على تشكيل حزبين رئيسيين، كان عمادهما البورجوازيين والارستقراطيين الدمشقيين والحلبيين، هما حزب الشعب والكتلة الوطنية.

وفي إثر ذلك تشكلت حكومة برئاسة الشيخ تاج الدين الحَسَني، جعلت من أولى مهامها القيام بإجراء انتخابات مجلس تأسيسي، يقوم هو الآخر بإعداد وإصدار الدستور الذي يجب على أساسه أن تحكم البلاد. وبالفعل جرت انتخابات في يومي 10 و24 نيسان 1928، فاز بها مرشحو الكتلة الوطنية ومرشحو الفئات الوطنية الأخرى في أكثر المناطق والمدن؛ وعقد هذا المجلس أولى جلساته يوم 1928/6/9 فترأسها أكبر الأعضاء سناً وهو الحاج محمد أفندي أضه لي؛ وعضوية أصغر عضوين سناً، هما نقولا جانجي وسعيد الغزي، وقد جرى في هذه الجلسة انتخاب مكتب المجلس، حيث فاز برئاسة المجلس السيد هاشم الأتاسي إذ نال 48 صوتاً؛ ونال منافسه السيد محمد بك يحيى 18 صوتاً من أصل 67 مقترعاً؛ وفاز بنيابة الرئيس كل من السيدين: فوزي الغزي إذ نال 43 صوتاً، وفتح الله آسيون الذي نال 37 صوتاً من أصل المقترعين ذاتهم. كما فاز بأمانة السر كل من السيد فائز الخوري الذي نال 47 صوتاً والسيد أحمد الرفاعي الذي نال 48 صوتاً؛ هذا

وقد فاز السادة سعد الله الجابري بـ (57 صوتاً)، ونقولا جانجي بـ (52 صوتاً)، وفخري البارودي (49 صوتاً) كمراقبين. وتابع هذا المجلس أعماله الاعتيادية، ومنها تشكيل لجنة وضع الدستور طيلة شهري حزيران وتموز، حتى جاءت الجلستان الثانية عشرة والثالثة عشرة اللتان خصصتا لتلاوة مشروع الدستور الذي أعدته لجنة من 115 مادة؛ ثم الجلسة الرابعة عشرة التي حضرها أمين السر العام السيد (موغرا) مع ترجمانه الخاص والتي عُقدت في 1928/6/9 لمتابعة مناقشة مواد الدستور.

بالمقابل فقد كان سعد الله الجابري وجماعته يوالون الاجتماعات والاحتجاجات؛ ورفع المذكرات لجمعية الأمم يشكون فيها الفرنسيين، وحين أعلنت السلطة الفرنسية استعدادها لإقامة حكم دستوري في البلاد؛ كان الوطنيون قد قرروا في مؤتمرهم الدخول في الانتخابات؛ ولما أُنتخبَ إبراهيم هنانو وسعد الله الجابري لأول مجلس تأسيسي؛ رأى الفرنسيون أن هذا المجلس لا يمكن أن يخدم مصالحهم، لذا عمدوا إلى إلغائه، فعاد الوطنيون إلى النضال، وقامت المظاهرات والاحتجاجات وأُعتقل الجابري، وبعدما أُفرج عنه تنادى الوطنيون لوضع ميثاق الكتلة الوطنية ونظامها الأساسي، فكان هاشم الأتاسي رئيساً وإبراهيم هنانو والجابري نائبين للرئيس؛ وفي اجتماع خاص في حلب، أعلن سعد الله الجابري أن: «الكتلة الوطنية تعلن للشعب الكريم في الداخل والساحل؛ تمسكها بحق البلاد القائم على أساس الوحدة ضمن سيادة قومية واحدة؛ وإن كل معاهدة أو مفاوضة مع فرنسا غير قائمة على هذه الأسس لا تكون جديرة بالقبول».

وعندما رفضت الكتلة الوطنية معاهدة عام 1933، قامت المظاهرات في جميع أنحاء سوريا، وجرت اعتقالات للوطنيين وكان من بينهم سعد الله الجابري، حيث صدر عليه حكم بالسجن ثمانية أشهر.

وفي 19 حزيران 1934، اشتد مرض الزعيم إبراهيم هنانو، وأصبح طريح الفراش نتيجة هزال جسمه الذي نخره مرض السل؛ فدعاه صديقه المخلص سعد الله الجابري؛ ليقيم في داره الكائنة في جبل الأنصاري بحلب؛ فذهب وأقام عنده. وفي 21 تشرين الثاني عام 1935، توفي إبراهيم هنانو، وبعد يومين شيعته جماهير حلب مع وفود المحافظات السورية وبعض جماعات البلدان العربية،

ويقوم ضريحه اليوم في منطقة (الملعب البلدي حالياً) وبجانبه ضريحا سعد الله الجابري والجندي المجهول.

لم يحضر الجابري التشييع، حيث كان في السجن، إنما حضر حفل التأبين، حيث أبّن صديقه قائلاً: «لعلكم تريدون من رفيقه الذي عاشره سنوات طوالاً؛ أن يحدثكم عن المزايا والخصائص التي قامت بنفس إبراهيم؛ فمكنته من القيام بالعمل الكبير الذي قام به. كانت من أبرز مزاياه الشجاعة المقترنة بالصبر، أما الحوادث فتمرّ به ولا تهوّله. أما الأخطار فتحدق به ولا تقلقه. أما المسؤولية فيتحملها خفيفة عليه، وإن ثقل حملها».

وبالرغم من دخول هذه الأحزاب ضمن اللعبة البرلمانية والدستورية، فإنها استمرت في متابعة نشاطاتها المناوئة للانتداب الفرنسي؛ بواسطة الاحتجاجات والمنشورات والإضرابات والمظاهرات، وكان أهمها الإضراب الخمسيني، فيما بين 1/19 و1936/3/8 والذي وجدت بعده السلطة الفرنسية نفسها مجبرة على توقيع معاهدة 1936/9/9 (والتي لم يصادق عليها مجلس النواب الفرنسي لاحقاً).

وجاء الإضراب الخمسيني رداً على اشتداد الطغيان الفرنسي في سوريا؛ الذي تجسد في إغلاق مكاتب الكتلة الوطنية، وفي اعتقالات شملت العديد من رجال حلب ودمشق وباقي المدن السورية؛ واشتد الذعر، وأضربت جميع المدن السورية، وأُلقي القبض مجدداً على الجابري، ونفي إلى (عين ديوار) في الجزيرة السورية، وهي قرية تتبع مركز المالكية (محافظة الحسكة). وتجاه ما وصلت إليه سوريا من الاضطراب، استدعى الفرنسيون الوطنيين، واتفقوا معهم على أن يرسلوا وفداً يمثل وطنيي البلاد إلى فرنسا للمفاوضة لعقد معاهدة، فكان الجابري عضواً في هذا الوفد، فصدر عفو عام عن السوريين، وأُفرج عن الوطنيين وتمت معاهدة عام 1936 م المذكورة أعلاه.

وفي إثر الاضطرابات المتوالية التي عمت جميع المدن السورية عمل المفوض السامي (دومارتل) على دعوة رجال الكتلة الوطنية لعقد اتفاق بتاريخ 1936/3/1، بين السيد هاشم الأتاسي عن الجانب السوري، ودو مارتل عن الجانب الفرنسي، وفي هذا الاتفاق اعترفت فرنسا لأول مرة باستقلال سوريا ووحدتها؛ على أن

تحدد علاقاتهما فيما بعد بمعاهدة يقوم بالمفاوضة من أجلها وفد سوري يتوجه إلى باريس لعقدها مع الحكومة الفرنسية مباشرة.

وتشكلت وزارة انتقالية برئاسة عطا الأيوبي مهمتها تعيين الوفد المفاوض لوضع المعاهدة؛ والدعوة لإجراء انتخابات نيابية في البلاد، وبالفعل فقد سافر الوفد السوري إلى باريس وهو مؤلف من السادة: هاشم الأتاسي، فارس الخوري، جميل مردم بك، وسعد الله الجابري، من رجالات الكتلة الوطنية، والسيدين الأمير مصطفى الشهابي وأدمون حمصي من الوزراء. وتمكن الوفد بعد ستة أشهر قضاها في العاصمة الفرنسية من الاتفاق على معاهدة، وعاد إلى البلاد لتصديقها من قبل مجلس النواب السوري.

عرفت سوريا أول حكومة وطنية فيها عام 1936 بعد انتخاب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية؛ وتشكلت وزارة برئاسة جميل مردم. وتولى سعد الله الجابري وزارتي الداخلية والخارجية.

وبتسلمه وزارتي الداخلية والخارجية يكون سعد الله الجابري قد عمل في كل شيء من السياسة إلى الوزارة والحكومة؛ وأراد أن يقبض على كل الأمور أملاً في تسريع الوصول إلى الاستقلال المنشود. وقد نال النجاح المطلوب في مقارعته لقوى المستعمر، وفي العمل مع رفاق دربه من الوطنيين على طريق تحرير البلاد ونيل الاستقلال، كما نجح بامتياز في وضع المعاهدة، وفي الفوز بانتخابات 1928 وانتخابات 1936. لكنه لم ينجح في وزارة الداخلية كما يجب.

يقول عبد الرحمن الكيالي عن سعد الله في كتابه «المراحل»: «إنه محدث من الطراز الأول، وسريع الانتقال، وذكي الفؤاد، وحادّ الذهن، وأنيق في الكلام، وفي اللباس، ولكنه كان يريد الاستئثار، والعمل دون مشورة». وهذا الكلام جاء على خلفية عمله المجهد في وزارتي الداخلية والخارجية؛ إذ كانت مهمته صعبة جداً في وزارة الداخلية؛ نظراً للظروف الصعبة التي أوجدها الاستعمار، والتي خلقت فئات أنانية ووصولية، ولضعف بعض النفوس التي اشتراها المستعمر، وللتفرقة والتمييز الذين غذاهما الفرنسيون. وكان على سعد الله مراقبة كل اعوجاج وانحراف عن الخط الوطني، حيث حاول تطهير دوائر الداخلية من بعض الرؤساء الميئوس من

إصلاحهم. وعانى سعد الله من ضعف السلطة التنفيذية، فأراد إلغاء الحرس السيار، كي يخفف من تسلط الفرنسيين، مقابل تسليح قوة من الدرك تكون مسؤولة عن الأمن، ولم يتمكن من ذلك، ولكنه شكّل الحرس الوطني.

أما في وزارة الخارجية، فعمل على تمثيل سوريا في الدول الأخرى، حيث أرسل بعض الأشخاص للتمرين والتهيئة، وألحقهم بسفارات فرنسا في مصر والعراق وباريس. وتسلّم صلاحيات الخارجية من الفرنسيين، وعقد اتفاقية حسن الجوار مع العراق، وهي اتفاقية كانت تعقدها فرنسا من قبل. إلى جانب ذلك تسلّم سعد الله رئاسة الوزراء بالوكالة عن جميل مردم، وترأس كذلك الكتلة الوطنية، وجميعها تحتاج إلى عمل مضن في ذلك الوقت.

وفي 1939/7/8 قام المفوض الفرنسي بوقف العمل بالدستور وبحل المجلس النيابي معلناً عودة سورية إلى الرزوح تحت وطأة الحكم العسكري الفرنسي المباشر منذ عام 1939؛ فازدادت وتيرة الاحتجاجات في سوريا من جديد. وبتعطيل الحياة الدستورية وإبعاد الوطنيين عن الحكم، زاد إمعان الفرنسيين في اضطهاد الوطنيين، فاستولوا على السلطة مباشرة وأنشأوا حكومة موالية لهم، وفي هذا الظرف وقعت حادثة جعلت سعد الله الجابري وصحبه يغادرون سوريا كلاجئين إلى العراق؛ وذلك حينما وُعد قاتل الزعيم الوطني الدكتور عبد الرحمن الشهبندر بالعفو عنه إذا اعترف أنه مدفوعاً إلى القتل من قبل رجال الكتلة الوطنية: شكري القوتلي وسعد الله الجابري وجميل مردم بك، غير أن القضاء برأهم. ولم يعد سعد الله الجابري إلى سوريا إلا حينما دخلت الجيوش البريطانية سوريا بصحبة جيش فرنسا الحرة، وفي أيلول 1941، سُمح من جديد بقيام حكومة وطنية ائتلافية من صفوف الكتلة الوطنية وحزب الشعب، وبرز خلال هذه الفترة السيد شكري القوتلي كزعيم للكتلة الوطنية.

واستمر النضال الوطني ضد الانتداب الفرنسي، واجتمع المجلس النيابي من جديد في 1943/8/17، والذي سيطرت عليه أغلبية من الكتلة الوطنية، وأُنتُخب القوتلي رئيساً للجمهورية السورية الذي كلف بدوره سعد الله الجابري بتشكيل الوزارة؛ وكان لهذا البرلمان ولهذه الحكومة ولحكومة فارس الخوري التي أتت بعدها مواقف مشرقة؛ أهمها رفض توقيع معاهدة مع فرنسا التي تتمتع فيها بامتيازات

داخل سورية: فقامت السلطات الفرنسية في 1945/5/29 بقصف دمشق للضغط على القوتلي؛ لكن الاستمرار والصمود إضافة إلى الضغوط الخارجية من بريطانيا وهيئة الأمم المتحدة؛ جعلت فرنسا تدفع ثمناً باهظاً، ما دفعها إلى الموافقة على الجلاء عن سورية في آذار 1946 وتنفيذ هذا التعهد في 1946/4/17.

وفي يوم 14 تشرين الثاني عام 1943 استقالت الوزارة التي كان يرأسها سعد الله الجابري، فشُكلت وزارة جديدة بدلاً عنها ترأّسها السيد فارس الخوري رئيس مجلس النواب؛ وبعد شغور منصبه في المجلس أُنتخب بدلاً منه سعد الله الجابري كرئيس للمجلس؛ وكأن هذين الرجلين قد تبادلا المواقع.

وقد بقي سعد الله في هذا المجلس يقوم بالأعمال المنوطة به حتى جاءت الدورة العادية الرابعة؛ وتحديداً الجلسة الثامنة عشرة، والتي كان من المفروض أن تعقد عند الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء الواقع في 29 أيار 1945، لكنها لم تنعقد لعدم توفر النصاب القانوني، وكأن المجلس وحاميته كانا على موعد مع أحداث لم تشهدها سوريا من قبل؛ ففي الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم التاسع والعشرين من أيار عام 1945 وجّه الجنرال أوليفييه روجيه إنذاراً إلى رئيس المجلس النيابي سعد الله الجابري؛ يطلب منه أن تقوم حامية البرلمان بتحية العلم الفرنسي عند إنزاله في المساء عن دار الأركان الفرنسية المواجهة للمجلس النيابي. رفض سعد الله الجابري الإنذار، وأوعز إلى قائد الدرك العام بألا تستجيب له قوات الشرطة والدرك؛ وفي الساعة الخامسة والنصف اتصل رئيس حامية البرلمان بقائد الدرك؛ ليخبره أن الفرنسيين طوقوا البرلمان بالمصفحات والدبابات. وفي الساعة السادسة والدقيقة الخمسين بدأت القوات الفرنسية والمشاة السنغال بالاعتداء على البرلمان؛ فوقعت المجزرة الوحشية بحق حامية البرلمان المكونة من 30 فرداً من الشرطة والدرك. وأُستشهد في هذا الاعتداء 28 فرداً من حامية البرلمان، ونجا من هذه المجزرة اثنان من رجال الشرطة، بعد أن قاوم أفرادها ونفذت ذخيرتهم، فقد كانوا بضعة رجال، بينما كان للمستعمر قواته وعدته وأسلحته. وضرب حماة البرلمان مثالاً في الشجاعة دفاعاً عن الكرامة وعن الوطن.

لقد كان سعد الله الجابري يعمل جاهداً طوال حياته من أجل تحرير ووحدة البلاد العربية: فقد ترأّسَ الوفد السوري في توقيع بروتوكول الإسكندرية عام

1944، ورئس وفدها في اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام؛ كما حضر إعلان إنشاء لتأسيس الجامعة العربية، ورفض ربط سوريا بأيّ اتفاق مع أية دولة أجنبية، مهما كان نوعه، فقد كان متشدداً في القضايا الوطنية، إذ رفض في اجتماع سري - في قرية قرب حلب مع المفوض البريطاني - مساعدة إنكلترا لاستقلال سوريا مقابل علاقة بين إنكلترا وسوريا . كما رفض كذلك طلب المندوب السامي الفرنسي في أن تقوم بين فرنسا وسوريا معاهدة ثقافية؛ تقوم فيها فرنسا بإنشاء مركز ثقافي في دمشق وحلب دون مقابل؛ وقال للمفوض الفرنسي: سوف تجلون دون قيد أو شرط، وبعد ذلك قد نتفاوض.

في عام 1946 بدأ المرض يهاجم جسد سعد الله الجابري؛ واشتدّ عليه أثناء آخر زيارة له إلى مصر، حيث كان هناك لحضور اجتماع مجلس الجامعة العربية؛ فبقي في الإسكندرية للعلاج والتداوي من مرض في الكبد؛ قيل إنه تشمع الكبد، وهو من الأمراض النادرة الصعبة الشفاء، يقول توفيق السويدي: «إن مرض التشمع الذي أودى بحياته، كان قد بدأ فيه من المنفى ومن حالة الحرمان التي لم يألفها؛ وهو الذي تربى وترعرع وعاش في أوساط مرفّهة».

في مصر تلقى سعد الله تعاطف شخصيات مصرية عديدة، الأمر الذي عزّ عليه وهو المدافع عن الوحدة العربية والمؤمن بأهدافها؛ وخلال فترة مرضه استقال العديد من وزراء حكومته؛ وطلب منه رئيس الجمهورية شكري القوتلي الاستقالة من رئاسة الوزارة؛ فأرسل فوراً برقية استقالته من الإسكندرية.

بعد أن مكث سعد الله عدة أشهر في مستشفى المواساة في الإسكندرية تحسنت صحته قليلاً؛ فعاد إلى سوريا، حيث وصل إلى دمشق، وبقي في فندق (أوريان بالاس) أكثر من شهرين، استقبل خلالهما الرئيس شكري القوتلي ورياض الصلح وفوزي القاوقجي؛ فيما اعتذر عن استقبال العديد من الشخصيات السياسية السورية بناء على طلب أطبّائه: حيث جاءته وفود عديدة من حلب ومن مختلف المحافظات والبلدات السورية: لكنه لم يتمكن من استقبالهم، بل أقام للجميع مراسم الشكر والامتنان.

عاد سعد الله الجابري إلى مسقط رأسه في حلب، وقضى فيها بضعة أشهر، مصارعاً المرض بين أهله وأصحابه، وانسحب من الحياة العامة قاصداً قرية (تريدم) للراحة والهدوء في وقت كانت البلاد في أمسّ الحاجة إليه، إذ كانت على موعد مع الانتخابات العامة، ولكن المرض أقعده عن الحركة.

ومع اشتداد المرض عليه جاءته بعثة طبية من مستشفى المواساة؛ كما جاءته بعثتان من دمشق وبيروت، وأجريت له عملية جراحية، وساد الظن وقتها بأن العملية قد نجحت، وربما سيتمكن من السفر إلى أميركا للاستشفاء. وفعلاً تحسنت صحته، إذ تمكن من أن يودع رئيس الجمهورية الذي زاره في دار شقيقه في حلب؛ وحُجِزَ له في إحدى الطائرات الأميركية للسفر إلى الولايات المتحدة للعلاج؛ لكن الموت خطفه في 20 حزيران 1947.

كتب باتريك سيل في كتابه (الصراع على سوريا): «تلقت الكتلة الوطنية، ضربة أخرى موجعة في 20 حزيران 1947 بوفاة سعد الله الجابري أشجع زعماء الكتلة وأكثرهم استقامة؛ وربما أن سعد الله يعتبر الرجل الأوحد الذي تجاوز نفوذه وسمعته أبعاد السنين السابقة ومحاكمات الأيام».

إنّ سيرة سعد الله الجابري تقدم مثالاً على حياة رجل ظلّ على الدوام مشغولاً في العمل السلمي والعلني؛ والاندماج بشكل عضوي في العمل في الشأن العام؛ فتفانى في خدمة وطنه، وتحمل أقسى اللحظات، ولم يدخر فيها وسعاً لرفع شأن وطنه.

عمر كوش

نجيب الريس

القبس المضيء

(1898-1952)

فجر التاسع من شباط عام 1952، استيقظ نجيب الريس، أدى الصلاة، وتلا بعضاً من آيات الذكر الحكيم كعادته، ثم تناول فطوره، ونزل لتهيئة سيارته استعداداً للسفر إلى لبنان لزيارة ولديه عامر ورياض في مدرسة برمانا الداخلية. عاد إلى الدار بعد برهة للاستماع لنشرة الأخبار، وانتظار إذن السفر، الذي وعد أن يُعطى له هذا الصباح. شعر بضيق في التنفس، فطلب من زوجته فتح النافذة ليتنشق الهواء، إلا أنَّ الموت عاجل صاحب جريدة (القبس)، عن عمر يناهز الرابعة والخمسين عاماً، بعد أن أدركته الشيخوخة دفعة واحدة، هذا الذي لم تتعبه السجون، ولا مطاردة الفرنسيين المستمرة، مطاردة لا هوادة فيها، كاتب أبلغ الافتتاحيات في الجرائد السورية، الذي لم تتمكن منه مهنة المتاعب حتى تمكن منه الموت المفاجئ. ولم تكد تصل الساعة التاسعة صباحاً حتى نعت إذاعة دمشق أحد أهم مناضلي الكلمة الحرة؛ لتفجع البلاد بانطفاء شعلة أضاءت الصحافة السورية حوالي خمسة وثلاثين عاماً.

كانت زهرة شبابه وعنفوان رجولته في حياة لم تعرف المهادنة، منذ غادر مدينته حماه عام 1918، مرتدياً قنباز الحرير، ومنتعلاً القبقاب، ليدخل دمشق من بوابة الصحافة، ويستبدل زيه التقليدي بالجاكيت والبنطال، زي اللاعبين الأساسيين على مسرح الصحافة والسياسة، في عاصمة نفضت عنها حكم الاستبداد العثماني، وأخذت تتهيأ لولادة سورية الملكيّة على يد الأمير فيصل الأول، ومع أن الحكم العربي لم يدم أكثر من سنتين، لكنه كان كافياً ليعرف السوريون طعم الاستقلال، الذي سيناضلون لاستعادته طوال أكثر من ربع قرن.

يمكن وصف فترة الحكم العربي بـ«صبة نار»، وهو وصف نستعيره من خالد العظم لدى حديثه عن أقارب له تابعوا أحداث انسحاب الجيش التركي، وتقدُّم الجيش العربي مدعوماً بجيش التحالف إلى دمشق، حين كان الشباب يتمنطقون

بالسيوف ويعلقون على أكتافهم البنادق. هذا التشبيه البليغ يجوز تعميمه على مرحلة كاملة، كان فيها الغرب يتقدم نحو الشرق حاملاً معه المبادئ الجديدة للعصر القادم، فيما يتطلع الشرق نحو الاستقلال والتحرر والنهوض من كبوة قرون طويلة؛ سرعان ما تبدت علاماتها في الصحافة، التي شهدت ازدهاراً في العهد الفيصلي، لتعيش حرية لا مثيل لها في تاريخ الصحافة السورية، فبعد الحظر الذي لقيته، والحجر الذي عانت منه زمن الحكم التركي – لاسيّما إبان الحرب العالمية الأولى – انطلقت بغزارة عام 1918 إثر دخول الجيش العربي إلى سورية.

كان اهتمام حكومة فيصل بالصحافة اهتماماً بالدعاية للفكر القومي الذي رأى فيه المناهضون المتضررون من الحكم العربي، ليس أكثر من دعاية ممولة من الإنكليز لفرض حكومة فيصل، التي بدأت مع تأسيس النادي العربي على يد الشيخ عبد القادر المقدسي، لجذب الشبيبة العربية في سورية وفلسطين، وترسيخ فكرة الوحدة بين الشام والعراق والحجاز وسائر أقطار الجزيرة؛ وبذلت الكثير من الأموال لصالح هذه الدعاية في كافة أنحاء البلاد.

عامان من الاستقلال فتحا الأبواب على مصاريعها أمام ازدهار الصحافة العربية القومية؛ والتي وجد فيها الشاب نجيب الريس وسطاً حيوياً لنمو موهبته؛ فقد نشأ ميالاً للدرس وخاصة دروس الفقه واللغة والنحو والعلوم الدينية، وكان يتردد على جوامع مدينة حماه، وينتقل من أستاذ إلى أستاذ حتى حصل على بضاعة جيدة من كل هذه الألوان الثقافية. عاش في بيئة لم يغمرها الجاه العريض، ولا ملكت أيديها الثروة الموروثة. تلقى علومه الأولية في مدارس حماه تلك المدينة التي شهدت ولادته عام 1898، ثم نزح عنها وهو صغير السن مع والده محمود الريس، الذي عين رئيساً لشرطة حمص آنذاك، فتابع دراسته فيها على كبار أساتذة اللغة العربية والأدب، وتمكن من ناصيتيهما، وتشرب الدين مدفوعاً بنشأة أهل أمه وأبيه من رجال الشريعة والفقه. توفي والده وهو يافع، وكان وحيده، مما دفع والدته التي كان متعلقاً بها كثيراً، للزواج برجل من آل الحامد في حماه، وأنجبت شاعر العاصي بدر الدين الحامد، والمفتي محمد الحامد والمربي عبد الغني الحامد: هؤلاء الأخوة غير الأشقاء هم عائلة نجيب الريس في حماه.

جاء آل الريس في الأصل من المغرب، وكانوا يعملون في البحر. وقصة الأب محمود الريس، يرويها أكثر من مصدر، حيث اضطرته الظروف إلى ترك بلده والتوجه إلى مدينة الكرك بالأردن، والالتحاق بقريب له يعمل هناك في الكرك. تعرف إلى مناضل دمشقي يدعى نايف تللو، يعمل ضمن الحركة العربية ضد الأتراك. وبعد أن حكم الديوان العرفي، في عاليه برئاسة جمال باشا، على نايف تللو بالإعدام عام 1916، مع عدد آخر من الشهداء، فرّ محمود الريس إلى الحجاز، ليلتحق بجيش الشريف حسين، ودخل دمشق مع الجيش العربي 1918، وعين رئيساً للشرطة في لواء حمص. عندما احتل الفرنسيون دمشق، التحق بثورة الشيخ صالح العلي في جبال اللاذقية، و ثورة إبراهيم هنانو في الشمال. ولما قضى الفرنسيون على الثورة، تسلل إلى شرقي الأردن، وأقام مدة، ثم توجه إلى الحجاز، حيث عمل في حكومة الشريف حسين. وشاء قدره أن يصاب بالحمى، فقصد القاهرة للتّداوي والعلاج، لكنه مات في أحد مستشفياتها وحيداً غريباً بعيداً عن أهله ووطنه. هذا الأب كان المعين الذي نهل منه الابن نجيب روح النضال والتحدي في العمل من أجل الجلاء.

❖ ❖ ❖

عمل نجيب الريس في دمشق مراسلاً، وتنقل بين عدة صحف لبنانية ودمشقية منها (المفيد) و(النداء) و(الأحرار) و(النهار) و(المقتبس)، متدرجاً في العمل الصحفي من قاعدته إلى قمته، وتكونت شخصيته السياسية والصحفية التي ميَّزته عن غيره من الصحافيين، بالإضافة إلى ما عرف عنه من تطرف وطني.

مع الانكسار المبكر للاستقلال الأول، وخروج فيصل، دخلت سورية نفق الانتداب الذي استمر خمسة وعشرين عاماً حافلة بالأحداث الجسام، بدأت بفاجعة ميسلون، تموز 1920، لتكون الواقعة المأساة والعبرة الكبرى للسوريين، والحافز على التقدم بعزم وإصرار نحو انتزاع السيادة الكاملة. وقد كان لميسلون وبطلها يوسف العظمة بالغ الأثر في نفوس الأجيال المتعاقبة حتى اليوم، كرمز للتضحية والعزة والكرامة؛ وكان بالنسبة إلى نجيب الريس نقطة انطلاق مسيرته النضالية القاسية في ميدان الكتابة والصحافة السياسية؛ وقد أهداها: «إلى

ذلك اليوم، يوم الهزيمة الذي لا يُخجِل، وميسلون التي لا تبلى، وإلى يوسف العظمة الذي لا يعوّض، قدم خير ما كتبَ وما يكتب وما سوف يكتب»، كما ورد في إهداء كتابه الأول (نضال).

لم تكن كتابات الريس، عبر مسيرته الصحفية بمجملها، سوى انعكاس لما جرى في ميسلون من تضحية واستبسال؛ وتشهد على ذلك بداية حياته المهنية التي كللت باعتقاله مع لفيف من الوطنيين، مثل سعيد حيدر وعبد الرحمن الشهبندر، والشاب المصري عبد الوهاب العفيفي وحسن الحكيم ومنير شيخ الأرض وخالد الخطيب وتوفيق الحلبي؛ كانت فاتحة المواجهات مع حكومة الانتداب الفرنسي، التي حركت الوعي الوطني عقب زيارة مستر كراين عضو لجنة الاستفتاء الأميركية، ووصوله إلى دمشق في أول نيسان 1922.

أربعة وعشرين عاماً كان عمر الريس، حين اقتيد إلى المنفى في جزيرة أرواد، إلى جانب أقطاب السياسة وشيوخ الوطنية ممن هم في سن أبيه؛ فقضى سنة ونصف السنة في جزيرة أرواد؛ وبين جدران السجن تفتحت موهبته الشعرية، فنظم عدداً من القصائد بقيت في ذاكرة أصدقائه المقربين، فيما اشتهر نشيده الوطني: «يا ظلام السجن خيم، إننا نهوى الظلاما» الذي نظمه عام 1922، ونشره لاحقاً في كتابه (نضال) 1934 (مع مقدمة بقلم فارس الخوري).

يحتوي كتابه (نضال) على مجموعة من مقالاته، مثلت سجلاً لحقبة من تاريخ الجهاد الوطني في أشد مراحله عنفاً. ولم يكن سجن أرواد أول سجن يدخله نجيب الريس، ثمة وثائق تشير إلى أنه في مطلع العام ذاته الذي سيق فيه إلى أرواد، حل نزيلاً على سجن القلعة في دمشق، مع مجموعة من السياسيين، وحين عاد إلى سجن أرواد في أيلول عام 1925، كان معه فارس الخوري، وأيضاً جميل مردم بك وفوزي الغزي.

في العام 1923، لحن الموسيقار محمد عبد الوهاب نشيد (يا ظلام السجن)، وأسمعه فريقاً من الشباب الوطني في منزل جبران بيضا في عاليه، وسجل في أسطوانة خاصة من أسطوانات شركة (بيضافون) المشهورة في زمانها، وانتشر انتشاراً لم يحظ به نشيد آخر، وتردد على ألسنة الشباب العربي، وكان يلقن

ويحفظ في مدارس سورية ولبنان وفلسطين والعراق، طوال فترة الانتدابين الفرنسي والبريطاني.

استأثرت الصحافة كلّ اهتماماته، فترك كلية الحقوق في الجامعة السورية بعد عام من التحاقه بها؛ حيث تلقى علومه على يد الأستاذ الوطني الكبير فارس الخوري، لينضم إلى جريدة (القبس) اليومية السياسية المصورة، وليصدرها في أيلول 1927 بالشراكة مع محمد كرد علي وشقيقه أحمد كرد علي. بدلاً عن (المقتبس)، التي احتجبت لأسباب سياسية.

اتجاه (القبس) السياسي يشير إلى تعاطفها مع حزب الشعب الذي يتزعمه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر؛ غير أنّها أجرت تغييراً في اتجاهها أواخر عام 1928، وانحازت إلى جانب الكتلة الوطنية، بسبب وفاة أحمد كرد علي، وترؤس نجيب الريس تحريرها، واشتراكه في امتيازها.

الصحافة كانت تتحرك على خلفية سياسية، تمور بتيارات جديدة ومجموعة من الأحزاب الصغيرة، راحت تظهر تباعاً وبزخم قوي في الفترة الممتدة من 1920 إلى 1933، وتعاقب عليها خمسة مندوبين فرنسيين، كان لسياساتهم الوصائية دوراً أساسياً في رسم الخط البياني لصعود وهبوط عدد الصحف في البلاد السورية، التي بلغت في عهد غورو حوالي سبع عشرة جريدة؛ وانخفضت في عهد ويغان لتصبح 13 جريدة؛ فيما هبطت بشكل حاد في عهدي سراي ودوجوفنل، لتصل إلى خمس جرائد فقط؛ وعادت لتشكل ارتفاعاً كبيراً في عهد بونسو، لتصبح أربعين جريدة. وعاشت الصحافة السورية مرحلة ذهبية من تاريخها في ذلك العهد؛ وهي الفترة التي شهدت ولادة القبس إلى جانب جريدة الأيام، كجريدتين تابعتين للكتلة الوطنية.

أعمل نجيب الريس قلمه في واقع قلق، اقتضى اتخاذ مواقف حازمة، لا سيّما من حكومة الشيخ تاج الدين الحسني البراغماتي، الذي أجاد لعبة الاعتدال من أجل الاستمرار، لا سيما وأنه جاء بعد سلفه الداماد أحمد نامي الشركسي، الذي أقاله بونسو بهدوء، بعد أن تمادى في طموحاته السلطوية، وصرف أموالاً طائلة على دعايته السياسية، متطلعاً إلى تنصيب نفسه ملكاً على عرش سورية. أما

الشيخ تاج الدين الحسني، فاستفاد من أخطاء سلفه، واختار حكومة من المعتدلين كحلقة مرنة بين الوطنيين وسلطة الانتداب، وكان من بين وزرائه محمد كرد علي، الشخصية العلمية المرموقة، رئيس المجمع العلمي، حيث تعين عليه لاحقاً تحمل الإحراج الكبير الذي سببته له مقالات نجيب الريس بنقدها اللاذع. لأنه حين عهد إلى نجيب الريّس برئاسة تحرير القبس، كان الخلاف قد اشتد بين الكتلة الوطنية والشيخ تاج الذي اعتبره زعماء الكتلة خارجاً على الصف الوطني المناهض للفرنسيين، وراح الريّس يشن حملاته العنيفة على حكومة الشيخ تاج، التي ضاقت ذرعاً بها. ولعل أقذع هجوم شنه يوم حرض الشيخ تاج الرعاع على الاعتداء على فخري البارودي عام 1928؛ واحتجت عليه دمشق، فأُعلن إضراب عام، وذهبت مئات الاحتجاجات والعرائض الى الحكومة الفرنسية، وكتب الريّس حينها: «الشيخ الذي لم يذق طعم السيادة في عمره ينتقم من الأمة السيدة والحكومة المستقلة والبرلمان الحر؛ ولكنه لا يعلم أن هذا الاعتداء يجني عليه وعلى مدير شرطته... وأنّ يوم فخري البارودي له ما بعده، وأنّ الثمن الذي سيدفعه الشيخ تاج وحكومته أقلُّه: إقالته وإقالتها، ... ولسوف نقهقه يوم يبكي».

وكان أن طلب محمد كرد علي، بوصفه صاحب امتياز (القبس) التي تهاجم الحكومة، وهو من أعضائها، من شقيقه عادل كرد علي مدير الجريدة، أن يحاول إقناع نجيب الريّس بضرورة الاعتدال في كل ما يكتبه ضد الحكومة؛ فلم تنجح المحاولات، وتفاقم الخلاف، وانتهى إلى انسحابه. لم يطل الزمن حتى أعلن نجيب الريس صدور جريدته (القبس الجديد) صباح يوم الجمعة 27 تشرين الثاني 1931، حيث استقل بملكيتها، جريدة جديدة اختار لها صاحبها حجماً صغيراً «في أيام تكبر فيها أحجام الصحف، وتنقلب ذوات الأربع صفحات إلى ثمان. تمشياً مع التطور كما يقول أصحابها، ونزولاً عند حاجة القرّاء، لأنهم أصبحوا لا يرون في أكثر الجرائد الكبرى غير مقالات تحشى حشواً يحررها الأستاذ (المقص)، لا تهمُّ سورية ولا السوريين في شيء. إما أن تكون قراءة الجرائد حاجة ضرورية يومية، أو تكون وسيلة من وسائل التسلية، فإن كانت حاجة ضرورية، فيجب أن تضع الصحافة نفسها في قائمة (الحاجيات)، وأن يعاملها الناس على الأقل كما يعاملون الحلاقين و(الفرانة) و(القهواتية) وباعة العرقسوس و(الليموناضة)، وإن كانت

الصحافة وسيلة من وسائل التسلية والتفكهة، وعلى هذا الأساس، ولأن (القبس الجديد) ليست لتفكه الناس وتسليهم بالقوة، فهي لن ترسل إليهم، ثم يرسل وراءهم الجابي (يزعجهم) بمطالباته، فيسددونه بدل الاشتراك من عملة (على راسي) و(بكره) و(آخر الشهر)، وحقهم أن يفعلوا».

بهذا الأسلوب وهذه القناعات افتتح عهد جريدته الجديد، فإما أن يحوز على رضا الناس وينال دعمهم الحقيقي، أو فلا، طارحاً بضاعته في السوق لتتنافس مع غيرها، عملاً بالقاعدة العامة: (القناعة كنز لا يفنى) و(الدَّين ممنوع، والعتب مرفوع، والرزق على الله). لكن القبس سرعان ما ربحت الرهان، وأقبل عليها الناس إقبالاً منقطع النظير، وكانت نسبة التوزيع تتضاعف عدة مرات عندما يكتب الريس الافتتاحية؛ وكانت دمشق تقرأ (مناشيره) الصحافية، ثم تنزل لتتظاهر ضد الاستعمار.

منذ العام الأول من عمر القبس الجديد، بدأت معارك نجيب الريس الصحافية الشرسة، فقد كان كتلوياً حتى العظم، ودفع مع جريدته ثمن مواقفه السياسية حين عُطلت الجريدة في عقد الثلاثينات عدة مرات، وكلما عاودت الصدور، يكتب ما يستفز سلطة الانتداب، مما يدفعها لاستصدار مرسوم بتعطيلها... وهكذا. وكان لهذا أثره في الإسهام في انتشار القبس ورواجها. ولو حسبنا مجموع عمر القبس من 27 تشرين الثاني 1931 وهي السنة التي استقل بها بملكية الجريدة، حتى 27 تشرين الثاني 1950 معتمدين هذا التاريخ نموذجاً لا على التحديد، لبلغ تسعة عشر عاماً؛ أي 6939 يوماً، بيد أنه لم يصدر منها حتى يوم 1950/11/27 سوى 4225 عدداً؛ أي بتقصير أو نقص بلغ 2714 عدداً في هذه السنين التسع عشرة، مع العلم أنها جريدة يومية تصدر غالباً طوال أيام الأسبوع، وبهذا تكون نسبة تعطيلها إلى مجموع سني عمرها أكثر من الثلث؛ وإذا ما أردنا أن نجمع فترات التوقف والتعطيل بالسنين، يكون مجموع تعطيلها حوالي سبع سنين من أصل تسع عشرة، أي ما يزيد عن أربعة أشهر في السنة الواحدة، وهذا بدوره يؤدي إلى محنة أخرى هي قلة المشتركين، لأن القارئ لا يدفع اشتراكاً سنوياً ليقرأ من الصحيفة أقل من مئتي عدد في السنة الواحدة، وحين يقل عدد المشتركين

والقراء، يقل الإعلان بطبيعة الحال؛ لكن الشعبية الواسعة التي حققها نجيب الريس، جعلت من تجربة القبس استثناء في تلك القاعدة.

جاء الريس إلى دمشق فقيراً، وسلك طريقاً طويلاً في الكفاح، ليتبوأ مكانته المرموقة ضمن النخبة الدمشقية التي صنعت الاستقلال. عاش من كد قلمه، ولم يتعيش عليه. أعطى بلده والصحافة عمره، فأعطته، وما بخلت عليه. وانتقل إلى بيت في حي بستان الرئيس، ثم إلى بيت فسيح بناه في حيّ (أبي رمانة) أواخر الأربعينيات على الطراز الأوروبي، فيه حديقة كبيرة مسيجة بالحور والصفصاف، حتى أن أحد أصدقائه وصفه بأجمل منزل يملكه صحفي في الشرق الأوسط؛ فرد عليه سعيد فريحة: هذا صحيح، وصحيح أيضا أن منزل نجيب الريس هو ثمرة كفاح طويل، بل ثمرة قلم قوي أحبه الناس، واحترموه.

لا شك أنها ظاهرة لافتة تستحق التوقف عندها، لما لها من دلالات تتضح من واقع الصحافة السورية في الأربعينيات الذي مكَّن صحافياً كنجيب الريس، عانى من الملاحقة والسجن والإغلاق المتكرر لصحيفته، من بناء بيت كبير (فيلا)! مع أنه لم يكن مرتش ولا واش ولا عميل للانتداب الفرنسي، وعبر مقالاته أكد غير مرة أنه لا يملك سوى جريدة القبس، يورثها لأبنائه. فإذا كان هذا الاستثناء في القاعدة، فإن مما لا شك فيه أن الصحافة في ذلك الزمن كانت مهنة يكفلها المجتمع ويضمن استمرارها إذا نالت الثقة، فتستحق الاشتراكات والإعلانات، بل وكما يذكر أحد معاصري تلك الفترة أن الاشتراكات لم تكن مالية وحسب، بل عينية أيضاً، حتى إن الصحفي الموثوق والمرموق صاحب الجريدة قد لا يحتاج لشراء مواد تموينية من زيت وسمنة وزيتون وصابون ... إلخ لأن هناك من سيقدمها له بدل اشتراك في الجريدة، أشبه بعملية مقايضة، قبل أن تجتاح حياتنا تعقيدات جشع السوق، وقبل أن تخسر الصحافة مكانتها الاجتماعية.

ظلت القبس سجلاً للحركة الوطنية، وديواناً للنهضة القومية رغم التعطيل وملاحقة صاحبها، وسنوات اعتقاله في سجون الانتداب التي بلغ مجموعها ثماني سنوات امتدت من سنة 1922 إلى 1943، ما عدا التوقيفات القصيرة التي تمت في العهد الاستقلالي وبعده، وفي العهود الانقلابية، وشملت السجون والمنافي والمعتقلات: قلعة دمشق والمزة وحلب وبيروت وراشيا والمية ومية وغيرها، وكان

أهمها سجن جزيرة أرواد. إلا أن أسوأ فترة قضاها نجيب الريس في السجن كانت الثالثة عام 1939، في سجن أرواد، وكما وصفها «ألعن حبسة»، حيث أُتّهم بمحاولة قتل، وحُكم عليه بالسجن 20 سنة، وبالإبعاد 20 سنة أخرى، كما حكم على نحو 15 شخصاً كانوا معه بأكثر من ذلك: أي بالسجن المؤبد وبالإعدام. وبعد أن أصدر رئيس المحكمة حكمه، سأل نجيباً هل لك ما تقول؟ فأجاب: إنها لأول مرة يا سيدي الرئيس يوجد قاتل ولا يوجد قتيل.

حافَظ الريّس على وفائه للكتلة الوطنية. وعندما تفككت وانبعث من رمادها الحزب الوطني في 29 آذار 1947، كان أول من رحّب بولادته، وانتسب إليه، وأُنتُخب من رديفي الحزب وأميناً لسر لجنة الشؤون السياسية فيه، وأميناً لسر لجنة الشؤون الاقتصادية، وعضواً في لجنة الدعاية والنشر، ودافع عن حزبه بلسانه وقلمه.

في عام 1943 أُنتُخب نجيب الريس الحموي نائباً عن دمشق على لائحة الرئيس شكري القوتلي؛ وكان أول سياسي غير دمشقي تنتخبه العاصمة السورية نائباً عنها. وظل نائباً حتى العام 1946: ولم يرشح نفسه لانتخابات 1947، على الرغم من نجاحه كبرلماني، وانقطع لجريدته، يكتب في الإصلاح، معتبراً (القبس) أهم من البرلمان، مفضّلاً الصحافة على النيابة. وقد سئل ذات مرة: لقد خبرت الصحافة وجربت النيابة، فأيهما أحبُّ إليك؟ أجاب: الصحافة طبعاً، فلولاها لما سُجنت، ولولا السجن لما صرت نائباً.

وتشهد مداخلاته، التي ما تزال محفوظة في أرشيف الجريدة الرسمية، كم كان نيابيّاً شرساً في دفاعه عما يراه حقاً، فتأتي مداخلاته النيابية كمقالاته واضحة البيان، صريحة العبارة، لأن صاحبها يجيد المرافعة والدفاع عن وجهة نظره، كصاحب حجة وعلم ورأي، وخطيباً مفوهاً جريئاً في الدفاع عن قضايا البلاد ومصالح الشعب. وغالباً ما كان يقول رأيه بعد سماعه آراء الآخرين، فيكون ختاماً وردّاً مفحماً لا جدال فيه. كما كانت افتتاحيته مقنعة ولها عميق الأثر في النفوس، حتى قيل عنها: «إنها أقوى افتتاحية يخطها قلم صحافي خلال عشرين عاماً من أعوام السلبية في النضال، لا يدانيه في قوة افتتاحياته هذه إلا كاتبان: يوسف العيسى في سورية، وجبران تويني (الجد) في لبنان. وهناك فارق واحد بين

الفرسان الثلاثة: هو أن العيسى والتويني كانا يكتبان بعقلهما، ومن ثم كانت افتتاحياتهما تجيء وهي تنطوي على خاطرة واضحة في عبارة وجيزة وهادئة، أما الريس فكان يكتب بقلبه، بدمه الذي يجري في عروقه، فكانت افتتاحياته تجيء عاطفية مسهبة على شيء كثير من طبيعة النار تحفل بالشعور الوطني العميق».

مما يذكره الذين عملوا معه، عنايته بالخبر قدر عنايته بالتعليق، لأن جريدته موجهة ولا تبيع الأخبار فقط؛ لذلك كان يوصي المراسلين أن يقولوا في غير مناسبة ما لا يتاح للزعماء أن يقولونه إلا في المناسبات، مؤكداً لهم على الدوام أن الفرنسيين ذوو أعصاب (رخوة) يؤذيهم المقال، مثلما يؤذي طلق النار الإنكليز، مصنفاً الناس إلى نوعين: «قوّال، ومؤمن بما يقول»، ولأنهم مؤمنون بالاستقلال؛ لذا يجب أن يتحلوا بالعناد ليفرضوا رأيهم فرضاً. كما وأظهر الريس في جريدته عداء لأعوان الفرنسيين أكثر من عدائه للفرنسيين أنفسهم، لاعتقاده أن المستعمر لا يستطيع أن يثبت دعائم استعماره، إذا لم يجد له من أهل البلاد أعواناً، ويجب تحطيم أعوانه حتى يُفرد في الساحة، فينهار.

لهذا ولغيره، بات مرهوب الجانب من الحكام، ولا يظن أن وزيراً أو رئيس وزارة أو حاكماً مهما بلغ شأنه من القوة لم يكن يحترمه، أو يحسب حسابه، الأمر الذي يُرَدّ إلى قوة نجيب الريس، وترفُّعه عن المساومة؛ فلم يكن لديه حل وسط للقضايا والأمور التي تهم البلاد.

❖ ❖ ❖

ناضل الريس في كتابته ضد الانتداب الفرنسي، فكتب أكثر من 700 مقال ما بين 1920 - 1951، دافع عن إيمانه بحق سوريا في السيادة والاستقلال. كتب من أجل الجلاء، وكتب عن الجلاء، ولم تُغفل ذاكرته الراية العربية الخفّاقة؛ فذكَّر باليوم الذي أُستُبدلت فيه (بخرقة ملونة) عجيبة في زاويتها علم فرنسا، قيل إنّها علم سوريا الجديد الذي ارتفع بعد يوم ميسلون؛ وجاهد طويلاً إلى جانب الوطنيين لتطوى تلك الخرقة، ويرتفع علم الاستقلال الذي ازدهت حروف نجيب الريس بألوانه. ومن يقرأ بعض تلك المقالات، لا بد وأن تصيبه عدوى الحماس والعصبية الوطنية. ومن خطبه التي ألهبت الغضب الشعبي، تلك التي كتبها عن

مدير شرطة دمشق بهيج الخطيب عام 1931، الذي أمر رجاله بإطلاق الرصاص على جموع الشباب المتظاهرين ضد الانتداب، في وقت لم يقدم على ذلك الضابط الفرنسي؛ كانت مقالة لاذعة شديدة اللهجة، جاء فيها: «مدير الشرطة! هذا المخلوق العجيب الذي لو أنصف القدر وأعطاه ما يستحقه من المكانة والجاه، لما جعله أكثر من مختار رابع في قريته (شحيم)، أو (مكاري) متواضع يحمل الزيت على حماره الموروث عن آبائه، وينادي في أزقة دمشق الضيقة «حلو يا زيت»، هذا المخلوق الذي أسف القدر، وانحط، وهزل، و(تشرشح)، فجعله مديراً للشرطة في عاصمة العرب والإسلام».

بعد أن استقلت البلاد، لم تفتر عزيمة الريس، ومضى ليناقش شؤون الدولة الوليدة، ويتابع قضاياها، فكان العين التي ترصد سياسة المجتمع السوري، وتسهر على الاقتصاد والعمران، فإن رأى خللاً ارتفع صوته صارخاً متوعداً. وأياً كان الرأي فيما كتبه، حسبه أنه كان يكتب من منطلق وطني عام. ومع ذلك، فقد عانى من حكومات الاستقلال، أكثر بكثير مما عاناه من حكومات الانتداب، لا سيّما بعد صدور قانون المطبوعات عام 1949، الذي مكث جائراً رغم ما طرأ عليه من تعديلات، كان لنجيب الريس دور كبير في إحداثها. ومن مقالاته الشهيرة في هذا الخصوص المنشورة في 1950/11/30، إذ قرَّع فيها زملاءه من الصحفيين الذين لا يتضامنون من أجل تغيير هذا القانون، الذي حوكم عليه هو بالذات، وهُددت بموجبه صحيفته بالإغلاق النهائي، الأمر الذي لم تجرؤ عليه حكومات الانتداب رغم قسوتها: «أقول للزملاء أصحاب الصحف الذين يمرون بمأتم الحرية الصحفية مرور الكرام: كل حال يزول. إن بلاداً مثل هذه البلاد لا يدوم فيها حال، ولا يخلد فيها حكم، ولا يسود فيها حزب، ولا يستمر على حكمها شخص، فإذا دام هذا التشريع للصحافة، واستمر تطبيقه بهذه الشدة، أفيحسب الذين لا ينالهم أذاه في الوقت الحاضر أن المستقبل في قبضتهم؟».

عارض بشدة حكومات الاستقلال في سوريا التي تغيرت أحوالها بعد زوال الاحتلال، وبدأت أمراض السلطة تدب في مفاصلها، فلم يدع شاردة أو واردة، إلا وكتب عنها مقرعاً الفاسدين، مذكراً بأيام الانتداب والثمن الباهظ الذي تكبّدته سورية من أجل الاستقلال، وضرورة المحافظة عليه، لبناء دولة متحضرة وقوية،

فكتب عن (سكارى الحكم)، وعن الذين يريدون رئيساً للتوقيع، وبرلماناً للتصديق، ونكبات الزراعة، والمسؤولين عن قتل الصناعة الوطنية، وطالب بإبدال بعثات الآداب ببعثات المدفعية والطيران والدبابات، وضرورة رفع مستوى رجال الشرطة ليلقوا الاحترام، وناهض التأميم بشراسة، وعارض دعوات حزب أكرم الحوراني لإشراك العمال في الحراك السياسي؛ وانتقد الحكومة الاشتراكية التقدمية التي تسيء إلى زراعة القطن، الثروة الاشتراكية الوحيدة... إلخ من مواقف مشهودة، مهما اختلفت الآراء حولها، فلا بد أن يدهشنا بعد بصيرته التي ميزته في ذلك الحين، وزادت في عدد خصومه، كما زادت في عدد أصدقائه المخلصين، وقد أتاح له تنوّره، الانفتاح على رجال الدين المسيحيين، وأقام معهم علاقات صداقة وثيقة، كان لها دور وطني، لا سيما في عهد الانتداب الفرنسي، وفي أيام حكومات الاستقلال، وهو ما أهّله ليأخذ أكثر مواقفه شهرة يوم وُضع الدستور السوري، وكان الخلاف على تعيين دين الدولة في الدستور الذي خرج من إطار أعضاء الجمعية التأسيسية إلى الصحافة والأسواق والمدارس، وراحوا يوزعون مضابط أعدت سلفاً، ليتم توقيعها من الناس، حينها اعترض الريس على إقحام الدين فيما لا ضرورة لإقحامه فيه وكتب: «لو كانت هذه البلاد للمسلمين وحدهم، لكانوا أحراراً في فرض دينهم على أنفسهم وعلى حكوماتهم وحكامهم، ولكن البلاد ليست لنا وحدنا، بل هي لنا ولغيرنا، وخصوصاً النصارى الذين كانت لهم قبلنا، والذين دخلنا عليهم، وهم فيها أصحاب دولة وملك ودين».

كما رد على مصطفى السباعي الأمين العام لجماعة الأخوان المسلمين الذي نادى بضرورة النص على أنّ دين الدولة هو الإسلام؛ بمقالة تحت عنوان «لستم أنتم الدولة، ولستم وحدكم المسلمين»، وخاطبه بصفته من المتدينين المسلمين، وليس من العلمانيين الملحدين: «لستم يا سيدي أنتم بقادرين على الوفاء بما تتعهدون به، ولن تستطيعوا أنتم أن تقفوا في وجه أي مسلم يطلب حسبة تنفيذ أحكام الدستور!».

كما لم يغفل عن التذكير بقضية سلخ لواء اسكندرون، فكتب حوالي 64 مقالاً بين عامي 1936 و1949، جاءت وقفاً على لواء اسكندرون وحده، دافع فيها عن عروبته، مع رصد تاريخي يومي لحركة الأحداث وضياع اللواء، كاشفاً هول المؤامرة التي تعرضت لها سوريا في عهد الانتداب الفرنسي؛ ومما كتب: «لقد

انكسرت سوريا في إسكندرونة، وانكسر العرب أمام القوة.... فهل يجوز أن يستسلم المنكسرون، وأن ييأس المغلوبون؟».

إلى جانب الشأن السوري احتلت العلاقات السورية ـ اللبنانية حيزاً كبيراً في اهتمامات نجيب الريس الصحافية والسياسية، وربطته علاقات صداقة مع رجال السياسية اللبنانيين، من رفاق أيام النفي والإبعاد، وفي مقدمهم ميشال زكور وسليم تقلا وحميد فرنجية وكميل شمعون وحبيب أبو شهلا، أما رياض الصلح فكان من أحبّ رجال السياسة إليه وأكثر من أُعجب به، ليس في لبنان فحسب بل في سائر الأقطار العربية، وسمى ابنه رياض تيمناً به، كما كان يفاخر بأنه تتلمذ على أيدي خليل كسيب وجبران تويني (الجد)، معتبراً صحافيي لبنان من أرقى وأنضج الصحافيين في البلاد العربية، عدا إعجابه بمن تتلمذ على يديه منهم كالكاتب توفيق يوسف عواد والصحافي سعيد فريحة. ومع ذلك كان من أشد الذين انتقدوا الحكومات والصحف اللبنانية. ونجيب الريس الذي تعلم الفرنسية في السجن بأسلوبها البدائي، كان يتندر بالقول لرفاقه اللبنانيين: إنه تعلمها ليقرأ مقالات جورج نقّاش في «الأوريان» لأن (نقاش) كان يمثل وجهة النظر الموالية لفرنسا، وكانت إحدى مهام (القبس) في دمشق الرد على مقولات (الأوريان) في بيروت. ومع هذا كانت تربط الرجلين علاقة احترام وود، حين كان للخصومات السياسية طعم آخر، وحين كان يمكن لنجيب الريس شنّ حملات عنيفة في ردّه على الصحافة اللبنانية، على وقع الخلافات الدائمة التي حكمت علاقة البلدين، وكتابة ما يقارب 182 افتتاحية على مدى ربع قرن 1928 ـ 1951، دون أن تتأثر صداقاته بذلك، فيندد بأنصار التجزئة أعداء الوحدة والسيادة، ساخراً من الذين يقولون عن السوريين، كلما اختلفوا مع اللبنانيين: إنهم متعصبون، وكلما اتفقوا معهم قالوا إنه اتفاق مسموم، ومنتقداً الصحف التي تُشيع الشائعات، وتهاجم السوريين على أساسها، ومنبهاً إلى الانتخابات اللبنانية التي كانت لتكون نموذجية في الشرق الأوسط، لولا الرشوة وقبضايات بيروت، ومتعجباً من الذين أنكروا رياض الصلح، ويقيمون له تمثالاً، دون أن يفوته التذكير الدائم بتابعية طرابلس الشام لدمشق وحلب، وأن سوريا لو تركت طرابلس، فإن طرابلس لن تتركها، لتحكم علاقته باللبنانيين سجالات مستمرة، لا سيما حول مسألة ترسيم الحدود،

وضم الأقضية الأربعة واصفاً لبنان بوطن المتناقضات، الذي كلما أرادت فرنسا أن تتكرم عليه، يكون هذا على حساب سورية.

أما قضية فلسطين، قضية العرب المركزية، فقد دافع عنها بضراوة، وكتب زهاء 129 مقالاً منذ 1921 ولغاية 1951، فكان له من نفوذ البصيرة والجرأة على الإدلاء برأي مخالف، لم يكن مستساغاً في تلك الفترة، إذ قال غير مرة: إن غلوّنا هو الذي أضاع فلسطين، لأن الغلوّ والعاطفة وإرضاء الغوغاء هي التي كانت تسيطر على معظم زعمائنا، ورؤسائنا، ووزرائنا، ونوابنا، وكتابنا، حتى غدونا محاصرين مطوقين بلا أصدقاء، ولا حلفاء، ولا أنصار.

ولعل ما يعطي مثالاً بليغاً على الدور الصحافي والسياسي الوطني الذي اضطلع به، وعلى بعد نظرته، زيارته للرقة أواخر العشرينيات، ليقف على واقع معاناة أهلها، في وقت كانت سوريا في عرف غالبية المعنيين بالأمور الوطنية هي المدن الأربع دمشق وحلب وحمص وحماه؛ أما الرقة فقد كانت قرية صغيرة في محيط مجهول، طغى فيه ضباط الاستخبارات، وأفسد في الحكم أعوانهم دون أن يدري بهم أحد. نجيب الريس وحده كان يرى أبعد مما كان يرى كثيرون غيره، ويدرك أن الوطن واحد مهما تباعدت رقاعه. كما كان الوحيد بين رجال الصحافة، استطاع أن يشق الطريق إلى الرأي العام، فيتصل به مباشرة في افتتاحياته اليومية ويملك عليه كل أمره.

الصحافيون الذين تتلمذوا على يديه، أكثر ما يذكرون عنه عصبيته وحالة الاستنفار التي يفرضها على أجواء المكتب لدى ولوجه في كتابة مقاله اليومي، يدخن عشرات السجائر، ويمزق أطناناً من الورق، وقد كتبت (الصياد) زاوية ساخرة عن عادته اليومية: يغادر الدار إلى الإدارة، فيغلق البابين اللذين يقف على كل منهما حارس خاص من السادة (الموزعين) في جريدة (القبس)، ويمنع الدخول منعاً باتّاً، وتروح فناجين القهوة وتجيء، وتطير السيكارات.. ويبدأ أبو رياض، فيسجل عنوان المقال، ثم يكتب، وهو حريص على أن يكون المقال عمودين من أعمدة الجريدة دون زيادة أو نقصان.. وقبيل الانتهاء تبدأ (أزمة جديدة)، هي التفتيش عن بيت شعر يختم به الافتتاحية، وهو إما يكون لشوقي أمير الشعراء، أو للمتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس، وحبيب نجيب الريس بعد ابنه رياض.

لم تكن الصورة التي نقلها الأديب والصحافي فؤاد الشايب عن الحالة نفسها أقل طرافة، وإن كانت تدل على حجم معاناته، وهو يدبج مقالاته، أو بمعنى أدق مرافعاته المدعمة بالحجج. يحكي الشايب عن لقائه الأول بصاحب القبس، بعد أن أرسل إليه المقال تلو المقال، لترمى في سلة المهملات، إلى أن أعجبه أخيراً مقال دعا فيه لمقاطعة حفلات أم كلثوم، لأنها رفضت التبرع للمجاهدين حين جاءت إلى دمشق بداية الثلاثينيات، وهنا يقول الشايب: «فجأة فتح الباب، وأطل العملاق صاحب القبس، وكان يبدو لي كأنّه خارجٌ من معركة عنيفة مع جيش من جيوش العدو، فكدت أُصعق خجلاً، ولكن الرجل مشى نحوي كأنه يعرفني، ثم مد يده فصافحني، وقال لي: هذا المقال مليح». ولعل سبب خجل أو خوف فؤاد الشايب، هو ما عرف عن نجيب الريس بأنه سريع الانفعال والاشتعال، عصبي؛ يُسمع هدير صوته على مسافات بعيدة، ولكن ثورته مع أصحابه ورفاقه، لا تدوم سوى بضع دقائق، ثم ينسى كل شيء ويقبل على الشخص الذي أثاره، وكأن شيئاً لم يحدث، ليستأنف حديثه معه هادئاً ساكناً وديعاً.

❖ ❖ ❖

أحبّ نجيب الريس مجالسة الأدباء، وكان من أصدقائه أحمد شوقي وبدوي الجبل وأحمد الصافي النجفي وغيرهم كثر، وكانت جلسة مع أديب مرموق تساوي لديه أشياء كثيرة، لأنه ينصرف بنفسه إليه، ويبادله الحديث عن الشعر قديمه وحديثه، وعن أدباء الأمس وأدباء اليوم. وكان الريّس إذا ما خلا مجلسه من أديب، انصرف إلى مكتبته يطالع فيها، وكان ديوان المتنبي أكثر الكتب تداولاً بين يديه، يليه (نهج البلاغة) الذي جمعه الشريف الرّضي، أما ديوان أحمد شوقي (شوقيات)، فكان ينتقل من رف إلى رف في البيت، وعندما جاء شوقي إلى دمشق في الأول من آب 1925، ليلقي قصيدته الشهيرة، التي مطلعها «قم ناج جلق وانشد

رسم من بانوا» في مهرجان شعري حاشد، اختار نجيب الريس لإلقاء قصيدته نيابة عنه، لأن أمير الشعراء كان يفضل ألا يلقي شعره بنفسه.

وجدير بالذكر أنه اشترك بتأسيس الرابطة الأدبية عام 1921. كما كان أحد رواد صالون ماري عجمي الأدبي. وقد شكلت معرفته بشيخ الشباب المناضل فخري البارودي في تلك التجمعات الأدبية أول مجيئه إلى دمشق، مدخلاً له إلى التعرف على رجالات السياسية، كخالد العظم ومعظم المناضلين الذين سيؤلفون لاحقاً الكتلة الوطنية.

رغم ما عُرف عنه من جدية ورصانة وحدّة طباع في الصحافة والسياسة، عرف عنه أيضاً حبه لسهرات الغناء، فيطرب للشعر الغنائي الصحيح الرفيع لغة ومعنى، وهذا ما عزز من علاقته بـ (السَّهيرة) من رفاقه في بيروت، ولم يكن خافياً على رفاقه المقربين إعجابه الكبير بالمطربة ماري جبران التي كانت أشهر مطربات عصرها، والتنافس الشديد على قلبها الذي كان بينه وبين جبران تويني (الجد) صاحب (النهار)، وكيف كان كل من نجيب الريس وجبران تويني يلاحقان ماري جبران في مقاهي وملاهي وبيوت دمشق وبيروت، وكيف كانا يتنقلان بين العاصمتين كل أسبوع تقريباً، للقائها والاستماع إلى غنائها، وكاد هذا «التنافس» يؤدي إلى خلاف سياسي بينهما.

كان نجيب الريس الكاتب والصحافي والنائب في البرلمان من الرجال الذين كرههم خصومهم، واحترموهم. أما الأصدقاء فقد خشوه بقدر ما أحبّوه، لأنه لا يؤمن بما يسمونه (سياسة عليا) و(ظروفاً قاهرة) توجب المسايرة وغض الطرف، فهو يهاجم الأخطاء أينما كانت، ولذلك قال عنه أحدهم: إنه صديق خطر. ومع ذلك فإن من عاشروه قالوا إنه من أهل اللطف والظرف والكياسة، وإذا كان يبدو للبعض خشناً قاسياً، فما ذلك إلا نتيجة لصراحته ومقته للذبذبة والمواربة، فهو يصادق بإخلاص، ويعادي بإخلاص، ويكره بإخلاص أيضاً.

لم يكن غريباً أن تمشي دمشق بأسرها يوم شُيّع جثمانه إلى مثواه الأخير، ترافقه وفود أقبلت من حلب وحماه وحمص واللاذقية والسويداء ودير الزور، ومختلف المدن السورية، إلى جانب وفود من بيروت وصيدا وطرابلس. جنازة مهيبة سارت من حي أبي رمانة إلى شارع فؤاد الأول، لتمر من تحت نوافذ مكاتب (القبس)، تكللها الورود المنهمرة من النوافذ ومن جانبي الشارع العريض، في الطريق الى مقبرة الدحداح في شارع بغداد، حتى قيل إن الأزهار نفدت في ذلك اليوم من محالّ بيع الورود في دمشق.

سعاد جروس

حبيب كحالة

المضحك المبكي

(1898 - 1965)

يحار المرء عندما يرصد حياة حبيب كحالة، هل يكتب عن الصحافة السورية منذ ما قبل الاستقلال حتى عام 1965 سنة وفاته؟ أم عن الصحف السورية الساخرة؟ أم عن (المضحك المبكي)؟ تلك المجلة، التي تماهت مع حياة حبيب كحالة ونشاطه وفكره وهمومه واهتماماته، وتماهى معها، حتى كاد الشعب السوري لا يذكر حبيب كحالة، رغم نشاطه المتعدد الجوانب، إلا ويتذكر مجلة المضحك المبكي، التي كانت وسيلته الرئيس لنشر أفكاره في الدفاع عن المجتمع والحرية والديموقراطية، وقبل ذلك عن استقلال سورية ورحيل الانتداب الفرنسي، والتي أضحك من خلالها السوريين وأبكاهم و«تحمل في هذا السبيل من الشدائد والأهوال ما يضحك ويبكي فعلاً، ولم يُلق السلاح بل ظل صخرة في الميدان، لكنه دفع ثمن هذا من قلبه ودمه وكبده»، كما قال عنه المرحوم صبحي أبو غنيمة.

ولد حبيب كحالة في دمشق عام 1898، وكان والده يعمل حرفياً في الصياغة، ويعيل أسرته من دخل عمله. ولم يكن أحد في أسرته يمارس أي عمل أو هواية ذات صلة بالأدب أو بالثقافة أو بالفن. كانت هوايته، منذ بلوغه سن الرشد، الكتابة ونظم الشعر والصحافة. نشر عدة مقالات في جريدة الأهرام القاهرية، عندما كان طالباً، حسب رواية الأستاذ جان داية. ولكن بيته كان مع ذلك «يحب العلم ويقدر الأدب» كما روى نصوح بابيل الصحفي المخضرم. درس حبيب في مدارس دمشق (في المدرسة الآسية الأرثوذوكسية)، ثم التحق بالجامعة الأميركية في بيروت، حيث درس الاقتصاد والتجارة، وتخرج منها عام 1918، بعيد سقوط الإمبراطورية العثمانية وزوال الحكم التركي، وقد اختار الجامعة الأمريكية دون اليسوعية (وهما الجامعتان الوحيدتان في لبنان وسورية آنذاك)، لأن الجامعة اليسوعية كانت متهمة بعلاقتها بفرنسا، كما روت السيدة كوليت خوري ابنة أخته.

نصِّب فيصل بن الحسين ملكاً على سورية (1918 – 1920)، وبدا أن سورية دخلت عهد الاستقلال، ولكن اتفاقية سايكس – بيكو خربت التوقعات. وكان لا بد لحبيب كحالة، بعد تخرجه من الجامعة الأمريكية، أن يعمل بجد، فما كان منه إلا أن تشارك مع توفيق اليازجي في إصدار جريدة يومية باسم (سورية الجديدة) في 23 تشرين الأول 1918، والتي ما لبث أن استقل بملكيتها وإدارتها. أفاد حبيب كحالة من الحريات الواسعة أيام الحكم الفيصلي، فنادى من خلال مجلته بتأييد الاستقلال ووحدة أراضي بلاد الشام، ورفض الاستعمار الغربي، وشجب وعد بلفور، وأكد على أهمية الحرية. استمرت (سورية الجديدة) تصدر حتى منتصف عام 1926، بعد انطلاق الثورة السورية الكبرى (1925)، ولأنها «تجاوزت حدود الاعتدال، وراحت تهيج الرأي العام وتعرقل سير أعمال الحكومة»، فقد أغلقت، حسبما جاء في قرار تعطيلها رقم 82 تاريخ 15 /6/1926. ثم سمح لكحالة بإصدارها في 28 كانون الثاني 1928. ما لبث أن تقدم في 11 آب 1929 بطلب إلى وزارة الداخلية، قال فيه «المعروض أنني عزمت على إعادة جريدتي سورية الجديدة بعد أن كنت أوقفتها لأسباب اضطرارية، وسأصدرها تحت اسم (المضحك المبكي)، ولكي تكونوا على علم بذلك، حررتُ لكم هذه العريضة».

توجه حبيب كحالة إلى الصحافة منذ تخرجه، ولم يبحث عن مهنة أخرى. كان بإمكانه أن يختار عملاً مريحاً يؤمن له الراحة والسعادة، كونه خريج جامعة عريقة في زمن كان يندر فيه الخريجون، لكنه اختار بدلاً من ذلك أصعب المهن وأكثرها تعباً وشقاء وأقلها مردوداً. ويبدو أنه اختارها بتصور مسبق وتصميم نادر، سواء لأنها كانت سبيلاً لنشر أفكاره ومساهمته في حياة المجتمع، أم لأنه يهواها رغم مصاعبها. لم يترك هذه المهنة أو يغادرها حتى وفاته، بعد سبعة وأربعين عاماً من العمل الصحفي. لقد كانت جريدة (سورية الجديدة) ثالث جريدة، تؤسس مع قدوم الحكم العربي إلى سورية، وقبل مجيء الانتداب الفرنسي.

لم يأت حبيب كحالة من فراغ، ولم ينشأ في فراغ؛ فهو واحد من النهضويين، الذين حملوا شعلة استمرار التيار العربي النهضوي، الذي كان قد بلغ أشده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذي أسس لحركة النهضة العربية التي

نادت بالحرية واللامركزية (وبالاستقلال) عن الدولة العثمانية، وحملت على عاتقها مهمة التعريب، وهو أيضاً كان نبتاً ثم شجرة وارفة في تاريخ الصحافة والصحفيين العرب، خلال خمسين عاماً ونيف، منذ تأسيسه جريدته الأولى. لقد ورث تقاليد الصحافة وتابع نضالاتها ودعوتها للحرية والتحرر ومواجهة الاستبداد. وكان استمراراً لتلك الصحف ولأولئك الصحفيين، الذين أفادوا من مجيء الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي العثمانية) وخلع السلطان عبد الحميد واعتماد دستور (1908)، الذي تضمن مبادئ (الحرية والإخاء والمساواة)، وتفهم مطالب حركة النهضة العربية. أفاد النهضويون من هذا كله، وحققوا نهضة صحفية، اعتمدت على هامش واسع من الحريات أيام الاتحاديين، وصارت نبراساً ثقافياً ونهضوياً وملاذاً للفكر القومي وإحياء تراث الأمة العربية وتجديد هويتها تجاه السلطة العثمانية المستبدة. وعندما انقلب الاتحاديون على مبادئهم، وفرضوا الأحكام العرفية، وضيقوا على الحريات، وأعادوا الرقابة على الصحف، هبَّ الصحفيون والصحف لمقاومة أفكار وممارسات الاتحاديين، فتعرضوا للسجن والاعتقال. أسسوا صحفاً ساخرة، يمكنها النفاذ من سد الرقابة المنيع، مستخدمة النكتة والسخرية والإسقاط وغيرها، فصدرت صحف (حط بالخرج) و(تكمل) و(الحمارة)، التي تحولت إلى (البغلة) بعد إغلاقها، ثم تحول اسمها إلى (حمارة الجبل) بعد الإغلاق الثاني، وأخيراً سمت نفسها (جراب الكردي) بعد الإغلاق الثالث. وعلى الخطى نفسها سارت جريدة (أبو النواس)، فصارت (عكاز أبو النواس)، ثم (أبو فراس)، ثم (أبو فراس الجديد).

وهكذا نلاحظ أن فترة حكم الاتحاديين هذه، أسست لصحافة هزلية من جهة، وراكمت تقاليد مقاومة الصحفيين للاستبداد ووقوفهم بوجهه، من جهة أخرى. كما نلاحظ خاصة أن مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى شهدت ظهور عدد من الصحف الساخرة، ربما أغرت حبيب كحالة أن يتبنى هذا الأسلوب الصحفي عند انتسابه للمهنة، سواء للإفادة من فعالية هذا النوع من الصحف أو من إمكانيات التفافه على الرقابة، أو لأنه يتواءم مع طبعه الساخر وأسلوبه السهل الممتنع والشفاف. وهكذا ما أن أغلقت جريدة (سورية الحديثة)، حتى أسس كحالة مجلة (المضحك المبكي)، التي كانت أثيرة على حياته وحياة السوريين، ومرآة لتاريخ

النضال من أجل الحرية والتحرر والاستقلال والديموقراطية. وقد قارن الأستاذ جوزف الياس هذا الاسم (المضحك المبكي) بأسماء الصحف الأخرى في تلك المرحلة، فقال: « .. إن أصحاب الصحف الهزلية في هذه المرحلة قد راعوا اختيار الأسماء الطريفة لصحفهم.. ومن هذه الأسماء، ما يدل على أشخاص مثل: أبو النواس العصري، أبو العلاء المعري. ومنها ما يدل على حيوانات مثل: الحمارة، الثعبان، النحلة. ومنها ما يدل على آلة مثل: الطبل، الزمر، المكنسة. ومنها أسماء أسطورية خرافية، مثل: الغول، العفريت. بيد أن أطرف ما توصل إليه هؤلاء في تسمية صحفهم، يتمثل في تسمية (المضحك المبكي)».

كان حبيب كحالة ابناً للطبقة الوسطى السورية الناشئة في ذلك الوقت بالمعنى السياسي، وابناً لحركة النهضة العربية وتياراتها ومناضليها. وكانت حركة التنوير الأوروبية، قد أغرت النهضويين العرب بالإفادة منها، وخاصة من شعاراتها الأثيرة (حق المواطنة، الحرية، التعددية، الديموقراطية، المساواة، احترام حقوق الإنسان.. وقبل ذلك كله الاستقلال). ولأن حبيب كحالة ابن بار لحركة النهضة العربية، وملتزم بأهدافها، مناضل في صفوفها، فقد اختار أن يكون مناصراً (للكتلة الوطنية)، التي ساهمت في قيادة حركة استقلال سورية ردحاً من الزمن، وتبلورت في نهاية العشرينات وأوائل الثلاثينات من القرن العشرين، وواكبها حبيب كحالة بتأسيس مجلته الشهيرة والعزيزة على قلبه (المضحك المبكي) عام 1929؛ حيث سجلت، طوال ثلاثة عقود ونصف، تاريخ النضال السوري من أجل الاستقلال والحرية، وضمت بين صفحاتها مواقف حبيب كحالة مما يجري في سورية خلال هذه العقود. وقد أكدت المجلة هذا التوجه منذ عددها الأول، حيث قال كحالة: «إننا نعاهد القراء على أن تكون (المجلة) صريحة وصادقة، ولو أغضبت البعض. ولا نجعل موقفنا موقف الأحنف الذي كان يسمع مدح الشعراء ليزيد بن معاوية وهو ساكت، فلما سأله معاوية: ما لك ساكتاً يا أبا بحر، قال: إنني أخاف الله تعالى إذا كذبت، وأخافك إن صدقت. فنحن سنسعى إلى أن نخاف الله في صراحتنا، وأما عبيد الله فإذا غضبوا، ونحن نقول الحقيقة، فليشربوا البحر». وهكذا لخص حبيب كحالة توجه مجلته

منذ العدد الأول: الصدق.. الصراحة.. البحث عن الحقيقة، حتى لو أغضبت الآخرين، وبقي محافظاً على هذه المعايير، حتى اليوم الأخير من حياته.

لقد «بُنِيَتْ سياسة المضحك المبكي على النقد اللاذع، والسخرية المرة، والدعابة الطريفة، والأسلوب الفني المبتكر، والرسوم الكاريكاتورية التي تلخص الأحداث، وتبرز المواقف وتجسّم الأخطاء». وما كان لهذه المجلة أن تنفرد في السبق «لولا قلم صاحبها الفنان المبدع وريشته الساخرة الضاحكة التي تنم عن موهبته الأصيلة وذكائه الوقاد».

استمر حبيب كحالة بنقده اللاذع للأوضاع الداخلية وسخريته المرة التي لم توفر أحداً: لا المفوض السامي ولا رئيس الجمهورية ولا رئيس الوزراء أو الوزراء؛ ولم تتوقف جريدته عن مقاومة الانتداب والعمل للاستقلال والدفاع عن الحرية ومحاربة الفساد. وكان هذا كفيلاً بتعطيل (المضحك المبكي) بين فترة وأخرى، وإحالة ناشرها إلى المحاكمة، حتى أن مدة تعطيلها (الاختياري أو الإجباري) بلغت أحد عشر عاماً من أصل سبعة وثلاثين عاماً هي مدة صدورها..

خاض كحالة، ممتطياً صهوة (المضحك المبكي)، معارك عديدة مع المفوض السامي وسلطات الانتداب والمتعاونين معها، من أجل الاستقلال والحرية والديموقراطية والدستور والانتخابات النزيهة، وواجه مع صحيفته المزيد من القمع والاضطهاد والإغلاق والتضييق على حرية العمل والنشر. لذلك تعرضت للتعطيل والإغلاق مرات عديدة، ومن الطريف أن تعطيلها الأول (26 تموز 1930) جاء بعد مرور عام على تأسيسها، وعطلت مرتين بعد ذلك عام 1932، لكنها في ذلك العام لم تتوقف عن الصدور فعلياً، لأنها احتالت على قرار التعطيل، فتابعت صدورها تحت اسم (ماشي الحال) طيلة فترة التعطيل، بنفس الشكل والحجم والأسلوب، وحتى بمتابعة أرقام أعداد المضحك المبكي بشكل متسلسل أي من العدد 125 وحتى 133. وجريدة (ماشي الحال) كانت ملكاً للسيد صبحي عقدة صاحب امتيازها، وقد استعارها حبيب كحالة مؤقتاً، لإصدار (المضحك المبكي) خلال تعطيلها. وعطلت (المضحك المبكي) عام 1939، ثم ثلاث مرات عام 1940، ثم عام 1946 وعام 1947 و1950 و1953، وما أكثر المرات التي عطلت فيها أيام الانتداب وبعد الاستقلال، إلى أن توقفت نهائياً عام 1966. وقد أنشأ حبيب كحالة

مجلات موازية تحل محل (المضحك المبكي) عند إغلاقها في الغالب الأعم، كما هو حال مجلة (المصور) وجريدة (دمشق).

كان قلم حبيب كحالة نصيراً لمطالب الحرية والاستقلال والانتخابات والحكم الدستوري، فأيد الكتلة الوطنية، ثم فيما بعد الحزب الوطني المنبثق عنها «كانت مجلة المضحك المبكي تعطف على الكتلة الوطنية، ثم على الحزب الوطني فيما بعد، بسبب انتماء صاحبها إلى هذا الحزب، غير أنها بقيت موضوعية متحررة من العقد، لا تحابي ولا تخشى في الحق لومة لائم، وكانت تفتش عن معايب السلطة لتبرزها، وتنتقد هذه السلطة كائنة من كانت»، كما يقول جوزيف الياس.

لقد أيد المعاهدة السورية- الفرنسية عام 1936، كمقدمة للاستقلال، شأن القوى الوطنية السورية الأخرى، واحتجبت المجلة في ذلك العام خلال الإضراب العام وتضامناً مع الحركة الوطنية، وصب جام غضبه على الانتداب وأعوانه، وأشار إليهم بإصبع الاتهام وبسخرية لاذعة لأنهم انتهازيون (وماسحو جوخ) وزمرة نفاق ولابسو (الطراطير) والأقل فهماً من الحمير، وغيرها من التعابير والصفات اللاذعة. وذهبت بعض جمله أمثالاً في المجتمع السوري، كوصفه الأغنياء الأغبياء بالحمير المحملة بالذهب، ووصفه بعض النواب بأنهم (أحمر من الحمير) والحكم الدستوري الذي قال بأنه (زفت). وهكذا لم يوفر من يستحقون النقد بأسلوبه الهزلي. وكانت أسماء أبواب مجلة المضحك المبكي وحدها تضحك وتثير السخرية، وتدل دلالة صادقة على الأسلوب الذي كانت تتبعه. فمن تلك الأبواب (فكاهات، دعاء، حكمة حمار، مضحكات مبكيات، حديث سياسي حشاش، موال الأسبوع، زلغوطة، فتشوا عن مغزاها، محكمة المضحك المبكي، حزازير، النكتة والكاريكاتير، البورصة السياسية) وعدد من الأبواب الأخرى المماثلة. وقد استخدم حبيب كحالة الكاريكاتير في مجلته طريقاً إلى النقد والإصلاح، وكانت تلجأ غالباً إلى التلميح أكثر من التصريح، وتتسم بالرصانة والموضوعية، وتجانب الشتيمة أو نهش الأعراض، و«كان في عددها الواحد أكثر من صورة كاريكاتيرية. وقد زادت المجلة على موادها في سنيها الأخيرة صفحات في الاجتماع والأدب والاقتصاد، يحررها نخبة من الكتاب، كما صارت تفتتح كل عدد من أعدادها بافتتاحية جدية رصينة، تتناول أمراً من أمور الساعة، وراحت

تناقش بعض المسائل الدولية بجدية ورصانة. وقد كان يطغى عليها قبل الخمسينات طابع الهزل والفكاهة، وكان أسلوبها عامياً في الغالب يندر فيه استعمال الفصحى. أما في سنيها الأخيرة، فصارت تجمع بين الجد والهزل، وصارت السمة الغالبة على أسلوبها سمة الأسلوب الصحفي، وحتى في بعض الهزليات والفكاهات راحت تستخدم الفصحى أحياناً لغة لها».

إن جرأة حبيب كحالة وقلمه الساخر ودفاعه عن الاستقلال والحرية والديموقراطية، جعل له ولمجلته (المضحك المبكي) رصيداً شعبياً هاماً، وولد ثقة في نفوس الشعب، مما حدا بالحزب الوطني أن يرشحه للانتخابات عن مدينة دمشق عام 1947، ونجح نائباً، فازدادت قوته وموقعه، مما ساهم في تطوير المجلة نفسها.

لم يكن للانقلاب العسكري، الذي قاده حسني الزعيم (1949)، أو ذاك الذي تزعمه أديب الشيشكلي (1951)، أو ما بينهما من انقلابات، أن تحتمل صدور صحيفة مثل المضحك المبكي، أو قلماً مثل قلم حبيب كحالة. لذلك فقد كانت المجلة تعطل بعد كل انقلاب وعند كل انقلاب وخلال حكم الانقلاب. ولكن حبيب كحالة بقي مصراً على الأهداف نفسها والأسلوب نفسه، وتحمل سيل العقوبات التي كانت تنهال عليه، وكان يستمر بالصدور ما أن تتاح له الفرصة، لكن المستغرب هو لجوء حبيب كحالة إلى إغلاق (المضحك المبكي) اختيارياً في 27 تشرين الأول عام 1956 ولمدة استمرت ست سنوات، ثم عادت إلى الصدور في 7 تشرين الأول 1962. وقد جاء في افتتاحية العدد الأول بعد صدورها في هذا التاريخ «تعود هذه المجلة إلى الصدور بعد غياب طويل، لا أتهم به أحداً ولا أرجعه لأحد، وإنما قصدته بملء إرادتي وبمحض مشيئتي، لأني لم أستطع أن أكتب ما أريد، ولا أقبل أن أحمل على كتابة ما لا أريد، فكسرت القلم واعتزلت لأن العبد الحقيقي، كما يقول أوسكار وايلد، هو الذي لا يستطيع أن يعبر عن رأيه بحرية..». والمستغرب هنا هو أن تاريخ التوقف (1956) كان في أوج ما سمي بمرحلة الحكم الديموقراطي في سورية (1954 ـ 1958)، فكانت التقاليد الديموقراطية ممارسة، والتعددية السياسية والاقتصادية والاجتماعية معترف بها، وحرية التعبير مصونة. لم تكن هناك أسباب ظاهرة وواضحة تؤدي إلى الإغلاق الاختياري للمضحك المبكي وحرمان البلاد من صوتها الحر، خاصة

وأنها كانت قد واجهت في تاريخها صعوبات وعقوبات صعبة الاحتمال، ومع ذلك صمدت، فكيف بها لا تصمد في حكم ديموقراطي، يحترم حرية الصحافة وتعددها. ولو كان الإغلاق تم بعد سنتين ونيف أي أيام الوحدة، لفهم الأمر؛ حيث ضيّق حكم الوحدة على الصحافة ثم (أممها)، ولكن تلك الأيام لا تشي بأسباب واضحة تبرر الإغلاق. وقد أشار الصحفي عبد الغني العطري إلى أن حبيب كحالة كان يعرف أن وراء الحكم الديموقراطي لجنة عسكرية تؤيد الفئة الحاكمة، وأن البلاد مقبلة على تعاون من نوع خاص مع الاتحاد السوفياتي، وبالتالي فهي مقبلة على تطبيق التجربة الشيوعية، حيث لا حرية للصحافة، وهذا ما أغرى حبيب كحالة باستباق الأحداث. وربما كان امتداد نفوذ المكتب الثاني المتعاظم آنذاك، وراء الإغلاق الاختياري للمجلة.

عادت (المضحك المبكي) عام (1962)، في مرحلة مضطربة من تاريخ سورية. ويبدو أن الشروط العامة أو المناخ العام لاستمرار صدورها، لم يكن مناسباً. وعلى أية حال، فقد أوقفها حبيب كحالة بإرادته في (19 شباط 1963)، أي بعد عدة أشهر من صدورها، احتجاجاً على إهانة وُجهت إليه من قائد قوى الأمن الداخلي. بعد أربعة أشهر، صدرت المجلة من جديد في (حزيران 1963)، وكان حزب البعث قد تولى السلطة في 8 آذار 1963. مع ذلك، ورغم التقييد الذي فرضه حزب البعث على حرية الصحافة والتعبير، فقد استمر كحالة بإصدار المضحك المبكي، معاكساً التيار، حتى توفي في 22 كانون الأول 1965، ثم تولى ابنه سمير، الصحفي ورسام الكاريكاتير الشهير، رئاسة تحريرها حتى آخر أيار من العام التالي 1966، حيث عطلت نهائياً، وقيل إن ذلك تم تنفيذاً لأمر شفهي من وزير الإعلام. ويروي سمير كحالة الأيام الأخيرة لإغلاقها فيقول «بتاريخ 29 أيار 1966 صدر العدد الأخير من المضحك المبكي. وفي الساعة الثانية عشرة ليلاً من اليوم نفسه اتصل بي هاتفياً المسؤول في الشعبة السياسية، وطلب مني الحضور إلى مقر الشعبة في المهاجرين نوري باشا، فذهبت وانتظرت رئيس الشعبة إلى أن حضر في الساعة الثالثة صباحاً، وقال (إن الدكتور زعلان منك، ويجب أن تبقى عندنا، ريثما نسعى معه غداً لحل المشكلة) فقلت (أنا بين الأيادي). فعلاً، بقيت بين الأيادي لمدة شهر. وبعد خروجي من سجن (الشيخ حسن)، طلبت من وزارة الإعلام بياناً بتوقيف

المجلة، فحصلت بتاريخ 1966/8/9 على إفادة موقعة من المدير العام للأنباء جاء فيها (بناء على توجيهات السيد وزير الإعلام توقفت مجلة المضحك المبكي عن الصدور اعتباراً من تاريخ 1966/5/30)».

هكذا رحل حبيب كحالة، بعد حياة زاخرة بالنشاط، والنقد والعمل العام والسخرية والدفاع عن الاستقلال والحرية والديموقراطية والتقدم الاجتماعي. رحل كحالة بشجاعة يحسد عليها، وجرأة مشهودة، وإحساس جدي بنبض الشعب وحاجاته. كان أسلوبه مفهوماً وسهلاً، سواء كتب بالعامية أو بالفصحى، وسواء كان صريحاً أو اعتمد التلميح. كان يعرف أن «الفصيح لا يثقل على العامة والعامي لا يستهجن على المثقفين»، وكتب بأسلوب سهل ممتنع، ولم يتوانَ عن إيراد الأمثلة التي لا تخفى إسقاطاتها على أحد، كقوله ساخراً من التطور الشكلي الكلامي لنيل المرأة حقوقها «كان الدمشقي في السابق عندما يتكلم عن زوجته يقول: امرأتي وأنت أكبر قدر، ثم زوجتي، ثم صار يقول قرينتي، والآن الحمد لله يقول: مدامتي..». ومن الواضح هنا أنه يتهكم على هذا التقدم الشكلي في نيل المرأة حقوقها، والذي لا يتجاوز تحسين الصيغة واللفظ ثم فرنجته، دون أن نشهد أي إجراء حقيقي متخذ في هذا المجال. وقد روى أيضاً قصة أحد الانتهازيين مع ماسح الأحذية، حيث استغرب هذا الانتهازي أن يبقى ماسح الأحذية سبعة عشر عاماً في المهنة نفسها دون أن يرتقي، ويجيب ماسح الأحذية «لو كان يمسح جوخ لكان اليوم بأعلى المراتب». وتجرأ على بعض السياسيين في زاوية «حكمة حمار»: «صحيح أنا حمار، ولكن حمِّلني ذهب لفرجيك كيف بحكي ووين بجلس..». لقد كانت سخريته حادة كالسيف، وصراحته غير معهودة، وجرأته تتجاوز الحسابات الشخصية.

هكذا كان حبيب كحالة، الذي خاطبه بدوي الجبل، قائلاً: «كنتَ في الصحافة طرازاً فريداً لا عهد للناس به، تصمي ولا تدمي، وتسكب في نقدك صراحة المؤمن، وعذوبة الفنان، وإيثار المحب، والحب كان معدن صفاتك».

وشهد فؤاد الشايب أنه أمضى «ستاً وثلاثين سنة في صفوف المعارضة الدائمة مع الشعب الذي يشكو، ومع الشعب الذي يلهو، وكانت (المضحك المبكي) مسرحاً للشعب وملهى، ومعرضاً لشكاواه، ومدرسة ليلية نهارية يتعلم فيها العامة

ألف باء السياسة». ورأى جلال فاروق الشريف أن حبيب كحالة «واجه الحياة بسخرية، والسخرية موقف، بل وموقف أصيل. إنها إيجابية الرجال المتألمين المرهقين الموهوبين». وقال زميله عباس الحامض: «سلك حبيب كحالة في حياته الصحفية أصعب الطرق، واختار الأسلوب الساخر الهادئ.. كان يدغدغ فلا يؤلم، ولا يجرح، وكان يغلف ما يريد قوله بغلاف شفاف.. في أسلوبه الذي تفرَّد به، عذوبة ورقة وخفة دم، وفيه قوة ورشاقة». ورأى نصوح بابيل أنه «كان خطيباً مفوهاً في الندوات النيابية والميادين الشعبية، وكاتباً صادقاً متزناً، لا يعرف الإسفاف إلى أسلوبه سبيلاً، وموجهاً رشيداً للحكام على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم، يهاجم ليصلح لا ليفسد، وينتقد ليبني لا ليهدم، وكان وفياً لمهنته، يحنّ إلى صناعة القلم كلما حُرم منها».

رحل حبيب كحالة عن سبعة وستين عاماً، أصدر خلالها خمس صحف ومجلات وملاحق مجلات، هي: (سورية الجديدة) و(المضحك المبكي) و(ماشي الحال) و(المصور) و(دمشق). كذلك فقد ألف أربعة كتب، هي: (ذكريات نائب) و(قصة خاطئة) و(الناس وكشكول) و(المضحك المبكي). أثر كحالة تأثيراً بنيوياً في تاريخ الصحافة السورية، لا سيما الساخرة منها، وساهمت صحفه مساهمة جدية في تشكيل وعي السوريين، خلال ما يقارب نصف القرن.

حسين العودات

نصوح بابيل

عاش للصحافة

(1898 – 1986)

دفعته رغبته في أن يكون صحافياً سورياً، بل صاحب دورية، لذلك فقد استبدل عام مولده بعام جديد، هو عام 1898، ذلك أن قانون المطبوعات، الذي هيأته سلطة الانتداب على سورية، كان يمتنع عن إعطاء تراخيص للمواطنين السوريين، إذا لم يكونوا قد أتموا الخامسة والعشرين من العمر. هذا ما كتبه الصحافي السوري المرحوم نصوح بابيل، عن ميلاده المشكوك فيه (1905)، قبل أن يتوفى عام (1986). عاش برأيه 81 سنة، وبرأي الواقع الموثق 88 سنة، ولكن ماذا تهم السن في العمل الصحفي والسياسي؟ وفي النهاية، ما هي إلا سبع سنوات، لا تقدم ولا تؤخر كثيراً في رأي رجل عاش حياته يكتب «الأيام» للأيام، حتى إنه من حبه للصحافة، كبَّر نفسه من أجلها.

ولد نصوح بابيل، كما يقول في كتابه (صحافة وسياسة)، عام 1905، والراجح أنه ولد قبل ذلك بعدة سنوات. فهو ابن القرن العشرين على كل حال. وبعد موت والده، كفله خاله الشيخ عبد الرحيم البابولي، الذي كان يعيش في حي الميدان بدمشق.

تفتح وعي نصوح بابيل على أحاديث خاله، عن صديقه محمد كرد علي، ونضاله من أجل الكلمة العربية، في جو من هجمة الأتراك العثمانيين لتتريك العرب، وجاءت حادثة صفع شفيق المؤيد العظم لطلعة باشا، أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي التركية، رداً على تهجمه على العرب في مجلس (المبعوثان)، لتترك صدى كبيراً في نفسه.

صحيح أنه كان عثماني الانتماء والهوى، وكان تلميذاً في مدرسة (السلطان التركي)، لكن عروبته استيقظت مبكراً، فراح يتساءل بينه وبين نفسه عن هويته

الحقيقية وانتمائه إلى العروبة. ولهذا شارك في الاشتباكات، التي قامت بين التلاميذ العرب والتلاميذ الأتراك، وحسم الموقف عام 1916، عندما علق جمال باشا، وهو أحد قادة الأتراك المتعصبين، أحرار العرب على المشانق في دمشق وبيروت، مما جعله يشكك في عثمانيته، ولماذا لم ينتم للعروبة بشكل ناجز.

❖ ❖ ❖

في حزيران عام 1916، أعلن الشريف حسين بن علي الثورة، فصفق قلب نصوح بابيل على صغره للثورة. وكان بين من خرجوا لملاقاة الجيش العربي، عندما دخل دمشق في 30 أيلول عام 1918، لكنه حزن لمصرع الإمبراطورية الإسلامية، وزادت الحيرة والتردد في ولائه. وتلك حال أصابت كثيرين من أبناء العروبة، غير أن الانتماء إلى العروبة كان الأقوى. فما أن نال الشهادة الابتدائية (السرتفيكا)، حتى نذر نفسه لها، وتجسيداً لذلك عمل في تنضيد الحروف في بعض المطابع، ثم في مطبعة الحكومة، ورأى في العمل من أجل القومية العربية واجباً مقدساً.

عمل مكاتباً لجريدة (الرأي العام) البيروتية، في بداية عمله الصحفي، لأن صحف دمشق استصغرته، ومرَّ بتجربة فريدة عندما نسب كتابته إلى شخصية سياسية، نشرها صاحب جريدة دمشقية رفضه من قبل، وتوزعت جهوده الصحفية على جرائد لبنانية، هي (العهد الجديد) لخير الدين الأحدب، و(الأحوال) لعيسى سيف، و(الحرية) لجورج عوض، و(الشرق) لخيري الكعكي، و(الأحرار) لجبران تويني وسعيد صباغة وخليل كسيب، ومن ثم راسل جريدة (المقطم) المصرية، وكان ينقل لها أخبار الثورة السورية الكبرى (1925- 1927) باسم مستعار وبشكل سري، حتى أصبح محرراً في جريدة (سورية الجديدة) الدمشقية، التي كان يملكها حبيب كحالة.

بعد هذا النشاط الصحفي الحار، كلف عام 1928 برئاسة تحرير (المقتبس) لصاحبها محمد كرد علي، الذي كان وزيراً. وعندما استصدر رياض الصلح وجميل مردم بك ترخيصين لجريدتين، هما (الأيام) وبديلتها (اليوم) في حال منع الأولى، كلفاه بطبعهما؛ فذهب إلى بيروت، واشترى بالتقسيط آلات طباعة وحروفاً. وفي 10 أيار 1931، صدر في دمشق العدد الأول من الجريدة، وكانت

مسائية، فأقبل الناس على قراءتها وتداولها، ما زاد حقد سلطة الانتداب عليها، وقد قال علي الطنطاوي عنها: «لقد صارت الأيام لسان الأمة».

أصبحت صحيفة (الأيام) لنصوح بابيل رسمياً، في 15 آب 1932، بدفع من أصحابها الأعضاء في الكتلة الوطنية، بعد أن عرض منافس معروف بتعامله مع سلطات الانتداب شراءها. فبذل نصوح جهده لتبقى الجريدة لساناً للناس في تصديهم للفرنسيين، واستعان بمحررين أكفاء، بعضهم لمع فيما بعد، وبعضهم بقي معها، حتى كادت أن تتوقف في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، إبان قيام الوحدة الاندماجية بين مصر وسورية. ومن هؤلاء المحررين: سامي الشمعة، ورشيد الملوحي، ووجيه الحفار، وأحمد عسة، وبشير العوف، وحمدي بابيل، وإيليا شاغوري، ونذير فنصة وأحمد قدامة، ومنير الريس، ود. ممدوح حقي، وكامل البني، وعادل عبد العال، ومطيع النونو، وعبد الله الشيتي، ومفيد الحسيني، وحنا مينة، وكمال الشمعة، وسعيد الإمام. واستكتب بابيل كبار الكتاب. وبسرعة عبرت (الأيام) عن تاريخ النضال في سورية، مما جعل سلطة الانتداب تعطلها، حتى إنها عطلت مرة سبعة أشهر كاملة، كما أنها أحيلت، عشرات المرات، إلى المحاكم المحلية والأجنبية.

وكانت (الأيام) لا تكف عن نشر كتب، تعبر عن طبيعة المراحل، التي تمرُّ بها البلاد، وكان كتاب (الوثائق والمساهمات التي تبودلت بين الحسين بن علي والسير مكماهون) أول هذه الكتب.

❖ ❖ ❖

صدر عفو عن الزعيم الوطني عبد الرحمن الشهبندر، عام 1937، فعاد من مصر، التي كان التجأ إليها واستقبل استقبالاً قلَّ نظيره لزعيم عائد من المنفى. وقد عبرت (الأيام) كتابة، وبتوجيه من صاحبها ورئيس تحريرها بابيل، عن فرحتها بعودته، مما جعل الأمور تنقلب على (الأيام)، فقد غضب عليها زعماء الكتلة الوطنية، وربما على صاحبها، وفجر الخلاف بين صاحب الجريدة والكتلة بسبب وقوفها إلى جانب الصف الوطني ضد قرار عصبة الأمم بسلخ لواء اسكندرون عن الوطن الأم سورية، التي كان جميل مردم بك رئيساً لوزراء أيامها، ولمدة سنتين ونصف، مما أدى إلى تعطيل (الأيام) خمس مرات، واعتقال صاحبها

نصوح بابيل بتهمة «إلقاء خطبة في حي الميدان بدمشق». وربما وقع ذلك، بسبب حزن وحساسية وضيق السلطة الوطنية السورية لقرار السلخ الذي نفذ، والذي أُقرَّ وصار واقعاً، على الرغم منها، ولوقوف صاحبها مع الشهبندر ضد الكتلة الوطنية، التي كانت تحسبه وجريدته نصيرين لها.

ولما اغتيل الشهبندر في 6 تموز 1940، تجللت (الأيام) بالسواد حزناً عليه، وتابع صاحب (الأيام) التحقيق والمحاكمة ونشر ذلك. ولم يكتف، بل خطب في ذكرى الأربعين مع لفيف كبير من السياسيين الوطنيين، ولخص كلمات الذين لم يشاركوا لأسباب، وألقى التهمة على الكتلة الوطنية صراحة، بعد أن فرَّ بعض زعمائها إلى العراق، ومنهم جميل مردم بك وسعد الله الجابري ولطفي الحفار، الذين عرفوا أن الاتهام بمؤامرة الاغتيال قد شملهم. وانقسمت البلاد، أثناء المحاكمة وبعدها، إلى شهبندريين وكتلويين، وما من شك أن نصوح بابيل كان في جريدته وكتاباته شهبندرياً بامتياز. وقد توصل إلى قناعة، أبرزها في جريدته، وهي أن للفرنسيين ضلعاً في هذا الاغتيال، وأن الاستخبارات الفرنسية قد أعدت له.

❖ ❖ ❖

اندلعت الحرب العالمية الثانية عام 1939، وقد عانت الصحافة السورية الكثير من المتاعب بسبب طبيعة الحرب، وبسبب ما اتخذته السلطة الفرنسية من إجراءات الرقابة، وغلاء أسعار الورق. لكن نصوح بابيل، استمر في إصدار جريدته، متحملاً بعض الخسائر. وإذ احتلت قوات المحور فرنسا، طرد الديغوليون الفرنسيون والإنكليز، جيش حكومة فيشي الموجود في سورية، وحلوا محله. وكان ذلك في 8 حزيران عام 1941. وتحقق حلم السوريين، وأتيح لسورية الاستقلال، الذي ضمنته قوات الحلفاء، التي كانت تريد تحرير فرنسا. فمن باب أولى أن تحرر مستعمراتها.

وكان من توابع هذا الاستقلال المعلن، أن تنادى أصحاب الصحف إلى إنشاء نقابة للصحافة، وبالانتخاب السري، فاز نصوح بابيل وثلاث من زملائه. شكلوا لجنة وضعت قانون النقابة، الذي وافقت عليه وزارة الدعاية والشباب. وانتخب بالاقتراع السري أيضاً، نصوح بابيل وحبيب كحالة وجيه الحفار وراغب العثماني وبسيم مراد أعضاء مجلس النقابة. وانتخب هؤلاء نصوح بابيل أول نقيب

لأصحاب الصحف في سورية. وجرى تنظيم المهنة، وإبعاد الدخلاء عليها، وتوطدت العلاقة بين الصحافة والمواطنين وبينها وبين الصحافة في البلاد العربية والأجنبية، وافتتح مقر لها في دمشق، وأنشئت فروع في المحافظات، وكان للنقيب دور بارز في ذلك، كان من بعض إنجازاته الوفد الذي ترأسه وذهب به إلى القاهرة، حيث لاقى ترحيباً لائقاً على الصعيد الرسمي، إذ أقام له رئيس الوزراء المصري النحاس باشا ووزير الداخلية فؤاد سراج الدين، مآدب تكريم، بولغ في الحفاوة بها. وعلى الصعيد الشعبي، أقام له عدد من السياسيين والفنانين والأدباء حفلات، دلَّت على مكانة القطر السوري في مصر، وكان وفد نقابة الصحافة السورية في مستوى رفيع لفهم دور سورية ودور صحافتها في العالم العربي. وهو ما نظر إليه على أن للصحافة مكانة يضعها فيها المسؤولون عنها رفعاً أو هبوطاً، بمقدار شعورهم بأهميتها وأهميتهم. وعندما عاد الوفد إلى سورية، زار رئيس الجمهورية السورية، ثم قصد لبنان، فزار رئيس جمهوريته، وأقيمت له الحفلات، تثميناً لمكانته والصورة المثلى التي قدمها في رحلته إلى مصر، ويعود ذلك إلى شخصية النقيب نصوح بابيل وعلاقاته.

❖ ❖ ❖

بدا أن سلطات الانتداب الفرنسي على سورية، تماطل في سحب جيوشها، تحقيقاً للاستقلال. وقد زادت تحرشات الضباط والجنود الفرنسيين بالشعب، وأقدمت القوات الفرنسية على ارتكاب مجزرة مساء الثلاثاء 29 أيار 1945، فصبت نيران حقدها على المجلس النيابي، واقتحمته، وأجهزت على حاميته من الدرك السوري، وامتد العدوان إلى عدد من المدن السورية الأخرى، وسقط الشهداء وهم يهتفون للاستقلال.

في هذا الجو العاصف، وقف نصوح بابيل على درج المجلس النيابي، الذي دكته المدفعية الفرنسية، أمام حشد من المتظاهرين السوريين، وراح يخطب فيهم: «أما آن للمستعمر أن يعرف حقيقة هذه الأمة؟ تالله إن قوى الحديد والنار، لم تبدل فيها عقيدة، ولن تفل عزيمة، ولن تصدها عن هدفها الأسمى، وهو الاستقلال المفدى. لقد صدعوا هذا البناء بناء البرلمان، بقنابل الظلم والطغيان، ولكن تأكدوا أن كل

حجر من هذه الحجارة المتصدعة، سيكون أساساً مكيناً في صرح استقلالكم، وتأكدوا أن كل قطرة دم منكم هي وسام شرف على صدر الوطن».

وشاركت (الأيام) كغيرها من الصحف السورية في الحملة على الانتداب والعدوان، بعد أن احتجبت لمدة أسبوع احتجاجاً على المجزرة وعلى احتلال البرلمان.

أثرت هذه الحملة، التي شاركت فيها الدول العربية، رسمياً وشعبياً، والدول المحبة للسلام، وبدئ بترحيل حاميات فرنسية من دمشق، وقررت حاميات أخرى الاستسلام. وعلى صعيد الخارج، كان للبرقية التي أرسلها رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل إلى الجنرال ديغول، بإيقاف إطلاق النار، أثر كبير في التمهيد لانسحاب الجيش الفرنسي من سورية نهائياً.

كانت أزمة الصحف السورية، بسبب غلاء أثمان الورق والمطابع تزداد، وقد اجتمع أصحاب الصحف بتحريض من النقيب نصوح بابيل، وشكوا أمرهم إلى الوزارة ومجلس النواب، فخصصت مساعدة ضئيلة. رأت مجموعة الصحف أنها غير كافية، فاعتذرت عنها. وكان للنقيب دور بارز في هذا الوقف، مما رفع من قدر الصحافة ككل، في أعين القراء السوريين. قد بدا الجزء المخصص بالصحافة في خطاب رئيس الجمهورية السورية المكرس للاستقلال، موجهاً لنقيب الصحافة الأستاذ نصوح بابيل عندما قال: «وأحب ألا يكون حديثي خلواً من الصحافة، فالصحافة هي التي تضرب في السهم الأول في تنوير الرأي العام وتوجيهه، وقد كان لصحافتنا الوطنية نصيبها في هزّ الروح القومية، وكان لها قدم صدق في قراع المستعمر وعن ما بلغناه من عزة وسيادة. واجبها اليوم في دور البناء أن تكون عوناً في البناء، لا معاول للهدم، فالنقد النزيه مهما اشتد ضروري، وطبيعة الحياة الديمقراطية تطلب أن تكون الصحافة مسرحاً حراً لمختلف الآراء».

كانت (الأيام) من بين الصحف التي عطلتها الحكومة، عملاً بقانون سن أيام الانتداب، ولهذا شن النقيب بابيل الحرب على الحكومة مع باقي صحف المعارضة أو المتضررة، ويبدو أن حربه نجحت، فقد سقطت حكومة سعد الله الجابري، وألفت حكومة جديدة.

كان المجلس النيابي السوري، بانتخاباته، ورئيس الجمهورية وخطاباته وزياراته، الشغل الشاغل للصحافة، ولنقيب الصحافة نصوح بابيل، وقد مرت

أحداث كبيرة وعظيمة الشأن في تاريخ سورية بعد الاستقلال، ولعل أعظمها نكبة فلسطين، واستيلاء الصهاينة عليها، والمعركة التي خاضتها سورية والبلاد العربية في الأمم المتحدة لتحول بينها وبين قرار التقسيم، وقد انعكست كل المواضيع المصيرية في كتابات بابيل وافتتاحياته في (الأيام).

ويلخص صاحب (الأيام) ونقيب الصحافة، القضايا التي واجهتها الصحافة في السنوات الخمس الأولى، التي أعقبت الاستقلال بعدة قضايا، هي انحياز بعض النواب إلى صحف دخيلة، أسرفت في الإساءة إلى نفسها، وإلى الصحافة وإلى المجتمع كله، بما كانت تكيله من السباب والشتائم إلى بعض الناس، وشكوى الصحافة من التعطيل الإداري، والكره الشديد من قبل الوزراء وبعض النواب للصحافة؛ ولهذا تطالب النقابة الحكومة ومجلس النواب بإنجاز قانون الصحافة، الذي يضع حداً للانحرافات. ورفعت مذكرة بهذا الخصوص وقَّعها أصحاب الصحف: يوسف العيسى (ألف باء)، ونجيب الريس (القبس) ووجيه الحفار (الإنشاء) ووديع صيداوي (النصر) ومنير الريس (بردى) وإيليا شاغوري (البلد) وسعيد تلاوي (الفيحاء)، وبشير العوف (المنار)، وحبيب كحالة (المضحك المبكي)، ونصوح بابيل (الأيام) الذي كان وراء المذكرة، وصاحب فكرتها.

لكن المذكرة لم تعجب وزير الداخلية محسن البرازي، فهاجمها في المجلس النيابي، وقال إن بعض الصحف أساءت استعمال الحريات الممنوحة لها، وأسف جداً أن يكون التشريع الجزائي في سورية خالياً من نصوص تعاقب على (الشانتاج)، لكن نصوح بابيل ردَّ عليه في (الأيام) بأن على معاليه أن يتذكر أن أصحاب الصحف عاشوا في الحرمان والاضطهاد دفاعاً عن كرامة الوطن وحريته واستقلاله، وأنهم لو سايروا الأجنبي، لكانوا اليوم من ذوي الثروات والعقارات والقصور.

إلا أن مذكرة نصوح بابيل هذه، لم تؤدّ إلى الظفر، فلم يصدر قانون الصحافة، وبقي التعطيل الإداري سيفاً مسلطاً.

❖ ❖ ❖

قامت الدول العربية بحرب من أجل فلسطين، لكن اليهود كانوا قد سيطروا على أجزاء منها، بدعم من قوى الاستعمار، وبتأييد من الدولة التي كانت تحتل

فلسطين، وهي بريطانيا العظمى. وقد أدت هزيمة العرب إلى أحداث كبرى في المنطقة، وفي سورية ومصر والعراق بخاصة. ففي يوم 17 آب 1948، أعلنت الدول العربية قبولها بوقف إطلاق النار في فلسطين، وفي اليوم نفسه جدد للرئيس شكري القوتلي برئاسة ثانية مدتها خمس سنوات، وألفت وزارة جديدة برئاسة جميل مردم بك، الذي تقلد منصب وزير الدفاع بدلاً من أحمد الشرباتي المستقيل. و قد واجه النواب الشرباتي بسؤال عن أسباب استقالته، وما إذا كان بسبب امتناعه عن شراء معمل لتصنيع السلاح، فلم يجب. وطوي الموضوع. وقد حرص نصوح بابيل على ذكر أخبار هذه المرحلة بالتفصيل مع التعليق عليها، وقال دفاعاً عن الصحافة في مقال له، كتب أيام وزارة خالد العظم، التي أعقبت وزارة جميل مردم بك التي لم تعمر طويلاً: «عرفت الصحافة، وذقت حلوها ومرها، فوجدتها صاحبة الجلالة حقاً، إذا ما أصلح الحكام المسؤولون أمرها وصانوا رسالتها وساعدوها على رفع مستواها».

وكان من الأحداث الكبرى، التي حدثت بعد استيلاء اليهود على فلسطين، الانقلاب الذي قاده حسني الزعيم في سورية. ومن الأسباب التي أدت إليه كما يقول نصوح بابيل: «رأيتها ولمستها شخصياً قبل وقوع الانقلاب بثلاثة أيام»، اكتشاف رئيس الجمهورية شكري القوتلي وخالد العظم رئيس الوزراء ووزير الدفاع مواد مغشوشة في أحد مستودعات الجيش، ووقوف حسني الزعيم قائد الجيش ينتظر إذن خالد العظم بالدخول عليه، وقد «لاحظت أنه مضى على وقوفه أكثر من خمس دقائق» كما يقول بابيل، الذي رآه ينتظر في مقر وزارة الخارجية، ثم انتظاره أكثر من نصف ساعة في منزل خالد العظم في سوق ساروجا، ريثما ينتهي العظم وضيوفه: نصوح بابيل ونجيب الريس وفخري البارودي من تناول الطعام، غير أن ثمة أسباباً عميقة أخرى.

استدعى حسني الزعيم نقيب الصحافة إلى مكتبه في وزارة الدفاع بعد القيام بانقلابه بساعة، وطلب منه – بعد أن فهم أنه غير موقوف – المجيء بالصحافيين لعقد مؤتمر صحفي، فلبى وأحضرهم، وعزا انقلابه، أمامهم، إلى التهجم على الجيش في المجلس النيابي، وإلى عدم رضا الشعب عن الحالة في البلاد. هذه هي أسباب الانقلاب، كما نقلها نصوح بابيل عن الزعيم في جريدته (الأيام).

حلَّ حسني الزعيم المجلس النيابي، لكنه أعلن رفع الرقابة عن الصحف، وترك لأصحاب الصحف تحكيم ضمائرهم، ودخل في عداء مع حكومة رياض الصلح في لبنان، ثم عقد مؤتمراً صحفياً، وما أكثر مؤتمراته الصحفية، ليعرض بخط يدي الرئيس شكري القوتلي وخالد العظم استقالتهما. وقد نشرت الصحف، وبينها (الأيام) نص الاستقالة.

يبدو أن نصوح بابيل كان مسموع الكلمة عند حسني الزعيم. فبعد أن أصدر هذا مرسوماً بإعدام كل من يحمل سلاحاً، قبض على مطيع النونو في حمص وهو يحمل مسدساً. ولما كان من أسرة (الأيام) فقد تدخل بابيل مع الزعيم لإنقاذه، وتم إنقاذه بالفعل.

غير أن بابيل كان يدرك أن الزعيم ديكتاتور. وقد عبر عن ذلك فيما بعد في كتابه. ويبدو أنه وجد أن من الحكمة عدم معاندته. وعندما أعطاه مقالاً بذيئاً يشتم أحمد الشراباتي، لنشره في (الأيام) قرر عدم نشره، وغاب عن الجريدة، وإذ أمن من عقابه، بتوسط صديق مقرب من الزعيم، صارحه بأنه لن ينشر المقال لأنه يسيء إليه، فطلب منه أن يكتب هو بديلاً عنه، فكتب دون أن يذكر أسماء. لكن المقال لم يعجب الزعيم، وأغضب عثمان الشراباتي قريب أحمد الشراباتي، وسوي الأمر عندما أطلع بابيل ضيفه عثمان على المقال الذي لم ينشره «فاغرورقت عيناه بالدموع، وأقبل عليّ معانقاً وهو يقول: ما خاب ظني يوماً في إخلاصك ومروءتك». ويعلق بابيل على القصة في كتابه: «إنها لقصة واحدة من قصص عديدة عن دور الصحافة في عهد حسني الزعيم».

بعد أقل من أربعة أشهر ونصف، حدث انقلاب عسكري ثان، قاده اللواء سامي الحناوي، أودى بحياة الزعيم ورئيس وزرائه محسن البرازي، وبعد أن شكلت وزارة جديدة برأي الأحزاب القائمة في البلاد، أفرج الحناوي عن الصحف التي عطلها الزعيم، ويبدو أن بابيل كان له دور في ذلك.

كان من أسباب انقلاب الحناوي، إعادة الحياة الدستورية الشرعية إلى البلاد، كما جاء في بلاغات الانقلاب، ولوحظ أن بريطانيا العظمى كانت من أوائل الدول المعترفة بالوضع الجديد في سورية.

ولم يطل بقاء الحناوي على رأس الانقلاب، فقد حدث انقلاب ثالث، وصدر بلاغ عسكري، وقعه العقيد أديب الشيشكلي، زعيم الانقلاب الجديد.

وكعادته، بادر نصوح بابيل إلى فتح أبواب الصحافة أمام انقلاب الشيشكلي، وفي كلمته، وقد جاء نقيب الصحافة إلى أديب الشيشكلي، قال: «إن جيش القلم جاء ليستمع إلى جيش السلاح»، فرد الشيشكلي: «إني أعتبر جيش السلاح وجيش الصحافة والقلم، والشعب والحكومة والمجلس، جيشاً واحداً، هو جيش سورية».

في عهد أديب الشيشكلي حدثت أحداث كبرى في الوطن العربي، أهمها قيام تنظيم الضباط الأحرار في مصر بانقلاب، أدى إلى استبدال النظام الملكي بنظام جمهوري، ومن بينها مبايعة الملك حسين على عرش الأردن، بدلاً من أبيه الملك طلال، واستقالة الرئيس اللبناني بشارة الخوري وانتخاب كميل شمعون. وقد وطد الشيشكلي علاقاته مع الدول العربية عن طريق زيارات قام بها إلى المملكة العربية السعودية، وإلى مصر الثورة وإلى الأردن ولبنان، وكان قد اصطحب معه في تنظيم هذه الزيارات صحفيين سوريين، على رأسهم نقيب الصحافة نصوح بابيل، الذي كان منشغلاً بكثرة الصحف في سورية، تاركاً لزميله نجيب الريس معالجة الموضوع مع الحكومة، وقد فجعت سورية برحيل الريس عن اثنتين وخمسين سنة. وفي موكب مهيب شيع جثمانه إلى مقره الأخير، ألقى نقيب الصحافة كلمة، قال فيها:

«إذا بكتك اليوم الصحافة السورية خاصة، والعربية عامة صحفياً عربياً من الطراز الأول، تخلو منك الساحة في الظرف الذي تشتد الحاجة إلى من كان بمثل جرأتك، وقوة عقيدتك.. فإن المصاب بفقدك ليس بمصاب الصحافة التي انهار عنها بغيابك ركن من أقوى أركانها، وليس بمصاب عائلتك المفجوعة وأولادك الملتاعين فحسب، وإنما هو مصاب الأمة التي فقدت ابناً من أحب أبنائها، ومصاب العقيدة والجرأة التي فجعت بفارس من أبسل فرسانها، ومصاب الأقلام العربية الحرة التي رزئت بكاتب من أمجد كتابها».

وبهذه الكلمة يثبت نصوح بابيل إخلاصه لزملائه وحبه لهم وتقديره لجهودهم، بعيداً عن أنانية صاحب دورية، وحسد أصحاب المهنة الواحدة. ولعل هذه كانت من خصائصه التي مكنته من الجلوس على عرش الصحافة السورية

التي وجدت طريقاً جديداً تسلكه عن طريق اتحاد عام للصحافة العربية، دعت إليه القاهرة واستضافت وفوداً صحفية من كل قطر عربي، كان وفد صحافة سورية، كالعادة، برئاسة النقيب بابيل.

كان الهدف إنشاء اتحاد عام للصحافة العربية، وقد افتتح المؤتمر برئاسة اللواء محمد نجيب، قائد الثورة وبحضوره، وفيه تكلم صحفيون كثر، منهم نصوح بابيل الذي قال فيها: «أما الميثاق، فهو ميثاق الصحافة العربية، الذي نرجو أن يكتبه الصحفيون العرب في مؤتمرهم هذا بمداد الإيجاد والإخلاص». وبحركة مسرحية، أعلن أنه تلقى برقية من الزعيم أديب الشيشكلي يحيي فيها المؤتمر، وأن مهمة الصحافة مهمة نبيلة، والصحف مدعوة إلى أن تقوم بدور أساس في النهضة الثقافية للأقطار العربية.

لكن كثرة الصحف في سورية، بقيت الشغل الشاغل للمسؤولين ونقيب الصحافة، وحتى القراء. وقد أثار القضية الزعيم أديب الشيشكلي، في لقاء جمعه مع نصوح بابيل، الذي يروي في كتابه تفاصيله على الشكل التالي:

«-ألا تسلم معي بأن عدد الصحف كبير ويفيض عن حاجة القراء؟

قلت: أما عن عدد الصحف كبير، فهذا صحيح، وأما أنه يفيض عن حاجة القراء، فلا أظن ذلك، لأن لكل جريدة وكل مجلة قراءها.

قال: ما رأيك بمشروع الاندماج. أن تندمج جريدة بأخرى فتصبحان جريدة واحدة، وبذا يتم اختصار الصحف؟

قلت: مشروع الاندماج محكوم عليه بالفشل سلفاً. وقد تضطر الحكومة إلى إقامة مخفر على باب كل جريدة لتحول بين الصحافيين الشريكين.

قال: ألإلى هذا الحد؟

قلت: تقريباً، لأن الشراكة قد تصلح لمهن عديدة إلا الصحافة، إذ لا يجوز فيها دمج رأي بآخر.

قال: وهل يعجبك بقاء هذا العدد الكبير من الصحف في الساحة؟

قلت: مهما بلغ عدد الصحف، فالصحف الهزيلة تموت من نفسها».

لم يقتنع الزعيم الشيشكلي، وأصدر أوامره بتخفيض عدد الصحف؛ فاجتمع أصحاب الصحف، برئاسة نصوح بابيل، وأسسوا شركة عامة تصدر أربع

صحف، جعلوا بابيل رئيساً لمجلس إدارتها، والصحف الأربع هي: (الأيام) و(الشام) و(ألف باء) و(القبس). غير أنها انفرط عقدها، بعد أن صدرت لعدة أيام في كانون الثاني 1954.

تعطي هذه الواقعة في تاريخ نصوح بابيل فكرة عن رجاحة عقله، فهو أدرك سلفاً أن شراكة الصحافة مكتوب عليها بالفشل، لاختلاف آراء الشريكين وأفكارهما، كما تعطي فكرة عن السبب الذي جعله يتبوأ منصب النقيب كل هذه الفترة الطويلة.

بدا عهد الشيشكلي ضعيفاً، بعد أن قصف جبل الدروز بالقنابل لأسباب محلية، وبعد أن التجأ سلطان باشا الأطرش وعدد من سكان الجبل إلى الأردن، وبعد تذمر ضباط الجيش من ديكتاتوريته، وعندما اعتقل عدداً من السياسيين البارزين كأكرم الحوراني وميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وصبري العسلي، وعبد الرحمن الكيالي وإحسان الجابري ورشدي كيخيا وعلي بوظو وعدنان الأتاسي وشاكر العاص، وغيرهم، بدعوى اشتغالهم بالسياسة، بعد أن حلت أحزابهم، وتحريضهم طلاب الجامعة على التظاهر والعصيان. فوجئ الناس بإذاعة بيان من إذاعة حلب تلاه الضابط مصطفى حمدون بإعلان المحافظات الشمالية والغربية والشرقية انفصالها، والطلب من أديب الشيشكلي التخلي عن منصبه ومغادرة البلاد.

وحقناً للدماء، كما قال الشيشكلي، تقدم باستقالته، ورحل، غير آسفين عليه وعلى عهده. وفي جريدته أبرز بابيل ذلك، دون أن يقول رأياً يجرح أحداً. وتلك هي ميزة من ميزاته الشخصية والكتابية.

وكما كان بابيل شاهداً على عصره، فقد شهد الحقبة التي تلت حقبة الشيشكلي وكتب عنها، وتميزت بالتقارب بين مصر وسورية، إلى حد أن الرئيس شكري القوتلي الذي جيء به عن طريق المجلس النيابي، رئيساً للمرة الثالثة، سافر مع بعض كبار ضباط الجيش إلى مصر، ليفتح حواراً حول أول وحدة عربية في التاريخ الحديث، جمعت بين الإقليم الشمالي (سورية)، والإقليم الجنوبي

(مصر). وقد شاركت فيه (الأيام) في نقل احتفالات القطرين وتهليل العرب بهذه الوحدة، وكانت شاركت في الوقوف إلى جانب مصر أيام العدوان الثلاثي.

وعندما عرض الرئيس جمال عبد الناصر، الذي غدا رئيساً للجمهورية العربية المتحدة، التعويض المالي على من يشاء للصحفيين، لم تقبل (الأيام) بالتوقف مقابل التعويض، واستمرت تؤدي وظيفتها في إخبار الناس عما يجري في وطنهم، مزينة بافتتاحيات رئيس التحرير بابيل.

وحدث الانفصال، وكان للنقيب و(أيامه) دور بارز فيه، إلى أن قامت ثورة آذار عام 1963، التي عمدت إلى تصنيف طبقي، جعلت صاحب الأيام يمينياً، فأغلقت جريدته وعزلته مدنياً.

❖ ❖ ❖

تزوج نصوح بابيل عام 1933، ورزق بابنه الأول غسان بعد سنتين. وله من زواجه الوحيد ثلاثة أبناء وبنت واحدة هي (رغداء). أما ابناه الآخران، فهما زياد المغترب في كندا الآن، ومروان الثاني من بين أولاده.

ويروي ابنه غسان الأسباب التي جعلت السلطة في الجمهورية العربية المتحدة تضغط عليه لإيقاف جريدته دون جدوى، ويقول بأن عبد الحميد السراج، وكان المسؤول الأول في الإقليم، كان متزوجاً من السيدة ملك زلفو، وكانت رغبته ألا يعرف خبر هذا الزواج أحد، فإذا بـ (الأيام) تنشر الخبر في زاوية (اجتماعيات)، ما جعل السراج يحقد على (الأيام) وعلى صاحبها. فلما فتح موضوع إغلاق الصحف السورية مقابل تعويض مناسب لكل صحيفة تقرر التوقف، ضغط عبد الحميد السراج لتصفية الجريدة التي كانت تعتبر الأولى في سورية، إلا أن صاحب (الأيام) رفض التعويض والتوقف، وأرسل برقية إلى جمال عبد الناصر الذي كان رئيساً للجمهورية، يصارحه بالواقعة، مما جعل عبد الناصر يبرق عن طريق مكتب رئاسة الجمهورية في سورية، أي في الإقليم السوري، سامحاً للجريدة بالبقاء، وقد أبلغ عدلي حشاد، أحد كبار موظفي المكتب مضمون البرقية إلى نصوح بابيل، مما جعل (الأيام) تستمر في الصدور كل يوم.

يشارك مروان بابيل أخاه في رواية ذكريات عن الوالد، فيقول: «كان الرئيس عبد الناصر يحب والدي ويأخذه معه في أسفاره، فهو رافقه في زيارته التاريخية إلى الهند، وإلى باندونغ، التي ظهرت فيها حركة عدم الانحياز، برئاسة عبد الناصر عن الجمهورية العربية المتحدة، والمارشال تيتو عن يوغسلافيا والبانديت نهرو عن الهند».

ويكمل غسان حكاية والده الذي ما إن عزل مدنياً وصودرت المطبعة ومكاتبها، حتى ذهب صاحبها إلى بيروت لاجئاً سياسياً ودونما لجوء سياسي رسمي، وبقي فيها حتى أواخر حياته، وعاد إلى دمشق عام 1974.

يقول غسان، الذي غدا محامياً في دمشق: «مرت سنة على مصادرة المطابع والمكتب وعزل والدي، قبل أن أستلمها شبه معطلة، لكنني اكتشفت أن أرشيف الأيام لم يعد موجوداً، ويبدو أن جريدة (البعث) التي طبعت في المطابع لسنة كاملة قد أفادت من هذا الأرشيف الذي كان يضم معلومات ووثائق وصوراً، وكان علي أن أعيد المطابع إلى حالتها الطبيعية، بعد أن سلمت إلي بحالة سيئة، وأن أدفع تعويضات إنهاء الخدمة لحوالي 100 إنسان بين محرر وموظف وعامل، وأن أدفع الضرائب المتراكمة على الجريدة وأسدد الديون التي ترتبت عليها».

ويضيف: «بدأت العمل منذ البداية بتشغيل المطبعة، بعد أن استدنت لإصلاحها، وحولتها إلى مطبعة تجارية، وقد استطعت أن أجمع في مدة ليست قصيرة حوالي 350 ألف ليرة، سددت بها الديون، ودفعت التعويضات، واشتريت بيتاً ليقطنه والدي في دمشق، بعد أن يعود إليها».

بقي نصوح بابيل في لبنان 11 سنة، منذ أوائل عام 1963 حتى أواخر عام 1974، عندما أصدر الرئيس حافظ الأسد مرسوماً ألغى به عزله السياسي، فعاد إلى بيته الجديد في دمشق، الذي كان اشتراه له ابنه غسان من ريع المطبعة، وربما من بيعها بعد ذلك، وراح يكتب مذكراته التي صدر منها جزء ضخم وحيد، هو كتابه المذكور.

في تشرين الأول عام 1986 أسلم نصوح بابيل الروح، وقد حزنت لموته أوساط عديدة في دمشق وكل سورية. وقد كتب محمد البعلبكي نقيب الصحافة اللبنانية: «فظلت هذه الجريدة زهاء ثلاثين سنة عنواناً من أكبر عناوين الإيمان بالله والوطن وبالفكر في سورية، وفي لبنان، وفي الوطن العربي الكبير، يتصدر

صفحتها الأولى ظهر كل يوم مقال افتتاحي، هادئ يوماً ومسعر يوماً آخر. مكتوب بقلم حر ناعم سلس مهذب، هو قلم نصوح بابيل».

ومع أن نصوح بابيل، رشَّح نفسه للنيابة مرتين، ولم يفز في انتخابات عام 1945، وعام 1954، بسبب موقفه من الكتلة الوطنية التي كانت ضد الشهبندريين، إلا أن الدولة كرمته فسمت مدرسة باسمه في منطقة الجاحظ أيضاً، كما سمت جادة متفرعة من حي الأمين في دمشق باسمه، ومنحته وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى، كما منحته المملكة الأردنية الهاشمية وجمهورية تونس والجمهورية اللبنانية أوسمتها، وزاد الزعيم التونسي بورقيبة فمنحه راتباً شهرياً جيداً منذ عزل مدنياً، وحتى يوم وفاته في 26 تشرين الأول عام 1986.

من الصعب فصل حياة نصوح بابيل عن تاريخ الحقبة التي عاشها في القرن العشرين، بما فيها من أحداث جسام تبدلت فيها المنطقة عدة مرات، من الحكم العثماني إلى ملكية الملك فيصل بن الحسين، إلى عهد الانتداب، وإلى معركة الاستقلال ثم الانقلابات العديدة، وقيام الجمهورية العربية المتحدة. ولعل الأصعب من هذا فصل حياة بابيل عن الصحافة التي بدأ فيها عاملاً في المطبعة ثم ناشراً ثم صاحب دورية، ثم نقيباً للصحافة السورية، وهو الذي لا يحمل إلا شهادة (السرتفيكا) بيد، وقلمه وحكمته وقدرته على المداورة بيد. ولعل من المستغرب الآن، أن يكون نصوح بابيل نقيباً للصحافة، في وقت كان فيه صحفيون آخرون يحملون شهادات أكبر وأسمى. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على شخصيته الفريدة، وإدارته الجيدة، وأولاً وأخيراً حبه لكار الصحافة الذي أعطاه عمره كله، وعن طريق هذا الكار، أثّر في الناس تأثيراً غير محدود.

ولعل أبرز ما عرف عنه، أنه كان يسير على الصراط المستقيم مع السلطة الوطنية، أية سلطة، لا يغضبها أثناء سطوتها، ويكتب عنها بعد أن ترحل، غير أنه لم يستطع أن يفعل الشيء نفسه مع ثورة الثامن من آذار، بسبب إلغاء امتياز جريدته، وعزله من الحياة المدنية، بمرسوم شمل عدداً كبيراً من الفعاليات الوطنية التي قدمت الكثير، ما كان لها أن تجزى على هذا النحو.

عادل أبو شنب

زكــي الأرســوزي

فيلسوف القومية العربية

(1900- 1968)

يعتبر لـواء الاسـكندرونة بعامـة، وأنطاكيـة بخاصـة، مـن أجمـل منـاطق الـوطن العربـي؛ فالخضـرة تغطـي المكـان، والينـابيع موجـودة في كل غابـة ودغـل، والطيـور بأنواعها وألوانها منتشرة؛ أي أن الطبيعة تبلّغ رسالتها مباشرة، وترسل أصواتها الناطقة والصامتة في كل اتجاه؛ والأرسوزي ولد ونشأ في هذا الجو الرومانسي، الذي زوّده بحساسية خاصة لمحبة الطبيعة، والإصغاء عميقاً لنداءاتها الخفية.

هذا أولاً، وثانياً كان معظم سكان اللواء من المتصوفة بالمعنى الواسع للكلمة، التي تقول بأنّ الأشياء لها معنيان: الظاهر والباطن، ولكي تكتمل المعرفة لا بد من الجمع بين الفهمين، فالظاهر طريق إلى الباطن. وعالم الشهود (عالمنا) دليل وطريق إلى العالم الآخر، عالم الملأ الأعلى. وثالثاً أسرة الأرسوزي نفسها كانت تتمتع بوضع مميز اجتماعياً؛ فقد كان والد الأرسوزي محامياً معروفاً، ومساهماً جدّياً في قيادة الحركة الوطنية، ولقد حوكم وسجن ونفي بسبب نشاطه ضد تركيا والاستعمار الفرنسي. يقول الأرسوزي: «ولدتُ في اللاذقية، وترعرعت في إنطاكية، حيث كان يقيم والدي؛ وهناك دخلتُ المدرسة الابتدائية، وأذكر أنني قد حفظت القرآن بكامله في بضعة شهور؛ وسرعان ما استيقظ ذهني على المسائل الغيبية (ما وراء الطبيعة)، وكان عمري لا يتجاوز السنوات السبع، وكانت والدتي تدعو المشايخ إلى وليمة من أجل أن تقصَّ عليهم مناماتي، وكنت أدخل معهم في نقاش حول المسائل الدينية العويصة: (الله، القدر، القضاء، الأزل) وكنتُ بينهم (كالديك المفلفل) الذي يدوِّخُ - بخفته وسرعته - خصومَه».

هذا الاعتراف الواقعي الذي يقدمه الأرسوزي بنفسه، ويؤكده كلّ من كتب عنه أو عرفه معرفة حميمة؛ يشير إلى ينابيع أربعة، حرّضت - فيما بعد - على ظهور حدسه في اللسان العربي:

1 - الذكاء الفطري الذي يتمتع به الأرسوزي. ويؤكده الذين تحدثوا عنه، أو كتبوا عن ذكائه المتفوق، بدءاً من مفكر كبير كأنطوان مقدسي، وانتهاء بشقيقته نبيهة الأرسوزي.

2 - دور الأم الأساسي في الاهتمام بابنها، وانشغالها بمناماته وأحواله الشخصية. ولقد احتفظ الأرسوزي دائماً بمكانة خاصة لوالدته، محباً مادحاً.. «أما الوالدة فكانت مرهفة الحس، قوية الحدس، روحانية الاتجاه، هادئة الطبع والسلوك، مُحبّة ودوداً، تقية ورعة. وقد عمرت طويلاً بعد الوالد». وكان زكي يذكر باستمرار مآثرها ويردد أقوالها، ويبرز تأثيرها فيه. ومن عباراتها المأثورة واحدة كان يرددها دوماً: «لم تتغير أبداً يا ولدي، فأنت برعم نما فأصبح زهرة».

3 - حضور رجال الدين حضوراً مرجعيّاً في حياة الأسرة والأفراد. وفي الوقت نفسه شعبية أولئك الرجال؛ إذ يناقشون طفلاً في السابعة حول مسائل دينيّة إشكالية للغاية؛ وبالطبع أهميّة القرآن الكريم في المقام الأول كأساس لا بدّ منه لكل من يريد أن يتعلم.

4 - الجو الاجتماعي العام الذي كان يهيمن على الحياة في إنطاكية وريفها؛ وهو حسب الأرسوزي هنا، جو مشغول بالمسائل الغيبية إلى حد الانهماك. إن المعلومات المتوفرة لدينا عن بساطة الحياة في ذلك الريف، وأحاديّة أشكال الإنتاج والعزلة، والطبيعة الجميلة؛ كل ذلك يسمح لنا بأن نستنتج أثره العميق في تكوين الأفراد. ونحن هنا لا نعني أن هذه العوامل ستقود الأفراد ميكانيكيّاً إلى نهايات رومانسية أو ميتافيزيكية؛ ولكن الكتّاب والفنانين والمفكرين الذين جاؤوا من لواء إسكندرونة رومانسيون بأسلوب ما، دون استثناءات هامة.

منامات الأرسوزي تلك تثير الانتباه فعلاً، فقد كان يرى الله والأنبياء والإمام علياً بن أبي طالب في ثياب بيضاء، ويروي: «ولما بلغت الرابعة عشرة من عمري التقيت بأحد أقاربي، وكان قادماً من الكلية الملكية في بيروت، وبعد أن سمع هذا القريب قصصي من والدتي، قال لي: «أين أنت من الدنيا؟ أنت تشغل بالك بالأمور الإلهية. ألا تعلم أنه ظهر رجل يدعى (داروين)، وقد بيَّن للعالم أن الإنسان من قرد؟ لا أنكر أن هذا القول أدهشني، فذهبت بعد سماعه إلى (مزار الولي) في قريتنا شكمجا - وهي تبعد عن إنطاكية مسافة كيلومترين - لأختبر صدق ادعاء المذكور؛ اقتربت من التابوت، ومددت قدمي اعتقاداً مني بأن التابوت يحتوي على مستودع للقوى الخفية التي لا بد أنها (ستلطشني) وأنا قادم إليها بمثل ذلك الاعتقاد؛ ولكن التابوت لم يتحرك، وكررت المحاولة، فظل التابوت في مكانه، ركبتُ عليه، وأخذت أهزّ نفسي فوقه، فلم أسمع صوتاً من داخله، عندها فقط بدأت أشك في عقائدي، وعدت إلى الدار وأنا في شبه غيبوبة، وقادني التعب إلى النوم العميق، فشاهدت في منامي غمامة تحيط بي من كل جانب، وتأخذ بخناقي، ثم صرخ صوت من قلب الغمامة يقول:

- هل أنت موجود، أم لا؟!.

كان ذلك صوتاً غيبياً أجبتُه:

- يا رب، أنت موجود؟

وعندما استيقظت من النوم قلت في نفسي:

- ربي لماذا لم تظهر لي في اليقظة، وتظهر في النوم، لن أصدق بوجودك؟ وفي اليوم الثاني تكرر المنام بشكل آخر... وهكذا استمرت المنامات على أشكالها الغريبة والفنية».

من المعروف أنّ مسألة الإيمان والإلحاد يواجهها الشباب (في الوطن العربي) بصورة خاصة في مطلع المراهقة، ولكن معاناة الأرسوزي قادته إلى أقصى درجات المثالية. ونحن نستطيع أن نتابع آثار الطبيعة والأم والجو الديني في أعماله المكتوبة، وفي حياته الشخصية؛ مع التأكيد على أنّ الأرسوزي يفيض على تلك الآثار؛ وعلى سبيل المثال، فالأرسوزي أحبّ ولم يتزوج لأسباب أخلاقية كما يقول، ولأنّه في الحب عن بعد تبقى صورة المحبوب أنقى وأكمل؛ ولو استشرنا (فرويد)

في ذلك، لأعاده إلى علاقته بوالدته دون ريب. وكمثال آخر، فإن الأرسوزي يستخدم مصطلحات تتداول كثيراً في بيئته الدينية مثل: القبّة، الملأ الأعلى، المعنى والصورة... الخ. وبالطبع لا يضع استخدامها في حدودها المحلية؛ وإنما يطلقها تعميماً يشمل الزمن كله، والمكان كله، ومما يتمم لنا صورة الينابيع الأولى لشخصيّة الأرسوزي، هو حبه للتجول في الأماكن الخالية من البشر، وعزوفه عن اللعب مع رفاقه؛ أي أنه كان طفلاً مُتأمِّلاً انطوائيّاً منهمكاً بعالمه الداخلي، وبمناماته العجائبية الغيبية.

❖ ❖ ❖

في عام 1927 سافر الأرسوزي إلى باريس، ليدرس الفلسفة والعلوم الاجتماعية في السوربون؛ وهناك تعرّف على أساتذة كبار: (جورج دوما، ليون برونشفيك، أميل بوهية، بول فوكونيه)، والأهم من تأثره بأولئك المفكرين - خاصة بوهيه - كان إعجابه الشديد بالفيلسوف (برغسون). كانت كتب برغسون تطبع ويعاد طبعها، وتناقش على نطاق واسع في فرنسا وخارجها. لقد كان برغسون في أوج انتشاره وشهرته وتأثيره. وقد وجد الأرسوزي في فلسفة هذا الفيلسوف مرجعاً لما يغور في داخله من انحياز لعالم ما وراء الطبيعة، ولعالم الرؤى والأحلام الخارقة؛ فبرغسون نفسه فيلسوف صوفي ومثالي، ترتكز فلسفته على الحدس الصوفي الداخلي؛ كما يشيد بنيان نظريته برمتها على أساس مفهوم (الدافع الحيوي). كتب الدكتور كاظم الداغستاني رفيق الأرسوزي في الدراسة هناك تحت عنوان (رجل يمضي ورسالة تبقى): «وبلغ من حب الأرسوزي لفيلسوف الحدس والإلهام أنّه كثيراً ما كان يحفظ مقاطع من أقواله عن ظهر قلب؛ فيلقيها مترنماً وكأنه يلقي أبياتاً من قصيدة؛ ثم يعمد إلى شرحها وتفسيرها، وهو يصف بحركات هادئة من يديه هذا (الدافع الحيوي) الذي يكمن في العناصر كلها؛ وهذا الإلهام الذي يندفع من أعماق النفس، ويطفو على صفحات الروح، فيتمثل بتلك العبقرية التي تميز أولئك الموهوبين من الناس».

ولقد أجمع الذين كتبوا عن الأرسوزي على تأثره بالفيلسوف الصوفي المثالي (برغسون)؛ ونضيف أيضاً أن قادة الحركات القومية في المشرق العربي - في

النصف الأول من هذا القرن - قد تأثروا إلى أبعد الحدود ببرغسون وخاصة بكتابه: (التطور المبدع).

في باريس أيضاً، وجد الأرسوزي الفلسفة الرومانسية الألمانية، ووجد بصورة خاصة فيلسوف القومية الألمانية (فيختة) في كتابه الشهير (نداءات إلى الأمة الألمانية). ويبدو أن فيختة كان أباً روحيّاً بمعنى ما لغالبية رجال الفكر القومي في بلاد الشام. يقول سليمان العيسى أحد تلاميذ الأرسوزي وابن مدينته وشاعر البعث طوال نصف قرن: «لشد ما كنا معجبين بهذا الفيلسوف الألماني العظيم (فيختة) في تلك المدّة من حياتنا! إنني ما أزال أحفظ مقاطع كاملة من كتابه الشهير (نداءات إلى الأمة الألمانية)؛ حتى لقد ترجمه واحد من رفاقنا الكبار إلى العربية؛ ولكن الترجمة لم تنشر في يوم من الأيام».

والأرسوزي يصور لنا مدى أهمية المرحلة التي قضاها في باريس ليدرس الفلسفة؛ فيقول: «وفي عام 1927، ذهبتُ إلى باريس أدرس فيها الفلسفة؛ وهناك حصلت لي أوّل تجربة (ميتافيزيكية)، فاستحالت نفسي، وأصبحت مظاهر حياتي بتأثير هذه الاستحالة ترتدي حلة جديدة؛ بمعنى أخذت جميع المفاهيم تكتسب معنى جديداً غير المعنى الذي كنتُ ألفته أثناء المطالعة؛ وبذلك كونت معالم شخصيتي تكويناً جديداً؛ ورسائلي في الفلسفة والفن والأخلاق توضح هذا الاتجاه الجديد».

أما تلك التجربة (الميتافيزيكية) التي حصلت للأرسوزي في باريس، فإن لجنة إعداد مؤلفاته الكاملة تشير إليها في مقدمة المجلد الأول كالتالي: «كان زكي يروي في ساعات صفائه الذهني الكامل أنه شعر مرّة (وهو في باحة عند مدخل السوربون، إلى جانب تمثال أوغست كونت)، برعشة قوية استأثرت بكيانه كله، فإذا بالوجود نورٌ كليٌ يغمره، ويحوله هو وكل الموجودات إلى نور فوق الطبيعي فرح... فرح... الأشياء تتلاشى في هذا التجلي الإلهي. تلك تجربة صوفية بدون شك، أخفاها عن الجميع كنزاً يغذي وجوده، وسوف يعلمه أنّ الوجود آية تدل على باريها».

لقد كانت هذه التجربة استمراراً للمنامات التي كان يراها في طفولته ومطلع شبابه؛ غير أن هذه المرة حدثت في مساحة الوعي الكامل؛ أي أن التجربة الداخلية

المبهمة التي كان يحياها الأرسوزي في إنطاكية، وجدت شكلها المثالي الفطري تحت تحريض برغسون أولاً وبوهيه وفيخته وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين المثاليين في الغرب. بكلمات أخرى تجربة الأرسوزي في باريس كانت في منتهى الأهمية بالنسبة لحدسه الأساسي؛ لأنها أنضجت أو بلورت اتجاهه الميتافيزيقي بصورة لا رجعة فيها؛ ذلك الاتجاه الذي تفتح في الطفل الذي تحيط به بيئة دينية تقول بنظرية الفيض الأفلوطينية؛ وتقول بما يترتب عليها من فهم لأصل العالم والإنسان، وعلاقتهما بالله المبدع الوحيد، الأوحد لكل شيء.

لا بدّ هنا أن نضيف بإيجاز أن الأرسوزي عاين عن قرب الدولة الحديثة المتقدمة؛ ولمس واقعياً الدولة القومية متجسدة في كيان سياسي يجمع أبناء الأمة الواحدة؛ كل ذلك ساهم في اعتقاده الراسخ ـ فيما بعد ـ بأن العرب أمة واحدة؛ ويجب أن يتوحدوا في دولة قومية واحدة؛ واعتقد أيضاً في أعماقه أنه البطل الذي سيقود الأمة إلى تحقيق بعثها، وأنه المبشر والزعيم والفيلسوف والمثال في آن واحد.

❖ ❖ ❖

يقول الأرسوزي: «عدتُ من باريس عام 1930؛ وعُيّنتُ مدرساً لتجهيز إنطاكية، ولكن سرعان ما وقع الخلاف بيني وبين المستشار الفرنسي؛ هذا الاختلاف حولني شيئاً فشيئاً عن محور اهتمامي في الثقافة والفلسفة إلى السياسة؛ وكنت وأنا في طريقي من باريس إلى إنطاكية قد سجلت على مفكرتي باللغة الفرنسية: أصنع أمّةً أم أشباحاً؟ أكون نبيّاً أم فناناً؟ تلك هي المعضلة». خلال المدّة التي قضاها مدرّساً في ثانويات حلب ودير الزور (1930 ـ 1934) تبلور فهمه للحرية بصورة ميتافيزيكية، ترى أن جذور الحرية في الملأ الأعلى، أي في العالم المفارق لعالمنا؛ كما أخذ فهمه للعروبة شكلاً نظريّاً واضحاً. فالحرية هي حرية أبناء الأمة الذين مازالوا يحتفظون بالفطرة السليمة التي وهبها الله لهم دون سواهم. ولتحقيق ذلك كان لا بدّ أن يُنظّم أبناء العروبة، وأن يُدرّبوا على العمل السياسي، وأن يفهموا معنى الأحداث، كي يتمكنوا من الصمود، ولقد بدأ مشروعاً سياسيّاً جماهيريّاً في لواء الإسكندرونة على امتداد أربع سنوات (1934 ـ 1938).

تقول مقدمة المؤلفات الكاملة: «إن المرحلة الممتدة من عام 1934 إلى عام 1938، هي المرحلة الحاسمة في نظر الأرسوزي، حاسمة في تاريخ العرب

الحديث، لأنها جمعت شتاتهم المبعثر؛ فبعد أن كانوا طوائف وشيعاً وأسراً وطبقات، انصهروا ضمن اللواء في بوتقة العروبة، فأصبحوا شعباً يستأنف تاريخاً جديداً هو استمرار للتاريخ الأول، تاريخ الفتوحات. وكان الأرسوزي يعتقد إذ ذاك أن الحركة التي أنشأها في اللواء ستمتد إلى الوطن العربي كله، ولم يزل يعتقد حتى الدقيقة الأخيرة من حياته - بالرغم من إخفاقها - أنّها ستُبعث من جديد، فتبعث العروبة. ولهذا أطلق عليها اسم (البعث). والواقع أن السرعة الخاطفة التي جمع فيها الأرسوزي حوله سكان اللواء برمتهم (اللهم إلا فئة كانت تتعامل مباشرة مع الأجنبي)، وجعل منهم شخصاً واحداً؛ هذه السرعة مذهلة تكاد لا تصدّق؛ ولقد أذهلت فعلاً الغريب قبل القريب، وأخذت تتحدث عنها الصحف الأجنبية والعربية بإعجاب متزايد».

باختصار شديد، أصبح الأرسوزي قائداً مطلقاً للحركة القومية في لواء اسكندرونة؛ وكان محبوباً للغاية، ولقد لقبه مواطنوه بـ: (الأستاذ)، هذا اللقب الذي رافقه طوال حياته.

عندما خُيّر الأرسوزي عام 1938 - كما خُيِّر بقية عرب اللواء - بين الهجرة إلى أحد الأقطار العربية أو البقاء في اللواء؛ اختار مع أهله وصفوة رفاقه وتلاميذه الهجرة إلى سورية.

❖ ❖ ❖

تنازل الأرسوزي عن أن يكون فناناً (أديباً)؛ لكي يكون قائداً سياسيّاً يحقق بعث الأمة العربية من جديد، لتستعيد مجدها الذي حققته في الماضي. لقد نجح في اللواء نجاحاً كاسحاً لا يختلف فيه اثنان؛ واستطاع في مرحلة زمنية قصيرة أن يتجاوز الصراعات المذهبية والدينية بكافة أشكالها، وجمع عرب اللواء تحت راية العروبة؛ ولكن اللواء سُلخ عن سورية، وضُمَّ إلى تركيا بصورة نهائية عام 1939. في دمشق أسس الأرسوزي حزباً سماه (البعث)، وأصدر للحزب جريدة مكتوبة بخط اليد؛ ولكنه فشل مرّة ثانية، أو أنه شعر في قرارة نفسه بالخيبة؛ فالسوريون لم يستقبلوه قائداً مطلقاً للعمل القومي من جهة؛ وهو نفسه أدرك أن الأمراض السياسية أكبر من أن ينتصر عليها بذلك الحزب الذي أسسه؛ ولذلك أدار ظهره

منذ ذلك الوقت للعمل السياسي؛ وانصرف لإنشاء نظريته في اللسان العربي والقومية العربية والوجود برمته.

الواقع العميق، الذي كان يسيطر على الأرسوزي فكراً وسلوكاً، هو واقع العرب ومصيرهم؛ ومن ثمَّ كان منهمكاً في البحث عن رابط يثبت وحدة أبناء العروبة منذ النشأة وإلى ما لا نهاية. ولكي لا نظلم هذا المفكر، فإننا نستدرك فنقول: إنه كان مشغولاً بكل كيانه بنظرية عامة تحل معضلات الفكر الإنساني. يقول الأرسوزي في تمهيده للطبعة الثانية عن كتابه الأول والأهم (العبقرية العربية في لسانها): «هذه الرسالة تجيب بالحل عن مشكلة اللغة إجابة قاطعة؛ وهي بذلك تكون قد حلت إحدى المشاكل المتعلقة ببداية الأشياء المستعصي حلها حتى الآن».

من البداية وحتى النهاية يصرّ الأرسوزي على وثوقية قاطعة بنظريته، رغم أنه يعرف أن مشاكل بداية الأشياء كانت على طول تاريخ الفكر البشري مستعصية على الحل. وقبل أن ندخل في معايشة ومناقشة أفكاره، فإننا سنستعرض بإيجاز شديد نظريته نفسها، مؤكدين على أنه كان يعتقد أنه وجد حلاً لثلاث مسائل هي من أكثر مسائل الفكر إشكالاً:

1 ـ تفسير أصل الأشياء.

2 ـ تفسير أصل اللغة.

3 ـ أصل الأمة (الأمة العربية بصورة خاصة، والأمم الأخرى بصورة عامة).

بداية ينفي الأرسوزي القول بأن اللغة موحاة من السماء؛ ولكن ربط المسائل بالسبب ليس بحلٍّ لها؛ كما أنه ينفي أن تكون اللغة من وضع العقل؛ لأن القول بذلك ينتهي بحلقة مفرغة لا مخرج لها، إذ أن وضع اللغة على ما فيها من تنسيق ونظام يتطلب عقلاً بمنتهى الكمال؛ وهو يعترف أن علماء اللغة يفتقرون إلى مثال حي لجذور الكلمات في اللغات الأولى. يقول الأرسوزي:

«وبينما كان العلماء يفقدون الأمل في إيجاد الحل لمشكلة اللغة التي بها يتميز الإنسان عن الأحياء الأخرى، كانت المصادفة السعيدة تتيح لنا معرفة النهج الذي سلكته الحياة في إنشاء بيانها؛ والمثال على هذا النهج هو اللسان العربي. إنّ

الكلمات العربية لم تزل ذات جذور في الأصوات الطبيعية، وإن اللسان العربي لم يزل محتفظاً بنمط نموه أداة بيانية متكاملة منذ ظهور الإنسان حتى الآن».

يقرر الأرسوزي هنا تقريراً مباشراً دون أي برهان، مجموعة من الأفكار التي يرفض أن يستمع إليها علماءُ اللغة المعاصرون:

- اللغة العربية طبيعية؛ أي أنها اللغة الأصل؛ ومن ثمّ فإن اللغات الأخرى في العالم نسخ منقوصة من اللغة العربية.
- اللغة العربية ـ بعدّها طبيعية ـ موجودة منذ ظهور الإنسان على الأرض.
- اللغة العربية أداة بيانية متكاملة.
- الشيء واللفظ أمر واحد، فيكفي أن تسمع الكلمة العربية كي تفهم معناها.

فمفهوم البدائي عند الأرسوزي يقابل التاريخي، والكلمات العربية (بدائية)؛ أي أنها نشأت من الطبيعة، ولم تنشأ في التاريخ. بينما اللغات الأخرى غير العربية كلها نشأت في التاريخ؛ ولذلك فاللغة العربية وحدها بدائية، واللغات الأخرى اصطلاحية.

يقول الأرسوزي في كتابه العبقرية العربية في لسانها: «ولا غرابة... فلما كان هذا اللسان بدئيّاً، لسان آدم (المعنى متجليّاً في الوجود) فقد استكمل كافّة شروط الأصالة».

آدم - كما هو معروف في الإسلام (وفي الديانات السماوية التي ظهرت في الشرق الأوسط) ـ أبو البشر، وهذا الأب الأول كان لسانه عربيّاً، والله نفسه هو الذي علّم آدم الأسماء كلها حسب القرآن الكريم؛ «فالمعنى» الذي يكرر الأرسوزي استخدامه يشير إلى:

- معنى الكلمة.
- المعنى المطلق ـ الله.
- المعنى ـ الغاية.

فاللغة العربية ذات منشأ إلهي، فكيف تمَّ ذلك حسب الأرسوزي؟

يقول الأرسوزي: «فالإنسان كائن بين السماء والأرض، إذ إن بدنه من الأديم: (آدم، أديم، إدامة..)، وروحه منبثقة عن روح الإله، وهي على صورته (أسطورة

آدم)، وما البدن والروح إلا وجهتا الوجود، وقد حصل تميزهما من وجهة نظرية المعرفة الإنسانية فقط؛ فإذا توجهت النفس نحو تجلياتها وتلقتها بالحواس؛ صارت هذه التجليات بالنسبة إليه عالماً؛ وإذا هي تفتحت نحو صميمها فأدركت المعنى أصبحت ملأً أعلى.

والعالم والملأ الأعلى هما (قطبا الوجود)؛ إذ يتحدان بالبصيرة التي رمزت الحياة إليها بالبصر صورتها الحسية؛ لما تنطوي عليه هذه من نورٍ ووضوح.

وإذا كان البدن يقتاتُ بالإدامة (الغذاء)، فينمو بها، وهو من الكون كالبرعم من شجرته، فالنفس أيضاً تقتاتُ بالحقيقة التي تجلّى بها المعنى.

فالمعنى مثال النفس، والعيون قاعدة ترتقي عليها، وآية بها تهتدي. كان لا بدّ أن نبدأ من البداية، من أن الله هو المعنى المطلق الذي خلق الإنسان على صورته؛ ولذلك فالحقيقة الكامنة في الإنسان تنزع دائماً نحو مقالها؛ فإذا ارتقت انفصلت عن الوجود المحسوس (عن عالم الشهود)؛ وأصبحت من الملأ الأعلى (عالم الملكوت عالم المعنى المجرد عن المادة والوجود المحسوس). فأين اللسان العربي في هذا البنيان القائم على خليط من الإسلام والأفلوطينية الحديثة؟ نستدرك فنقول إن الأرسوزي أسقط مبدأ (الفيض) لدى أفلوطين، ليضع مكانه مبدأ (الانبثاق)، وهو بذلك يكون قد تحرر من إشكالات معرفية عديدة.

وقد بقي الأرسوزي ثلاثين سنة ينوع بأشكال مختلفة؛ لإيضاح هذا البنيان الذي يقدمه فنيّاً، ويختار من القاموس العربي أمثلته بانتقائية حرّة. فتحت عنوان ملاحظات (على منشأ اللسان العربي)، يقول الأرسوزي:

1 ـ إن اللسان العربي بالنظر إلى نشأته (صورة صوتية مقتبسة عن الطبيعة مباشرة)، وبالنظر لصناعته أيضاً (تجلّي العبقرية في كافة أصوله)، أي في منظومته الصوتية وفي قواعده النحوية وفي مفرداته؛ هو بدائي وبدئي، وكل كلمة أو قاعدة تحمل طابع عبقرية أيّاً كانت فهي مستعارة منه.

2 ـ يتبين من سير الحوادث التاريخية أنّ ما يبدعه الإنسان من أفكار ومؤسسات؛ وما يخترعه من آلات، ينتقل من أمة إلى أمم أخرى، ومن إقليم

إلى أقاليم شتّى، حتى يشيع هذا الاختراع أو ذاك الإبداع في أمم العالم ذات المرحلة التاريخية المشتركة.

وبرأي الأرسوزي، فقد حدث في ميدان اللغة ما حدث في ميدان الدين والنظم الاجتماعية؛ فالأمم غير متساوية في قدرتها على إيجاد الصور المعبرة عن غريزتها الكلامية والدينية.

واللسان العربي البدائي والبدئي هو من مبدعات الأمة العربية، التي تمتع أبناؤها بالنبوغ في هذه الناحية؛ وهكذا فقد انتشرت اللغة في فجر التاريخ كما انتشرت الديانات السامية والاختراعات الفنية. وهكذا يتبين فضل الأمة العربية على الشعوب السامية والأمم الأخرى؛ «لإيجادها الآلة التي امتاز بها الإنسان على الحيوان، وشيّد بنيانه النفساني والاجتماعي بالاستناد عليها».

فاللغات السامية ترتدّ في نشأتها الأولى إلى العربية؛ ولكنها اقتربت من شكل اللهجات العامية تحت تأثير عاملين:

1 ـ «انتقال شعوب عربية فجأة إلى مرحلة مستحدثة من المدنية؛ بحيث تتفكك روابط الاشتقاق، فتشذ الكلمات عن منظومة معاني أسرتها؛ ويطمس على معظم القواعد النحوية، وتفقد الكلمة والجملة بنيانها، وتقترب حينئذٍ من شكل اللهجات العامية».

2 ـ طغيان الهجانة في الدم العربي تحت تأثير الشعوب الأعجمية».

بعدئذ يقرر الأرسوزي في نهاية ملاحظاته:

«لقد خصّ العربي لهجته بحق بكلمة (لسان)؛ هذه الكلمة المؤلفة من الحروف (ل، س، ن) الرشيقة؛ وأطلق على اللهجات السامية: (لغة) من (لغا ـ يلغو) وما يتضمن حرف (الغين) لما فيها من غموض وإبهام، وأطلق على اللغات الأعجمية كلمة (بَرْ بر) لما فيها من ركاكة».

«إن الكلمة التي لا يمكن إرجاعها إلى صورة صوتية مقتبسة عن الطبيعة وفي حدود الصناعة العربية، لهي كلمة دخيلة على العربية».

إذن، كل لغات الشعوب والأمم غير العربية بدائية ولا بدئية؛ وإذا وجدنا فيها أيّ مظهر من مظاهر العبقرية، فإنه يرتد إلى أصله في اللسان العربي؛ ذلك أنّ

كافة اللغات ـ غير العربية ـ اصطلاحية، نشأت في التاريخ؛ ولذلك تتغير في التاريخ، وهذا سبب ركاكتها.

كتب الأرسوزي عن اللغة ثلاثة كتب هي:

1 ـ (العبقرية العربية في لسانها) ـ 1943 م.

2 ـ (رسالة اللغة) ـ 1952 م.

3 ـ (اللسان العربي) ـ 1963 م.

وفي الحقيقة فإن كتابه الأول هو الأساس، ليس فيما كتبه عن اللغة خلال حياته؛ بل الأساس لكل ما كتبه في القومية والفن والأخلاق والسياسة... وغيرها. وهو لا يضيف إلى حدسه الأول أو آرائه الأولى، ولكنه يوسعها قليلاً أحياناً، وينوع الاستشهادات من القاموس العربي.

هل نظرية الأرسوزي في اللغة جديدة؟ هل يقول بالنظرية الطبيعية التي تنص بتبسيط شديد: «الكلمة والشيء الذي تدل عليه شيء واحد، لأن اللغة نشأت من محاكاة أصوات الطبيعة».

لا يجادل أحد في أن لكل لغة في العالم كلمات تحاكي أصوات الطبيعة؛ ولكنها كلمات محدودة لا تؤدي أي دور أساسي في البنيان العام؛ والاعتراضات التي قدمها علماء اللغة على النظرية الطبيعية معروفة على نطاق واسع لا حاجة لتكرارها هنا؛ فالمشكلة قديمة قدم التفكير الإنساني نفسه. ولقد كان أرسطو فيما وصلنا قد أكد أن تكون اللغة طبيعية؛ ولذلك نفى أن تكون اللغة صور الأشياء؛ وهكذا قال بأنها اصطلاحية. وفي تاريخنا العربي، نجد ثلاثة اتجاهات رئيسية في هذا المجال:

1 ـ اللغة محاكاة. ومن ثمّ فهناك مناسبة بين الكلمات ومدلولاتها.

2 ـ اللغة وقفية، أو توقيف؛ أي أنها منزلة من السماء، لأن الله علّم آدم الأسماء كلها.

3 ـ اللغة موضوعة. والمواضعة هنا تقود إلى القول بأنّ اللغة هي من إنشاء العقل الذي وهبه الله القدرة على المواضعة.

ونحن نعرف مدى ضغط الدين الإسلامي على البحوث اللغوية؛ ونَعرف أيضاً المعركة الكلامية الشاملة التي نشبت بين المعتزلة ومناوئيهم خلال خلافة المأمون:

هل القرآن كلام الله؟ أم كلام مخلوق؟ ولقد انتهت تلك المناظرات نهاية دموية مدمرة؛ حيث أبيد المعتزلة إبادة شاملة فيما بعد!.

في القرن العشرين قفزت علوم اللغة قفزات مذهلة باتجاه العلم؛ ولقد أحدثت نظرية عالم اللغات السويسري (دو سوسور) ثورة في علم اللغة العلمي؛ وأصبحت هذه النظرية معروفة على نطاق واسع حتى بين غير المختصين. باختصار تطمح الدراسات اللغوية الحديثة أن يكون لها اليقين العلمي. لقد قرر (دو سوسور) بصورة نهائية أن اللغة اعتباطية؛ أي لا علاقة بين الكلمة (الدال) و(الشيء) الذي تدلّ عليه؛ والدلالة نفسها لا تتحدد بالكلمة، بل تتحدد من وظيفة الكلمة في البنية، وذلك ما ألح عليه البنيويون، وتوسعوا فيه، وطبقوه على المجتمع والثقافة.

فأين الأرسوزي من هذا كله؟

يقول أنطون مقدسي في مقالة بعنوان (في الطريق إلى اللسان) وهو عنوان أحد كتب هايدجر:

«عندما وضع الأرسوزي عام 1943 كتاب (العبقرية العربية في لسانها) لم يكن يعرف دو سوسور (1857 . 1913) مؤسس علم اللغة العلمي الحديث في وطنه (سويسرا) وبين الفرنسيين الذين تكلم لغتهم وكتب فيها، إلا نخبة من تلاميذه حرصوا على طبع الكتاب الوحيد الذي حرص على تأليفه؛ وهو درس في علم اللغة العام...».

ويتابع مقدسي:

«كان الأرسوزي يرغب إليّ دوماً أن أنقل إحدى رسائله إلى الفرنسية؛ كي يعرف رأي المستشرقين في اكتشاف اعتقد أنه حقق فيه إنجازاً جباراً لم يسبقه إليه أحد ...».

«ويقول لي ويكرر في اليوم التالي: يبدو لي أن فيلسوفكم كوّن لنفسه دائرة أصبح حبيسها؛ فمن المتعذر إخراجه منها، ولكن أليس هذا، إلى حد ما، شأن هيدجر عندنا؟ فكل منهما يريد استنباط الفلسفة من التأمل في اللغة...»

«فالخلاف جذري بين فقه اللغة عند الأرسوزي وبين اللغويات الحديثة، ويتحدد في نقطتين متلازمتين:

الأولى: المادة اللغوية إن صح التعبير، فهي بالنسبة للعلم الصوت، بوصف اللغة مجموعة متمايزة يتعين تمايزها فرقياً؛ أي أن باستطاعتنا تحديدها بوضوح في فوارقها العلائقية؛ في حين أن لها عند الأرسوزي سمة جوهرية، أو بقول أصح كثافة تعبيرية.

الثانية: هي أن علم اللغة ينطلق من الأعلى إلى الأدنى، أي من الصوت الأصغر حجماً إلى المعنى. بينما ينطلق الأرسوزي من المعنى ليتبين طريق تحققه في المادة الصوتية بعدّها فسحة.

وبتعبير مختصر، فإن علم اللغة تحليل إرجاعي بردّ الأعلى إلى الأدنى؛ شأنه في ذلك شأن كل علم، في حين أن منظومة تحليل الأرسوزي هي الوجود برمته بوصفه وحدة تعبيرية مفتوحة...

«أنشأت الحياة اللسان العربي على صورتها ومثالها».

هكذا كان يعلّم.

«اللغة محاكاة لأصوات الطبيعية؟ تلك فرضية قديمة جربها أفلاطون ورفضها، وربما وجدت قبله. وبعده أخذ بها علماء القرن التاسع عشر عند بحثهم عن منشأ اللغات، ودرسوها بكل أوجهها، ووضعوا لإثباتها نظريات ونظريات... أهمها ثلاث نجدها في كل كتب علم اللغات، ثم أهملت وسقطت، ورفضها علم اللغة الحديث رفضاً قاطعاً؛ لأن العلاقة الصوتية في نظره اصطلاح محض اصطلاح، ولاشيء آخر». يضيف مقدسي: «وكان خيال زكي على درجة من الخصب تحاذي خيال مبدعي الأساطير...»

«وما تزال سذاجته تربكني، وعبقريته تدهشني...

إذا كان الذكاء هو هذه السرعة سرعة البرق تختطف المعنى في الصورة؛ فزكي كان ذكيّاً بأكثر ما يمكن أن يكون الذكاء. أجل لا حيلة لي في مفكر كان إذا تكلم أو كتب يريد أن يضع ذاته والعروبة واللسان ـ الكل الواحد ـ في عبارة؛ بل في صورة، وأحياناً في أسطورة...»

«ما حيلتي في مفكر يفضل المنهج الفني على المنهج التحليلي؛ فيرى في الأول منهج الفكر العربي الأصيل - وهو على حق لحد بعيد - وفي الثاني منهج العقل الإغريقي - الغربي، منهج العلم والفلسفة...»

«أأقول إني إذ اكتشف مصادر الأرسوزي عند أفلوطين والرومانسيين الألمان وفيخته وقندريس وغيرهم أفقده الأصالة؟

معاذ الله!

فالرجل كان يصهر كل ما يقرأ - تماماً - كما يصهر الجسم الغذاء؛ يتمثله ويذيبه في كيانه، ويكفي صديقي وأستاذي شرفاً أنه وضع - ضمن حدود إطلاعي، وفي لغة هجرها الفكر منذ قرون - أوّلَ نصّ له حقّاً متانة الصياغة الفلسفية وعمقُها وأصالتُها؛ أجل إنه أول من جعل العربية في العصور الحديثة تنطق فلسفة».

«إن الأرسوزي، وبعد قرون من القطيعة، هو أول من بدأ حواراً مع الغرب الإغريقي صِنونا الأول في التاريخ، لا كما يبدأ المبتدئون، يعجبون بها أو يرفضون نزقاً، بل في أعلى القمم، وفي صميم القديم».

❖ ❖ ❖

بدأ الأرسوزي من التأمل في القاموس العربي، ومن اللسان العربي - كما يسميه - أنشأ نظريته إلى الكون برمته؛ وأنشأ نظريته في أصل اللغات والأشياء والإنسان؛ فاللسان العربي من الملأ الأعلى، ولذلك فهذا اللسان - وحده - الطريق إلى المعنى، والسبيل للارتقاء إلى المصدر في الملأ الأعلى، ومرّة أخرى نرتب هذه النظرية على النحو التالي:

- أراد المعنى المطلق (الله) أن يتجلّى، فتجلّى في الحياة، انبثقت عنه الحياة انبثاقاً لا فيضاً كما يقول أفلوطين والفلاسفة العرب جميعاً.
- أرادت الحياة بدورها أن تتجلّى، فتجلّت في الأمة العربية.
- تجلت عبقرية الأمة العربية في لسانها، وهذا هو عنوان كتابه الأول الذي بقي باستمرار المرجع لكل كتبه اللاحقة: (العبقرية العربية في لسانها).

❖ ❖ ❖

يقول الأرسوزي في الفصل الثامن والأخير من كتابه (العبقرية العربية في لسانها) تحت عنوان الأمة العربية: «تنبثق عن ذات الأمة نظرتُها في الوجود؛ وهي تحمل طابعها، وإنه ليس عبثاً أن افترض الهنود الأثير، واليونان الجزء الفرد (Atome)، والشعوب السامية النمو بالتطور والانقلاب (Évolution – Révolution)، والإنكليز التطور بالاصطفاء (Par Selection). فكلٌ من هذه الأمم قد أدرك الوجود خلال بنيته. وهكذا فإن العرب قد أوحوا إلى العالم فكرة الخلود؛ الفكرة المستوحاة من طبيعتهم المتصفة بالخلود.

إن الأمة العربية ـ وهي ينبوع الشعوب السامية كافة ـ عالمٌ بذاتها؛ لم تأفل منذ ظهور الإنسان على مسرح التاريخ؛ وهي تُطهِّر بفيضها في كل مرحلة ما تراكم من آثام على الشعوب؛ فتهديها إلى تحقيق أهدافها.

مثل الأمة العربية كمثل السديم (Nébulosité) ذاته (أصل الوجود)، يتكاثف حيناً، ثم يتناثر بعد حين، فتنجم الشموس عن تكاثفه، ثم تنتهي بتناثرها في الأثير.

كذلك الأمة العربية، فإنها أبداً مشرقة بنورها على الإنسانية؛ وقد تبدو حيناً مفككة متناثرة، أبناؤها منزوون في قوقعة من الأنانية، إلا أنها لا تلبث حتى يسطع منها نبي أو زعيم؛ فيبعث بها من جديد، ويلقي النور الحاصل من تأججها شفقاً على العالم أجمع؛ فيهدي الأمم حينئذ بمنارته إلى تحقيق رسالتها؛ وعند ذلك تتحدى هذه الأمة تقديرات المؤرخين.

في هذا الاستشهاد الطويل نجد الأساس الفرضي لكل التفاصيل اللاحقة التي يضفيها الأرسوزي على الأمة العربية:

- الخلود طابع الأمة العربية وحدها.
- الأمة العربية مصدر الشعوب الساميّة وهي: الآشوريون والبابليون والكلدانيون والفراعنة، باختصار كل الشعوب السامية التي كانت ذات حضارة. وحضارات تلك الشعوب جميعاً أصلها عربي!
- الأمة العربية أصل الوجود.
- الأمة العربية لا تخضع في مسيرتها للقوانين التاريخية.

• يسطع نبي أو زعيم في الأمة ليبعثها من جديد، وليهدي الأمم الأخرى برسالة العروبة، وسنرى فيما بعد مفهوم القبة عند الأرسوزي، ويقصد بها دورة تاريخية كبرى، تتحدد بتجلي المعنى عبر نبيّ أو زعيم، ومفهوم القبة عنده أخذه الأجداد عن قبة السماء.

في الفصل نفسه يضيف الأرسوزي مباشرة مجموعة من الخصائص للأمة العربية تحت عنوان (ما هي الأمة).

• الأمة العربية ليست وضعاً مشتركاً عاماً نشأ في التاريخ؛ بل هي «آية أصولها في الملأ الأعلى»، «الله علّم آدم الأسماء كلها، ثم الأسماء تنزل من السماء».
• اشتركت في تشييد بنيان الأمة العربية «السماء مع الإرادة الإنسانية منسجمتين؛ بنيان يتمتع بنشأته هذه بهالة من القدسية».
• ما نسجه الأجداد في الأمة العربية مُحَقّقٌ لما صار في قرارة نفوس الأحفاد.
• ليست الأمة العربية كغيرها من الأمم؛ لأنها أمة بدائية أصلية، بينما الأمم الأخرى مشتقة، ولذلك فإن نفوس أفرادها محجوبة عن مصممها (الله) بحجاب من الرموز المصطلح عليها؛ بينما الأمة العربية وحدها تنطوي نفوس أبنائها على مصممها (الله)!.
• إذن تتميز الأمة العربية عن غيرها من الأمم بأمرين اثنين:
1 ـ النشأة السماوية.
2 ـ البنيان الخالد لخلود مصدرها (الملأ الأعلى ـ الله).

❖ ❖ ❖

في كتابه (مشاكلنا القومية وموقف الأحزاب منها) يكتب الأرسوزي تحت عنوان (الأمة والوطنية والقومية):

«فكلمة (أمة) ترجع هي والأم إلى ذات المصدر؛ فتبدو في الحدس العربي كامتداد للأسرة؛ أي تقوم على بنيان رحماني مشترك؛ عن الأم يصدر الأبناء، وهي منهم محط الآمال، وعن الأمة يصدر الإخوان أعضاء المجتمع، وهي لهم معين ينهلون منه الثقافة».

يكرر الأرسوزي الربط بين الأم والأمة عشرات المرات في كتبه كلها، ليؤكد على الأصل الواحد المشترك بين أبناء الأمة العربية؛ كما يؤكد باستمرار على رابطة القربى القائمة على نقاء الدم؛ والأمة عنده تظهر لدى التأمل (كعقيدة). ونحن نتخذ كلمة (عقيدة) بالمعنى الاشتقاقي؛ أي بالمعنى الذي توصيه صورتها الحسيّة (عقد الجنين) أو (عقد الزهر). فكما أنّ الحياة تنعقد على الجنين المصور، ثمّ تنتقل من طور إلى آخر حتى تستكمل شروط نموها بالشيخوخة؛ فإن الأمة هي أيضاً بداية حياة جديدة، تكشف عن فحواها بأداة بيانها وبلغتها وبما أقيم على المعاني المتضمنة في الكلمات من عُرف وفنون وديانة... إلخ».

ما تقدم هو وجه آخر لمفهوم الأمة عند الأرسوزي، ولكنه الوجه الذي يقود إلى تحديد مفهوم القومية، كما يقرره في الكتاب نفسه تحت عنوان (الاتجاه القومي):

«أما كلمة قومية فتعني حسب اشتقاقها اللغوي: قيام ذوي القربى للدفاع عن حقيقتهم المشتركة، عن تراثهم ومثلهم العليا؛ وعلى هذا فإذا كانت الأمة تعني أصول القربى بالدم والثقافة، فإن القومية تدل على الشعوب بهذه القرابة والعمل بمقتضاها».

إن الأرسوزي يرى أن الشعور القومي قديم عند العرب؛ وليس وليد الظروف التاريخية، «فقد بلغ أوجَه في جاهليتنا».

وفي كتابه بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم، الأمة والأسرة يقول: «وها هنا نرجع بالذكرى إلى سنة 1934... فلما سُرِّحت من وظيفتي كمدرس من قبل سلطة الانتداب، لجأتُ إلى القرية حيث كانت تقيم والدتي؛ وكنت وإياها نتبادل الحديث في الليالي المطرة. وكم كانت دهشتي لما رأيت تأملاتي تلتقي مع حدسها في أمّهات المسائل؛ فكانت دراستي الجديدة ليست إلا سبباً لاستجلاء الحدس المشترك بيننا، الحدس المنطوية عليه نفسانا. وكانت والدتي قد عبرت عن ذلك بقولها: سبحان الله يا بنيّ! إنّك لم تتبدل منذ كنت أحملك على صدري؛ وكل ما في الأمر أنّك كنت برعماً فتفتحت زهرة».

❖ ❖ ❖

في مفهوم القومية أكد الأرسوزي على أن الشعور القومي لدى أبناء الأمة العربية بدئي وغريزي، تنطوي عليه نفوس الأحفاد كما انطوت عليه نفوس الأجداد؛ وهذه خاصة تنفرد الأمة العربية بها عن سواها من الأمم التي جاء شعورها القومي نتيجة لظروف تاريخية؛ فرابطة الشعور القومي تقوم على:

- رابطة الأخوة في الدم؛ أي الأصل الواحد المشترك رحمياً.
- رابطة الثقافة الواحدة التي عبرت عنها الأمة بمؤسساتها وهي: اللسان، والأخلاق، والديانة، والعرف، والفقه، والعادات، والتشريع والفلسفة؛ أي كل ما أنشأته الأمة من نظم وبنى لتعبر عن وجودها.
- رابطة الأصل السماوي الواحد؛ أي انبثاق الأمة العربية - عبر آدم أبي البشر - عن الملأ الأعلى، عن الله الذي خلق العربي على صورته.
- رابطة الحدوس الواحدة التي تنطوي عليها نفس كل عربي منذ بدء الخليقة حتى الآن؛ وهذه الحدوس خالدة خلود الإنسان العربي؛ فالخلود نفسه رابطة بين أبناء الأمة.

فبماذا يحدد الأرسوزي الوطنية؟ وكيف يرسم حدود الوطن؟.

يقول: «وأما كلمة (وطن) فتعني الأرض، مواطئ أقدام الأجداد، المجال الحيوي للجماعة، و(الوطنية) هي شعور، شعور المرء بالحنين إلى محل انكشاف شخصيته؛ ومن هنا جاءت استعانة المربين بالتاريخ والجغرافيا مقترنَين على ربط الأجيال بالمجال الحيوي للأمة».

❖ ❖ ❖

«كلمتا (عروبة) و(عرب) هما مصدران لفعل (عرب) فالأول يفيد الإبانة، والثاني يعين: كمن، أفصح، وأبان، والمعنيان يظهران في العبارات التالية (أعرب) عنه لسانه: أبان وأفصح، و(العرب) العرباء: الصرحاء الخُلّص، (أعربهم) حسباً: أبينهم وأوضحهم. أما كلمة عرب فهي اسم مصدر اصطبغ مدلولها بصيغة الجمع عندما تشخّص». وهو يميّز ثلاثة مستويات للنسب العربي على ضوء المعنى الذي قدمه فيما تقدم؛ لأن الفعل (عرب) يعبر عن حالات الغريزة، وهذا التقسيم يقوم عنده على مبدأ البيان:

- العرب العاربة: وهم العرب الذين يعربون على السليقة.
- العرب المستعربة: وهم العرب الذين يعربون «تكلفاً وتصنّعاً».
- العرب المستعجمة: «فهم الشعوب السامية التي انحرفت أداة بيانها عن العربية السليمة؛ أي عن الفصحى».

ولكي نفهم (العروبة) بصورة أوضح كما يريدها الأرسوزي، فإننا نورد المقابل لمفهوم العروبة وهو عنده (العَجم)؛ يقول: «وكلمة (عجم) من العجمة بمعنى البهم؛ لما لاحظوا من غموض وإبهام عند من هم ليسوا بعرب؛ عجم من عجّ، والعجاج هو الغبار الذي تحدثه الماشية».

والعجم عند الأرسوزي بهذا المعنى هم الشعوب غير السامية، أي الشعوب الآرية بالدرجة الأولى؛ لأنه لا يتناول الشعوب الأخرى بالمقارنة أو الحديث إلا بالإجمال العام. والشعوب السامية عند الأرسوزي أصلها عربي، ولكنها انحرفت عن اللسان العربي، وتلتقي مع العرب بالسمو؛ أي أن الشعوب السامية جميعاً أبناء السماء؛ وبقية الأمم أبناء الأرض.

وعلى ضوء مفهوم العروبة يعيد تصنيف الأمم بحسب نظام قيمها إلى:

- الأمة الابتدائية التي تقوم على مبدأ الرحمة.
- الأمم التي تقوم على مبدأ العدالة.
- الأمم التي تقوم على مبدأ الرسالة... وإن الأمة التي ينبغ فيها بين الفينة والفينة أحد الرسل تقشعُ ما التبس بالعدالة من أمور عرضية شكلية.

هذا فضلاً عن أنها تقوم بتنظيم العلاقات بين الأمم، على ضوء الإنسانية المستجدة في رسالة نبيها».

«ومع ذلك فإن الحياة تبقى ذات هدف في الرحمة والعدالة والرسالة؛ وليس بغير الحرية يتشبه الإنسان بالإله»؛ والعربي في الجاهلية هو إنسان الحرية بامتياز.

يعود الأرسوزي غير مرّة لتحديد معنى (عرب) وعجم، فهو يقول:

«وكلمة عرب مشتقة من الصّوت: عرّ الظبي؛ أي صات، أعرب عن نفسه؛ أي أفصح وأبان، وحرف «ب» الملحق بـ (عرّ) هو الذي حدد معنى الإفصاح والإبانة

بحسب مخرجه من الشفتين؛ وهكذا صاغ العرب اسمهم من الصفة المميزة للإنسان ألا وهي صفة النطق؛ وهم يلتقون مع أرسطو في تعريف الإنسان بالنطق».

ويتابع في المقال نفسه توضيح معنى (عجم) مرّة أخرى؛ (العرب) وهم الأمة الأصيلة البدائية، والأمم الأخرى هي الأمم التاريخية (المشتقة).

إلا أنه يستدرك فيقول:

«إلا أن العرب في هذه الأسرة هم حملة سر الآباء بمثابة الابن البكر من أخوته؛ يشعرون نحو بعضهم بشعور المسؤولية في الأسرة؛ وإن ما يؤيد حدس العرب في حقيقتهم، وفي مركزهم في أسرة بني آدم، هو بدائية مؤسساتهم وقدمهم». والابن البكر عند الأرسوزي، هو الأقرب إلى الينبوع، إلى الكمال الذي هو المثل الأعلى المتجلي في الرسالة حيناً بعد حين، من عهد آدم حتى عهد محمد «أول خلق الله وآخر الرسل».

❖ ❖ ❖

في بداية كتابه (بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم)؛ يكتب الأرسوزي تحت عنوان: (العهد الجاهلي هو عهدنا الذهبي): «إن الجاهلية العربية لهي عهد الفطرة، العهد الذي نشأ فيه كياننا نزّ (بصورة عفوية)، فجاءت مؤسساتنا القومية متلازمة متتامة، في عهد الفطرة فقط كان أجدادنا يستوحون أعمالهم مما انطوت عليه نفوسهم من مثل عليا؛ فيقبلون على جلائل الأمور وهم يجهلون النتائج».

وهكذا كانت تتوافق الميول والأماني، وتتجاوب النية وبوادرها، وتنفتح النفس عن كوامنها، «وتنبثق عنها الواجبات انبثاقاً». لقد كان العربي في الجاهلية ينظر إلى الحياة نظرة فنية، حسب الأرسوزي؛ وكان باعثه على العمل جمال العمل لا نتيجته؛ ولذلك كان العربي يتعدى حدود الصورة بصعوبة إلى المعنى في السماء؛ وكان جواداً وفيّاً يتصف بالنخوة الجاهلية؛ والعصبية العربية بمعناها ومداها «تكشف عنها أصالة في الأسرة». لقد استعان أجدادنا بالعصبية لئلا يخرج أحد منهم عن تراث الأمة؛ باختصار لقد استكمل أجدادنا شروط الشعر والبطولة معاً في الجاهلية.

فكيف فهم الأرسوزي مصطلح الجاهلية على ضوء نظريته في اللسان العربي والقومية العربية؟ كلمة جاهلية مشتقة من (جهل) عنده، وهذا صحيح، و(جهل) ذات مصدرين: (جهل) و(جهالة). الأول أقرب إلى الحالة التي هي ضد العلم؛ والثاني أقرب إلى التعبير عن حالة المبادرة؛ أي أنه يقابل الحلْم بالمعنى، إذن فالحدس الذي تنطوي عليه الكلمة يتأرجح بين ذينكم الاتجاهين؛ والمعنى الثاني فيظهر على الأول في الأبيات التالية:

لئن كنتُ محتاجاً إلى الحلم إنني إلى الجهل في بعض الأحايين أحوجُ

لقد تأرجح الذهن العربي برأي الأرسوزي بين هذين القطبين؛ بين ما هو ضد العلم وما هو ضد الحلم. ويعود ذلك برأيه إلى علاقة الرؤية بالعمل، ذلك أن الاستجابة العفوية تبدو وكأنها جهالة، بمعنى عدم اعتبار العواقب؛ وهكذا يكون الجاهل، هو إذاً يعمل بشجاعة تتحدى النتائج».

هكذا كان يختلف العصر الجاهلي عن الإسلام اختلاف الطبيعة عن المثل الأعلى؛ فالجاهلية هي عهد الشباب، والإسلام عهد الاستواء والنضج، «ومع ذلك فليس من انفصام بين الإسلام والجاهلية، كلا العهدين هما مراحلتان في حياة أمة واحدة».

يعتبر الأرسوزي العصر الجاهلي مثلاً أعلى ينطوي على الفضائل جميعاً؛ إنه عصر البطولة والحرية والإبداع الأسمى. العصر الجاهلي كما يرى الأرسوزي كان يقوم على نظرة فنية في الحياة؛ «على نظرة فيها الحياة للحياة فحسب».

- بعث الأمة العربية:

لغةً «بعثه من نومه»: أيقظه. و«بعث الميت: أقامه»، ومنه «يوم البعث»، أي يوم القيامة، وفي الإسلام يبعث الله البشر جميعاً يوم القيامة، يوم الحساب.

إذن البعث يعني إحياء ما كان موجوداً في زمن ماض، ما مات في زمن انقضى منذ وقت قريب أو بعيد؛ وهكذا يقول الأصوليون جميعاً بإحياء الماضي، بضرورة بعثه حياً من جديد. والقوميون المتشددون، والمتدينون المتشدّدون، يرون الكمال في الماضي؛ وتحديداً في المرحلة التي يرونها عصراً ذهبياً؛ فبالنسبة للمسلمين يمثل عهد الرسول والعصر الراشدي العصر الذهبي، عصر الكمال الذي لن يرتقي الأحفاد - مهما عظموا - إلى مستوى عظمته؛ وفضيلة المسلم في أن يتشبه بأعلام ذلك العصر.

وبالنسبة للأرسوزي فالعصر الجاهلي هو العهد الذهبي في تاريخ الأمة العربية؛ وقيم ذلك العهد هي القيم الأصلية التي استقرت في نفوس الأجداد، وتنطوي عليها نفس كل عربي في كل عصر؛ ولكنها تحققت واقعياً في ذلك العصر، وفي عصر النضج والاستواء، عصر فجر الإسلام.

ومن هنا يحدد الأرسوزي الهدف من تأسيس حزب (البعث) فيقول:

«كان الغرض من تأسيس حزب البعث تحقيق أمرين: أولهما تجديد الحياة عند العرب، والثاني جمع شملهم في دولة عربية واحدة».

وتجديد الحياة عند العرب يعني أول ما يعنيه عند الأرسوزي أن يعود العرب إلى اللغة العربية، وأن يحيوها عن وعي، عندئذ يبلغون من جديد ما بلغه الأجداد: «إنّ لغتنا هي أبلغ مظهر لتجلي عبقرية أمتنا، هي مستودع لتراثنا؛ فما لنا إلاّ أن نعود ونحياها عن وعي، حتى نبلغ ما بلغه أجدادنا من سؤدد وعزّة».

إن صرح الثقافة العربية حسب الأرسوزي «قد شيِّد على المعاني المنطوية في الكلمات»، والمعاني في نفسها ذات جذور في صميم الحياة «مستقلة كل الاستقلال عن فصل العقل في اجتهاد المجتهدين»؛ ولذلك فقد أصبح البعث عند الأرسوزي «في العودة إلى الينبوع، إلى الحدس المتضمن في الكلمات، كالعدالة، والنظام، والشعر والجمال».

الخطوة الأولى هي أن نبعث اللغة، فنبعث ببعثها الثقافة العربية الأصيلة في نفوس أبناء الأمة العربية، حية مستضيئة بنور الوجدان؛ «فيرتقي الإنسان بهذا البعث إلى الملأ الأعلى».

ويعني ذلك أن تتحرر من سيطرة القوى الخارجية وعلى رأسها الاستعمار الغربي. وهذا الهدف يتضمنه بعث اللسان العربي، ولا يتناقض معه. وحين تتحرر الأمة من كل سلطان خارجي، وتبعث اللغة العريقة في نفوس أبنائها، فإنها تشترك مع العناية في تعزيز مصيرها وتحديده، وهو يعني بالعناية هنا الإرادة الإلهية بلا زيادة ولا نقصان؛ وهذا ما يقصده تماماً من مبدئه الشهير: (العربي سيد القدر).

يقول الأرسوزي: «وعلى ذلك فإنما نبغي من هذه الرسالة أولاً: استجلاء آية أمتنا كحقيقة تاريخية؛ وثانياً: إنشاء فلسفة عربية يتحول بها ما نسجته الحياة

عفواً إلى مستوى الشعور؛ بحيث تشترك مع العناية في تعيين مصيرنا؛ نشترك هذه المرة ونحن أحرار». يميّز الأرسوزي في عملية البعث بين الأخلاق والتقاليد؛ فالأخلاق أصيلة في الطبع الإنساني، والتقاليد الطارئة تخضع لقوانين الزمن، ولذلك لا بد أن نهمل مظاهر العهود التي تعيق التلاؤم مع البيئة الجديدة، كمظاهر عهد هارون الرشيد مثلاً. يقول الأرسوزي:

«ونحن إذا اتخذنا كلمة (بعث) شعاراً لرابطتنا الحزبية، كنا نعني بها الصفات المميزة لأمتنا كعبقرية مبدعة تبدع مظاهر حياتنا، وتكيفها بمقتضى طبيعة المرحلة التاريخية، بقاء مقومات أمتنا مع مرونتها للتكيف مع مقتضيات المراحل التاريخية، دعانا للقول بخلود الأمة العربية، وبخلود رسالتها التاريخية». والصفات المميزة لأمتنا نجدها في عهدي الصبا والاستواء والنضج، عهدي الجاهليّة والإسلام الأول. الإسلام الذي حمل رسالته بطل الأمة محمد، وهذا البعث لا يتناول مسطح الحياة كما هي الحال في الأمم الأخرى «التي انطلقت قواها بتأثير التقدم في العلم والصناعة»، وإنما بعث فعالية تتجه نحو الصميم، وإذا حققنا ذلك تمكنا من خلق ثقافة إنسانية، «رفعتها على مقياس فسحة قاعدة حياتنا في الطبيعة؛ وعندئذ نتمكن من ردع الثقافة الحديثة عن شططها في فهم الإنسانية؛ كما ردعنا العلم الحديث عن شططنا في فهم الطبيعة».

وتحقيق بعث الأمة العربية بعثاً كاملاً بتحقيق ثلاثة أهداف يوجزها كما يلي:

«فمُهمّة البعث الأولى هي إذن أولاً: إحياء التراث الأصيل المميز لعبقرية أمتنا، والمكون قوام شخصيتنا التاريخية؛ وثانياً: تحرير بيئتنا من التقاليد والآراء التي تعيقنا عن اللحاق بموكب الحضارة؛ وثالثاً: إيجاد الانسجام بيننا وبين الحضارة الحديثة. وكما كانت الحضارة الحديثة تقوم على العلم والصناعة، فقد أصبح واجب الجميع الإقبال على العلم والصناعة إقبالاً واسعاً وبلا تحفظ».

علينا أن نتذكر دائماً أن الأرسوزي يرى أن العربي لا يخضع لقوانين الضرورة في الطبيعة، فالله قد أبدعه على صورته، وهو مركز الكون (الإنسان بعامة)، وقيمته مطلقة لأمة يتلقاها مباشرة من الملأ الأعلى؛ ولذلك يتميز العربي دائماً بصبوة (نزوة، نزّة) إلى مصدره في هذا الملأ الأعلى، ولأن العناية الإلهية تلتقي مع الإرادة الإنسانية في تاريخ الأمة العربية (في مراحل علوّها)، فإن العربي يكون سيد

القدر، ويكون باستطاعة النبي والبطل القومي إيقاف القدر. وهكذا يصبح العربي سيد القدر! «فإن بطلنا القومي رسول الهدى». ولكي نوضح الصورة أكثر نقول: إن الأرسوزي يرى أن البشر جميعاً انبثقوا عن الملأ الأعلى أبناء آدم؛ وآدم من تراب ومن روح الله، نفخ فيه الله من روحه، وخلقه على صورته ومثاله، ولكن التفاوت بين البشر سببه التفاوت في الصبوة للارتقاء إلى الملأ الأعلى؛ والعربي هو بمثابة الابن البكر، هو الأَقرَبُ إلى باريه ومبدعه على مرّ الأزمنة والعصور، وبعث الأمة يكون بإيقاظ تلك الصبوة عن طريق إيقاظ اللغة العربية نفسها؛ ومن ثمّ فإن الأخلاق الأصيلة، القيم الأصيلة التي تَميَّزُ بها الأجداد في الجاهلية، تبعث من جديد في الأحفاد، إذا ارتفع الأحفاد إلى مستوى اللغة العربية نفسها.

وحسب الأرسوزي: النبي والبطل وحدهما يرتقيان إلى الينبوع الأول الذي فاضت عنه الآيات جميعاً؛ فبعث الأمة يفترض النبي أو الزعيم البطل، ولأن النبي محمد بطل العرب آخر الأنبياء؛ فإن القيادة حددت تحديداً مصيرياً في الزعيم البطل. فمن هو الزعيم عند الأرسوزي؟.

يقول الأرسوزي: ونحن نعتقد بأن الفكرة القومية ككل فكرة سيتوقف نجاحها على الإيمان بها؛ وعلى المقدرة على نقل الإيمان إلى الآخرين ـ: «إن العقيدة وإن كانت ذات جذور في الملأ الأعلى فإن تجلياتها في عبارة الهيجان الطبيعية مثلها كمثل الجنين الذي تنعقد عليه الحياة؛ وإذا اشتق الذهن العربي العقيدة (في النفس) وعقد الجنين (في الرحم) فقد فطن إلى تلك الحقيقة، والصورة الحية للزعيم الكبش إذ ينقل إلى القطيع الهيجان الحاصل له عند رؤيته الذئب بطريق المحاكاة والعدوى؛ وهكذا ينقل الزعيم إلى الآخرين الشعور بالروعة الذي حصل عليه في نفسه لدى بزوغ الآية المجلى المثالي للعقيدة؛ والمثل: «العنب لرؤية بعضه بعضاً يسودّ»، ليس إلاّ الحدس في العلاقة المزدوجة بين الجمهور والزعيم. فإذا كان السباق ينبئ بقدوم الموسم، فإن بشارته تصبح معمداً روحيّاً أيضاً».

ولا يتعب الأرسوزي من العودة إلى الزعيم فيما يتعلق بالدورة التاريخية الكبرى التي يكون عمادها النبي أو البطل الزعيم؛ فهو أوّل من تشرق في داخله أنوار المعنى؛ وبدوره ينقلها إلى الآخرين، فتنتقل لهم بالمحاكاة والعدوى. ومثل الزعيم من الجمهور عند الأرسوزي كالأم من بنيها؛ فهي تسمع استغاثة أبنائها،

وهي في أعماق نومها، وهكذا يستجيب الزعيم بجوارحه للجمهور، ويتعاطف معه، فيصبح «بشيراً وهادياً».

وفي كتابه الأول يقول: «ولئن تفتح هذا النظام كاملاً في النّبوّة، فالبطل أيضاً بإرادته يوقف سير القدر، ويبعث بكافة هذه القيم في نفسه المتفتحة بهذا الاستجمام».

وغالباً ما يقدر الأرسوزي صورة النبي الزعيم البطل، فإذا كانت النبوة - حسب قوله - أصالة في المعرفة، فإن البطولة أصالة في العمل. ولذلك يتساءل كيف نميز في شخص محمد بطل العرب من رسول الإسلام؟ ذلك أن الأرسوزي يرى أن الأبطال يجسدون قيم الأمة العليا ومثلها؛ ويرى أن البطولة غاية ما تسعى إليه الكائنات.

لكل دورة تاريخية كبرى في تاريخ الأمة العربية نبيها أو بطلها الذي هو الزعيم، وفي هذه المرحلة فقد تحققت فيه الصفات التي يضفيها على الزعامة المنتظرة.

1 - استيقظت في داخله الصبوة إلى الملأ الأعلى منذ الطفولة؛ وارتفع إلى مستوى اللسان العربي، فأشرقت في داخله حدوسه التي ستكون - برأي الأرسوزي - حلاً لمشاكل مستعصية، وتحريراً للبشرية برمتها.

2 - الأرسوزي يتعاطف مع الجمهور، وينقل له ما أضاءه الملأ الأعلى في داخله، ولقد خاض تجربةً عملية في لواء اسكندرون، ونقل أفكاره لعرب اللواء. لقد ميّز بين القيم الأصيلة والعادات البالية، وها هو ذا يتابع تبشيره وهدايته ليحقق بعث الأمة بالبطولة التي هي غاية الحياة.

يعرض الأرسوزي في كتابه (صوت العروبة في لواء الاسكندرونة) سيرة شخصية لنفسه، فيها كل مزايا الزعيم التي قدمها مرات ومرات في كتبه ومقالاته وأحاديثه. عندما طلب منه قائمقام إنطاكية كتاباً يدعوه إلى مغادرة اللواء حرصاً على حياته، لأنه «مثالي ونبيل»، كان جواب الأرسوزي أن جمع تلاميذه وإخوانه؛ أطلعهم على الأمر، وأعطاهم ما يملك من نقود، وطلب منهم المغادرة إلى سورية «من أجل التبشير بالعروبة»، والعمل على تحقيق الأماني القومية؛ أما هو: «فسأبقى، وسأشترك مع الآخرين في المصير محتملاً ما قُدّرَ لهم من تعذيب، وإلا فإن أترك المعركة وأتوارى أكون قد تركت للناس مجالاً للقول بأنني ألقيتهم بين فكي الضبع وهربت؛ وأكون قد أسأت إلى العروبة والأخلاق معاً». وهكذا بقي لكي

يعمل على تثبيت الواجب في النفوس المترددة، وبعد سجنه جدد (نذره) الذي قام به وهو طفل بأن يوقف حياته للعروبة. بعدئذ هاجر إلى سورية ولكن «لم يتيسر لي منذ ذلك الوقت إلى اليوم الاتصال بالجمهور لتحقيق الأمل. وذلك مما جعلني أقول في نفسي: إنني كالشبح روح بلا جسد؛ حتى لقد أخذ معارفي في سورية ينفضّون من حولي الواحد بعد الآخر؛ كما تخور الصخور فتزيد بانجرافها نحو الوادي من روعة الجبل».

النهاية العملية لتجربة الأرسوزي حسب اعترافه كانت الفشل حتى تاريخ كتابه؛ ولكنه بعد ثورة الثامن من آذار في سورية، واستلام حزب الشعب السلطة، جدد آماله، وأعلى تفاؤله الذي لم يتوقف لحظة واحدة. وهكذا كتب مقالات كثيرة خاصة في مجلة (الجندي)، المجلة التي تصدر عن إدارة التوجيه المعنوي للجيش والقوات المسلحة؛ ولقد حاضر كثيراً في أفراد الجيش العربي السوري وضباطه في قطعاتهم، آملاً أن يحقق هذا الجيش بطولة تحقيق بعث الأمة العربية، وتوحيد العرب في دولة واحدة؛ لكن يبدو أن مشاكلنا القومية كانت أقوى من فلسفة الأرسوزي ومن مقالاته وأحاديثه، هذه المشاكل التي يحددها بإيجاز:

- الاستعمار والتجزئة، والرد عليها يكون بما قرره دستور البعث: «العرب أمة واحدة، بلاد العرب وطن لا يتجزأ».
- الرجعية التي تعيش على الماضي البالي، والردّ عليها يكون بالتحول عن هذا الماضي إلى المستقبل؛ ويكون بالحرية لجميع المواطنين؛ لأن الحرية مفتاح الحل لجميع مشاكلنا.
- التخلف وغياب العدالة في توزيع الثروات؛ ويكون الرد عليه بالاشتراكية الأرسوزية، فالأمة الشيوعية لا يمكن أن تنتصر لأنها قالت بإلغاء الملكية الفردية.

إن الأرسوزي يشدّد على أمرين باستمرار، أولاً: دور التربية في إعداد النفوس إعداداً أخلاقيّاً عالياً، بحيث يرتفع الأفراد إلى مستوى اللسان العربي، وتنبعث الصبوة للارتقاء إلى الملأ الأعلى، وثانياً: بأخذ العلوم المادية والصناعية عن الغرب الآري، فإذا تحقق ذلك تحت قيادة زعيم هو عماد

(قبتنا) المعاصرة؛ فإن البعث القومي سيتحقق، وسينجز مهامه التي حددها له الأرسوزي الذي حقق المعجزة، أنه جمع القلوب على حب واحد هو حب العروبة؛ ولكن في لواء اسكندرونة وحده بكل أسف.

❖ ❖ ❖

خياران اثنان كانا أمام الأرسوزي: أن يكون كاتباً أديباً مبدعاً، أو أن يكون نبيّاً (زعيماً) يقود بعث أمته؛ ولقد اختار البطولة لأنها غاية الحياة بنظره؛ أي اختار أن يتنازل حتماً عن ممتلكات أسرته في اللواء، وأن يعيش حياة التقشف والتشرد والسجن في سبيل فلسفته في القومية العربية.

كان الأرسوزي فناناً كبيراً حقّاً، ويتجلى ذلك قويّاً في رسالة الفن، وفي المستوى الرفيع للغته في العديد من مقالاته ونصوصه، ولأنه كان فناناً فقد كان حالماً كأبعد ما يكون الحلم، ولأنه كان حالماً على هذا النحو كان متفائلاً بشكل يدعو إلى الإعجاب والدهشة؛ كان ليبراليّاً بوضوح، ولا بدّ للمرء من أن ينحني له وهو يمجد الحرية بلا تعب، ويمجد علاقة الأخوّة بين الشعوب، وبالمقابل يهاجم الديكتاتورية والتخلف والظلم بكافة أشكالها.

ولئن أدارت الحياة العربية ظهرها للأرسوزي وتجاهلته، ولئن كانت نظريّتُهُ تناقض العلم؛ فإنّه كان في سلوكه وصدق إيمانه بأفكاره وفي مراحل عمره كلها، مثالاً على الصدق والاستقامة والتقشف؛ كما أنه كان فوق كل الانتماءات الصغيرة الضيقة. لقد حلم، وأوغل في الحلم حتى سيطر عليه حلمه.

وفيق خنسة

رشدي الكيخيا

الوحدة مع العراق

(1900 - 1987)

في اليوم الثالث لانقلاب حسني الزعيم انطلقت مظاهرة ضخمة من الجامع الأموي بدمشق بعد خطبة يوم الجمعة والصلاة والدعاء لقائد الجيش؛ أنهى الخطيب كلمته قائلاً: إن الله قيض للبلاد في شخص الزعيم، منقذاً أنقذ الجيش من الانهيار، وخلص البلاد من الثورات الداخلية. بعدئذ خطب شاب من الأخوان المسلمين وآخر من البعثيين، وطالبا بمحاكمة المسؤولين عن الهزيمة في حرب فلسطين ومحاسبة المتلاعبين بأموال الأمة.

تقدمت المظاهرة في سوق الحميدية رافعة الأعلام والرايات واللافتات، اجتازت شارع السنجقدار، فسراي الحكومة، فجسر فكتوريا، ثم تابعت صوب الصالحية إلى أن وصلت إلى البرلمان؛ توحدت الهتافات تحيِّ الجيش وتهنئ قائد الانقلاب، استقبلهم أفراد حامية البرلمان مهللين ورفعوا قبضاتهم وأسلحتهم، وردّدوا معهم الهتافات بكل حماسة. وانبرى قائد الحامية الضابط الرئيس عدنان المالكي، وألقى خطبة عاهد فيها المتظاهرين على الدفاع عن الوطن في الداخل والخارج، فتعالت الصيحات: الله أكبر، الله أكبر.

في فندق الأوريان بالاس كان الجو مختلفاً تماماً لاسيما في المساء؛ نواب الأمة متفرقون، حلقات بين القاعات، ومعهم سياسيو الأحزاب وصحفيون، المناقشات حامية تشوبها الحيرة، تتفتق عنها عبارات حذرة وضحكات متكلفة. تتناثر أسماء وتوقعات واحتمالات، كان الزعيم قد مدّد المهلة حتى الساعة السادسة مساء كي تنهي اللجنة الثلاثية مشاوراتها في تشكيل الوزارة؛ في حين الساعة تجاوزت السابعة.

في اليومين السابقين، لم ينجح رئيس مجلس النواب فارس الخوري في إقناع رئيس الجمهورية المعتقل شكري القوتلي بالاستقالة؛ فعقد النواب اجتماعهم في الفندق برئاسة الأمير عادل أرسلان؛ حضره ما يزيد على سبعين نائباً، ولم تجتمع كلمتهم على انتخاب خلف للرئيس، وانتهى الاجتماع في ساعة متأخرة من الليل بعد أن أصدروا مضبطة رسمية بتأييد الانقلاب؛ وتشكيل لجنة ثلاثية مهمتها الاتصال بالزعيم للبتّ في أمر تأليف وزارة قوية تضم جميع الأحزاب والهيئات؛ حدد الزعيم مهلة للجنة الثلاثية لتشكيل الوزارة.

احتدمت المشاورات طوال اليوم في الأوريان بالاس، الأمير أرسلان متردد، رجالات الأحزاب مختلفون، كل منهم يطالب بحصة من المقاعد الوزارية تتجاوز حجمه، الحزب الوطني يطالب بثلاث حصص، ومثله حزب الشعب، الأخوان المسلمون؛ البعثيون، أكرم الحوراني، كانت الأحاديث الجانبية تترامى في القاعة، كيف اعتزل رئيس المجلس النيابي فارس الخوري في بيته مريضاً، ولم يدافع عن البرلمان؟! تجنباً للاصطدام مع الزعيم؟! ما الذي فعله سوى أنه حصر الخلاف في تعديل الدستور ومحاولة التوفيق بين تأليف الحكومة وشغور منصب الرئاسة؛ عموماً أخفق في العثور على مخرج دستوري لائق للأزمة... لائق؟! ما اللائق في اقتحام دمشق بالدبابات واقتياد رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء إلى السجن، ومنع النواب من دخول البرلمان، ومن ثم اضطرارهم إلى عقد مجلسهم في فندق وليس تحت قبة البرلمان؟!! الزعيم لم يُخفِ مآربه، وطالب بحصته في الحكومة، رئاسة الوزارة ووزارتي الدفاع والداخلية، وعوضاً أن يتكتل النواب ضدّه، أخذوا يتنازعون على فتات الحصص المتبقية!!

على كل حال لم يدع الزعيم هذه الاعتراضات ولا هذه المشاورات أن تثمر؛ وعلى الأغلب لن تثمر، أرسل مرسوماً إلى فارس الخوري يقضي بحل المجلس النيابي، وتولى بنفسه مهام السلطتين التشريعية والتنفيذية، فانفض اجتماع النواب وغادروا إلى محافظاتهم.

الشخص الذي وقف موقفاً صارماً ضد الانقلاب، كان رشدي الكيخيا رئيس حزب الشعب؛ وبكل وضوح رفض المشاركة في أية وزارة تحت ظل الانقلاب. كان واحداً من قلة محدودة جداً، لكنه كان الوحيد الذي أعلنها صراحة، ليس هناك

بديل عن عودة الجيش إلى ثكناته، وهدد بالاستقالة من حزبه إذا وافق الحزب على التعاون مع الزعيم، كان رأيه: «إذا استشرى داء الانقلاب، فإن سورية سوف تعيش خمسين عاماً على الأقل كي تقضي عليه».

❖ ❖ ❖

ولد رشدي الكيخيا في مدينة حلب عام 1900 في أسرة ملاكي أراضي، ولم يتابع تعلمه، ويقال بأنه لم يحصل على شهادة الكفاءة، أُنتُخب نائباً عن حلب في عضوية مجلس النواب للعام 1936 عن الكتلة الوطنية؛ وفي أواخر عام 1938، كان من أوائل المنشقين عنها مع عدد من الشباب؛ أبرزهم الدكتور ناظم القدسي. وفي انتخابات عام 1943، رفض ومعه القدسي الانضمام إلى قائمة الكتلة التي يمثلها سعد الله الجابري في حلب؛ لخلافات بينهم، وتمكنا من دخول البرلمان، وامتنعا عن منح الثقة لوزارة الجابري، وأصبحا نواة المعارضة، وأخذا يسعيان إلى تجميع النواب حولهما، فضما إليهما الشباب الطامحين للعمل السياسي مثل: رشاد برمدا وعدنان الأتاسي وهاني السباعي... وظل هذا التجمع يكبر حتى بلغ عددهم 17 نائباً، وشكلوا الجناح المعارض لقيادة الكتلة سابقاً، في المجلس النيابي لعام 1947، تزعم الكيخيا الكتلة الدستورية التي تطورت في عام 1948 إلى حزب الشعب؛ وفي العام التالي أصبح زعيماً للحزب.

سيطر حزب الشعب على الجمعية التأسيسية (51 مقعداً من أصل 114 مقعداً). بعد انتهاء الجمعية من وضع الدستور السوري، أُنتُخب رئيساً لمجلس النواب، وشغل منصب وزير الداخلية في حكومة هاشم الأتاسي التي تشكلت بعد الانقلاب الثاني الذي قاده اللواء سامي الحناوي؛ إلى أن قام العقيد الشيشكلي بالانقلاب عليه بدعوى الحفاظ على النظام الجمهوري؛ وقطع الطريق على محاولة الوحدة السورية - العراقية، لتحصل ازدواجية في السلطة ما بين هيئة الأركان والجمعية التأسيسية في ذروة احتدام صراعات الحرب الباردة على سورية.

ظل الكيخيا محتفظاً بعضويته النيابية حتى مجلس عام 1954؛ وشمله قانون الإصلاح الزراعي في العام 1959، ورفض تأييد الانفصال السوري في العام 1961،

وعلى الرغم من كونه سياسياً محترفاً فقد عُرف بزهده الشديد بالسلطة؛ ورفض تقلد رئاسة الوزارة عدة مرات، والترشيح لرئاسة الجمهورية.

تخفي هذه السيرة السياسية الموجزة، صورة رشدي الكيخيا المعارض الدائم في الحكم داخل البرلمان وخارجه؛ وتخفي أيضاً محور تطلعاته السياسية نحو الوحدة بين سورية والعراق؛ لكن أيّ تفحص لشخصية الكيخيا لابد وأن يصطدم بذلك التكامل بينهما.

❖ ❖ ❖

كان السياسي العراقي نوري السعيد صاحب فكرة الهلال الخصيب؛ أي اتّحاد العراق وسورية ولبنان وشرق الأردن، وكان يرمي من ورائها حسب قوله، إلى جمع بلدان المنطقة في دولة واحدة قوية. لكن الأوساط السياسية السورية (عدا حزب الشعب) ترددت في قبول الفكرة لارتباط العراق وشرق الأردن بمعاهدة مع إنجلترا، بخلاف سورية ولبنان اللتين لم يكن لهما أيّ ارتباط مع أية دولة أجنبية، وخشيت هذه الأوساط أن ينبسط نفوذ الإنجليز على البلدين، وأن تسري عليهما مفاعيل المعاهدة الإنجليزية العراقية. واتّهموا نوري السعيد بأنه يريد تنصيب ملك العراق أو ولي عهده على عرش البلاد.

عارضت الدول العربية، وعلى الأخص مصر والسعودية هذا الاتحاد معارضة شديدة، فقد كان الملك عبد العزيز آل سعود يكره الهاشميين، ويعاكس كل مشروع يزيد من قوتهم، وكان الملك فاروق يتبع خطط السعوديين في هذا المضمار. انعكس هذا التنافس بين الهاشميين والسعوديين داخل سورية؛ فتبنى الحزب الوطني المحور السعودي المصري، فيما كان حزب الشعب من دعاة المحور العراقي، على أنّ أهم معارض للوحدة مع العراق كان شكري القوتلي بسبب علاقة الطيبة مع السعوديين، مثلما كان أعضاء حزب الشعب على علاقة جيدة مع الحكم في العراق؛ ويتمتع معظم أعضائه من وجهاء حلب وتجارها بسمعة جيدة تفوق ما كان يتمتع به منافسوهم من رجال الحزب الوطني.

وعلى التأكيد كان لحلب المدينة السورية الكبيرة دور كبير في هذا الصراع؛ فهذه المدينة التي تنتهي عندها تاريخياً قوافل تجارة (طريق الحرير) الممتد من

الصين وآسيا الوسطى إلى البحر المتوسط؛ كانت أيضاً عاصمة لإعادة تصدير الإنتاج الزراعي العراقي والسوري، وقد أصابها ضرر بالغ، ألحقه بازدهارها ومكانتها الانفصال عن تركيا بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية. ألقى حزب الشعب بثقله السياسي، كي يزيل الحدود السورية العراقية، ويحطم الحواجز التجارية والحدود السياسية، ولم يكن الحزب هاشمياً ولا ملكياً كما يُظن، وعموماً تركزت اهتمامات الحزبين الوطني والشعب معاً على تسلم السلطة، وبواسطتها يوسعان مصالح أتباعهم وعائلاتهم، ومن الطبيعي أن تكون غاية حزب الشعب إعادة الوضع الاقتصادي التقليدي لمدينته حلب، كما تشابهت أيضاً أهداف الحزبين الأخرى في سعيهما إلى خنق أية معارضة جادة لهما، سواء في البرلمان أم في الشارع، وكان همّهما الأول ينحصر في صيانة وجودهما السياسي، والحفاظ على قدر لا غنى عنه من استقلال البلاد، لا يعيق طموحاتهما الاقتصادية.

❖ ❖ ❖

ثمة عامل آخر حمل رشدي الكيخيا على الالتزام بالاتّحاد مع العراق، وهو أن سورية أصبحت منذ الانقلاب الأول تحت مشيئة العسكر. فقد نجح الجيش بما يملكه من عناصر القوة في بسط نفوذه على الدولة، وأمست الحكومة تسير وفق إرادة الضباط، كما استطاع الملك فاروق إقناع حسني الزعيم الذي كان متردداً بالنسبة إلى العراق على مقاومة عروض نوري السعيد والأردن؛ فحسم الزعيم أمره باتجاه مصر والسعودية.

اعتقد الكيخيا وجماعته، أنه إذا تمّ لهم ضمّ سورية إلى العراق، يزول نفوذ الجيش السوري، ويذوب في الجيش العراقي، ويصبحان جيشاً واحداً، وتتخلص البلاد من حكم العسكر. وكان انقلاب الحناوي وإعدام الزعيم ورئيس وزرائه وإعادة الحكم للمدنيين، فرصة لحزب الشعب للمسارعة إلى تحقيق أهدافه؛ فتقدم الكيخيا بعد سيطرة حزبه على الجمعية التأسيسية باقتراح إلى مجلس الوزراء بمشروع دستور مؤقت، يوجب انتخاب رئيس دولة وتخويل الوزارة صلاحية التشريع إلى أن تنتهي الجمعية من وضع الدستور؛ وكان يرمي من وراء اقتراحه إلى الحصول على صلاحيات التشريع ليتمكن من الاستمرار في إدارة الحكم حتى

إنجاز وضع الدستور؛ فإذا استطاع أن يصوغ الدستور حسب مشيئته لينفذ ما يسعى إليه، أسرع في إنجازه ونشره، أما إذا ظهرت عراقيل، استمر في الحكم حتى تسمح الظروف بتحقيقه؛ وتوطيداً لفكرة الاتحاد نص مشروع الدستور المؤقت على أن يقسم أعضاء الجمعية ورئيس الدولة اليمين الدستورية على السعي إلى تحقيق الوحدة العربية.

وافق مجلس الوزراء على المشروع ورُفع إلى الجمعية التأسيسية، إلا أن الكثيرين من الأعضاء عارضوه، فاضطر حزب الشعب إلى تعديله، وحصلت الوزارة على حق التشريع لمدة ثلاثة أشهر. في هذه الفترة حاولت وزارة ناظم القدسي تصفية الضباط المعادين لفكرة الهلال الخصيب، لكن الوزارة أُسقطت، وكُلف معروف الدواليبي بتشكيل وزارة جديدة، كان حظها كسابقتها، عندما أخفقت جهود حزب الشعب، لإقرار صيغة دستورية كفيلة بإعلان الاتحاد مع العراق، حاول الاستعانة بالحناوي لتطويق الضباط المعارضين للوحدة مع العراق، لكن الشيشكلي فاجأهم بانقلابه، وأبعد الحناوي عن السلطة، وطلب من خالد العظم تأليف وزارة لا تجعل الاتحاد هدفها.

تحت ظل الشيشكلي ابتدأ عهد الحكم المزدوج، المدنيون في الواجهة يمثلهم رئيس الدولة هاشم الأتاسي ورئيس الجمعية التأسيسية رشدي الكيخيا؛ وفي الخلف أديب الشيشكلي المسيطر على الضباط في مجلس العقداء. لم يتمكن العظم من الاستمرار في الحكم على الرغم من تعاون وزارته مع رجالات حزب الشعب؛ مع أن الكيخيا أعلن بأن الذين تعاونوا معه لا يمثلون الحزب، لكنه عندما تفاقمت الخلافات مع العظم الذي كان يعمل جاهداً مع الجامعة العربية على عقد معاهدة للدفاع العربي المشترك للرد على دعاة الاتحاد مع العراق؛ أوعز الكيخيا إلى رجاله بالاستقالة فسقطت الوزارة، وتشكلت وزارة برئاسة ناظم القدسي.

في 5 أيلول 1950، وقبل أن تقر الجمعية التأسيسية الدستور الجديد للبلاد، أثار الأخوان المسلمون موضوع دين الدولة، وطلبوا النص عليه في الدستور، لكن الكيخيا رئيس الجمعيَّة التأسيسيَّة حال دون ذلك، وأوجد مخرجاً بجعل النص يقتصر على عبارة «إنَّ دين رئيس الدولة هو الإسلام»، كما ورد في دستور 1928. وعلى الرغم من ذلك، فقد حاول أسعد الكوراني وزير العدل السوري تعديل

الدستور بحذف المادّة التي تنص على أنّ دين رئيس الدولة هو الإسلام، وكان الهدف حينذاك انتخاب فارس الخوري رئيساً للجمهورية، وكادت هذه المحاولة تنجح، لولا أنّ شكري القوتلي الذي كان يسعى إلى إعادة انتخابه رفض هذا الاقتراح، ولم يتجاوب مع طلب التعديل بتاتاً، وقيل يومذاك: لولا النقطة في اسم (الخوري) لصار فارس الخوري رئيساً للدولة. ولو حدث هذا لكانت سابقة مضيئة وكفيلة بأن تغيِّر الكثير من مجريات الأحداث التي عصفت بسورية، والقضاء على المخاوف المشابهة في البلدان العربية الأخرى.

حققت صياغة الدستور رغبة حزب الشعب المسيطر على السلطة، واختار الكيخيا - بعد دراسته الوضع الجديد ألا يبادر رئيس الدولة كالمعتاد إلى حل الجمعية لانتهاء مهمتها، إذ كانت الانتخابات غير مواتية للحزب في هذا الوقت، والدعوة إليها لن تكون في صالحهم، وإنما في صالح الحزب الوطني والمستقلين، عدا عن الاحتمالات الأكيدة لتدخل الجيش في مجرى الانتخابات لفرض مرشحين له؛ فقرر بعد اتصالات بالنواب المستقلين قلب الجمعية التأسيسية إلى مجلس للنواب، بهدف المحافظة على مقاعد حزبه، واتّصل برئيس الدولة لتقديم استقالته إلى مجلس النواب الذي سيقوم بإعادة انتخابه. وفي 7 أيلول، تم لهم ما أرادوه وجرى انتخاب الأتاسي رئيساً للجمهورية، واحتفظ القدسي بوزارته التي يهيمن عليها حزب الشعب، على الرغم من حملة الاستنكار الشعبية التي شجع عليها الحزب الوطني وأحزاب المعارضة الأخرى؛ وأعلنوا عدم شرعية مجلس النواب.

واصل حزب الشعب هيمنته على السلطتين التنفيذية والتشريعية، وبدأ بتنفيذ خطة حاول فيها أن يأخذ بعضاً من صلاحيات الجيش، فأراد أن يجس نبض الضباط، فقدم وزير الداخلية مشروع قانون لربط الدرك والشرطة بوزارته، واستبدال وزير الدفاع العسكري بوزير مدني من مجلس النواب، لكن مجلس العقداء هدد رئيس الجمهورية بالتدخل، إذا أقر مجلس النواب هذا القانون، أو عُدلت حقيبة وزارة الدفاع، فلما بدا لحزب الشعب تصميم الجيش على موقفه، قام بمبادرة لطمأنة الشيشكلي، فزار ناظم القدسي السعودية وحاول التقرب منها لإبعاد التهم الموجهة إليه بربط سورية مع العراق، وأكد حرصه على عدم اتّخاذ أيّ موقف يكون سبباً للتفرقة بين البلدان العربية؛ لكنه

سيرتكب خطأ في اجتماعات مجلس الجامعة العربية، عندما وزع مذكرة على الوفود العربية، أراد منها الحصول على قرار من الجامعة تبارك فيه قيام الوحدة على ضوء ظروف كل قطر ومدى استعداده لها؛ فاتّسعت الهوة بين حزب الشعب والشيشكلي الذي أدرك بأن الحكومة تورط البلاد في مشاريع وحدوية دون استشارته، بهدف التّخلص من سيطرة الجيش.

واصل الكيخيا بواسطة الحكومة اختبار مدى تأثر الشيشكلي بالمذكرة السورية، فكررت الحكومة الطلب من مجلس النواب الموافقة على مشروع ربط قوات الأمن بوزارة الداخلية؛ بحجة إعطاء الحكم الطابع الديمقراطي المناسب تمهيداً لعودة الجيش إلى ثكناته؛ وكان ردّ الشيشكلي مباشراً حيث هدد رئيس الجمهورية بالتحرك، إذا أقر مجلس النواب هذا القانون. فقدم القدسي استقالة حكومته في 3 آذار 1951، وعاشت البلاد طيلة شهر في دوامة أزمة وزارية مستعصية، ولم يجرؤ أحد من النواب على القبول بتشكيل الوزارة، لأن أيّة وزارة لا يرضى عنها حزب الشعب لن تنال الثقة، وأية وزارة يؤلفها حزب الشعب لا يقبل بها مجلس العقداء، إلى أن نجح خالد العظم بتشكيل حكومة جديدة.

لن يطول الأمر عندما سيجرب الشيشكلي التعاون مع حزب الشعب، فاتصل بالكيخيا وطلب منه تأليف الوزارة، فاستقالت وزارة العظم، وألّف معروف الدواليبي الحكومة، وعلى خلاف المتوقع، شكلت الوزارة تحدياً للجيش، كانت أغلبية الوزراء من حزب الشعب، كما احتفظ الدواليبي بوزارة الدفاع!! مع أن الجيش كان مصراً على أن يكون وزير الدفاع من حصته. رفض الشيشكلي الوزارة، وبالمقابل لم يرض الدواليبي بأية تسوية، بل وأصر على إقصاء الشيشكلي عن منصبه، كان الكيخيا ما يزال مصراً على تنحية الضباط عن الحكم؛ فلم يعد الطريق بينهما مسدوداً، بل وبلغ نقطة اللاعودة. فأطاح الشيشكلي بحكومة الدواليبي بانقلاب رابع، ولم تمض على الوزارة سوى ليلة واحدة، وزُجَّ برئيس الوزارة والأعضاء في السجن، مع قرار من الأركان بإيقاف جلسات المجلس النيابي، مما دفع الرئيس هاشم الأتاسي إلى الاستقالة، وتسلم الشيشكلي السلطة، وانتهى عهد الحكم المزدوج.

شن الإعلام في البلاد العربية حملة على الشيشكلي، كانت أقواها من العراق النصير الأول لحزب الشعب، كذلك في داخل البلد وقف الحزب الوطني ضده، واتهمه بالاعتداء الصريح على سلطات رئيس الجمهورية، ورأت الأحزاب الأخرى بأن ما قام به إجراء غير دستوري، أمّا حزب الشعب فأعلن بأن حركة الجيش تشكل تعدياً على الدستور، وردّ الشيشكلي على الحملات العربية والداخلية بتحقيق إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية في البلاد، وبرهن على أن ما حققه العسكريون خلال ستة أشهر، لم يحققه السياسيون خلال ست سنوات منذ الاستقلال، شهدت البلاد استقراراً داخلياً لم تشهده من قبل، وعلى الرغم من المظاهر الديمقراطية سواء بتشكيل وزارة، وصياغة مشروع دستور جديد، وإجراء انتخابات لمجلس النواب، ونجاح الشيشكلي في انتخابات رئاسة الجمهورية، فقد كانت الأمور تسير نحو دكتاتورية عسكرية صريحة، مما ساعد على تكتل الأحزاب ضدّه، والقيام بانقلاب عسكري أسقط حكمه في 25 شباط 1954.

تعهد ضبّاط الانقلاب بعودة الجيش إلى ثكناته تمهيداً لرجعة الحياة الدستورية إلى البلاد؛ وعاد هاشم الأتاسي إلى رئاسة الجمهورية لاستكمال مدته؛ ودعي البرلمان القديم، وشُكلت حكومة ائتلافية سيطر حزب الشعب على الحقائب الرئيسية فيها؛ وتشكلت بالمقابل معارضة ضمّت حزب البعث والكتلة الديمقراطية بزعامة خالد العظم، طالبت بإجراء إصلاحات على الاقتراع في الانتخابات؛ وهاجمت مشروع قانون المطبوعات الجديد لفرضه رقابة حكومية على الصحف والمجلات؛ فاستقالت الحكومة، وشُكلت أخرى حيادية للإشراف على الانتخابات، ومن ثم استقبلت سورية برلماناً جديداً، لم يكن متجانساً، لكنه جمع الأطياف السياسية كلها دون استثناء.

لم يطل الأمر عندما طرحت فكرة تحالف تركي عربي، توجت بين بغداد وأنقرة ببيان مشترك نتج عنه عقد اتفاقية دفاع مشترك؛ وحثّ البيان مصر على أن تكون في مقدمة الدول العربية التي تنضم إلى ما سمي فيما بعد بحلف بغداد، وُضِع أصلاً لغرضين، تحالف عسكري ضد الاتحاد السوفيتي، وأداة سياسية للنفوذ البريطاني في العالم العربي. بات من الواضح أنّ الصراع سيكون بين مصر

والعراق على سورية، وإذا استطاعت العراق أن تجر سورية إلى صفها، فسوف يتبعها لبنان والأردن، وبذلك تتعزّل مصر تماماً.

أعطى حلف بغداد أهمية واسعة لصوت سورية الحاسم والمرجع في مستقبل المنطقة، مما أظهر أن سورية كانت نقطة تحول في مصير الحلف، ومركز التنافس بين الدول العربية، واستقطبت النشاط الدبلوماسي للدول العظمى، على أن الحكومة ستختار موقفها ضد الحلف في الأسابيع التي سبقت توقيعه مباشرة في 25 شباط 1955؛ لكن ملامحه ظهرت فعلاً في انتخابات أيلول 1954 بالفوز الكاسح للاتجاه الحيادي، مما أدى إلى تجميد الحلف وعزل العراق عربياً.

عندما لاحظ نوري السعيد انصراف سورية عن سياسته حاول إيقاف هذا التيار؛ وطلب في آب 1955 من رشدي الكيخيا أن يترشح ضد خالد العظم في انتخابات رئيس الجمهورية، غير أن الكيخيا رفض أن يرشح نفسه للرئاسة على الرغم من التأييد العراقي له، كان مجرى الأحداث الأخير الذي خلط الأوراق المحلية بالعربية والدولية، وذهب بسورية إلى حدود فاقت توقعاته الوحدوية إلى الارتباط بحلف استعماري قد أشعره بالخذلان، وأحبطه انتصار الأفكار السياسية لخصومه، فلم يعد لديه العزم على النزال، لاسيما وقد كان التوجه نحو مصر كاسحاً. فدخلت زعامة العناصر المعتدلة والمؤيدة للعراق في مرحلة حرجة، وربما لهذا لجأت العراق إلى السياسيين من حزب الشعب الأكثر تشدداً في مسألة الوحدة؛ ودعمتهم بالأموال والسلاح مما أنتج في 22 تشرين الثاني ما دعي بالمؤامرة العراقية ضد سورية التي سرعان ما انفضحت؛ وأدّت إلى اعتقال الكثير من السياسيين.

اجتمع مجلس النواب في جلسة سرية للاستماع إلى بيان رئيس الوزراء حول المؤامرة المكتشفة التي اشترك فيها العسكريون الفارّون إلى العراق؛ وأديب الشيشكلي ومجموعة من أنصاره، والحزب القومي السوري والجهاز العسكري للسفارة العراقية بدمشق. وكان الاتفاق على البدء بسلسلة من الاغتيالات للسياسيين والضباط (الحوراني، السراج، بكداش)؛ لكن الشيشكلي انسحب مبكراً من المؤامرة. كانت بريطانيا وأمريكا على علم بالترتيبات، وأعطتا الضمانات لمنع أيّ تدخل إسرائيلي فرنسي تركي في سورية، وتدفقت الأسلحة العراقية

والأمريكية عبر البادية ولبنان، وبدأ المتسللون بالتوجه نحو سورية، وحشد العراق لواء مشاة من جيشه على الحدود السورية، وأخذ النواب المؤيدون للمؤامرة يضعون العراقيل أمام الحكومة في البرلمان؛ فاشتروا مجموعة من الأقلام الصحفية لمساندة حملتهم، مع اقتراب ساعة الصفر، وبدء الهجوم الثلاثي على مصر إثر تأميم عبد الناصر لقناة السويس. على أن المكتب الثاني في سورية، وكان قد دس بعض عناصره في صفوف المتآمرين، قمع المؤامرة قبل استفحالها، وألقى القبض على المتسللين، وضبط شحنات الأسلحة، ورفعت الحصانة عن النواب والوزراء المتآمرين، وزج ببعضهم في السجون وفرّ البعض الآخر. وعندما نشرت قائمة الاتهام تضمنت 47 متهماً بينهم نواب ووزراء وضباط في الجيش السوري؛ مما اضطر صبري العسلي إلى تقديم استقالة حكومته، وكُلّف بإعادة تشكيلها على أن يستبعد منها أعضاء حزب الشعب لتورطهم في المؤامرة، مع العلم أن اسم رشدي الكيخيا وناظم القدسي لم يردا فيها. كانت التهمة التي وجهت إلى المشاركين هي الخيانة العظمى، لاتصالهم بالعراق وزعمائه، ونوري السعيد على وجه الخصوص، وقبضهم المبالغ الطائلة من الحكم العراقي لدعم اشتراك سورية في حلف بغداد، والعمل على الإطاحة بالحكم بقوة السلاح مع الاستعانة بالجيش العراقي.

وضعت هذه الاتهامات من قبل رئيس المكتب الثاني عبد الحميد السراج وأعوانه من الضباط بالاشتراك مع أكرم الحوراني وجماعته؛ وقاموا بتهييج الرأي العام ومجلس النواب ضد المتهمين دون أن يرتفع صوت يطلب توضيح حقيقة الاتهامات؛ وضاعت الحقيقة في خطابات الخيانة والتنديد بحلف بغداد الاستعماري وجرائم نوري السعيد، ولم تُحفظ خلال المحاكمة حقوق الموقوفين، ونقلت وقائع المحكمة إلى الجمهور بالسينما بإجراءاتها وأقوال النيابة العامة وأقوال ومرافعات وكلاء الادعاء المدني؛ بينما لم ينقل دفاع المتهمين عن أنفسهم، بل وجاءت الأحزاب اليسارية بطلابها إلى المحاكمة، وهتفوا بسقوط المتهمين بأسمائهم، وتهجموا عليهم، وجرى خلال المحاكمة تضخيم قبض المتهمين لرواتب شهرية من نوري السعيد؛ هل في قبض راتب لصاحب جريدة ما يدفع إلى تهمة الخيانة العظمى؟! هذا دون أن يثبت على السياسيين قبضهم الرواتب، وحتى لو ثبت ذلك، هل تتخذ دليلاً على التهمة التي صدر فيها حكم بالإعدام؟! كان من المعروف أن نوري السعيد بالذات

يساعد العاملين في السياسة في جميع العهود لاسيما عهد الانتداب، وقد أصدرت المحكمة العرفية أحكامها بإعدام 18 من المشاركين، على أن الوساطة العربية حثت وزير الدفاع على استبدالها بالأشغال الشاقة المؤبدة. ولما تمّ الاتفاق على الوحدة بين سورية ومصر، وعَقد مجلس الوزراء آخر جلساته برئاسة شكري القوتلي رئيس الجمهورية، اقترح العفو عن المحكوم عليهم.

خسر الكيخيا قضية حياته السياسية كلها، وباتت الوحدة مع العراق مسألة في علم الغيب، من الصعب تقدير متى تعود إلى الحياة، بعد أن انحدرت إلى مسألة عمالة وخيانة. وفي عام 1957، بعد اعتلاء أكرم الحوراني كرسي رئاسة المجلس النيابي، قدم الكيخيا استقالته، لإدراكه بأن اليسار والجيش قد أخذا يسيطران على الحكم. وعندما حاول النواب أن يثنوه عنها خرج من قاعة الاجتماع؛ فقام نواب حزبه وأعلنوا أنّهم سيستقيلون جميعهم من نياباتهم في حال قبول استقالة زعيمهم، لكن استقالة الكيخيا رفضت من قبل أكثرية النواب. ولن يظهر إلا في اجتماع مجلس النواب الذي عقد في 5 شباط 1958، الذي ألقى فيه رئيس الجمهورية شكري القوتلي بيان توحيد القطرين في دولة واحدة. وكان حضوره تأييداً للوحدة المقبلة. وفي عام 1958، تم حل حزب الشعب مع الأحزاب السورية الأخرى مع إعلان الوحدة بين سوريا ومصر.

❖ ❖ ❖

لا يختلف مؤيدو الكيخيا ولا خصومه السياسيون والعسكريون على الاعتراف بقوة شخصيته ونزاهته الكبيرة وسعة درايته بدخائل الحكم، كان حائزاً على قدر كبير من الاحترام. لكن قلة، وبعضهم من مناصريه، يعيبون عليه الافتقار إلى الجرأة السياسية، وبتعبير واحد من المحللين السياسيين: كان رشدي الكيخيا أنزه الساسة في تاريخ سورية الحديث، وأكثرهم جبناً على الإطلاق!

يُعزى جبن الكيخيا إلى أنه كان زعيم حزب قوي، سيطر فعلاً على مدينة حلب، وحاز في البرلمان على أكثرية كبيرة من النواب، كما تمتع حزبه بنخبة من خيرة السياسيين السوريين: ناظم القدسي، أحمد قنبر، عدنان الأتاسي، معروف الدواليبي، عبد الوهاب حومد، رشاد برمدا، رشاد جبري، علي بوظو...مع رعاية

وتعاطف وتأييد السياسي الشيخ هاشم الأتاسي؛ مما جعل حزب الشعب قادراً على الهيمنة على مقدرات البلد، ورسم تحركها السياسي، بل وكثيراً ما حاول سياسيون من الحزب الوطني أمثال صبري العسلي وميخائيل إليان ولطفي الحفار الالتحاق بأفكار وطروحات حزب الشعب، وحتى البعثيان ميشيل عفلق وصلاح البيطار، لاسيما في موضوع الوحدة مع العراق.

في الواقع كان الكيخيا أبعد الناس عن الجبن، ففي حمأة الانقلاب السوري الأول، وقف ضد التيار الجارف لمؤيدي الانقلاب، وأعلن معارضته له، ورفض التعاون مع الزعيم، وكذلك في موقف مشابه بعد الانقلاب على الوحدة في اجتماع جرى في حلب ضمّ عسكريين وسياسيين، رفض التوقيع على بيان يؤيد فيه الانفصال قائلاً: بأن اليد التي وقّعت على الوحدة لن توقع على الانفصال؛ مع أنه كان واحداً من أكثر المتضررين في دولة الوحدة، كانت مشكلته الدائمة مع العسكر، ولم يخفِ معارضته لهم، وكان دون منازع المعارض الأول لتدخلات الضباط، بينما كان الآخرون يخطبون ودهم.

ولاشك بأن الكيخيا أخطأ بتسلم الحكم على ظهر انقلاب الحناوي، وهو الذي كان يعتبر حزبه حارس الديمقراطية وحامي الدستور. لكن الحزب للأسف لم يملك استقامة ونزاهة زعيميه الكيخيا والقدسي، كان ائتلافاً عريضاً يضم إقطاعيين وأصوليين وعشائريين. أما نوابه الذين كانوا يثيرون الشغب، ويكيلون الاتهامات للحكومات المتعاقبة لانتهاكها الدستور، ويطالبون بتأليف لجان تحقيق للكشف عن فساد السلطة ومساوئ الحكم؛ فقد انتهكوا الدستور بدورهم، عندما وصلوا إلى السلطة، وارتكبوا الأفعال ذاتها التي أدانوا الآخرين عليها، فأجبروا الموظفين بين الولاء للحزب أو تجميد ترفيعهم، وربما تسريحهم.

لم يكن في توجهات حزب الشعب نحو الوحدة مع العراق خطأ فادح، خاصة إذا أدركنا بأن العلاقة بين البلدين في النصف الأول من القرن العشرين، كانت علاقة متداخلة وممتازة. وعلى سبيل المثال عندما توفي البطل القومي العراقي ياسين الهاشمي قامت مناحة في سورية، وصدرت الصحف السورية مجللة بالسواد حزنا عليه، لكن توقيت الدعوة إلى الوحدة، كان شائكاً، إذ كانت العلاقة الجيدة قد انتهت في نهاية الأربعينات، وبدأ صراع دولي على كسب سورية، دخله الإنجليز

والأمريكان عن طريق العراق، فحل المال والتلويح بالسلطة كأداة إغواء للساسة السوريين، لجرّ سورية إلى هذا المعسكر أو ذاك، بحكم موقعها ودورها السياسي، في قلب ميزان الحرب الباردة في منطقة استراتيجية كالشرق الأوسط، في ذلك الوقت، كان من الصواب رفض الوحدة مع عراق بريطاني، سواء كان تحت عنوان (الهلال الخصيب) أو (سورية الكبرى).

تكمن أهمية رشدي الكيخيا التاريخية في تزعمه حزب الشعب الذي كان أشدّ الأحزاب السورية حماسة ولهفة للوحدة مع العراق في وقت عصيب وملغوم بالأخطار. ولم يكن الإغراء الوحدوي لدى الكيخيا هو المال العراقي، إنما كان انتماؤه إلى مدينته حلب سبباً في الإلحاح على الوحدة. واستندت دعوته إلى مصالح الشعبين الشقيقين الاقتصادية، أكثر من استنادها إلى مجرد هوى عاطفي، أو مؤامرة استعمارية. واستمر عمل الكيخيا من أجل الوحدة من خلال إصراره على أن يكون عملاً ديمقراطياً، وحتى عندما تلوثت دعوة الوحدة بشبهة المال، لم يستطع خصومها الأقوياء مس شرف الكيخيا بتهمة الرشوة بمال عبد الإله ونوري أو المخابرات الأمريكية.

كان الكيخيا سياسياً قديراً فعلاً، لكنه كان حذراً، والأهم من ذلك كان يمتلك بصيرة بعيدة المدى، سديدة وجريئة في آن. وكان بين قلة من السياسيين السوريين الذين كانت استقامتهم ونزاهتهم قد جعلت من العمل السياسي مسؤولية وطنية كبرى.

محمد سليمان الأحمد

بدوي الجبل

(1900 ـ 1981)

قُيِّض لبدويّ الجبل أن يكون منذ صباه النابغ الذي يلفت إليه الأنظار؛ ولكنّه ـ كعادة أغلب النابغين ـ دفع ثمن نبوغه وطموحه، وكُتب عليه أن يلاحق ويُسجن ويشرَّد عن وطنه؛ وعاش حياة قلقة تجرّع فيها كأس الخيبة مراراً، وهو في قمة المجد؛ حتى صار ينطبق عليه قول سلفه العظيم أبي الطيب المتنبي: «على قلق كأنَّ الريح تحتي». كانت حياة البدوي حياة قلق وحذر دائم، في مواجهة تقلبات الأيام والأحوال.

نشأ على ما كان عوّده أبوه: حبُ اللغة والشعر والآداب. وكان أبوه سليمان الأحمد عالماً جليلاً متبحراً في اللغة العربية والشعر والتاريخ، وكان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق؛ اختير لهذه العضوية عام 1922. تعلم بدوي الجبل على يد والده، الذي وجهه منذ الصغر نحو قراءة القرآن الكريم والحديث الشريف، ونهج البلاغة، وقراءة الشّعر العربيّ. ولفت نظره إلى جمال الصور، وفسّر له معاني الكلمات والأشعار. وعن ذلك قال البدوي: «نشأتُ في بيت علم وفقه، فتأثّرت أول ما تأثرت بالقرآن الكريم، الذي لا يمكن أن تشرق ديباجة الأديب إلاّ بالإدمان على تلاوته؛ ثم تأثرت بالحديث الشريف، وبخطب الخلفاء الراشدين، ولا سيما خطب الإمام علي بن أبي طالب، كما تأثرت بخطب الحجاج وزعماء الخوارج. أمّا من الكتّاب، فأنا مدين للجاحظ، ولأبي جعفر الإسكافي، ولأبي فرج الأصفهاني في كتابه الخالد: (الأغاني)، ولأبي حيان التوحيدي، كما تأثرت في الشعر بديوان الحماسة لأبي تمام، وبشعر الفحول في عهدي الجاهلية والإسلام إلى آخر العصر الأموي، وتأثرت بأبي تمام والبحتري والشريف الرضي ومهيار...».

وُلد البدوي في قرية (ديفه) إحدى قرى اللاذقية، ونشأ في قرية (السلأطة) التابعة اليوم لقضاء القرداحة. وفي سن العاشرة، انتقل إلى قرية (عين التينة)،

وقرأ هناك على يد الشيخ عبد اللطيف شريف، ولم ينتظم البدوي في مدرسة إلاّ سنوات قليلة، ومجموع المدّة التي قضاها على مقعد الدراسة حوالي ثلاث سنوات بين قرية عين التينة، ومعهد إعدادي مكتبي في اللاذقية 1917 ـ 1918، ومكتب عنبر في دمشق خمسة أشهر تقريباً.

أي أنّه لم يتخطَّ المرحلة الابتدائية من التعليم، لكن موهبته الشعرية رفعته فوق كل الشهادات.

لقبه: (بدوي الجبل) واسمه: محمد سليمان الأحمد، وقصة هذا اللقب الغريب رواها البدوي مراراً في أحاديثه الصحفية، وأوضح أن الصحافي يوسف العيسى صاحب جريدة: (ألف باء) هو الذي أطلق عليه هذا اللقب، وكان البدوي قد نشر الشعر عنده في سن الرابعة عشرة. قرأ محمد قطعة جميلة بعنوان (صلاة)، كان قد كتبها حاكم (كيرك) في إيرلندا، قبل موته بسبب إضرابه عن الطعام رداً على حبس الإنكليز له. أثرت هذه القطعة في نفس شاعرنا، فنظمها وأرسلها إلى الجريدة، ولكنه فوجئ بنشرها موقعة باسم بدوي الجبل، وحين سأل العيسى عن ذلك قال له: «أعطيتك اسماً مجهولاً ليقرأ الناس القصيدة، فاسمك لا أحد يعرفه، والناس لا يقرؤون إلا للأسماء المعروفة، أما الاسم المجهول فإنه يدفع الناس لقراءة الكتب». وحين قرأ الناس هذه القصيدة، منهم من قال: إنها لواحد من ثلاثة كبار كانوا يومها، وهم: خليل مردم بك، وخير الدين الزركلي، وشفيق جبري. وتابع البدوي ولمدة عام النشر تحت هذا الاسم المجهول إلى أن أتى يوم قرر فيه الأستاذ يوسف العيسى أن يعرّف الناس بشخصية هذا الشاعر الحقيقية؛ فدعا إلى حفل حضره أعضاء المجمع العلمي العربي ونخبة من الأدباء والشعراء، وفي الحفل قدمه العيسى على أنه صاحب الاسم المستعار (بدوي الجبل)، وكان معظم الحاضرين يعرفونه شخصياً، ولا يعرفون أنه بدوي الجبل الشاعر، حتى صار هذا اللقب هوية له، وعرفه به الناس والأجيال وربما عدد كبير منهم يجهل اسمه الحقيقي.

في الفترة التي ولد فيها الشاعر، كانت الإمبراطورية العثمانية تتراخى، لا بل تحتضر، وكانت الضربات تأتيها من كل حدب وصوب. وكان الاستعمار الأوربي قد عقد العزم على تقاسم تركة (الرجل المريض)، ما عرف بالمسألة الشرقية. وبدأت

الدول الأوربية، لا سيما فرنسا وبريطانيا، في الاستعداد لاحتلال سوريا الطبيعية، وتقاسُمها فيما بعد وفق اتفاقية (سايكس - بيكو)، وهذا بعد الثورة العربية الكبرى عام 1916، التي قادها الشريف حسين بن علي. ومن جهة أخرى كان الوعي القومي العربي ينمو ويشتد عوده ويتوسع صداه، وقد نشأت منذ مطلع القرن التاسع عشر جمعيات وأحزاب قومية نهضوية تدعو إلى الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية؛ وكان تأثيرها كبيراً؛ بسبب أساليب العثمانيين الذين توّجوا جرائمهم بالجريمة الصارخة التي نفذها جمال باشا السفاح، وأعدم فيها نخبة من خيرة أبناء سوريا في دمشق وبيروت.

ولم يكن بيت البدوي بعيداً عن أصداء هذه الأحداث الجسام التي تجري في البلاد وفي العالم، الذي كان يشهد حرباً كونية منذ عام 1914؛ لا بل كان في القلب منها، بسبب ريادة والده الشيخ سليمان الأحمد، وانخراطه في الشأن العام، وروح المسؤولية التي أنيطت به باعتباره واحداً من وجهاء قومه وأبرز الزعماء الدينيين في الجبال الساحلية.

مع مجيء الاستعمار الفرنسي الذي بدأ غزوه لسوريا من مدينة اللاذقية عام 1918 ونشوب ثورة المجاهد الشيخ صالح العلي 1919، كان البدوي قد انخرط صغيراً في العمل السياسي، وذلك حين تعرف على متصرف اللاذقية آنذاك رشيد بك طليع الذي اصطفاه، واصطحبه معه إلى دمشق، وعرفه على الملك فيصل. وكان البدوي متحمساً حماسة الشباب في تعامله مع الوطنيين؛ وقد أعجب الملك فيصل بحماسه وتوقده، وكلفه بمهام وطنية، فكان بمثابة الوسيط بينه وبين قائد الثورة الساحلية الشيخ صالح العلي؛ وبسبب هذا الدور كان له شرف حضور اجتماع جمع بين القائدين الوطنيين: الشيخ صالح العلي والشهيد يوسف العظمة، الذي كان وزيراً للحربية في العهد الفيصلي.

قام البدوي بمهامه على أكمل وجه، وأدّى واجب الرسالة بين الملك فيصل والشيخ ثلاث مرات؛ ثم بقي إلى جانب الشيخ في قيادة الثورة ما ينوف على ثلاثة أشهر مقرباً من القائد المجاهد، يقوم بأعباء المراسلة والمهام الكتابية الأخرى. ويقول البدوي عن هذه المرحلة: «مع أنني لم أتجاوز الرابعة عشرة من عمري يومئذ، فقد شاركت بالمرحلة الوطنية بالقدر الذي أستطيعه، ولم تقتصر هذه المشاركة على ما

كنت ألقيه من القصائد الوطنية في النادي العربي، بل تجاوزته إلى أبعد من ذلك؛ فقد رافقت الشهيدين العظيمين يوسف العظمة ورشيد طليع والمرحومين: نسيب حمزة وغالب الشعلان في رحلاتهم إلى مواطن معلومة في جنوب سوريا وشمالها وغربها، وفي تهيئة الفكر العام وتوجيهه وتقويته وتنظيمه في تلك المناطق».

وحين دخل الفرنسيون دمشق كان البدوي أحد الذين أصدرَ ديوانُ الحرب الفرنسي أمراً بتوقيفهم، بسبب دوره الوطني وتقربه من الشيخ صالح العلي، مما دفع بالشاعر الشاب أن يتخفى عن الأنظار أمداً طويلاً في بيوت أصدقائه الدمشقيين؛ مثل صديقه ناصيف أبو زيد وآخرين. ولما ضَيّق عَليه الفرنسيون الخناق، هام على وجهه قاطعاً المسافة بين الشام وحماة ماشياً، متحملاً التعب والجوع والظمأ، يلتحف السماء ويفترش الغبراء، وفي مدينة حماة ألقي القبض على الشاعر الفارّ من المحتلين. اعتقله حاكم حماة الفرنسي الكابتن (ميك)، وأودعه السجن العسكري مع الأعمال الشاقة، ثم نُقل إلى سجن الديوان العسكري في بيروت، وبقي فيه اثني عشر شهراً. وبعدها نُقل مكبلاً بالحديد إلى سجن في اللاذقية؛ وهناك أطلق سراحه بواسطة صاحب المعالي يوسف بك الحكيم، وكان مدير العدلية في اللاذقية يومئذٍ.

وظلّ البدوي ملتزماً الخط الوطني حتى القضاء على ثورة الشيخ صالح العلي، ودخول الفرنسيين إلى دمشق عقب معركة ميسلون 24 تموز/يوليو 1920، وخروج الملك فيصل من سوريا؛ حيث بدأت مرحلة جديدة من تاريخ سوريا، وتاريخ شاعرنا معها. ففي هذه المرحلة تكرس تقسيم سوريا إلى خمس دويلات؛ وأُخذَ على البدوي في هذه المرحلة نكوصه عن النضال الوطني، وخضوعه لليأس والإحباط، وتعاونه مع الأمر الواقع، وتقرّبه من الفرنسيين إلى حين، إذ استعاد روحه ووعيه الوطني مع رفاقه الوطنيين السوريين، وكافح معهم حتى الاستقلال؛ لكن كيف خضع البدوي الذي شبَّ على حب العروبة والوطنية لسياسة الأمر الواقع في فترة من حياته؟!. عمل الفرنسيون منذ نزولهم مدينة اللاذقية على سلخ الساحل عن سورية، وجعله دولة مستقلة؛ فكان أن صدر القرار الفرنسي (319) في 31 آب/ أغسطس 1920، المتضمن تعيين حدود دولة اللاذقية. وبتاريخ 12 تموز/ يوليو 1922، صدر القرار الفرنسي 1470 بشأن منح أراضي العلويين

المستقلة اسم دولة العلويين؛ وفي 31 آب/أغسطس 1923، صدر القرار 2147، يقضي بإنشاء مجلس تمثيلي لهذه الدولة؛ وحتى هذا الوقت كان البدوي يسير مع الخط الوَطني المعادي للفرنسيين؛ وكان الفرنسيون يسعون إلى استمالته وضمه إلى جانبهم، ليس لأنه شاعر فذّ وله صوت مسموع في دنيا الأدب والشعر؛ وله مكانته الوطنية، بل لكونه أيضاً ابن الزعيم الديني الكبير الذي يستطيع أن يؤثر على قسم كبير من الشعب في تلك المنطقة. ونجح الفرنسيون، وضعفت عزيمة الشاعر المحبط، بعد انتهاء الثورة الساحلية التي عمل بها. خضع البدوي للإغراءات التي عرضت عليه، وخسره الوطنيون الساحليون الذين وقفوا ضد فصل الساحل عن الجسد السوري، ورفضوا التعامل مع المحتلين. وتحوّل البدوي إلى داعية للفرنسيين لفترة من الزمن. وقد تحدث هو نفسه عن هذه الفترة معبراً عن ندمه قائلاً: «لقد قاومت وقاومت حتى تعذرت كل عناصر المقاومة والنضال؛ فاعترفت بالأمر الواقع عن يأس وقنوط، وغمرني التيار؛ فما أنكر أنني أسأت وأخطأت، وهذا ضعف أعترف به، ولكن لم يكن في وسع إنسان في الدنيا، في ظروف كظروفي ومحيط كمحيطي أن يفعل غير ما فعلت».

في هذه الفترة عين البدوي نائباً في المجلس التمثيلي لدولة اللاذقية مرتين: عام 1930 وعام 1935، عن طريق انتخابات تدخّل فيها الفرنسيون لصالحه ولصالح المتعاونين معهم ضدّ التيار المناهض لهم. وهذا ما أراده الفرنسيون من ضم البدوي إلى جانبهم: أن يحاربوا خصومهم السياسيين. وكان لهم ذلك، فقد صار البدوي رأس حربة في الهجوم على خصوم فرنسا في خطبه السياسية والانتخابية. وليس في شعره أثر لذلك، بل على العكس تماماً، فقصائده ضد المستعمر وضد الظلم ودعوة دائمة للحرية.

وفي الوقت الذي وقف فيه البدوي مع القائلين بانفصال حكومة اللاذقية عن سوريا، دافع عن هذا الانفصال بخطبه وكلماته، وكان معه مجموعة قليلة من الزعماء والوجهاء الساحليين المؤيدين للانفصال، في مقابل زعماء آخرين وقفوا منذ البداية مع الوحدة السورية، وعلى رأسهم الشيخ صالح العلي. ففي رسالة وجهت إلى وزارة الخارجية الفرنسية، دعا فيها الموقعون عليها إلى استقلال إقليمهم عن سوريا مثلما حصل مع لبنان. وقد وقّع على هذه الرسالة

الانفصالية شخصيات ساحلية من مختلف الطوائف الموجودة في الساحل السوري؛ منهم: إبراهيم الكنج: رئيس المجلس النيابي، وديع سعادة: نائب رئيس المجلس النيابي، إلياس عبيد، محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل)، محمد جنيد، صقر خير بك، عزيز هواش، يوسف حامد،أمين ملحم رسلان، صديق إلياس، محيي الدين أحمد. بالمقابل أرسل زعماء ومشايخ وحدويون برقية مماثلة إلى وزارة الخارجية الفرنسية؛ مرسلة من اللاذقية في 2 تموز/ يوليو 1936، ومن مختلف الطوائف أيضاً، تدعو إلى الوحدة السورية، وضم الإقليم الساحلي إلى سوريا، وتدحض كل ادعاءات المتحمسين للانفصال.. ومن الموقعين على هذه الرسالة: علي محمد كامل - أمين رسلان - حامد المحمد - منير عباس - علي ملحم رسلان - علي شهاب - إسماعيل هواش - أحمد ديب الخيار - عزيز طاهر الموعي - محمد إسبر - أحمد رسلان صالح - علي سليمان الأحمد (شقيق بدوي الجبل) - نديم عزيز إسماعيل - الشيخ صالح العلي - إبراهيم مصطفى جابر - راشد العمر - يونس إسماعيل - مجد الدين أزهري - عبد الواحد هارون - محمود عبد الرازق - فايز إلياس - عبد القادر شريتح - أسعد هارون - حليم بشور - عبد الله عبد الله - أحمد فايز - حسن ضحية - إسماعيل يوسف - محمد رمضان - صالح ناصر الحكيم - محمد محيي الدين - عبد الكريم عمران - جابر مرهج - محمد حسن - كامل محيي الدين - صالح ناصر زوبار - علي عبد الحق - عبد الحميد صالح يونس - شيبان حامد - محمد علي حلوم - داود كالوري - سليمان غانم - أحمد يوسف - الدكتور ميخائيل بشور - الدكتور إسكندر بشور - نقولا بشور - إسبر بشور - عزيز أيوب عرنوق - توفيق عرنوق - أسبر الطيار - رفيق بيطار - زاهي عرنوق - إبراهيم خوري - الأب يوسف بطرس - الأب اصطفان سابا - سليمان شدياق - عبد الله روفائيل - الأب موسى ديب - باخوس عركوش. ونحن إذ نذكر هذه الأسماء كلها لأهمية هذا الموضوع الذي أثير حوله لغط كبير.

وفي مواجهة تَحرُك الانفصاليين، الذين يقف البدوي على رأسهم، زار وفد من الوطنيين العلويين دمشق، وأُستُقبل فيها بالترحاب والحفاوة على كل المستويات الرسمية والشعبية. وذكرت الصحف هذا الحدث، مثل: «القبس» و«الشعب»،

وبعناوين كبيرة في صفحتها الأولى، وصور لأعضاء الوفد مع نبذة عن مركز كل منهم ومكانته الاجتماعية. وكان من أعضاء هذا الوفد الزعماء والمشايخ: الشيخ علي محمد كامل، الشيخ علي شهاب ناصر، الشيخ أحمد ديب الخير، والزعماء والوجوه: منير العباس، الأستاذ عبد الله عبد الله، حامد محمد الحامد، يونس إسماعيل، أحمد عزيز إسماعيل، علي سليمان الأسد، علي مرشد ديبة، دباح الدندشي، علي عبد الكريم الدندشي، محمود عبد الرازق، عبد القادر شريتح، محيي الدين أزهري، أسعد هارون، الأستاذ فايز إلياس، الأستاذ المحامي بولس ديبة، الأستاذ إبراهيم الخوري، الدكتور ميخائيل بشور.

ومن الزعماء السوريين الذين التقوا الوفد في مكان إقامته في أحد فنادق دمشق: هاشم الأتاسي: رئيس الكتلة الوطنية، فارس الخوري، جميل مردم، لطفي الحفار، شكري القوتلي، مظهر رسلان، فائز الخوري، إحسان الشريف، عفيف الصلح، نجيب البرازي، أحمد اللحام، ووجوه من مدينة دمشق. ثم قابل الوفد المندوب السامي الكولونيل دو مارتِل في لقاء دام ساعة؛ أعرب فيه الجميع عن الرغبة في الاتحاد مع سوريا؛ ولحسن الحظ فإن المرحلة الانفصالية لم تدم، فقد أثمرت تحركات الوطنيين بإقرار الوحدة السورية عام 1937.

وما لبث الشاعر العربي أن استعاد صحوته الوطنية، وانضم إلى الوطنيين السوريين الذين احتضنوه؛ وصار الشاعر من أعلام الوطنية والمكافحين من أجل الاستقلال التام للوطن السوري؛ ووضع يده في يد رجال الكتلة الوطنية؛ وصار عضواً في البرلمان الوطني عن بلدة بانياس الساحلية. ظل لسنوات من رجالات سوريا وفي الواجهة السياسية يتناوب على النيابة والوزارة. وإن كانت قد مزجت في شخصية بدوي الجبل سيرة السياسي بالشاعر حتى صار من الصعب الفصل بينهما، إلا أن صورة الشاعر المتفرّد والمتفوق الذي يحظى بإعجاب محبي الشعر والأدب كانت هي الطاغية على صورة السياسي فيه. وكان بشخصيته المتواضعة وأخلاقه العالية وشاعريته المتألقة أكبر من النيابة والوزارة معاً.

في هذه المرحلة الوطنية فاز البدوي بأربع مرات على التوالي في المقعد النيابي؛ المرّة الأولى عن مدينة بانياس، وفي المرات الثلاث عن مدينة اللاذقية، وذلك في الأعوام التالية: 1937، 1943، 1947، 1954. وعُيّن وزيراً للصحة لأول

مـرّة في حكومـة صـبري العسـلي عـام 1954، ولم تـدم هـذه الحكومـة طـويلاً، إذ استقالت، وترأس في نفس العام السيد فارس الخوري حكومة عيّن فيها البدوي من جديد وزيراً للصحة والإسعاف العام. وفي وزارة لاحقة برئاسة سعيد الغزي حمل حقيبة وزير دولة للدعاية والأنباء. ورغم كل هذه المناصب والمكانة التي حظي بها، لم تكن حياته حياة رغد وهناء، بل على العكس كانت حياة قلق ومطاردة وكفاح؛ وقد جرَّت عليه قصائده الوطنية الكثير من المصاعب؛ تعرض لاضطهاد الفرنسيين في عام 1939؛ مما جعله يفرّ إلى العراق، وهناك وبسبب تقربه من حركة رشيد علي الكيلاني ضد الإنكليز عام 1941، كتب قصيدتين شهيرتين، الأولى: حين سقطت باريس تحت الاحتلال النازي، وهي بعنوان: «إني لأشمت بالجبار» ومطلعها:

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا — رقَّ الحديد وما رقوا لبلوانا

خلِّ العتاب دموعاً لا غناء بها — وعاتب القوم أشلاءً ونيرانا

إني لأشمت بالجبار يصرعه — طاغٍ ويرهقه ظلماً وعدوانا..

سمعت باريس تشكو زهو فاتحها — هلا تذكرت يا باريس شكوانا

عشرين عاماً شربنا الكأس مترعة — من الأذى فتملّي صرفها الآنا

وهي قصيدة طويلة، طارت من العراق إلى الشام، وصارت على لسان كل وطني في سوريا، والناس يرددونها كلما تذكروا الاستعمار الفرنسي وعهوده الظالمة. ويروي الأستاذ أكرم زعيتر صديق الشاعر في مقدمة ديوانه كيف كتب البدوي هذه القصيدة؛ يقول: «في خريف سنة 1940، وقد احتل الألمان باريس، قرر نادي (المثنى) ببغداد - وكنت من مؤسسيه - الاحتفال بذكرى الثورة العربية التي أطلق الحسين بن علي رصاصتها الأولى، وأردناها تظاهرة عربية وحدوية مناسبة لتجمع القوى القومية، ورجوت البدوي أن يكون شاعر الاحتفال فاعتذر، فألححت في الرجاء، فأصرّ على الاعتذار، فهامست نفسي: لا بدَّ من إثارة عاطفية تحلُّ عقدة من لسان الشاعر، وانطلقت أتحدث: «فرنسا التي نكلت بسورية، فرّطت في اسكندورنة، دمرت دمشق، وأبوك الشيخ الجليل يتحرق لوعة

ألا يراك... إخوانك يوسف العظمة، رشيد طليع، أحمد مريود ... ضحاياها». إلى أن برقت عيناه ودمعت، ودموع البدوي مطالع القصيدة، أو هي كلماتها النثيرة، ورشح جبينه بالعرق، وانصرف يهمهم. وأرِقَ تلك الليلة وغاب يومين. وفي اليوم الموعود شخصت أبصار الحشود في النادي إلى البدوي، وأرهفت الآذان، فانطلقتُ بهذه القصيدة.. وقد هرّبتها إلى بلاد الشام وغيرها، وقيل إن الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة فوجئ بها تتسلل إلى زنزانته في جزيرة الشيطان بأفريقيا . أما القصيدة الثانية التي كتبها في العراق: «دمعة على الشآم»، يشكر فيها رشيد علي الكيلاني رئيس وزراء العراق يومئذٍ، ويتذكر رفاقه الوطنيين، ويعبر فيها عن أشواقه لأبيه قائلاً:

وانزل على خير الأبوة رحمة   تسع الحياة وعفة وصلاحا

يشكو السقام، فإن هتفت أمامه   باسمي تهلل وجهه وارتاحا

وأطلْ حديثك يستعدْه تعللاً   بالذكر لا لتزيده إيضاحا

وإذا ألح فللحنان عذوبة   في مقلتيه تُحبّبُ الإلحاحا ..

وحين فشلت ثورة رشيد علي الكيلاني في 18 حزيران/يونيو 1941، غادر البدوي العراق عائداً إلى سوريا؛ وفي دمشق احتفى به أصدقاؤه الوطنيون: شكري القوتلي، لطفي الحفار، فارس الخوري، نبيه العظمة، ونصحوه بالبقاء في دمشق وألا يغادرها إلى اللاذقية، إلا أن داعي الحنين والشوق للأهل ومرض والده دفعه إلى الذهاب؛ ووصل إلى بيت الأهل بعد منتصف الليل دون أن يراه أحد من أسرته؛ ولكنه اعتقل قبل شروق الشمس بقليل، وكانت اللحظة الحرجة لحظة لقاءٍ ووداع مع أسرته؛ حيث اقتيد إلى المعتقل، وسجن ثمانية أشهر في قلعة كسب. وفي فترة اعتقاله هذه انتقل والده إلى رحمة الله دون أن يراه. وفي عام 1951 فرَّ إلى بيروت، ولم يعد إلى دمشق حتى عام 1954 مشاركاً في الوزارة، ولكن لم يطل المكوث في دمشق؛ ففي عام 1956 غادرها إلى بيروت مرة أخرى، لأسباب سياسية. وفي بيروت دعته أربع دول عربية للإقامة فيها؛ ولكنه آثر البقاء في بيروت حتى عام 1961، حيث خرج منها مكرهاً إثر ظروف سياسية نشبت آنذاك في لبنان على

خلفية المحاولة الانقلابية الفاشلة التي قام بها الحزب القومي السوري؛ فطلب من البدوي ومن غيره من السياسيين السوريين مغادرة لبنان؛ وفي هذه المناسبة قال:

ضاق لبنان بي وكان رحيباً   وتنزى حقداً وكان رفيقا

ما للبنان رحت أسقيه حبي   وسقاني مرارة وعقوقا..

أثناء إقامته في بيروت حضر البدوي عدة جلسات في خميس مجلة شعر التي كان يرأس تحريرها الشاعر يوسف الخال، وتضم فرسان الحداثة الشعرية، ومنهم: أدونيس، وأنسي الحاج، وفؤاد رفقة، وشوقي أبو شقرا.. يلتفون حول البدوي رغم اختلافه معهم؛ وبهذا يكون هذا الشاعر - رغم كلاسيكيته الصارخة - صديقاً لشعراء الحداثة؛ وكان بيته في بيروت مقصداً للأدباء والشعراء في ذاك البلد.

بعد خروجه من لبنان زار إستنبول وتونس وروما وڤيينا. وفي منفاه في جنيف ألمَّ به مرض أقعده شهوراً، وبراه الحنين إلى الديار الشامية، وفي مغتربه الأوروبي (الاسكندنافي) كتب قصيدته الشهيرة والرائعة في حفيده محمد، وتعدُّ من أجمل القصائد في الطفولة وأعذبها:

تغرّبَ عن مخضوضلِ الدوحِ بلبلُ   فشرَّق في الدّنيا وحيداً وغرَّبا

تودّ النجوم الزّهر لو أنّها دُمىً   ليختار منها المترفاتِ ويلعبَا

وعندي كنوزٌ من حنان ورحمة   نعيمي أن يُغرى بهنَّ وينهبا

ويوجزُ فيما يشتهي وكأنّه   بإيجازه ذلّاً أعاد وأسهبا

يزفُ لنا الأعيادَ عيداً إذا خطا   وعيداً إذ ناغى وعيداً إذ حبا

ويا ربِّ من أجل الطفولة وحدَها   أفضْ بركاتِ السّلمِ شرقاً ومغربا

أثارت هذه القصيدة عواطف شاعر الشام الكبير شفيق جبري، فأرسل إلى البدوي في منفاه قصيدة «بلابل الروح» قال فيها:

سلِ الشام من غنّى حِماها فأطربا   ومَن راح يسقيها الشراب المطيّبَا

وردّ البدوي تحية صديقه شاعر الشام، معبراً عن حبّه لهذه المدينة وحنينه إلى أرضها:

وفـــاءٌ كمـــزن الغـــوطتين كـــريمُ وحـــبٌ كنعمـــاءِ الشـــآم قـــديمُ

قـد أُختُصِـرَتْ دنيـا بقلـبي وعـالم كمـا اخْتَصَـرَ العلـمَ الشـتيتَ رقـيمُ

وتُــوجَزُ في قــارورة العطــر جنّــةٌ وتُــوجَزُ في كــأسِ الرّحيــقِ كــرومُ

وأثناء غيابه عن سوريا في المنفى، أُعلنت الوحدة السورية المصرية، وكان للبدوي موقف سلبي من الرئيس جمال عبد الناصر؛ وهجاه بقصيدتين: «كافور» و«فرعون»، ولم يكن راضياً عن الوحدة، وحين حصل الانفصال بين القطرين في 28 أيلول/سبتمبر 1961، وتشكلت حكومة جديدة، حاول بدوي الجبل العودة إلى الوطن لكن دون جدوى؛ إذ حالت السلطات الجديدة دون ذلك، وكأن الشاعر قدره دائماً أن يكون منبوذاً من الطغاة!..

وفي مداخلة تقدم بها النائب عن صافيتا الأستاذ عبد اللطيف اليونس في 1961/12/21، موجهة إلى حكومة الانفصال ورئيس مجلس النواب، جاء فيها: «بدوي الجبل، فضلاً عن مكانته المرموقة وشخصيته الضخمة، فهو يجلس على قمة الشعر العربي، وهو أحد القلائل الذين فتحوا لأمتهم باباً جديداً من أبواب الخلود؛ فلماذا حالت الحكومة بينه وبين دخول سوريا؟ وهل يسوغ أن تستمر أوامر دائرة المباحث السابقة على الأحرار النازحين، الذين فرّوا من بطشها وعدوانها وطغيانها؟».

عاد بدوي الجبل إلى دمشق عام 1962، واستُقبل بحفاوة تليق به، وتكلّمت الصحف عن عودته، وهرع الناس بالآلاف لملاقاته، وتوافدوا إلى منزله مهنئين بالعودة المحمودة بعد غياب حوالي خمس سنوات، إلا أن المتاعب لم تنته من حياة هذا الشاعر، ومرة أخرى نتمثل قول المتنبي الذي تشبه حاله حال شاعرنا البدوي، إذ يقول:

أبــداً أقطّــع الـــبلاد ونجمـــي في نحـــوسٍ وهمـــتي في ســـعودِ

بدأت آلام جديدة في حياة البدوي أشد وأعتى من آلام الغربة، فبتاريخ 25 آذار 1963، صدر المرسوم رقم /29/ الذي بموجبه فرضت عليه عقوبة (العزل المدني) لمدة عشر سنوات؛ وشمل هذا العزل عدداً كبيراً من السياسيين والصحفيين، وذلك بتهمة «الإساءة إلى إيمان الشعب العربي في سوريا بالقومية العربية، وبث الأفكار الشعوبية، وزعزعة ثقة الشعب بقوميته بدافع التكسب والحصول على المنافع غير المشروعة، والأموال من الهيئات الرجعية أو الجهات الأجنبية»؛ وإنها لاتهامات غريبة توجه لأشعر شعراء العرب، ولصوت العروبة الصداح والعريق. وقد كتب الأستاذ (سامي الجندي) - أحد رجالات تلك المرحلة وذاك العهد الثوري، وممن وقعوا على مرسوم عزل البدوي مدنياً وسياسياً - مقالاً بعنوان: (منفى بدوي الجبل)، يصوّر فيه مرارته وهو يوقع ذاك المرسوم: «جاء إلى هذه الأرض قبل ألف عام، وبعد ألف عام كتب عليه المنفى، يظل كطفل لاجئ بلا خيمة، سعادته وشقاؤه يكمنان في هذا الضلال... كلما زرته أو عدته ثقل عليَّ إحساس أننا عذابه، أني بعض عذابه، فليس بيني وبينه غير علاقة تربطني بألف عام خلت وألف عام مقبلة؛ عندما صدر مرسوم عزله السياسي ضحكت وأوغلت في الضحك: لمَ؟ قلت: ما أبشع ألا يذكرني التاريخ إلا بشطر يهجوني فيه أو بعض شطر.. مهما جهدت في تصوير مرارتي وأنا أمهر المرسوم بتوقيعي لن أستطيع، كان قرار أكثرية، والسياسة تفرض على السياسي أن يكون دائماً مع القطيع ضدّ رؤاه. تلك هي حكمة المرحلة التاريخية!..».

وبموجب هذا العزل يحرم الشاعر من حقه في أن يكون ناخباً أو منتخباً؛ ومن حقه في أن يكون مديراً لجريدة أو مجلة، أو صاحب أيّ حقّ من الحقوق الصحفية مهما كان نوعها؛ وحرم من حقّه في أن يكون موظفاً أو مستخدماً أو عاملاً أو متقاعداً في الدولة أو في إحدى مؤسساتها العامة؛ وحرم من حقه في أن يكون صاحب مدرسة أو مديراً أو معلماً في جميع المدارس الخاصة والعامة؛ وحرم من حقه في أن يكون متعهداً أو صاحب امتياز في الدولة ومؤسساتها. وهو القائل:

يا بلادي لا تنكريني فعندي   لك حبٌّ مخلّد يا بلادي

وقد قابل بدوي الجبل هذه القرارات الجائرة بالصمت والكبرياء، إلى أن أتت هزيمة حزيران/يونيو 1967؛ فتصدع قلبه أسى وقهراً، وكتب قصيدته النارية: (من وحي الهزيمة)، وهي من أقوى القصائد في هجاء الطغيان؛ يقول فيها:

نحن موتى! وشرُّ ما ابتدع الطغيان موتى على الدروب تسير
نحن موتى! وإن غدونا ورحنا والبيوت المزوّقات قبور
نحن موتى. يُسرُّ جارٌ لجارٍ مستريباً: متى يكون النشور؟
لا يقود الشعوب ظلم وفقر وسباب مكرر مسعور
كل حكم له - وإن طالت الأيام - يومان: أول وأخير
كل طاغٍ - مهما استبدَّ - ضعيف كل شعب - مهما استكان - مدير
لم أهاون ظلماً وتدري الليالي في غدٍ أيننا هو المدحور..

وفي ديوانه الذي طبع عام 1978، أهدى هذه القصيدة: «إلى أبطال تشرين الذين حلمت بهم هذه القصيدة كما حلم بهم الوطن المنكوب، فكانوا له ولها فجرين من ثأرٍ وأمل».

وإثر هذه القصيدة، تعرض البدوي لاعتداء مدبر كاد أن يودي بحياته؛ وتم خطفه ثلاثة أيام، وبعد إنذار من الرئيس الراحل حافظ الأسد - وكان وزيراً للدفاع آنذاك - إلى جهة أمنية؛ عثر عليه في مشفى المواساة محطماً في جمجمته ويده اليمنى وأضلاعه.

وبعد عام، فجع بوفاة ولده عدنان، الذي توفي إثر نوبة قلبية في بيروت سنة 1968.

قصائده السياسية ومواقفه جعلت حياته في كل مراحلها جحيماً مقيماً؛ وإذا كانت السياسة قد جلبت له كل هذه العذابات، فبالشعر اقتحم البدوي العالم، واستوطن القلوب لسنوات، وبالشعر صال وجال؛ وإذا كانت السياسة قد خذلته وجلبت له المرارة والويل والخيبة، فهو في الشعر كان صوتاً عذباً رقراقاً، ممتلكاً ناصية اللغة، متفرداً في السبك الشعري السلس، وحسن الديباجة، وجمال الصورة

وروعة البيان، فهو واحد من كبار الشعراء الكلاسيكيين العرب إن لم يكن أكبرهم؛ وعدّه البعض ذروة الشعرية العربية، وخاتمة كلاسيكيتها الباذخة، وهو من أواخر من ثبتوا قيمة الكلاسيكية في الشعر العربي؛ إذ حافظ على ديباجة الشّعر العربي وقفز بها إلى ميادين جديدة، وأدخل فيها مواضيع جديدة بأسلوب خاصّ به وحدة.

وتعددت أغراض الشعر عنده، فله شعر في الحب والمرأة والجمال، وشعر في الوطنية والكفاح والمراثي والحنين؛ وإن تكن معظم قصائده المجموعة كلها في ديوان واحد، صادر عام 1978، عن دار العودة في بيروت، تصدرته مقدمة طويلة لصديقه الأديب الكبير أكرم زعيتر؛ فمعظم هذه القصائد قيلت في مناسبات متنوعة أو مهرجانات، أو في رثاء صديق أو رفيق كفاح، لكن لا يقلل هذا من روعة السبك الشعري، وترويض الكلمات وموسقتها، وتوظيف ما هو خاص فيها إلى ما هو عام، وهو يوظف لصالح جماليات القصيدة الكثير من العناصر المعرفية التي اكتسبها من التراث ومن تجارب الحياة بحلوها ومرها.

نشر ديوانه الأول: (البواكير) عام 1925 وأهداه: «إلى مثال البطولة العربية، إلى الشهيد الراقد في ميسلون، إلى تلك الروح الكبيرة التي تمرّدت على العبودية وعلى الحياة».

ومن بواكير شعره المتألق قصيدة (طمع الأقوياء) كتبها عام 1924، يقول فيها:

لا تلمه إذا أحبَّ الشآما ... طابت الشام مربعاً ومقاما

ما رأينا الشآم إلا رأينا ... منزلاً طيباً وأهلاً كراما

اعطني في ربوع جلّق يوماً ... يا خليلي وخذ من العمر عاما

لا تظنوا السلام في الأرض حياً ... طمع الأقوياء غال السلاما

أيعدون قتل شعب حلالاً ... ويعدون قتل فردٍ حراما

عبثوا بالنظام بغياً وقالوا ... قد أتيناكم لنحيي النظاما..

وقد كلف بحب الشام، وقصائده فيها لا تعد ولا تحصى، وفي قصيدة (ابتهالات)، كتبها في جنيف عام 1964، وأهداها إلى قبور حبيبة في بغداد ودمشق وحلب وحمص واللاذقية، نأخذ منها هذه الأبيات عن الشام:

يا شام عطر سريرتي حبٌّ لجمرته التهاب
أنت اللبانة في الجوانح لا النّوار ولا الرباب
لك مهجتي وقبولها منك الهديّة والثواب
غالبتُ أشواقي إليكِ ويُضرِم الشوقَ الغِلاب
أنا طيرُك الشادي وللأنغام في كبدي انسراب
سكبت أغاريدي وللأمواج زأرٌ واحتراب
فصغتِ لتسمعها الرياح وقرَّ في الموج اضطراب

والبدوي إلى جانب كونه شاعراً مطلقاً، له أيضاً نثر قليل، لكنه لافت في روعته وإشراق عباراته وحسن رونقه، كيف لا وهو مالك أسرار اللغة، والقادر على صياغتها بالشكل الأكثر جودة. ونثره مجموعة من الخطب والرسائل والمراثي النثرية؛ لم يجمعها البدوي في كتاب، إلا أن الباحث هاشم عثمان جمعها في كتابه: (بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة).

وقد قال الشعراء والنقاد في شعر بدوي الجبل الكثير. قال عنه العلامة عبد القادر المغربي: «إنه الشاعر الذي تمرد على قاموس التدرّج». وقال الأخطل الصغير: «إن شعر البدوي أرجح من عمره». ويقول عنه صديقه أكرم زعيتر: «يمتلك البدوي أدوات الشعر العالي: الخيال واللفظ واللغة والعاطفة والنغم والموسيقى».

والشاعر نزار قباني قال: «البدوي آخر سيف يمانيٍّ معلق على جدار الأدب العربي». وأما شكيب الجابري، فقال: «إنه شاعر فحل ديباجته صُنعت من مخمل عريق لا يدانيه أي قماش آخر». والشاعر عمر أبو ريشة قال في وصف شعره: «ديباجة مشرقة وأسلوب متين، وإحساس مرهف، يقف في الصف الأول من شعراء العالم العربي». ناجي مشوح يقول عنه: «شاعر الأمجاد العربية، وشاعر الغزل العبقري». والأديب شاكر مصطفى يقول: «هذا سيد شعراء العرب دون منازع.

بدوي الجبل إنه الحجة الوحيدة الباقية في يد الكلاسيكية». والأستاذ رياض عبد الله حلاق كتب عنه: «يعتبر بدوي الجبل في طليعة شعراء العرب قدرة على التحليق في سماء العبقرية، وبراعة الوصف الدقيق الأنيق الصادق، وشعره واضح منسجم ناء عن الألفاظ الغريبة المهجورة؛ ومعانيه مشرقة بالبلاغة، ومتسمة بالعمق والابتكار، وهو متمكن من اللغة، عالم بفصيحها وشواردها، قلَّ أن نعثر على خطأ في شعره الكثير، وفي شعره المترقرق نَفَس المتنبي، وديباجة البحتري، ومعاني أبي تمام وابن الرومي».

وإذا كان القدر قاسياً على الشاعر بدوي الجبل الذي نال من الجبابرة ما نال من أذى وقهر، ورمته سهام الحاسدين والمغرضين بشتى صنوف الاتهامات؛ وأصابته النوائب بالفواجع الكليمة، وأدمته الهزائم والنكبات الوطنية، فإن الزمن كفيل بأن ينصفه ويضعه على لائحة الخالدين، وهو القائل:

«الخالدان - ولا أعد الشمس - شعري والزمان».

في 1981/8/19 غادر (بدوي الجبل) محمد سليمان الأحمد الحياة، ومات موتاً هادئاً بعد أن صارع المرض الطويل، وبلغ من العمر ما بلغ.

ناظم مهنا

بطاقة تعريف

- بدوي الجبل - محمد سليمان الأحمد.

- ولد سنة 1900 في قرية ديفة، منطقة الحفّة - اللاذقية، تلقى تعليمه على يد والده الشيخ سليمان الأحمد، جدّه الأكبر المكزون السنجاري.

نشأ وترعرع في قرية السلاطة، وبدوي الجبل لقب أطلقه عليه المرحوم يوسف العيسى صاحب جريدة: (ألف باء) الدمشقية في العشرينات.

- عمل في الحقل السياسي عضواً في البرلمان عدة مرات، ووزيراً للصحة، ووزيراً للأنباء في الأربعينات والخمسينات، كما شارك في النضال ضد فرنسا.

- توفي في 1981/8/19.

- مؤلفاته: البواكير 1925

- الأعمال الكاملة في مجلد واحد - دار العودة بيروت 1978.

خير الدين الأسدي

شجرة الشوق والمعرفة

(1900 - 1971)

-1-

شغلت حياة الأسدي صفحات وصفحات من مجلد المدينة الكبير؛ لتمنحها نكهة، قلّة من الرجال تُمنح مثلها. في البدء كانت الولادة في أيام السنة الأولى من القرن العشرين؛ ففي حي (الجلّوم) المتشعب في عراقة حلب، ردد فضاء حارة صغيرة صرخات امرأة جاءها المخاض قريباً من جذع شجرة النارنج المتصابية؛ وتعالت آهات نداءها تطلب النجدة، ولكنها في النهاية تحاملت على نفسها وحيدة، وهي تجر قدميها طلباً لفراش لين، يحنو على وليدها الذي أعلن بالبكاء عن قدومه؛ فتوقفت آنذاك آهات الأم معلنة عن الرضى بانتهاء العذاب، مثمراً عن رضيع أسكتته الدهشة من لقاء العالم.

كذلك كانت أيام القرن العشرين تتابع سباقها متراكضة في سماء المدينة القديمة؛ فإذا ما مرت بالجلّوم وهي تدور على الأحياء، ظللت صحن الدار التي احتضنت الرضيع بحنان، سيدفعه إلى تأمل الفضاء من حوله؛ وكأنما كُتب عليه منذ البداية أن يمعن النظر متفحصاً البيئة التي وُلد فيها؛ وقد فتحت ذراعيها لاستقباله، وباتت قدره كي يصبح شاهداً عليها لسبعة عقود قادمة ومتعاقبة الفصول، كان الزمن الحلبي ناظماً لسيرة حياة ذلك القادم إلى المدينة.

وتنمو شجرة الأسدي... بات الرضيع رجلاً، فجعلت حلب تعجنه وتخبزه، ليصبح مع توالد الزمن وشماً على ستارة الزمن المتقلب؛ ويتحول مبكراً إلى شيخ يقترب بتأمله العميق من وقار المدينة التي استمدته من منارة التاريخ السحيق.

ها هو الفتى خير الدين يحتل بقامته النحيلة مكاناً على مقاعد الدراسة في (شمس المعارف)، ومن بعدها (المدرسة العثمانية)، وكان مخلصاً في إصغائه إلى

أساتذة كبار، فقاده ذلك الاهتمام إلى الابتعاد عن مهن أهل الحي الشائعة كالتجارة والحرف اليدوية، ليحترف التعليم، فتحلّقُ روحه في فضاء اللغة العربية التي أحبها كزوج كتب عليه الإخلاص، وجعل من اللغة علماً حيوياً بديلاً من وجودها كحرفة لا إبداع فيها؛ وكانت إحاطته بوظائف اللغة دفعته إلى الغوص في معانيها ودلالاتها، ليصبح مع الأيام، كمكتشف يجوب صحراء اللغة، ويتسلق تلالها بحثاً عن أسرارها في الصفحات المكتوبة والشفاه الناطقة؛ وهكذا تشابكت عنده خيوط اللغة بمهارة حلب، ليصبح الأسدي أعظم نساج لقماش المدينة السحري.

وأصابته عدوى التمثيل، إذ كانت في المدينة فرق مسرحية من الهواة أو الوافدين أو عروض لخيال الظل الذي كان منتشراً؛ لذا قرر الأسدي في السنين الأولى من العشرينات أن يقوم مع طلابه بتقديم مسرحية (الاستقلال)؛ وكان ذلك مع بدايات الانتداب الفرنسي لسوريا، فكأنه بذلك أراد المقاومة على طريقته، وأراد من المسرحية أن تحاكي الحياة بواقعيتها؛ فاستخدم في مشهد منها كمية من البارود للتأثير في نفوس الجمهور المحتشد في الصالة؛ إلاّ أن النار خانته، فانفجر البارود في يده، وبالرغم من تناثر أجزاء من كفه فقد استمر الأسدي في أداء دوره إلى أن حُمل في نهاية المسرحية إلى المشفى لتقديم العلاج؛ وبعد فترة سُمع الرجل يقول: إن الحظ حالفه ببقاء كفه اليمنى سليمة، كي يستمر في الكتابة باحثاً ولغوياً وشاعراً صوفياً ومؤرخاً، يلقي الضوء على ما هو مهمل في تاريخ مدينته.

-2-

خلق الله ذراعيّ الإنسان لإشعال نار العمل والعناق؛ وإذا ما حرم الأسدي من إحداهما بقيت الثانية على مجالدة الكتابة، فأذكى نار الإبداع في الحروف المطواعة لقلمه، فلم تتوقف يوماً تلك اليد عن تلوين آلاف الصفحات بدهشة الأفكار والمواقف.

أعدّ الشيخ في مسيرة حياته مصنفات وصلت إلى ثلاثة عشر، وآخرها كان: «موسوعة حلب المقارنة». وقد قيضّ لي أن أشاهد الأسدي يعمل على إعادة نَسْخ الموسوعة للمرة الرابعة، مستخدماً أربعة أقلام بألوان مختلفة لكتابة الكلمة المتن ثم الشرح وكذلك التشكيل ومن ثم الذيول؛ كل بلون ليسهل على الطباعة التمييز

فيما بينها، وقد بلغ عدد الصفحات من القطع الكبير ثمانية آلاف، استغرق جمع موادها أكثر من عقود ثلاثة.

وقد يقال إن مثل هذا العمل الأكاديمي الذي قام به فرد واحد حول لهجة مدينة حلب؛ إنما يشكل ظاهرة فريدة في دراسة مدينة قديمة أو حديثة في هذا العالم. ويقول الأسدي في مقدمة موسوعته الكبرى:

«جمع مفرداتها وتعبيراتها وفن القول فيها مضفوراً مع أواصر الحياة فيها التي تبلغ لاهثة سويداء العصر الحجري؛ جمعها ودرسها وصانها من أن تعبث بها يد الضياع في حقبة من عايشهم في صدر القرن العشرين؛ وممن بعجوا سقف القرن (19) واستطالت أعمارهم ومن آبائهم: هذه الحقبة التي يعدها العلم أخطر حقب التاريخ، إذ تستوي حلقات العصر الذي قبلها بكل ما قبلها، كأنها صبّت في قالب واحد، أما هنا في حقبتنا هذه فدهم العالم من حادثات واختراعات آخذة برقاب بعضها، غيرت كل أواصر الحياة، ومنها دراسات الشعبيات في البيت، في السوق، في الشارع في كل مدن للشعب، لا في القصور فحسب، كما كانت عدسة التاريخ تصور، ولا دراستها مبتورة عن العالم. إذن فأمامنا الآن ميدان صدق وسداد كامل بكل ما يبهج صدر الثاقب البصير، فإلى هذا الميدان اديروا رؤوس الخيل يا فرسان العلم، وهلا وهلا وأنا معكم».

ولأكثر من ثلاثة عقود تعاقبت عليها صفحات الموسوعة الكبرى، والأسدي يعمل على استكمال كتابتها، لا يداخله يأس في معلومة يسعى إلى معرفتها فلا يعرف الملل. وفي أشهره الأخيرة التي قضاها في (دار العجزة)، أضاف وهو راقد في سريره الضيق مئات الصفحات على الموسوعة؛ وكأنما يدفعه الإيمان بمدينته إلى ثقة بقدرتها على العطاء بلا حدود.

-3-

وتثير كلمة (الثقة) جانباً غير معروف في شخصية الأسدي، فهل يكون في استعادتها اليوم إنارة لواقع نعيش فيه؟ فقد تردد على لسان الكثير من تلامذته في مدارس مختلفة، أن الأسدي كان يوم الامتحان يغادر القاعة بعد توزيع الأسئلة على الطلاب، تاركاً المُمْتَحَنين دون مراقبة؛ وإذا ما لامته الإدارة على ذلك

الإهمال كان يقابلها بقوله: إن منح الثقة للإنسان ضروري، لدفعه دوماً إلى الالتزام بالأمانة، في حياته مما سيعزز مستقبل الوطن بقوة الأجيال الجديدة؛ وقوة تلك الأجيال ترتبط بما تملكه من ثقة بنفسها وأن الأمانة تنبع من النفس. أكان الأسدي مصيباً في نظرته حقاً؟

- **4** -

ما زادك اليومي أيها الأسدي؟

الجواب يكون كما كان دوماً: الكتاب، وأقوال الناس، وما تشاهده العين، ثم رغيف ساخن، فقد كانت قناعته بالرغيف لا ترقى إلى طموحٍ في الإطلاع على الكتب واللغات؛ وفي توقه إلى تسجيل ما يدور على ألسنة الناس من أقوال وأمثال. كذلك ذهبت مدخراته من فائض ضئيل في الدخل إلى تمويل أسفاره إلى بلاد الله الواسعة؛ يبحث فيها عن المعرفة، ويغذي دهشته من كل ما هو جديد، وما يتعلق من لهجات في لغات البشر، وهكذا توسعت صعد حلب في روحه التي سكنت فيها لغتها وتاريخها وكيمياء ثقافاتها. وبالرغم من ارتباط حياته الدائم بالحاجة، إلاّ أنه احتفظ لنفسه دوماً بحق السخرية من المال والتفاخر عند معظم البشر.

وتفجر في أعماقه ذات يوم شوق إلى التاريخ القديم الذي يمتد إلى فترة العصر الحجري في المدينة؛ فقرر أن ينقّب عنه بنفسه، وقاد بعثة من المحبين إلى كهوف (التلة السودة) في حي (المغاير)، ليبحث فيها عن آثار الإنسان الأول الحلبي، الذي لابد أنه سكن تلك الكهوف؛ وخانته المعدات البدائية التي حملتها البعثة؛ فلم يقدر على التوغل بعيداً في السراديب، ولم يعترف بفشله، فمضى متابعاً التنقيب في صفحات الكتب والوثائق بحثاً عن تاريخ حلب وجغرافيتها وثقافاتها وحياتها الاجتماعية؛ وظلّ مثابراً على ذلك بجهد قلّ نظيره، فلم يعرف الراحة، وما أثناه عن متابعة العمل سوى توقف قلبه النبيل عن الخفقان.

ودفعته شراهته إلى المعرفة من كل لون، إلى اقتناء ما هو أبرز في الاستخدام الشعبي، كالشالات العجمية التي يتزنر بها الناس من كافة الطبقات؛ وكذلك أكياس(التنباك) المستخدم في تدخين النراجيل الشائعة منذ قرون، كما

أنه لاحق بالشراء نماذج من (المسابح) التي يكاد معظم الشعب يستخدمها لسبب ديني أو تفاخري.

وتساءل ذات مرة عن أصل (صحن الهيطلية) وملعقته المميزة، وكان شائعاً في مطاعم المرطبات بحلب، والهيطلية من الحلويات الشهيرة، وتصنع من الحليب، وقد اقتصرت على المدينة دون غيرها لفترة طويلة، تساءل الأسدي: «ما الذي أتى بهذا الصحن المصنوع من الخزف الصيني إلى حلب؟» وابتدأ البحث والتقصي.

كانت المدينة تقع على الخط الذي سمي (طريق الحرير)، وكانت واحدة من أهم محطاته، لذا قرر الأسدي أن يسلك ذلك الطريق منقباً عن أصل ذلك الصحن؛ ويتقن بعقله التجريبي أن رحلات التجار القادمة من الشرق قد تكون هي التي حملت مع الثقافات والعادات نماذج من السلع والحاجيات؛ كان الصحن منها. وقد وقر في ذهن الشيخ منذ البداية أن حلب أشبه بالمطبخ الحضاري الذي يستقبل بترحاب أشكالاً لا حدود لها من التنوع، لذا فإن زيارته لمدينة (طشقند) أكدت له أن صحن (الهيطلية) قد جاء إلى حلب منها.

وكان لاكتشافه هذا أثر آخر في تعميق معرفته عن الثقافة في حلب؛ وقد فتحت صدرها للتفاعل مع كل ما هو وافد عليها، وساهمت مشاركته في تأسيس (جمعية العاديات)، والتواصل مع نشاطاتها في إتاحة الفرصة له في الكشف عن الآثار السورية عبر تاريخها الطويل؛ وأيقظت الثقافات المتراكمة على الأرض السورية رغبة في دراسة عدد من اللغات كالسوريانية (السريانية) وغيرها من اللغات السامية وكذلك الأوربية؛ وهي التي أفادته في التقصي العميق لواقع اللهجة الحلبية، التي باتت من أعمدة موسوعته الأكثر شهرة.

-5-

وما كان عاشق حلب والمعرفة يدرك أنه بموسوعة حلب المقارنة التي ما وقف عمله الدؤوب فيها لأكثر من ثلاثة عقود بوجه مؤلفات أخرى؛ إلاّ أنها بقيت أشبه بحبات الماس في عقده النفيس، ما كان يعلم أنه سيكتب السيرة الحلبية وملحمتها البديعة؛ وقد تجلت في مفردات اللهجة وقواعدها وحكمها وتهكماتها وخرافاتها ونهفات المجانين فيها؛ وما إلى ذلك من تفاصيل تاريخية واجتماعية تعجز عن إعداد مثلها أكاديمية تضم عشرات الباحثين والمفكرين، والتي عمل فيها الأسدي وحيداً لا يملك غير يد واحدة.

إلاّ أن الأسدي لم ينعم برؤيتها مطبوعة في سبع مجلدات؛ توجت بها جامعة حلب دوراً ثقافياً، سيبقى وساماً على الصدر، يربطها بالمدينة، ومن طرف آخر بالتحضر.

أتراها السيرة الحلبية الفنية في فصولها المتعاقبة؛ قد كشفت عن طاقة هائلة لابن لها، وهو يحقق بموسوعته تلك، أعلى درجة من الوعي العلمي؛ ويؤكد على نوعٍ من المحبة لا مثيل لها؟

أم أنها السيرة الأسدية التي طعمت الثقافة بمذاق العطاء لمدينة لا مثيل لها بين عشاق، أغرموا بمدنهم القديمة أو الحديثة على حدٍ سواء؟

ويبدو أن الموسوعة باتت سيرة متعددة الجوانب، إلاّ أنها في نهاية المطاف أصبحت ذات وجهين، وجه يبرز ملامح صورة لشجرة فارغة، صلابتها من السنديان، وعطاؤها زيتونة شرقية يكاد نموها يبلغ أفق الديمومة؛ بينما القرون تمرّ بها متقلبة في قسوتها فإذا هي تقاوم قدر الذبول واليباس. وتفرعت أغصان الشجرة في فضاءات التاريخ، لتدلّ جذورها على حقيقة اسمها الذي كان (حلب)، والوجه الآخر بشري، وداعته في كينونته وحضوره كأيقونة مباركة، واسمه خير الدين، وقام وقاره بكنس الغبار عن الوقائع والأحداث، فيما عيناه تشعان بحثاً عن الحقيقة، وهكذا أظهرت كلمات موسوعته صورة متجلية لأسديّة حلب. فهل تراها

تلك السيرة قد تحولت إلى عملة نادرة من معدن التراب الخصب الذي هو أثمن من ذهب؛ أم أنها كانت الملح الذي يحفظ ويحافظ على الوجود؟

-6-

تبقى حلب، ويغادر الجانب الآخر من السيرة، فللبقاء حدود، لا يمنح للبشر إلا بمقدار، وعندما اقترب الأسدي من عامه السبعين، سيطر الوهن على الجسد الرقيق، فاستسلم له بضعفه ووحدته وفقره، وكان الانتصار حاسماً.

وضرب القدر المحتوم باب الشيخ، ففتح له صاحب الدار مؤهلاً ومرحباً بابتسامته الساخرة، وكأنه يهتف: «ألم أكن بانتظارك أيها الضيف الكريم؟». وهكذا استجاب الأسدي للدعوة الأولى، فمضى إلى (دار العجزة)، التي يمولها الإحسان والرفق بالإنسان.

الآن أصبح للشيخ مقام جديد تؤنسه عيون المقيمين، وقد فقدت بريقها، وأما الأقلام والأوراق فلم تنقطع عن صحبتها للشيخ؛ فكانت الإضافات اليومية على الموسوعة بمثابة توقيت تراجعي لساعات أيامه. لقد شكلت دار العجزة لفتى الجلّوم المحطة الأخيرة له في دار البقاء.

وجاء صباح شتاء بارد قاتماً، يحمل في ثناياه الخبر المشؤوم، وكان الموظف المقيم يعاين النزيل بحثاً عن يقين نقل إليه؛ وقد وجده متكوماً على نفسه، وهو يحتضن رزمة من الأوراق الكبيرة التي كان الأسدي يستخدمها في كتابه الموسوعة؛ وهز الموظف الجسد من جديد، وكأنه يقوم بواجب التأكيد على اليقين، ولكن الغصن اليابس لم يستجب، فقلبه على ظهره، لتظهر الابتسامة الماكرة على وجه الشيخ، وقد اشتهر بها عندما تستثار سخريته النائمة، آنذاك هتف الرجل دون انفعال «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وخلال أيام لاحقة تكاثرت الهمهمات متسائلة عن رحيل الأسدي؛ وكأنّ ذكراه بدأت تقوى وتظهر عند المحبين له، لارتباط رحيل شيخ حلب بمكان كدار العجزة. وتقرر أن يُقام حفل تأبين في يوم (الأربعين) تكفيراً عن إهمال المدينة والأصحاب للأسدي في حياته، كما اتجهت الأنظار إلى إعداد قبر لائق بالرجل الذي عشق حلب.

أين دفن الأسدي؟ فكانت هناك المفاجأة بالانتظار، وكان لابد من جواب لا يملكه سوى مكتب (دفن الموتى)، فتوجهنا ثلاثة من الأصدقاء إليه نستطلع عنده الحقيقة، فكانت هناك مفاجأة أخرى بانتظارنا، قلّب المسؤول في المكتب دفتر اليوميات بحثاً عن الاسم في التاريخ المعين، فلم يعثر على أثر له. ولم نترك للمسؤول فرصة لإبداء الأسف، قمنا بتقليب البحث عن الأسماء في صفحة اليوم الذي قضى فيه الأسدي، فكانت المفاجأة الثالثة؛ لقد سُجل الشيخ تحت اسم (ضياء الدين أسد) بدلاً من (خير الدين الأسدي)! ألم تكفه خيانة الحياة له، لتأتي الكلمات خائنة لشيخ اللغة مقدمة نفسها كهدية سمجة لرحيله الأبدي؟

وتحرك الموكب بصحبة موظف شاب، كان قد رافق الجثمان إلى المقبرة، وعند البوابة الغربية لمدافن (الصالحين) التي مازالت تستقبل نزلاءها منذ مئات السنين، حدثت كذلك مفاجأة؛ توقف الموظف عند المدخل قلقاً، يكابدُ مشقّة في تقديم اعتراف ارتسمت ملامحه على وجهه وتصرفاته؛ ثم ما لبث بعد قليل أن هتف معتذراً في بداية اعترافه المثير، وكان الرجل يقول، إن مهمته في ذلك اليوم انتهت بعد نقل الجثمان بسيارة اللاندروفر عند مدخل البوابة.

قام موظف المكتب بتسليم الأمانة إلى (التُربيّ) حفار القبور وحارسها، ونودي على (التُربيّ) فجاء بعد مدة معفراً متهلل الوجه لظنه أن زبوناً جديداً قد جيء به، إلاّ أنه قطّب لتساؤلنا عن موقع قبر الأسدي الذي أحضره الموظف منذ أيام؛ أنكر حفار القبور أنه يذكر شيئاً من ذلك، فيومه مليء عادة بعملٍ مجهد لا يسمح له بالتذكر، وعندما قام موظف المكتب بإعادة الصورة التي جيء بها بالأسدي، فلا مشيعين، وإنّ الجثمان كان من وزن خفيف وذراع مقطوعة، آنذاك هتف (التُربيّ): «نعم فقد حملت الميت تحت أبطي ودفنته بنفسي في ذلك اليوم الماطر»، وعلّق قائلاً بأسى لم يكن من عادته: «يا عيني فالرجل كان لابد غريباً عن المدينة، أراهن على أنه كان من الغرباء».

-7-

وقادنا حفار القبور في رحلة قصيرة عبر ممرٍ صاعد، وقد تناثرت من حوله القبور الحجرية، وكأنها انتصبت لترحّب بالقادمين في كل يوم، ولم يستغرق منا السير المتسارع زمناً منذ انعطف التُربيُ بنا متخطياً عدداً من القبور، ليقف فجأة ويشير برفشه إلى موقع القبر المطلوب؛ وتعلقت أبصارنا بالمساحة الضيقة، يحاصرها قبران قديمان نمت الحشائش على أطرافهما. سئل الحفار من جديد عن موقف القبر فأعاد إشارته إلى المساحة نفسها، آنذاك تعالت أصواتنا مستنكرة أن تلك المساحة لا تصلح أصلاً للدفن، فتجهم وجه الرجل، وهو يعلن غاضباً: أن للقبور ثمنها يا سادة، ومع ذلك أشفقت على الميت الغريب، وأنزلته واقفاً بكل احترام نظراً لضيق الرقعة، وأضاف الحفار مستفسراً ببراءة إن كان عمله صدقة برأينا!

أكان الأسدي في وقفته تلك مستعداً لمحاكمة عادلة؟ أيمكن لنا أن نصدق نهاية كهذه، أم أن الخيال ما يزال يلاحق الشيخ؟

وكان الشتاء مازال يجول بين القبور التي ارتفع معظمها عن الأرض متعالية بطبقاتها وشواهدها المزخرفة، كي تدلّ على أهمية أصحابها وتفاخر بسكنها.

أطرقنا برؤوسنا ساكنين مستسلمين، وارتدّ بي البصر إلى كومة بعيدة من التراب، فبدت لي كقبعة الأسدي (الفيصلية) التي اشتهر بها، وخرج الجسد فجأة من نفقه الشاقولي، وجعل يستعرض بابتسامته الساخرة أرجاء المقبرة الحلبية العريقة، لكنه سرعان ما ارتدّ إلى حفرته عائداً، بينما تتسلل قشعريرة الشتاء إلى جسدي.

-8-

كنا سنرتدّ عائدين بالخيبة، عندما انفردت بحفار القبور، لأدسّ في يده مبلغاً من المال وأنا أستحلفه بالله إن كان قد باع الجثة لطلاب كلية الطب المحدثة في جامعة حلب؛ وأخفى الرجل المال في جيب ثوبه، ولم ينبس ببنت شفة، فوضعت كفي على رأسه أناشده أن يقول الحقيقة التي ستبقى بيني وبينه،

فانفلت هارباً وهو يتوجه إلى أعماق المقبرة، وكأنه على موعد سابق وكأنني على موعد مع الحيرة.

وتابعنا رحلة العودة مروراً بالقلعة، قبل أن نخرج من المدينة القديمة التي بدت وكأنها تردد اسم الأسدي صاحب السيرة الحلبية، التي مازالت تكتب نفسها.

-9-

وتستمر كلمات الشيخ مسموعة. موسوعته وكتبه الأخرى، مازالت صلة الوصل مع أفكاره، وتصاعد التواصل مع حبه للمعرفة وللمدينة. ولم يمنع اختفاء جسده من بقاء ظلّه مخيماً كغمامة ندية تسقي توقنا إلى الحفر في أعماق الحقيقة والمكان. باتت ذكرى الرجل علامة في الجسد الحلبي كما هي القلعة، وكما هو الأمل في استمرار حلب واحدة من كنوز الإنسانية على مرّ الزمن.

وليد إخلاصي

محمد خير الدين الأسدي

- ولد في حلب، العام 1900.
- توفي في حلب، في التاسع والعشرين من كانون الثاني 1971.
- باحث ومؤلف، وعمل في تدريس اللغة العربية في مدارس حلب.

المؤلفات:

- البيان والبديع - طبع في العام 1936.
- عروج أبي العلاء (ترجمة) - طبع في العام 1940.
- قواعد اللغة العربية - طبع في العام 1341 هـ.
- حلب: الجانب اللغوي من الكلمة - طبع في العام 1951.

- أغاني القبة (نفحات صوفية) - طبع في العام 1951.
- يا ليل - طبع في العام 1957.
- الله - مخطوط.
- أحياء حلب - مخطوط.
- أين وليس - مخطوط.
- الألف - مخطوط.
- الموسوعة في النحو - مخطوط.
- تاريخ القلم العربي - مخطوط.
- موسوعة حلب المقارنة (7 أجزاء) - بداية الطبع في العام 1981.

عادلة بيهم الجزائري

تأسيس الحركة النسوية

(1900 - 1975)

عندما انتشر الدمار وعلت أصوات أنين الجياع والمتألمين في جوف الليل، اندفعت صبية صغيرة على رأس مجموعة من الفتيات الوطنيات وقد شمرت عن ساعدها الطري أيام الحرب، للقيام بأعمال الإغاثة وخدمة المنكوبين، تقدم الغذاء والكساء والأدوية بما تجمعه من التبرعات وما تدفعه من جيبها الخاص.

لم تكن عادلة بيهم قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها حين بدأت الحرب العالمية الأولى، بكل ما جرته من ويلات على المنطقة، خاصة الإفقار الشديد الذي تعرضت له، نتيجة استنزاف جيوش الآستانة خيرات البلد لصالح الحرب.

في تلك الفترة من تاريخ سوريا كان المد العثماني بطور الانحسار مقابل تصاعد مد الشعور القومي العربي، بمواجهة استبداد نظام يلفظ أنفاسه الأخيرة. ولم تكن حينها مساهمة النساء في الحركة الاجتماعية السياسية الجديدة ملموسة في مجتمع أنهكه الانحطاط والاستبداد، ولم يكن هناك مناص من العمل السري. فانخرطت عادلة بيهم بنشاطها المبكر عبر الجمعيات السرية التي انتشرت لتنادي بالعروبة والاستقلال الوطني العربي عن الدولة العثمانية. وبالكتابة في جريدتي «المفيد» و«الفتى العربي». ووقعت مقالاتها، باسم «الفتاة العربية - نزيلة الأستانة» حرضت من خلالها النساء على مشاركة الرجال في النهوض والدفاع عن البلاد.

مع انطلاق الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين عام 1916، شحنت النفوس بحلم الاستقلال عن الأستانة. فبادرت عادلة إلى ترؤس لجنة تشرف على دار للصناعة. وقدمت وجبة طعام مجانية للعاملات في الدار التي ضمت نحو 1800 عاملة يعملن في حرف وصناعات عدة كالنسيج والغزل والأشغال اليدوية المختلفة، وغيرها.

عادت عادلة واستخدمت اسمها المستعار بعد فترة قصيرة، وتحديداً في عام 1915 لدى تأسيسها «جمعية يقظة الفتاة العربية»، بهدف نشر الوعي القومي العربي بين صفوف النساء دون إهمال قضايا أخرى كتعليم البنات اللواتي لا تساعدهن أحوالهن على التعلم. وساعدها على ذلك اشتراكها أيضاً في «جمعية الأمور الخيرية للفتيات العربيات»، في بيروت، التي كانت تملك نادياً ومدرسة.

عام 1918، دخلت القوات العربية والإنكليزية دمشق، منهية 400 عام من الاحتلال العثماني للمنطقة، لم تهدأ الأحوال، بل أن مرحلة جديدة من النضال قد بدأت. تمثلت مع إرسال أمريكا عام 1919 لجنتها الخاصة لدراسة أحوال الناس ومطالبهم برئاسة هنري كينغ وتشارلزكرين (لجنة كينغ- كرين)، وكان على اللجنة أن تقدم تقريرها إلى الرئيس ويلسون، بحيث يكون هذا التقرير أساساً للتعامل الأمريكي مع المنطقة. فتنادى الرجال إلى عقد المؤتمر السوري العام الذي اشترك فيه كل من سورية ولبنان وفلسطين، ليرفضوا وعد بلفور وما سيترتب عليه، وليعلنوا بكل تحدٍ وإصرار استقلال سورية بحدودها الطبيعية (1920/3/8)، وتتويج الأمير فيصل ابن الحسين ملكاً على سوريا. وما إن وصلت اللجنة إلى بيروت، حتى سارعت عادلة بيهم وبعض صديقاتها إلى لقائها ليطالبن بالاستقلال مؤكدات رفضهن للوصاية والانتداب.

عام 1922 بلغت الصبية الممتلئة بالحماسة العشرين من العمر. وهو عمر كان يعد متأخراً فيما يخص سن الزواج الشائع. سافرت إلى دمشق وتزوجت من ابن عمها الأمير مختار وانجبت منه ولدين (أمل) و(زين العابدين).

لم يمنعها الزواج من مواصلة عملها في مقاومة الاحتلال الجديد. فشاركت في المظاهرات، ودعمت المقاومة السرية بكل الأشكال المتاحة. خاصة في تأمين الطعام والكساء والعلاج للثوار. وهي التجربة التي دفعتها إلى تأسيس لجنة مختصة بهذا العمل الهام، خاصة لجهة مساعدة عائلات الثوار الذين إما استشهدوا أو فروا. وقد ساعدها في ذلك الأمير مختار بما عرف عنه من جدية واتزان وثقافة ورؤى راقية، وهدوء طبع جعله قادراً على تجاوز تعليقات أولاد عمه الساخرة من زوجته المناضلة، و تحمل نظرات الأصدقاء المشفقة أو الغامزة، فلم يعر انتباهه لثرثرة النساء ليقابل كل ذلك بابتسامة تنم عن شعور بالرضا عن

نفسه وعن احترامه لخيار زوجته بأن تكون لها حياتها الخارجة عن مألوف الزوجات في ذلك الزمان، حين كانت جنة المرأة منزلها.

عام 1900 ولدت عادلة ابنة عبد الرحيم بيهم، أحد الموظفين في ولاية بيروت آنذاك. والمتزوج من الأميرة زهرة ابنة محي الدين باشا نجل الأمير عبد القادر الجزائري، الذي كان يشغل منصباً كبيراً في مجلس التفتيش العسكري السلطاني، ويحمل لقب باشا ورتبة أميرالاي

وهو الذي أشعل عام 1837م، نار الثورة ضد المحتلين الفرنسيين في الجزائر من غير علم والده الأمير عبد القادر الذي كان قد أفرج عنه نابليون الثالث بعد خمس سنوات سجن في قصر أمبواز في فرنسا. وخرج من الجزائر مهاجراً بعد ما تغير وجه المقاومة، لينتقل إلى بلاد الشام. أما جدها الآخر والد أبيها مختار بيهم، فقد كان من المناضلين ضد الاستعمار الفرنسي في بيروت. في هذه الأجواء السياسية والوطنية نشأت عادلة وتلقت علومها في معهد الدياكونيز الألماني. ودرست علوم اللغة العربية على يد العلامة الشيخ عبد الله البستاني، صاحب المؤلفات والروايات التمثيلية الكثيرة، وصاحب المعجم الشهير المسمى «البستان» ما منحها لغة عربية صافية وسلسلة.

هذه النشأة رفعت مستوى حياة بيهم إلى آماد ثورية راقية. كرستها لاحقاً الأجواء العائلية الزوجية الهادئة التي أمنت لها انطلاقة بروح وتفاعلات نفسية سوية سليمة. فكانت في مقدمة المظاهرات التي جالت في شوارع دمشق مطالبة بالسفور، بمعنى كشف الوجه فقط ، مع الالتزام بمبادئ الشريعة الإسلامية .

❖ ❖ ❖

لم يشكل زواجها من الأمير مختار عائقاً بوجه نشاطها العام، وإن كان قد تحول قليلاً ليفسح مجالاً أوسع للاهتمام بقضايا مجتمعية كتعليم النساء وحقوقهن وأوضاعهن العامة. فكانت واحدة من مؤسسي جمعية يقظة المرأة الشامية 1927، التي هدفت إلى تشجيع عمل النساء في الريف، وإلى إحياء وتطوير الصناعات اليدوية التقليدية. وفي العام التالي (1928) ساهمت بتأسيس جمعية دوحة الأدب في اجتماع حاشد في المجمع العلمي العربي. وكانت هذه

الجمعية هي الخطوة الأولى في سورية التي وضعت خطة أوسع من الخدمات العامة لإشراك المرأة في الحياة العامة، خاصة في النضال الوطني. وترجمت ذلك بإحداث مدرسة لتنشئة الفتيات تنشئة تعتمد على روح تقدمية للقومية العربية. إلا أن هذه الفكرة لم تكن من الأفكار المستساغة للمحتل الفرنسي، فامتنع عن الترخيص لهذه المدرسة ثلاث سنوات. قامت بعدها الجمعية بفتح أبواب المدرسة دون الحصول على الترخيص.

الاتجاه الجديد لعادلة بيهم حقق قفزته النوعية الأولى بعد خمس سنوات من تأسيس دوحة الأدب. ففي عام 1933 تداعت ثلاث جمعيات لإطلاق نواة الاتحاد النسائي العربي السوري، وانتخبت عادلة بيهم رئيسة له. وكان ثاني اتحاد نسائي يطلق في المنطقة بعد الاتحاد النسائي المصري الذي أعلن عام 1923 والذي أنشئ كردٍ على منح حق الانتخاب للرجال فقط والذي أقره البرلمان المصري في العام ذاته، وقادته هدى شعراوي، وهو أيضاً العام نفسه الذي أثارت فيه هدى قضيتها الأشهر، حين خلعت النقاب عن وجهها علناً، مفتتحة تاريخاً جديداً للحركة النسوية العربية.

وفي العام التالي، 1934، اجتمعت عادلة بيهم الجزائري بالموسيقي السوري عمر البطش في حلب، ودعته للحضور إلى دمشق والمشاركة بتدريب بعض طالبات «دوحة الأدب» على رقص السماح، الأمر الذي كان له أثر في الحفاظ على هذا اللون التقليدي من الفن.

الاتحاد النسائي العربي السوري كان أيضاً نقلة نوعية بالنسبة لعادلة بيهم والسيدات الناشطات معها. وشكل إطاراً فعالاً لتنظيم جهودهن وقواهن. وبدا ذلك بوضوح في الإضراب العام الذي عمَّ سورية في عام 1936 احتجاجاً على شروط المعاهدة المعقودة بين سورية وفرنسا. إذ ساهم هذا الاتحاد في تأمين مستلزمات المضربين وأسرهم بهدف إزالة أسباب الضعف التي قد تدفع المحتاجين إلى كسر الإضراب.

وكذلك ساهم الاتحاد في العام التالي، 1937، في التنمية عن طريق إطلاق مشروع إنعاش القرى ومكافحة الأمية في مركز جديدة عرطوز غرب دمشق.

وبعد عامين حققت عادلة بيهم نقلة أخرى في حياتها وعملها، حين لبت دعوة السيدة هدى شعراوي مترئسة وفد الاتحاد النسائي العربي السوري، المؤلف من ثلاثين امرأة، إلى المؤتمر النسائي الفلسطيني الذي عقد في القاهرة، 1938، لدراسة «القضية الفلسطينية» و«خطر الصهيونية على الوطن العربي». إذ كان ذلك أول خروج لها من منطقة سورية الطبيعية. ويبدو أن هذه النقلة ساعدت عادلة على الالتفات أكثر إلى أهمية تجميع القوى النسائية كلها في العمل العام. فأمضت وقتاً وجهداً في تقريب الجمعيات العاملة في سورية، ونجحت بذلك حين انضمت عدة جمعيات مهمة إلى الاتحاد النسائي في عام 1944، وصار الاتحاد يضم كل من الجمعيات التالية: النادي النسائي الأدبي، نقطة الحليب، يقظة المرأة الشامية، خريجات دور المعلمات، دوحة الأدب، الندوة الثقافية النسائية، الإسعاف العام النسائي، المبرة النسائية، الجمعية الثقافية الاجتماعية. وهو الانضمام الطوعي الأوسع في تاريخ الحركة النسائية في سورية. وانتخب الاتحاد الجديد عادلة بيهم الجزائري رئيسة له. واستمرت في هذا المنصب حتى عام 1967.

مع الاتحاد الموسع صار للمرأة السورية وزناً أهم في الشأن العام. وبدا أن الحركة النسائية في الدول العربية تتقاطع في الكثير من مهامها. فدعت السيدة هدى شعرواي الاتحادات النسوية في البلدان العربية إلى مؤتمر نسوي عربي في القاهرة، ناقش موضوعي «الخطر الصهيوني» و«مشاكل المرأة العربية ورفع مستواها الثقافي والاجتماعي». وشارك في المؤتمر وفود من سورية ولبنان والعراق والأردن وفلسطين، إضافة إلى مصر. وكانت تلك المرة الأولى التي تطرح فيها قضايا المرأة العربية ومشاكلها في مؤتمر على هذا المستوى. وأعلن في المؤتمر تأسيس أول اتحاد نسائي عربي عام، وكانت عادلة بيهم من الموقعين على وثائق تأسيسه.

الاتحاد النسائي السوري برئاسة عادلة بيهم تمكن من لعب دور هام في عام 1945 حين أمن الغذاء لجميع رجال الشرطة والدرك خلال خمسة أيام، بعد أن أمر الجنرال روجيه بقصف مبنى البرلمان بالمدافع. وجهز الاتحاد مشفى ميدانياً لإسعاف جرحى القصف في مدرسة جودت الهاشمي بدمشق. الأمر الذي ساهم مساهمة فعالة في تخفيف عبء القصف الذي طال الأحياء المدنية وخلف عدداً

كبيراً من القتلى والجرحى. وكان لهذا الخطأ الفرنسي دورٌ مهمٌ في تحقيق الجلاء الذي أنجز بعد عامين من هذه الجريمة.

مع الاستقلال اختفت القضية التي كانت تطمس الخلافات لصالح عدو واحد هو الاحتلال. ووجدت النساء اللواتي شاركن الرجال في المرحلة السابقة: النضال ضد الاحتلالين العثماني والفرنسي، أنفسهن مقصيات كما حدث مع النساء في كافة الدول العربية. إلا أن الشعور القومي الطاغي دفع الحركة النسائية في سورية، كما في البلدان الأخرى، إلى التضامن مع الحركات التحررية أينما كانت بالمظاهرات والتنديد وجمع التبرعات النقدية والعينية، ليبدو واضحاً أن عملاً خاصاً بقضايا المرأة صار مطروحاً على جدول الأعمال. فقام الاتحاد النسائي العام بتنظيم مظاهرات عدة ومذكرات إلى الرؤساء المتتالين والنواب والمسؤولين، يطالب فيها بإعادة النظر بقانون الأحوال الشخصية، بهدف تلافي بعض التمييز ضد المرأة الموجود فيه. وخاصة بكسر الاحتكار الذكوري للوظائف في السلطتين القضائية والتنفيذية. وكذلك طالب الاتحاد بمساواة المرأة مع الرجل في الراتب التقاعدي بعد الوفاة. وهو المطلب الذي لم يتحقق حتى وقت متأخر، وبشكل منقوص.

في عام 1948، عام النكبة استنفر الاتحاد النسائي العام برئاسة عادلة بيهم الجزائري قواه كلها لدعم جيش الإنقاذ الذي كان يفترض أن يقوم بالرد على قيام دولة إسرائيل على مساحة تزيد على المساحة التي قررها قرار التقسيم رقم 181 الذي أقرته الأمم المتحدة في 1948. فقدم لباساً كاملاً لثلاثة آلاف متطوع في جيش الإنقاذ، وأمن غذاء وكساء للعديد من النازحين الفلسطينيين الذين وصلوا دمشق، وآوى بعضهم. وفي هذا الوقت شارك الاتحاد النسائي في لجنتي تحرير فلسطين وإنقاذ فلسطين ممثلاً بعادلة بيهم الجزائري.

وفي العام التالي، 1949، شارك وفد الاتحاد النسائي برئاسة عادلة بيهم في المؤتمر الثاني للاتحاد النسائي العربي العام، وفي المؤتمر النسائي الدولي الذي عقد للمرة الأولى في بيروت. كما انتدبت مع سيدتين من الاتحاد لتمثيل سورية في لجنة حقوق المرأة التابعة للأمم المتحدة التي كانت سورية عضواً فيها.

في العام ذاته منحت المرأة في سورية للمرة الأولى حق الانتخاب على أن تكون حاصلة على شهادة التعليم الابتدائي أو ما يعادلها، وأن تخصص للنساء قاعات

خاصة للانتخاب. وهو الأمر الذي لم يكن يناسب مطالب الاتحاد النسائي السوري بالمساواة في الانتخاب والترشيح. إلا أنه دعم هذه الخطوة مع ذلك عبر حملة واسعة النطاق في أحياء دمشق، لتشجيع النساء على المشاركة في التصويت.

ورغم مشاركة سيدتين سوريتين في مجلس الأمة الذي تمت تسمية أعضائه، بدون انتخاب، إثر إعلان الوحدة بين سورية ومصر، إلا أن حق الترشح للنساء تأخر حتى عام 1961 حين صدر مرسوم تشريعي في 1961/10/29 أجاز حق الترشح للمرأة والرجل على قدم المساواة، على أن يكون المرشح قد أتم الثلاثين من العمر ويحسن القراءة والكتابة.

وفي عام 1954 شارك الاتحاد النسائي العربي السوري بالمؤتمر الثالث للاتحاد النسائي العربي العام المنعقد في بيروت. وللمرة الأولى تقدم الاتحاد النسائي السوري باقتراح يقضي بتحديد الملكية الزراعية، فأثار الاقتراح نقاشات واسعة حادة. إلا أن المؤتمر أقر الاقتراح. وكانت عادلة من الأصوات الأولى التي نادت بهذا المطلب الهام، الذي كان قد رفض من البرلمان والحكومة في مشروع اقتراح بتحديد سقف الملكية الزراعية في أيلول 1951 في البرلمان السوري. وتأخر إصدار قانون للإصلاح الزراعي حتى أيلول 1958.

بعد عام على ذلك، في 1955، كانت عادلة بيهم الجزائري عضواً في اللجنة المركزية العليا وفي اللجنة التنفيذية لأسبوع التسلح. وساهم الاتحاد النسائي الذي ترأسه في حملة شعبية لجمع التبرعات.

وفي آذار 1956، تقدم الاتحاد النسائي العربي السوري للمرة الأولى باقتراح إشراك المرأة فعلياً في الدفاع عن الوطن عبر تدريبها تدريباً عسكرياً، وشارك الاتحاد في الاجتماع الدوري لمكتب الاتحاد النسائي العربي العام المنعقد في القاهرة. وكانت سيزا نبراوي (الاسم المعروف للناشطة المصرية زينب محمد مراد) قد رأست قبل أعوام لجنة المقاومة الشعبية (1951) دون أن يعني ذلك اشتراكاً فعلياً للنساء في المقاومة. وأقر المكتب هذا الاقتراح. فحملته عادلة بيهم الجزائري إلى السلطات المختصة في سورية طالبة الموافقة عليه. وبعد أشهر وافقت السلطات السورية على الاقتراح، فتشكلت للمرة الأولى المقاومة الشعبية النسائية

السورية التي انضم إليها عدد كبير من النساء وتدربن على مهارات الدفاع المدني واستخدام الأسلحة الخفيفة.

وفي العام ذاته أيد الاتحاد النسائي تأميم قناة السويس، وفتح حملة تبرعات واسعة لدعم مصر في وجه العدوان الثلاثي. وسلمت الأموال إلى السيد محمود رياض، السفير المصري في دمشق.

وفي أيلول من العام ذاته، 1956، شاركت عادلة بيهم الجزائري، على رأس وفد من الاتحاد النسائي العربي السوري، في حلقة دراسية أقامتها لجنة حقوق المرأة التابعة للأمم المتحدة في موسكو. وكانت الفرصة الأولى للاجتماع مع عدد كبير من الناشطات في القضايا النسوية في أنحاء العالم. فنشط الوفد السوري مع المندوبات الآسيويات والإفريقيات، داعياً إياهن إلى عقد مؤتمر نسائي آسيوي- إفريقي. ولاقت الفكرة صدى جيداً حتى إن مندوبة الهند اقترحت أن يكون الاجتماع الأول في دولة عربية كشكل من أشكال دعم الدولة العربية في مواجهة الضغوط التي تتعرض لها. وما إن عادت عادلة بيهم إلى دمشق، حتى حملت الفكرة إلى السفير المصري السيد محمود رياض، سائلة إمكانية عقد المؤتمر في القاهرة. إلا أن المؤتمر لم ينعقد حتى عام 1961 حيث شاركت فيه عادلة بيهم على رأس الوفد السوري، بعد أن كانت انتخبت في العام السابق 1960، رئيسة للجنة التحضيرية للمؤتمر النسائي الأسيوي- الأفريقي.

في عام 1957 طرحت للمرة الأولى قضايا المرأة، بشكل لا يقبل اللبس، في المؤتمر الرابع للاتحاد النسائي العربي العام، الذي عقد للمرة الأولى بدمشق بدعوة من الاتحاد النسائي العربي السوري. وكان موضوع المؤتمر «وضع المرأة ودورها في الوطن العربي». وشاركت في المؤتمر وفود من الاتحادات النسائية لكل من لبنان والعراق والأردن وفلسطين ومصر والسودان وتونس والمغرب. وانتخبت الوفود عادلة بيهم الجزائري رئيسة للاتحاد النسائي العربي العام. وأقر المؤتمر أن يكون المقر الدائم للاتحاد في دمشق. وبقي فيها حتى عام 1963.

في العامين التاليين توجه نشاط الاتحاد النسائي العربي السوري نحو وضع المرأة السورية ومحاولة تطويره على أرض الواقع. فأقام سلسلة من الدورات بهدف

محو أمية النساء. وأقام مراكز لتقديم خدمات صحية واجتماعية في عدة مناطق بدمشق (البيطارية والهيجانة والغزلانية وسكة في غوطة دمشق). وشاركت عادلة بيهم الجزائري بشكل مباشر في عمل اللجان المختصة.

كما ساهم الاتحاد النسائي العربي السوري بالدعوة النشطة إلى تأييد الوحدة بين سورية ومصر في استفتاء شباط 1958.

في عام 1960 تلقى الاتحاد النسائي العربي السوري دعوتين للمشاركة في العيد الوطني للصين بدعوة من الاتحاد النسائي الصيني، ولزيارة الهند بدعوة من جمعية عموم نساء الهند في دلهي، ولبى الاتحاد الدعوتين بوفدين ترأستهما عادلة بيهم الجزائري.

وفي العام ذاته سمى مؤتمر الاتحاد القومي في القاهرة عادلة بيهم الجزائري رئيسة للجنة النشاط النسائي في الجمهورية العربية المتحدة.

وفي العام 1963، بموجب المرسوم رقم 68، انتقلت مهمة التشريع في سورية إلى المجلس الوطني للثورة. وفي عام 1965 سمى المجلس أعضاءه الخمسة والتسعين التي تضمنت أسماء ثماني سيدات هن: وسيمة سفرجلاني، وسعاد العبد الله، وعائشة الدباغ، وحياة الدواليبي، وفرات طليمات، وشكرية عبد الغني، ونبيلة الرزاز، ونجاح الساعاتي. إلا أن عادلة بيهم الجزائري سميت عضواً في هذا المجلس في العام التالي، 1966. وفي العام ذاته، حضرت المؤتمر السادس للاتحاد النسائي العربي العام في القاهرة.

بعد ذلك بثلاثة أعوام، في 1969، دعيت عادلة بيهم لحضور حفل اليوبيل الذهبي لاشتراك المرأة المصرية في ثورة 1919 بالقاهرة. وكذلك دعيت في 1973 لتأسيس الاتحاد النسائي المصري بالقاهرة.

في العام 1970 انتخبت عادلة بيهم الجزائري رئيسة فخرية للاتحاد النسائي في سورية.

وفي الثالث من كانون الثاني لعام 1975، توفيت عادلة بيهم الجزائري عن خمسة وسبعين عاماً، أمضتها في النضال من أجل مشاركة المرأة السورية أولاً، والعربية ثانياً في قضايا مجتمعاتها. عملت وحثت على العمل ليل نهار في الميادين

الإنسانية ومساعدة الملهوفين، ولم تعرف لنفسها راحة. في حياة صرفتها في الدفاع عن الوطن والمرأة. لتمنح بعد موتها مباشرة، وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة، تقديراً لكفاحها الطويل وخدماتها الجليلة، فقد كانت ضمن مجموعة من النساء الرائدات صاحبات الأيادي البيضاء في تعزيز مشاركة المرأة السورية في الشأن العام، من خلال اهتمامهن المبكر بقضايا المرأة، والبحث في أسباب تغييبها عن واقع الحركة الاجتماعية والسياسية، إلا أنهن لم يحظين بالتوثيق المناسب، فغُمر نشاطهن في سياق نشاط منظماتهن أو أحزابهن. لكن ورغم كل المعوقات والتهميش، استطاعت بعضهن البقاء في ذاكرة التاريخ السوري والعربي، ومنهن على سبيل المثال: لبيبة هاشم، مؤسسة مجلة «فتاة الشرق» عام 1906، أول مجلة نسائية في سورية؛ وماري عجمي صاحبة مجلة «العروس»، الصادرة سنة 1910؛ وثريا الحافظ صاحبة منتدى سكينة الأدبي، الذي استمر من 1953 حتى إغلاقه بأمر عرفي عام 1963، وصاحبة المبادرة الشجاعة بالخروج مع مئة سيدة في مظاهرة رفعن فيها النقاب عن وجوههن، وقد تدرعن بلفيف من الشباب الجامعي، في خطوة تأكيدية لحق المرأة في اختيار زيها. وعادلة بيهم التي حُمل نعشها على أكتاف خريجات دوحة الأدب والاتحاد النسائي السوري واللبناني، بوداع يليق بفارسة خاضت معركتها الاجتماعية والسياسية بعزم عال وصبر طويل ومثابرة نشطة، لتهدي نساء سوريا منجزات سباقة على الصعيد العربي وحتى العالمي.

مصطفى الصواف

تحديث الموسيقى الوطنية

(1902 – 1978)

كان الموسيقي مصطفى الصواف يقوم بتدريس مادة الموسيقا في مدرسة التجهيز الأولى بدمشق (ثانوية جودت الهاشمي حالياً)؛ بعد دراسته الموسيقية في أوربا وعودته عام 1926. وفي إحدى الاستراحات بين الحصص في قاعة المدرسين بالثانوية؛ جرى نقاش بين الأساتذة حول الموادّ الدراسية؛ فعلّق أحد أساتذة اللغة العربية ساخراً من مادة الموسيقا، واستغرب أن تتمّ مساواتها باللغة العربية أو الرياضيات؛ فامتعض مصطفى الصواف من كلام مدرس اللغة العربية، فكان ردّه أن انتسب إلى المدرسة العليا للآداب بدمشق، التي كان قد أسسها حديثاً محمد كرد علي؛ ودرس اللغة العربية، واستطاع الحصول على الإجازة باللغة العربية في ثلاث سنوات بدل أربع وبدرجة امتياز؛ فحمل شهادته وذهب إلى مدرس اللغة العربية الذي سخر من الموسيقا، وقال له: «ها أنا قد حصلت على الشهادة الجامعية في اللغة العربية في ثلاث سنوات وبامتياز؛ فهل تستطيع أنت أن تحصل على الشهادات الموسيقية التي أحملها؟».

جمع الصواف بين الموهبة والدراسة الموسيقية العلمية؛ فهو أول سوري يدرس الموسيقا دراسة أكاديمية في أوربا؛ وهو بذلك أول موسيقي عربي يلحّن للأطفال؛ وتنعقد له الريادة في ذلك بلا منازع.

ولد في دمشق عام 1902، ودرس المرحلة الابتدائية في مدرسة الملك الظاهر بيبرس؛ والمرحلة الإعدادية في مكتب عنبر؛ حيث انتسب إلى الفرقة الموسيقية المدرسية؛ بعد أن تعلم العزف على آلة النفخ الهوائية (الفريرة)؛ وأصبح بعد فترة وجيزة العازف الأول في تلك الفرقة.

بعد إنهاء دراسته في مرحلة التعليم الإعدادي انتقل إلى مدرسة (تعنايل) الزراعية في بيروت؛ وهناك تعلم العزف على آلة الكمان علي يد الموسيقي الأرمني وارطان؛ وأصبح عازف الكمان الأول في فرقة المدرسة الموسيقية؛ وشارك في جميع الحفلات الفنية للمدرسة.

لكن وبسبب انتشار جائحة التيفوس في بيروت قطع دراسته في مدرسة تعنايل؛ وعاد إلى دمشق ليتابع دراسته في المدرسة العثمانية؛ فحصل على شهادة النجاح في قسمي الطب والصيدلة.

في عام 1920، قام العلامة الدكتور رضا سعيد بتأسيس كلية الطب التي كانت نواة جامعة دمشق؛ فانتسب الصواف إليها . وخلال دراسته في كلية الطب تابع دراسته الموسيقية؛ فتعلم النوتة، وتابع تدريباته على آلة الكمان؛ وفي كلية الطب شكل فرقة موسيقية من طلاب الجامعة؛ تولى قيادتها بنفسه.

في تلك الأثناء خضعت سورية للانتداب الفرنسي؛ بعد احتلالها من قبل القوات الفرنسية؛ فساد في أنحاء البلاد جو قاتم؛ وانتشرت موجة من الغليان بين أبناء الشعب؛ ووصل الغليان إلى صدر مصطفى الصواف؛ فقام مدفوعاً بروحه القومية بتلحين نشيد وطني لأول مرة في حياته؛ حيث حمل النشيدُ عداءً سافراً للاستعمار الفرنسي. ويقول في مطلعه:

نحن لا نرضى الحماية
لا .. ولا نرضى الوصاية
نحن أولى بالرعاية
لبني العرب الكرام

قدم الصواف النشيد مع الفرقة الموسيقية الجامعية؛ وعندما بدأت الفرقة بعزف المقدمة الموسيقية الحماسية للنشيد، وقف الضابط الفرنسي الذي يحضر الحفل ظناً منه أنه النشيد السوري؛ ولم يدرك أنّ كلمات النشيد تحمل هجوماً على سلطات الاحتلال؛ ووقف معه الجمهور، ومنهم وزير المعارف ساطع الحصري.

في اليوم التالي استدعى وزير المعارف ساطع الحصري الصواف؛ ليقنعه بضرورة قيامه بدراسة الموسيقا.

وقال له: «يا بنيّ! سوف يتخرج من كلية الطب عدد وفير من الأطباء؛ بينما ما تزال بلادنا مفتقرة وبحاجة إلى موسيقيين حقيقيين أسوة ببلاد الغرب؛ فما رأيك لو أوفدناك في بعثة إلى فرنسا للتخصص في هذا الفن المجهول عندنا؟». فقبل الصواف مباشرة مع الامتنان؛ وترك كلية الطب وهو في السنة الثانية؛ وخلال فترة صدور قرار إيفاده، تم تعيينه مدرساً للموسيقا في مكتب عنبر؛ ولأول مرة بدأ عام 1922 بتدريس النوتة الموسيقية التي تُقرأ بها الألحان.

بدأ الصواف المرحلة الأولى من دراسته الموسيقية في باريس؛ وبالتحديد في كونسرفتوار (ناسيونال دو باري). واستمرت دراسته سنتين. أما المرحلة الثانية، فكانت في المدرسة العليا للموسيقا في مدينة لايبزغ الألمانية، حيث درس آلة البيانو إضافة إلى تعمقه في الكمان، كما تعلم أصول تدريس الموسيقا في المدارس؛ وأساليب تلحين أغاني وأناشيد الأطفال، وبعد انتهاء دراسته عاد إلى دمشق عام 1926؛ وبدأ عمله مدرساً للموسيقا في مدارسها الرسمية؛ وفي نفس الوقت انتسب إلى المدرسة العليا للآداب بدمشق، وتخرج منها بامتياز.

في عام 1928، ساهم بتأسيس النادي الموسيقي السوري؛ وهو أول نادٍ موسيقيّ يؤسَّس في دمشق؛ وكان عضواً في الفرقة الموسيقية للنادي كعازف كمان؛ وكانت الفرقة تضم أيضاً العازفين شفيق شبيب (عود)، توفيق الصباغ، نصوح كيلاني، محي الدين الزعيم، بدر ضباعي (كمان)، عثمان قطرية (قانون)، حسني كنعان ورضا جوخدار (منشدين). وحاول الصواف إدخال التدوين الموسيقي الغربي وأساليب وعلوم الموسيقا الغربية إلى الموسيقا العربية؛ لكنه قوبل برفض قاطع من فخري البارودي؛ فانسحب من النادي، وقام بتأسيس نادٍ آخر باسم (النادي الموسيقي الفني)؛ ضم عدداً من تلامذة الصواف القدامى في مكتب عنبر؛ وفيه طبّق لأول مرة في سورية الأساليب المتبعة في الموسيقا الغربية.

عاش النادي الموسيقيّ الفني عدة سنوات، ثم ما لبث أن أغلق أبوابه، ليقوم الصواف من جديد بتأسيس نادٍ آخر باسم (دار الموسيقا الوطنية للموسيقا والرسم والتمثيل). وانضم إليه نخبة من الفنانين التشكيليين وهواة التمثيل، منهم: عبد الوهاب أبو السعود، والفنان التشكيلي صلاح الناشف شقيق الملحن محمد محسن، ونصير شورى، وعبد العزيز النشواتي. واتخذ النادي مقره في بوابة الصالحية،

وانضمّ إليه عدد كبير من هواة الموسيقا الذين تلقوا دراسة الموسيقا على يد مصطفى الصواف؛ وأدخل الصواف إلى الفرقة الموسيقية العربية لأول مرة عدداً من الآلات الغربية، مثل الغيتار الإسباني والماندولين والبانجو والأوكّرديون.

مع بدء الإذاعة السورية إرسالها في العيد الأول للجلاء 1947؛ انضم الصواف إلى العاملين فيها، وقدم برنامجاً أسبوعياً للأطفال، ضمّ العديد من الأناشيد الوطنية والتربوية التي لحنها؛ وفي مطلع الخمسينات تخلى عن البرنامج، لينتقل الإشراف عليه إلى الشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى).

ومع افتتاح دار المعلمين بعد الجلاء، انتقل للتدريس فيها، إضافة إلى تدريسه الموسيقى في ثانويات دمشق. وعند تأسيس المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون عام 1958؛ كان ضمن أعضاء لجنة الموسيقا فيه التي كانت تضم إضافة إليه فخري البارودي: مجدي العقيلي، إبراهيم الدرويش، فؤاد رجائي، كامل القدسي، هشام الشمعة، حسني الحريري، صلحي الوادي، تيسير عقيل، يحيى السعودي.

وقدم الصواف إلى اللجنة دراسة تضمنت اقتراحاً بتشكيل ثلاث لجان: (لجنة الدراسة الفنية) لتأليف وترجمة الكتب الموسيقية، (لجنة الأجواق الموسيقية) تتولى تكوين الأوركسترا الوطنية مع جلب عازفين متمكنين من الخارج، (لجنة المسرحيات) لتكوين الفرق المسرحية وفرق الأوبرا وفرق رقص الباليه.

وفي عام 1957، شارك مع الفرقة الموسيقية لنادي دار الموسيقا ضمن الوفد السوري بمهرجان الشباب العالمي في موسكو.

استمر الصواف في عطائه الموسيقي في التدريس والفعاليات الموسيقية الأخرى حتى رحيله عام 1978.

كان شديد الحساسية، مما جعله يشعر بالإحباط، فرغم موهبته الموسيقية وثقافته العالية، كان يتقن ثلاث لغات أجنبية هي: التركية والفرنسية والألمانية؛ ويحمل إجازة في اللغة العربية، إضافة إلى دراسته الموسيقية، فقد كان يحبطه دائماً عدم تقدير المسؤولين له؛ وتجاهلهم لجهوده.

من شدة إحباطه حاول إبعاد أبنائه عن السير في طريق الموسيقا الشائكة؛ فقد أنجب خمسة أولاد هم: هيفاء، هاني، هيثم، غازي، هادي، لم يفكر أن يدفع

أحدهم للسير على خطاه؛ بل كان ينصحهم بالابتعاد عن الموسيقا؛ لكنه لم يمنع أولاده من الاهتمام بالموسيقا، وتعلم العزف على إحدى آلاتها على سبيل الهواية.

مؤلفاته وأبحاثه

من خلال عمله التربوي كمدرس لمادة الموسيقا في دور المعلمين وثانويات دمشق، وضع الصواف عدداً من الكتب التعليمية والعلمية الموسيقية لمختلف مراحل التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي ودور المعلمين؛ وهذه الكتب هي:

❖مبادئ علم الموسيقا:

كتاب لطلاب الصف الرابع الابتدائي؛ وضعه بالمشاركة مع حمدي الزركلي، وطبعته المكتبة الهاشمية بدمشق، وتضمن دروساً تعليمية في الموسيقا للمبتدئين. وبلغ عددُ هذه الدروس ثمانية وعشرين درساً، يتعلم الطالب منها السلم الموسيقي ودرجاته وعلاماته وأزمنته؛ والغناء الإفرادي والثنائيّ، وفي الدروس الأخيرة تعريف بالمقامات الموسيقية الغربية الكبرى (الماجور والمينور)؛ والمقامات الفرعية التي تتفرع عنهما؛ حسب الدرجة الموسيقية التي يبدأ منها المقام؛ كما تضمن الكتاب مجموعة من التمارين على دروس الكتاب.

❖ الموسيقا العملية للمدارس الثانوية:

وضعه عام 1950، للصف الأول من المدارس المتوسطة (الإعدادية) ودور المعلمين؛ وصدر عن المطبعة الهاشمية، وتضمن تمارين في الصولفيج الغنائي، ودروساً في التذوق وتدريب الأصوات؛ إضافة إلى تطبيقات عملية على دروس الكتاب؛ وهي عبارة عن أناشيد للأطفال من تلحينه.

❖ موجز في الموسيقا النظرية:

وُضِعَ الكتاب لطلاب المعاهد الموسيقية ودور المعلمين، وصدر عن المكتبة الهاشمية، ولم يحمل غلاف الكتاب تاريخ صدوره؛ وتضمن دروساً في تعليم السلم الموسيقي الغربي وعلومه؛ كالدرجات والعلامات والأزمنة وعلامات التحويل والمقامات.

❖ تاريخ الحياة الموسيقية:

وهو عبارة عن رسالة علمية تتضمّن أهمَّ المصادر والوثائق المتعلقة بنشأة الموسيقا ومراحل تطورها؛ وترجمةً لأعلامها وفق الطريقة التحليلية الحديثة. ويبدأ الكتاب من العصر القديم مروراً بالموسيقا في القرون الوسطى وعصر النهضة وعصر الأوبرا والعصر الكلاسيكي؛ ثم الرومانتيكي، ثم الموسيقا الواقعيّة والرمزيّة، وصولاً إلى العصر الحديث. وكتب نعيم الحمصي مقدمة طويلة للكتاب، تحدث فيها عن دور مصطفى الصواف والرواد الآخرين في خلق نهضة موسيقية وفنية واسعة؛ من خلال الأندية الموسيقية التي أسّسوها.

وتحدث الصواف في توطئته للكتاب عن الأهداف التي توخاها من كتابه؛ ويقع الكتاب في /559/ صفحة، قام بترجمة بعض فصوله، وتولى تأليف فصول أخرى، ولاسيّما تلك المتعلقة بالموسيقا العربية.

❖ **أغاني الديار:**

شارك الصواف في وضع هذا الكتاب مع الشاعرَين أنور العطار وسليم الزركلي.

وجاء تحت العنوان شرحٌ يقول: «أناشيد الوطن في سلمه وحربه وأفراحه ومآسيه». وصدر عام 1949، وقررته وزارة المعارف على المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية ودور المعلمين والمعلمات.

وأكدت مقدمة الكتاب على أهمية النشيد، لاسيما في أيام الحرب والنضال من أجل حرية الوطن؛ حين قالت: «فكان النشيد خير زاد يتزوده الجندي وهو يخوض غمرات القتال؛ يشجعه ويشد أزره....».

وتضمّن الكتاب أربعة من الأناشيد الوطنية الرسمية لأربعة بلدان عربية؛ هي النشيد الجمهوري السوري (حماة الديار)، النشيد الجمهوري اللبناني (كلنا للوطن)، النشيد الملكي المصري (بلادي بلادي فداك دمي) الذي كان النشيد الرسمي لمصر أيام الحكم الملكي، ونشيد (يا فلسطين استجبنا للندا) الذي كان النشيد الرسمي لفلسطين قبل النكبة عام 1948.

كما تضمّن مجموعةً من الأناشيد الوطنية الأخرى مثل (الجندي المجهول)، (ميسلون)، (بلادي)، (الجلاء)، (الشهيد)، (العلَم)، ومجموعة أخرى من الأناشيد التربوية وهي: (الشباب)، (الفتوة)، (نشيد الطلاب)، (فتاة الجيل). وخص دمشق

بثلاثة أناشيد هي (دمشق)، (الغوطة)، (بردى)، ونشيد عن مولد الرسول محمد (ص)، وهذه الأناشيد من تلحين مصطفى الصواف ونظم أنور العطار وسليم الزركلي، وتضمّن أيضاً نشيدي (الغناء العربي) و(العام الجديد) اللذين ذكر الكتاب أنهما تلحين ميشيل الله ويريدي.

❖ **التربية الموسيقية:**

كتاب تعليمي صدر عام 1967، لطلاب دور المعلمين والمعلمات؛ واشترك بتأليفه مع هشام الشمعة وكامل القدسي؛ وضمّ القسم الأول من الكتاب دروساً في القواعد الموسيقية العامة؛ والقراءة الإيقاعية والصولفيج الغنائي؛ إضافة إلى الثقافة الموسيقية العامة، والطرائق الخاصة بتعليم الموسيقا في المرحلة الابتدائية.

وفي القسم الثاني - وهو قسم الأناشيد - نخبة من الأناشيد التربوية والقومية التي تتفق ومستوى طلاب دور المعلمين؛ والأناشيد من تلحين مؤلّفي الكتاب. أما الأناشيد التي لحنها الصواف فهي: (نشيد دار المعلمين) شعر سليم الزركلي، (نشيد دار المعلمات) شعر محمد عبد ربه إبراهيم، (نشيد الجلاء) شعر أنور العطار، (نشيد رددي يا سهول) شعر سليم الزركلي، و(نشيد الأم) الذي لم يُذكر اسم ناظمه.

❖ **الدروس الهارمونية:**

ظلَّ هذا المؤلّفُ مخطوطاً حيث لم تتح للصّوّاف طباعته، ويشرح فيه علم الهارموني الذي يعني التآلف بين الأصوات أو الألحان.

❖ **الدراسة الهارمونية النظرية والعملية:**

قام الصواف بترجمة هذا الكتاب لمؤلفه الموسيقي ريمسكي كورساكوف؛ وقام بمراجعته عند تأليفه عازف الفيولونسيل هاني شموط؛ أحد تلامذة الصواف، ويبحث الكتاب في علم الهارموني، وهذا المؤلف أيضاً مخطوط لم يتح للصواف طباعته.

❖ **ألحانه:**

اقتصرت ألحان الصواف على الأناشيد الوطنية والتربوية للشباب والأطفال. وإضافة إلى الأناشيد التي تضمنتها الكتب السابقة ـ وتحدثنا عنها ـ لحّن مجموعة من الأناشيد؛ ضمّها ملحق لكتاب (مبادئ الموسيقا). وجاء الملحق تحت عنوان (منتخبات الأناشيد الوطنية لأبناء المدارس الابتدائية). وفي الواقع ليست جميع الأناشيد من تلحينه، وإنما بعضها غربية، قام هو بتعريب كلماتها.

وتألف الملحق من قسمين: القسم الأول حمل عنوان (أغاريد الأطفال)، وضم مجموعة من الأناشيد التربوية والمرحة؛ بلغ عددها عشرة. وبعضها تضمن بعض الحكم والحكايات المشهورة، مثل نشيد (الغراب والثعلب) الذي روى حكاية الغراب والثعلب وقطعة الجبن، ونشيد (الراعي الكذّاب) الذي حذر من العواقب الوخيمة للكذب؛ كما حصل مع الراعي الذي ادعى كاذباً هجوم الذئب على أغنامه؛ ونشيد (الصباح) الذي يصف جمال شروق الشمس؛ وكيف تدب الحياة في الأرض بعد سكون الليل؛ ونشيد (السعي والعمل) يدعو إلى الجد والعمل؛ وهو على شكل محاورة غنائية بين طفل ومجموعة أطفال؛ ثم تأتي أناشيد (الولد والعصفور)، (اليتيم)، (الموسيقي الصغير)، (الناعورة)، (الطفل في المهد)، وفي هذا النشيد يطبّق الصواف طريقة (Canon)، بأن يقسم الطلاب المغنين إلى ثلاثة أقسام، يبدأ القسم الأول بالإنشاد، وعندما يصل بالإنشاد إلى نقطة معينة، يبدأ القسم الثاني بالإنشاد من بداية النشيد. وعندما يصل القسم الثاني إلى نفس النقطة السابقة، يبدأ القسم الثالث بالإنشاد. فنحصل على ثلاثة خطوط غنائية. وآخر أناشيد القسم الأول (فتى سوريا)، وفيه يطبق الصواف أيضاً طريقة (Canon) ولكن على صوتين.

القسم الثاني حمل عنوان (الأناشيد الوطنية) لأبناء الصفوف العليا من المدارس الابتدائية؛ وضم هذا القسم سبعة أناشيد هي: (يا بن سورية الفتية) الذي يدعو الشباب إلى العمل، والنشيد نظم مصطفى الصواف، (يا مربض الشم الأسود) نظم جميل سلطان، (الكشاف السوري) نظم بدر الدين الحامد، (نداء الوطن) شعر بدر الدين الحامد، (هبت إلى السعي الطيور) شعر أديب التقي، ولحن هذا النشيد لحن تركي.

ولحّن الصواف أناشيد القسمين عامي 1926 و1927. وبذلك يكون أول من لحن أناشيد وأغنيات الأطفال في الوطن العربي؛ وتعطى أناشيد القسم الأول لتلاميذ الصفين الأول والثاني للسماع فقط، بينما تعطى أناشيد القسمين الأول والثاني لطلاب الصف الرابع لممارسة قراءة النوتة.

ومن ألحانه للشباب إضافة لما ورد في كتبه السابقة نشيد (نحن أبناء الكماة العرب) شعر أحمد الصافي النجفي.

❖مؤلفاته الموسيقية:

أبدع الصواف عدداً قليلاً من المقطوعات الموسيقية التي عرفنا منها (أحلام شاعر)، (الهائمة)، (الربيع)، (مناجاة أوتار)، (ليالي القمر)، (الحرية).

بذلك كله تكتمل المسيرة الموسيقية للموسيقي الكبير مصطفى الصواف التي كان معظمها في التربية الموسيقية التي ملأت عليه حياته مدرساً للموسيقا وباحثاً متعمقاً في مجال تعليم الموسيقا، وملحناً لأناشيد الأطفال، مع فسحة صغيرة للتأليف الموسيقي الذي عبّر فيه عن خصوصيته الموسيقية.

ورحل مصطفى الصواف دون أن يستطيع تنفيذ جميع أفكاره من أجل تحقيق نهضة موسيقية كبيرة، بسبب العقبات الكثيرة التي واجهته.

أحمد بوبس

خالد العظم

أجنحة الديمقراطية

(1903-1965)

كان خالد العظم مسكونا بسورية. وكان رجلا حادّ الذهن، وفي أحيان عرّافة، بيد أن ذكاءه كان عائداً إلى مستوى تفكيره، وهو ما يدعوه شاتوبريان بذكاء عظمة الروح. وهو مسكون بسورية كما شارل ديغول مسكونٌ بفرنسا، وماو بالصين، ونهرو بالهند. بيد أنه يختلف عن الجميع بأنه لم يطبع البلد باسمه، كما فعل الآخرون. وذلك ربما عائد إلى طبيعته. فهو - على عكس القادة الكبار - رجل انطوائي، خجول، شديد الحساسية، يميل إلى العزلة، وربما كان الأجدر به أن يكون شاعرا أو فيلسوفا أكثر منه سياسيا. وهو يذكر بتولستوي أكثر ما يذكر بلينين، وبأندريه مالرو أكثر من الجنرال ديغول، وبمحمد إقبال أكثر من محمد علي جناح.

ولد خالد العظم في 6 تشرين الثاني من عام 1903 في حي سوق ساروجة؛ وحين بلغ سن التعليم كان يخاف الذهاب إلى مدرسته وحيدا؛ فكان على المربية ليس أن تصحبه فقط، ولكن أن تجلس بجواره في الصّف. أمّا المدرسة الابتدائية فلم يستطع تحملها؛ لأنه وجد نفسه وحيداً بين أولاد لا يعرفهم؛ فانتابه وجل سببه – على الأرجح – عدم اعتياده مخالطة الناس؛ ذلك أن أباه كان يمنع عليه مخالطة من كان في سنه؛ ومنعه من ارتياد المقاهي والملاهي ودور السينما؛ فكان أن أمضى معظم وقته في بيته معزولا برفقة معلم خاص؛ كان يغافله ويمضي للعب أو لتناول الشوكولاتة؛ ثم أحضر والده له مربية فرنسية وأخرى سويسرية علمتاه الفرنسية والعلوم وآداب المجتمع.

وما إن بلغ السادسة عشرة حتى عرض عليه أبوه الزواج؛ فتزوج أول مرة من قريبة له تكبره سناً؛ وحضر زفافه (التلبيسة) الأمير فيصل والأمير زيد، والحاكم العسكري رضا باشا الركابي وأركان الحكم آنذاك. وحين دخلت العروس بيته،

وحاولت لصق العجينة بالجدار، وقعت العجينة على الأرض، ثم انقطع السلك الذي يحمل المصباح الكهربائي الكبير الذي كان ينير الحفلة؛ فتشاءَم الخلق، وربما كان تشاؤمهم محقاً، فلم يمض شهران على الزفاف حتى مات والد العريس؛ أما العروس فماتت قبل أقل من سنة، وتُرِك الفتى الخجول المدلل ليكمل طريقه وحيداً. وكان لذلك أثر سيّئ على تركيبته النفسية؛ حيث أمسى منكمشاً على نفسه، شاكّاً: «في الجميع، وفي كل ما يقال، عديم الاعتماد على أحد، سيّئ الظن بأقرب الناس وأخلصهم.» وبينما كان يرى البشر كيف يكوّنون صداقات بيسر وسهولة، كان هو يبقي علاقاته بمن يتعرف عليهم سطحيّة في غالب الأمر، فغلب عليه وصفه بالتكبر والعجرفة؛ في حين أن الأمر لم يكن أكثر من طبع خجول انعكس في كونه رجلاً (غير أليف) لا يحب رفع الكلفة بينه وبين الآخرين؛ وكان لا يحبذ أن يكون محط الأنظار، ويستحي من احتلال مكان الصدارة في مجلس؛ وكثيرا ما كان يذهب إلى صالة السينما لمشاهدة فيلم، فيدخل بعد أن تُطفأ الأنوار، لكي لا يميزه أحد.

ومرجع ذلك كله هو أبوه محمد فوزي باشا العظم الذي كان واحدا من أهم وجهاء دمشق وبلاد الشام؛ وكان نائبا في مجلس المبعوثان العثماني لأكثر من مرة؛ كما كان وزيرا في حكومة الصدر الأعظم مختار باشا. وله الفضل في الضغط السياسي الذي دفع بالحكومة المركزية إلى طرد جمال باشا السفاح من ولاية الشام؛ وجرّ مياه عين الفيجة بقساطل الفولاذ إلى منازل دمشق، وبعد انسحاب العثمانيين وقيام الحكم الوطني نافس قائمة (رجال الغيب) بقيادة شكري القوتلي وجميل مردم التي كان يؤيدها الأمير فيصل والقائد رضا الركابي بقائمة وطنية؛ وفاز في الانتخابات، ثم نافس الرئيس هاشم الأتاسي، زعيم سورية الأول، على رئاسة المؤتمر الوطني السوري، وفاز برئاسة المؤتمر حتى وفاته.

هذه الشخصية الكبيرة تركت ظلالها على الصبي الصغير والفتى الذي تزوج في السادسة عشرة؛ وفقد أباه وزوجته في سنة واحدة. ولعل تربيته صبياً لعبت دوراً في تعقيد شخصيته؛ فهو مفكر اقتصادي وزعيم سياسي، بيد أنه طالما افتقر إلى الحزم والشجاعة، ولم يعرف التهوّر في حياته، وغالبا ما فضل الحلول الدبلوماسية على الحلول الراديكالية؛ ونستطيع القول إنه كان يفتقر إلى الشجاعة

الشخصية والإقدام. وقعت أخته مرة في بحيرة قرب بيته في تركيا؛ وكان يلعب معها ومع ابن خالة له؛ وعندما رآها تغوص في الماء ولم يعد يظهر لها أثر؛ تولاه الخوف فقفز هاربا إلى البيت؛ وكان من الممكن أن يفقدها إلى الأبد، لولا أن ابن خالته تملك جأشه، وظل واقفا قرب البحيرة، حتى رآها تطفو، فحاول إخراجها بخشبة ففشل، ثم ناداه ليساعده فعاد خالد من البيت؛ وتعاون الولدان على إنقاذ الصبية. غير أنه لم يقل الحقيقة لأخته وظل يمننها بأنه هو الذي أنقذ حياتها.

عندما اندلعت ثورة 1925 هرب إلى مصر، حيث أقام هناك أربعة أشهر حتى خفت حدة الثورة؛ فرجع إلى دمشق، وعندما استلم العسكر مقادير الأمور في البلاد منذ الثلاثين من آذار سنة 1949، لم يواجههم بشكل مباشر، وإن عمل كل جهد مستطاع ليحد من تأثيرهم السلبي ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

على أنه كان شديد الذكاء والحساسية، وكان يتمتع بحس قيادي مرهف، تميز مبكراً، مثلاً بإصدار جريدة كان يحررها مع ثلاثة من صحبه في المدرسة الابتدائية؛ ويوزعها على أربعة أشخاص هم في الواقع آباء أعضاء هيئة التحرير. ولم يكتف خالد الصغير بكتابة القصص على الورقة مباشرة؛ بل كان يطبعها على الجيلاتين، بقياس 22 × 30 سم. وهو يصف ذلك فيقول«وكنا نتقاضى بدل الاشتراك (حسب مقدرة المشترك المالية؛ ونعنى بالتحرير والطبع، ونقضي أوقات فراغنا في هذه المهنة، حتى يأتي يوم الإصدار الأسبوعي.» وهكذا لم يقض خالد وقته يلعب كرة الجوارب في الشارع؛ بل قاد فريقا من ثلاثة أصحاب لإصدار مجلة.

❖ ❖ ❖

عاش خالد العظم طفولته وصباه وشبابه في دمشق وبيروت وإستنبول؛ وحين عاد إلى دمشق أخيرا بعد غياب دام سنتين منذ اندلاع ثورة 1925، قرر أن يبدأ حياته في الحقل الاقتصادي؛ ولكنه فشل في تجنب الحقل العام الذي كان نوعاً من الإرث الذي ورثه عن مركز والده الرفيع.

وفي 1927 ارتبط اسمه بحدثين مهمين: الأول مساهمته في تأسيس النادي السوري ـ الفرنسي سوية مع رئيس الجمهورية المقبل محمد علي العابد؛ وأمين العاصمة واثق العظم. والحدث الثاني تأسيس غرفة للزراعة، فلقد أدى المسعى

الذي قام به العظم الشاب لدى رئيس الحكومة آنذاك الداماد أحمد نامي بك؛ إلى الحصول على موافقته على تأسيس غرفة زراعية؛ تعنى بشؤون المزارعين. وشغل العظم منصب أمين السر فيها، وكان العمود الرئيسي في أداء أعمالها، ولاسيّما عقدها مؤتمراً زراعياً هو الأول في تاريخ سورية.

إلى ذلك، وعندما كان عضواً في مجلس بلدية دمشق، كان أحد الساعين وراء بناء مدينة حديثة الطراز نظيفة متألقة. وكان المجلس البلدي هو الذي استدعى المهندس التخطيطي الشهير دانجه ومعه المهندس إيكوشار، اللذين ارتبط اسماهما بجمال مدينة دمشق قبل الفوضى المعمارية التي اجتاحت المدينة بعد الستينات؛ فهما اللذان وضعا المخطط العام للمدينة؛ وبفضل مخطط دانجه، أصبحت دمشق المدينة الجميلة التي ظلت على جمالها حتى نهاية الستينات؛ تزهو بأحيائها الحديثة، وبحدائقها العامة، وبحسن تنسيق شوارعها، والأشجار المغروسة على جوانبها. على أنّ مأثرته في بلدية دمشق هي إصراره على الوقوف في وجه الحاكم الإداري واثق المؤيد الذي كان يريد بالاتفاق مع الفرنسيين تزوير الانتخابات النيابية عام 1932، ذلك أن الانتخابات كانت تجرى بإشراف المجلس البلدي وقتذاك. وهو يقول في ذلك: «كنت في الواقع أشعر بأنني لا أقوم بأي عمل لخدمة بلدي؛ ولا أشارك المجاهدين والعاملين في سبيله، فأحببت أن أدخل المعترك، ووجدت تلك المناسبة فرصة قيمة: «تلك إذن أولى الصدامات بين العظم والسلطات الفرنسية. وهي على أية حال لم تكن كثيرة.

غير أنه لم يترك نشاطه الاقتصادي، إذ أنه كان مساهما كبيرا في شركة لصنع الإسمنت؛ وكان مديرها العام لفترة من الزمن. وهو لم يستثمر أمواله في مشاريع تدر عليه ربحا سريعاً؛ وإنما ساهم دائماً في تأسيس منشآت تعتبر بمعايير ذاك الزمان مؤسسات عملاقة بالنسبة للقطاع الخاص.

أخذ من إدارته لشركة الإسمنت خبرة في الإدارة ووعياً اقتصادياً؛ استثمره فيما بعد في إدارة الدولة. كما أنه سافر مراراً إلى أوروبا لشراء آلات؛ والبحث في عقود جديدة، مما أكسبه أيضاً وعياً في العالم من حوله؛ ولم تكتف حدود ثقافته بحدود الثقافة العثمانية التي تلقاها في طفولته ومطلع صباه؛ ولقد استهلك العمل

الخاص من وقته بضعا من سنوات الثلاثينات التي كانت موّارة بالعمل الوطني؛ ففيها تم انتخاب مجلس نواب، وفيها حل، وفيها وصلت النازية إلى الحكم في ألمانيا؛ ووصلت حكومة اشتراكية إلى الحكم في فرنسا؛ ووقعت فرنسا معاهدة الاستقلال مع الحكومة السورية ثمّ نقضتها. فقد كان يكرّس جل وقته في توسيع معمل الإسمنت؛ عندما زاره السيد نجيب الأرمنازي مدير مكتب رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي؛ وعرض عليه أن يكون وزيراً في حكومة جديدة سيشكلها السيد نصوح البخاري؛ فأثنى العظم على اختيار البخاري للمنصب؛ ولكنه فوجئ بعرض حقيبة وزارية عليه؛ وقال للأرمنازي إنه منشغل الآن بتوسيع معمل الإسمنت؛ وليس لديه وقت للعمل السياسي. بيد أن الرئيس الأتاسي أصرّ على عرضه له، وزاره كذلك الرئيس المكلّف نصوح البخاري، ليقنعه بالاشتراك بحكومة وصفها العظم فيما بعد بالنزاهة والحزم؛ وهكذا صار العظم لأول مرة وزيراً؛ بينما كان لا يتجاوز السادسة والثلاثين من العمر. على أن وزارته لم تتجاوز بضعة أسابيع، إذ وصلت حكومة البخاري إلى طريق مسدود مع المفوض السامي الفرنسي، الذي كان يريد النكوص عن معاهدة 1936؛ ورفض البخاري إضافة أي ملحق للمعاهدة يغير من مضمونها الذي يصفه هو بأنه لم يكن «شيئاً يبكى عليه.» فاستقالت الحكومة وفشل الأتاسي في تشكيل حكومة جديدة واستحصل المفوض السامي على صلاحيات مطلقة لإدارة سورية؛ وأُعلن فك ارتباط لواء اسكندرونة وجبل الدروز عن الحكومة السورية؛ فاستقال الأتاسي، وأوقفت الحياة النيابيّة، وشُكّلت حكومة إدارة محليّة لتسيير أمور البلاد.

في هذه الظروف الحرجة التي كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم؛ عُرض على خالد العظم أن يشكل حكومة جديدة؛ ليغدو في موقف لا يحسد عليه. فمن جانب سيكون تشكيل حكومة مدنية إنهاء لحكم الفرنسيين المباشر؛ وحكومة المديرين، وانتهاء الحكم إلى أمثال تاج الدين الحسيني أو بهيج الخطيب؛ ومن جانب آخر فإن التاريخ لن ينسى أنه قبل برئاسة الحكومة دون إعادة الحياة الدستورية إلى البلاد؛ فهل تحسم المسألة بزيارة للرئيس المستقيل؟ يركب خالد العظم سيارته، ويتجه إلى حمص، ويناقشه في الأمر حتى يحصل على مباركته؛ بيد أن القوتلي وأعضاء الكتلة الوطنية في دمشق يعملون لإفشال مشروعه (تشكيل حكومة وطنية). ورغم

أن العظم لم يكن يحب المواجهة، ويرجح المسالمة في كل أمر، حتى لو أدى هذا الأمر إلى خسارته، فإنه يقرر العزم على المضي في طريقه؛ ومواجهة الجماعة التي يقولُ عنها إنها وقفت في وجه ترشيحه للنيابة سنة 36؛ وأبعدته عن كل شأن عام خوفاً من منافسته لها وتفوقه عليها؛ وشجعه على موقفه دعم الرئيس الأتاسي والسيد فارس الخوري؛ فشكل أول حكومة برئاسته، وضمت محسن البرازي وحنين صحناوي ونسيب البري وصفوت قطرأغاسي.

وبذلك انضم خالد إلى القافلة العريقة من حكام سورية من آل العظم؛ وستكون تلك أول حكومة من خمس حكومات يشكلها طوال حياته السياسية؛ والغريب أن رئاسته للوزارة كانت غالباً ما تنتهي بكارثة أو ثورة أو حرب؛ ففي 1941 قامت الحرب بين الديغوليين والفيشيين، وانتهت وزارته الثانية بانقلاب حسني الزعيم ودخوله السجن؛ وآلت وزارته الرابعة إلى استيلاء الشيشكلي على مقاليد الأمور؛ أما وزارته الأخيرة فانتهت بانقلاب 8 آذار 1963.

خلال وزارته الأولى استطاع العظم على امتداد 165 يوما أن يحقق الكثير للسوريين؛ إن لم يكن سياسياً فعلى صعيد الحياة المعيشية والاقتصادية؛ وكان أهم ما قامت به حكومته هو حق تسيير أمور الإعاشة التي كانت حكراً على الفرنسيين؛ وتخفيض سعر الطحين باستصدار قرار يجيز للحكومة إدارة مطاحن الحبوب الخاصة؛ وأطلق سراح جميع المعتقلين السياسيين. بيد أن مأثرته الكبرى كانت في تعامله مع واحد من أصعب الأوضاع التي مرت بها سورية قبل الاستقلال: اجتياح القوات البريطانية والديغولية لسورية. وتبرز هنا حكمة هذا الشاب الذي لم يصل إلى الأربعين بعد في إدارة الأوضاع محاولاً أن يجنب دمشق أي خسارة محتملة؛ إذ استطاع أن ينتزع من المفوض السامي صلاحيات استثنائية استخدمها في تجنيب دمشق قصفاً بريطانياً كان يمكن أن يكون مدمّراً، ولكنه تجاوز المحن بأقل الخسائر، وتوج نجاحه بجلسة حوار طويلة مع الجنرال المنتصر شارل ديغول، طالبه فيها بإعادة الحياة الدستورية؛ وإعادة الأتاسي إلى الحكم، وبُهت ديغول بهذا الشاب الذي يطلب الحكم لغيره ولا يطلب شيئاً لنفسه.

وحين أحس بأنه أدى دوره، تنحى عن رئاسة الوزارة. وأراد أيضا أن ينسحب من الشأن العام، لينال قسطاً من الراحة، فلم يسجل اسمه لانتخابات 1943، لولا إلحاح السيد صبري العسلي عليه في الساعة الأخيرة قبل إغلاق الباب أمام الترشيح؛ وانضم إلى قائمة الرئيس شكري القوتلي فقط لتبدأ بين الرجلين علاقة فذة من الاختلاف الدائم والاحترام المتبادل؛ لم يكن القوتلي يروق للعظم، ورغم أن والده طلب إليه أن يعزز صداقته معه عندما كان فتى صغيراً؛ ورغم احترامه الكبير لأبيه فإنه لم يستطع أن يستلطف الرجل. ولعل العظم كان محقاً، لأنّ القوتلي قيادية طاغية جاءت من قلب (الشاغور)، الحي الدمشقي الوطني العريق؛ فالأقرب إلى الهوج والحدة ما كان لِيَأتلفُ مع شاب مثقف مرهف الحس، غربي الثقافة، قادم من حي ساروجة، مثل خالد العظم. ومع ذلك فإن القوتلي كان يحترم ذكاء العظم وثقافته؛ بينما كان العظم يكبر فيه روحه الكفاحية العالية، وينسب إليه بدون تردد فضل تحقيق جلاء القوات الأجنبية وتحقيق الاستقلال الناجز الذي لا تحده معاهدة أو محالفة مع أية دولة أجنبية.

والحق أن العظم كان موضوعياً إزاء خصومه؛ فلطالما أبدى خلافه مع طريقة الكتلة الوطنية في السياسة وإدارة الحكم؛ ومع ذلك فقد كان له رأي إيجابي بفارس الخوري وسعد الله الجابري وجميل مردم وغيرهم، وإن كان لا يجاملهم في مواطن ضعفهم؛ فالقوتلي فردي يستأثر برأيه، ويريد فرضه على الجميع، والخوري كان رجل دولة خبيراً ولكنه لا يملك جأشه في الأزمات؛ أما الجابري فشجاع لا يهاب الإقدام على شيء فيه صلاح البلد؛ وأما صبري العسلي فقد وصفه بالوطنيّة والحزم والوفاء وسعة التفكير.

مسيرة العظم والقوتلي أسفرت دائما عن منصب وزاري كان العظم يشغله في معظم حكومات الرئيس القوتلي؛ فشغل حقيبة المالية والاقتصاد والعدلية والإعاشة والخارجية والدفاع، وكان في كل واحدة يقدم عملاً يقرن باسمه: ففي المالية قام بسياسة إصلاح النقد وفصل المؤسسات المالية السورية عن الفرنسية؛ وفي وزارة الإعاشة أصدر قانوناً يضرب على يد المتلاعبين بالموادّ الغذائية وبرفع الأسعار؛ وأنشأ مستودعات ضخمة لتخزين الحبوب؛ وفي وزارة

العدلية ألغى المحاكم المختلطة التي كانت تعطي للأجانب وضعاً خاصاً عند ارتكاب جرم على الأراضي السورية.

ولعلّه من حسن حظه أنه كان وزيراً مفوضاً لسوريا في باريس أثناء اندلاع حرب فلسطين؛ كما أنه من حسن حظ السوريين أنّه ترأّس الحكومة بعد الهزيمة؛ فسار بالبلد بهدوء وروية ليبتعد بها عن الآثار السلبية التي خلفتها هزيمة العرب وخسارة فلسطين.

❖ ❖ ❖

في نهاية 1948، واجه الرئيس شكري القوتلي أزمة حكومية حادة؛ أجبرته على أن يختار شخصية غير حزبية ليشكل الحكومة؛ كان القوتلي يعاني من عقابيل تمديد رئاسته دورة ثانية، بخلاف الدستور. ولعله - كما يرى بعض المؤرخين - كان يريد تمرير اتفاق مدّ خطوط النفط السعودي إلى سورية على يد شخصية مستقلة نزيهة، لا يطالها الشك بإيثار مصلحة خاصة على مصلحة البلد؛ فاستدعى خالد العظم الذي كان هو نفسه قد أبعده إلى باريس ليكون وزيراً مفوضاً هناك. وشكل العظم ثاني حكومة في حياته السياسية؛ بعد أن تجاوز عدة صعوبات كادت أن تدفعه للاعتذار والعودة إلى باريس؛ وإرسال رسالة اعتذاره من هناك، ولكنه قرر المواجهة، وحصل على تأييد مطلق من الرئيس، واتفق الطرفان على مواجهة الخطر الهاشمي الآتي من العراق؛ ومواجهة الدولة اليهودية التي انزرعت إلى الجنوب من الحدود.

بالنسبة للعظم كانت سورية درة تاجه؛ وكان الدفاع عن استقلالها وتنميتها وتطويرها أسمى غاياته؛ وكان يرى أن بديله للحكم المطروح عادل عسيران لن يكون قادراً على مواجهة هذه التحديات السياسية والاقتصادية؛ فقرر الاستمرار وتشكيل الحكومة.

وكانت الأيام والسنون قد زادت خبرته في مجال العمل البرلماني والحكومي؛ وخففت من حدته وخشونته اللتين كانتا تميزان حياته النيابية الأولى؛ عندما كان يرد بقسوة، أو يغادر الجلسة كلما أحس سوء نية من أحد النواب؛ غير أن خبرة السنين وإقامته في باريس، حيث حضر الكثير من جلسات النقاش في البرلمان

الفرنسي أكسبتاه خبرة ومراناً أفاد منهما في حكوماته التي شكلها من 48 إلى 51، وفي مناصبه الوزارية الأخرى.

كان أهم ما أنجزته هذه الحكومة هو الاتفاق النقدي المعقود مع فرنسا؛ وعرضه على مجلس الشعب، ومعالجة النتائج الكارثية لخسارة فلسطين؛ وموضوع الخبز. وكما سنرى، فإن كل حكومات العظم كانت تركز على الإصلاحات الاقتصادية والتنمية والاستقلال؛ وتكريس مفهوم سورية باعتباره وطن السوريين؛ وليس جزءا من وطن آخر.

على أن العظم لم ينتبه وهو يوجه كل جهده إلى إصلاح النقد إلى الخطر القادم من خاصرته؛ وهو خطر الجيش. ففي صباح أحد أيام آذار 1949 قرر شكري القوتلي أن يحضر تجربة الذخائر التي اشتراها الجيش مؤخراً في سهل المزة؛ وصحبه في ذلك خالد العظم رئيس الوزراء ووزير الدفاع. واستقبلهما رئيس أركان الجيش الزعيم حسني الزعيم، ليفاجأ الرئيسان بأن الذخائر فاسدة، وأن الطعام الذي كان يُقدم للجنود كان فاسداً أيضاً؛ وهنا ارتكب الرئيسان خطيئتين بحق العسكر: فأما القوّتلي فقد صفع عقيداً بالجيش؛ وأما العظم فقد أحال العقيد البستاني الذي كان مسؤولاً عن المشتريات في الجيش إلى المحاكمة. وستكشف المحاكمة أن العقيد البستاني لم يكن وحده في الصفقات الفاسدة؛ مما دفع الجيش بقيادة الزعيم حسني الزعيم للاستيلاء على الحكم وإعلان البيان رقم 1، ليفتتح عهداً من الانقلابات العسكرية السورية التي وأدت الديموقراطية السورية في مهدها.

وفي حوالي الساعة الثانية من صبيحة يوم 30 آذار اقتحم ثلاثة من الجنود منزل خالد العظم؛ واقتادوه بقوة السلاح إلى سجن المزة؛ حافي القدمين حاسر الرأس بدون نظارتيه اللتين كان لا يستطيع الرؤية بدونهما؛ وليس عليه سوى بيجامته التي كان ينام فيها. اقتاده العسكر إلى سجن المزة، حيث وضع في زنزانة ترابية مستطيلة ضيقة؛ فيها فتحة لمرحاض تنبعث منها رائحة كريهة. وقال العظم لنفسه: «إذن هذه هي السلول.» لم يكن العظم قد أمر بسجن أحد في حياته؛ وعندما كان بإمكانه كان أقرب إلى العفو، وهو الذي سوف يعفو بعد

سنوات عن عدنان الأتاسي فيخفف حكم الإعدام عنه. أحس العظم بالبرد الشديد والوحدة والخوف والعطش؛ وافتقد نظارته التي لا يستطيع الرؤية بدونها؛ ثم تذكر الحدود الجنوبية والجيش الإسرائيلي ومشروع الهدنة ومطامع الهاشميين في سورية؛ فوقع في بلبلة وخوف على نفسه وعلى بلده. ولم يكن العظم من النوع الذي يتمتع بقوة الأعصاب في حالات مماثلة؛ لذلك عندما زاره اثنان من أقربائه انخرط في بكاء مرير؛ وفي اليوم التالي نُقل إلى المستشفى العسكري حيث وُضِع مع الرئيس في غرفة واحدة؛ ثم عزل عنه، وغُيِّرت نوعية الطعام المقدمة إليه، ونزعت منه الكتب التي أعطيها بعد أن ردوا نظارته إليه؛ فأضرب عن الطعام حتى أعيدت إليه أشياؤه. وفي هذا الوقت كان القوتلي يبدي بسالة عجيبة في رفضه الاستقالة، وفي كيله سيلاً من الشتائم والسباب على قائد الانقلاب ومن شايعه؛ وفي 7 نيسان وافق على تقديم استقالته، فكتب سطراً واحداً: «أعلن استقالتي من رئاسة الحكومة السورية.» وسوف يعاود العظم البكاءَ عندما يُعتقَلُ مرة ثانية بعد ثلاث عشرة سنة، إثر انقلاب 28 آذار 1962.

هل كانت الأسلحة والأغذية الفاسدة هي السبب الوحيد وراء انقلاب الزعيم؟ أم أن هنالك أسباب أخرى من ولدنة السياسيين؛ وتراجع الأداء الوطني وهزيمة العرب في فلسطين؟ ربما كان العاملان معاً. بيد أن انقلاب الزعيم سوف يئد الديموقراطية السورية الوليدة.

أطيح بالزعيم، وانتخبت جمعية تأسيسيّة صاغت دستور 1950، وأُنتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية؛ وأراد رجلا مستقلاً قادراً على قيادة البلاد سياسيّاً واقتصادياً؛ لإخراجها من دور العنف والركود الذي مرت به؛ فلم يجد خيراً من خالد العظم. وهكذا شكل العظم بين 1950 و1951 وزارتين كانتا برأي الكثيرين من أهم المراحل السياسية التي عززت استقلال سورية السياسي والاقتصادي؛ وفيهما قام العظم باستكمال سياسة الإصلاح النقدي؛ وفصل الجمارك السورية ـ اللبنانية، وأغلق الحدود مع لبنان، وبدأ ببناء مرفأ اللاذقية وسكة الحديد الحجازية؛ وغيرها من المشاريع التي أعطت سورية وجهها المستقل.

يُذكر أنه في أواخر عام 1949، تسلم خالد العظم رئاسة الحكومة في الجمهورية السورية؛ وكانت العلاقات مع الحكومة اللبنانية بين شد وجذب منذ حصول كلا البلدين على استقلاهما قبل ست سنوات؛ وسبب توتر العلاقات كان شعور السوريين بالغبن من هيمنة الرأسمال اللبناني على الاقتصاد في سورية ولبنان معاً؛ وذلك بسبب الوحدة الجمركية بين البلدين؛ فقد كانت الجمارك المشتركة مرؤوسة دائماً من قبل مدير لبناني؛ وكانت الحكومة اللبنانية ترفض تداول رئاسة الهيئة بين البلدين.

وغالباً ما كان المدير اللبناني يتجاهل مصلحة السوريين في عملية الاستيراد والتصدير؛ ولأن المرفأ المشترك كان في بيروت؛ ولأن سورية لم تكن تملك مرفأً مستقلاً، كان اللبنانيون أقدر على التحكم بهذه العملية التي غالباً ما تترك أثرها على اقتصاد الدولتين معاً، لاسيّما أن اللبنانيين كانوا يتمتعون بميزة حصرية الوكالات الأجنبية لكل من سورية ولبنان. وارتأى العظم أن من العدل أن يتم تعميم الخير على الشعبين السوري واللبناني؛ طالما أنهما يملكان إدارة جمركية موحدة، وطالما أن البرجوازية اللبنانية تلعب دورها بالأصالة عن نفسها والنيابة عن شقيقتها السورية. ومن هنا كانت فكرة العظم قيام وحدة اقتصادية بين البلدين؛ ولتحقيق ذلك طلب من وزير اقتصاده معروف الدواليبي أن يجتمع مع قادة الرأي الاقتصادي في سورية لأخذ رأيهم؛ وبالفعل اجتمع الدواليبي مع خبراء اقتصاديين ومع ممثلي الغرف التجارية والصناعية لمدة أيام في جامعة دمشق؛ ووصل الجميع إلى رأي موحد: إمّا وحدة اقتصادية ونقدية يخلص لها البلدان؛ وإمّا انفصال عاجل يكون فيه كل من البلدين حراً في إتباع السبيل الذي يناسبه.

وقرر العظم أن يرسل إلى الحكومة اللبنانية مذكرة يعرض عليها فيها رأي حكومته في مسألة الوحدة الاقتصادية؛ ويطلب من نظيره اللبناني - رياض الصلح - الرد في مهلة معقولة؛ وشرح العظم في مذكرته أن من أسباب الضعف والاضطراب اللذين منيت بهما المصالح المشتركة ارتكازها على اتفاقات مؤقتة قصيرة الأمد محدودة النطاق؛ وسعي الحكومتين عند أيّ خلاف إلى حلول مؤقتة جزئية للقضايا الأساسية والطارئة. وجاء رد الرئيس الصلح سلبياً ملاحظاً أن حكومته لا يسعها التسليم بمحتوى المذكرة السورية التي وصفها بأنها اتخذت شكل (إنذار).

وفي اليوم التالي استصدرت حكومة العظم مرسوما بفصل الجمارك السورية عن اللبنانية، وتأسيس مديرية عامة للجمارك مرتبطة بوزارة المالية.

ولتعزيز الموقف السوري قرّرت حكومة العظم أيضا إصلاحات نقدية جذرية بتطبيق أنظمة القطع على العمليات التجارية بين سورية ولبنان؛ وعدم السماح بتدفق القطع السوري إلى لبنان؛ لتبديله بالليرة اللبنانية لتسديد قيمة البضائع التي تشتريها سورية، وهو ما أدى إلى هبوط الليرة السورية وارتفاع قيمة الليرة اللبنانية.

ثم قررت الحكومة منع نقل البضائع من لبنان إلى سورية؛ باستثناء البضائع العابرة (الترانزيت) والبضائع المعفاة من الجمارك والمحروقات؛ وصدر ذلك بالمرسوم التشريعي رقم 71 لعام 1950.

وكانت أول خطوة قام بها الرئيس العظم بعد توقيع الرئيس هاشم الأتاسي على المرسوم هو لقاء السيد رشدي الكيخيا رئيس مجلس النواب؛ لإطلاعه على المرسوم، ومن ثم لقاء الصحافيين وإبلاغهم نص القرار ومضمونه، فلقي منهم دعماً غير مسبوق.

يقول العظم في مذكراته: «إن تأييد هذا القرار كان شاملاً جميع أنحاء البلاد وجميع عناصرها.» وهو يعزو سبب الارتياح إلى أن الشراكة الجمركية كانت قد «عادت بالخسارة على البلاد»، واستبشر السوريون بإلغاء الوساطة التجارية اللبنانية في جميع المستوردات السورية من الخارج؛ وتحمس الصناعيون لمنع مزاحمة الصناعة اللبنانية لمنتجاتهم، وهي مزاحمة كادت تؤدي إلى إفلاس بعضهم.

كان قرار العظم ضربة كبيرة للاقتصاد اللبناني ولمكانة الرئيس الصلح السياسية؛ غير أن العظم لم يكن يريد ذلك، لاسيّما أنه كان دائماً معجباً بتوجه الصلح القومي؛ لذلك حين أرسل الأخير وسيطاً يطلب من خلاله أن يقوم العظم بزيارته في بيروت؛ سارع المنتصر السوري إلى تلبية الطلب، وزار بيروت، وتحدث مع الرئيسين الخوري والصلح، وأكد لهما أنه قدم إلى بيروت «لكي يعلم الرأي العام السوري واللبناني والعربي أننا وإن اختلفنا في الشؤون الاقتصادية؛ فإن اتّحادنا في الشؤون السياسية العربية وطيد لا يتزعزع».

ويبدو الآن أن قرار العظم حقق منافع لا تحصى للسورين عموماً، فبدأ السوريون، حتى اللذين لم يتعاطوا التجارة في سابق حياتهم، يبذلون جهداً واسعاً في التجارة الدولية، وراحوا - وفقاً لسجلات غرف التجارة السورية - يستحصلون على وكالات الشركات الأجنبية في سورية؛ ويستجلبون البضائع الأجنبية إلى سورية مباشرة؛ بعد أن كانت تأتي عن طريق التاجر اللبناني حصراً.

يقول العظم في مذكراته: «إن أهل دمشق حفظوا له في قلوبهم منة لتحقيق ما عاد عليهم جميعا بالوفر والربح والعمل.» ويبدو أن الدمشقيين أظهروا له هذه المنة في الانتخابين التشريعيين في 1954 و1961؛ حين فاز العظم بأعلى نسبة من الأصوات؛ وتفوق على مرشحي الحزبين الكبيرين آنذاك: الشعب والوطني، وجماعة الإخوان المسلمين، والأحزاب التقدمية كحزب البعث والشيوعي.

يمكننا هنا أن نميز دور رجل الدولة الليبرالي القوي بسلسلة من السمات. أولاً: كان من المؤكد أن قرار الرئيس العظم يومذاك قراراً اقتصادياً محضاً؛ وليس ردة فعل سياسية على موقف سياسي قامت به الحكومة اللبنانية أو الشعب اللبناني.

ثانياً: حين دار بخلد الرئيس العظم فكرة إنهاء الوحدة الجمركية؛ كان أول شيء فعله أن استدعى عدداً كبيراً من قادة الرأي الاقتصادي؛ ليشاورهم في الأمر، ويرى حسنات مثل هذا القرار وسلبياته على سورية والسوريين عموماً.

ثالثاً: تمّت دراسة القرار في مجلس الوزراء، ثم صادق عليه رئيس الدولة، وتم إطلاع رئيس البرلمان عليه.

رابعاً: سارع رئيس الحكومة إلى الاتصال بالصحفيين لإبلاغهم بالقرار؛ وشرح أبعاده لهم، ولم يتركهم يتحزرون فيما إذا كان هنالك قرار سياسي بهذا الخصوص أم أن الأمور خطوة مزاجية اتخذتها جهة ما.

خامساً: سارع العظم إلى زيارة بيروت واللقاء مع الرئيسين الخوري والصلح؛ لإيضاح الأمر، ولإفهام الرأي العامّ في سورية ولبنان أن الموضوع اقتصادي بحت؛ وليس له أي بعد سياسي، وكرر الشيء نفسه في اجتماع الجامعة العربية في القاهرة.

سادساً: أُغلقت الحدود في وجه الشاحنات اللبنانية التي كانت متجهة للتفريغ في سورية فقط ولم تمنع الشاحنات العابرة (الترانزيت).

والأهمّ من كل ذلك، فقد كانت خطة العظم خطة اقتصادية متشابكة ومتكاملة. ولقد ارتبطت قضية الفصل الجمركي مع ثورتين حقيقيتين قام بهما رئيس الحكومة؛ هما: إصلاح النقد، وإنشاء مرفأ اللاذقية.

على صعيد إصلاح النقد أصدرت حكومة خالد العظم سلسلة من القرارات والتشريعات، كانت في جملتها تهدف إلى إلغاء حق المصرف السوري في إصدار النقد؛ وحصر هذا الحق ملكاً للدولة السورية وحدها، عبر مؤسسة سورية مئة بالمئة أطلق عليها اسم (مؤسسة إصدار النقد السوري). وأدت ثورة العظم النقدية إلى رفع قيمة الليرة السورية فصارت تساوي أكثر قليلا من 405 ميلليغراماً من الذهب.

وأما إنشاء المرفأ فكان واحداً من أهم المشاريع الاقتصادية والعمرانية التي ينبغي أن ترتبط باسم هذا الرجل المتفرد؛ لقد رأى العظم أن الفائض الممكن تصديره من الناتج الزراعي والصناعي السوري متمركز في شمال وشرق البلد أكثر من جنوبه وغربه؛ فإذا افترضنا أن حلب هي مركز تخزين للمواد المراد تصديرها؛ فإن حسبة صغيرة تخبرنا أن مرفأً في اللاذقية سوف يختصر أكثر من نصف المسافة إلى بيروت. فإذا أضيف ذلك إلى ضرورة أن يكون لسورية مرفأً تسيطر به على سياسة التصدير والاستيراد من أجل استقلال اقتصادي حقيقيّ؛ علمنا كيف كان العظم يربط بين ما هو اقتصادي وما هو سياسي، في نسيج فريد في تاريخ سورية.

❖ ❖ ❖

تُرى هل قامت الوحدة بين سورية ومصر بسبب خالد العظم؟ يبدو السؤال للوهلة الأولى ساذجاً. فالقوميون يرون أن الوحدة تحققت لأنها مطلب جماهيري للشعبين العربيين في البلدين؛ أمّا الماركسيون فقد طوروا نظرية مفادها أن البرجوازية السورية سارعت برمي نفسها في أحضان الرئيس المصري جمال عبد الناصر خوفاً من تزايد خطر الشيوعية في سورية. غير أنّ ثمة من يرى أن سبب الوحدة كان خالد العظم، وبتحديد أكثر كان مفهوم سورية الذي رفعه العظم وناضل من أجله؛ وكان من الممكن أن يحققه لو أتيح له مزيد من الوقت.

في الوقت الذي كانت القوى الإقليمية والدولية تتصارع على جذب سورية كل إلى طرفه؛ وفي الوقت الذي كان حزب الشعب والرأسمالية الحلبية

والهاشميون يحاولون تحقيق وحدة سورية مع العراق المدعوم بريطانيّاً؛ وكان الحزب الوطني والرأسمالية الدمشقية تقف في وجه ذلك التيار، وتشد سورية أكثر باتجاه الحلف المصري - السعودي المدعوم أمريكيّاً، ظهر خالد العظم بمفهوم سورية، باعتبارها وطناً للسوريين، وباعتبارها بلداً مستقلاً كامل السيادة، ومن أجل ذلك كان همّ العظم هو تحقيق الاستقلال الاقتصادي للبلد بعد الاستقلال السياسي. من هنا نفهم استراتيجية العظم في العلاقات مع لبنان والسعودية وفرنسا؛ وأهم من كل ذلك الاتحاد السوفيياتي الذي رأى فيه إمكانيّةً لتنمية اقتصادية حقيقية؛ تؤدي إلى زيادة الدخل القومي زيادة تجعله قادراً على مواجهة النفقات، وإيجاد موارد جديدة للدولة. ومن هنا نفهم حرصه على بناء مرفأ اللاذقية والسكة الحديدية والإصلاح النقدي.

هذه الرؤية كانت خطراً على جميع اللاعبين الأساسيين في الداخل والخارج؛ فالقوميون والبعثيون والاشتراكيون العرب كان هاجسهم تحقيق الوحدة العربية الكبرى؛ والهاشميون كانوا يريدون وحدةً مع العراق والأردن؛ والقوميون السوريون كان طموحهم وحدة الأمة السورية في سورية الكبرى؛ أما العسكر والمرتزقة من السياسيين وقادة الانقلابات، فكانوا يميلون مع التيار ومع مصالحهم الخاصة حيثما مال. على أن العظم لم يكن ليشكل خطراً جدّياً كبيراً، رغم الشعبية التي يتمتّع بها في دمشق، لأنه كان دائماً لاعباً فرداً. الخطر جاء عندما قرر خالد العظم تشكيل حزب سياسي يضم فئات واسعة من البرجوازية المدينية الإسلامية - المسيحية على امتداد سورية. وكانت المبادئ العامّة للحزب تقوم على: «التقدمية المتئدة والتطور الاجتماعي الذي يضمن رخاء الطبقات عن طريق وضع مشاريع زراعية وصناعية وعمرانية ضخمة تزيد في الإنتاج القومي.» أما الأشخاص الذين سيؤسسون نواة هذا الحزب فهم رجال لا يرقى إليهم الشك من ناحية كفاءتهم ونزاهتهم وحسهم الوطني، من مثل هاني السباعي وجورج شلهوب ورئيف ملقي وأسعد المحاسني وهاني الريس.

هنا تحول الخطر الفردي ليغدو خطرا جماعيا قادما من حزب سياسي منظم قائم على مبادئ وقواعد وبرامج محددة؛ ويقوده إضافة إلى العظم حفنة من أهم رجالات سورية في ذلك الوقت؛ وهذا هو الخطر الذي دفع برجل كشكري

القوتلي ومن يمثلهم من فئات اجتماعية واسعة يقبلون بوحدة مستعجلة مع مصر. وهكذا، وبدون أن يقصد، دفع خالد العظم الذي كان يعمل من أجل مفهوم سورية كوطن للسوريين إلى خسارة سورية كوطن.

ولم يألُ العظم جهداً في بذل كل ممكن للحفاظ على كيان سورية في إطار اتحاد فدرالي، وطالب ببقاء الأحزاب وبقاء دولة الوحدة دولة برلمانية تحد من صلاحيات الرئيس، على الطريقة السورية، لكنّ جهوده العقلانية ذهبت سدى تحت أقدام البعثيين والشعبيين والعسكر الذين طغت عواطفهم على عقلهم؛ فارتموا في أحضان الرئيس الأسمر الشاب لينقلبوا على نظام الوحدة بعد 38 شهراً أمضاها العظم في بيته؛ منكفئاً ومكتئباً وشبه سجين؛ حيث لم يسمح له بمغادرة سورية حتى يوم 27 أيلول، 1961. ويصف العظم السنة الأخيرة من عهد الوحدة بشكل خاص بأنه كان «كابوساً ثقيلاً». ويضيف أن موظفي المخابرات كانوا: «يختلقون وسائل الضغط المعنوي عليّ، فتارة يحولون دون دخول أصدقائي إلى داري؛ أو يرسلون من يهددهم ويخيفهم من الاستمرار في ذلك؛ وتارة كانوا يبعثون بدراجة نارية يركبها اثنان من عملائهم، أو بسيارة محشوة برجالهم؛ لتلاحق سيارتي وتلامسها، حتى تكاد السيارتان تتصادمان». بيد أن أسوأ ما تعرّض له خالد العظم عندما حجزت السلطات على منزله وأثاث بيته، فاشتد الخناق عليه لدرجة أنه عندما سُمح له أخيراً بالذهاب إلى لبنان، شعر كأنه خلق من جديد، وفق تعبيره. وقال لنفسه: «لا شيء أعز من الحرية. ولو كان المرءُ فقيراً معدماً، فإنه يكفيه غنى أن يكون حراً».

ونام تلك الليلة نوماً هادئاً ومديداً، ليصحو في اليوم التالي على خبر فصل الوحدة بين سورية ومصر. انهمرت الدموع من عينيه ـ كما يقول ـ عند سماعه النشيد السوري الذي: «حرمنا من سماعه ثلاث سنوات». وحزم حقائبه ليعود إلى بلده، ولكن ذلك لم يكن بالأمر اليسير؛ فلسبب ما ارتأى سادة دمشق الجدد وحكومة السيد مأمون الكزبري أنّ عودته ليست ملائمة؛ وكان ذلك أمراً عجباً، فالعظم كان الوحيد الذي تحفظ على الوحدة، وانتقدها، ولم يستلم أيّ منصب سياسي طوال عهدها. على أن المنع لم يطل أكثر من أيّام، سُمح له بعدها بالعودة في الوقت المناسب ليشارك في الاجتماع الشهير الذي عقده السياسيون في منزل

أحمد الشرباتي. كان هذا الاجتماع المتوتّر هو الذي حسم أمر العهد الجديد. ولقد حضره أهم السياسيين ـ عصر ذاك ـ من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار؛ ولعب العظم دوراً مهماً في الحصول على الإجماع المطلوب لتأييد استقلال سورية، وإعادة الحكم إلى المدنيين.

بيد أن العسكريين الذين هيمنوا على الوضع بعد الانفصال لم يكونوا فعلاً يرغبون بالعودة إلى ثكناتهم وإفساح المجال أمام السياسيين ليحكموا البلد. ولذلك كان أكبر أعدائهم هو الرجل الذي كان يمثل أهم مدني قادر على حكم سورية في ذلك الوقت؛ والحق أن علاقة العظم والجيش كانت دائماً متوترة، فلا هو أحبّ العسكر، ولا هم أحبوه، ومنذ أول صدام له عندما كان وزيراً للدفاع مع حسني الزعيم؛ لم يعرف يوماً لم ينغّص العسكريون فيه حياته.

ولكن حتى العسكر لم يستطيعوا هزيمته في اللعبة الديموقراطية؛ رغم التدخلات الكبيرة التي قام بها الجيش في انتخابات 1962. وحصل العظم مجدداً على أعلى نسبة من أصوات الدمشقيين (قرابة الخمسة والثلاثين ألف صوتاً). وبذلك كان محتماً تكليفه بتشكيل حكومته الخامسة التي انتهت كما انتهت سابقاتها بحدث كبير هو انقلاب 8 آذار، 1963؛ وكانت خطته الأساس في حكومته تلك: «أن تترافق الديموقراطية السياسية بالديموقراطية الاجتماعية». وبالفعل عملت حكومة العظم على البدء بإرساء الجناحين اللذين لا يمكن للديموقراطية أن تحلّق إلا بهما. وألغى العظم الأحكام العرفية التي كان الجيش والرئيس ناظم القدسي قد أعلناها في آذار 1962، الأمر الذي لم يرق للرئيس. وبعد انقلاب 1963، لامه البعض أن إلغاءه قانون الطوارئ هو الذي سهّل للناصريين والبعثيين القيام بالانقلاب؛ غير أنّه ظلّ حتى النفس الأخير مؤمناً بالديموقراطية، ويتهم الجيش والرجعية السياسية والولايات المتحدة بأن أحداً منهم لا يحبذ نظاماً ديموقراطياً برلمانياً في سورية؛ وهو يقول: «إن أمريكا تستقبل بترحاب مخجل كل دكتاتور يقلب النظام البرلماني؛ ويقيم محله نظاماً فردياً تتعايش معه أمريكا؛ وتضمن مصالحها بواسطته».

على أن الخير لا ينتصر دائماً؛ ففي صباح يوم ربيعي جميل كان عليه أن يغادر بلده مرة أخرى؛ ولكن هذه المرة إلى الأبد، وهو أبد لن يطول، إذ لم يمر عليه

عامان في المنفى حتى فارق الروح وهو مفلس، تاركاً زوجته تعيش على إحسان أصدقائه القدامى حتى وفاتها.

❖ ❖ ❖

كان خالد العظم ليبرالياً في السياسة والاقتصاد محافظاً في الفن وبعض الجوانب الأخرى؛ فهو في الموسيقى متحمس لغناء سلامة حجازي الذي يتذكره منذ أيام طفولته؛ ويرى أن سيد درويش الذي يفخر المصريون به قد شوّه الموسيقى العربية الراقية؛ ولكنه يشكر للسنباطي وعبد الوهاب وأم كلثوم وأحمد رامي أنهم أعادوا للأغنية العربية مجدها إلى أن جاء من يسميهم «المغنين الجدد الذين اكتسبوا شهرة لا يستحقونها من أمثال فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ ومحرم فؤاد». ويرى العظم أن العامّة قد تعلقت بهذه الأغاني الجديدة؛ لا لأنها تعبر عن روح موسيقية رفيعة، بل «لأن في مقدور أيّ من الناس أن يفتح فمه ويتلفظ كلمات أغاني عبد الحليم حافظ مثلاً، مع شيءٍ بسيط من النغم ليشبه إليه أنه من عبقريته، ناهيك عن الدعاية الواسعة التي ترافق مطربينا الجدد في الصحف والإذاعة والتلفزيون؛ والوله والإعجاب حتى العبادة، تظهرها فتياتنا الكواعب نحو المغني الشاب؛ أو يظهرها شبابنا الصاعد نحو المغنية الفتية.

ورأي العظم في الأغنية العربية الكلاسيكية يماثل رأيه في الموسيقى الكلاسيكية العالمية التي يرى أنها تتراجع بقوة لصالح موسيقى البوب الصاخبة السريعة؛ وهو يربط ذلك بالسرعة التي صارت سمة العصر.

وكان العظم - رغم ليبراليته السياسية والاقتصادية - متديناً في أعماقه، وإن كان تدينه هو ذلك النوع من التدين الذي عرفت به سورية على مر العصور؛ التدين العميق الهادئ المقرون بالسكينة والهدوء الذي لا ينكر على الآخرين دياناتهم؛ ولا يدفع أتباعه للتبشير والتكفير، وإنما يدفعهم لخوض علاقة حميمة خاصة مع خالقهم؛ على أن العظم لم يكن يحمل من الإجلال لرجال الدين مقدار ما كان يحمل للدين نفسه؛ ولطالما ضحك من نهمهم وحبهم للطعام. وأهم من ذلك أنه لم يلجأ مرة للدين ليستخدمه أداة في تحقيق غاياته السياسية.

وكان له رأي متقدم بالمرأة، رغم تجربته الخاصة مع زوجته الثانية، وهو يشيد بالمكانة التي وصلت إليها: «اشتراكها مع الرجل في محيطه وعمله ومورد رزقه؛ وتوليها أمر جمعيات خيرية مختلفة الأهداف؛ وانتسابها إلى الجامعة

بمختلف كلياتها، وممارستها المحاماة والطب والتجارة والموارد العامة؛ وغير ذلك من مظاهر التطور الذي كاد يوصل السيدة العربية إلى سوية السيدة الأوروبية أو الأمريكية». بيد أنه يأسف لأن هذه المظاهر محصورة في بعض الأحياء الراقية من المدن الكبرى؛ ويعبر عن أمله بأن يشمل هذا التقدم النسوة في المناطق الأخرى.

ولسوء الحظّ، لم يكن العظم سعيداً في حياته العائلية. وقصته مع زوجته الثانية لها في حياته وقع مرّ وغصة دائمة؛ فبعد زواج هانئ - لكن قصير - مع زوجته الأولى السيدة سنية مردم بك الذي لم يكمل العام؛ عاش العظم فترة طويلة عازفاً عن الزواج، حتى وقع على ما يبدو بغرام سيدة جميلة، هي السيدة ليلى الرفاعي التي لا يأتي العظم على ذكرها مطلقاً؛ على عكس ذكره زواجه الأول بالتفصيل؛ ولكن إذا صدقنا السيد أكرم حسن العلبي في كتابه (خالد العظم آخر حكام دمشق من آل العظم)، فإن السيدة ليلى «لم تجد عند خالد العظم ما كانت تريده، فعكفت على الشراب والقمار في دارها في أبي رمّانة التي وهبها لها الزوج الولهان، ثم باعتها بعد وفاته وصرفت ثمنها على موائد القمار؛ وكانت في ذلك كصويحباتها في مصر: الملكة نازلي والسيدة حرم النحاس باشا».

وبغض النظر عن رواية السيد العلبي فإن إغفال العظم الكامل لزوجه الثانية دليل على أنه لم يكن سعيداً جداً بزواجه منها؛ ويبدو مؤكداً أن الزوجين عاشا فترة طويلة بشكل منفصل؛ حيث كان العظم يسكن معظم وقته في دارته في دمر. وفي رواية للعميد مطيع السمان الذي كان يرأس حرس رئاسة الوزراء في ذلك الوقت: «إن صديق العم السيد فؤاد محاسن جاء العظم في سنة 1955؛ إبان المعركة الانتخابية الكبرى بينه وبين شكري القوتلي؛ وأخبره أن السوريين لا يقبلون أن تكون السيدة السورية الأولى كالسيّدة ليلى؛ وقد وافق الجميع على ضرورة الطلاق؛ ويروي السمان أن القاضي جاء بالفعل ولكن العظم - بما يحمله من نبل وسعة أخلاق - لم يقدم على أبغض الحلال.

كان ذلك هو خالد العظم، وتلك أخلاقه، ما كان قادرا على أن يظلم أحداً، وما كان يكره شيئاً كرهه الظلمَ والمحاباة والتملق؛ كان شديد الاستقامة إلى حد الضجر، ولم يُعرف عنه أنه استفاد يوماً من منصب تبوّأهُ؛ بل إن أهله وأصحابه كانوا يعرفون أنه لن يقدّم لهم أيّة خدمة خاصّة؛ وعندما كان وزيرا للعدل في حكومة نصوح البخاري رفض أن يصدر عفواً عن ابن عم له. ومشكلته الكبيرة مع زوجته الثانية أنه

كان يرفض وساطتها لتعيين أقاربها في وظائف عامة؛ وكان يكره الظهور أمام الناس في المقام الأول؛ ويفضل ألا يكون محط الأنظار؛ وحتى في حملاته الانتخابية لم تسمح له ثقافته وأخلاقه أن يريق ماء وجهه للناخبين؛ ويغدق لهم الوعود فقط لينسى كل ذلك بعد أن يفوز بالنيابة؛ ومع ذلك فقد كان يفوز بأعلى نسبة من أصوات الدمشقيين، دون أن يكون له حزب يدعمه. وقد يظن الذي لا يعرفه أن في سلوكه ترفعاً وتعالياً، دون أن يدرك أن ذلك خجل أكثر منه كبرياء.

هذه الشخصية الرفيعة جعلت من العظم رجلاً ديموقراطياً بامتياز؛ كما جعلت منه رجل دولة بامتياز. كان يؤمن بالتطور التدريجي أكثر من إيمانه بالثورة؛ ويربط الديموقراطية السياسية بالديموقراطية الاجتماعية؛ ويكره تدخل الجيش بالسياسة، وكان رجلاً وسطاً، يرى أنه ليس هناك «نظام هو المثل الأعلى، وليس هنالك نظام سيئ من جميع الوجوه؛ فمن يندد بالشيوعية ويقذفها بأتعس الوصمات هو جائر؛ ومن يتهم الرأسمالية بأنها سبب تعاسة البشر مبالغ؛ فالحقيقة هي بين اليمين واليسار، في نقطة وسط تقرب من هذا المحور أو ذاك بنسبة ما يحتويه كيان الأمة من عوامل مختلفة ومتنوعة». وبهذه الآراء العميقة والموضوعية، يرسم خالد العظم سمات لشخصية سياسية لم يجُدِ الزمان كثيراً بمثلها على سورية الجميلة.

وائل السواح

صبري العسلي

فنّ الممكن

(1903 . 1976)

يمثل صبري العسلي السياسيّ ورجلَ الدولة المحافظ في سورية في فترة ما قبل الاستقلال وبعده؛ ولاشك في أن ما حاز عليه من ألقاب معتبرة ومناصب رسمية لم يحزه سوى قلة من رجال ذلك العهد؛ فقد كان المجاهد والمناضل والنائب والوزير، حسب قول خالد العظم، الذي يُعد واحداً من أقدر السياسيين في الحياة العامة السورية، الذي لم يوفر سياسياً في تلك الحقبة من انتقاداته اللاذعة في مذكراته الكاشفة، التي لم يُكتب مثيل لها حتى بعد مرور حوالي أربعين سنة على إصدارها؛ فامتدح العسلي واصفاً إياه بأنه: «كان في مقدمة الشباب البارزين الذين عملوا في ميدان النضال الثوري والسلمي؛ فكان من المجلين... وهو يمتاز . إلى جانب الوفاء . بمزايا عديدة في طليعتها الحزم والوطنية، وسعة التفكير والحيلة؛ وهو لطيف المعشر، محبب على القلب، قوي الحجة، طلق اللسان، يتحمس لما يعتقد صحته إلى أقصى درجات التحمس والإفراط؛ وإذا أحبّ شخصاً فدى نفسه لأجله، ولكنه إذا كره لا يترك للصلح باباً، وكانت نفقاته تتطلب أكثر مما يدرّه عليه عمله، ويا ليته كان أوفر مالاً!!» ثم يوجز سيرته: « ... حارب الفرنسيين وهو يافع، ورافق النضال القومي السلمي من أوله، وسجن مراراً، وبرز في مجلس النواب كخطيب مفوه بصوته الجهوري....، وتولى وزارة الداخلية مراراً، فبدر منه نشاط كبير وفكر سديد، لولا حزبية كانت تطغى بعض الأحيان على تصرفاته وتجبره؛ وعلى مسايرة النواب وذوي القوة الانتخابية في البلد؛ وعلى تمشية مصالحهم الخاصة دون مراعاة المصلحة العامة».

تقييم العسلي هذا ورد في الجزء الأول من المذكرات آنفة الذكر؛ ولا ينبغي التفاؤل به كثيراً، لأنه في الجزئين اللاحقين لن يكون رأي العظم به على هذا النحو من المديح السخي؛ ولا من التسامح الودود .

ولد صبري العسلي عام 1903 من عائلة معروفة وعريقة في حي الميدان اشتهرت بالنضال القومي؛ بعد إتمامه دراسته الابتدائية في دمشق انقطع عن الدراسة إثر محاكمات 1916؛ والأحكام التي أصدرتها المحكمة التركية في (عاليه) على القوميين العرب المطالبين باللامركزية؛ ومنهم عمّه شكري العسلي الذي أعدم مع لفيف من رفاقه الوطنيين؛ بعدها نفيت عائلة العسلي من دمشق إلى الأناضول، وفرضت عليها الإقامة الجبرية.

أنهى الشاب صبري العسلي دراسته الثانوية في مدينة (قونية) التركية؛ وعاد إلى سورية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ثم انتسب إلى معهد الحقوق بدمشق، ونال شهادة في القانون عام 1924. بدأ بممارسة المحاماة والسياسة في عام 1925، ومع اندلاع الثورة السورية انقطع عن عمله، والتحق بها مع عدد من أبناء أعمامه، وأسهم في امتداد الثورة إلى دمشق. عقب إخفاق الحملة على الغوطة لجأ إلى فلسطين عام 1926. اتصل مع السعوديين، وطلبوا منه تمثيلهم في المفاوضات مع الأردن بشأن مسائل عشائرية وحدودية. توجه إلى القاهرة مع بداية 1927، وانضم إلى جناح الاستقلال من أجنحة المؤتمر السوري الفلسطيني. توطدت بينه وبين شكري القوتلي صداقة جيدة، وعملا معاً على إقناع ابن سعود بزيادة دعمه لقضية الاستقلال السوري؛ لكن لن يصبح تعاونهما وثيقاً إلا في عام 1936.

في العام 1928، سوف يشارك بتأسيس تنظيم سري والدعاية له؛ كان توجهه السياسي أكثر جذرية من التوافقات المطروحة مع الفرنسيين على الساحة السورية؛ كذلك كان توجهه العربي هو الأقوى.

❖ ❖ ❖

في 19 آب 1933، قام صبري العسلي مع مجموعة من الشبان السوريين بعبور الحدود اللبنانية؛ وتوقفوا في شتورة للاستراحة، ووفقاً للتعليمات فضّوا مغلفاً مختوماً، كانوا شديدي الحرص على إخفائه خلال عبورهم نقطة التفتيش الحدودية؛ كانت الأوامر صريحة: «توجهوا إلى قرنايل، المؤتمر يبدأ غداً». في اليوم التالي عقدت الجلسة الافتتاحية لما ثبت أنه أهم اجتماع للعروبيين

الراديكاليين العرب في فترة ما بين الحربين؛ وأُحيطت الجلسة بالسرية في تلك القرية الجبلية اللبنانية.

وعلى الرغم من مراقبة الاستخبارات الفرنسية لمحرضين سياسيين معروفين؛ ومحاولة منع الوطنيين المشبوهين القادمين من العراق وفلسطين وشرق الأردن من عبور سورية؛ استطاع أغلبية المدعوين الوصول إلى قرنايل؛ وسارت أعمال المؤتمر كما خطط لها. ضم الاجتماع نخبة من القوميين العرب، يقارب عددها الخمسين من جميع أنحاء المشرق العربي؛ يوحدهم هدف واحد: وضع حركات الاستقلال الوطني في المناطق العربية على أرضية أصلب، بتنسيق أنشطتهم بصورة منظمة.

بعد أربعة أيام من الخطب الحامية، أعلن المؤتمرون إقامة نظام سياسي جديد يكون مركزه دمشق؛ وعلى صلة بأحزاب مماثلة في المناطق العربية المجاورة؛ أُطلق عليه اسم: (عصبة العمل القومي). جسد هذا التنظيم الجديد معتقدات ومطامح جيل جديد من الشباب الوطني؛ كان قد بدأ بالظهور، أما مصطلح (قومي) فيؤشر على توجه العصبة، للدلالة على (حس الولاء للأمة العربية جمعاء)؛ بالتعارض مع مصطلح (وطني) المستعمل لدى الكتلة الوطنية، دلالة على التعلق بالوطن. حددت العصبة أهدافها بـ: السيادة العربية، الاستقلال والوحدة العربية الشاملة، وتركزت بالتحديد على الحاجة إلى النمو والتوحد الاقتصاديَّين؛ لخوض نضال ناجح ضد الاستغلال الأجنبي وضد الإقطاع. وبإشارة محددة إلى سورية، طالب برنامج العصبة رفض سياسة (التعاون المشرف) المتبعة بين الكتلة الوطنية والانتداب الفرنسي؛ كذلك رفض جميع محاولات جعل الشعب يقبل بالبرلمان المنتخب زوراً، وبالحكومة المعيّنة من قبل الفرنسيين؛ وحذّر البرنامج من أن جميع وعود الاتفاقات المعقودة آنذاك هي في الواقع مرادفة للتوسع الإمبريالي الفرنسي. كانت العصبة بذلك قد انتهجت موقفاً متشدداً مؤدّاه عدم الخوض في حلول وسط مع الفرنسيين، والتصدي لأي فريق وطني يتعاون معهم، وأقسم أعضاؤه بألا يقبلوا أيّ منصب حكومي، مادام الأجانب مسيطرين على سورية.

قُدّر على العصبة في سورية لتبقى أن تتعاون - ولو على مضض - مع الكتلة الوطنية في النضال اليومي من أجل الاستقلال؛ غير أن قيادتها لم تكن فقط

حديثة السن وعديمة الخبرة، وقاعدتها السياسية ضيقة جداً، لتتمكن من تحدي نفوذ الكتلة، بل ولم تُطور صلاتها خارج سورية، لاسيّما صلاتها بتنظيمات سياسية مماثلة في العراق إلى درجة كافية؛ ليتسنى لها الانتشار الواسع والاستقلال عن الكتلة كلياً، مع أنه خلال فترة 1934/1935 ازداد عدد أعضائها. كانت الكتلة أيضاً في تلك السنوات، قد عانت بشكل مزرٍ من فشل محاولاتها التفاوض على اتفاقية مع فرنسا؛ بل واضطرت إلى كف النظر عن استراتيجية (التعاون المشرف).

وبالعودة إلى السنتين الماضيتين، حاول العسلي بعد تسلم رئاسة عصبة العمل القومي في سورية توسيع قاعدتها؛ بتشكيل فروع لها في طرابلس وبيروت، ومحضه صديقه ومعلمه القوتلي الدعم والتعاون، وفي تلك الفترة انصبت جهود العصبة على محاولة القيام باختراق مباشر أكبر للسياسة الوطنية السائدة؛ لكنها في الواقع أثبتت عجزها عن مد جسور إلى السياسيين السوريين؛ وسلك الضباط الوطنيين؛ ولم تفلح إلا مع طلاب كلية الحقوق، وكانت أعدادهم غير كافية، وإن كانت مؤثرة، فاتجهت جهود تعبئتها للشباب من طلبة التجهيز والمدارس الحكومية الابتدائية؛ ونافسهم في ذلك منظمة (الشباب الوطني) التابعة للكتلة؛ وقد تمايز شباب العصبة بالجلوس في مقهى (غازي) كنقطة تجمع رسمية لهم؛ واعتمروا (الفيصلية) غطاء للرأس، بينما واصل (الشباب الوطني) الالتقاء في (الغلوب) مقهاهم المفضل؛ وتمايزوا عن العصبة بالطربوش رمزاً لهم.

أدرك شكري القوتلي - وكان قد أصبح أحد الوجوه الفاعلة في النضال القومي، ومتشدداً في مطالباته الاستقلالية - أنه لا يستطيع العمل بشكل علني في السياسة، إلا تحت غطاء كتلة دمشق التي اعترف به الفرنسيون تنظيماً شرعياً بسبب موقفها المعتدل؛ فانضم إليها. بالنسبة إليه كان في دفع الكتلة إلى مسار أقل انجرافاً نحو النهج التسووي؛ لا يمكن أن يتحقق إلا باختراق صفوفها، في حين إذا بقي منغلقاً خارجها، وفي مواجهة مباشرة معها، فسيبقى لاعباً سياسياً هامشياً. ومثله أدرك العسلي وضعه السياسي الشبيه بوضع القوتلي؛ لكنه حينئذ لم يقدم على هذه الخطوة، ومن الممكن إضافة بعض الصفات المشتركة التي جمعت بينهما، فقد جاء كلاهما من عائلتين مرموقتين في أشهر حيّين من أحياء دمشق، (الميدان

والشاغور)، شعبية ونشاطاً سياسياً؛ وكانا - على خلاف غيرهما من القادة الوطنيين - يتحركان بيسر بين أعلى المستويات السياسية والجماهير المدينية.

في صيف 1936 بينما كان أعضاء الكتلة المعتدلون (هاشم الأتاسي وجميل مردم وفارس الخوري) في باريس؛ استغل القوتلي غيابهم وتحرك ليقوي مركزه في الكتلة الوطنية بإدخال العناصر الشابة الراديكالية؛ فدعا العسلي وغيره إلى الانضمام؛ بهدف إطلاعهم على مجريات المفاوضات مع الفرنسيين، وإقناعهم بأن الوفد في باريس لا يساوم على وحدة التراب الوطني السوري؛ وليس متهاوناً في مطالب أساسية باتت تجمعهم معاً. كانت المفاجأة أن العسلي قبلَ الدعوةَ، الأمر الذي عجل بحدوث أزمة مع جماعته؛ وبعد جهود كثيفة لإقناعه بالعدول لم تفلح؛ أقصاه المجلس التنفيذي للعصبة من السكرتاريا، وما لبث أن طرده. كان أول قائد عصبوي يخرج على خط العصبة.

في تشرين الثاني 1936، ترشح للمجلس النيابي في القائمة الانتخابية للكتلة؛ فنجح نائباً عن دمشق؛ مما حفز القوتلي على استخدام المناصب بكفاءة لجعل شبان راديكاليين آخرين ينضمون إلى الكتلة؛ كان القوتلي الذي عمل على إضعاف العصبة، وتسهيل صعود الكتلة الوطنية إلى الحكم؛ قد استطاع فيما بعد أن يخوض معركة الاستقلال؛ بدعم جماعة متماسكة غير منقسمة على نفسها.

وقف العسلي إلى جانب قوات فيشي الفرنسية عامي 1940/1941، فاعتقله الحلفاء حين غزوا سورية؛ ثم أفرجوا عنه، وأُنتخب ثانية في المجلس التشريعي عام 1943. بعد الاستقلال وانفراط عقد الكتلة، توضحت الأطياف السياسية الرئيسة في حزبين؛ حزب الشعب ويمثل المصالح التجارية في حلب والمنطقة الشمالية الشرقية وحمص؛ والحزب الوطني ومعقله دمشق، كان العسلي واحداً من قادته حيث سيصبح أمينه العام، يدعمه سجله النشط، وارتباطاته العائلية، وعلاقاته القوية مع الأحياء الأخرى، وسوف تصبح الأصوات الانتخابية لسكان أحياء الميدان والشاغور والمهاجرين من نصيب الحزب؛ ويخوض معاركه السياسية والانتخابية ضد حزب الشعب بكل الوسائل من: مظاهرات وتحالفات ومكائد وخطط ومقالب. عندما بدأ العسلي نشاطه في الحزب الوطني دعمه شكري القوتلي؛ وبالمقابل سوف يسانده غالباً في مواقفه، ولا تعني علاقاته الجيدة معه أنه كان

ملتزماً بأوامره وتعليماته؛ مع أن القوتلي كان محسوباً على الحزب الوطني، لكنه كان يستخدمه في معاركه السياسية لتنفيذ مآربه السياسية؛ غير أن العسلي كان يقظاً، فلم يمتثل للقوتلي في خططه عندما تتعارض مع مصالحه، كذلك القوتلي كان يتعامل مع غيره، ولو كان على تضاد مع مصالح الحزب وتوجهاته.

ساند الحزب الوطني القوتلي في الانتخابات الرئاسية، وأيد حكمه، ثم عارضه في الخفاء، عندما لم يلق العسلي منه سنداً في انتخابات 1947؛ فلم يدافع عن القوتلي بعد الانقلاب عليه؛ وأيد حسني الزعيم قائد الانقلاب ضارباً عرض الحائط بالدستور وبالحياة النيابية؛ بل وقبلَ بالتعاون معه، وذهب العسلي إلى بغداد موفداً من قبل حسني الزعيم؛ وصوّتَ حزبُه له في الاستفتاء الصوري الذي تم فيه انتخابه رئيساً للجمهورية؛ وأقر إلغاء دستور 1928، واشترك في لجنة وضع الدستور، وأوشك العسلي أن يتسلم رئاسة الوزراء، لو لم يُقتل الزعيم في 14 آب 1949.

بعد انقلاب الحناوي أُصيب الحزب الوطني بالعزلة؛ فيما سارع حزب الشعب وتسلم السلطة، وسيطر على الحكومة، واحتل الوزارات الرئيسة (الخارجية والداخلية)، وطهر الجهاز الحكومي، وأجرى انتخابات الجمعية التأسيسية لوضع دستور جديد للبلاد؛ وقد قاطع الحزب الوطني الانتخابات، ففاز بها حزب الشعب.

اضطر العسلي إلى إعادة تنظيم صفوف الحزب؛ وقررت القيادة الجديدة انتهاج خط المعارضة، ولِئلاّ يفوتها قطار المستقبل أيدت - على سبيل المزاودة - الدعوة للاتحاد مع العراق؛ وعدّلت النظام الأساسي للحزب من الجمهوري إلى الملكي؛ كي لا يكون هناك عائق أمام اصطفافه الجديد؛ ومن ثم وحّد جهوده مع حزب الشعب؛ فنال الحزبان المساعدات المالية العراقية؛ وقبض زعماء الحزبين دفعات نقدية، أثبتتها محاكمات بغداد 1959، بالأسماء وأرقام المبالغ المقبوضة البالغة مئات ألوف الليرات.

أدّى تأييد العسلي للوحدة مع العراق إلى انقسامات داخل الحزب؛ فبالإضافة إلى الجناح المؤيد للعراق كان هناك جناح على صلة بشكري القوتلي في القاهرة؛ وجناح ثالث يتصل بالسعوديين سراً، ويحرضهم على الاتحاديين، ويستعديهم

عليهم. عندما بدأت التحركات الجدية باتجاه المباحثات الوحدوية مع العراق، قام الشيشكلي بانقلابه، واتهم الحناوي ورفاقه بأنهم من «ممتهني السياسة بالتآمر على سلامة الجيش وكيان البلاد والنظام الجمهوري». وكُلف خالد العظم بتشكيل وزارة جديدة. تعهد العظم في بيانه الوزاري الذي قدمه للمجلس النيابي بالدفاع عن النظام الجمهوري؛ ووعد بأن تدعم حكومته ميثاق التضامن الجماعي العربي.

أظهر الأمين العام للحزب الوطني صبري العسلي تفهماً سريعاً لتغير المناخ السياسي؛ ففي مؤتمر للحزب عقده في حمص، أعلن سحب تصريحه الداعي إلى الوحدة مع العراق؛ وأكد على إخلاصه للجمهورية؛ كما ترأس وفداً حزبياً إلى مصر للتصالح مع السياسيين المبعدين (القوتلي وجميل مردم) مستعيداً علاقاته الطيبة مع الحكومة المصرية والجامعة العربية؛ ورأى القوتلي في هذه الزيارة انتعاشاً لآماله بالعودة والرئاسة، بينما شهد العام الذي أعقب انقلاب الشيشكلي اضمحلال حزب الشعب بشكل مطرد؛ لم يعد مهدداً من الجيش فقط، وإنما أيضاً من الحزب الوطني منافسه القديم، والقوى الصاعدة الأخرى، غير أن الانقلاب الرابع سيضع حداً للأحزاب كلها، بوقف نشاطها وإلغائها.

في سنوات الدكتاتورية العسكرية حرص العسلي على ربط نفسه بجميع جيران سورية الأقوياء؛ فأجرى اتصالات سرية مع العراق، وظل على صلات وثيقة بالقوتلي المبعد، وعزز علاقته الطيبة بالمصريين والسعوديين، في الوقت الذي كان واضحاً توجه الشيشكلي نحو المحور السعودي المصري؛ مع محاولات التفاهم مع الأمريكان، في حين حافظ على عدائه للإنجليز الذين أوعزوا إلى (نوري السعيد) الاتصال بزعماء الأحزاب السياسية: الكيخيا والعسلي والحوراني... وغيرهم، بالإضافة إلى الكثير من الضباط الناقمين، ودعموا مقاومتهم لسلطة العسكر، فدفعوا المال لرجالات الأحزاب المعروفين من الحزبين؛ وأمدوهم بالأسلحة والذخيرة، وعندما نجح الانقلاب لم يقف إلى جانب الشيشكلي سوى عدد ضئيل من النقباء في الجيش، فاضطر إلى مغادرة البلاد.

دُعيَ العسلي لتشكيل وزارة ما بعد الانقلاب؛ فنعم المدنيون أخيراً بالحكم المنفرد، بعد ازدواجية حكم الشيشكلي ودكتاتوريته، لكن لفترة قصيرة لم تسمح للحكومة بإنجاز عملية الانتقال الدقيقة والحساسة من الحكم العسكري إلى

النظام البرلماني؛ واضطر إلى الاستقالة تحت ضغط القوى السياسية المناوئة؛ ليفسح المجال لتأليف حكومة حيادية تشرف على الانتخابات؛ وبشكل أدق لتتمكن القيادة في الأركان من التدخل المباشر في اختيار المرشحين لتأمين فوزهم؛ وظل رئيس الأركان شوكت شقير يسيطر على الأمور، حتى عند انتخاب رئيس الجمهورية شكري القوتلي.

دخل صبري العسلي بمحادثات مع خالد العظم (الكتلة الديمقراطية)، وصلاح الدين البيطار (حزب البعث)؛ بهدف تأليف جبهة وطنية تهدف إلى إسقاط وزارة فارس الخوري الميال لتوجهات حزب الشعب؛ وقد أدى ارتباط الحزب الوطني بهذه الجبهة إلى أن تبتعد عنه الشخصيات الحزبية السياسية المتعاطفة مع الوحدة السورية العراقية؛ وبعد فترة وجيزة سيُحدث اندماجه بالتجمع القومي - مقابل حصوله على رئاسة الوزارة - انقساماً جديداً في صفوفه، فتخلى عنه الأعضاء المرتبطون بالسعوديين، ما دفعه بعدها إلى تعزيز أواصر علاقاته مع المصريين.

خاض العسلي خلال وزاراته المتتابعة الأخيرة معارك سورية مع الأحلاف الغربية والمشاريع الأمريكية؛ وعاصر أحداث تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي؛ وارتفاع المد الشعبي المطالب بالوحدة مع مصر؛ وكان من مؤيدي الضباط في توجهاتهم الوحدوية، وعندما طلب عبد الناصر كشرط لإتمام الوحدة حلَّ الأحزاب في سورية؛ لم يتأخر العسلي عن الموافقة الكاملة على حل حزبه، بل ووصل به الأمر في أحد الاجتماعات التي سبقت الوحدة إلى إدانة الأحزاب برمتها؛ حسب رواية العظم: «وأقسم الأيمان المتنوعة بأن رجالات الأحزاب - وهو في مقدمتهم - أساؤوا التصرف بحزبياتهم، وأنّ ما تعانيه البلاد، وما سوف تعانيه، ليس إلا نتيجة تلك التصرفات اللعينة».

وعُين في 6 آذار من العام نفسه واحداً من نواب الرئيس عبد الناصر؛ لكنه سيستقيل من منصبه بعد عدة أشهر ويعتزل السياسة؛ خلال فترة الانفصال سيعود إلى السياسة، ويفوز في انتخابات المجلس النيابي، لكنه لن يمارس الحكم. بعد ثورة 8 آذار 1963 سيعتزل ثانية، ويتوفى في 13 نيسان 1976.

تنطوي سيرة صبري العسلي السياسية على قائمة طويلة من المناصب الرفيعة التي شغلها، والمؤثرة في مجريات الحياة السورية:

- نائب عن دمشق في المجلس النيابي السوري عام 1936، وأعيد انتخابه نائباً في قائمة الحزب الوطني في انتخابات 1943/1947/1954.
- وزير للداخلية 4 آذار ـ 5 نيسان 1945/7 نيسان ـ 23 آب 1945.
- وزير للعدل 26 ـ 29 آب 1945/ وزارة المعارف 29 ـ 30 أيلول 1945.
- وزير للداخلية 30 أيلول 1945 ـ 24 نيسان 1946.
- وزير للداخلية 26 نيسان ـ 27 كانون الأول 1946.
- وزير للداخلية 23 آب 1948 ـ 2 كانون الأول 1948.
- رئيس للوزراء 1 آذار 1954 ـ 19 أيار 1954.
- رئيس للوزراء 13 شباط 1955 ـ 13 أيلول 1955 بالإضافة إلى وزارة الدفاع.
- رئيس للوزراء 14 حزيران 1956 ـ 13 كانون الأول 1956 بالإضافة إلى وزارة المالية.
- رئيس للوزراء 31 كانون الأول 1956 ـ 6 آذار 1958.
- نائب لرئيس الجمهورية العربية المتحدة 6 آذار 1958 ـ 7 تشرين الأول 1958.
- نائب في البرلمان 1961.

تشهد هذه القائمة على سجله البارز في العمل السياسي وفي أرفع مستوياته؛ وعلى تواجده المستمر في مطابخ القرار وكواليسه صانعة السياسة ومصائر المجتمع والدولة؛ وإذا كان أحد الوجوه الدائمة للسياسة التقليدية فلا ينبغي أن يغيب عنا أنه كان أحد الشبان المتشددين في العمل لاستقلال سورية والدعوة لوحدتها؛ ومن الساسة المتمردين على المفاوضات والمساومات مع الفرنسيين تحت غطاء (التعاون المشرف)، خلال النصف الأول من الانتداب؛ ويشهد على تطلعاته ونشاطاته مشاركته في الثورة الوطنية الكبرى؛ والمساهمة في تأسيس وقيادة عصبة العمل القومي في سورية.

بيد أن رحلته السياسية الثانية التي بدأت عام 1936 وامتدت إلى نهايات حياته السياسية؛ قد مثلت في الواقع مرحلةً نقيضٍ للأولى؛ ما دعا الباحث باتريك سيل ـ وهو أفضل من كتب في تاريخ السياسة السورية المعاصرة ـ إلى الحكم عليه من خلالها بشكل سلبي: «سياسي انتهازي، بلا منهج أو مبدأ أو عقيدة، وظهوره

المتعدد وزيراً ورئيساً للوزراء لا يدل على ثقل سياسي؛ وإنما على حقيقة القبول به من قبل الأجنحة اليسارية واليمينية في المجلس النيابي باعتباره مرشحاً مسالماً يمكن الاتفاق معه». وهو أيضاً محام بارع، أنيق ومصقول: «كانت خطبه سيلاً من البلاغة العربية التي تخفي ذهناً متوقداً»؛ ولهذا استطاع الدفاع عن مواقفه بألمعية، طبقاً للمناخ السياسي السائد أو الطارئ.

تأرجحت سياسات العسلي نحو اليمين ونحو اليسار؛ فتارة كان داعية متحمساً للنظام الجمهوري وناصباً لحزب الشعب العداء في توجهاته الملكية؛ وتارة أخرى أصبح داعية للنظام الملكي، عندما مالت الكفة في المجلس النيابي والشارع نحو العراقيين؛ فالتزم بفكرة الاتحاد. وبما أنه كان محامي شركة التابلاين لم ينتقد الولايات المتحدة؛ بل وحاول تمرير الاتفاقيات أو السكوت عنها؛ وربما لهذا السبب قال لخالد العظم إبان أزمة مع الولايات المتحدة: «إلى أين تقودنا؟ أنحن قادرون على معاكسة أمريكا؟!» وعندما تلقى الدعم من العربية السعودية أصبح من أشد مناصريها. أما المصريون، ففي بيان حكومته عام 1955 إلى المجلس النيابي شجب عقد جميع الأحلاف والمواثيق العسكرية الأجنبي؛ وتبنى بإخلاص أفكار السياسة الخارجية المصرية، وعلى الرغم من كون العسلي حسب المقاييس الثورية رجعياً محافظاً؛ لم يفته الدفاع عن النزعة الاشتراكية عندما هبت رياحها.

هل يمكن اتهام العسلي بالذبذبة، أو العمالة، أو الانتهازية؟ من المغالاة أن تصيب هذه الاتهامات هدفها تماماً، لو كان الحزب منسجماً في داخله، لكان التسديد محكماً. الأصح القول بأن الخطأ في الحزب الوطني نفسه، كان حزباً يفتقد إلى الوحدة، لا لون له، أو أنّه يتلوّن حسب الظروف، ولا يمكن إلقاء اللوم على العسلي وحده، كان الجناحان المهيمنان على الحزب متناقضان في توجهاتهما السياسية الكبرى؛ الأول يقوده القوتلي (ويضم العسلي وفاخر كيالي...) والثاني يقوده ميخائيل إليان (ويضم لطفي الحفار وبدوي الجبل...)، مما أحدث تناقضات حادة في المواقف، أدت بالحزب إلى الميلان مرة باتجاه مصر والسعودية، ومرة أخرى باتجاه العراق، وما يمكن أن يلحق بهذا من مضاعفات، وما تخفي وراءها من ضغوط غربية وارتباطات مع الضباط، لم يمتلك العسلي رؤية سياسية حاسمة، ولا

أن يلعب دوراً متوازناً في هذا الصراع، إذ كان الأكثر حساسية للمتغيرات الخارجية والداخلية، وما كانت تقلباته السريعة سوى تأقلماً سريعاً مع التبدلات الطارئة.

في ذلك الوقت؛ أي في خضم الصراعات والضغوط الكبيرة، كان العمل الحزبي بحاجة إلى مهارات حاذقة في التقلب من طرف إلى طرف مع مبادئ قليلة ومائعة يمكن القفز عنها؛ لا تقيد رجال السياسة المخضرمين، بقدر ما تمكنهم أيضاً من أن يسهو عن مصالح أحزابهم في سبيل مصالحهم الشخصية؛ مع ما يمكن أن يشكله هذا النزوع من خطب حتى على بقائهم؛ ثم أليس من المفارقة أن الحزبين الوطني والشعب التقليديين اللذين كانت لهما مصلحة مشتركة في الإبقاء على النظام القديم، ومحاولة تطويره باتجاهات أكثر ثباتاً وسلامة؛ انشغلا في الصراع بينهما حتى النهاية لمصلحة القوى الراديكالية (البعث وغيره)، التي كانت تهدد الاثنين معاً، وأفلحت في القضاء عليهما؟!

مارس العسلي الحكم في زمن صعب، أحدقت به التجاذبات المحلية والإقليمية والدولية؛ ونخطئ التصور فيما لو اعتقدنا بقدرة السياسي على التمسك بالثوابت المبدئية؛ كانت الثوابت كفيلة بإخراجه من لعبة السياسة مهزوماً وفي جولاتها الأولى مشيعاً بتهمة الغباء؛ الثوابت المبدئية ـ مع الأسف – تبذل لإغواء الجماهير، لذلك وعلى الدوام يربح السياسي المناصب، وتخسر الجماهير أحلامها.

لم يكسب العسلي كثيراً من مناوراته ومساوماته؛ ولكي لا نقسو عليه كثيراً لم يكن العمل السياسي أصلاً تحت ظلال العسكر مأمون الجانب؛ ولا يمكن ممارسته بعقلانية، إذ حلَّ القسر والإرغام بديلاً عن الحرية، ولم يعد العمل السياسي سوى القدرة على البقاء على قيد الظهور في الواجهة؛ إن لم يكن على قيد الحياة وحسب، وكان العسلي أبرز من اختلقوا ذلك الفن في ممارسة السياسة؛ وهو الاستمرار رغم كل الظروف غير المواتية، وربما لو بذل الجهود نفسها في الوفاء لمبادئه السياسية؛ لبقي الحزب الوطني يمارس دوراً تقليدياً محافظاً، كانت سورية بحاجة إليه إزاء مراحل الصعود اليساري المتتالي العاصف والمتهور في الخمسينيات والستينيات.

كان العسلي سياسياً توافقياً، وكانت خسائره بسبب استقامته المحدودة وطيبته الودودة؛ وإذا كان قد تحالف مع الجميع، فقد عارضهم أيضاً. وهو ربما لم يكن مع أحد، وإنما سياسي قدير، متواضع الموهبة، ولا ريب في أنه طمح إلى رئاسة الجمهورية، لكنه في النهاية لم يستطع إلا أن ينجو بنفسه.

أنطون سعادة

تحيا سورية

(1904 - 1949)

بعد نحو تسع سنوات قضاها في مغتربه القسري، عاد أنطون سعادة إلى لبنان بجواز سفر تحت اسم (أنطون سعادة مجاعص)، تسلمه من القنصلية اللبنانية في البرازيل، بعد أن امتنعت السفارة اللبنانية في الأرجنتين عن تجديد جواز سفره بتعليمات من الحكومة اللبنانية. هبط سعادة في مطار بيروت القديم في 2 آذار 1947، وكان في استقباله الألوف من اللبنانيين والسوريين والأردنيين والفلسطينيين؛ ومشى مع مستقبليه من باحة المطار إلى مستديرة الكولا، إلى بيت نائبه نعمة ثابت في الغبيري، وهو يرد التحية على المحتشدين. كانت الأعلام الحزبية وشعار الزوبعة ترفرف في الفضاء، والهتافات تتعالى: «تحيا سورية... يحيا سعادة». بعد استعراضه لمليشيا الحزب، ألقى خطابه المنتظر والشهير، الذي أعلن فيه أن الحزب لن يتنازل عن عقيدته السورية القومية؛ وهاجم الانعزالية اللبنانية والنظام الطائفي، ونادى بوحدة الهلال الخصيب، ودعا إلى الصراع لتحرير فلسطين، وأثنى على الحزب لقيامه بدوره في الدفاع عن الأمة السورية.

أثار الزعيم سعادة المخاوف منذ اليوم الأول لعودته، واستُقبل خطابه في الصحافة والأحزاب الأخرى كالكتائب والكتلة الوطنية بامتعاض شديد؛ وأصدرت الحكومة اللبنانية مذكرة توقيف بحقه بعد أقل من أربعة وعشرين ساعة على وصوله؛ وأوفدت دورية من رجال الأمن للقبض عليه ليلاً، وجلبه مخفوراً من أجل تفسير ما ورد في خطابه من إشارات غامضة إلى الوضع اللبناني. شَكّت قيادة الحزب بمؤامرة ضده، ونصحته ألا يستجيب للاستدعاء، واقترحت عليه مغادرة بيروت، ريثما تهدأ الضجة حول خطابه؛ فانسحب إلى المناطق القومية الاجتماعية في جبال لبنان الواقعة تحت سيطرة الحزب؛ في

حين تابعت الحكومة إجراءاتها، وأصدرت بحقه مذكرة توقيف، وقامت قواتها بين حين وآخر بحملات مداهمة متقطعة على فروع الحزب في الجبل.

بقي سعادة محتجباً مدة سبعة أشهر. خلالها كان على اتصال بالرأي العام. ومن مخابئه قاد حزبه في تحدّ كامل للحكومة، دون أن تثمر الجهود في اعتقاله. أثناءها حصر كل السلطات بين يديه وصرف وقته في استشارات دائمة مع معاونيه. أرادت الحكومة تحسين صورتها العامة التي لطختها انتخابات شهر أيار، فدخلت في مفاوضات مع الحزب، جرى الاتفاق خلالها على حل لمسألة سعادة. وفي 9 تشرين الأول زار سعادة وزير العدل، وكرر أمامه احترامه لكيان لبنان السياسي؛ فأغلقت الحكومة الدعوى ضده، واكتفت بهذا الترتيب إنقاذاً لكرامتها. بعد الاعتراف الحكومي شبه الرسمي بقوة الزعيم سعادة في لبنان، بدا المستقبل للحزب السوري الاجتماعي القومي مشرقاً وواعداً.

❖ ❖ ❖

وُلدَ أنطون سعادة في قرية الشوير قضاء المتن أول آذار 1904؛ وكان أبوه الدكتور خليل سعادة طبيباً عالماً وأديباً مترجماً؛ غير أن ميوله السياسية جعلته يهتم بتحسين ظروف شعبه الاجتماعية أكثر مما اهتم بممارسة مهنته. وبسبب الظروف القاسية قبل الحرب العامة الأولى، هاجر إلى مصر، ومن ثم إلى أمريكا الجنوبية، ليستقر أخيراً في البرازيل؛ بينما بقي الابن سعادة في لبنان خلال الحرب يعاني من المجاعة والظلم، قبل أن يلتحق بأبيه في سان باولو عام 1921؛ وهناك ساعد أباه في تحرير مجلة فكرية تدعى (الجريدة)؛ وكتب سلسلة مقالات عالج فيها شؤون الوطن: السوريون والاستقلال، عاصفة الثورة السورية، آمال الوطن، غورو وسورية، الوحدة السورية ومخاوف اللبنانيين... بعد سنتين توقفت (الجريدة) وصدر بدلاً عنها (المجلة)، أسهم فيها بمقالات نقدية. في عام 1924، كتب عدة مقالات سياسية خطيرة عن القضية الوطنية، بمناسبة صدور بيان عن اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني؛ ويُبرز فكرة الوطن السوري بحدوده الطبيعية، كذلك عن الخلافة في الإسلام: «إن الخلافة لم تعد لازمة للإسلام أكثر من لزوم البابوية للمسيحية، أي بإبقائها قوة روحية لا علاقة لها بالسياسة

والاقتصاد وما شاكل». احتوت مقالاته على نظرات جريئة، عناوينها تنم عن فحواها: «سقوط الولايات المتحدة في عالم الإنسانية الأدبي» «جمعية الأمم وأبطال التعدي» «الانقلابات الجديدة» «محافظو بريطانيا ومصر» «السياسة الأوربية، مسائل دقيقة جداً» «العمال والبلاشفة».

في عام 1926 انسحب سعادة من محفل (نجمة سورية) الماسوني بعد سنتين من انتسابه إليه، لعدم بذل المحفل جهوده لتحرير الوطن من الفرنسيين، وعدم تمكن المحافل الماسونية السورية من التوحد كما هو سائد في جنسيات المحافل الأخرى. خلال السنتين الماضيتين كان شعاره: كل سوري أينما وجد مسؤول عن الذل الضارب أطنابه في بلاده. أسس (جمعية الشبيبة السورية الفدائية) و(الرابطة الوطنية السورية) و(حزب الأحرار السوريين). ثم قرر العودة إلى الوطن بعد كشفه عدم فائدة العمل السياسي في المغترب.

عمل سعادة في بيروت على تدريس اللغة العربية في (الكلية الوطنية للعلوم والآداب) في العام التدريسي 1928 – 1929. عموماً لم يتلق سعادة ثقافة أعلى من المستوى الثانوي؛ لكنه استطاع أن يتعلم الكثير من اللغات قراءة وكتابة، بلغت تسعاً من بينها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية.

ينتقل إلى دمشق في أواخر صيف 1930، يعمل في جريدة (اليوم)، ويكتب الكثير من المقالات. يحاول الالتحاق بالكتلة الوطنية، غير أنه لم يرض عن اتجاهاتها، فيعود إلى لبنان. يكتب قصتين (فاجعة حب)، (عيد سيدة صيدنايا)، ويطبعهما في كتاب، يُدَرّس اللغة الألمانية في الجامعة الأمريكية في صف خاص، ويأخذ بالتعرف على ظروف البلد السياسية والاقتصادية، ينشر من وقت لآخر مقالة، ويلقي محاضرات على الطلبة الجامعيين، تتخللها آراؤه عن القومية السورية، مما زاده صلة بالشباب المثقف. يُجري مناقشات مع الدكتور أنيس فريحة أستاذ قسم اللغات السورية القديمة في تاريخ الشرق الأدنى الحضاري.

كان تفكيره متجهاً إلى تأسيس حزب سياسي يختلف في عقيدته وتنظيمه عن التشكيلات المحلية السياسية، ويقرر أن يكون الحزب سرياً ريثما يشتد عوده ليستطيع تحمل صدمة انكشافه للسلطة. يعقد اجتماعاً في 16 تشرين الثاني

1932 تحت اسم الحزب السوري القومي، ويمارس نشاطه في السر لفترة ثلاثة أعوام؛ كانت فترة انطلاق، بنى فيها قاعدته الصلبة من طلاب الجامعة الأمريكية. نما الحزب ببطء، وارتفع تعداد أعضائه، وانتشر خارج بيروت إلى طرابلس والكورة وشمالي لبنان إلى أن بلغ عدد المنتسبين إليه الألف. في 21 تشرين الثاني 1934، وضع دستوراً للحزب وحدد مبادئه الرئيسة؛ وأصبحت هاتان الوثيقتان كتاب الحزب المقدس وأساس نشاطه؛ وخلال النصف الأول من العام 1935 امتد نشاطه إلى دمشق. وسوف يسارع ازدياد حجم الحزب في انكشاف أمره.

في أوائل تشرين الثاني 1935 أوقفت السلطات الفرنسية قادته بمن فيهم سعادة الذي وقف موقفاً عنيداً، واستهان بالمحكمة عندما دعي باسم أنطوان، ولم يجب حتى استبدل الاسم بأنطون، وعندما وجهت إليه تهمة التآمر ضد أمن الدولة الداخلي، جابه المدعي العام: «الفرنسيون أنفسهم هم المتآمرون، ما داموا وقعوا على اتفاقية سايكس ـ بيكو».

اعترف سعادة خلال محاكمته بتأسيس الحزب، وصياغة عقيدته السورية القومية، وأنكر تآمره ضد أمن الدولة، وقال في معرض دفاعه: «إني أسست حزباً قومياً في السر، لا لكي يبقى في السر، بل ليظهر للملأ، معلناً تجدد أمة كان العالم يظنها ميتة». وأجاب على تهمة انتهاكه سلامة لبنان الجغرافية ووحدة أراضيه: «أراني مضطراً علمياً لا بالعاطفة للقول بأن خرق وحدة وطننا الجغرافية وانتهاك حرمة أرضنا قد تمّا بالفعل في سان ريمو وسيفر ولوزان» وأكد: «ونحن إذ نقوم بالحزب السوري القومي، لا نكون قد فعلنا أكثر من معاونة الدولة المنتدبة في مهمة الترقية، وذلك بالارتقاء بأنفسنا» غير أن السلطات الفرنسية ستحكم عليه بالسجن ستة أشهر؛ وفي سجن الرمل سيكتب كتابه المهم (نشوء الأمم)، وهو في الحادية والثلاثين من عمره، يشرح فيه مبادئ الحزب، ويرسم تضاريس السياسة والاقتصاد والاجتماع المدني، التي خصّت بلاد الشام بوحدة جغرافية متميزة. كان كتاباً متميزاً في موضوعه وأسلوبه وفي تناوله النظرة التاريخية الأنثروبولوجية لتطور المجتمع لفهم نشوء الأمم. تمثلت في الكتاب علمانيته وإيمانه بالعقل والعلوم الحديثة وحتمية التقدم البشري، وربط بين القومية والأمة والوطن، مشدّداً على

دور التاريخ في تكوين الأمم وبلورة شخصيتها، ومؤكداً أن قوة الأمة تنبع من حقيقتها ومن ذاتها، وكذلك من استقلاليتها السياسية والفكرية.

مرَّ الحزب بفترة اضطهاد قاسية، لم يضع حداً لها إطلاق سراح سعادة في أيار 1936، إذ سرعان ما اعتقل ثانية مع عدد من أتباعه بتهمة ارتكاب أعمال اعتداء ضد بعض الصحافيين؛ أدانته المحكمة وحُكم عليه بستة أشهر. بعد خروجه من السجن اتجه إلى تقوية تنظيم الحزب ورفع معنويات أعضائه؛ وابتدأ سلسلة من الزيارات إلى الفروع المختلفة خاصة في منطقة اللاذقية شمال سورية. في هذه الأثناء كانت مسألة فلسطين مع مشروع المعاهدتين السورية واللبنانية مع فرنسا قد أصبحتا من أهم شؤون الساعة؛ وانتقد سعادة في سلسلة رسائل مفتوحة موجهة إلى الحكومة السورية سياستها إزاء المفاوضات الفرنسية التركية بشأن سنجق الاسكندرون، وطالبها باتخاذ موقف حازم حياله. وفي 8 كانون الثاني 1937، وجه كتاباً إلى القنصل الفرنسي في بيروت، أعلن فيه استعداد الحزب للدفاع عن اسكندرون ضد العدوان التركي؛ لكن كانت تهدئة تركيا بالنسبة للسياسة الفرنسية أكثر أهمية من تلبية مطالب السوريين. بعد أقل من أسبوعين سيعلن الزعيم سعادة دستور الحزب السوري القومي الاجتماعي.

احتوى الدستور على المبادئ الثمانية الأساسية: 1- سورية للسوريين والسوريون أمة تامة. 2 ـ القضية السورية هي قضية قائمة بنفسها مستقلة كل الاستقلال عن أية قضية أخرى. 3 ـ القضية السورية هي قضية الأمة السورية والوطن السوري. 4 ـ الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي. 5 ـ الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية، وهي ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها. 6 ـ الأمة السورية مجتمع واحد. 7 ـ تستمد النهضة القومية السورية الاجتماعية روحها من مواهب الأمة السورية وتاريخها الثقافي السياسي القومي. 8 ـ مصلحة سورية فوق كل مصلحة.

وخمسة مبادئ إصلاحية هي: 1- فصل الدين عن الدولة. 2 ـ منع رجال الدين من التدخل في السياسة والقضاء القوميين. 3 ـ إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب. 4- إلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد القومي على أساس

الإنتاج، وإنصاف العمل وصيانة مصلحة الأمة والدولة. 5 . إعداد جيش قوي يكون ذا قيمة فعلية في تقرير مصير الأمة والوطن.

❖ ❖ ❖

لم يدم الهدوء طويلاً، قاد اشتباك بين الحزب وقوى الأمن اللبناني أثناء مهرجان حزبي كبير في بكفيا إلى توقيف سعادة للمرة الثالثة في 9 آذار، اتبعتها بحملة مضادة واسعة ومنظمة ضد الحزب. لم يحاكم سعادة هذه المرة، وإنما احتجز لبضعة أيام ثم أخلي سبيله، بعد تأكيدات منه لرئيس الوزراء عبد العزيز الأحدب بأن هدف الحزب ليس هدم كيان لبنان السياسي، بل وحدة الأمة السورية القومية، وهي شرط أساسي للوحدة السياسية التي ينادي بها كبار المسؤولين في الجمهورية اللبنانية. أطلقت الحكومة على الأثر سراح جميع أعضاء الحزب المحتجزين، ومنح سعادة رخصة لإصدار جريدة (النهضة). وسوف يكتب عدداً كبيراً من المقالات حول الشؤون السورية في خضم السياسات الاستعمارية، ومنها: «في شرق المتوسط: امتداد نفوذ السياسة البريطانية وتقلص نفوذ السياسة الفرنسية»، «على المتوسط: الخطر التركي»، «المعاهدتان السوية الفرنسية - اللبنانية الفرنسية»، «معاهدة لوزان وقضية المهاجرين السوريين»، «شرق البحر السوري»، «مصير المستعمرات مصيرنا؟».

استمرت هذه الفترة من التعايش السلمي مع السلطات اللبنانية أكثر من سنة ونصف. تمكن فيها سعادة من تعزيز وحدة الحزب، وتنظيفه بطرد أعضاء تذبذبوا في ولائهم له خلال فترات الملاحقة السابقة، وانسحب آخرون أو جمدوا عضويتهم نتيجة انتقادهم لعقيدة الحزب القومية، أو لخوفهم من الاضطهاد، كما انجذب كثيرون إلى مبادئه الإصلاحية؛ ومع هذا لم يستطع أن يصبح حركة جماهيرية ضاربة، ولم يتمكن من التجذر في البيئة الطائفية؛ فقد أدى نشوء (الكتائب) المسيحية في تشرين الثاني 1936، و(النجادة) الإسلامية في ربيع 1937، ونجاحهما السريع إلى تشكيل درع يفصل تأثير الحزب القومي عن الشعب؛ مما أشعر الحكومة اللبنانية بالأمان.

قرر سعادة عام 1938 السفر للقيام بجولة في أمريكا الشمالية والجنوبية، بهدف إطلاع الرأي العام الدولي على القضية السورية؛ بالإضافة إلى تنظيم

المغتربين السوريين والسعي للحصول على مساندتهم للنظام الجديد، الذي يأمل الحزب بتأسيسه في موطنهم الأصلي. في طريقه إلى أمريكا، توقف في فلسطين وتفقد الفروع الحزبية، وتوقف أيضاً في إيطاليا وألمانيا. فسر الحزب زيارة سعادة إلى برلين على أنها زيارة دعائية؛ غير أن السلطات الفرنسية اتهمت الحزب بالتواطؤ مع ألمانيا النازية، وحاولت تشويه سمعته بتصنيفه على أنه تنظيم فاشي عميل للألمان والطليان؛ ومع أن الحزب كان بأسلوب تنظيمه دكتاتورياً وغير ديمقراطي وذا ميول فاشية قوية، لم يكن هناك أي دليل على تبعيته لإيطالية أو ألمانيا. تابع سعادة سفره إلى البرازيل فالأرجنتين، حيث يتمتع بتأييد مجموعة ناشطة من المغتربين. غير أن الحرب العالمية الثانية ستندلع بعد فترة قصيرة من وصوله، ليجد نفسه منقطعاً عن الحزب ودون وسائل دعم مادي؛ وهكذا ابتدأت فترة اغترابه القسرية الطويلة.

في سورية ولبنان، أعلنت السلطات الفرنسية القانون العرفي، ومنعت الحزب من العمل، واعتقلت العديد من قياداته، وأطلقت حملة اضطهاد مكثفة ضد أعضائه. كانت التهمة كالمعتاد: التآمر ضد أمن الدولة الداخلي والخارجي. استمرت الاستجوابات سبعة أشهر، بُرِّئَ الحزب بعدها، ومع هذا أُتُّهم بالعمل دون رخصة، واستمر اعتقال مئات من الحزبيين واحتجازهم في معسكرات اعتقال دون محاكمة، واستمر الاضطهاد دونما هوادة حتى أواسط حزيران 1941، عندما أمر الجنرال دانتز المفوض السامي بإخلاء سبيلهم نتيجة توسط وفد من الوجهاء اللبنانيين. خلال غياب سعادة أخذ القادة يرسمون طريقاً مختلفاً للحزب، لا سيّما حينما حصلوا على رخصة من الحكومة اللبنانية للعمل تحت اسم الحزب القومي؛ مما عنى تراجعاً راديكالياً عن عقيدة الحزب القومية السورية، والتوجه نحو مشكلات لبنان المستقل المحلية أكثر مما هو نحو المشكلة القومية؛ ومع هذا كانت قوة الحزب في نمو مطرد خلال عامي 1945/1946.

❖ ❖ ❖

بمجرد عودته إلى لبنان، بادر سعادة إلى إحداث تغييرات في صلب عقيدة الحزب بطرحه تحديداً صارماً لمفهوم الوطن السوري؛ بعد أن كان مقتصراً على

سـورية التاريخيـة؛ (أي لبنـان وسـورية وفلسـطين وشـرق الأردن) مضـيفاً بـذلك العراق والكويت وقبرص إلى مفهوم الـوطن السـوري؛ وأجـرى حركة تطهيرات تُعتبر الأهم في تاريخ الحزب، وفصل ثلاثة من كبار الحزبيين القيـاديين مـن مسـؤولياتهم الحزبيـة بانتظـار مراجعـة كاملـة لقضـيتهم في وقت لاحق؛ وكانـت التهمـة الموجهـة إلـيهم هـي التمـرد والانحـراف عـن عقيـدة الحـزب السـوري القـومي الاجتمـاعي، بتحويله من حزب قومي إلى حـزب محلـي؛ يسـعى لـيس إلى بعث سـورية، وإنمـا إلى تكرار أسباب ضعفها القومي.

لم يتجـرأ أحد على الاعتراض، كانت صورة سعادة الحزبيـة صـورة زعـيم لا يخطئ، وزعامته المهيمنة قوية جداً إلى حد أن أفعالـه اعتبرت دائمـاً معصـومة عـن الزلـل؛ ومـن الطبيعـي عنـدما اتخـذ إجراءاتـه ألا يراجـع أعضـاء الحـزب أو يأخـذ موافقة المجلس الأعلى؛ كان مسيطراً تماماً على أتباعه الـذين تربّـوا علـى الإيمـان بوجود زعيم واحد للحزب فقط، والإذعـان لتفسـيراته الـتي كانـت لا تقبـل النقـاش، بحكم أنها التفسيرات الصحيحة للعقيدة.

شهدت مديريات الحـزب وتفرعاتهـا (المتنفـذيات) انتعاشـاً، وأخـذت تنمـو مـن جديـد في جميـع أنحـاء الـبلاد؛ وصـارت الوفـود الحزبيـة تتـوارد مـن أنحـاء لبنـان وسـورية والأردن وفلسـطين للقـاء الـزعيم. في شـهر تمـوز 1947، عنـدما صـدرت النشرة الحزبية الأسبوعية، كان سعادة قد أعطى تعليماته لعميد الإذاعة (الدعاية والإعلام) بأن يطبع على غـلاف النشـرة بـالألوان الحزبيـة (وهـي الأسـود والأحمـر والأبيض) شعار الزوبعة بشكل كبير وبارز، بمثابة تحدٍ جديد للسلطة، إعلانـاً بـأن الحـزب قـد عـاد إلى سـاحة الصـراع، وعـادت معـه التعـابير الحزبيـة القديمـة إلى التداول وانتشر استعمال كلمة سورية والتحية الحزبية القديمة (تحيا سورية) وعم الجميع شعور دافق بأن الحزب قد استعاد عقيدته بعد أن كان (يتلبنن).

أعـاد سـعادة تنظـيم قيـادة الحـزب المركزيـة، فعـين عـدداً كـبيراً مـن الأعضـاء الشبان، أكثريتهم مـن الطلبـة الجـامعيين، وأغلـب هـذه التعيينـات في عمـدتي الثقافـة والإذاعـة؛ وظيفتهم الرئيسـية نشـر العقيـدة وتلقـين الأعضـاء، مـا يـدل علـى الأهميـة التي أولاهـا سـعادة لبـث أفكاره ومنـع قيـام أي انحـراف أيـديولوجي، وحصـر سـلطات الإذاعة والثقافة بنفسه. ولم يكن اختيـار الـوكلاء لقـدرتهم التنظيميـة أو الإداريـة، بـل

لولائهم له واستعدادهم لتقبل الأيديولوجيا الجديدة ونشرها، ضمن خطة لتنظيم الحزب على أسس عقيدة كلية شاملة. ومن أجل تفادي التفسير الفردي لهذه العقيدة، أخذ بتفصيلها وشرحها في سلسلة محاضرات مرتجلة ألقاها في ندوة الحزب الثقافية، بين 7 كانون الثاني و4 نيسان 1948؛ أصبحت الشرح النهائي الرسمي لعقيدة الحزب. اقتصرت المحاضرات على أعضاء ندوة الحزب، ثم أصبحت مفتوحة للجميع. وما كاد سعادة يكمل صياغة عقيدة الحزب، حتى شنَّ حملة من أقسى حملاته ضد القوميين العرب واللبنانيين الذين اتهمهم بخيانة القضية القومية، وأعلن في سلسلة مقالات نشرت في صحيفة (كل شيء)، أن العروبة كعقيدة قومية قد أثبتت فشلها؛ وأشار إلى هزيمة القوات العربية في فلسطين كأرقى مظهر على ما دعاه إفلاس العروبة؛ وعزا الهزيمة المخجلة ليس إلى تفوق القوات الإسرائيلية، بل إلى العقلية التي واجه بها العرب المسألة الفلسطينية.

اعتبرت كثير من الدوائر العربية نقد سعادة نقداً شرعياً لوجهة النظر العربية التقليدية؛ ورفعت مقالاته معنويات الحزبيين، ودفعت حرارة النقاش العام العديد من القوميين العرب السابقين إلى الدخول في صفوفه؛ أما الزعماء السياسيين التقليديين، ومنهم رياض الصلح وغيره فقد انزعجوا من نجاحاته - ولو كانت محدودة - بين قطاعات من السكان كانت تعتبر من مسانديهم الطبيعيين. ويُعتقد أنه في ذلك الوقت نحو نهاية سنة 1948 بدأت فكرة التخلص من سعادة وحزبه تختمر في أذهان خصومه؛ إذ أخذت المعارك الكلامية بالتصاعد بين الحزب والحكومة، وكانت جريدة الحزب (الجيل الجديد) قد منعت في نيسان، ولم يسمح لها بالصدور إلا بعد عام؛ كما عطلت قوى الأمن اجتماعات ومهرجانات حزبية كثيرة. ومع أن أعضاء الحزب لم يُضطهدوا علانية، بيد أنهم اكتشفوا أن عضويتهم في الحزب تحرمهم من المناصب الحكومية والوظائف في الدولة.

ومما زاد في عدم الثقة بين الطرفين، انقلاب حسني الزعيم في سورية 31 آذار 1949، وإقامة حكم عسكري، بدا للحكومة بأنه يشكل خطراً على لبنان؛ مما جعلها تضاعف رقابتها على الحزب لازدياد شكوكها بتحركاته، بل وتعزم على وضع حد لسعادة. لكن كان عليها انتظار الفرصة المواتية لذلك.

حان الوقت لتنفيذ خطة الحكومة مساء 9 حزيران، عندما حصل اشتباك بين عدد كبير من أعضاء جماعة (الكتائب) المسلحين وبعض الأعضاء المسلحين من الحزب؛ بدا وكأنه أعد مسبقاً بالتنسيق بين الكتائب والسلطة؛ فقد سُحبت قوات الشرطة من المخفر القريب لمطبعة الحزب قبل الهجوم بساعتين؛ كذلك لم تلبِّ قوة المخابرات الطلبات الملحة من أعضاء الحزب بالتدخل لإنهاء الاشتباك؛ إلا بعد اندلاع النار في البناء. عندئذ سارعت قوات الحكومة متخذة الحادثة ذريعة لاعتقال عناصر الحزب المتواجدين في المكان، وباشرت حملة ملاحقة ضارية ضد الحزب. حتى بلغ عدد المعتقلين خلال أيام قليلة أكثر من 2500، وكالعادة كانت التهمة أن الحزب يتآمر ضد سلامة الدولة.

انسحب سعادة إلى الجبل، قبل وصول قوى الأمن إلى منزله بمدة قصيرة؛ وأصدر من فوره نداءات اتهم فيها الحكومة بانتهاك حقوق مواطنيها؛ لا لسبب إلا لكونهم أعضاء في الحزب السوري القومي الاجتماعي. ومع ازدياد حدة الملاحقات والاعتقالات، ازداد سعادة عدائية أكثر فأكثر في لهجته، وهرب أخيراً إلى سورية، حيث استقبله علانية حسني الزعيم، الذي أصبح رئيساً للجمهورية؛ فشجع سعادة ووعده بتسليح الحزب ومساندته في معركته؛ عندها أعلن سعادة - مستقوياً بالوعد - أنه في حالة حرب ضد الحكومة اللبنانية. وباشرت ميليشيا الحزب المسلحة مهاجمة مراكز حكومية في أجزاء مختلفة من البلاد، كانت الثورة في طريقها إلى الاشتعال، لكن العرض بالمساعدة لم يدم طويلاً.

أحس سعادة بأن حسني الزعيم متردد وقد ينقلب عليه، وبالتالي لم يعد يتوقع أن تنقلب مناوشات حزبه إلى حرب، ولا أن تنقلب الحرب إلى ثورة. وحسب زوجته جولييت المير، أنها سألته: هل أنت متأكد من نجاح الثورة مئة بالمئة؟ قال: ولا خمسين بالمئة. قالت: لماذا هذه المجازفة؟ قال: لا بد أن نرد على الحكومة اللبنانية بعد أن صفعتنا بكرامتنا، وانتهكت حرمة القانون وحقوق المواطنين. لقد رأيت أن تؤجل هذه العملية، وكتبت لرفقائي في لبنان أخبرهم عن الوعود التي أعطيت، والحنث بهذه الوعود. فأجابوا: إنهم ليسوا مستعدين للتراجع عن الثورة، وإذا أردت تأجيلها فهم سيمشون لوحدهم. وقال لزوجته: كيف أترك رفقائي يتحملون هذه المسؤولية؟ لا بد أن أتحمّلها أنا. فقالت له: هل وضعت خطة

لسلامتك في حال فشلت الثورة؟ قال: ومتى كان الزعيم يفكر بنفسه؟ قالت: ولكن أنت لست لنفسك، كلنا أشخاص نعوّض بغيرنا، لكن أنتَ شيء آخر. فلم يجب.

نكث حسني الزعيم بتعهداته للحزب، وغدر بسعادة، ولم يكن في هذا لغزاً، كان هناك اتفاق على التخلص منه، شارك فيه الجميع سواء بالضغط أو المباركة أو الصمت؛ فالحكومة اللبنانية التي كانت تسعى لتكريس الكيان اللبناني بحدوده الحالية بعد خروج الفرنسيين، خشي رئيس وزرائها رياض الصلح منه، لا سيّما أنه كان ينظر إلى حزبه على أنه طابور خامس يعمل لمصلحة السوريين؛ فلم يأمن لسعادة ألا يستغل طموحات حسني الزعيم ويغرر به، وأن يدفعه إلى الإقدام على مغامرة عسكرية في لبنان، وبهذا تتحقق مآربهما، فاستنجد بالفرنسيين والمصريين للجم الزعيم، والقضاء على سعادة. في ذلك الوقت كان حسني الزعيم يسعى لتحصين حكمه بإقامة حلف مع مصر والسعودية ولبنان؛ مما عرّضه إلى ضغوط من السفير الفرنسي الذي حذره من خطر وجود سعادة في سورية، كما توالت الضغوط المصرية تنصحه بالتخلص منه؛ بالإضافة إلى تأثير رئيس وزرائه محسن البرازي المعروف بكرهه للحزب القومي السوري؛ فأثمرت أخيراً الجهود الملحاحة لرياض الصلح، وانصاع حسني الزعيم تحت تأثير أوهام كسب الدعم العربي والغربي؛ وعدم قدرته على حماية سعادة، وقبل بتسليمه إلى الحكومة اللبنانية، مع أنه أقسم بشرفه ألا يسلمه بعدما منحه الأمان.

في مساء 7 تموز، ذهب سعادة إلى القصر الرئاسي في دمشق للاجتماع بالرئيس حسن الزعيم، كما كان مقرراً في اليوم الفائت، فاعتقله حراس القصر، وأضحى بعد ساعتين بعهدة السلطات اللبنانية. اقتيد مباشرة إلى المحكمة العسكرية، وحوكم سراً بتهمة الخيانة العظمى، وصدر عليه حكم بالإعدام رمياً بالرصاص.

قبل الفجر، أُيقظ سعادة، وأبلغه المدعي العام أن لجنة العفو صدقت الحكم بالإعدام، كما صادق عليه فخامة رئيس الجمهورية بشارة الخوري؛ ولما باشر بقراءة المرسوم، قاطعه سعادة: يكفي يكفي! وسئل عما إذا كان يريد طعاماً أو قهوة، فطلب قهوة. قُدمت له سيكارة، فاعتذر بأنه لا يدخن كثيراً. ثم قال بأنه يرغب في تسجيل كلمة للتاريخ، فأُذن له. فقال: «إنني أعتبر الحكومة اللبنانية

قامت بمؤامرة ضدي وضد حزبي، لكنني أنظر إلى الذين تآمروا عليّ، وإلى الذين حكموا عليَّ بالإعدام، وإلى الذين سيعدمونني نظرة ازدراء».

عندما خلا به الكاهن، سأله إن كان يريد القيام بواجباته الدينية. فأجاب: لم لا؟! وطلب منه أن يعترف. فقال: «ليس لي من خطيئة أرجو العفو من أجلها، أنا لم أسرق، لم أدجل، لم أشهد بالزور، لم أقتل، لم أخدع، لم أسبب تعاسة لأحد». وطلب رؤية زوجته وبناته. وقوبل طلبه بالرفض ثلاث مرّات. ورغم صلابته، بان عليه التأثر، ونزلت دمعة من عينه، ثم ابتسم ابتسامة لم تخف مرارتها.

أركعوه وشدوا وثاقه على العمود، فآلمت الحصى ركبتيه. فسألهم، إن كان من الممكن إبعاد الحصى. فأبعدوها، فقال لهم: شكراً، شكراً. رددها مرتين وقطع ثالثتها الرصاص.

كان ذلك فجر 8 تموز 1949، وتحديداً عند الساعة الثالثة إلا تسع دقائق فجراً، عندما أُطلقت عليه إحدى عشرة رصاصة من اثنتي عشرة بندقية، تلتها رصاصة الرحمة. ثم تقدم الطبيب الشرعي وعاين الجثة وأعلن الوفاة.

صباح 9 تموز، أعلن كامل مروة في صحيفته (الحياة): إن سعادة أول لبناني أُعدم لأسباب سياسية منذ الحرب العظمى.

كان إعدام سعادة أكبر كارثة لحقت بالحزب السوري القومي الاجتماعي، وبالرغم من التنكيل بالحزب، فلم تؤد إلى زواله كما توقعت الحكومة والجماعات المناوئة، وإنما ولدت موجة من التعاطف الشعبي الكبير، لم تترجم إلى عمل فعال ضد الحكومة، ولا إلى تأييد كلي في لبنان. لكن الحزب سيثأر لسعادة في سورية أولاً، حيث كان لإعدامه مضاعفات كبيرة وسريعة بالنسبة لتوازن القوى في الجيش؛ دفعت الضباط القوميين السوريين إلى مساندة الانقلاب الثاني بتاريخ 14 آب 1949، والقبض على حسني الزعيم ومحاكمته مع رئيس وزرائه البرازي محاكمة كانت سريعة جداً، وأصدر عليهما حكماً بالإعدام، نفذه الضباط القوميون السوريون فوراً بوحشية فاقت إعدام سعادة. كذلك بعد سنتين، بينما كان رياض الصلح في الأردن ترصده ثلاثة من القوميين السوريين وقتلوه وهو في سيارته بتاريخ 16 تموز 1951.

أثبت سعادة بموته وفاءه لما نادى به: «إن الشهادة حق للأمة، لأن الدماء التي تجري في عروقنا هي وديعة الأمة فينا متى طلبتها وجدتها». ولقد ذهب إلى الموت بجسارة، مؤمناً بالمبادئ التي عاش من أجلها، ولم يتقاعس عن الموت في سبيلها. وترك خلفه ذخيرة فكرية كبيرة ومثالاً نضالياً نادراً، جعله يتمتع رغم غيابه بحضور ماثل وجودَه، لم يتأخر كثير من الحزبيين عن الإقتداء به. اليوم، بعد مرور أكثر من نصف قرن على رحيله، ما زال الحزب يحتفظ له بمكانة زعيم ملهم؛ يخاطبهم حتى الآن: «كلامي لأجيال لم تولد بعد... والمعرفة قوة... وإن فيكم قوة لو فعلت لغيّرت وجه التاريخ».

امتلك سعادة كاريزما هائلة، من الصعب مقاومتها، كانت لديه القدرة على الإقناع، وكان ينجح على الدوام في نقل إيمانه بقضيته إلى الآخرين؛ كان مجرد حضوره يجعل من حوله يغيبون عن الوجود ليتعلقوا به، وحده فقط، وربما في استقبال الجماهير الحزبية له بعد غياب تسع سنوات، يصور شيئاً من ذلك الانجذاب، تجلى عندما خطب فيهم: ... كانوا ينظرون إليه وهم بلا حراك، لا يصدقون ما يرون وما يسمعون، الدمع ينهمر من عيونهم، ومن شدة فرحهم يعانق بعضهم بعضاً ويلهجون قائلين: «سعادة رجع، رجع سعادة، الحزب رجع». وفي وصف المفكر المرموق هشام شرابي لتلك الحالة التي يبثها سعادة ليس بين العامة، وإنما بين المثقفين أيضاً، ما يفسر بعضاً من تأثيره الكاسح:

«طغت شخصية سعادة عليَّ كلياً، ولم يكن باستطاعتي إثارة التساؤلات حول موضوعات مبدئية وعقائدية وتنظيمية، فأخذت موقفاً مؤيداً له مئة بالمئة رافضاً كل نقد أو معارضة... كذلك مواقفه الفكرية، التي كنت بيني وبين نفسي أتردد في قبولها، مثل إسباغه صفة الكلية على المجتمع واعتباره قيمة نهائية بحد ذاته، ونظرته إلى الفرد هو مجرد وسيلة يستعملها المجتمع لتحقيق أهدافه، وأن المجتمع يمثل (الحقيقة) الثابتة الباقية، أما الأفراد (فيتساقطون كأوراق الخريف)، وأيضاً مناداته باقتصاد قومي يقوم على الإنتاج الرأسمالي دون تغيير في ملكية قوى الإنتاج؛ ولم أبدِ أيةَ معارضة لأسلوب التفكير الذي كان يمارسه؛ بل خضعت له كما يخضع التلميذ لمعلمه أو الابن لسلطة أبيه، وربما كان سبب هذا كله أني لم أشعر

بالنفور الذي أشعر به اليوم نحو كل نظام هرمي يقوم على السلطة الفوقية؛ كنت غير قادر نفسياً على معارضة سعادة، أو مجابهته سلبياً بأي موضوع.

آمنت بسعادة، بأفكاري كلها ومشاعري كلها، وكان بالنسبة إليَّ القائد والبطل (الأب المثالي)؛ أحببته واحترمته كما لم احترم أو أحب أي إنسان آخر؛ وسيبقى سعادة بالنسبة إليَّ هكذا لا يتبدل حتى لو أصبحت في السبعين».

رسمت بدايات سعادة نهايته المأساوية في ذلك الاندفاع المبهر والحالم معاً، حاملاً طموحات وطنية لم يكن بوسعها أن تعمّ لكي تثمر، كانت أوسع من الكيانية اللبنانية، وأضيق مما يطالب به القوميون العرب. لكنه نجح في تحقيق التماسك بين الفكر والعمل، وذهب ضحيته، وربما كان هذا شأن هؤلاء الذي تقودهم رؤية لا تقل عن عقيدة، وينادون بمبادئ عظيمة وغامضة، غير واضحة وقاطعة، لا يتراجعون عنها حتى لو كلفتهم حياتهم.

بــدر الـديـن الـشــلاح

التاجر الشامي

(1905-1999)

«كنت أعمل مع والدي في تجارة الفواكه الطازجة والمجففة ومال القبان، حتى حين كنت في صغري في الكتّاب والمدرسة. وقد دفعتني نزعتي التجارية التي تكونت عندي من صحبته إلى أن أجرب العمل المنفرد وأنا عنده، فكنت أشتري كيساً من الخيار أو غيره، فأبيعه أمام المحل بالمفرق، وأحصل على ربح صاف يتراوح في ذلك الوقت بين نصف المجيدي والمجيدي، وهما من عملة تلك الأيام الفضية، ولهما قوة شرائية كبيرة. وبهذا الربح كنت أسدد ثمن ما يلزمني من كتب ودفاتر، لأن والدي كان لا يزيد مخصصاته لنا عن الحد الأدنى، مع أن مركزه التجاري كان مرموقاً من الناحيتين التجارية والاجتماعية، ولكنها كانت وجهة نظره في تربية الاعتماد على النفس».

في هذا المقطع يلخص شيخ تجار دمشق بدر الدين الشلاح النزعة التجارية التي استحوذت عليه في الصغر، وسوف يلاحظ أبوه وبكثير من الصواب ميل ابنه إلى المتاجرة فيضحي بتعليمه ويلحقه معه بالعمل، ولن تخيب نظرته فيه.

لم يكن بدر الدين قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره، عندما خاض في ذلك الوقت المبكر تجربة يصح القول عنها بأنها كانت مغامرة نادرة، دخل من خلالها معترك الحياة وعالم التجارة من أصعب المسالك، وأوسعها وأكثرها مشقة. وهي قصة تستحق أن تروى، لدلالاتها على الأساليب المعتمدة تجارياً في ذلك الزمن أوائل القرن العشرين، وما كانت عليه بلاد الشام من امتداد بلا حدود تحدها، ولا جمارك تعرقل تواصلها، أو حواجز تباعد ما بينها، وأيضاً ما سارت عليه التجارة من أعراف محلية افتقدتها فيما بعد:

كان لدى الوالد سليم الشلاح عامل يشتغل عنده، يرسله إلى فلسطين ليشتري لحسابه البطيخ والبرتقال، ليشحنه بالقطار إلى دمشق. وعادة يرافقه واحد من الأخوة. في أحد الأيام اعتذر العم عن مرافقة العامل، فأعرب الفتى بدر الدين لأبيه عن رغبته في السفر بدلاً من عمه. وافق الأب على أمل أن يتدرب ابنه، وأعطى للعامل 250 جنيهاً مصرياً لشراء البضاعة على أن يبقى هناك للتسوق، ويرسل البضاعة المشحونة مع الابن.

صباح اليوم التالي، سافرا إلى فلسطين بالقطار، ولما وصلا إلى العفولة، اشترى العامل شاحنتين من البطيخ، عاد بهما بدر الدين بالقطار. كان الطن من البطيخ يباع في دمشق قبل السفر بـ 800 قرش فضة، فارتفع سعره وبيع الطن بـ 1150 قرشاً فضياً. بعد الصفقة بيومين، أعطاه والده 200 جنيه مصري وأمره بالسفر، فانطلق إلى طولكرم واجتمع بالعامل وعاد بشاحنتين من البطيخ. في طريق العودة، لما وصل إلى درعا، كان أهالي حوران قد ثاروا على الحكومة الفرنسية التي أبعدت الأمير فيصل، وحصل شغب واستعر السلب في المحطة. فتذكر صديقين لوالده، لجأ إليهما وطلب مساعدتهما، فسارعا إلى المحطة وحالا دون نهب البضاعة. ومع أنه صادف مشترين في درعا، دفعوا ثمناً بالطن مبلغ 1400 قرش فضة، أي زيادة عما بيع قبل سفره، امتنع عن البيع، مدركاً أن الأسعار ارتفعت ثانية في غيابه. بعد وصول البضاعة إلى دمشق باعها والده بـ 1900 قرش فضة.

سرَّ الأب من امتناع ابنه عن البيع في درعا. وطلب منه السفر للمرة الثالثة، ما كاد القطار يصل إلى خربة غزالة، حتى وجد المحطة تغص بجموع الثوار الحوارنة المسلحين والذين أوقفوا القطار أربع ساعات وفتشوه مع الركاب، فتأخر وصوله إلى طولكرم إلى ما بعد منتصف الليل، ليجد العامل قد اشترى البطيخ ووضعه في الشاحنتين، ومازالت هناك كمية كبيرة باقية على الأرض. في موعد سفر القطار، فوجئوا بخبر مقتل عبد الرحمن باشا اليوسف بأيدي الثوار الحوارنة في خربة غزالة، واقتلاع السكك الحديدية وانقطاع المواصلات مع دمشق. فارتأى العامل أن يأخذ الشاحنتين إلى مصر ليبيعها هناك، بينما بقي بدر الدين مع ما تبقى من البطيخ في انتظار عودته، ينام على الأرض في العراء لمدة عشرين يوماً،

والذئاب تحوم من حوله وتعوي أصواتها في الليل. وعندما لم يعد العامل، أشار عليه البعض ببيع البطيخ في القدس، لأنه بدأ يفسد. فنقله على شاحنة وذهب به إلى القدس قاصداً عميلاً من التجار على صلة بوالده. ولما وقع بصر العميل عليه، بادره: ألست ابن سليم الشلاح؟ فقال نعم. قال له، أبوك يبحث عنك. فأخذ بدر الدين يبكي دون أن يعرف السبب، فطيب العميل خاطره وقال له: لا تزعل يا ابني والدك أخونا وأنت ولدنا. وأخذ منه بوالص الشحن وأرسله مع ولده إلى داره. تغسل وألبسوه ملابس جديدة، بعد مرور حوالي ثلاثة أسابيع دون حمام، عانى خلالها من الوحشة والقمل وقذارة ملابسه. بقي في ضيافة الرجل يومين، باع خلالها شاحنة البطيخ بـ 15 جنيهاً، ورجع إلى طولكرم، فلم يجد العامل، وإنما رجال الشرطة بانتظاره، قادوه إلى المخفر. كان الفلاحون البائعون، قد ادعوا أن العامل لم يدفع قيمة ما اشتراه من بطيخ، فأخذوا منه ما معه من مال، ولم يبق معه غير الفراطة، لا تكفيه سوى أجرة الطريق إلى حيفا.

في حيفا، سأل عن صديق لوالده، فعرفه على الفور، وقال له بأنه تلقى برقيات من والده يسأل عنه. وأخذه إلى الحمام وألبسه ملابس جديدة، وأنزله ضيفاً في بيته، وعندما ذهب معه إلى الجامع لأداء الصلاة، سأله عدد من التجار عن هذا الصبي، فأخبرهم بقصته، فاندهشوا وقالوا، كيف يتهاون أهل الشام بأولادهم، هل من المعقول أن يُرسل ولد إلى الغربة، وهو لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره؟! في الصباح أركبه سيارة «لانسيه» تقل ثمانية ركاب، إلى بيروت عن طريق حيفا لأن الخط الحديدي لا يزال معطلاً.

كانت الطريق المؤدية إلى بيروت غير معبدة وعلى مقربة من الشاطئ، فكان الموج يصيب السيارة ويطفئ المحرك، وإذا ابتعدت عن الماء تغرز في الرمل. لم تتجاوز السيارة بلدة صور حتى ثقب الدولاب، فنزل بدر الدين في الخان، وقعد ينتظر عودة السائق الذي أخذ الدولاب معه ليصلحه. لم يكن معه إلا بضعة قروش، فبقي ثلاثة أيام يأكل كل يوم رغيفاً على قدر ما معه من دراهم، إلى أن رجع السائق. في بيروت قصد أحد عملاء أبيه في سوق الخضرة، والذي استقبله معاتباً، بأنه شغل بالهم لكثرة سؤال أبيه عنه. ونام تلك الليلة لديه في بيته، وفي الصباح أركبه في القطار، ووصل إلى محطة البرامكة عند الغروب. وعندما دخل

إلى البيت، وجد الأسرة بكاملها في انتظاره، وعندما طلب يد الوالد ليقبلها، انتتر قائلاً له: الله لا كان جابك. وعندئذ انفجرت أصوات البكاء المحبوسة.

على أن أبيه سيمنحه ثقته من بعدها، لجده ومثابرته على العمل، ودليلاً على ثقته الكاملة به، سيسلمه مفتاح صندوق الحديد، حيث توضع غلة آخر اليوم، ومنذئذ سيتولى القبض والصرف قلّ المبلغ أم كثر. ولن يمضي أكثر من عقد من الزمن على مزاولته مهنة بيع الخضار والفواكه، حتى يبرز كصاحب مصلحة وابن سوق محترف من طراز عملي فريد، ويبرع في التجارة وغيرها، يتوسع فيها حتى تتشعب أعماله إلى كل ما يمت بصلة إليها من زراعة وآلات وأراضي. بعدها سيطور أعماله المتنوعة، وينجز ما تعجز عنه مؤسسات بحالها، ويصبح بعد عدة عقود حسب مقال نشر في مجلة (نير أيست بيزنس) الأمريكية عام 1977 الرجل الذي يتربع فوق إمبراطورية الشلاح المالية، في بناء قديم يعود إلى العهد التركي، يقع في المركز الرئيسي لسوق العاصمة دمشق، في محيط سوق الهال بشارع فيصل الأول، يمارس عمله بين ضجيج السيارات وصرير العربات وصخب أصوات الحمالين والباعة وزبائن يساومون على كل شيء، وفضاء يعبق بروائح اللحوم والزيوت والشواء والطيور من الأسواق القريبة المجاورة.

في هذا المكان نشأ واحد من أكبر التجار المصدرين في المنطقة، عقد صلاته التجارية مع العالم العربي والعالم الغربي، وعرض ثمرات تجاربه في العالم، وزاره أهم التجار والمستثمرين والمستوردين وكبار المسؤولين العرب، وحتى رؤوساء دول من بينهم رئيس دولة أمريكا جيمي كارتر.

❖ ❖ ❖

ولد بدر الدين الشلاح عام 1905 في حي سوق ساروجة حارة قولي، وهو الابن الثالث من ستة أبناء للتاجر سليم الشلاح، وكان من تجار الفواكه والمجففات (قمر الدين) ومال القبان، يسوّقها بين دمشق ولبنان وفلسطين ومصر. ربى الحاج سليم أولاده على الأمانة والاستقامة والحرص الشديد، يعطيهم خرجياتهم الأسبوعية بمقادير قليلة، تسمح لهم بالنزر القليل من الترفيه. وكانت لا تزيد في

ذلك الوقت عن ربع مجيدي. كان حازماً، لا يتسامح معهم في حال أخطؤوا، وقد لا يكتفي بتأنيبهم، بل ويعاقبهم وإن كان برفق.

كسائر الأطفال، مع بلوغه الخامسة من عمره، أُرسل إلى «الخجا»؛ والخجا، امرأة تعلم الأطفال الذكور والإناث معاً، على القراءة والكتابة، لاسيما القرآن الكريم في مكان عبارة عن غرفة من دار يجلس فيها الأطفال على الأرض، وتحمل الخجا عصا طويلة تشير بها إلى الأولاد كلٍ بدوره بالقراءة، وعند اللزوم تطول المشاغب بالضرب بها. بعد أن ختم القرآن قراءة، انتقل إلى الكُتَّاب في مدرسة الشيخ عيد السفرجلاني، وتقع قرب باب الكلاسة، الباب الشمالي للجامع الأموي الكبير. بعد عامين انتقل إلى مدرسة «تربية أفكار» التركية في سوق ساروجة حارة العبيد. أمضى فيها ستة أشهر، ثم انتقل إلى مدرسة الملك الظاهر الحكومية، فمدرسة انموذج المرجة؛ وبقي فيها إلى نهاية العام الدراسي، ونجح نجاحاً ممتازاً.

وعلى الرغم من رغبته في التعلم، سيتعرض لإغراء العمل الحر، بعد انشغال والده في بناء وكالته في خان الباشا. فترك المدرسة واشتغل في المحل، بينما سيكمل أشقاؤه أنور ورشاد تحصيلهم في المدرسة ويتابعون دراساتهم العليا في الخارج، ويبقى مع أخيه شفيق لمعاونة الوالد في أعماله التجارية، وكانا ما يزالان حديثي السن. ومن الآن فصاعداً، سيرتبط الأخوان برباط الشراكة، وما ينطبق على شفيق الشلاح (أبو موفق) ينطبق على بدر الدين (أبو راتب) ويصبحان حسب قولهما: جسم واحد وتفكير واحد وقلب واحد. ومع هذا سيتحسران طوال العمر على عدم إتمام تعليمهما.

ولن يطول الوقت عندما سيسكن الشقيقان مع أمهما في بيت منفصل عن بيت أبيهم وزوجته الجديدة، ويتخصصان أيضاً بمحل مستقل عن عمل الوالد، ومع أنه غبنهما وقسا عليهما في القسمة، ثم طلب منهما فيما بعد إخلاء الدكان، أو دفع أجرته خمسون ليرة ذهبية سنوياً في حين لم يكن يساوي أكثر من خمس عشرة ليرة ذهبية، فقد انصاعا لطلبه، لمعرفتهما بأنه لم يصر على هذا الطلب إلا بهدف أن يعودا إلى العمل لديه في الدكان والسكن معه في البيت. هذه الحادثة وغيرها، كما يتذكرها بدر الدين، تبدو قاسية في مظهرها، لكن كان ملؤها الرحمة

في باطنها، وعلمته أكثر من درس، أولها أن يكون مطيعاً لأبيه في كل شيء، وألا يراجعه في أية مسألة. وأن يكون مطلبه على الدوام نوال رضاه.

كان عمله يبدأ قبل شروق الشمس في بيع المحاصيل بالجملة، ثم يقضي النهار في إخراج الفواتير للفلاحين ونقل الدفاتر وجباية الديون وعمل الصوالح للمتعاملين. دون أن يظفر بفسحة للراحة أو للطعام. ولم يعمد إلى تنظيم وقته إلا بعد زمن طويل، عقب إطلاعه عن طريق أخيه رشاد على الأسلوب الأوربي في تنظيم أوقات العمل والراحة وفرض الانضباط. وعندما جرب برمجة العمل، وعمد إلى ارتداء الحلة الإفرنجية، ومنذئذ عُرف بالوردة الحمراء على عروة جاكتته والطربوش الأحمر فوق رأسه، رمزاً للتاجر الشامي الحريص على مكانته وتاريخه، والتمسك بالأريحية مع الدقة في التعامل. فازدهرت أعماله وربح السمعة الحسنة والثقة في الوسط التجاري. وأخذ كبار تجار سوق الهال يشركونه في مشاوراتهم واجتماعاتهم.

في عام 1932 جرى الاتفاق في السوق على تأسيس شركة مساهمة لتصدير الفواكه والمجففات إلى فلسطين، هدفها تجاوز العمل الفردي والمنافسة الضارة والخلاص من الفوضى، بعد أن حلت الخسائر بالكثيرين نتيجة لغياب التنظيم. فانتُخب مراقباً للشركة بصلاحيات تفوق صلاحية الرئيس. ابتدأت الشركة بـ 50000 سهم باعوا منها 12000 سهم، استمرت الشركة عاماً كاملاً، حققت فيه أرباحاً كبيرة، لكنها لم تستمر، ولو بقيت لكانت من أكبر الشركات.

في العام التالي، اقترح الوالد إنشاء معمل للكونسروة بتجهيزات بسيطة، لكن ابنه أنور العائد من أمريكا بعد أن حاز على شهادة ماجستير في الكيمياء والتجارة، اقترح تخصيص مبلغ كبير لشراء تجهيزات عصرية حديثة على مستوى التكنولوجيا الأمريكية. لكن الوالد رفض المجازفة بمبلغ كبير، خاصة وأن المال كان قليلاً في أيدي الناس آنئذ. كان اكبر تاجر لا يوجد لديه مبالغ نقدية تزيد عن ألفي ليرة ذهبية عثمانية. وكانت الأرباح زهيدة، حتى أن تاجر مال القبان لا يربح في كيس السكر الواحد أكثر من ربع ليرة سورية، وبائع نصف الجملة في سوق البزورية يكتفي بثمن الكيس الفارغ، كما كان صندوق الشاي يربح فقط، ثمن الصندوق الخشبي أي (الفارغة).

أتاح لهم أخوهم أنور بتعليمه العالي الإطلاع على إمكانيات تحسين إنتاج الأغذية وذلك بحفظها وتعليبها. بدأها بالاختبارات في المطريانات الفارغة. فأنزلوا إلى السوق البامية والمربيات المعلبة. وركزوا اهتمامهم على إنتاج القمر الدين، وهو عبارة عن صفائح طويلة من المشمش الحلو المعصور باليد، تمكنوا من إنتاجه بكميات كبيرة بعد استعمالهم لمادة السلفر، وتطوير صناعته باختراع آلات حديثة.

في عام 1937 شهد السوق انطلاقة تجارية نشطة من جراء الحرب الأهلية الأسبانية. فقد كانت أسبانيا تصدر المشمش إلى إنكلترا، التي اضطرت إلى البحث عنه في سورية، وكانت طلبياتها كبيرة، فأقدم الأب مع الأخوة على عقد شركة فيما بينهم، وضمنوا محصول معظم بساتين المشمش، وأحدثوا أربعين ورشة مزودة بالعبوات والزيوت وحيوانات الجر لجمع المحصول. وقد جمعت ورشة جرمانا أكثر من أربعمئة عاملة، وزاد عدد عمال الورشات عن ثمانمئة عامل، تم تزويدهم بسلالم القطاف ودفوف التجفيف.

كما اشتد الطلب العالمي على المشمش المصنع، فتابعوا في العام التالي تعهدات التصدير، وصادف أن مواسم الزيتون في أسبانيا كانت ضئيلة، فاضطرت ايطاليا إلى استيراد الزيت من سورية، وكانت تستورده لتصفيته من الأسيد، كما كانت الأسواق الأمريكية عطشى إلى مادة زيت الزيتون، فعقدت شركة الشلاح صفقات كبيرة لتصديره. في وقت كان التوتر الدولي ينذر بالمزيد من الأزمات.

كان العالم على أعتاب الحرب العالمية الثانية. ومع تفجرها في أيلول عام 1939 كانت لديهم كميات كبيرة من القمر الدين والجوز والنقوع معدة للتصدير إلى أوربة ومصر، لكن السلطة الفرنسية أصدرت قراراً بمنع تصدير المواد الغذائية حذراً من فقدانها، فبادروا لإقناع السلطات بالإفراج عن تصدير الأصناف المخزونة، ونجحوا في ذلك، وتمكنوا من إيجاد باخرة لنقلها. على أن ازدهار تجارتهم لم يحل ثانية من خلافات الأشقاء، فتم جرد موجودات الشركة. وعلى الرغم من الإجحاف الذي تمت به التصفية، أُنهيت الشركة حبياً بين الأخوة حرصاً على سمعة العائلة في السوق. وعاد بدر الدين مع أخيه شفيق للعمل معاً.

في الأعوام التالية، انعقدت آمال الشقيقين على منطقة الجزيرة، نتيجة لوضعها الممتاز في إنتاج الحبوب والذي ارتفعت أسعاره خلال الحرب ارتفاعاً كبيراً. فاتجهوا مع غيرهم من التجار لشراء الأراضي في الجزيرة للاستثمار الزراعي، لاسيما وقد بدأت تظهر بشائر الثروة في زراعة القطن. فقصدوا دير الزور، وتبين لهم هناك أن العشائر العربية كانت واضعة اليد على معظم الأراضي المحاذية لنهر الفرات من الجانبين. وفي الحسكة علموا أن جميع الأراضي الممتدة على ضفاف الخابور من الحسكة إلى رأس العين أعطيت إلى الآشوريين، فلم يتمكنوا من عقد صفقة، لكنه بعد سنة سينفرد مع أخيه شفيق بشراء أرض في القامشلي، أخذوا باستثمارها تحت إشراف وكيل.

تركز نشاط الأخوين في الثلاثينيات والأربعينيات على التجارة وتسويق المحاصيل الزراعية داخلياً وخارجياً عن طريق التصدير إلى البلاد العربية والأوربية، مما أكسبهما خبرة في الأسواق الخارجية وعلاقات جيدة مع أطراف كثيرة في العالم. مما دفع زملاءهم تجار الخضار والفواكه إلى انتخاب بدر الدين نقيباً لهم من عام 1932 حتى 1967. وكان من تأثير نجاحهما، توجيه عملهم في الزراعة نحو إنتاج المحاصيل الصالحة للتصدير كالجوز والتين والمشمش (مجفف وقمر الدين)، دون بقية الفواكه سريعة العطب، أي التي لا تعيش الزمن الكافي لوصولها إلى بلاد المقصد. وأدخلوا أصنافاً جديدة من المشمش عن طريق جلب أغراس من أمريكا لنوعين: «نيلتون» و «بلانهايم»؛ من خصائصهما أن ثمرهما كبير الحجم وحملهما كثير، ولا يتأثران بالصقيع إلا نادراً. جرى إدخالهما إلى سورية وزراعة أغراسهما في مزرعتهم بالعدمل، فأعطت ثمراً جيداً وفير الكمية. ثم قاموا بتطعيم مشتل كبير يحتوي على أعداد كبيرة من أغراس المشمش الكلابي، فحصلا على نوع بميزات جيدة. وفي عام 1977 كانت مزارعهم تنتج 250 طناً من المشمش، و100 طن من التفاح، و60 طن من الأجاص، عدا الدراق والتين والخوخ. وفي الأيام غير الموسمية، يزرعون الخيار والكوسا والباذنجان والبندورة.

بالمقابل، قاموا باستيراد الرز والسكر من مصر وإيران. وساهما في أيام الحرب بتخفيض سعر مادة الرز من 300 قرش للكيلو إلى 130 قرشاً، عن طريق تسليمهم الكميات المستوردة إلى الدولة ليجري توزيعها بالسعر النظامي. كما

توجهوا نحو أسواق العراق واستوردوا منها التمور. واقتضاهم توسع عمليات التصدير إلى المملكة العربية السعودية، فتح محل تجاري في جدة عام 1948، لتسويق المحاصيل الزراعية المنقولة بالطائرات التي تنقل الحجاج. وقد أغلق المحل مع بوادر النهضة الزراعية السعودية.

في عام 1942 اشتريا قرية العدمل الكائنة في أراضي المرج. وكان مشروعاً موفقاً، تمكنا من إحياء أرض موات بمساحة 2700 دونم، بالاستعانة بالآلات الزراعية الحديثة. باشرا في العام الأول بتشجير 150 دونماً، وحفر الآبار وإزالة التلال الترابية وردم المستنقعات، وإقامة الأبنية للسكن وحظائر للحيوانات ومستودعات للأعلاف واللوازم. كما اعتمدت أساليب جديدة في الري والتطعيم وإبادة الحشرات، حيث يجري رش السماد ممزوجاً بالماء والمبيدات على أوراق الشجر من مركز ثابت، وهي عملية لا توفر اليد العاملة فقط، بل ويتم تحاشي نمو الأعشاب أيضاً، وتمتص الأوراق السماد مباشرة. فسجل الكيس الواحد من بذار الحنطة في بداية استثمارها، حوالي ثلاثين كيساً من المحصول لأول مرة في تاريخ غوطة دمشق.

أصبحت العدمل من المزارع النموذجية في الشرق الأوسط، تحتوي على أشجار الفواكه من كل نوع وأشجار الحور، وباتت مقصد الزوار من البلاد العربية. وكتب عنها الأستاذ محمود أبو الفتح عضو مجلس الشيوخ المصري وصاحب أكبر مؤسسة صحفية في الشرق: «ليت البكوات عندنا في مصر، تركوا البكوية جانباً ونزلوا إلى ميدان العمل...لقد رأيت في زيارتي لدمشق في مزرعة السيد الشلاح صورة عن مزارع هولندا وسويسرا، وظننت أن القائم على هذه المزرعة شركة كبيرة لا إنسان بمفرده لا يعرف المستحيل».

❖ ❖ ❖

برز بدر الدين الشلاح في مجال العمل الوطني العام، وليس عن طريق النشاط السياسي الشائع المباشر بالانتساب إلى الأحزاب المتواجدة، وآمن دائماً بالإسهام بالعمل الاقتصادي والزراعي والتجاري والوقفي والخيري والإنساني. كان رأيه أنه إذا كانت السياسة تهدف إلى تحسين حال المجتمع، فهو يعمل فعلياً

بالسياسة، وبمختلف مناحيها، وعلى وجه التحديد في جوهرها على نحو يحقق الهدف المرجو منها. ولقد مارسها بحكم وجوده في طليعة فئة تجارية، تملي عليها مصالحها الاحتكاك الدائم بالمسؤولين، وتؤهلها فعالياتها مؤازرة العمل الوطني، خاصة في مجالات التموين والتمويل والتبرع.

كانت علاقات آل الشلاح مستمرة برجال العهود المختلفة التي تتالت على سورية. من العهد العثماني الذي عاصره الأب سليم الشلاح وكان على صلة وطيدة بمتنفذيه المحليين من الأتراك والعرب. وفي زمن الانتداب الفرنسي، عندما باشر الأخوة الشلاح تجاراتهم في بلاد الشام، وامتدت نشاطاتهم إلى مصر والسعودية والعراق، وعقدوا صلاتهم مع الكتلة الوطنية ورجالات الثورة السورية ورجال الحكم دون تمييز كتاج الدين الحسني وجميل الألشي وغيرهم. كذلك بعد الاستقلال، في العهد الوطني وماتلاه من انقلابات، كانوا خلالها على علاقات طيبة مع رجال السياسة مثل شكري القوتلي وصبري العسلي ولطفي الحفار وفخري البارودي؛ كذلك ضباط الانقلابات كالعقيد أديب الشيشكلي، فلم يصطدموا معهم. وفي عهد الوحدة، أيدوا عبد الناصر على الرغم من إجراءاته الاشتراكية التي أضرت بمصالحهم من تأميم ومنع استيراد وتقييد للحريات الاقتصادية، وهي سياسات بلغت أوجها مع حكومات حزب البعث من عام 1963 حتى عام 1970 مع قيام الحركة التصحيحية. بعدها بدأ الانفراج، بإرساء مبدأ التعددية الاقتصادية أحدثه الرئيس حافظ الأسد بعد وصوله إلى الحكم وتسلمه رئاسة الجمهورية.

ربطت بدر الدين الشلاح بالرئيس حافظ الأسد علاقة مودة خاصة، فكان الرئيس يستمزج رأيه في بعض المسائل الاقتصادية والتجارية والزراعية. وعندما دعاه رئيس الوزراء عبد الرحمن خليفاوي للمشاركة في الاحتفال بتدشين سد الفرات، كان من بين الشخصيات التي رافقت الرئيس عندما تمشى على جسم السد. وقد سأل الرئيس الأسد رئيس الوزراء خليفاوي: ماذا ستزرعون في الأراضي التي بدأ السد يرويها؟ أجابه اللواء: نسأل أبا راتب. فسألوه، رد على الفور: نزرع الحور بالدرجة الأولى لأن أسعاره عالية ونموه سريع ووارداته كبيرة جداً. وفي أول مقابلة تالية، ذهب إلى القصر الجمهوري بملابس العمل وفي يده

غرستان من الحور. ولما سئل عن سبب مجيئه بملابس العمل. قال أنا بدر الدين الشلاح نصفي مدني ونصفي فلاح. وعندما استفسره عما بيده؟ قال، إنها غرسة حور لايزيد وزنها الآن عن عشرين غراماً، لكنها ستصبح شجرة وزنها ثلاثة أطنان أو أربعة خلال عشرين سنة، أي ستتضاعف مئات آلاف المرات، في حين أن أي مال يوضع في المصرف لا يعطي أكثر من 4 إلى 6 بالمئة؛ والحور لا يكلف سوى سقاية واحدة كل شهر، ونستطيع بزراعته أن نخفف من استيراد الخشب. وأحس بأن الرئيس سرَّ من حديثه واقتنع به، بدليل أن الحور زرع فعلاً وعلى نطاق واسع في منطقة سد الفرات. وتبدى تأييده لسياسة الرئيس خلال الأحداث الدموية التي دارت بين السلطة والأخوان المسلمين في الثمانينيات، عندما وقفت غرفة تجارة دمشق بقيادة رئيسها الشلاح إلى جانب حافظ الأسد في صراعه، بامتناع تجار دمشق عن إغلاق متاجرهم، ورفضهم للعصيان المدني.

استطاع بدر الدين الشلاح بناء علاقات جيدة برجال الدولة وكبار المسؤولين على مختلف مراتبهم ومشاربهم وأحزابهم، علاقات كانت من طرفه قائمة على تقديم الرأي والمشورة لكل من يطلب منه، وكان عن طريق علاقاته بهم، يقوم بخدمة الناس، دون أن يأخذ طرف حزب أو شخص كي لا يفقد حريته، لأنه كما يقول، كانت له آراؤه المستقلة في خططهم، فتعامل معهم دون الالتزام بسياساتهم، فلم يسكت عن خطأ، لكنه استطاع إيجاد نقاط التقاء معهم، مكنته من إسداء النصيحة إليهم، بحكم قربه منهم، دون التورط معهم.

❖ ❖ ❖

تميزت مشاركات بدر الدين في المجال العام، بتحمل الكثير من الأعباء الاجتماعية والنقابية والإدارية والخيرية التطوعية. ففي عام 1951 على سبيل المثال، كان عضواً في غرفة تجارة دمشق، ومجلس الأوقاف، ولجنة ضريبة الدخل، ومجلس إدارة المعهد العربي الإسلامي، وجمعية الإسعاف الخيري، ورئيساً لمحفل إبراهيم الخليل الماسوني. إضافة إلى اللجان التحكيمية، كما غدا أحد المراجع الأولى والمعتمدة في دمشق، يُستعان به ويُسترشد برأيه في المؤسسات الرسمية والدوائر الحكومية والهيئات الشعبية. عدا عن لجوء الأصدقاء والمعارف والزملاء

من التجار إليه لحل مشكلاتهم، حتى تلك التي تدور بين أفراد الأسرة الواحدة، أو التوفيق بين زوجين. وسوف تبلغ النشاطات والمهام الإضافية التي أخذها على عاتقه مع نهاية السبعينيات، ما يزيد على الثلاثين. كان من بينها رئيساً لغرفة تجارة دمشق، ورئيساً لاتحاد الغرف السورية ، ورئيساً لاتحاد الغرف التجارية العربية، ونائب رئيس الغرف التجارية الإسلامية.

سياسته الاقتصادية لم تكن سراً، بل معلنة تنسجم مع عمله كتاجر. فإذا كان يطالب بسهولة الاتصال والمبادلة والتحويل، فلأن العمل التجاري يتطلب الحرية في العمل والاستيراد والتصدير؛ إذ حركة رأس المال لابد أن تلازمها الحيوية، لأن في دورانه السريع مضاعفة لجدواه، وفي تجميده إنقاص له. وليس معنى هذا إفلات العنان للمتاجرة والكسب كيفما اتفق، وإنما على التجارة التقيد بمعناها الشريف، إذ هي خدمة أساسها الربح الحلال، وعلى أن يكون طريقه مشروعاً.

وقد كانت لديه نظرات، نادى بها من واقع ممارسته لتجارة الجملة والمفرق، أحدها وقف الهدر نهائياً، لاسيما وأن العالم إزاء ما يعانيه من انفجار سكاني، صار بحاجة إلى كسرة الخبز وقطعة الزجاج والخشب والورق لإعادة تصنيعها. وبالتالي لم يعترض على حق الدولة في وضع خطة عامة للاحتياجات والقواعد الناظمة للاقتصاد على أن تُيسّر ولا تُعسّر. وأكد على أن يكون للإنتاج السلطان المطلق والأولوية في أية خطة اقتصادية، وأن يعطى الاهتمام والرعاية القصوى، وكذلك دعم التصدير وتنشيطه بمفهومه الواسع. ودعا الدولة إلى التماس الرحمة في المخالفات الاقتصادية، لأن المخالفة ليست جريمة، وإنما تدبير اقتصادي اقتضته الضرورة، والضرورة تقدر بقدرها. إذ ما يكون صحيحاً اليوم، قد يغدو ممنوعاً في الغد، وبالعكس.

ومع أنه لم يكمل تعليمه، ولم يمارس السياسة، كان هاوياً للمطالعة، ومتابعاً لمختلف الآراء السياسية، وقارئاً مجداً لمذكرات الزعماء السياسيين الوطنيين المحليين والعرب، والسياسيين الغربيين. وبدافع إعجابه بمذكرات القادة، اندفع وبشكل مبكر لكتابة مذكرات وخواطر يومية ومشاهدات وتعليقات شخصية على الأحداث التي مرت على البلاد منذ بداية القرن العشرين، واعتنى بتسجيل الوقائع والظواهر السياسية أكثر من غيرها، لكنه تفادياً لأي تفسير، عمد إلى حرقها عام

1966. ويبدو أنه اضطر إلى ذلك بعد وصول الفريق المتشدد من حزب البعث إلى السلطة بقيادة الثلاثي: صلاح جديد ونور الدين الأتاسي وصلاح زعين.

بيد أنه بعد اطمئنانه إلى تغير الأوضاع بعد نجاح الحركة التصحيحية، عاد إلى هواية الكتابة، يشبع فيها توقه إلى العلم والتعليم ذلك الذي فاته صغيراً وتحسر عليه كثيراً، ولم يبخل على أولاده بالتعلم في كبريات الجامعات الغربية، وحثهم على المزاوجة بين العلم والعمل، فأودع شهاداتهم بالدكتوراه في صندوق بمزرعته بالزبداني، وحمَّلهم بدلاً منها أدوات الزراعة والصناعة من رفش ومعول وأكياس سماد وأسمنت وألواح خشبية، والانغماس في أعمال الحراثة والبذار والسقاية والتعشيب والرش.

وقد أصدر بدر الدين الشلاح ثلاثة كتب:

1 . للتاريخ والذكرى (قصة جهد وعمر) 1990. لا يذهب في كتابه هذا إلى نشأته وزواجه وعلاقاته مع والده وأخوته فحسب، أو تطور أعماله أو رصد مجرى حياته وحصيلة عمره فقط، وإنما كان فيه مؤرخاً على وزن ابن مدينته الشيخ أحمد البديري الحلاق صاحب كتاب (حوادث دمشق اليومية 1154 .1175 هـ/ 1741 . 1762م) فكتب في تاريخ سورية منذ بدايات القرن الماضي: الحرب العالمية الأولى والمجاعة، وسجل بعض الأحداث كحريق السنجقدار وهبوط أول طائرة في دمشق، واستعمال الدراجات الأولى، وعربات الديليجانس. وقصة الثورة السورية، برجالها وأحداثها وشهدائها. كما وصف حارات دمشق القديمة، والحياة الاجتماعية فيها، وأساليب العيش، والتدفئة المنزلية بالفحم والحطب والمنقل. التنور والصاج، طرائق التموين بالقمح والكندوش. ويعرج بتفصيل على وحدات القياس القديمة: (المكاييل . عدانات المياه . مساحات بيع الأراضي) العملات وتبدل أسعارها منذ عام 1910، تسعير المحصولات، التعامل بالذهب، جدول بارتفاع أسعار الحبوب ومواد مال القبان منذ حوالي سبعين عاماً. الفاكهة السورية وأصنافها (العنب والزبيب، التفاح، أغراس التوت، الجوز، الثمار المنقرضة، أنواع المشمش). صناعة قمر الدين وتطويرها.

وألحق في كتابه رسائله إلى أولاده في الغربة، رسائل نقل إليهم فيها خبرات من سبقه وتجاربه الشخصية التي استقاها من مدرسة الحياة لا من الكتب والمجلدات. احتوت على تعليمات ونصائح من عناوينها: الاقتصاد في النفقات، طريق العلم أقصر طريق للنجاح، المحافظة على العادات الشرقية، التحذير من اليأس والتردد، المحافظة على مكانة العائلة، قيمة العلم، الحث على الدراسة، عدم الزواج من الأجنبيات، عقوق الأهل والوطن، رضا الوالدين، موازنة بين مجتمعنا والمجتمع الغربي، العمل أثناء الدراسة، الطلاب والسياسة....إلخ.

ويسجل في الكتاب نفسه، رحلاته التي بلغت ثماني عشرة رحلة، مع وصف دقيق لها ومشاهداته فيها. ابتدأت عام 1954 بالسفر إلى أوربا الغربية، ثم أمريكا والخليج العربي والاتحاد السوفيتي، والشرق الأقصى والدول الاشتراكية والصين الوطنية والهند والمغرب والصومال وكينيا، والسعودية أكثر من مرة.

2 ـ المسيرة التجارية (رجال ـ أحداث ـ آراء) 1992، ويحتوي على قصة الغرفة التجارية في دمشق مع جداول بأعضاء مجالس إدارتها ومعلومات عنهم وعن التجار السوريين المغتربين. واجتماعات اتحاد غرف التجارة السورية والعربية. بالإضافة إلى آرائه في الاقتصاد العربي ورجالاته والمذكرات التي قدمت في أكثر المواضيع شأناً وخطورة في الحياة الاقتصادية. ثم عن ضريبة الدخل وسيرة مدراء مالية دمشق، والشخصيات البارزة من عربية وأجنبية. كما يكتب عن دمشق وغوطتها ومزارعها وبساتينها، مع ثبت بالتواريخ الهامة في حياة الشعب السوري.

3 ـ من حصاد الأيام 1996. ويحتوي على شهادات عنه سطرها رجالات التجارة والاقتصاد. بالإضافة إلى كلمات ومداخلات في مناسبات مختلفة، ورسائل وكتب من خناف المعارف والناس، وحوارات مع الصحافة. وأحاديث من تجارب العمر في الحياة والتجارة والزراعة والطباع والزمان والدين.

لم يُخفِ بدر الدين في كتبه أن أباه سليم الشلاح كان ماسونياً، انتسب إليها بعد أن أقنعوه بأنها تنادي بالإنسانية والأخوة ونجدة الفقير والضعيف، وهذا في معرض إشارته إلى أن الوجيه توفيق بيضون كان أخاً ماسونياً لوالده وهو الذي توسط له كي تتنازل عائلة عن حقها الشخصي لقاء 75 ليرة ذهبية. وأكد على انتسابه شخصياً إلى الماسونية في عام 1948 محفل إبراهيم الخليل، بعد إلحاح

من أصدقائه، عقب قراءته لمقال في مجلة «كل جديد» يذكر فيه الكاتب أن كثيرين من رجال الوطنية في سورية هم من الماسونيين ومنهم: فارس الخوري، فايز الخوري، عبد الرحمن الكيالي، حسني البرازي، جميل مردم بك، يوسف الحكيم، الأمير عادل أرسلان، وعبد الحميد الحراكي وعشرات غيرهم؛ كلهم جمعتهم الرغبة في عمل الخير والقيام بالواجب نحو المجتمع. وقد انتخب في السنة الثالثة لدخوله رئيساً للمحفل. ثم ما لبث أن اعتذر خطياً لكثرة أعماله ونشاطاته، ومع ذلك أعادوا انتخابه غيابياً. وحسب قوله، لم يكن للماسونية المحلية السورية ارتباط أو تفاعل أو علاقة مع المحافل في الخارج سوى الشكل والمظهر، وإن كانت تعمل تحت هذا الاسم.

ومن المفترض أنه انسحب فعلياً عام 1965، عندما حظرت الماسونية رسميًّا في سورية، بموجب الأمر العرفي القاضي بـ«إلغاء الجمعية الماسونية المسماة بالمحفل الأكبر السوري العربي والمحافل التابعة له في جميع أنحاء القطر العربي السوري.» لأن الماسونية أضحت تُربَط بالصهيونية. مع أنه لم يكن هذا حالها حين نشوئها، إذ كانت تُربَط بالعلمانية والتحرر العقلي والحداثة. كما شاع عن الماسونية بسبب سريتها، ارتباطها بالمؤامرات، وأنها على علاقة بالإمبريالية الغربية. على أن الأمر المستغرب أن إحدى الصور المنشورة للشلاح وهو بلباس رئاسة المحفل توحي بأنها التقطت في الثمانينيات!!

❖ ❖ ❖

تحيلنا حياة بدر الدين الشلاح إلى أنموذج لتاجر سوري، حافظ على تقاليد أسرة تعمل في التجارة، وفي الوقت نفسه لم تتوان عن الاستفادة من التقنيات الحديثة، مع تطلع دائم نحو تطوير وسائل العمل التجاري والزراعي. وهي أسرة لم تكن مفردة، وإنما جزء من طبقة أرست تقاليد تعتمد الاستقامة والأمانة والصدق والثقة، على عكس ما يعتقد بعض الناس، بأنها قيم تنبذها براغماتية التجارة التي لا يهمها سوى الربح وجني المكاسب وتكديس الأموال. وأكثر ماتبرز تلك التقاليد في توخي الصالح العام وأعمال الخير التي تتجلى بالإسهام في بناء المساجد والمستوصفات والتبرعات للجمعيات الخيرية.

لم يتخلف بدر الدين عن المساهمة في هذه الأنشطة الاجتماعية، ولقد أوقف الكثير من العقارات لوجوه الخير، ومثلما تبرع بالمال استدرج الكثير من الأموال التي تبرع بها جهات وأشخاص من الداخل والخارج، لتلك الجمعيات التي أسهم في إدارتها، مثل مؤسسات رعاية الأطفال كدار الأيتام والإسعاف الخيري، ودعم الجمعية السورية لمكافحة السل ومستشفى السرطان وغيرها.

لم يكن نجاح الشلاح الحقيقي فيما حققه من مكاسب وأرباح، أو التواجد الراسخ في عالم التجارة كأحد أقطابه، ولا في ارتياد التجارة كمغامرة في المجهول، مهما كانت محسوبة، ولا في انتهاز فرص سانحة والاستفادة منها، أو في توقي أخطار الظروف القاهرة، ومواجهة تقلبات الأسعار المفاجئة والارتفاع أو الانخفاض الغامض للعرض أو الطلب. وإنما في أن حياته المهنية، كانت قصة رائدة، نجح صاحبها في الصمود والاستمرار في سوق لم تكن مستقرة بقدر ما كانت خاضعة طوال مسيرتها لشروط سياسية لا تدع لعبة التجارة حرة، أو لمصالح عليا وأحياناً دولية، سواء في الحكم التركي، أو الانتداب الفرنسي، وما تلاها من أوضاع مضطربة واكبت سنوات ما بعد الاستقلال، وانعكست نتائجها على عموم المشهد التجاري السوري. كما وتتميز جرأته في القدرة على البقاء على قيد الحياة التجارية إبان صعود المد الاشتراكي الطاغي واللاغي للملكيات الكبيرة والمحبط للمبادرات الفردية، والتعايش مع تسلط القوانين الاقتصادية المهددة لأي مخالفة بأقسى العقوبات والغرامات الفاحشة.

الأهم، لم يكن نجاح الشلاح وليد عهد، ولا بروز طبقة انتفعت من قوانين السماح والمنع، أو نتاج تحالفات مع المتنفذين في الدولة، وإنما نتيجة جهد شخصي، وفر فيه طاقاته ومواهبه لأمر واحد، التجارة التي أعطاها عمره.

❖ ❖ ❖

توفي بدر الدين الشلاح في عام 1999 عن عمر ناهز الرابعة والتسعين، مخلفاً أسرة زاد فيها تعداد أولاده وأحفاده عن التسعين فرداً.

سلمان المرشد

الحقيقة المغيَّبة

(1907- 1946)

ولد سلمان المرشد في العام /1907/ في قرية (جوبة برغال)، التي تقع في أعلى نقطة من جبل الشعرا من القسم الشمالي في جبال العلويين، في أسرةٍ فلاحيةٍ صغيرةٍ تعمل على غرار عائلات الجبل الأعلى في زراعة المساحات الشحيحةً من الأراضي، ورعاية الماعز الجبلي. ولقد تعرض الجبل الأعلى طيلة القرن التاسع عشر، وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) إلى إنهاكٍ متواصل بفعل الحملات التأديبية التي كانت تشنّها السلطة المركزية من مركز الولاية الواقع في طرابلس الشام؛ أو من خلال وحداتها المتمركزة في مدينة اللاذقية، التي كانت بلدةً صغيرةً للغاية. وإبان الفترة الانتقالية العاصفة الفاصلة بين نهاية الحكم العثماني والانتداب الفرنسي، كان الجبل الأعلى يعيش حالة تطاحنٍ بين العشائر الأساسية المكوّنة له؛ وهي عشائر الدّراوسة والعمامرة والمهالبة، اللاتي تشترك فيما بينها بروابط قربى وتحالف تاريخية، وباعتناقها مذهبيةً علويةً مشتركةً هي المذهبية الغيبية، حيث انقسمت كل عشيرةٍ من هذه العشائر على نفسها، وانهارت في هذا الانقسام الطاحن قياداتها التقليدية الممثلة بالمقدمين، التي باتت عاجزةً عن حفظ الأمن والنظام في مناطقها؛ وكان أبرز ضعفٍ أصابها هو الضعف الذي أصاب زعامة علي بدور مقدم عشيرة الدراوسة التي توارثت عائلته طيلة القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى زعامة الجبل الأعلى؛ ولا سيما زعامة عشائر العمامرة والدراوسة والمهالبة المتجاورة والمترابطة فيما بينها بعلاقات القرابة والتضامن العشائري التقليدي الذي يحكمه مبدأ: «حطّيط دم. أكّيل دم»؛ أي أنّ كل فردٍ في العشيرة يدفع حصته من الدية، فيما إذا ما كان القتيل من عشيرةٍ أخرى، أو يأخذ حصته منها فيما إذا

كان القتيل من العشيرة، أو يحارب بشكلٍ متراصٍ العشيرة الأخرى، في حالة عدم الاتفاق على الدية أو عدم الصلح.

كانت عشيرة العمامرة، التي ينتمي إليها سلمان المرشد، منقسمةً بفعل ذلك الصراع الطاحن ما بين العشائر الثلاث، وبينها وبين العشائر الأخرى. ولكن الاحتلال الفرنسي الذي بدأ بقيام الملازم دولاروش في أواخر العام /1918/ باحتلال مدينة اللاذقية، وكان أبرز متغيرٍ في هذه الانقسامات، إذ سيجعل دولاروش من تأديب العشائر المتطاحنة في قضاء صهيون الذي تتبع له نواحي الجبل الأعلى، أولويةً له تعلو على سائر الأولويات الأخرى. وفي هذا السياق تمكن دولاروش من الوصول إلى الجبل الأعلى، ومن استعراض أول درسٍ تأديبيٍ لزعامات العشائر المتطاحنة، عبر سحل (علي بدّور) الذي كان حتى فترةٍ قريبةٍ سيد الجبل الأعلى؛ وربطه بذيل الحصان على مرأى كافة الأهالي. لكن الجنرال غورو سيقوم، بعد معركة ميسلون والإجهاز على حكومة فيصل العربية، باستيعابه، ومنحه وسام جوقة الشرف الفرنسي، اعترافاً بدوره في التصدي لجبهة جسر الشغور التي قامت على قيادةٍ مشتركةٍ ما بين إبراهيم هنانو قائد ثورة الشمال والضبّاط الكماليين. كان الكماليون قد تحالفوا مع هنانو، وقاموا بفتح هذه الجبهة لتخفيف الضغط على قواتهم التي كانت تخوض حرباً ضروساً ضد القوات الفرنسية في كيليكيا. وقد تمكنت هذه الجبهة من مداهمة الحامية الفرنسية المتمركزة في بلدة صهيون مركز القضاء ومن حصارها؛ وهو ما يعرف بثورة صهيون في الحوليات التاريخية الوطنية السورية، التي كانت من أبرز أعمال جبهة جسر الشغور؛ وقام عمادها الأساسي على عشيرة صهيون السنية التي تميز رجالها دوماً بأنهم رجال جبليون أشدّاء. كانت العشائر العلوية القاطنة في الجبل الأعلى في البداية جزءاً من الثورة التي عملت على تحقيق الاتصال بين ثورة الشيخ صالح العلي في الجبل الجنوبي أو الأدنى وبين ثورة الشمال. وكانت جبهة جسر الشغور وثورتها في صهيون قاعدة هذا الاتصال، لكن ثورة صهيون سرعان ما غرقت في انقسامٍ طائفيٍ سنيٍ طاحنٍ، كانت فيه العشائر العلوية تداهم القرى السنّيّة، بقدر ما كان الصهاونة يداهمون القرى العلوية. وقد تدخّل الفرنسيون في

هذا الانقسام الطاحن إلى جانب علي بدّور، الذي كافأه الجنرال غورو على ذلك بمنحه وسام جوقة الشرف الفرنسي.

❖ ❖ ❖

في هذه البيئة التي تعج بالانقسامات والحروب المحلية والعشائرية الطاحنة التي انهارت فيها سلطة المقدمين التقليدية، أطلق الصبي سلمان المرشد في العام /1923/، ولمّا يتم السادسة عشرة من عمره بعد، إثر حالة انخطافٍ روحي، صيحته بالقرب الوشيك جداً لظهور (المهدي المنتظر)، «ليملأ الأرض عدلاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً»، والتهيؤ لاستقباله بالعودة إلى جوهر الدين والصلاح والتوادد والكف عن التطاحن والبغضاء. هزت الصيحة التي أطلقها (الصبي) - كما بات يسمّى تحبباً في المجتمع المحلي - العقيدة الخلاصية الهاجعة والمتجذرة في اللاشعور الجمعي للمنطقة الممزقة. اندلعت الدعوة كالنار في الهشيم، وأعلنت قريتان هما بلاط وشطحة التي كانت تعتبر من أكبر قرى المنطقة، رفض دفع الضرائب للحكومة؛ مما دفع ضابط الاستخبارات الفرنسي في بابنا قصبة قضاء صهيون إلى خطفه، وتسليمه إلى الحكومة باللاذقية، التي قامت بزجه في السجن مع تسعةٍ من أبرز مريديه والمندفعين خلف دعوته لمدة ثلاثة شهور. وقد ارتبطت مخاوف الفرنسيين، من الدعوة التي أطلقها الصبي، بتخوفها من احتمال وجود علاقةٍ لها مع جماعات الشيخ عمر البيطار (سني) في صهيون، التي ارتبطت باسمها ثورة صهيون، إذ كانت المناوشات ما بين هذه الجماعات وبين الفرنسيين ما زالت قائمةً، ومقلقةً للفرنسيين من مخاطر توسعها على سيطرتها في الجبل.

أفرجت السلطات الفرنسية عن (الصبي) الذي استُقبل استقبال الفاتحين، وأخذت تُنسب إلى الصبي الملهم الكرامات التي تحكم آليات الوعي الديني الشعبي في تبركه بالرموز التي يندفع خلفها؛ لكنها أخضعته، في سبيل حمله على ترك الدعوة، إلى رقابةٍ صارمة، كان مفروضاً فيها على (الصبي) أن يثبت حضوره شخصياً كل خمسةٍ عشر يوماً أمام مركز القضاء في الحفة؛ الأمر الذي زاد من تعلق القلوب به. وعلى عكس الفرضيات الفرنسية بترهيب المنطقة، من خلال لمس ما حلّ بـ (الصبي)، أخذت الدعوة بالامتداد خارج الجبل الأعلى؛ ووصلت إلى قرية

شين أكبر قرى جبل الحلو في قضاء الحصن يومئذٍ بريف حمص. وكان لامتداد الدعوة إلى (شين) خصوصاً وقرى جبل الحلو عموماً دلالته في الامتزاج ما بين الاندفاع خلفها، وتشوّف حضور العدالة الإلهية للمهدي المنتظر، وبين التمرّد على سادتها الإقطاعيين من أغوات آل الدندشي ملاّكي المنطقة. وكان قد سبق لشين في أواخر الحكم العثماني أن شهدت نزاعاً دامياً بين فلاحيها العلويين الذين ضاقوا ذرعاً من جباة الحكومة الذين كانوا يفدون إلى القرية مستصحبين نفراً من الدرك، وبين الملاكين الدنادشة سادة شين، ودفع ذلك السلطات الفرنسية إلى محاولة تطويق ما سمي بعش الدعوة الجديدة؛ فوضعت مخفراً عسكرياً دائماً في قرية جوبة برغال، التي انطلقت منها صيحة الصبي.

لم تستطع السلطات الفرنسية احتواء ما فعلته صيحة الصبي من اندفاعٍ خلفها؛ ورأى الملتفون حول الصيحة بشرى إلهية بخلاصهم من التمزق والظلم وجور السادة والمقدمين؛ ولكن الانتشار الكاسح للصيحة أثار تخوف المتمسكين بالمذهبيّتين العلويتيّتنَ الكلازية (القمرية) والشمالية أو الحيدرية (الشمسية)، إذ دعا الصبي إلى تطهير المذهبية الغيبية التي تنتمي إليها عشيرته؛ ويتلخص جوهرها المستعاد في أن الله غيب مطلق لا يجوز تمثيله كونياً، من المزيدات القمرية والشمسية التي طرأت عليها بفعل مجاورة الغيبيين للكلازيين والحيدريين. وقد أدى الاستقطاب بين الأفكار التي طرحها الصبي وأثارتها صيحته إلى اندلاع نزاعٍ دمويٍ في قرية العاليات بين مؤيديه ومعارضيه. ولكن تدخل القوات الفرنسية بالنزاع أدى إلى صدامٍ دامٍ بين الفلاحين من أتباع الصبي، وبين المصفحات الفرنسية، سقط فيها وفق المؤرخ الروسي لوتسكي حوالي خمسين قتيلاً. ويبدو أنّ محمد كرد علي هو المؤرخ السوري الوحيد الذي أشار في (خطط الشام) إلى هذه الواقعة؛ لكن الصحف مثل صحيفة (المفيد) فقد أشارت إلى أنّ الفرنسيين أحالوا ما يقارب المئة من الفلاحين إلى محكمة عسكرية، بتهمة مقاومة مصفحاتهم.

ويبدو أنّ اهتمام الفرنسيين بذلك، قد وصل إلى درجة مناقشتها على مستوى الجنرال ويغان المفوض السامي في سورية ولبنان، ومقره المركزي ببيروت. وتمّ تداول فكرة تشكيل مجلس حربي لمحاكمة الصبي، لكن تقرر أخيراً نفيه، في العام /1925/ مع تسعةٍ من أبرز مريديه، إلى بلدة الرقة في المنطقة الشرقية

الأشدّ فقراً وعزلةً في سورية، سيراً على الأقدام وتحت السياط. وفي بلدة الرقة استقبل وجهاؤها من آل العجيلي الصبي ورفاقه التسعة، واستضافوهم في بيت الشواخ حبيب طيلة مدة نفيهم التي استمرت حتى أواخر العام /1927/.

❖ ❖ ❖

في أواخر العام 1927، عاد المرشد ورفاقه التسعة من المنفى بالرقة إلى عشّه في جوبة برغال، واستقبل استقبال الفاتحين، من قبل عشيرته التي باتت تحمل اسم العشيرة الغسانية، المؤلفة من اتحاد عشائر العمامرة والدراوسة والمهالبة. وقد عمل المرشد على توطيد الأواصر التعاضدية للمتحد العشائري الغساني الجديد بواسطة الزواج، حيث تزوج في حياته تسع نساء، لكنه لم يجمع سوى بين أربع منهن فقط. وكان لزوجته الأولى الأسطورية هلالة بنت الشيخ محمد داود، أحد أبرز مشايخ الطائفة الغيبية، دوراً تيسيرياً وتحفيزياً في ذلك. وقد تميزت هلالة برجاحة عقلها وقوة شخصيتها وكانت الأولى بين زوجات سلمان الأربع، يعتمد عليها وتقوم مقامه في غيابه، وتشرف على تسيير شؤون العشيرة، واستقبال الوفود، وتنظيم أعمال المزارعين. كما كان لها دور اجتماعي فاعل بين فلاحي الجبل، حيث أدخلت حملات تلقيح الأطفال، وتشجيع الفلاحين على إرسال أطفالهم إلى المدارس.. وفي خاتمة المطاف في يوم 11 أيلول 1946، ولأن الانتحار محرم في الدين، طلبت من سلمان أن يطلق عليها النار، بعدما حاصرت قوات الحكومة بيته، كي لا تقع أسيرة بين أيدي رجال الدرك (فقد كان مرفوعاً بحقها مئات الدعاوى الكيدية من قبل خصوم سلمان).

كان المرشد قد غدا هنا زعيم العشيرة وإمامها على المذهبية الغيبية، وأخذ يحتل مكانة سيد الجبل، حيث سيقوم على غرار رؤساء العشائر الأخرى بإحصاء أتباعه، وتسجيلهم ضمن القانونية التعاضدية للعشيرة القائمة على «كتابة الدم». ويبدو أن عدد أتباعه قد فاق الأربعين ألفاً (وفق جاك ويللرس)، بينما وصل إلى ثمانين ألفاً (وفق المصادر المرشدية). وعبّر ذلك عن انتقال مركز القوة والنفوذ من علي آغا بدّور إلى سلمان المرشد، ومن سيادة المذهبية

الحيدرية الشمالية أو المواخسة، إلى المذهبية الغيبية، التي تؤمن بظهور إرادة الله إما في رسالة، وإما في إمام يهدي إلى الصلاح.

لم يباشر المرشد في البداية دوراً سياسياً مباشراً، إذ سيقوم بذلك محمد الخرطبيل، الذي اختارته العشيرة لتمثيلها في المجلس التمثيلي لدولة العلويين بدءاً من 1926، التي تم استبدالها في العام 1930 بحكومة اللاذقية. وهي المرة الأولى التي سيغدو فيها للعشيرة (الغسانية) ممثل في المجلس، جنباً إلى جنبٍ مع الزعامات العشائرية العلوية والعائلية السنية. ولقد حرص الفرنسيون على عدم الاصطدام بالمرشد الذي غدا سيد الجبل الأعلى دون منازع؛ لكنهم لم يضيِّعوا فرصةً لدعم منافسيه، وفي مقدمتهم علي آغا بدّور. وتوضح ذلك إبان انتخابات المجلس التمثيلي لحكومة اللاذقية في العام 1936، حيث سيعزل المرشد محمد خليل الخرطبيل عن تمثيل العشيرة في عضوية المجلس لعدة أسباب؛ يأتي في مقدمتها منافسته المرشد على الزعامة، وانتحاله صفةً دينيةً، وسيقوم المرشد بترشيح نفسه لهذا المقعد، وهو ما سينقل الخرطبيل إلى الضفة الأخرى، وتحديداً إلى ضفة علي بدّور. ويبدو أن الخلاف تفاقم بين المرشد والخرطبيل بعد إعلان زعماء الكتلة حربهم على سلمان المرشد.

إذا ما قارنّا أسماء الزعماء العلويين في العرائض التي كانوا يوقِّعون عليها في العشرينيات من القرن العشرين، وبينها في منتصف الثلاثينيات، فإننا سنلحظ دون أيّ ريبٍ حضور اسم المرشد لأول مرةٍ في خارطة الزعامات العلوية العشائرية؛ خلال هذه الفترة اشتدت مع مجريات المفاوضات السورية - الفرنسية في العام 1936 حول استبدال الانتداب بمعاهدة حركة الدعاوة للوحدة والانفصال. ولكن ما إن تم توقيع المعاهدة حتى انحاز المرشد بكل قوةٍ إلى الخط الوحدوي، فترشح في انتخابات المجلس النيابي السوري للعام 1937 في إطار قائمة الوطنيين، ومثّل رأس حربتها في قضاء الحفة في مواجهة قائمة الانفصاليين بزعامة إبراهيم الكنج زعيم فخذ بني علي من عشائر الحدادين. كان المرشد طرفاً فعالاً في تحالف الزعماء العلويين، وكان قريباً جداً من زعامة منير العباس عضو المجلس النيابي الذي انفرد بالزعامة الدينية والعشائرية لعشيرة الخياطين؛ وتميز برعايته للدفعة الأولى من جيل المثقفين العلويين. ومنذ العام 1937، سيحافظ المرشد على تحالفٍ

ثابتٍ وفعّالٍ مع آل العباس زعماء الخياطين، لكن التوترات ما بين النواب العلويين وبين الحكومة المركزية الممثلة بحكومة الكتلة الوطنية التي أبرمت اتفاقية 1936، وانتقالها إلى توترٍ مع محافظ اللاذقية الممتاز إحسان الجابري، ستدفع المرشد إلى الاصطفاف مع أولئك النواب الذين تصدرهم منير العباس بفعاليته ووعيه الحديث، وسيوقّع الزعماء العلويون في آذار 1938 على وثيقة العهد والتضامن على أساس تأييد «الوحدة اللامركزية والمعاهدة والاستقلال التام الناجز للبلاد السورية، دون أية سيطرةٍ أجنبيةٍ على الإطلاق»، مقابل احترام الاستقلال المالي والإداري، الذي نصّت عليه المعاهدة لمحافظة اللاذقية.

كانت هذه الوثيقة تمثل الاتجاه الاتحادي أو الاتجاه الوحدوي اللامركزي في مواجهة الاتجاهين المركزي والانفصالي في آنٍ واحد؛ إذ تم توقيعها في شروط اندلاع الحركات الجهَويّة الإقليمية في الجزيرة وجبل الدروز قبل انتقالها إلى جبال العلويين، وقد شجعتها السلطات الفرنسية في سياق سيرها في طريق التنكر للمعاهدة والانقلاب عليها، بعد أن ضحت بلواء الإسكندرونة لصالح تركيا. غير أنّ دخول الحكومة المركزية في طور عدم الفعالية، وانشقاق الكتلة الوطنية نفسها إلى (زعاماتٍ) و(جبهاتٍ) محليةٍ، وبروز اتجاه قوي فيها ضد الأقليات، وتوضح إصرار المفوض الفرنسي على ترحيلها، قد دفع الموقعين على وثيقة آذار 1938، حول الوحدة اللامركزية، إلى الاصطدام بمحافظ اللاذقية. وتصدر المرشد العملية في شكل اقتحامٍ لمزرعة سطامو، التي كان فلاحوها ينتمون إلى عشيرة المهالبة التابعة إليه، ويملكها آل شريتح في مدينة اللاذقية، وكانت تمثل (درة تاجهم) الإقطاعي. واستند المرشد في ذلك إلى ضمان حق الفلاحين من عشيرته في استرداد ما نسب إلى شريتح من استيلاء بمساعدة سلطات المحافظة على حصة الفلاحين. واكتسبت المواجهة أبعاداً معقدةً جهَويّةً وإقليميةً وطائفيةً وسياسيةً واجتماعيةً... وقد حاول المحافظ إحسان الجابري استرداد المزرعة بالقوة، لكن ذلك أفضى إلى إنذار المرشد له بمغادرة مدينة اللاذقية إلى دمشق؛ وبذلك يكون هذا الفصل قد انتهى، إذ سينهار الدور الوطني الأول (1936-1939) الذي قادته الكتلة الوطنية بعد استقالة الرئيس هاشم الأتاسي، وتفكك قيادات الكتلة الوطنية في العام 1939، ليفرض الفرنسيون، بعيد اندلاع الحرب العالمية الثانية، الأحكام العرفية، وتبدأ مرحلة جديدة.

نظّم الفرنسيون اللاذقية على أساس: محافظة اللاذقية المستقلة. واستمر هذا العهد من العام 1939 إلى العام 1943. وخلال هذه الفترة وسَّع المرشد من نفوذه، بفضل تحالفه المتين مع شوكت العباس محافظ اللاذقية من عشيرة الخياطين، وشكل في منطقته نوعاً من إدارةٍ ذاتيةٍ لعشيرته التي سماها بـ «الشعب الحيدري الغساني»، فكان لديه صندوق للعشيرة، ألحق به ممتلكاته التي تمّ تسجيلها باسمه، أو اشتراها، أو حوّلها لصالح العشيرة التي يتزعمها، وعيّن قضاة للبت عرفياً بالخلافات، وشكّل ميليشيا عامة (الشعبية)، وميليشيا شبه نظامية، حمل عناصرها مراتب عسكرية، وتألفت من أربع فرق ضمت أكثر من ثلاثمئة عنصر. وقد برّر المرشد تشكيلها بتعزيز أمن العشيرة، في حين شجعها الفرنسيون ضمن منهجهم في آليات الدفاع الذاتي المحلي، لضمان الأمن وحفظ النظام في منطقة تعج بالانقسامات والتناحرات العشائرية، التي تتطور أحياناً إلى مواجهاتٍ دامية.

إثر طرد قوات الحلفاء لقوات فيشي من سورية، انقلبت موازين القوة، وتشكلت في العام 1943 حكومة وطنية في سورية، بموجب انتخابات برلمانيةٍ، فازت فيها «القوائم الوطنية» وريثة الكتلة الوطنية السابقة المنهارة. وقد فاز المرشد بعضوية هذا البرلمان عن قضاء الحفة مع قائمته. وكان على هذه الحكومة أن تشكل الطرف المعتمد في مفاوضة الفرنسيين لها على إنهاء الانتداب، واستبداله بمعاهدة تعاون. وكان من أول قرارات الحكومة عزل شوكت العباس محافظ اللاذقية في تشرين الأول 1943، وتعيين الأمير مصطفى الشهابي. كان الفرنسيون هم أصحاب الانتداب على سورية، لكن البريطانيين تمتعوا فيها بالقيادة العسكرية العليا. وكان اشتراط البريطانيين منح الفرنسيين لبنان وسورية استقلالهما شرطاً للتحالف مع قوات فرنسا الحرة بقيادة الجنرال دوغول.

وما إن تمَّ خلع العباس، حتى بدأت عملية مضايقة المرشد، ومحاولة تطويق نفوذه، وإثارة القضايا ضده في المحاكم، بتشجيعٍ مباشرٍ من السلطات العسكرية البريطانية، التي عول الوطنيون عليها في إرغام الفرنسيين على إنهاء الانتداب وتحقيق الاستقلال. انعكست الاحتكاكات الفرنسية - البريطانية هنا بكل قوةٍ في محافظة اللاذقية، وتحديداً في الموقف من المرشد. كان المرشد قد فهم الاتجاه الجديد، فتكيف ببراغماتيةٍ عاليةٍ معه. وتقدَّم في العام 1944 بهدف طمأنة

سلطات دمشق إلى عدم وجود أيّة نوايا «انفصالية» لديه، بطلب ضم قضاء الحفة إلى محافظة حلب بدلاً من اللاذقية. وحاول المرشد كل ما في وسعه للتكيّف مع السلطات الجديدة. في الفترة الواقعة بين دعوة المرشد لإلحاق قضائه بمحافظة حلب، وبين إعدامه في أواخر العام 1946، تشابكت عدة عوامل ودوافع في نقله من الزعامة إلى المشنقة. وتتمثل هذه المتغيرات في الموقف السلبي المرتاب الذي اتخذته الحكومة في ضوء تمردات (1937-1939) من الأقليات وزعمائها، وعدم تمثيل أيٍّ منها في الحكومة ما عدا التمثيل المسيحي، حيث كان المرشد في مقدمة الزعامات القوية المتبقية، وفي اشتداد مطالبة الزعماء الإقطاعيين اللاذقانيين، وفي مقدمتهم آل شريتح بإعدام المرشد وتحريك الدعاوى والمضايقات ضده، انتقاماً لما فعله بمزرعتهم سطامو في العام 1938، وفي إصرار البريطانيين على التخلص من المرشد، بوصفه - وفق وجهة النظر البريطانية وحكومة فرنسا الحرة - من أقوى الدعائم الوطنية؛ إذ تبنت المخابرات البريطانية وقوات الانتداب كل أعداء المرشد وخصومه في اللاذقية. وفي جلسة البرلمان السوري التاريخية في 21 أيار 1945 التي انعقدت تحت شعار عدم الدخول بمفاوضة مع الجانب الفرنسي إذا لم تتحقق المطالب الوطنية. طلب المرشد من فخري البارودي تلاوة التصريح التالي نيابة عنه (أنه يضع نفسه وعشائره وأمواله تحت تصرف الأمة والحكومة ويعلن أنه إذا كان هناك خلاف بينه وبين الحكومة فهو وطني قبل كل شيء وعلى استعداد للقيام بكل ما يتطلبه الوطن وبكل ما توجبه سيادة البلاد واستقلالها). وحين احتدمت المواجهات مع الفرنسيين في معظم المدن السورية، قام المرشد بتكليف من الحكومة بدورٍ حاسمٍ في إقناع العسكريين العلويين، العاملين في قوات الشرق، بالالتحاق بالجيش الوطني، ومغادرة ثكناتهم، وضمانة عدم الانتقام منهم. ثم سار في 10 كانون الثاني 1946 خطوةً أخرى في تصويته على: «إلغاء الاستقلال المالي والإداري لمحافظة اللاذقية»، غير أنّ خصومه المتربصين به لم يكفوا عن التضييق عليه، ومحاولة حصره في الزاوية الميتة، والانتقام منه.

وفي هذا السياق، وقعت أحداث شباط 1945، في شكل هجومٍ شنّه خصوم المرشد المحليون على معقله في جوبة برغال، وتسبب ذلك بصدامٍ عنيفٍ، تم بنتيجته تهجير أهل الجوبة، وتغذية زعماء اللاذقية لهم بعدم تلبية دعوة المرشد

بالعودة إليها، وتحريك رفعهم لمئات الدعاوى ضده وضد زوجته الأسطورية هلالة (أم فاتح). وقد استغلّ الفرنسيون ذلك في محاولةٍ لإعادة نفوذهم، فقاموا بفرض طوقٍ أمنيٍ على المنطقة بزعم توفير الأمن بين الطرفين المتنازعين؛ بينما كان المرشد نفسه يخضع إلى إقامةٍ إجباريةٍ بدمشق، على الرغم من كونه نائباً في البرلمان السوري. ولقد فهم فوراً الرسالة، فطالب رئيس الجمهورية شكري القوتلي بسحب القوات الأجنبية من المنطقة، واتهم السلطات بأنها هي التي طلبت التدخل الفرنسي، بحجة أنّه ليس لديها قوى كافية. ولقد كان هناك أساس فيما ادّعاه. لكن حادثة شباط ستدشن في الواقع عملية تسريع نقل المرشد من الزعامة إلى المشنقة.

حاول المرشد تفادي ذلك، بأن وافق على كافة الحقوق التي ادّعاها خصومه في الدعاوى التي رفعوها عليه في المحاكم، بعد أن وافق على تشكيل تحكيمٍ يبتُّ بذلك، ويلتزم بقراراته. لكن أصابع أعدائه، ومن خلفها في الستار، أصابع الاستخبارات البريطانية التي كانت الحكومة تسترشد بها، قد أحبطت ذلك. لقد اشتدت الحملة في هذه الفترة على كافة الزعماء العلويين، لكن أقساها كان ما تعرض له المرشد. كان في عداد جبهة الزعماء العلويين والسنة بمن فيهم أشراف اللاذقية، وقد تسمّوا بـ (حزب القوميين العرب)، رفعوا عدة مذكرات احتجاجية وإنذارية لسلطات دمشق، وقَّع المرشد على اثنتين منها، لكنه قبيل أول عيدٍ للجلاء الفرنسي عن سورية اجتمعت تلك الجبهة، وقررت مذكرةً تحت اسم (تذكرة) للحكومة الوطنية ورئيس الجمهورية، يطرحون فيها المظالم التي تحيق بمنطقتهم وسبل حلها وطنياً. ولقد كان المرشد جزءاً أساسياً من تلك الجبهة، لكنه بهدف التعبير للحكومة عن حسن النية، لم يوقّع على المذكرة، بل وقام بتحويل منطقته إلى منطقة احتفالات وألعاب نارية ابتهاجاً بالجلاء.

لم يشفع ذلك كله للمرشد، بل سحبت الحكومة مظهر باشا رسلان محافظ اللاذقية من منصبه، في ضوء عوامل متعددة، كان منها رغبة إقطاعيي اللاذقية بالتخلص منه، نتيجةً لمرونته مع المرشد. وتولى أحمد السياف وهو من مرافقي الزعيم إبراهيم هنانو، ومن كوادر رئيس الحكومة سعد الله الجابري، وأول مدير وطني لشركة حصر التبغ والتنباك الفرنسية، التوسط بتكليفٍ من رئيس الحكومة

السورية سعد الله الجابري، لتسوية قضية المرشد؛ ولقد تمكن السياف من تسوية الخلافات التي تدخل فيها مرةً أخرى إقطاعيو اللاذقية لإعاقتها؛ وكانت هذه الإعاقة جزءاً من علاقةٍ لولبيةٍ تتلخص بإصرار الحكومة على تعليق المرشد على المشنقة. ومن أجل تحقيق ذلك عينت الحكومة عادل العظمة محافظاً للاذقية، ووضع العظمة في صلب أولوياته تنظيم عملية الفتك بالمرشد، ومثلت هذه العملية إنجازه الوحيد كمحافظ، إذ ستضع الحكومة وحداتٍ من الجيش والدرك، كما ستستنفر بعض الفصائل العشائرية العلوية لاقتحام جوبة برغال، وتم ذلك يوم 13 أيلول 1946 حين كان المرشد قد وافق نهائياً على تسوية أحمد السياف. وشكلت الحكومة، في ضوء ما يفهم من برقيات محافظ اللاذقية عادل العظمة إلى وزير الداخلية صبري العسلي، غرفة عمليات مركزية لذلك. وتمَّ الهجوم في الموعد المقرر الذي صادف مقاومةً محدودةً بفعل تدخل المرشد، الذي قام بقتل زوجته هلالة بناءً على طلبها، التي كان عليها كثير من الدعاوى، كيلا تقع في «أنياب الذئاب».

اعتُقل المرشد مع عددٍ من أتباعه، وسيق مخفوراً إلى اللاذقية، حيث شكلت الحكومة مجلساً عدلياً استثنائياً لمحاكمته، هو المجلس الثالث في التاريخ السوري منذ العام 1920 ضد حسن الحكيم، وفي قضية عبد الرحمن الشهبندر، وأحالت الحكومة الادعاء برسم الخيانة العظمى، وجناية أعمال الشقاوة والقتل. استمرت محاكمة المرشد في اللاذقية وسط الضغوط الشعبوية التي حركها زعماء اللاذقية للمطالبة بإعدامه؛ من يوم 23 تشرين الثاني 1946 إلى يوم نطق المحكمة بإعدامه في 10 كانون الأول 1946، وانتبه المجلس في الأيام الأخيرة فقط إلى ما أثاره محامي الدفاع من أنّ المحاكمة غير قانونية بسبب عضوية المرشد في المجلس النيابي، وتمتعه بحقوق الحصانة؛ فكان أن اجتمع مجلس النواب في 7 كانون الأول 1946، ورفع الحصانة عن المرشد، في جلسةٍ فاترةٍ بأغلبيةٍ محدودةٍ، ومن دون أيّ نقاش، وتم التصويت قبل خمسة أيامٍ فقط من نطق المجلس العدلي بالحكم، وقبل تسعة أيام من تنفيذ الحكم بالإعدام شنقاً. لم تتمكن المحكمة من تجريم المرشد بالخيانة العظمى، وبرّأته منها، لكنها جرّمته بقتل زوجته، مع أنّ قتلها كان يعود إلى كمين الحكومة. ولم تثر المحكمة قضية (الألوهية)، لكن الدعاية الحكومية استخدمتها بشكلٍ فتاك، وهيأت لها مسبقاً كتاباً دعاوياً مأجوراً حمل اسم (مدّعي الألوهية في

القرن العشرين) لجورج دكر، موظف الداخلية (الاستخبارات) في عهد محافظة اللاذقية المستقلة، وموظف السراي لدى محافظ اللاذقية عادل العظمة.

في المصير الفاجع للمرشد الذي انخرط فيه الضغط العام باتجاهه، ردّ المرشد إبان بدء محاكمته على ما جاء في بيان المدعي العام: «لا يهمني كل ذلك، بل يهمني منها أنني عدو الاستقلال». وحين تم النطق بإعدامه، سألته المحكمة وفق التقليد عما إذا كان يطلب تخفيف الحكم، ولكنه رفض طلب تخفيف الحكم، وشكر المحكمة لأنها لم تتهمه بالخيانة، وقال إنه «وقد برأته المحكمة من تهمة الخيانة العظمى، فإنه لا يطلب الشفقة ولا يبالي بالإعدام». وحرص المرشد في ذلك كله على وصيّةٍ كان فيها أن يلفَّ جسده بالعلم السوري المفدّى.

محمد جمال باروت

نديم محمد

رومانسية التمزق

(1908 - 1994)

أيها المشفقون لا تلمسوا الجرح بصدري، فتوقظوا كبريائي

كان نديم في مجالسه لا يحتمل الأحاديث الجدّية؛ وكان يرتجل آراءه جزافاً بلا رويّة، ويعامل تلك الآراء كأنها قول فصل لا جدال فيه؛ كما كان سليط اللسان هجّاء مرّاً، لا يتردد في استعمال أفحش الصفات وأقذعها لأتفه الأسباب، إلى درجة أن شعر الهجاء يشكّل أكثر من نصف شعره؛ رغم أن المجلدات الخمسة التي صدرت له لا تضمّ من الهجاء سوى ديوانه (فرعون) المخصص لهجاء جمال عبد الناصر. أما شكل نديم فيوجزه قريبه الشاعر جميل حسن: «فلقد كان طوالاً من الرجال، واسع الجبين، أنف أشمّ، وله شمخة كشمخة النسر».

❖ ❖ ❖

هو نديم بن محمّد بن حسن بن نصّور بن محمد بن صقر بن علي (أبو شلحاء أو شلحا)؛ وكانت ولادته يوم الخميس في الخامس والعشرين من شعبان سنة 1327 هجرية. في قرية (عين الشّقّاق) أو الشقائق، شقائق النعمان التي تبعد عن مدينة اللاذقية أربعين كيلومتراً تقريباً إلى الجنوب الشرقي. وأمُه مزنة بنت عباس بنيات، وكان والدها من أوجه أهل قضائه، وأوسعهم رزقاً، وكانت «إنسانة بكل ما في سمو الإنسانية».

أما طفولة الشاعر، فكانت مليئة بآلاف الحوادث والأفعال: «من سنّ الواحدة إلى العاشرة، فقد صاد العصافير، وسبح في الأنهر والغدران، وتسلّق الأشجار، وطاردته الأفاعي، وقطع المسافات، وضرب في الجبال والوديان والحراج متنقِّلاً متسلياً؛ وفي المساء نادراً ما خلا البيت من ضيف يحكي حكاية، أو يقصّ عليه

قصّة، وهو يصغي هادئاً صامتاً. وفي تلك الطفولة سبق ولم يسبقه أحد في الركض؛ وغلب ولم يُغْلَبْ في عراك، وقاد الصبيان أمثاله في ألعابهم، وكان الأوّل عليهم في القراءة دائماً. كان يسمّي الحيوانات بأسماء خاصّة، ويدعوها بها فتُقبل عليه، ويزجرها فتتولّى عنه! وكان يجمع بين الضدين طائراً وحيواناً، وكان يكلّمها كما يكلّم الإنسان فتفهمه!».

تعلّم الصبي أوّل ما تعلّم على يد المقرئ، أو شيخ الكتّاب؛ وبعدها أرسله أهله إلى مدرسة (العنّازة)؛ فحفظ فيها عن ظهر قلب مضمون الحلقتين الأولى والثانية من سلسلة قواعد اللغة للشرتوني. ومن العنازة انتقل إلى تجهيز (ألفرر) أي الأخوّة في اللاذقية سنة 1921؛ وانتقل سنة 1922 إلى جبلة، ثمّ إلى قريته عين الشقاق. حاز الشهادة الابتدائية سنة 1925، وفي سنة 1926 ضمّته جدران العلمانية (اللاييك) في بيروت. وبعد سنة يقوده القدر إلى (مونبلييه) في فرنسا، لإتمام الدراسة الثانوية، والحصول من بعد على إجازة الآداب الإفرنسية. ويومذاك لم تكن لمثل هذه الشهادة أكثر من قيمة الإلمام بالصرف والنحو، ونظم الشعر في زعم أهل قريته. يذهب إلى سويسرا لدراسة الحقوق. وفي (برن) العاصمة يتّصل به القنصل الفرنسي، ويدور بينهما حديث، كان من عقباه إنذار من السلطات السويسرية بمغادرة أراضيها! وفي حزيران 1930 أعيد مرغماً إلى سورية.. إلى وطنه كما يقول.

عُيّن في عام 1933 بوظيفة كاتب، ولكنه ما لبث أن استقال لأنّ قاضي الصلح (ديترويريان) لا يحتاج في جميع قراراته إلا إلى توقيع، ثمّ عُيّن أميناً لسرِّ المحافظ إحسان الجابري بغير رضاه؛ ونُقِلَ بعد ذلك إلى صافيتا، ومنها سيفرُ إلى بيروت، وبعدها إلى قريته منصرفاً إلى الشرب والصيد والشعر، ويُعيَّن بغير علم منه مراقباً في مؤسسة الميرة، وبعد مدة وجيزة يستقيل، ويُولّى الأمير مصطفى الشهابي محافظاً على اللاذقية، فيصدر قراراً بتعيينه مديراً لناحية (حزّور)، ثمّ مديراً لناحية (الشيخ بدر). وفي عام 1948، يفقد أخاه الأصغر، فيكون لهذا الجرح أثره العميق في حياته.

وفي سنة 1949، أدخل مصح (بحنِّس) في لبنان مريضاً بالتدرّن الرئوي المتطوّر سرطانياً بزعم الأطباء، ويشفى بعكس ما قرّروا، ويعود إلى اللاذقية،

فيُسرَّح من الوظيفة سنة 1951. وبعد سنوات يُعيَّن رئيساً للمركز الثقافي في الحفّة، ثمّ خبيراً ثقافياً في وزارة الإعلام بعقد اتفاق، ويعاوده المرض فيداوى في مشفى المواساة في دمشق.

يستقر في طرطوس بقية حياته، بعيداً عن قريته وأهله؛ وقد قاسمته غرفة سكناه خادمتُه التي سجّلها على خانته زوجة له؛ ولم تنجب أطفالاً، وكان يسميها عنزته على سبيل المزاح، وقد توفيت قبله بعدّة سنوات. وفي السابع عشر من شهر كانون الثاني (1994)، رحل الشاعر نديم محمد عن عمر ناهز السادسة والثمانين.

عائلة نديم محمد من العائلات الكبيرة في منطقة جبلة، ولقد وقفت موقفاً وطنياً شجاعاً ضد الاستعمار الفرنسي لسورية؛ وهي عائلة زعامة عشائرية نافست العائلة المتزعمة منذ ثلاثينات القرن الماضي، ومن العائلة الثانية كانت حبيبة الشاعر التي كتب في علاقته معها أرفع شعره، ونعني ديوان آلام (لا سيما الجزء الأول). أما والد الشاعر فهو محمد حسن، كان ميسوراً كريماً، يحترمه الجميع لرجاحة عقله وكرمه ومعاملته الطيبة للآخرين؛ وقد اشتهر نديم وإخوته بالذكاء والنزق والعصبية، واحتقار المال.. هذه المكانة الاجتماعية الرفيعة عززت السلوك الصاخب للفتى في قريته؛ أما القرية نفسها فهي معروفة في المنطقة بكاملها؛ وتشتهر شجرة الدلب فيها مقيلاً لرجال القرية، وفخّاً للمارة تنكيتاً وسخرية وأحاديث عابثة؛ ورغم أن نديماً كان عابثاً سكيراً، متهتكاً، فقد كان موضع تبجيل واحترام من أهالي المنطقة. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن والده زوّده بمئة ليرة ذهبية، وكانت في حينها مبلغاً لا يقدر على جمعه إلا أثرياء القوم. ويروي أبناءَ عائلته أنهم كانوا يجمعون له أموالاً، ويرسلونها إلى مكان إقامته في مونبلييه أو برن، على اعتبار أن نديماً ابن العائلة كلها؛ وأنهم كانوا ينتظرون عودته، ليتوجوه زعيماً للعائلة والعشيرة. ولكنه عندما عاد نسف أحلامهم وانتظارهم، وانصرف لغرامه وشعره وخمره، غير أنه كتب قصائد مدائحية لابن عمه زعيم العائلة الفعلي والعائلة كلها مقلداً أكثر القصائد العربية استعلاء وعنفاً، ونعني معلقة عمرو بن كلثوم. ولقد انتشرت تلك القصائد على ألسنة الناس؛ وهي تدور حول الفخر الضخم بآل شلحا، وفتاها المفدّى بهجت نصّور، وهجاء العائلة المنافسة

التي تنتمي حبيبته إلى قمتها. ولقد عُرفت تلك القصائد بالشلحاويات، كما وكانت من الشهرة والانتشار، بحيث حفظها الناس غيباً.

وقبل الدخول في قراءة الاتجاهات الرئيسية في شعره ينبغي الإشارة إلى نُوَيّات أولى بقيت قائمة في أعماق الشاعر وفي نسيج ما كتب:

- البنية الانفعالية التي لا يد للشاعر فيها.
- الطبيعة الخالبة التي أحاطت بالشاعر في قريته وفي منطقته برمّتها.
- صدى بعض الأفكار الصوفية عن بدء الخليقة ونهايتها، والجو الثقافي الإسلامي بعامة.
- الفشل المرير في الدراسة، والوظيفة، وزعامة العشيرة، والحبّ الكبير، والهزائم الكبرى التي واجهتها الأمة العربية في مشاريعها، وحروبها، واستحقاقاتها.
- انبثاق الحدوس الرومانسية في داخل الشاعر نتيجة بنيته النفسية أوّلاً، واطّلاعه على الثقافة الأوربية ثانياً، بالإضافة إلى الجو الاجتماعي في الساحل السوري، الذي يجلُ الشعر ويعلي من شأن قائله.

❖ ❖ ❖

استهلالاً... نديم شاعر عقد صفقة نهائية لا رجعة فيها؛ فأعطى نفسه وحياته وطموحاته مقابل المرأة والشعر والخمرة؛ وهو بذلك يضحي أوّ ل ما يضحّي بمكانته الاجتماعية، وينخلع عن الدور الذي رشحته له عشيرته وعائلته، وهو يعلن ذلك بلا مواربة، فيخاطب حبيبته في النشيد التاسع من آلام:

راودتني عشيرتي سُدَّة الشمس ... وراودتها هوانَ الترابِ
وجحدْتُ الأباةَ أهلي ولم أحفلْ ... يمين الإله، بالأنسابِ

وكان قد أعلن مخاطباً الحبيبة نفسها في النشيد الأول:

خنتُ من أجلك المودّة والقربى ... وعقرتُ عِزّتي في الرُّغام

لقد أدار ظهره مرّة وفي كلّ مرّة للعشيرة والقربى والأنساب؛ لا في سبيل حبيبته كما يدّعي، ولكن في سبيل موقفه، وبنيته الفنية والنفسية في آنٍ، فهو يكتب عام 1932؛ أي في عامه الثالث والعشرين ما يلي:

أنا مخلوقٌ لشعر، وللهوٍ، وشرابِ فاتركوني لربيع، ولدنٍ، وربابِ

والشاعر يُمعنُ في تأكيد مذهبه في الحياة، ويكرره عبر مراحل عمره كلها حتى بعد كتابته لقصيدة «توبة»، ويؤكد على نحو قاطع أنّه منذور للشعر والخمر والمرأة والإباء. وهذا الموقف ينغرس في أعماق تربة الرومانسية؛ حيث يختار الشاعر أن يكون منشطراً ممزّقاً منبوذاً من الجماعة؛ إنه الشعور الذي يفور بالشعر، ولكنه في الوقت نفسه يدمر الشاعر. يقول:

لم يبق لي غير شعري، وماء وجهي، وخمري
ثلاثة لا أبالي من بعدها أيّ خسرٍ

نديم في مسيرته كان يتبنى كل ما يتناقض مع الحاضر الذي عاشه؛ فهو يجدِّف وهو في سن الرابعة عشرة بقصيدة طويلة كادت تودي بحياته لولا صغر سنه، ومكانة والده. وهو يجاهر بمعاقرة الخمرة، والإمعان في اللذة الجسدية حتّى بعد أن تجاوز الثمانين من عمره؛ وفي ذلك كله كان نديم يطيع أعماقه، وينجرف بلا حدود وراء هذياناته، وخياله، وتداعيات لاشعوره، غير عابئ بالنتائج.

نديم الشاعر المكتنز بأوبئة الخيال والانشطار وفخار النسب المتعطش أبداً لملذات الجنس، يحبّ بعد عودته مباشرةً من سويسرا. ولنا أن نقدّر شكل تجاربه هناك، وطبيعة العلاقات بين العشاق في أوروبا في الثلاثينات؛ ولنا أن نقارنها مع واقع بيئة ريفية في الساحل السوري؛ ولكننا نستدرك فنضيف أن محبوبته كانت (ابنة قصر)، وعلى هذا كانت تمتلك فضاء شاسعاً من الحرية في علاقاتها؛ وكانت فيما نعرفه من أخبارها العامّة وأخبارها الخاصة مع الشاعر تمتلك رأياً مستقلاً؛ وقدرة على تذوّق الشعر، والدخول في العلاقات التي تراها مسؤولة، والشاعر يكتب أناشيده بعد عشر سنوات من الحبّ العنيف المضطرم؛ تنجلي عن زواج العشيقة من رجل آخر. نديم يدخل شعراً إلى موضوعه محترقاً حارقاً رومانسياً أصيلاً؛ فهو ككبار الرومانسيين الألمان والإنكليز بخاصة، ينظر إلى المرأة من موقع التناقض المريع؛ فيرفع محبوبته إلى مرتبة الخلود، ثمّ في اللحظة عينها يهبط بها إلى مستوى الجنس الرخيص؛ وهكذا يضفي عليها صفات عليا، ويصورها كذات مبدعة هي في

الوقت نفسه موضوع أيضاً؛ وفي ذلك كلّه تبقى السمة الطاغية جنسية المرأة. إنّنا لنتألم مع الشاعر، ونحن نراه يحترق حباً، ولكننا نُصعق ونحن نراه ينقضّ على محبوبته ليوجعها بأحطّ النعوت الجنسية الرخيصة؛ إنَّه إمعان في المخالف الصادم الغريب اللامنطقي، وهذا كله في صميم الرومانسية في نماذجها العليا.

ولعل النشيد الأول من «آلام» يرسم لنا صورة فاقعة لذات غرقت بالكامل تحت سيطرة هواها، وبالتالي فقدت إرادتها؛ بالإضافة إلى الشعور المرير بالانصياع والضياع والتمزّق والألم.

وإذا تابعنا صورة المرأة في «آلام» رأيناها أبداً في أفقين: أفق الأسطورة المتفوقة، وأفق الشهوات الحسية المباشرة، فهو يقول لها معبراً عن بَرْزَخٍ أسطوريٍّ يضع الحبّ في فضاء الخلود، (النشيد السادس):

أنت منّي من قبل آدم والناس   وقبل الإنشاء والتكوين

نحن شطرا نفسٍ تقاذفنا البعد   فتهنا ما بين ماء وطينٍ

ولكنه يستدرك في النشيد الثاني عشر؛ ليؤكد أنه هو الذي وهبها الخلود، وبالطبع عبر طبيعته الخالقة كشاعر، وعبر حبِّه كعاشق استثنائي فريد:

أنا ألبستُكِ الخلودَ   وأسكنتكِ دارَ الخلودِ في حوّائي

هذا الموقف يسلمنا إلى نقيضه مباشرة، فنرى حوّاء لعنة وراءه، وغلطة في حسابه، وانحطاطاً خلقياً وجسدياً في آن، فيقول في نفسه:

وتلفتُ عابراً، فإذا أنتِ   على الدربِ لعنةٌ من ورائي

ويكرر في النشيد التالي على الصيغة نفسها تماماً:

وتلفتُ ساخراً، فإذا أنتِ   على الدهرِ غلطةٌ في حسابي

باختصار... تلك المحبوبة التي خان من أجلها المودة والقربى، وعفَّر عزته في التراب، ما هي سوى افتراض التقطه الشاعر من تجربة واقعية ليلونها من شعوره وبنيته النفسية كما تشاء (أناه) المجبولة بالرومانسية والشهوية، ولذلك يعترف الشاعر بأن العلّة تكمن في شعوره هو بالذات، فيهاجمه، ويشبّهه بالحية الرقطاء السامة: (النشيد التاسع):

يا شعوري، يا حيّة تنفث السمَّ فيجري في القلبِ عن ألف نابِ
كبرتْ فيك علتي، وتناهى فيك حزني، وطال فيك عذابي

إنَّ غَرَقَ العاشق الفاشل في الخمرة محطة يدرك أنها لا تغنيه عن الحبّ؛ وهذا يعني أنّ انصرافه لهذه اللذة إرادي شهوي من جهة، وهوىً يلغي كل ما يجاوره من مشاعر أخرى ويلحقها به؛ وهذا الهوس البارز في وصف الخمرة، والحاجة المرّة إليها، ما هو إلا وجه من وجوه التطرف الرومانسيّ الذي يتسم به نديم في أعماله كلها، وحياته كلها.

إذا غادرنا ديوان «آلام» بأجزائه الثلاثة، وقفزنا دفعة واحدة إلى نديم وهو في الثمانين من عمره، وجدنا مذهبه عارياً، ورأينا شكل العلاقة التي يبتغيها من المرأة؛ فهو لا يريدها حبيبة ولا زوجة، ولكنه يسعى إليها سعياً محموماً جسداً في سرير الجنس، فتَحْت عنوان «جنون الشرق» يقول:

يا سنا الوحي في ظلام أناشيدي وخمر الهوى، وسُكرَ الخيالِ
مرّ شهرٌ، وضاقَ صدري من الهجرِ وضاقتْ منه صدورُ الليالي
فكفاني هجراً، وما أظلم الهجرَ كفاني يا (رأفُ) ظلمُ الدلالِ
جُنَّ شوقُ النديم والشعرُ والخمرُ تعالي يا خمرَ خمري، تعالي
متّعيني من فيك بالقُبلةِ الجمرِ، وثنّي ببردِ عَذْبٍ زُلالِ

وإذا أردنا أن نصوغ موقفه من المرأة بكلام مباشر، قلنا إنه موقف لذّي حسّي في جوهره، ولكنه في «آلام» رومانسي بلا مواربة. وهذا التناقض الصارخ يلازم الشاعر في التفاصيل وفي المواقف الكبيرة في الحبِّ والحياة والوطن؛ إنّه انشطار

الذات وتمزّقها المرير المدوي. ولذلك، ككل الرومانسيين، يبحث نديم عن واحة تعيد لروحه وحدتها، ولشعوره هدوءه، ولكبره زهوه ولعابَه؛ فيجد ذلك كله في «ريفه» و«قريته»، فهو ينعطف دائماً بقصائده نحو الريف، فيصوره جنة من الجمال، وتغريد البلابل، وشهقة الفجر العاري، واطمئنان الفلاح المؤمن بوطنه وأمته العربية، الفلاح المستعد دائماً للتضحية من أجل الحرية، الفلاح الذي يعي أن الإقطاع يبني قصوره من تعبه، ويصبغها من عرقه، ولذلك هو مستعد للثورة التي تطهّر، وتحقق العدالة. وهكذا يجد نديم نفسه يدفع موقفه الرومانسي إلى خضم السياسة؛ وحتّى في «آلام» يخصص النشيد السادس عشر ليرسم لوحة جذابة حالمة للكوخ، والتلال، والأصيل، والخراف، والندى، والعصافير، والفجر:

حُلمٌ نائمٌ أضأتُ عليه	الكوخَ في يوم هدأةٍ وحرورِ
يملأ الفجرُ عبّ عيني فما	تغسلُ إلاّ في دفقةٍ من نورِ
وأنقي في شرفةِ الصبحِ	أصداءَ فؤادي بنغمةِ العصفورِ
وأكشّ الندى المعابثَ في العشب	لأحمي منه ابتلال الحصيرِ
وقريبٌ مني خرافٌ على التلّ	صغارٌ بيضٌ كدرٌ نثيرِ
وأراني مع الأصيل على مفرق	دربٍ ومَشرفٍ من صخورِ
والعصافير لَمّها مغربُ	النورِ لتشدو حبتً بلحنٍ أخيرِ
ليتني طرتُ في السماء مع الطّير	ولم أختبئ وراء الخدورِ

لا بدّ من الإشارة إلى أن «نديماً» يطرب لبعض المفردات العامّية، فيستخدمها في شعره بلا حرج أو تردد، منها مثلاً يتهرهر، أنهرّ، فهو يقول:

ونجومٌ، حبّ العناقيد بيض	(يُتَهرْهَرْنَ) من كروم الثريا

ويلاحظ القارئ أن إيقاع هر - هر يفتن الأذن، ويشد إلى أحاسيس مخزونة من الريف، تحتفظ برؤية الهُرْهُرَة (الفصيحة) من حبّ العنب في أصل الكرم؛ والشاعر مولع بالصفة المشبهة باسم الفاعل، وهو يشتقها على هواه، وعلى ضوء إحساسه

الغني دون أن يأبه لفصاحتها؛ ولا سيما الصفة التي على وزن فعيل، كما أنه يلجأ أحياناً إلى جموع لم ترد في قواميسنا مثلاً (ظفور كجمع لظفر)، وهذا كله يذكرنا باحتفاء الرومانسيين في ألمانيا وإنكلترا ولا سيما بالعامية وبالشعر المحلي، ولقد كتب نديم بنفسه عشرات المقفيات الزجلية غير المنشورة؛ ولكنها موجودة بخط يده.

وإزالة لأي التباس، فشاعرنا يسيطر على أدواته سيطرة تدعو إلى الإعجاب والدهشة؛ ومنذ مطلع شبابه كتب شعراً اتباعياً، يُظهر بوضوح مدى إتقانه للأساليب الشعرية العربية في أرقى نماذجها؛ وأصفى كلامها، ولا حاجة للتأكيد على مدى إجادته لنحو اللغة العربية وصرفها؛ وما ولعه بالاشتقاقات الجديدة، أو تضعيف عين الفعل بمثابرة بارزة، إلاّ تأكيدٌ آخر على تذوقه الشفاف لأسرار لسانه الفصيح، وولعه بهذا اللسان الفريد.

❖ ❖ ❖

ربما كان نديم قد تعلّم في فرنسا وسويسرا حلم الرومانسيين الأوائل في تأسيس مجتمع طوباوي، مجتمع تعمره المساواة، وتغمره العدالة والحب والانسجام، مجتمع يوحد بين البراءة والطبيعة والعبادة، مجتمع تكون فيه الأمة، كل الأمة أفراداً ممتلئين كرامة وعزة وكبرياء.

وهكذا تجد رومانسية نديم نفسها متاخمة للسياسة منخرطة فيها دون ذوبان أو كيمياء. ومرّة أخرى نقرأ سيرة التناقض الصارخ بين اليوتوبيا والحاضر، بين الحلم المركوز في الروح، وبين ممارسات الساسة، والحياة اليومية المُعاشة. فعندما كان نديم في السابعة عشرة طالباً في مدرسة «اللاييك» ببيروت، كتب محيياً شهداء السادس من أيار، ومهاجماً فرنسا التي كانت تحتل لبنان وسورية؛ ولقد تباهى دائماً بأنّه لم يمدّ للمستعمر سوى السيف، ويد الغضب والرفض والمقاومة. وحين جلا الاحتلال عن سورية، تدفق نديم شعراً يمجد حرية الوطن؛ ولكنه على الفور انقلب ضد سلطة الاستقلال؛ ورأى فيها وجهاً بشعاً للاستغلال والتسلط وقهر المواطنين؛ أي أن دولة الاستقلال كانت مناقضة ليوتوبيا نديم. كان نديم عضواً في الحزب العربي الاشتراكي الذي أسسه وتزعمه أكرم الحوراني أكثر الزعماء السوريين شعبية بين الفلاحين؛ ولقد اتّحد هذا الحزب مع البعث ليشكلا

معاً حزب البعث العربي الاشتراكي بزعامة ميشيل عفلق. ويعرف المقربون من نديم مدى إعجابه المستمر (بقائده) ونديمه أكرم الحوراني، حتّى أنه علق صورته دائماً في صدر بيته. كتب نديم عن ثورة الجزائر، وعمان، والعراق، ولبنان، وليبيا، مهللاً حالماً بدولة قومية عربية واحدة؛ وفي ذلك كله لا يضيف جديداً عن أفكار النخوة، والدعوة إلى الوحدة، ومقارعة أعدائها، وحتى في الرموز الشعرية لا نجدها تتجاوز السيف والرمح والجواد والنسر والفخر بتراث الآباء والأجداد. باختصار شعره القومي كغيره من الشعر القومي العربي - موكب من الخطابة والتحميس واللهب الأحمر.

وفي موقف نديم من جمال عبد الناصر، نرى بوضوح مدى التمزق والألم الذي يعانيه الشاعر من المواجهة بين حلمه الرومانسي والواقع المتحقق الذي يأخذ شكل الحاضر؛ نرى أيضاً الصدام بين الزمن التاريخي الواقعي، والزمن الشعري عند شاعر رومانسي من حجم نديم.

كان عبد الناصر في المشرق العربي محبوباً إلى حدود التقديس مع تأميم قناة السويس؛ ولقد تبارى الشعراء القوميون في مديحه لا سيما في سورية والعراق. ومن الغريب أن الشعراء المنتمين لحزب البعث العربي الاشتراكي كانوا في طليعة المداحين. نديم خلع على عبد الناصر كل صفات البطولة والنبل، ورأى فيه خشبة خلاص للأمة العربية، ووجد فيه القائد «الأسمر» البطل القوي المخلص المنتظر؛ كيف لا وهو بطل تأميم قناة السويس المتشوق لتحقيق الوحدة، وها هي ذي الوحدة الحلم تصبح رأي العين، ولمس اليد بين سورية ومصر، تلك كانت ذروة أحلام القوميين:

يا أسمر الأهرام ... عصفُ خطاكَ لا مهل وخطرُ
قم أنت وحدك لا صلاح ... ولا معاوية وعمرُ
قم زلزل الدنيا ... فما يغْني سواكَ ولا يضرُّ

إن صورة عبد الناصر عند الرومانسيين من الشعراء، ومنهم نديم، وعند القوميين الحالمين كانت تشبه إلى حدّ بعيد صورة (نابليون بونابرت) كما استقبلها

الرومانسيون الألمان، ولقد انقلب أولئك اليوتوبيون ضد عبد الناصر كما انقلب أولئك ضد الإمبراطور الفرنسي الفاتح. ففي عام 1959 نشبت أزمة بين البعثيين الوزراء بقيادة أكرم الحوراني، وبين عبد الناصر، استقال على أثرها نائب الرئيس للإقليم الشمالي (أكرم الحوراني)؛ وانسحب الوزراء البعثيون من الوزارة، وانقلب معهم معجبو الأمس، ومدّاحو جمال عبد الناصر إلى هجائين مهاجمين؛ فيكتب نديم ديواناً كاملاً بعنوان (فرعون) في هجاء أسمر الأهرام والأبطال الذي كان: «وحده، وما سواه لا يضرّ».

يمكننا أن نجمل الملاحظات التالية حول موقف الشاعر من رموز القيادات القومية:

• آمن نديم بوطنه، وغنّاه صادقاً، وآمن معتقداً بالأمة العربية الواحدة، وبحقها الثابت بدولة قومية واحدة، ونجد في شعره عشرات الأمثلة التي تعلن إيمانه ومعتقداته القومية العربية.

• نديم، كرومانسي، لا يستند في أحكامه إلى العقل، ولذلك تصدر مواقفه عن ردود أفعاله الفائرة، فتأتي عاطفية انفعالية رجراجة تجاه الأحداث والشخصيات.

• الجذر العميق لمدائحه وهجاءاته لعبد الناصر هو التناقض الصارخ بين يوتوبيا الشاعر الرومانسي وحاضر المجتمع العربي؛ ومن هنا يصبح البطل الفرد مسؤولاً مرتين: عن النصر، وعن الهزيمة، عن مجد الأمة وعن انحطاطها، فإذا أخفقت الوحدة (ففرد) هو المسؤول عن أخطائها، كما كان ـ من الموقع نفسه ـ صاحب الفضل في إنجازها!

• أما رثاؤه ـ مرّة ثالثة ـ لعبد الناصر، فإنه نابع من مسألتين: الأحوال التي آلت إليها سورية والوطن العربي بعد هزيمة حزيران، وشعور نديم بأنّه أخطأ بحق البطل الأسمر في فرعونيته:

كان ما كان، من عثار بَيَاني ... في جماح الخيال والتعبيرِ

أشعلتني عليك غضبة إبراءٍ ... عن الدّم لا هوى موتورِ

• كانت الهزائم التي واجهتها الأمة العربية في 1948 - 1956، حرب لبنان، إلى هزيمة 1967، تدفع نديم دفعاً للرجوع إلى قريته، وإلى ريفه المطمئنّ الباذخ بالسكينة والطيوب والحب والانسجام؛ وكان يدعم شعوره هذا ما رآه في عمله الوظيفي، وما انتهت إليه سورية في ظلِّ الاستقلال عن انقلابات وتناحرات وظلم ورشوى وما في مستوى ذلك. ولهذا نجد نديم يمجد انقلاب 8 آذار 1963 بأحرّ الشعر؛ ثمّ ينقلب عليه هجاء مريراً، وينسحب مرة واحدة ونهائية من النشاط الحزبي وسواه من النشاطات الاجتماعية. ومن الجدير ذكره أن نديم ما مدح حاكماً عربياً سوى عبد الناصر، ما عدا قصيدة أهداها إلى الرئيس حافظ الأسد عام 1993 قبل وفاته بأقل من عام.

لا نعرف في العربية - على طول تاريخها - شاعراً أكثر غزراة من نديم محمد، فهو كما وصفه والده: «يغرف من دمه، ويعطي من قلبه».

وكما أسلفنا، فإنه كان يكتب الشعر بلا جهد؛ ولكنه بقي مشدوداً إلى الاتباعية رغم دخوله الجارف في الكلام الرومانسي، وفي المذهب الرومانسي شعراً وحياة، وكأن شعره قيدٌ يوميّ لحياته وانطباعاته عن واقع شعبه وأمته؛ وحتّى شعر الإخوانيات جاء غزيراً يشكل ديواناً كبيراً وحده. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن مئات القصائد في الهجاء الفاحش لم نجدها مدوّنة بعد. وإذا أردنا أن نوجز صورة نديم في أحكام عامة مباشرة مع إدراكنا لحماقة مجازفتنا، فإننا نقول: إنه شاعر التمزق والتناقض واللذة والخمر والشعر. ونؤكد مرّة، ولكل مرّة أنّه حافظ على عقده الشيطاني مع الشعر والجنس والخمر، فلم يندم، ولم يخلّ بالشروط حتى اللحظات الأخيرة من حياته.

وفي مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في بلودان سنة 1956 كان نديم متفرداً بشعره وإنسانيته، وكانت شهرته قد وصلت مصر، حتى إن عميد الأدب العربي قال بعد قراءة (آلام):

«الشاعر نديم محمد، لو لم يكتب إلاّ ديوانه (آلام) الذي أرسله لي، وقرئ على سمعي فأطربني، ما سمعت. لو لم يكتب هذا الشاعر إلاّ هذا الديوان، فحريُ بالشعر العربي أن يضمه إلى فحوله الكبار، فهو في (آلامه)، بلغ العلوّ الشاهق، ولم ينخفض إلى السفح، وهذا يكفي الشاعر ليكون شاعراً».

وتلك المقدمة لا تذكر لنا المرجع الذي أخذت منه شهادة عميد الأدب العربي بنديم؛ وعلى أيّ حال لم يسعَ نديم ليصبح معروفاً، فقد زهد بالنشر في الدوريات المحلية والعربية، ولم يشارك في النشاطات الثقافية العامة، لا في سورية، ولا خارجها، ولم يُقِم علاقة مع وسائل الإعلام المكتوبة، أو المسموعة، أو المرئية.

وفيق خنسة

تراث الشاعر

التراث المنشور:

نُشر للشاعر حتى الآن مجموعة من الدواوين هي التالية:

- آلام بأجزائه الثلاثة: صدرت الطبعة الأولى من آلام الجزء الأول عام 1953، وأعيد طبع الجزء الأول من آلام ثانية مع الجزأين الثاني والثالث كلاً في ديوان مستقل. عام 1985 عن دار الحقائق للطباعة والنشر التوزيع في بيروت.
- فراشات وعناكب: صدرت الطبعة الأولى عن دار المعجم العربي، ثم صدرت الطبعة الثانية عن دار الحقائق عام 1985.
- أفاق 1949 . 1958 صدر عن المطبعة الأهلية بحماه عام 1958.
- فرعون منشورات دار الثقافة في دمشق صدر عام 1960.
- ألوان صدر عام 1965 عن مكتبة ومطبعة الزهراء.
- رفاق يمضون: مجموعة من قصائد الرثاء لأصدقائه ورفاق دربه، صدر عن منشورات أطلس دون تاريخ، وكتبت مقدمته تحت عنوان: (للذكرى) عام 1964.
- الأعمال الشعرية الكاملة: المجلد الأول ويتضمن الدواوين التالية:
  - من وحي الوحدة
  - أشواك ناعمة

- زهور وشتاء
- صرخة ثائر
- شاعر وصومعة
- صمت الرعود

صدرت الطبعة الأولى لهذا المجلد عن دار الحقائق في بيروت عام 1988.

- فروع من أصول: وهو مجموعة مختارة من دواوين سبق أن نشرت وأضيف إليها قصائد رثاء لأصدقائه: صدر عن دار مجلة الثقافة في دمشق عام 1993.

1 ـ صدرت عن وزارة الإعلام في الجمهورية العربية السّورية خمسة مجلدات من أعمال نديم محمد:

- المجلد الأول عام 1996 م، ويضم الدواوين: من خيال الماضي ـ براعم وربيع ـ ورود وخريف ـ آفاق.
- المجلدان الثاني والثالث عام 1997 م ويضمان الدواوين: آلام ـ فراشات وعناكب ـ قصائد للوطن ـ ألوان ـ غربة الحس ـ هالة ـ حول الشعر الجديد.
- المجلدان الرابع والخامس 1998 م، ويضمان الدواوين: رفاق يمضون ـ من حصاد الحرب ـ من وحي الوحدة ـ فرعون ـ صمت الرعود ـ زهور وشتاء ـ أشواك ناعمة ـ شاعر وصومعة ـ صرخة ثائر ـ وصف أحوال.

التراث غير المنشور:

- شلحاويات: وهي مجموعة قصائد منسوخة على الآلة الكاتبة، ومتوفرة لدى أفراد أسرة الشاعر (شلحا) باعتبارها سجلاً لمفاخرهم ونضالهم ضد الاستعمار الفرنسي؛ وقد قمنا بتصحيح الأخطاء المطبعية، واستكمال بعض الأبيات معتمدين على الشاعر إبراهيم هواش خير بك أحد الرُّواة عن الشاعر.

وقدم لنا الأستاذ سلمان حرفوش مخطوطة بيد الشاعر نديم محمد نفسه، يصنّف فيها نتاجه الشعري والنثري وفقاً للأحرف الأبجدية؛ وهي التالية:

- إخوانيات: وقيلت في عدة مناسبات، صنفها الشاعر في 78 موضوعاً كل منها في بيتين أو ثلاثة أو خمسة؛ وأقلها ما يتجاوز عشرة أبيات، موجهة إلى أصدقائه عتاباً أو هجاء أو تسجيلاً لواقعة أو وصفاً لحادثة، وقد نظمت ما

بين عام 1931 (موجهة إلى إبراهيم ومحمد وعلي إخوة ثلاثة المخاطب ثانيهم محمد) (ستة أبيات) وعام 1983.

- استظهار الماضي: وهي «مذكرات دون التقيد بالتواريخ عن كل ما يذكره من أعمال الماضي منذ طفولته؛ واستعراض فائت واستعادة ذكريات، فما إلى تأسيس علم رمى، فيرسم ويقيس، ولا رواية أراد، فيسلسل حوادث ويرتب فصولاً. يبتدئ من مكان ابتداء، وينتهي في نقطة ابتداء، فالمعيل إلى الفكر هو الأول والسابق على اللسان السابق»، وهي أيضاً: «كشف عما جرى للشاعر وقربه خلال نصف قرن. بعضه مؤيد بوثائق وما شاكل».
- أعشاب مروج: ديوان في جزأين نظمت قصائده في فترات متباعدة ما بين عامي 1938 (قصيدة ألقيت في مؤتمر طرطوس الوطني من 38 بيتاً) و1984: تشمل 50 عنواناً معظمها لا يتعدى عشرة أبيات باستثناء (معركة في البحر)، وهي وصف لحالة الحرب العالمية الثانية، 26 بيتاً، و(ما العمل) 31 بيتاً.
- براعم ربيع: نظمت ما بين 1921 و1934 وتشمل 29 عنواناً معظمها لا يتعدى عشرة أبيات باستثناء (العذارء) التي نظمها عام 1930، وهي «قصة واقعية وضعها الشاعر بالفرنسية ثم عنَّ له فنقلها إلى العربية، لم ينقص منها ولم يزد».
- تيمور: ويقع في خمسة أجزاء تشمل 56 عنواناً أقلها نظم عام 1962، والأغلبية خلال أعوام 1964 - 1966، وتتناول حياة الرفاه في دمشق، والحياة السياسية.
- حول الشعر الجديد: ويقع في قسمين ويتناول اثني عشر موضوعاً كتبت بلغة نثرية.
- خيال الماضي: ويقع في ثلاثة أجزاء نظمت مواضيعها الإحدى والثمانون ما بين عامي 1921 (بيتان تحت عنوان الجمال)، و1955 (رثاء الشهيد عدنان المالكي)، والقليل من المواضيع يتجاوز عشرة أبيات.
- رفاق الماضي: ويقع في ثلاثة أجزاء تتناول 26 موضوعاً، نظمت ما بين 1931 و1966 على أثر فقد صديق أو مصرع شهيد.
- شذور قصائد ضائعة: وتشمل 75 موضوعاً تتكون كل منها من بيت واحد في الأعم الأغلب وعدة أبيات في بعض الحالات.
- عار ولا أمل: ويشمل ست قصائد طويلة، نظمت خلال عامي 1971 و1972.

- عبيد مكة: ويقع في جزأين ويشمل 13 موضوعاً.
- غربة الحس: ويقع في جزأين يشملان 57 عنواناً نظمت ما بين عامي 1933 و1984 وتحت كل عنوان عدة أبيات فقط.
- مسارح أفكار: تضم 44 موضوعاً نثرياً كتبت ما بين عامي 1950 و1985.
- من حصاد الحرب: ويقع في واحد وعشرين جزءاً، فقد منها - وفقاً لما يذكره الشاعر - الجزء التاسع عشر، وقد نظمت ما بين 1973 و1988 وتشمل ما يزيد على تسعين عنواناً معظمها يزيد على 80 بيتاً، وقد نظمت خلال حرب تشرين 1973، ويلحظ القارئ تأرجح شعور الشاعر، وتأثره بالإعلام أثناء الحرب وبعدها.
- مسرحيات قصيرة: وتشمل خمسة مواضيع نثرية وشعرية معاً.
- مسمى حزب البعث العربي الاشتراكي (الدستور المطبق): ويشمل أحد عشر موضوعاً كتبت نثراً عام 1963.
- مقفّيات عامية: وتشمل عشرين موضوعاً معظمها زجلي (كان زمان، هلا بالواردي، حاملة الجرة، ثورتنا، لمين الشكوى، مبارح، إلى رفيق الزمان... الخ).
- مناقضات: وتقع في ثلاثة أجزاء، وتشمل اثني عشرَ عنواناً أحدها نثري (آثار الحوافر 1981)، والباقي قصائد أطولها (إلى الإسطبل عام 1981) وتقع في 514 بيتاً، و(هروب) عام 1964 وتقع في 116 بيتاً، وهي مناقضة لقصيدة مطلعها: (وفاء لمزن الغوطتين).
- نبوءة الشعر: ديوان من ثلاثة مواضيع هي: تبصرة، وهاله، وهذه هي، نظمت عام 1982.
- هوامش ومسارح أفكار: وتضم 25 موضوعاً نثرياً كتبت بين عامي 1937 و1946.
- ورود خريف: ويقع في ثلاثة أجزاء وتضمّ 72 عنواناً معظمها يتكون من عدة أبيات فقط وقد نظمت ما بين عامي 1930 و1980.
- وصف أحوال: ويقع في ثمانية أجزاء، الجزء السابع منها مفقود وتشمل 476 عنواناً أغلبيتها الساحقة تتكون من بيتين أو عدة أبيات، وقد نظمت ما بين 1927 (نتيجة محتمة 10 أبيات) و1988.

- وصف أحوال موصوفة: ويقع في جزأين له مقدمة نثرية (أول ما نستفتح به) بشأن يوسف الصيداوي، ووضعت الأبيات وعددها 388 بيتاً تحت عنوان (المقطوعات الشعرية) وقد نظمت عام 1987.
- يعقوب يتكلم: وهو ديوان يضم ثلاثة عناوين نثرية: (كان ويا ما كان) والإهداء (إلى الحقيقة والحق) و(هذا هو الشاعر) عرض وتحليل للملحمة من الشاعر، وسبع مقطوعات شعرية للملحمة تتكون من أحد عشر موضوعاً كل منها حوالي 50 بيتاً فأكثر وقد نظمت عام 1970.
- يقظة: وتشمل سبعة مواضيع نثرية وشعرية كتبت خلال عامي 1931 و1933.

أديب الشيشكلي

الدكتاتورية العسكرية

(1909 ـ 1964)

كان يوم 19 كانون الأول 1949، هو الموعد المحدد لأداء اليمين الدستورية في البرلمان؛ وينص على تعهد رئيس الجمهورية ونواب الجمعية التأسيسية أمام الله باحترام القوانين؛ وصيانة استقلال الوطن وسيادته ووحدته؛ والمحافظة على الخزينة العامة، والعمل لتحقيق وحدة البلاد العربية. وقد اعترض ممثل الأقلية النيابية أكرم الحوراني على نصّ القسم الذي تقدمت به الأغلبية، لأنه لم يتضمن: (الحفاظ على النظام الجمهوري)، وطالب باستدراكه. كانت إضافة جملة كهذه تُعد بمثابة ضربة قاصمة لنوايا حزب الشعب في سعيه للاتحاد مع العراق الملكي؛ إن لم يكن إحالة قضية الوحدة العربية إلى مجرد تعبير بلا آفاق. ففي عام 1949 كانت الجمهوريتان الوحيدتان هما سورية ولبنان. على كل حال أصرّ المجلس على موقفه بأغلبية 60 مقابل 48 نائباً.

قبل ساعات من الموعد المحدد لأداء القسم؛ أي في صباح يوم 19 كانون الأول، صدر بيان عن القوات المسلحة للجيش السوري بتوقيع العقيد أديب الشيشكلي، حسم جدل الوحدة لصالح معارضيها، وكان بمثابة البلاغ رقم واحد:

«ثبت لدى الجيش أن رئيس الأركان العامة اللواء سامي الحناوي، وعديله السيد أسعد طلس، وبعض ممتهني السياسة في البلاد يتآمرون على سلامة الجيش وسلامة البلاد ونظامها الجمهوري مع بعض الجهات الأجنبية؛ وكان الجيش يعلم بهذا الأمر منذ البداية، وقد حاول ضباطه بشتى الطرق ـ بالامتناع تارة وبالتهديد الضمني تارة أخرى ـ أن يحولوا دون إتمام المؤامرة، وأن يقنعوا المتآمرين بالرجوع عن غيّهم، فلم يفلحوا، ما اضطر الجيش ـ حرصاً على سلامة البلاد وسلامته، وحفاظاً على النظام الجمهوري ـ أن يقصي هؤلاء المتآمرين، وليس للجيش أية غاية أخرى، وإنه ليعلن أنه يترك البلاد في أيدي رجالها

الشرعيين، ولا يتدخّل إطلاقاً في القضايا السياسية؛ اللهم إلا إذا كانت سلامة البلاد وكيانها يستدعيان ذلك».

في الليل، كان العقيد الشيشكلي قائد اللواء الأول قد استولى على دمشق، ولم يواجه سوى مقاومة ضئيلة. وتم القبض على رئيس الأركان ومعاونيه من العسكريين وبعض المدنيين. وهكذا للمرة الثالثة خلال أقل من عام يفرض العسكر على السياسيين وجهات نظرهم بالقوة؛ وتعود الدبابات سيدة الموقف».

في الحقيقة لم يكن الانقلاب عسكرياً بحتاً، كان أكرم الحوراني رئيس الحزب الاشتراكي ضالعاً فيه، كان هو والشيشكلي صديقَي طفولة في حماة، وكانا في أوائل شبابهما أعضاء في الحزب القومي السوري، وسوف يترافقان ويخوضان معاً معارك ما قبل الاستقلال وبعده، ويصبحان أبرز رجلين صنعا تقلبات البلاد، إلى أن تفرقت بهما الدروب والحظوظ، وبات الواحد منهما العدو اللدود للآخر. عاش الحوراني عمراً أطول في الحياة السياسية؛ لكنه لم يحقق طموحاته، في حين حقق الشيشكلي طموحاته السياسية، وسيطر على البلاد، وقادها حوالي أربع سنوات، وأصبح رئيساً للجمهورية لفترة وجيزة؛ وتحققت بمعرض القصد لا المصادفة تلك القصة الطريفة التي تروى عن أمه التي طلبت من ابن أخيها حسني البرازي يوم كان رئيساً للوزارة في عهد الشيخ تاج الدين الحسني، أن يعين ولدها في وظيفة ما، فاستجاب لطلبها وعينه في وظيفة مقبولة، لكنها جاءته قائلة: إن الوظيفة لم تعجب ابنها أديب ولم تناسبه؛ فرد عليها البرازي ضاحكاً: ماذا تريدين؟ أتريدين أن يُعين رئيساً للجمهورية؟ غير أن القدر لا يعرف الممازحة.

❖ ❖ ❖

ولد أديب الشيشكلي عام 1909 في مدينة حماه، من عائلة عريقة كبيرة ومعروفة، نشأ ودرس فيها، ثم انتقل إلى المدرسة الزراعية في سلمية وتخرج منها. انتسب إلى المدرسة الحربية في وحدات الشرق الخاصة عام 1928 في بناء (جامع دنكز) بدمشق. تخرج عام 1930 برتبة ملازم ثانٍ، وخدم في جيش الشرق الفرنسي، ثم انتقل مع غيره من الضباط إلى الجيش السوري، وأسهم في معركة تحرير سورية من الفرنسيين سنة 1945؛ ثم شارك في حرب فلسطين، وقاد فوج

اليرموك الأول من جيش الإنقاذ، ودخل أراضي فلسطين من بنت جبيل في 8 كانون أول 1947: وتمركز في الجليل الأعلى، وكانت أولى معاركه أمام جنين، وهاجم المستعمرات اليهودية، ثم عاد في 20 تموز 1948 يائساً وغاضباً من أوضاع جيش الإنقاذ، ليتسلم في سورية قيادة اللواء الثاني.

شارك في الانقلاب الأول مع حسني الزعيم مشاركة فعالة؛ لكن الزعيم لم يأمن له، فأرسله آمراً للمنطقة الشمالية، ثم صرفه من الخدمة. اشترك بعد أشهر في الانقلاب الثاني مع سامي الحناوي؛ فأعاده إلى الجيش، وعينه قائداً للواء الأول برتبة عقيد. بعد أشهر سيقوم بانقلابه الأبيض ضد الحناوي، ويعهد إلى المدنيين بتسيير أمور الدولة مبقياً على رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي، والجمعية التأسيسية، ويكلف ناظم القدسي بتشكيل الوزارة. واكتفى بمنصب نائب رئيس الأركان، وهو منصب يبدو متواضعاً لا يزيد عمله عن تعيين ونقل الضباط؛ بينما في الواقع جعل من هيئة الأركان العامة منافساً للجمعية التأسيسية التي يسيطر عليها حزب الشعب؛ ومن ثمَّ كان على أية حكومة قادمة إقامة توازن بين الجيش والبرلمان. برز هذا صبيحة الانقلاب عند تشكيل الوزارة الأولى؛ إذ رفض الجيش وزارة القدسي التي شكلها بأغلبية من حزب الشعب؛ ما اضطره إلى الانسحاب، وإلى تقديم الرئيس هاشم الأتاسي أيضاً استقالته. لكن سينجح خالد العظم في 27 كانون الأول بعد مشاورات مطولة بتشكيل وزارة قنع فيها حزب الشعب بأربعة وزراء؛ وفرض الجيش أكرم الحوراني وزيراً للدفاع.

تعلّم الشيشكلي، من تجارب سابقيه، أن تركيز السلطة في يد رجل واحد يشكل خطراً عليه وعلى الحكم؛ فتوارى خلف الكواليس، وشكل مجلس العقداء ضم عقداء الجيش المعروفين، واعتُبر ركيزة الانقلاب، وإليه كان يعود لاتخاذ القرارات الخطيرة. كان فعلياً قد وضع حدوداً لحرية نواب الشعب في البرلمان، ورسم سياسة البلاد القومية وتوجهاتها العربية والدولية. لم يدرك السياسيون تماماً تلك القيود التي فرضها على سلطاتهم، واستمروا يمارسون أعمالهم الاعتيادية من إصدار بيانات واحتجاجات وكتابة مسودات دساتير دون أن يقرّوا أن الكلمة الأخيرة هي للأركان العامة؛ وبدوره لم يحاول الشيشكلي أن يزاول سلطته

المطلقة؛ بقيت المسؤوليات على عاتق الحكومة التي تعرضت للوم الصحافة والرأي العام؛ وكان بين آونة وأخرى يذكرهم بسلطته ويزعجهم بتدخلاته.

خلال النصف الثاني من عام 1950 بدأت وحدة الضباط بالتفكك، بدت نوايا الشيشكلي غامضة، والشائعات تنتشر حول تغيير مواقفه، حتى أشيع عنه بأنه يميل إلى تأييد الوحدة مع العراق؛ وأخذت الحكومات الهاشمية في الأردن والعراق تكثف من نشاطاتها في سورية عن طريق كسب الضباط إلى صفها؛ ما جعل الضباط يفقدون ثقتهم ببعضهم، فيما كانت قبضة الشيشكلي تزداد إحكاماً، ولم يتردد عن التخلص ممن كان يشك في نواياهم، فتواترت حالات النقل والطرد والمحاكمات العسكرية بتهمة التآمر، تفجرت أخيراً في 31 تموز 1950 باغتيال الضابط اللامع العقيد محمد ناصر قائد القوات الجوية؛ بعدما حامت الشكوك حول إعداده لانقلاب بالتعاون مع القوات الأردنية. وبالرغم من عدم العثور على الجناة، إلا أن القناعة لدى الكثيرين كانت أن جريمة الاغتيال من تدبير الشيشكلي؛ نفّذها ضباط من رجاله المقربين إليه؛ أعقبها بعد حوالي شهرين محاولة لاغتيال الشيشكلي نفسه، نجا منها بأعجوبة، وقد قامت بها كتائب الفداء التي تضم سوريين وفلسطينيين ومصريين؛ وكانت جماعة متطرفة في عروبتها.

إثر اشتباكات القوات السورية مع الإسرائيلية حول بحيرة الحولة، طلبت سورية من الجامعة العربية المساعدة من مصر والعراق؛ فالتزمت مصر الصمت، بينما سارعت العراق إلى إرسال قواتها لنجدة الشقيقة سورية؛ وأشاع استعراض الجيش العراقي في شوارع دمشق الحماسة ومشاعر الأخوة؛ مما جعل أنصار الهاشميين أكثر جرأة، فجدد حزب الشعب دعوته إلى الوحدة مع العراق كوسيلة للدفاع عن سورية ضد التهديد الإسرائيلي؛ ما أظهر عدم تنازل الأحزاب عن برامجها، وإنما نظمت تراجعاتها، وأخذت تضبط خطواتها من جديد. هذه المرة لم ينس حزب الشعب أن يظهر إخلاصه للجمهورية؛ كانت الأوضاع في البلد مختلفة، وعلى مجلس الشعب أن يحسن التعامل معها.

❖ ❖ ❖

كانت سورية محكومة فعلياً بواسطة مجلس عسكري توجهاته غامضة؛ وأعضاؤه على خلاف فيما بينهم، ولكي يُحْكِم الشيشكلي سيطرته فرط المجلس،

وبات يحكم البلاد عبر حفنة من الملازمين الأوائل؛ وفرض الرّقابة العسكرية على جميع الضباط المناهضين له؛ فيما كان النظام البرلماني قائماً نظرياً، لا يظهر منه سوى عجزه، دونما حزب يحوز على الأغلبية، الفرقاء كثيرون غير قادرين على التعاون فيما بينهم؛ وسيفشل رئيس الوزراء في الحد من نفوذ الجيش ـ بعد أن أنجزت حكومته تحويل الجمعية التأسيسية إلى مجلس نيابي ـ وانتخاب هاشم الأتاسي لرئاسة الجمهورية.

واظب الشيشكلي على افتعال أزمة لا تخمد قبل أن يفتعل غيرها؛ يعرقل أعمال الوزارات، يدفع وزارة إلى الاستقالة، يفرض وزارة أو وزراء، يتدخل في قضايا التهريب، يمدُّ سلطته إلى المباحث، ينقل الدرك من وزارة الداخلية إلى ملاك وزارة الدفاع.

كل هذا في ظل أوضاع تتدهور: الموظفون مضربون عن العمل، احتياطي سورية من القمح لا يكفي أكثر من خمسة عشر يوماً، عجز في الميزانية... وسوف يقود حزب الشعب حملة ضد رئيس الوزراء العظم، فيقدم استقالة حكومته، ويشكل حسن الحكيم المتعاطف مع الهاشميين الوزارة الجديدة؛ ويعلن، لئلا يصطدم مع الجيش، بأن النظام الجمهوري هو أساس وجود سورية وسر انبعاثها دون أن يتعرض في بيانه الوزاري للاتحاد مع الجوار؛ أما بالنسبة للسياسة الخارجية فسوف «تمد الحكومة يد الصداقة نحو الجميع، بما يتلاءم مع المصالح القومية، وبما يتفق مع ميثاق الأمم المتحدة».

كانت الحكومات الإنجليزية والفرنسية والتركية تخطط وتروِّج لمشروع منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط الذي عرض على مصر الانضمام إليه؛ وأُعلمت به سورية، وكانت مدعوة إليه عاجلاً أم آجلاً؛ فصرح رئيس الوزراء: «إن الدخول في خطة الدفاع ستمكن سورية من تقوية نفسها عسكرياً واقتصادياً، بدلاً من معاهدات وحياد لا يجديان نفعاً». هذا ما أثار الأحزاب ضده، وانشقت الحكومة فيما بينها، ما دفع رئيس الوزراء إلى الاستقالة، وبقيت سورية دون حكومة لمدة تسعة عشر يوماً.

طلب الشيشكلي من حزب الشعب الاشتراك في الوزارة؛ لكن الحزب اشترط إعادة ملاك الدرك إلى وزارة الداخلية، وأن يكون وزير الدفاع مدنياً، وتطبيق

الدستور نصاً وروحاً، والأهم كفّ يد الجيش عن شؤون الدولة. رفض الشيشكلي مطالبهم جملة وتفصيلاً، لكنه قَبِل بترشيح معروف الدواليبي لرئاسة الوزارة، مع أنه من حزب الشعب، وبدا ملائماً بالنسبة إلى الجيش لعدة أسباب: غير ميال للهاشميين، وينادي بالإصلاح الزراعي والتربوي وإعادة توزيع الثروة، ويتبنى الحياد، وداعية لشراء السلاح من الكتلة الشرقية لكسر احتكار السلاح الغربي، و«على استعداد للتعامل مع روسيا، ولو كانت هي الشيطان»، ومؤخراً وصفته الصحافة الأمريكية بأنه «أكبر زعيم عربي معادٍ للأمريكان»؛ لكنه - على خلاف التوقعات - قدم قائمته الوزارية معطياً حزب الشعب الحصة الأكبر من المناصب، ومحتفظاً لنفسه بوزارة الدفاع. رفض الجيش الوزارة، وبالمقابل لم يرض الدواليبي بأية تسوية، بل وأصرّ على إقصاء الشيشكلي عن منصبه؛ عندئذ لم يعد هناك بديل أمام الشيشكلي عن الانقلاب الرابع.

❖ ❖ ❖

في صباح التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام 1951 أذاع راديو دمشق البلاغ رقم واحد؛ أعلن عن استلام الجيش زمام الأمن في البلاد؛ وطلب من الجميع التزام الهدوء والسكينة؛ وأنذر من تسول له نفسه الإخلال بالأمن بأشد الإجراءات. كان البلاغ مقتضباً وجافاً، لا يحتوي على تلك الديباجة المعهودة حول عودة الجيش إلى ثكناته، ولا عن الحرية والدستور. وجرى اعتقال وزارة الدواليبي مع أعضاء من المجلس النيابي وبعض السياسيين؛ فما كان من رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي إلا أن قدّم استقالته.

في الثاني من كانون الأول أذاع الراديو بلاغاً، وأمراً عسكرياً، ومرسوماً. أسف البلاغ لاستقالة رئيس الجمهورية، وحرمان البلاد من حكمة الرئيس وحنكته. أما الأمر العسكري فكان تولي رئيس الأركان العامة رئيس المجلس العسكري مهام رئاسة الدولة، وكافة الصلاحيات الممنوحة للسلطات التنفيذية. وأُعلم مندوبو الدول العربية والأجنبية أن لا حاجة لحصول الانقلاب على اعتراف جديد؛ واكتفاء الدولة بالاعتراف القائم.

انصب اهتمام الشيشكلي نحو ترسيخ جذور الانقلاب الرابع في البلاد عبر حكم عسكري مباشر؛ واجهَتْه الزعيم (فوزي سلو) بعد تعيينه رئيساً للدولة؛

وأصدر مرسوماً بحل البرلمان، وآخر بتولي الأمناء العامين في الوزارات صلاحية الوزراء ريثما يتم تشكيل حكومة جديدة. حكم الشيشكلي البلاد من وراء حكومة من الأمناء العامين يديرها العسكريون.

استمر الحكم العسكري المباشر بقيادة العقيد مدة ستة أشهر؛ وخلال هذه المدة ردَّ الشيشكلي على الحملات العربية، ومعارضة الأحزاب والسياسيين لانقلابه، بتحقيق إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية؛ وبرهن أن ما حققه العسكريون خلال ستة أشهر لم يحققه السياسيون ومن سبقهم من العسكر طوال ست سنوات بعد الجلاء؛ فصدر عن رئيس الدولة حوالي 235 مرسوماً، تناولت تنظيم الحياة الداخلية في البلاد. بدأت هذه المراسيم بقانون إلغاء الأحزاب في 15 كانون الثاني 1952، فحظر نشاط الحزب الوطني وحزب الشعب والإخوان المسلمين والتعاوني الاشتراكي، وأغلق مكاتبهم، مما أشعر حزب البعث والعربي الاشتراكي بالارتياح لتخلصهم من الحزبيين التقليديين؛ غير أن الوقت لن يطول حتى يوقف جريدة البعث عن الصدور، ثم في 6 نيسان سيشمل الحظر جميع الأحزاب دون استثناء. كما أصدر مرسوماً آخر بتوحيد الصحف، وحصرها بأربع جرائد تصدر في دمشق وحمص وحلب والجزيرة؛ وقانوناً يمنع انتماء الطلاب والمعلمين والموظفين والعمال إلى الأحزاب السياسية، أو مزاولة العمل السياسي، وهدد بطرد موظفين كبار، وتسريح أساتذة من المدارس والجامعة، في حال رفضوا أن يقسموا يمين الولاء للحكم.

كما أصدر قانوناً لتنظيم الشؤون المالية، اعتمد على مبدأ فرض الضرائب التصاعدية، والتخفيف قدر الإمكان من الضرائب غير المباشرة التي تقع على كاهل ذوي الدخل المحدود؛ وأُلغيت الرقابة على النقد الأجنبي، فسمح باستيراده، بينما منع خروج النقد المحلي. وأصدر قانون الإصلاح العقاري، لتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر، وآخر للإصلاح الزراعي يقضي بتوزيع أملاك الدولة على الفلاحين ممن لا أرض لهم. وباشرت الدولة بتوزيع 5 ملايين هكتار على 50 ألف أسرة فلاحية؛ بهدف توطين ربع مليون نسمة. وبدأت الدولة خططاً لتنفيذ مشاريع الري الكبيرة في البلاد؛ وأبرزها مشروع تجفيف الغاب، ومشروع اليرموك، وبدأت مفاوضات مع مصرف الإنشاء والتعمير الدولي الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة

لتمويل خطة الدولة لري 120 ألف دونم؛ وتوطين 25 ألف أسرة، كما قطعت الدولة شوطاً في تنفيذ مشروع مرفأ اللاذقية لتفريغ 800 ألف طن من البضائع سنوياً؛ ووضعت خطة خمسية لإنجازه، بالإضافة إلى مشاريع الكهرباء وإنارة الريف.

اتّخذ الشيشكلي أيضاً إجراءات تهدف إلى ردع تأثير الأجانب وزعماء الدين والأقليات العنصرية؛ فوسع إشراف الحكومة على المدارس ليشمل الخاصة والأجنبية؛ ومنع افتتاح المدارس التبشيرية، وجعل استلام تبرعات من الخارج لأغراض تربوية منوطاً بموافقة وزير التربية؛ وأعاد تنظيم الجمعيات الكشفية والرياضية، لاستبعاد إمكانية وجود أعضاء ذوي اتجاهات طائفية أو عنصرية، وأخضع الأجانب إلى الرقابة، ولم يسمح لهم بشراء أيّ عقار، وحرّم دخول سورية على «المتسولين والمجانين والفاسقات والمجرمين المطلوبين، وأيّ شخص يحتمل أن يقلق الأمن العام والسلام».

كما أولت الدولة اهتماماً خاصاً بالجيش لزيادة قدراته وتزويده بالأسلحة الحديثة؛ فاشترت ثلاث سفن حربية فرنسية، وعقدت صفقة لشراء طائرات نفاثة مقاتلة بريطانية؛ وأجرت اتصالات مع الولايات المتحدة للحصول على الدبابات والمدفعية؛ وأرسلت عدداً من الضباط في بعثات عسكرية إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا الغربية وأمريكا؛ وشجعت أجهزة الإعلام على المناداة بتجنيد النساء في صفوف القوات المسلحة، للقيام بواجبهن العسكري نحو أرض الآباء.

وعلى الصعيد الأمنّي شهدت البلاد حالة من الهدوء والطمأنينة؛ وانخفضت نسبة الجرائم وحوادث السرقة والسطو؛ بينما سارت أمور وزارات الدولة بإشراف الأمناء العامين سيراً حسناً؛ وحقق الشيشكلي استقراراً داخلياً لم تشهده البلاد من قبل. ولإزالة طوق العزلة العربي الذي فُرض على نظامه، شنّ سلسلة من التصريحات ضد إسرائيل، ووصلت حدّ التهديد بشن حرب ضدها، وقال في أحد تصريحاته: «إن الطريق من دمشق إلى الخليل سيكون سالكاً أمام الجيش السوري».

لم يغفل الشيشكلي عن تعاظم معارضة الأحزاب الداخلية لنظامه العسكري ومطالباتها بالحرية والدستور والنظام البرلماني؛ وكان قد أصدر مرسوماً بتشكيل وزارة في 8 حزيران 1952؛ وأعلن بأن الجيش سيدعم مشاريع الحكومة دون

التدخل بشؤونها؛ وأكد بأن هذه الحكومة مؤقتة، مهمتها إيصال البلاد إلى الانتخابات النيابية في إطار قانون جديد للانتخابات يفتح السبيل أمام تمثيل حقيقي للشعب. وفي الثاني من آب أصدر مرسوماً بإحداث منصب نائب لرئيس الوزراء شغله مع الاحتفاظ بمهام القائد العام للجيش.

في البداية اعتمد الشيشكلي على أنصاره من الحزب القومي السوري، وشدد في خطاباته على سورية، وتخطى موضوع العروبة؛ لكن هذا الاتجاه لم يدم طويلاً. كانت العروبة المجال الوحيد للانطلاق عربياً، وفي الداخل كانت الضامن الوحيد لتجاوب السوريين معه؛ فأعلن حين أقسم يمين الولاء التقليدي في كلية أركان حلب: «إن سورية جزء من الوطن العربي، والسوريون جزء من الأمة العربية»؛ ووعد بأن سورية ستكون: «بروسيا الدول العربية والقلعة الفولاذية التي ستنطلق منها شعلة التحرير على كل العالم العربي». وبذلك حدد توجهاته من جديد، وكانت العروبة هي الكلمة السحرية التي أعادته إلى الصف العربي.

لن ينتهي عام 1952، إلا وقد اندمج حزب البعث والحزب الاشتراكي العربي في حركة سياسية واحدة أصبح اسمها (حزب البعث العربي الاشتراكي)، أمينها العام ميشيل عفلق، وأكرم الحوراني عضو في لجنتها التنفيذية مع صلاح الدين البيطار. وكانت الخطوة العملية التي أصدروا بها اندماجهما محاولة الانقلاب الفاشلة التي قادها الضابط عدنان المالكي؛ فرّ على أثرها الزعماء الثلاثة إلى لبنان، ونعتهم الشيشكلي بالعملاء السريين للإمبريالية، ومن ملجئهم نعتوه بالمستبد الطائش والعميل الأمريكي حامي الصهيونية.

سيبتدع الشيشكلي جهازه السياسي آملاً أن يمنح نظام حكمه قاعدة شعبية واسعة؛ ويطلق عليه (حركة التحرر العربي)؛ حزب يرفع شعارات القومية العربية والإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية؛ ويأخذ على عاتقه «النهوض بسورية التي اختارها القدر لتحرير الأمة العربية من الاستعمار والفقر والجهل والانقسام»؛ وشن حملة دعائية كبيرة في الإذاعة السورية للدعاية. وبدأ بعقد اجتماعات جماهيرية لإلقاء خطب تلهب حماس الجماهير، وتجعل تحرير فلسطين في متناول اليد.

ولما اطمأن إلى قاعدته الجماهيرية وجهازه الإعلامي، بدأ حملة اعتقالات ضد معارضيه، شملت الطلاب والمدرِّسين ورجال السياسة وقادة الأحزاب والصحافيين؛ ولم يتوقف عن المضي قدماً في مخطط طموح، مخيباً توقعات المراقبين من خصومه؛ فدعا إلى إجراء الانتخابات النيابية في 10 تموز 1953؛ وفاز حزب التحرير العربي بـ 83 مقعداً، ثم نشر مسودة الدستور، ووصفها بأنها أكثر تقدمية من كل الدساتير الموجودة في الشرق الأوسط، وحتى بعض الموجودة في العالم الغربي. بعد أن أقرّ الدستور الجديد بأغلبية ساحقة، رشح نفسه لرئاسة الجمهورية؛ ولم تمنع مقاطعة الأحزاب من انتخابه رئيساً طبقاً لأحكام هذا الدستور؛ بعدها أصدر عفواً عاماً عن جميع خصومه السياسيين، عاد بموجبه عفلق والحوراني والبيطار إلى البلاد.

اختار حزب البعث العربي الاشتراكي النضال السري ضد الشيشكلي؛ مظاهرات، إضرابات، توزيع منشورات تبطل دعاواه في الإصلاح: «إن تشييد الطرق والمطارات وميناء اللاذقية والاتفاقيات البتروليّة؛ ما هي إلا تنفيذ لخطط الدفاع الغربي»، «حركة التحرير، حزب مفبرك لم تقبل أية شخصية سياسية الانخراط فيه؛ ولا يضم بين صفوفه إلا المنتفعين والمتزلفين الصغار؛ أما مهزلة الاكتتاب الشعبي لتسليح الجيش فهي مظهر براق، يخفي تحته تحويل التبرعات إلى حركة التحرير».

أخذت المعارضة من أحزاب الشعب والوطني والبعث توحد صفوفها. استهلت تحركاتها من دمشق بإحداث الشغب وإلقاء المتفجرات؛ فيما كانت تحضر للثورة على أن تنطلق شرارتها من جبل الدروز. لكن الشيشكلي عاجلها واستبقَها بإرسال وحدات مدرّعة لاحتلال السويداء، اصطدمت بالأهالي، وفرضت سيطرتها بالدبابات والطائرات على الجبل بأكمله؛ مما زاد النقمة على النظام.

تنادى السياسيون من الأحزاب والهيئات إلى عقد اجتماع في حمص لعقد ميثاق وطني؛ ووجهوا إنذاراً إلى الشيشكلي لإعادة الأوضاع الدستورية؛ ووقف الحرب الأهلية في جبل العرب، والإفراج عن السياسيين المعتقلين؛ وكان رده على الإنذار إعلان حالة الطوارئ، واعتقال القادة السياسيين لمختلف الأحزاب. وجه الشيشكلي الاتهامات إلى العراق والإنجليز وعملائهم في الداخل، وفرض الإقامة

الجبرية على الرئيس الأسبق هاشم الأتاسي: وشهدت البلاد حالة من الاضطراب والمظاهرات الطلابية؛ قاومها رجال الأمن بالعنف والقنابل المسيلة للدموع؛ وعطلت الدراسة في المدارس، وعمّت المظاهرات المدن السورية وهي تنادي بسقوط الديكتاتورية وإلغاء البرلمان؛ وعودة الحياة الدستورية إلى البلاد؛ وأصدرت نقابتا المحامين في دمشق وحلب احتجاجات حادة اللهجة تندد بالاعتقالات؛ ولم تكن العراق بعيدة عما يجري، كانت تحرض مناوئيه وتدعمهم.

أذاع الشيشكلي نداء (للشعب السوري النبيل)، يحذره فيه من «المخربين الذين أساؤوا استعمال الحريات الدستورية، وعملوا على إثارة السكان للقيام بالعصيان، مستغلين الشعور الوطني لدى الطلاب». هدأت الشوارع بعدها، وأعلنت الحكومة في يوم 31 كانون الثاني بأن الأمن عاد إلى البلاد بأكملها.

مع بداية شهر شباط رُفعت الرقابة المشددة عن الصحف، كما ألغي منع التجول المفروض على الجبل، وأعيد فتح الحدود السورية اللبنانية، وكانت قد أغلقت بشكل مؤقت؛ وبدأت الحكومة بالتشاور مع القادة السياسيين الموقوفين في محاولة للوصول إلى تسوية؛ وبدا أن الشيشكلي قد نجح في إخماد العاصفة.

لم تخمد العاصفة في الجنوب ودمشق، حتى انفجرت في الشمال من حامية حلب يوم 25 شباط 1954 بإذاعة بيان الثورة؛ أُنذر فيه الشيشكلي بمغادرة البلاد فوراً. فيما حاولت دمشق التعتيم على عصيان عسكري بقيادة ضابط بعثي برتبة نقيب؛ لكن سرعان ما شارك فيه ضباط موالون لحزب الشعب والوطني؛ وباتت حلب مركزاً لتمرّد أيدته القوات المتوزعة في دير الزور وحمص وحماه واللاذقية وحوران. وعلى الرغم من القوات الضاربة للشيشكلي الموجودة في جبل الدروز؛ وما تحت إمرته من قوة لا يستهان بها من المدفعية الثقيلة والمدرعات مع موالين أشداء؛ سيحبط عزيمة أقرب المقربين إليه من المؤيدين والمناصرين؛ ويغادر البلاد تجنباً لحدوث انشقاق في الجيش، لن يكون المستفيد الوحيد منه سوى إسرائيل. وأثناء تلاوة أخبار منتصف الليل من إذاعة دمشق سيتوقف البثّ، وتعلَن استقالة الشيشكلي التي بعث بها إلى رئيس مجلس النواب: «رغبة مني في تجنب سفك دماء الشعب الذي أُحب، والجيش الذي ضحّيت بكل غالٍ من أجله، والأمة العربية التي حاولت خدمتها بإخلاص صادق؛ أتقدم باستقالتي من رئاسة الجمهورية إلى

الشعب السوري المحبوب الذي انتخبني، وأولاني ثقته، آملاً أن تخدم مبادرتي هذه قضية وطني، وأبتهل إلى الله أن يحفظه من كل سوء، وأن يوحّده ويزيده منعة، وأن يسير به إلى قمة المجد». لكن أعوانه لم يستسلموا، وحاولوا إنقاذ النظام بإثارة المظاهرات المؤيدة له، واستنفار قطعات الجيش الموالية؛ غير أن محاولاتهم لم تُجْدِ، واضطروا بدورهم إلى الاستسلام والمغادرة.

توجه الشيشكلي إلى بيروت، ومن ثم إلى المملكة العربية السعودية؛ حيث ظل لاجئاً إلى أن ذهب سنة 1957 إلى فرنسا، ومنها إلى سويسرا. وقد حاول خلال الفترة السابقة العودة إلى الحكم بتأييد من الأمريكيين؛ فحُكم عليه غيابياً بتهمة الخيانة. في سنة 1960 سيهاجر إلى البرازيل، حيث أنشأ مزرعة وانقطع عن كل اتصال سياسي، إلا أن رجلاً سيثأر لضحايا قصفه جبل الدروز، ويفاجئه يوم 27 أيلول 1964 في شارع ببلدة سيريس في البرازيل؛ ويغتاله بإطلاق النار عليه.

❖ ❖ ❖

لم يكن الشيشكلي عسكرياً فجّاً، ولا متطفلاً على السياسية، فقد كان على علاقة بقضايا الوطن الكبرى، سواء في زمن الانتداب الفرنسي أو حرب فلسطين أو قضايا العدالة الاجتماعية، وكذلك القضايا السياسية المصيرية في تجربته عندما كان منتسباً إلى الحزب القومي السوري. لم يكن مجرد مغامر طامح إلى الحكم؛ كانت السلطة بالنسبة إليه أداة تغيير. ولقد حاول مع زعماء الأحزاب من خلال عدة انقلابات ابتدأت مع الانقلاب الأول، إحداث التغييرات المنشودة، لكنه لم يفلح. كانت تطلعاته أبعد من تطلعات الأحزاب وأكثر جذرية، لكن وسائله لم تكن على مستوى الغايات التي ينشدها.

وبوسعنا تبين عمق هذه الرغبة لدى الشيشكلي؛ إذا اعتقدنا مع بعض المراقبين للشأن السوري بأن الانقلابات الأربعة في حقيقتها لم تكن سوى انقلاب واحد أنجزه الشيشكلي على عدة مراحل؛ ففي الأول لم يكن حسني الزعيم أكثر من واجهة، لا سيما وأن الشيشكلي صرح بأنه لم يكن ينوي التخلص منه صبيحة الانقلاب؛ لكن الزعيم خطف الأضواء؛ وسرعان ما دعم الحناوي وحرضه إلى إزاحته، فكان الانقلاب الثاني؛ لكن حزب الشعب استجرّ الحناوي إلى مآربه

السياسية، مما اضطر الشيشكلي أخيراً إلى الظهور على الملأ رغم رتبته العسكرية غير المواتية لتزعم الانقلاب الثالث؛ فوضع فوزي سلو على رأس الدولة، مع المحافظة على التناحر السياسي والصراع غير المتكافئ مع الأحزاب. وعندما توحدت المعارضة ضده، وكادت أن تجعله يخسر الجولة، قام بانقلابه الرابع، عندئذ شكل حركة التحرير، وأجرى الانتخابات النيابية، ورشح نفسه لرئاسة الجمهورية.

حكم الشيشكلي فترة كانت الأطول بعد الاستقلال، لا يمكن تفسيرها بقوة جهاز القمع البوليسي ولا ردها إلى كفاءة مخبريه السّرّيين، وإنما إلى ضعف خصومه وتشتتهم، ومنازعاتهم على السلطة نفسها. وإذا كان قد تغلب عليهم، فلأنه استلهم مصالح الدولة الحقيقية، وتطلعات الناس الفعلية إلى التغيير، في الوقت الذي لم يدعمه فيه سوى تنظيم سياسية مختلق، ومجلس نيابي لا حول له ولا قوة، وجيش كان قد تشرذم وكان خطأه الأكبر، وأيضاً مقتله فيما بعد، إفراطه باستعمال القوة في قمع ثورة الجبل.

لكن بصيرته لم تخنه حتى في تلك اللحظات الأخيرة في الحكم؛ فلم يلجأ إلى مقاومة يائسة، ولا إلى مغامرة هوجاء ربما قد تنجح. واختار كضابط وطني الانسحاب مدركاً أن اقتتال قطعات الجيش فيما بينها خطٌ أحمر لا يجوز العبث به، ولا الاقتراب منه. وترك مأثرة في تاريخ الانقلابات السورية تحمد له.

فواز حداد

قسطنطين زريق

المفكر الرسولي

(1909 - 2000)

قد يمر شاب في مقتبل العمر مرور الكرام، من أمام مدرسة الآسية في حي باب شرقي، ويقرأ دون أن يكترث: «في هذه المدرسة تعلَّم المفكر القومي قسطنطين زريق»، وإن تساءل، فلربما لن يسعفه الوقت ليجد مرجعاً يعود إليه.

والحق أننا نتحدث عن واحدمن أهم الأصوات على طريق الوعي القومي العربي. وما يميز زريق أنه قدم القومية في إطار البحث عن التقدم الحضاري العربي. ولهذا فإن هاجسه الذي ظل يلازمه حتى وفاته، هو الأمة، وقد أخذت تسير في ركب الحضارة العالمية، الأمة وقد عادت إلى وجودها القومي: حرة متقدمة ديمقراطية آخذة بأسباب العلم والمعرفة، علمانية في وعيها القومي، تنظر إلى المستقبل والغد الآتي، متحررة من أي تعصب ديني أو قومي أو عرقي.

ظل عمره مدافعاً عن العقل، حتى في زمن انهزام العقل، ومدافعاً عن كبرياء الإنسان في وقت داسوا فيه الكبرياء. ظل عمره يرسم الحلم، في وقت يسدون فيه أبواب السماء باسم السماء. ويدافع عن الحقيقة في ظل اغترابها العربي. ويفتح نافذة للشمس، في عالم سدوا فيه كل المنافذ وأرادونا غفلى في الكهوف.

لو سأل سائل: من هذا الذي يرصع اسمه جدار مدرسة، مدرسة فقط في ذلك الحي الذي دخل منه خالد بن الوليد دمشق؟ لأجبنا: إنه الأمة في وعيها لذاتها، أو هو الأمة في وعي وجودها الحق: ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. أو قل إن مسار وعي قسطنطين هو ذاته مسار وعي الأمة وعقلها الذي امتطى قلماً من أجل أن يمتطي العقل حصاناً، ولا يصدق على قسطنطين زريق إلا قول المتنبي: على قلق كأن الريح تحتي.

ولد قسطنطين (كوستي) زريق في 18 نيسان 1909 في منزل الأسرة بحي القيمرية في دمشق القديمة في كنف أسرة أورثوذكسية من الطبقة الوسطى، والده قيصر زريق، ووالدته عفيفة خوري. درس في مدرسة الآسية بباب شرقي وكان مشهوداً له بالتفوق. تخرج من الكلية البروتستانتية السورية في بيروت سنة 1924 وكان أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية العروة الوثقى. اعتقل من قبل سلطات الانتداب الفرنسي لاتصاله بعبد الرحمن الشهبندر وبالمستر كرين.

اختصر الدين بالأخلاق، واتخذ من الانتماء الوطني والسياسي هوية له، فارتبط بدمشق ولهجتها وشوارعها وأزقتها. وفي سنة 1928 غادر دمشق إلى الجامعة الأمريكية في بيروت لينال شهادة البكالوريوس في الآداب، ثم سافر إلى شيكاغو لينال منها ماجستير في الآداب 1929 ومن ثم نال شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة برنستون 1930 وقد شغل خلال حياته مناصب علمية هامة في الجامعة الأمريكية ببيروت وجامعات كولومبيا وجورجتاون ويوتا. كما كان عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق والمجمع العلمي العراقي، وشغل مناصب سياسية هامة، كما حاز على الكثير من أوسمة الاستحقاق السورية والعربية والأجنبية. تزوج من السيدة نجلاء قرطاس وأنجبت له أربعة بنات: إلهام – هدى – عفاف – وحنان.

أجل لم يهدأ هذا الرجل منذ أن كان طالباً في الجامعة الأمريكية مروراً بدراساته في أمريكا وجامعاتها وانتهاء بتدريسه في جامعة دمشق، والجامعة الأمريكية. لكن الريح ما أطاحت به يميناً شمالاً، لأنه أشبه بطائر فريد العطار، يعرف مسار الرحلة إلى الشمس، فما ضلت عيناه ولا وهن الجناحان منه.

لم يكن مؤرخاً، بل فيلسوف تاريخ، ولهذا جاب التاريخ وسراديبه، فما نكص مع الناكصين، ولا نام في إحدى زواياه أو صارخاً: ارجعوا إليها، ولا أصابته جرثومة العدمية وما بكاه طللاً؛ بل ظل يعلن: ادخلوا معركة الحضارة، والتي هي تحرر شامل وتكوين للشخصية الحرة. إنه من القلائل الذين لم ينزلوا الشخص منزلة أدنى من منزلة الأمة كي لا يستبد بالإنسان من أجل حاجة عليا. إذ لم يكن يرى الأمة إلا أمة أحرار، فكيف تكون الأمة حرة إذا كان بنوها عبيداً.

الأمة ليست وثناً عند زريق لأنا نحن الذين نصنع مصيرها بالعقل والعلم والحرية، ولهذا فالعقل الحقيقي الذي يصنع الأمة هو العقل النقدي، فوضع العربي أمام خيارين: إما التغطية وإما المصارحة. إما الرياء وإما المجابهة إما الادعاء اليسير أو المحاسبة العسيرة.

العقل الثوري هو الذي ينتج عقلانية ثورية، هكذا أعلن صاحب (نحن والتاريخ)، والهدف من العقل الثوري صناعة مستقبل الأمة العربية: أمة واحدة حرة منفتحة ومنتجة للحضارة.

ولهذا، فالعمل من أجل الهدف الأسمى هو الأهم أو لا يقل أهمية عن نشر الوعي القومي. وهذا ما دفع زريق لأن يكون الأب الروحي لجمعية العروة الوثقى، التي تشكلت في رحاب الجامعة الأمريكية، حيث كان يعمل أستاذاً في أواسط الثلاثينيات. وقد تحلق القوميون العرب من الشباب حول الأستاذ خاص بعد أن أصدر كتابه «الوعي القومي»، والذي أصبح مرجعاً أساسياً للشباب القومي آنذاك.

أجل، تشكلت حلقة مثقفين حول الأستاذ، وكان الأستاذ ينتقي أعضاء حلقته، وذلك كي يؤلف جمعية تكون نواة حركة قومية. وقد دعا فعلاً، بعد هزيمة 1948 واحتلال فلسطين، إلى تأسيس حزب قومي عربي وكان أن سارع إلى إصدار كتابه «معنى النكبة» بعد النكبة مباشرة.

طرح زريق في كتابه الهام هذا، تحليلاً وفهماً لنكبة فلسطين، ومنهجاً لمحاربة الصهيونية، ومحاربة الصهيونية عملية تحتاج إلى تقدم في كل مجالات الحياة، وخاصة قيام دولة الأمة وبناء مجتمع حديث يقوم على التقدم العلمي والعلماني. ولهذا فقد استخدم مصطلح «الحرب المديدة الأفق بعيدة الأجل». ولكن لا بد من نخبة قومية منظمة قادرة على صناعة التاريخ.

والحق أن المدقق في جهاز مفاهيم قسطنطين زريق النظرية، والتي تعج بها مؤلفاته بدءاً من كتاب (الوعي القومي 1949) مروراً بكتاب (معنى النكبة 1948) (أي غد 1957)، وفي (معركة الحضارة 1964) و(معنى النكبة مجدداً 1967)، و(نحن والمستقل 1977)، و(مطالب المستقبل العربي) و(هموم وتساؤلات 1983) وانتهاء بكتاب (ما العمل). أقول المدقق في مفاهيمه المبثوثة في هذه الكتب، يجد أن

المفاهيم التي تحكمت بخطابه، هي: الأمة الوحدة العلم، التقنية، الحضارة، المستقبل، الإرادة الفاعلية، الحقيقة، التقدم، الانقلاب، العمل. تكشف هذا المفاهيم في ترابطاتها عن نظرية شاملة متكاملة للنهوض العربي، وإمكانية دخول العصر بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى حضاري.

فهو مع إدراكه لمسؤولية الغرب في ما نحن عليه من حال، فإنه أدرك أن مشكلتنا مع الغرب أننا أقل تقدماً منه، ومتأخرون عنه، وبالتالي، فالسير على طريق التقدم يعني خوض معركة الحضارة للوصول إلى ما وصل إليه الغرب من تقدم تقني وعلمي وسياسي. وهذا لن يتم إلا بانقلاب في الوعي الذاتي، إلا بإرادة مسلحة لهذا الوعي، أي الوعي الحداثوي الذي يسعى أول ما يسعى إليه هو بناء الدولة العربية الواحدة.

إن هاجس التقدم الحضاري الذي رافق زريق طوال عمره، هو الذي نقله من مؤرخ متخصص بالتاريخ إلى فيلسوف تاريخ. وفيلسوف التاريخ على غرار زريق ليس مجرد شخص يبحث عن نظرية تفسر التاريخ الإنساني على طريقة ابن خلدون أو توينبي أو اشبنغلر، بل هو شخص يريد أن يقدم وعياً حقيقياً بالماضي والحاضر والمستقبل. بل إن وعيه التاريخي هو وعيه بالمستقبل كما يجب أن يكون. والمستقبل الذي يسعى إليه مستقبل للإنسان العربي. فليست النهضة القومية العربية سوى وسيلة لرفع مستوى المجتمع، وتحقيق حرية الإنسان وسعادته. غير أن تحقيق النهضة القوية مرتبط بنمط من التفكير العقلاني الضروري الذي يقوم على الموقف الموضوعي من العالم وترك العوامل الذاتية المفسدة للموضوعية جانباً، كما تتطلب العقلانية موقفاً نقدياً من العالم، موقفاً حراً من كل ما هو موجود من وقائع وأفكار، يتطلب إرادة دؤوبة لا تكل ولا تمل للوصول إلى الحقيقة.

النهضة بدورها تحتاج إلى موقف أخلاقي، يقوم على مبدأ أساسي ألا وهو الاعتراف بالآخر والاهتمام به. وقسطنطين بوصفه متأملاً العالم المحيط، انتقل من دفاعه عن الدولة المركزية القومية إلى الدولة الديمقراطية، حيث أثرت فيه تجربة الدراسة في أمريكا وما شاهده من نمط حياة يدفع بأمريكا لاكتساب العلم والتقنية وصناعة التقدم الكلي. ولقد حوله وعيه بالمستقل ودفاعه عنه، أي عن المستقبل الذي يحقق وحدة الأمة وتقدمها، إلى مفكر رسولي بامتياز، بمعنى أن

وعيه وعي مفكر يطرح رسالة إلى الأمة وما على الأمة إلا أن تسعى لتحقيقها. ولهذا تراه في كل محطة من محطات الهزيمة، يطرح ما يجب أن يكون. وهذا ما بدأ في معنى النكبة بعد احتلال فلسطين، فلن تقارع الصهيونية إلا أمة واحدة متقدمة، وهذا ما قرره في معنى النكبة مجدداً بعد هزيمة 1967 المنكرة، وهذا ما أراده بعد حرب أمريكا الأولى على العراق في كتابه (ما العمل).

كل هذا يدل على أن قسطنطين زريق ظل مشدوداً إلى العالم ولم يعش في برج عاجي يتأمل المنشود دون إحساس بالواقع.

ولهذا كله فإن زريق حدد لنا معنى المفكر فقد ربط بين المفكر وفكرة الواجب: لأن فكرة الواجب تنطوي على عنصرين: المسؤولية والطابع الأخلاقي لها، وفكرة الالتزام. ولهذا فواجب المفكر أوسع من وظيفة المفكر. فما هي واجبات المفكر كما يراها زريق في كتابه (أي غدٍ؟): أن يحس بالأزمة، أثناء الأزمات، ويحياها، ولا يكتفي بذكرها والتحدث عنها. بل يعيش أبداً تحت وطأتها. فالأزمة لا تكون حقيقة واقعة إلا عندما يشعر بها ويدرك معناها وخطرها. فمن واجبات المفكر التي يشدد عليها زريق أن يحدد- تحت وطأة الأزمة التي يحياها - فهمه لوظيفته ويثبت في نفسه معنى الفكر ومقامه ورسالته.

وهنا يميز زريق بين المفكر الحقيقي، والمفكر الزائف. فالمفكر الزائف - كما يرى - هو الذي يتخذ لنفسه وظيفة التاجر، وقصد من عمله الربح المادي، وقدم لأبناء مجتمعه السهل الرخيص الذي يطلبونه بدل الصعب الغالي الذي يحتاجون إليه، ليجني من ذلك الثروة الطائلة والعيش المترف. وإذا فعل المفكر ذلك ضل غايته وانتكس عن واجبه، وأنزل بنفس وبمجتمعه أشد الأضرار واستحق مذمة التاريخ.

ومن المفكرين الزائفين ذاك الذي يبحث لنفسه عن زعامة سياسية واجتماعية عن غير سبيلها الصحيح، سبيل الحق. وذلك بتغذية شهوات الجهلة والنزول بمستواهم بدل من رفعهم إلى مستوى جديد، وبالاستسلام للقوى المسيطرة بدل استقلاله وحريته - وهما أنفس ما يملك المفكر - ثمناً لرضا هذه القوى وسندها. وعندها يصبح المفكر عاملاً من عوامل الهدم لا البناء ومصدراً من مصادر التأخر لا التقدم.

والمفكر الذي سها عن أن وظيفته هي تبيين الحق وتبنيه والتصدي للجهل ومكافحته، والثورة على الظلم والفساد، شأنه شأن المفكر التاجر، والمفكر الانتهازي. وعندها يغدو هذا المفكر عنصراً من عناصر الفساد. كما لا يجوز للمفكر إطلاقاً – كما يرى زريق – أن يدعي أنه يفكر ابتغاء لذة عقلية. لأن مطلباً كهذا قد يتحقق بالتفكير بمشكلات زائفة. فواجب المفكر أن يحقق لذته العقلية بالالتزام بمشكلات أمته. إن حرية المفكر واجبة وضرورية، لا تؤدي إلى الهرب من الحياة الحقيقية، والعيش على هامشها، بل تتطلب الاندراج في صميم الحياة ومشكلاتها. ولهذا فالمفكر الحقيقي هو الذي ينبري للكشف عن المشكلات الحقيقية التي تعيشها الأمة مقدماً الأهم على المهم والمهم على الحقير التافه.

لهذا يريدنا صاحب كتاب (ما العمل؟) ألا ننشغل بالتافه من الأمور ولا بالقضايا السخيفة الزائفة، ألا نعيش في حقل الثرثرة الفارغة، بل أن ننشغل بالمشكلات الرئيسية ونواجهها.

ومن هذا الموقف تجاه المفكر يحدد لنا زريق أهم المشكلات التي على المفكر أن ينشغل بها:

أولاً: في السياسة: إيضاح معنى الأمة والقومية، والسيادة والدولة والاستقلال والحرية والوحدة.

ثانياً: في الاقتصاد: مشاكل إعمار الأرض، واستخراج كنوزها، أو إقامة ما تؤهله لنا مواردنا من صناعة وبناء المؤسسات الاقتصادية والمالية، لتنظيم ثروتنا الداخلية

ثالثاً: الاجتماع والثقافة: مشاكل البيت والمدرسة والقرية والمعمل..

كل المشاكل التي تحدث عنها زريق قبل نصف قرن ما زالت هي المشاكل نفسها، وكأن التاريخ العربي راكد إلى حد يعاند كل مفكر رسولي كقسطنطين زريق.

ولد هذا الرجل في دمشق عام 1909، وعاش سني دراسته في جو من التسامح الديني، إذ كان هذا المسيحي الأرثوذكسي على علاقة حميمة مع أقرانه من الطلاب المسلمين في مدرسة الآسية.

لقد اكتسب من دمشق الإحساس بالتاريخ العظيم، وكان انتقاله إلى بيروت لإتمام دراسته في الجامعة الأمريكية، دور بارز في تكوينه الفكري، حيث الجامعة في تلك المرحلة عبارة عن ورشة مناقشات حول قضايا العرب، وبخاصة أن زريق قد عاش فترة زوال الدولة العثمانية، وبداية الاستعمار لسورية ولبنان، ورأى ما رأى من السياسة الاستعمارية، فشارك في التظاهرات الداعية للتمرد والاستقلال.

غادر زريق إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ودرس في أهم جامعاتها: شيكاغو، كولومبيا، برنستون. وعاد إلى دمشق في الخمسينيات، وأصبح رئيساً لجامعتها بين عامي 1949- 1952. بعد دخول رجال الأمن لقمع مظاهرة في الجامعة، وتدنيسهم الحرم الجامعي، غادر زريق إلى بيروت مدة وعمل أستاذاً، وتولى كذلك منصب رئيس الجامعة الأمريكية بالوكالة ووكيل الجامعة.

وظل يفكر ويتأمل بالعالم وطنه العربي بكل هدوء، ليطل على القارئ بكتاب في كل مرحلة من مراحل تفكيره، يطرح فيه مشكلة يراها ذات أهمية في تقدم عالمنا، وجديرة بأن تصبح في مركز الاهتمام، وكل ذلك من أجل أن يزود الوعي بالمعرفة الضرورية لمواجهة الواقع.

لقد اتهم زريق بأنه على شاكلة المفكرين القوميين - رومانسي قومي أو طوباوي بامتياز. والحق أن كل مفكر يطرح ما يجب أن يكون، لا بد أن يأخذ فكره طابعاً طوباوياً، ولكن هذا الأمر ليس مذمة لأن الأوتوبيا هي شكل من أشكال تجاوز الواقع.

وزريق ظل طوال عمره يدعو إلى تجاوز العالم المعاش. ومن المأساة الملفتة للنظر أنه كلما راح يبعث الأمل في النفوس، جاءته نكبة قومية. ومع ذلك في كل نكبة قومية يواجهها بكتاب يطرح فيه التجاوز. وهذا الذي يفسر لنا كتابه (معنى النكبة) بعد نكبة فلسطين، وكتابه (معنى النكبة مجدداً) بعد هزيمة 1967، وكتاب (مطالب المستقبل العربي هموم وتساؤلات) بعد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت، وكتب عن حرب أمريكا الأولى ضد العراق، بوصفها نكبة ثالثة، وأصدر كتابه (ما العمل؟) بعد هذه النكبة مباشرة.

في عام 2000 يرحل قسطنطين زريق وبرحيله يغيب آخر مفكر رسولي أنتجته التجربة القومية العربية. فهل نحن بانتظار مفكر آخر يبعث الأمل في النفوس التي أرهقتها النكبات المتوالية؟

د. أحمد برقاوي

الأعمال المنشورة:

- كتاب القومية العربية – حقائق وإيضاحات ومناهج – مع مجموعة مؤلفين.
- هدي في جهادي – بيروت: جمعية العروة الوثقى.
- الوعي القومي – بيروت: دار العلم للملايين 1939.
- معنى النكبة – بيروت: دار العلم للملايين 1948.
- أي غد؟ بيروت: دار العلم للملايين 1957.
- نحن والتاريخ – بيروت: دار العلم للملايين 1959.
- هذا العصر المتفجر - بيروت: دار العلم للملايين 1963.
- في معركة الحضارة – بيروت: دار العلم للملايين 1966.
- معنى النكبة مجدداً – بيروت: دار العلم للملايين 1967.
- نحن والمستقبل العربي – بيروت: دار العلم للملايين 1977.
- مطالب المستقبل العربي – بيروت: دار العلم للملايين 1983.
- ما العمل – بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية 1998.
- الأعمال الفكرية العامة – بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية 1994.
- (اليزيدية) لإسماعيل بك جول – تحقيق قسطنطين زريق – بيروت: المطبعة الأمريكانية 1934.

- تاريخ ابن الفرات: تحقيق قسطنطين زريق – بيروت: المطبعة الأمريكانية 1936.
- تهذيب الأخلاق لمسكويه – تحقيق: قسطنطين زريق – بيروت: الجامعة الأمريكانية 1966.
- أمراء غسان من آل جفنة: ثيودور نولدكة – ترجمة: قسطنطين زريق 1933.
- بالإضافة إلى مئات المقالات العلمية والثقافية والتربوية.

معروف الدواليبي

الشيخ الأحمر

(1909- 2004)

«يعلن الأستاذ معروف الدواليبي، بصفته الخاصة، لا بوصفه وزيراً مسؤولاً في الحكومة السورية، أنه إذا ما استمر ضغط الحكومة الأمريكية على البلاد العربية لجعلها تسير في سياسة لن تنتهي إلا بتهويد بقية أبناء الشعوب العربية؛ فإنه يرجو إجراء استفتاء في العالم العربي؛ ليعرف الملأ إذا كان العرب يفضلون ألف مرة أن يصبحوا جمهورية سوفياتية على أن يكونوا طعمة لليهود».

صدر هذا التصريح في جريدة (المصري) في القاهرة آذار 1950، عندما كان الوفد السوري برئاسة خالد العظم في مصر لحضور اجتماع مجلس الجامعة العربية؛ وكان صاحب التصريح معروف الدواليبي وزير الاقتصاد الوطني في الجمهورية السورية. وقد اغتاظ العظم من التصريح بصفته وزيراً للخارجية أيضاً، لكنه لم يكذبه، ولم يطلب من الدواليبي نفيه أو تصحيحه. كان يعتقد مثله مثل الكثيرين أن الوباء الصهيوني أشدّ خطراً من الشيوعية؛ ويفضل أن توزع أملاكه وأمواله على سائر أبناء بلده بدلاً من أن يُحرم هو وأبناء بلده منها؛ لتصبح ملكاً ليهودي غريب، كما هي حالة أبناء فلسطين. المهم كان الدواليبي قد وجه تحذيراً للسياسة الأمريكية في المنطقة، يحمل معنى واضحاً: نحن لن نساير أهدافكم ولن ندعمكم فيما تطلبونه منا، بينما أنتم تساعدون أعداءنا وتدعمونهم بالمال والسلاح.

أثار تصريح الدواليبي ضجّة في المنطقة لم يحصل مثيل لها من قبل، ونُقل الخبر إلى العالم كله، لاسيما العواصم الكبرى. وأصبح اسمه يتردد في الصحافة ونشرات الأخبار، وانقسم العرب بين معارض ومؤيد، وقد استمر الدواليبي في إلقاء البيانات وإدلاء التصريحات للصحف، حتى اضطر رئيس الوزراء لتنبيهه إلى ضرورة التوقف، وسواء كان استطاب ما أحدثته تصريحاته من دوي، وما ناله من شهرة، فلا يمكن إنكار أن موقفه قد أدى إلى تعديل جوهري في سياسة الولايات

المتحدة في الشرق الأوسط؛ ولا سيمّا بالنسبة إلى سورية ولبنان. وتجلى هذا التعديل حين أصدرت الدول الثلاث: أمريكا إنجلترا فرنسا بيانها المشترك، واتفقت فيه على ضمان الوضع الراهن في المنطقة.

على كل حال سوف يدفع الدواليبي ثمن موقفه هذا بعد أقل من سنتين، عندما ستؤيد الولايات المتحدة وفرنسا قيام الزعيم أديب الشيشكلي بانقلابه الثاني أواخر تشرين الثاني 1951، واعتقاله للدواليبي في يوم تسلمه رئاسة الوزراء وزجه في السجن، ومعه وزراؤه وزملاؤه من حزب الشعب. لم تدعم أمريكا وفرنسا الشيشكلي إلا لأنه الشخص الوحيد الذي يستطيع الوقوف في وجه الدواليبي ورفاقه؛ والحؤول دون اتجاه سورية نحو روسيا الشيوعية. كان الدواليبي قد بالغ في هجومه، وخدم مصالح بلاده بتدخله في السياسة الخارجية لسورية، لكن أساء إليها فيما بعد بتقديمه المبررات لاستيلاء الشيشكلي على السلطة، ووقوع البلاد تحت الحكم الديكتاتوري العسكري.

في تلك الأيام أُطلق على الدواليبي لقب (الشيخ الأحمر)؛ بسبب الحملة التي شنها على البلاد الغربية، دون أن تكلف الدول نفسها معرفة أن الدواليبي رجل قانون، وشيخ دارس للشريعة الإسلامية ومتبحر في الفقه. ونسي الفرنسيون خاصة أنه كان يخطب الجمعة في الجامع الكبير بحلب في بعض الأحيان، داعياً الشعب إلى الإضراب ومقاومة الانتداب، كما كانت له جلسة وعظ أسبوعية. وبالتأكيد لم يكن على صلة بالشيوعية، ولا علاقة له بكل ما يمت للأيديولوجية التي يُرمز إليها اللون الأحمر. كان الدواليبي فعلاً، متعدد القدرات والمواهب، رجل سياسة وإدارة، ورجل علم مشهود له أكاديمياً في الفقه الديني والروماني، ومتنوع الثقافة بالعربية والفرنسية.

❖ ❖ ❖

ولد معروف بن محمد رسول الدواليبي في مدينة حلب في 29 آذار 1909 في أسرة متواضعة؛ والنسبة إلى الدواليبي قديمة، تعود لصناعة دواليب استخراج المياه من الآبار. درس في المدرسة الشرقية وهي من المدارس الخاصة، وكان من المألوف في آخر السنة تمثيل الطلاب رواية مسرحية، فكان يمثل واحداً من الأدوار الأولى.

لم يتابع الدراسة في الشرقية (الفرير الفرنسية)، انتقل إلى الكلية الشرعية (الخسروية) بحلب. بعد إنهاء دراسته الثانوية، التحق بالجامعة السورية في دمشق ودرس الحقوق والآداب. تخرج من كلية الشريعة عام 1927، ومن كلية الحقوق عام 1935.

نشط ضد الانتداب الفرنسي، وشكل في حلب بقيادة جميل إبراهيم باشا (الحرس الوطني) وكان تابعاً للكتلة الوطنية على غرار (القمصان الحديدية). وقد بلغ تعدادهم 1200 شاب عامل. عمل بالمحاماة في دمشق وأصبح عضواً في الكتلة الوطنية عام 1937. بدأ حياته السياسية ممثلاً لسورية في الاستفتاء الشعبي على مصير لواء الإسكندرون، مكلفاً من قبل الكتلة للإشراف على الاستفتاء، لكن الصفقة بين الفرنسيين والأتراك الكماليين كانت قد قضت بإلحاق اللواء (الإسكندرون، وإنطاكية، وكيليكيا) بتركيا.

نظراً لنيله شهادتين جامعيتين بتفوق أوفدته وزارة المعارف السورية لاستكمال دراساته العليا في جامعة باريس (السوربون) في سنة 1938. لم يكد يستقر في باريس وجامعتها، حتى فاجأته الحرب العالمية الثانية، وأغلقت دونه طرق العودة إلى الوطن؛ فمكث هناك إلى ما بعد انتهاء الحرب. كان أول عمل قام به حين وصل إلى فرنسا تأليف جمعية للطلاب العرب، وقد كُلِّفَ برئاستها، وبذلك انتقل نشاط الطلبة العرب في فرنسا من المجال الفردي إلى المجال الجماعي، ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه الجمعية تدعى للاشتراك في المهرجانات والمناسبات العامّة. درس في جامعة باريس القانون الروماني، ونال شهادة الليسانس، كما نال الدبلوم في الحقوق الكنسية من الجامعة نفسها، ثم نال شهادة الدكتوراه، وكانت أطروحته التي كتبها باللغة الفرنسية حول (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) كتبها بأسلوب جديد للتعريف بالإسلام وشريعته.

يقول الدكتور الدواليبي حول موضوع رسالة الدكتوراه: «فُرض عليّ الموضوع من قِبَل جامعة باريس، بعد أن نقدتُ الكثير مما جاء في كتبهم الجامعية، وعلى ألسنةِ أساتذة الجامعة في التجريح في الإسلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وسلم».

اصطدم في باريس ببعض المستشرقين اليهود، وكان أحدهم أستاذاً له، ادّعى بأن الشريعة الإسلامية متوحشة متخلفة لا تصلح إلا للعصور البدائية البائدة؛ وضرب على ذلك مثلاً: إذا استدان شخص من آخر، ولم يستطع تسديد دينه في حينه، يُخيّر الدائن في حبسه أو استرقاقه، أو أن يقتطع ما يشاء من أعضاء جسمه استيفاء لدينه. وقبل أن ينتقل إلى مثال آخر عن وحشية الشريعة الإسلامية، رفع الدواليبي يده واستأذن بالكلام، ثم سأله: من أي مرجع جئت بهذا الكلام؟ أجاب البروفيسور: من عشرات الكتب التي ألفها علماء الإسلام. فقال له الدواليبي الطالب: أريد مرجعاً واحداً.. كتاباً واحداً.. فهل تستطيع أن تذكر لنا الآن اسم كتاب واحد؟! فارتبك البروفيسور، ولكنه قال بثقة وتحدٍ: لا أذكر الآن شيئاً مما تطلب، ولكنني سآتيك بعشرات الكتب التي تتحدث عن هذا الموضوع في المحاضرة القادمة. وفي المحاضرة القادمة تجاهله، لكن وقبل أن يبدأ محاضرته، رفع الدواليبي يده وسأله: هل جئت بالمرجع يا أستاذ؟ قال بحدة: لا.. نسيته، سوف آتيك بعدة مراجع في المحاضرة الآتية. ولم يأت - طبعاً- بشيء في المحاضرة التالية، فقال له الدواليبي بتحدٍ: إن ما قلته، يا أستاذ، عن وحشية الشريعة الإسلامية افتراء غير موجود في أي كتاب إسلامي، إنه ليس موجوداً إلا في عقلك، وأنا أتحداك أن تأتيني بشيء من ذلك. هكذا كان النقاش بينه وبين العديد من الأساتذة والمستشرقين الذين كانوا يحاضرون حول الإسلام، ويفترون عليه، وكان يتابعهم ويرد عليهم.

إبان الحرب العالمية الثانية، سيخوض مغامرة تجمع بين الوطنية والجاسوسية عندما علم باحتجاز السلطات الفرنسية لمفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني في مكان سري؛ وكان الدواليبي ما يزال حينها طالباً في السوربون ومتزوجاً من سيدة فرنسية. فرسم خطة ذكية وجريئة جداً، دفع فيها البوليس الفرنسي لاعتقال سائق الحسيني؛ بغية معرفة مكان اعتقاله، ومن هناك تمكن السائق من إرسال رسالة أعلمه فيها بالمكان؛ وهو قرية صغيرة تقع على نهر اللوار في الجنوب على بعد 30 كيلومتراً من باريس. ولكي يتصل بالمفتي ويطمئنه، استعان الدواليبي بالسيارة الدبلوماسية للسفارة السورية وبالأصدقاء المغاربة والسفراء العرب، كما ساعدته زوجته أم محمد. إلى أن استطاع إقناع موظف كبير في

الخارجية الفرنسية بإطلاق سراح المفتي نكاية بإنجلترا؛ وبدوره أقنع الموظف الكبير الجنرال ديغول بالفكرة، فأطلق سراحه، وأعلمه بأن الإنجليز أصدروا أوامرهم باعتقال المفتي في أيّ بلد عربي يحاول دخوله؛ فقام الدواليبي بتزوير جواز سفر للمفتي الحاج الحسيني يحمل اسم الدواليبي، وهربه على متن طائرة أمريكية إلى إيطاليا، ومنها إلى مصر.

عاد الدواليبي إلى سورية بعد انتهاء الحرب، وكان ما يزال عضواً في الكتلة الوطنية التي كانت تعمل لتحرير سورية من الاستعمار الفرنسي. عُيِّن أستاذاً في الجامعة السورية بدمشق عام 1947، رشّحته الكتلة للانتخابات البرلمانية عن مدينة حلب في العام نفسه، وفاز فوزاً ساحقاً، وبقي عضواً دائماً في المجالس النيابية حتى عام 1963. في عام 1948 في مؤتمر عُقد في مدينة بعلبك في لبنان، انشقت الكتلة الوطنية إلى حزبين: حزب الشعب في حلب، والحزب الوطني في دمشق. وكان الدواليبي أحد الأركان الأربعة لحزب الشعب.

في أواخر عام 1949، أصبح وزيراً للاقتصاد الوطني في حكومة خالد العظم؛ الحكومة الأكثر تأثيراً في تاريخ سورية. ففي عهدها جرى إصلاح النقد السوري، وإنشاء مرفأ اللاذقية، والبدء ببناء مخازن المحروقات، وتوسيع شبكة الطرق الحديدية، وإقامة مشاريع للري، دون أن تزيد مدة وجودها في الحكم أكثر من ستة أشهر. على أن الحدث الذي أثار جدلاً كبيراً هو القطيعة الجمركية بين سورية ولبنان؛ وكانت العلاقات بين البلدين تشهد توتراً منذ حصولهما على استقلالهما قبل ست سنوات؛ والسبب شعور السوريين بالغبن من هيمنة الرأسمال اللبناني على الاقتصاد في سورية ولبنان؛ فقد كانت الجمارك المشتركة بينهما مرؤوسة دائماً من قبل مدير لبناني؛ وغالبا يتجاهل المدير اللبناني مصلحة السوريين في عملية الاستيراد والتصدير؛ وقد رفضت الحكومة اللبنانية تداول رئاسة الهيئة بين البلدين. ولمّا كان المرفأ المشترك في بيروت، وسورية لم تكن تملك مرفأ مستقلاً، كان اللبنانيون أقدر على التحكم بهذه العملية التي غالبا ما تترك أثرها على اقتصاد الدولتين معاً، لاسيّما أنّ اللبنانيين كانوا يتمتعون بميزة حصرية الوكالات الأجنبية لكل من سورية ولبنان. ارتأى العظم أنه من العدل تعميم الخير على الشعبين السوري واللبناني طالما أنهما يملكان إدارة جمركية موحدة؛ والبرجوازية

اللبنانية تمثّل دورها بالأصالة عن نفسها وبالنيابة عن شقيقتها السورية؛ وخطط العظم لقيام وحدة اقتصادية بين البلدين، ولتحقيق ذلك طلب من وزير الاقتصاد معروف الدواليبي أن يجتمع مع قادة الرأي الاقتصادي في سورية لأخذ رأيهم. وبالفعل اجتمع الدواليبي مع خبراء اقتصاديين ومع ممثلي الغرف التجارية والصناعية. ووصل الجميع إلى رأي موحد: إما وحدة اقتصادية ونقدية يخلص لها البلدان، وإما انفصال عاجل يكون فيه كل من البلدين حراً في إتباع السبيل الذي يناسبه؛ وكان الرد اللبناني سلبياً. فأصدرت حكومة العظم مرسوماً بفصل الجمارك السورية عن اللبنانية، وتأسيس مديرية عامة للجمارك مرتبطة بوزارة المالية. ولتعزيز الموقف السوري أقرت حكومة العظم من خلال معروف الدواليبي وزير الاقتصاد، إصلاحات نقدية جذرية؛ بتطبيق أنظمة القطع على العمليات التجارية بين سورية ولبنان، وعدم السماح بتدفق القطع السوري إلى لبنان لتبديله بالليرة اللبنانية، وتسديد قيمة البضائع التي تشتريها سورية. ومنع نقل البضائع من لبنان إلى سورية باستثناء البضائع العابرة (الترانزيت).

بعد انقلاب أديب الشيشكلي الأول (19 كانون الأول 1949) أُنتُخب الدواليبي رئيساً للمجلس النيابي 1951. فأقر البرلمان الدستور الجديد. وفي 18 حزيران عرضت الدول الغربية الثلاث بالإضافة إلى تركيا مقترحات الدفاع المشترك؛ ودعت مصر للانضمام إلى تحالف لقيادة الشرق الأوسط؛ وفي اليوم نفسه أبلغ القناصل الأربعة وزير الخارجية السورية بأمر المقترحات؛ فتبناها رئيس الوزراء حسن الحكيم، وعندما عرضت على المجلس، أسقط نواب حزب الشعب الحكومة بدعوى تأييدها خطة الدفاع المشترك مع الغرب، وذلك لينفي الحزب عن نفسه الاتهامات بأنه على ارتباطات سرية مع البريطانيين؛ وبقيت سورية بعدها دون حكومة مدة تسعة عشر يوماً، واشترط حزب الشعب لكي يشارك في الوزارة الجديدة: إعطاء وزارة الدفاع لشخص مدني، وتطبيق الدستور نصاً وروحاً، نقل الدرك إلى وزارة الداخلية؛ مما أفشل تشكيل الوزارة.

أخيراً جرى تكليف الدواليبي بتأليفها في 28 تشرين الثاني 1951؛ وكان مرشحاً جيداً لعدة أسباب؛ فهو أحد أعضاء حزب الشعب، وكما يبدو لم يظهر ميولاً قوية نحو الهاشميين، وكان مسلماً محافظاً، ما جعله يضمن المتدينين

المحافظين. ويؤيد الإصلاح الزراعي وإعادة توزيع الثروة، فأصبح في طليعة التقدميين. وقد تبنى الحياد، وفي الوقت نفسه كان من أوائل الذين طالبوا بإقامة معاهدة عدم اعتداء مع روسيا؛ وشراء السلاح من الشرق لكسر احتكار السلاح الغربي؛ على أنه داخل البلد كان يعارض تدخل الجيش في السياسة.

شكل الدواليبي الوزارة دون أن يأخذ رأي العقيد أديب الشيشكلي وموافقته، فاحتفظ لنفسه بوزارة الدفاع. وعلى هذا لم ترض القائمة الوزارية الشيشكلي الذي لم يقبلها، وحذره بأنه سيضطر إلى حل المجلس النيابي، لكن الدواليبي لم يرض بأية تسوية، فقام الشيشكلي بانقلابه العسكري الثاني؛ واعتقله في سجن المزة العسكري مع أعضاء حكومته والأمين العام لحزب الشعب وعدد من ذوي الميول الهاشمية. في السجن رفض تقديم استقالته.

❖ ❖ ❖

بعد الانقلاب على الشيشكلي عام 1954، قدم الدواليبي حفاظاً على الدستورية، استقالة حكومته التي أطاح بها الشيشكلي عام 1951 إلى الرئيس هاشم الأتاسي. ودعي صبري العسلي لتشكيل الحكومة، فعين الدواليبي وزيراً للدفاع. غير أن الحكومة لم تستمر أكثر من مئة يوم، وأُسقطت قبل أن تتمكن من تسيير العمليات الانتخابية التي شُكلت من أجلها. كانت الوزارة برأي المراقبين واهنة متحيزة منقسمة على ذاتها، أبدت قليلاً من المهارة المطلوبة لإنجاز عملية الانتقال الدقيقة الحساسة من الدكتاتورية العسكرية إلى النظام البرلماني. كما أن الجيش رغم كل مزاعمه لم يكف عن التدخل. وكان في الحقيقة هو العامل الحاسم الذي أرغم العسلي على الاستقالة، لأن قادة الجيش لم يكونوا راضين عن وزير الدفاع معروف الدواليبي الذي اصطدم معهم في الماضي، ولم يكونوا بذلك غافلين عن محاولاته الرامية إلى فرض عودة الجيش إلى الثكنات، ووضع الأركان العامة تحت رقابة مدنية صارمة.

وجرى تكليف سعيد الغزي بالوزارة الجديدة، فأعلن عن حياده إزاء الأحزاب كلها، ودعا إلى انتخابات جديدة حرة في أيلول، فاز فيها الدواليبي كالمعتاد نائباً عن حلب في البرلمان، وبنسبة كاسحة من الأصوات، بعدها جاءت حكومة فارس

الخوري، وكان المطلوب منها عربياً رفض الأحلاف التي تضر بمصلحة البلاد وسيادتها. أطلق الخوري عبارته المشهورة «لن نرتبط بأحلاف»، وأرسل وفداً عربياً ضمّ سياسيين سوريين ولبنانيين ومصريين لإقناع بغداد بعدم الانضمام إلى الحلف؛ ولم يكن هذا أكثر من تضليل، بالعكس سهلت حكومة الخوري بموقفها المائع المحايد في الجامعة العربية توقيع نوري السعيد على التحالف مع تركيا؛ مما أدى إلى تذمر الضباط واستقالة الوزارة.

بعدها سيبدأ تراجع حزب الشعب عن الهيمنة على السياسة الخارجية السورية؛ وتتضاءل الدعوات المنادية للوحدة مع العراق، بالرغم من مذكرة الإدارة الأمريكية المساندة لحلف بغداد ومن بعدها مشروع دالاس آب 1955. بينما أخذت تتصاعد دعوات التضامن والاتحاد والوحدة مع مصر، فعُقدت اتفاقية الدفاع السورية المصرية. وسرعان ما تعززت هذه الاندفاعة نحو مصر بتأييد شعبي جارف بعد تأميم قناة السويس، وبلغ ذروتها إبان مقاومة مصر للعدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي؛ ولم يتلاش تأثير حزب الشعب إلا بعد انكشاف المؤامرة العراقية ضد سورية التي شاركت فيها مجموعات من السياسيين، كان أغلبهم من حزب الشعب.

غاب الدواليبي في تلك المرحلة عن النشاط السياسي الرسمي العلني، فلم يكن من الذين تسارعوا إلى تأييد الوحدة مع مصر، وسوف يظهر في الساحة السياسية بعد انفصام الوحدة.

ويتسلم خلال فترة الانفصال رئاسة مجلس الوزراء ووزير الخارجية عام 1961-1962. ويعلن تبنيه مبدأ الحرية الاقتصادية، ويبدي عزم وزارته على اتخاذ إجراءات تشمل تعديل قانون الإصلاح الزراعي؛ وإلغاء قوانين التأميم الكلي والجزئي، وتحديد ملكية الأسهم، لكن المعارضة البعثية ومعها الضبّاط، أدركوا بأن خطة الحكومة ترمي إلى نقض أحكام القوانين الاشتراكية التي أرسيت في زمن الوحدة، لمنفعة أصحاب الأراضي والأسهم والمصارف. اصطدم الدواليبي من جديد مع الجيش، واضطر إلى تقديم استقالة وزارته. غيرَ أن الضباط سيقومون بانقلاب في 28 آذار 1962، ويلغون القانونين اللذين أصدرهما مجلس النواب بشأن

التأميم والإصلاح الزراعي؛ ويعتقلون الدواليبي ومعه كبار السياسيين مثل خالد العظم ومأمون الكزبري ولطفي الحفار وصبري العسلي.

لن يطول الوقت أكثر من سنة، وتُنهي ثورة 8 آذار 1963 فترة الانفصال، ويعتقل الانقلابيون سائر الساسة السوريين، وبعد الإفراج عنهم عام 1964، سيطلبون من الدواليبي مغادرة سورية؛ وسيأبى ولكنهم سيلحّون عليه بالمغادرة المؤقتة ثم سيحولون دون عودته إلى وطنه. بعدئذ سيحل ضيفاً على المملكة العربية السعودية، ويتقلد منصب مستشار في الديوان الملكي منذ عام 1965.

❖ ❖ ❖

هذا هو الدكتور معروف الدواليبي، وبالتحديد الجانب السياسي منه الذي ظهر في العلن، فيما غاب الوجه الآخر، وجه الشيخ العالم والأستاذ الأكاديمي في خضم الأحداث المتلاحقة بين الوزارات والانقلابات والسجون.

ليس هناك من تكلف في القول أن ظروف الوطن تُغيّر أقدار الرجال، وُلِدَ الدواليبي في العقد الأول من القرن العشرين، فتح عينيه على الحكم العثماني، وكان شاباً تحت الانتداب الفرنسي، فنشط في العمل السياسي مبكراً. يقول في أحد رسائله: «لقد كُتب عليّ أن أكون في ركاب الأحداث في سورية، منذ كنّا طلاباً صغاراً». ولقد نشط أيضاً في فرنسا، وشارك في أحداث خطيرة خلال الحرب العالمية الثانية، وأُعتُقل هناك. وعندما عاد إلى سورية خاض المعارك السياسية، وعاش أحداث المنطقة وانقلاباتها، واعتقل مراراً وتشتت أكثر من مرة خارج سورية، بين البلاد العربية.

وتشهد مسيرته على أنه كان سياسياً محنكاً، شجاعاً وجريئاً في طرح ما يعتقد أنه صواب، وكان عنيداً في تصديه لتدخلات الضباط، ومع هذا لا ينبغي المبالغة في هذا الأمر، فقد كان الساسة السوريون ضد الجيش عندما يعمل ضد مخططاتهم، ويستعينون بالجيش عندما يكونون على وفاق معه. والدواليبي لم يتورع عن التعامل مع الجيش في سبيل تنفيذ حلم حزب الشعب في الوحدة مع العراق، على الرغم من النفوذ الإنجليزي القوي هناك؛ ومثل غيره كان يتلقى مبالغ مالية لمساعدته في تنفيذ السياسات العراقية؛ بل وبلغ به الأمر أنه كان له دور كبير

في خطة اعتمدت توريط عراق نوري السعيد وعبد الإله عسكرياً في سورية. وذهب إلى العراق لعرض خطته، وهي دعوة العراق لاحتلال سورية، وكان الدواليبي حسب الخطة مستعداً لدخول سورية على رأس جيش عراقي؛ لكن الجواب كان بالنفي. والوثائق تشير إلى أن فاضل الجمالي هو الذي فاوضه عندما كان رئيساً لوزراء العراق؛ ونوري السعيد هو الذي رفض، كان يدرك بأن غزو سورية المستقلة من قبل العراق المكبل بتحالفات استعمارية، لا يوقع العرب في حرب أهلية فحسب، وإنما قد يفجر حرباً عالمية انطلاقاً من منطقة صدام حساسة بين الشرق والغرب. وهو ما لم يدركه الدواليبي في ذلك الوقت.

ولقد أملى الدواليبي مذكراته قبل وفاته، لكنه ارتكب الخطأ الذي يعتور أغلب ما يكتب من مذكرات، عندما يجعل الشخص من نفسه محوراً للأحداث، وللأسف لم يكن استثناء رغم علمه الواسع، فقد نسب إلى نفسه الدور الأكبر في السياسة السورية؛ وأنه أقنع الرئيس الفرنسي الجنرال ديغول بضرورة منح الاستقلال لسورية ولبنان، بحيث يبدو وكأنه هو الذي حرر سورية من الانتداب.

وفي المذكرات التي نُسبت إليه، ونُشرت بعد وفاته بعام تقريباً، 2005، أيضاً، وُصم قائد جيش الإنقاذ فوزي القاوقجي بالخيانة، دون تقديم وثائق تدعم كلامه، واتُّهم بأنه كان عميلاً للإنكليز واليهود، وبالتآمر على المفتي الحاج أمين الحسيني، وأُرجِعت خسارة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، إلى خيانة القاوقجي لها !! وغير ذلك..

❖ ❖ ❖

وبالعودة إلى وجه الأستاذ والشيخ والعالم، لم يتفرغ الدواليبي للتأليف تماماً، كانت انشغالاته السياسية ومسؤوليات النيابة والحكومة تمنعه من الانصراف كليّاً إلى الجهد البحثي، لكنه لو فعل لظفرنا بمؤلف وكاتب عملاق. كما لم تُجمع بعض محاضراته التي كان يلقيها. ومع ذلك أصدر عدداً كبيراً من المؤلفات، تعتبر مراجع وبحوثاً علمية قيمة، خاصة الجامعية منها، التي كان قد أملاها على طلابه في الجامعة، لاسيما المواد التي كان يدرّسها في كليتي الحقوق والشريعة، بجامعة دمشق.

من هذه الكتب: المدخل إلى علم أصول الفقه ـ المرأة في الإسلام (وهو موضوع طلبته منه منظمة اليونسكو في الأمم المتحدة، وطبعته في مجلد بعنوان «الإسلام» بمختلف اللغات) ـ المدخل إلى التاريخ العام للقانون ـ المدخل إلى السنّة وعلومها ـ الاجتهاد في الحقوق الإسلامية (باللغة الفرنسية) ـ الإسلام أمام الاشتراكية والرأسمالية (بالعربية والإنكليزية) ـ نظرات إسلامية في الاشتراكية الثورية ـ الوجيز في الحقوق الرومانية (جزءان) ـ قلعة طروادة التاريخية ـ نظريات النقد الأدبي عند العرب ـ القومية العربية في حقيقتها ـ نظرات إسلامية (وهو كتاب يحتوي على عدة أبحاث جديدة حول الخطوط الكبرى للشريعة، وحول العبادة، وأنها ضرورة حيوية وعلمية، وموقف الإسلام من العلم، وحقوق المرأة في الإسلام، ومن هم الأريوسيون؟) ـ دراسات تاريخية: عن مهد العرب وحضاراتهم الإنسانية.

كما حضر الدواليبي عدداً كبيراً من المؤتمرات السياسية والعلمية، وكثيراً من الندوات، ألقى فيها العديد من المحاضرات، وكان حضوره فيها مشهوداً ومتميزاً.

من هذه المؤتمرات:

رئيس وفد سورية الحكومي إلى حلقة الدراسات العربية والاجتماعية الدولية عام 1950م. - مثّل جامعة دمشق في مؤتمر أسبوع الفقه الإسلامي الدولي عام 1951 في باريس، بدعوة من مؤسسة الحقوق الدولية المقارنة في (لاهاي). - رئيس وفد الشعوب العربية في المؤتمر الأول للشعوب الأفريقية والآسيوية في نيودلهي عام 1955. - عضو في الوفد السوري الحكومي إلى المؤتمر الدولي الأول لدول عدم الانحياز في (باندونغ) بأندونيسيا عام 1955م. - عضو المؤتمر العام الأول لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة عام 1965. - عضو في الندوات العلمية الدولية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام، المعقودة أولاً في الرياض، ثم في باريس، ثم في الفاتيكان، ثم في مجلس الكنائس العالمي في جنيف، ثم في مجلس وزراء الوحدة الأوربية في ستراسبورغ منذ عام 1973 حتى أواخر عام 1974م. - مؤتمر العالم الإسلامي في كراتشي عام 1975 وكان رئيساً للمؤتمر، وهو مؤتمر سجل لدى الأمم المتحدة بصفته هيئة مراقبة دولية واجتماعية، وهذا المؤتمر كان عقد دورته الأولى عام 1350هـ

في مدينة القدس، وكان يرأسه مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، وكان نائبه فيه الشاعر الإسلامي الفيلسوف محمد إقبال، عضو في المجلس الأعلى العالمي الدولي للمساجد في مكة المكرمة، منذ عام 1395هـ الموافق 1975م، رئيس منظمة (الإسلام والغرب) الدولية، ومركزها جنيف بسويسرا، منذ سنة 1979 وهي سنة تأسيسها، حتى أواخر عام 1984 - نائب رئيس المؤتمر الإسلامي الشعبي في بغداد، ثم رئيس مجلس أمناء ذلك المؤتمر سنة 1984. - عضو مراقب في مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي.

❖ ❖ ❖

خرج الدواليبي من السجن في عام 1964، بناء على طلب من رئيس الدولة آنذاك أمين الحافظ؛ وذهب الى لبنان أولاً، ثم بدعوة من الملك فيصل ذهب إلى السعودية، وأصبح واحداً من مستشاري الملك فيصل، ومن بعده عمل مع الملك فهد بن عبد العزيز. ومن الممكن تقدير طبيعة عمله في العقود الثلاثة الأخيرة من حياته من خلال هذا المثال؛ عندما وجه الفاتيكان دعوة لوفد من المملكة العربية السعودية. في ذلك الوقت أثارت الدعوة إسرائيل واستاءت منها، فقد خشيت أن تنجح وتؤدي إلى نوع من التقارب بين المسلمين والمسيحيين؛ لكنّ محاولاتها لم تفلح في إحباط تلك الزيارة. وحسب مذكرات الدواليبي، كان الملك فيصل متهيباً منها، وقال له حينما وصلته دعوة البابا: يا دكتور، مشايخنا يجتمعون، وربما يتفاهمون مع مشايخ العالم الإسلامي، فكيف تأخذهم إلى البابا؟ فقال له: يا جلالة الملك، هذا القصر الذي يسكنه الفاتيكان هو البناء نفسه الذي أصدر قراراً قبل عشرة قرون بمحاربة الإسلام. والآن يطلبون منكم أن تدخلوا إليه، لتعلنوا كلمة الإسلام في حقوق الإنسان. ونحن أمة دعوة، يجب أن نذهب إليهم وندعوهم. هم دعونا، فكيف نرفض الدعوة؟ فقال الملك فيصل: ولكن المشايخ ربما لا يتفهّمون هذه الدعوة، فقلت له: عيّن أسماء الوفد، وأنا أعمل على تهيئتهم إن شاء الله. وكان الأمر كذلك، وحققت الزيارة نجاحاً كبيراً.

❖ ❖ ❖

تـرك الـدواليبي بصـمات واضـحة في السياسـة السـورية خاصـة، والعربيـة والإسلامية عامة. وكان واحداً من السياسيين العرب اللامعين، وكان أيضاً واحداً من خيرة الذين مثلوا سورية في منافيهم، منذ مغادرته الوطن إلى أن توفي بعيداً عنه في مدينة الرياض، في 15 كانون الثاني 2004، ودفن في البقيع في المدينة المنورة عن عمر ناهز الخمسة والتسعين عاماً.

ميشيل عفلق

الطوباوي

(1910 - 1989)

من أب تاجر، يسكن حي الميدان، ولد ميشيل عفلق 1910. طفل ذكي، يميل إلى العزلة، متفوق في مدرسته. ولأنه كان من الأوائل في درجة البكالوريا، دخل معهد الحقوق، ومن ثم أرسل إلى فرنسا في بعثة دراسية لمتابعة تحصيله العلمي. في باريس درس الحقوق والأدب والتاريخ، ويقال إنه إلى جانب دراسته هذه، قد نال درجة الدبلوم في علم الأديان المقارن.

يتعرف عفلق في فرنسا على الأفكار التي كانت تعج بها باريس آنذاك: أفكار أندريه جيد، وهنري برجسون، ويقرأ فضلاً عن نيتشه وماركس.

يعود عفلق إلى دمشق ليعمل في التدريس، ويصبح مدرساً مع رفيق عمره صلاح الدين البيطار، في ثانوية جودة الهاشمي، ويستقيل من مهنة التدريس عام 1942 للتفرغ للعمل السياسي، ويقال: إن الاستقالة تمت تضامناً مع الطلاب ضد وزارة المعارف آنذاك.

وفي العام 1939، أسس عفلق جمعية الإحياء العربي. وكلمة الإحياء نفسها ستعني له فيما بعد لبعث العربي، الذي أطلقه عام 1943 على جمعيته الجديدة.

في عام 1947 – وفي مقهى الرشيد الصيفي – يعقد أول مؤتمر، أي المؤتمر التأسيسي لحزب البعث العربي، وينتخب ميشيل عفلق أميناً عاماً له.

في عام 1947 يغادر هذا المثقف الهادئ إلى فلسطين، للمشاركة في النضال ضد الصهيونية.

بعد سنتين يشغل عفلق منصب وزير المعارف والحق أن احتلال عفلق وزارة المعارف يدل دلالة واضحة على التسامح الذي كان سائداً آنذاك. فهي المرة الأولى التي يكون فيها مسيحي وزيراً للمعارف، ولم تشهد سورية بعد ذلك أمراً كهذا.

يُسجن عفلق من قبل حسني الزعيم عام 1949، بعد الانقلاب الشهير، ويستعطف عفلق الديكتاتور للخروج من السجن، برسالة وقعها بنفسه، ستترك هذه الواقعة أثراً سيئاً في نفوس بعض الرفاق الذين لا يتصورون قائدهم يستعطف عسكرياً قائد انقلاب.

في عام 1958 تتم وحدة سوريا ومصر، ويعلن عن قيام الجمهورية العربية المتحدة، ويستفتى على عبد الناصر رئيساً لها. ويعلن عفلق حلّ حزب البعث العربي الاشتراكي، بناء على الاتفاق بأن لا أحزاب في دولة الوحدة سوى الاتحاد القومي. لم تمض شهور على قيام الوحدة، حتى بادل عفلق عبد الناصر عدم الحب. وكان قد ذهب إلى القاهرة وعاد منها بخيبة أمل من عبد الناصر.

سارع عفلق، بعد انفصال مصر وسوريا، إلى لملمة البعث الذي أصبح مبعثراً في أكثر من تنظيم. ولم تمض سنوات ثلاث، حتى جاء الرفاق العسكريون بالبعث إلى السلطة، وكان عفلق الأمين العام للحزب. لكنه حاول أن يكون حاكماً عبر الحزب، ففشل في حمل الرفاق العسكريين على قبول ذلك. وكان المناخ اليساري في الستينيات قد أصبح سائداً، وبدا عفلق لعدد من الرفاق أنه يمت إلى التيار القومي القديم. وكان من عادة عفلق، كلما مرّ بأزمة في حزبه يغادر حرداً. لكن أزمة نشأت جاءت برفيق دربه منيف الرزاز أميناً عاماً للحزب، وأطلق على عفلق صفة القائد المؤسس. لم تكن هذه الألقاب لتغري عفلق.

في 23 شباط 1966، ينقلب الرفاق على القيادة التاريخية للحزب، ويغادر عفلق دمشق إلى بلاد الله الواسعة، مكسور الجناح. لكن بغداد لم تنتظر طويلاً، حتى يتسلم البعث السلطة فيها عام 1968، ويستدعى عفلق إلى بلد الرشيد. ويعود أميناً عاماً للحزب، ويظل في هذا المنصب إلى أن وافته المنية في 1989/6/24. لكن رفاقه في دمشق لم ينسوا أن يحكموا عليه بالإعدام. فصدر حكم الإعدام عام 1971، بتهمة التآمر على النظام.

قيل إن عفلق كان يعيش وفق الطقوس الإسلامية، وقد أسلم، ولكنه لم يعلن إسلامه، وأوصى أن يدفن على الطريقة الإسلامية. وليس باستطاعة أحد اليوم أن يعود إلى شاهدة قبر ميشيل عفلق في بغداد، ذلك أن الدبابات الأمريكية بعد احتلال بغداد، قد جاءت إلى قبر عفلق، ومشت عليه، منتقمة من الرجل الميت.

حياة عفلق أشبه بتراجيديا يونانية، غير أن بطلها قُتل بعد موته. أجل إنه بطل تراجيدي. يبدأ حالماً أديباً بلغة جميلة، وينشر في صحف ومجلات ذلك الزمان: «الأديب» «المكشوف» و«الطليعة».

هذا المسيحي الأرثوذكسي يبني علاقة خاصة بالنبي العربي محمد، فتمتزج لديه روحانية المسيح وثورية محمد، ويضيف إليهما من ثقافته الغربية.

لقد كانت لمحاضرته الهامة في ذكرى الرسول، الأثر الأكبر على عدد كبير من جيل الأربعينات والخمسينات. فمن على منبر مدرج جامعة دمشق وفي 1943/4/5 ألقى عفلق كلمة في «ذكرى الرسول العربي». انحاز فيها إلى الطابع الثوري للدعوة الإسلامية، لأخلاق الكفاح، بل بدا وكأنه مسلم يبعث مرة أخرى أخلاق النضال من أجل عودة الأمة إلى ماضيها المجيد، ولكن في إطار الجديد الذي ترمز إليه الدعوة المحمدية.

(الأستاذ) هكذا كان يراه ويناديه تلامذته الكثيرون، (الأستاذ) بأل التعريف، يكتب المثال ويلقي المحاضرات شفاهية. جمع كل ما كتب وقال في كتاب، أطلق عليه عنوان (في سبيل البعث). يتحول هذا الكتاب إلى مرجع لكل بعثي. فاختلطت فيه أفكار الوحدة والتحرر مع أفكار المساواة والعدالة، مع أفكار رومانسية مثالية. والكتاب المرجع يستشهد به التلاميذ، وكأنه إنجيل جديد أو كتاب مقدس. ولهذا نظر إلى عفلق من قبل أتباعه على أنه قديس.

والحق أنه قبل أن يستقر في العراق عاش الأستاذ حياة بسيطة جداً، بل هي أقرب للفاقة، وكان زاهداً. ولهذا نظر إليه التلاميذ انطلاقاً من هيبته الأخلاقية على أنه المعلم. فهو يتكلم بهدوء وبصوت منخفض وبكلمات متقطعة، مما يخلق جواً من الصمت والانتباه الشديد.

كان فكره يتقيد بضرورة الثورة على الواقع المعاش، الثورة على الحكام والاستعمار والشيوعية معاً. بل إن الطابع الروحي لأفكاره قد فعلت فعلها في نفوس البعثيين الأوائل. وراح التلاميذ يقلدون أستاذهم في الزهد.

ومع ذلك، كان المعلم يفتقر إلى الكارزمية التي يتمتع بها القادة العظام، فليس هو بذلك الشخص الذي يهيج الجماهير، بل هو ذلك المعلم الذي يحبه التلاميذ، وبالتالي كان أشبه بسقراط. بل ويقال إنه هو نفسه قد وقع تحت سحر عبد الناصر قبل أن يقلب عبد الناصر له ظهر المجن.

لقد سيطرت فكرة أساسية على الأستاذ، لم يبارحها قط، وظلت ملازمة له طوال حياته في أحاديثه وآرائه، ألا وهي فكرة الانقلابية. والانقلاب أو الانقلابية، تعني لدى عفلق عدم ترك الزمان يسيطر على الأمور. فحالة الأمة قد بلغت حداً من السوء، أصبح معها تركها للظروف أمراً يعرضها للهلاك؛ ولهذا فإن الانقلابية حركة تعجل سير الزمن. ومن هنا فالانقلابية نقيض الإصلاحية. إنها فلسفة وحركة. أما الشروط اللازمة لتحقيق الانقلاب فهي: الوعي بالشروط التاريخية والاجتماعية، والأخلاقية، والإيمان. والوسيلة لتحقيق الانقلاب هو الجيل الجديد.

ولما كان الوعي الشعبي بالانقلاب غير متوافر، فإنه يجب أن تكون الحركة الشعبية بقيادة الأقلية — الطليعة.

أما المفهوم الآخر عند عفلق، فهو القومية. والقومية عند عفلق هي حبٌ قبل كل شيء، ولهذا يميز عفلق بين القومية والنظرية القومية. فالقومية فكرة بديهية خالدة، وهي كما قلنا حب، أما النظرية القومية بمعنى التعبير المتطور عن هذه الفكرة الخالدة حسب الزمان والظروف.

إذ ذاك تكون النظرية القومية العربية هي الأهداف القومية: الوحدة والحرية والاشتراكية.

إن كون القومية حب فإنها لا تكون إلا مقرونة بالتضحية، والتضحية في سبيلها تقود إلى البطولة. فالسلوك البطولي هو الذي يقود إلى بعث الأمة. فمفهوم البعث عند عفلق هو التعبير المباشر على النزعة الانقلابية. وليس البعث إلا إعادة الروح القومية لتسري في جسد الأمة كي تتحول الأمة إلى دولة واحدة.

دولة تقضي على التجزئة الراهنة التي تمت بفعل التقسيم الاستعماري للأمة. وأساس الوحدة التاريخي هو القومية العربية أما أساسها الأخلاقي فهو الحرية وأساسها الاجتماعي هو الاشتراكية.

فالدولة الواحدة هي المجال الضروري لبعث الأمة. وبعث القوى الفاعلة فيها، وهي التي تصحح عالم القيم وتزيل من جسد الأمة أشكال الكذب والزيف، لدفع المجتمع في طريق ايجابية مبدعة. وبجعل الأمة تعود لممارسة دورها ورسالتها، إلى الإنسانية وهكذا فالدولة الواحدة: هي تحرير للأمة وللفرد معاً.

وعلى الرغم من أن هذه الدولة ذات طبيعة علمانية لكنها ضد كل أشكال الفساد والإلحاد. وآية ذلك أن الدين عند عفلق منبعاً فيّاضاً للروح. فالعلمانية عنده هي الدولة التي تحرر الدين من الظروف السياسية وملابساتها كي يتحول الدين إلى حالة روحية ترتقي بالأفراد. من هنا نفهم لماذا عقد عفلق: أواصر التشابه والقرابة بين حركة البعث كما يدعو إليها وتاريخ الدعوة الإسلامية وبخاصة المرحلة الأولى من دعوة النبي.

بل لقد اعتبر أن دعوته هي استمرار لروح دعوة الرسول لأن روح الانقلاب والتحرر هو ما يميز الدعوتين.

والدولة العربية المنشودة لا تكتمل حريتها إلا بوصفها دولة اشتراكية كما يرى عفلق. لكن اشتراكيته اشتراكية عربية، لأنها تنبع من الفلسفة القومية العربية ومن حاجات المجتمع العربي وشروطه التاريخية وأوضاعه الخاصة. ولا تقوم الاشتراكية العربية البعثية من وجهة نظره على فلسفة مادية غربية، بل على فلسفة البعث التي تعتبر أن للعامل الروحي – الفكري أثراً عظيماً في تطور التاريخ وتقدم الإنسانية.

كما تنطلق اشتراكية البعث من الفرد وتحرر شخصيته، مثل الحرية الشخصية، لأن جميع الأفراد من وجهة نظره متساوون، ولهذا فالبعث ضد قيام الدولة الدكتاتورية المستبدة. ولأن عفلق يعتبر أن أغزر قوة في الأمة تكمن في الدوافع الذاتية للأفراد فإن الاشتراكية كما تصورها تبقي على حق الملك لكنها حددته بقيود ثقيلة تزيل المحاذير الذي تنشأ عنه. وبالمحصلة لم تكن الاشتراكية تعني لدى عفلق إلا التنظيم الاقتصادي الذي يهدف إلى إعادة النظر في توزيع

الثروة في الوطن العربي ووضع أسس وقواعد للاقتصاد تضمن المساواة والعلاقة الاقتصادية بين المواطنين وتضمن تحقيق الانقلاب في الإنتاج ووسائله.

والناظر في الاشتراكية العربية كما طرحها عفلق يدرك أن آراءها متمايزة عن الاشتراكية والشيوعية في الأيديولوجية الماركسية.

ولعفلق نظرة خاصة إلى الدين. فالدين كما يعتقد عفلق شيء أساسي في حياة البشر، لكنه يميز بين الدين الحقيقي وبين الدين كما يتعين في أوضاع تاريخية، وهنا لا بد من التمييز بين حقيقة الدين وظاهرة الدين إذ قد يكون الدين في ظاهره متناقض مع معناه الأصيل، وهذا التناقض هو مصدر الأزمة وينطلق عفلق من هذا التميز ليطبقه على الدين الإسلامي. فالدين الإسلامي في حقيقته ثورة على الاعتقادات والمصالح والتقاليد، وفيما الذين يتظاهرون بالإسلام أبعد ما يكونون عارفين لمعنى حقيقته الثورية، المدافعين عن المضطهدين الذين يجاهرون بعقيدة هي لخير الجميع.

وهكذا ربط عفلق بين كفاح المظلومين من جهة والإسلام من جهة أخرى، وبالمقابل لا يبرر عفلق، النقد السطحي للدين المستند إلى نقد مظاهر الدين كي يدلل على زيفه. ولهذا فهو يرفض الإلحاد مع الإقرار بأسبابه الاجتماعية. ولهذا فهو يصرح قائلاً: «نحن لا نرضى عن الإلحاد ولا نشجع الإلحاد ونعتبر الإلحاد موقفاً زائفاً من الحياة، موقفاً باطلاً وضاراً وكاذباً. إذ إن الحياة معناها الإيمان والملحد كاذب.

فالإلحاد ظاهرة مرضية يجب أن نعرف أسبابها لتداوى، وعندما نعرف الأسباب نستطيع أن نزيل الإلحاد».

ومن المفاهيم المناقضة عند عفلق مفهوم الرسالة الخالدة. فالرسالة الخالدة هي أن تخرج الأمة العربية من نطاق النشاط المادي والأنانية الضيقة والإعجاب إلى مستوى التوجيه الإنساني والإشعاع على غيرها من الأمم. ورسالة العرب أن يتطلع العرب إلى بعث أمتهم، فهذا خير ما يقدمونه للإنسانية والرسالة الخالدة عند عفلق في بعض المواضع من كتاباته: فهم الحاضر وتلبية ندائه والاستجابة لضروراته، وفي مواضع أخرى هي حضارة وقيم معينة يستطيع العرب في المستقبل

عندما يبلغون المستوى الراقي السليم أن يحققوها وينشروها بين الأمم. لكنه يضيف أنه لا تفهم الرسالة بأنها الحضارة التي لا نستطيع تحقيقها الآن، الرسالة شيء أعمق وأصدق من ذلك، إنها تجربة حية أخلاقية ونفسية تقوم بها أمة عظيمة وتضع في هذه التجربة كل حياتها.

ويبدو أن مفهوم الرسالة الخالدة عند عفلق قد استقصاه من مكانة الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ حيث كانت هذه الحضارة تشع على كل أنحاء العالم. ولهذا فالبعث مرتبط بالرسالة، وكأنه أراد أن يقول: علينا أن نستعيد مجدنا الغابر لنعاود نشر الحضارة العربية الإسلامية الجديدة بكل ما تحمله من قيم.

يصدر عفلق في ما يرمي إليه من أهداف عملية متعلقة بوحدة الأمة وحريتها واشتراكيتها من نظرة فلسفية إلى الحياة هي أقرب إلى المثالية.

فالإيمان واحد من المفاهيم الأساسية في فلسفة عفلق. وهو يعترف أن الإيمان نظرة غيبية ولا شك، لكن الحياة برمتها تقوم عليها منذ أن وجدت الحياة الإنسانية، كما يعتقد. والإيمان عنده موجود في أعماق كل إنسان عربي، يقود الإيمان إلى التفاني والتحرر وإنكار الذات والتواضع أمام الفكر وأمام صوت الحق وآلام الشعوب. ويؤكد في نظرته الفلسفية، التضاد الذي يقوم بين الأرض والسماء. فالأرض: هي الزمني والعارض والفاني، فيما السماء مكان الجوهري والدائم. الأرض هي مطالب الجسم ولذات، الحياة اليومية ومشاغلها، والسماء هي مطالب العقل والروح ولذات الحياة العليا وواجباتها.

ويرى عفلق أن أكبر خطر يعرض سماء الإنسان إلى الضياع وأكبر حائل يقف بينها وبينه هو: مطالب حياته المعتدلة وسعادته المشروعة، وكل ما تنزع إليه الطبيعة السلمية، ويأمر به العقل وتوافق عليه الأخلاق.

من هذه الزاوية يرى عفلق أن الحياة سمو عن الأرض ولا يمكن التوفيق بين النقيضين، فمن يصعد إلى السماء ورجلاه لاصقتان بالأرض، فإن السماء التي يقصدها حقيرة.

ويدافع عفلق عن مثاليته هذه بتحديد معنى المثالية كما يراها، فالمثالية – كما يقول هي الروح المتفائلة الواثقة من نفسها ومن الأمة ومن المستقبل. إنها الروح المؤمنة التي تعتقد أن المبادئ السامية هي الحياة بعينها.

فالإيمان والسمو يؤسسان لمثالية ليست هي نقيض الواقعية.

المثالي يجب أن يكون واقعياً لكي يستطيع أن يحقق مثله في العمل. وليس المثالي هنا سوى المستقبل، والمستقبل ليس الزمان الذي يقدر بالأشهر والسنين بل هو زمان نفسي، بامتلاكه نمتلك الخلود كما يرى عفلق، فالإيمان بالخلود هو الطريق الموصل إلى الأعمال العظيمة. ولهذا فالمستقبل هو المستوى النفسي والفكري الذي على الأفراد أن يصلوا إليه في الوقت الحاضر.

فالمجتمع السليم من زاوية عفلق هو المجتمع الذي يبقى على النزعة المثالية، ويبقى على النظرة الحرة والمنطلقة إلى الكفاح، ويقضي على النظرة النفعية، يجدد فتوة النفس بشتى الوسائل.

لا شك أن مثالية عفلق، هي مثالية الطامح للمجتمع كما يجب أن يكون، مثالية أخلاقية تعلي من شأن القيم الإنسانية الرفيعة على قيم الحياة المادية، ولهذا غالباً ما نظر إلى عفلق على أنه شخص طوباوي.

أجل عفلق طوباوي بامتياز، إنه يحلم بمستقبل لم يكن يعرف من وسائل تحققه سوى الإرادة. ولكن لو كان الإنسان قادراً على أن يصنع ما يريد، وما يحلم به لما كانت هناك مشاكل في التاريخ الواقعي.

والحق أن فكر عفلق هو النموذج الأمثل الذي يدلل على جمال الفكرة وأخلاقيتها وعناد الواقع وتعقيده أو قل يدل على ذلك التناقض بين الحلم والواقع وهو تناقض أبدي.

ربما يأتي زمان تجد الفكرة تحقيقها ولكن بعد أن يكون الواقع قد زرعها في أحشائه، ورعاها جنيناً قابلاً للولادة، وعندها يكون للإرادة معنى، وتغدو الإرادة قادرة على مساعدة التاريخ على الولادة.

مـات عفلـق لكـن التلاميـذ الـذين يحتفظـون بالأسـتاذ في وعـيهم مـا زالـوا يتساءلون: كيف لنا أن نعيد تجديد فكر أبدعه الأستاذ، ونبقي على الفكرة حية، أو لنمنح الفكرة حظاً من الواقعية..؟

ربما تكون أقرب الطرق إلى تحقيق حلم عفلق، ألا يكون بين مكان ولادته ومكان قبره حدود وسدود.. الحلم الذي لم يستطع الرفاق تحقيقه في حياته.

د. أحمد برقاوي

عمر أبو ريشة

الدبلوماسي الشاعر

(1910- 1990)

ذات يوم من عام 1910 في أواخر عهد الدولة العثمانية، وفي مدينة عكا بفلسطين، أطلَّ على الدنيا الطفل عمر في بيت جده الشيخ مصطفى أبو ريشة وفي أحضان أبويه شافع وأمه خيرة الله، وكان هذا الطفل هو الابن الثاني لأبويه بعد أخته الكبرى سارة. أدخل مجيء الطفل سعادة إلى قلوب والديه وجديه؛ وإذ ذاك أذّن الجد في أذن الحفيد مستبشراً، كعادة أهل المسلمين.

تتحدر أسرة أبو ريشة من أصول بدوية، عُرفت عشيرتها بالموالي، ثم استقرت بعد ذلك في البقاع اللبناني وفي ساحل عكا، وكان عميدها الشيخ أحمد القادري، فاشتهرت بآل القادري المعروفين بالتصوف على الطريقة الشاذلية، وأيضاً باليشرطية من جهة والدة عمر خيرة الله الفلسطينية، التي اشتهرت بأنها امرأة فاضلة. وقد أنجبت الأسرة القادرية شيوخاً نبهاء. ويروى أنّ أحد أجداد عمر القادريين حظي بإعجاب السلطان العثماني في استانبول، فأهدى إليه عمامة نفيسة تعلوها ريشة زاهية، فَعُرِف بالشيخ أبو ريشة، وغلب هذا اللقب على أسرته. والعديد من آل أبو ريشة كانوا شعراء، منهم شافع والد عمر وأخته زينب وأخوه ظافر، ومنهم يحيى أبو ريشة وزليخا أبو ريشة.. وكان على الوالد شافع أن ينتقل مع أسرته إلى بلدة منبج القريبة من حلب ليتسلم وظيفة إدارية في الدولة تعرف باسم قائم مقام؛ وبعد سنوات قليلة قصد الوالد حلب، وآثر الاستقرار فيها، وكان عمر حينئذ يقارب التاسعة من عمره. وفي حلب تعلّم تلاوة القرآن، وحفظ جانباً من سوره على غرار أبناء جيله، وهناك درس المرحلة الابتدائية. وحين بلغ الرابعة عشرة أرسله والده إلى بيروت، حيث تابع دراسته الثانوية في مدرسة تابعة للجامعة الأمريكية. وهناك في ربوع لبنان بدأت تظهر بواكير أشعاره منذ عام 1926، وعمره يومئذ ستّ عشرة سنة، فكان ينظم مقتطفات يقلد بعض

أشعار القدامى، وأحياناً كان يلقي منظوماته على مسامع رفاقه، ويوهمهم أنها لبعض الشعراء السالفين..

في سنة 1927، رأى الأبوان إرسال عمر إلى إنكلترا لمواصلة دراسته العالية، فالتحق بجامعة مانشستر للتخصص في الكيمياء. وفي العام الدراسي 1929-1930 تعلق بفتاة إنكليزية فبادلته الحب. وحين جاء إلى حلب في إجازة الصيف أبلغ أهله بذلك، وأنه يعتزم الزواج منها؛ ويبدو أنهم لم يعترضوا، ثم مضى عائداً إلى جامعته ونفسه تهفو إلى لقاء فتاته، ولكنه وجد أنّ الموت قد اختطفها. أحدث ذلك صدمة عاطفية في نفسه، فانقطع عن جامعته وعاف الدراسة. ولعله وجد في نظم الشعر والاستجابة إلى إلحاح شيطانه ما يملأ فراغه العاطفي؛ وإذ ذاك تفجرت قريحته بمرثية قصيرة تعبر عن مبلغ أساه:

عَفَّةَ البُرد، ما عهدت بك الصمت	قبيل اللقاء في كل حال
ما أرى الموت مطفئاً شعلة الحسن	ولا بالمزيل سحر الجمال
زادك الموت فوق حسنك حسناً	وكساه ببردة من جمال

عاد سنة 1932 إلى وطنه وأهله في حلب، فوجد قومه يعانون الأمرّين تحت وطأة الاحتلال؛ وسرعان ما وجد نفسه منغمساً في حياة النضال متّخذاً من أشعاره سلاحاً ماضياً لإلهاب المشاعر وتحفيز الهمم. ومن المرجح أن أبو ريشة، وهو في غمار هذه الأجواء الوطنية والقومية، بادر إلى كتابة مسرحية شعرية سماها (ذي قار)، استمد أحداثها من أمجاد العرب قبل الإسلام، ليشعل بها روح النضال بين السوريين. وكان موقع ذي قار قد شهد أول التحام ذي شأن انتصر فيه العرب وانتصفوا من الفرس؛ ومن الطريف أن تتصدر المسرحية صورة مؤلفها أبو ريشة وهو بالزي البدوي رامزاً به إلى الأصالة العربية؛ وأن يذيّل رسمه هذا ببيتين من الشعر ينطويان على نزوع رومانسي قاتم، كان طاغياً على نفوس أغلب الشعراء العرب في مرحلة ما بين الحربين العالميتين:

يا فؤادي أما تزال كئيباً	شاكياً باكياً على غير جدوى؟
لا تكن ظالماً، فإنك إن متّ	تركت الآلام من غير مأوى

وفي تقديرنا أنّ الشاعر يومئذ، وهو في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، كان واقعاً تحت تأثير أمير شعراء العصر أحمد شوقي، الذي بلغ ذروة شهرته بمسرحياته الشعرية الذائعة. ويغلب على الظن أنّ ذلك الفن الأدبي الطريف قد استهوى اليافع الطموح، الذي لم تزد سنه يومئذ على العشرين إلا قليلاً؛ فحفزه إلى اقتحام ذلك المجال الجديد، ولكنه عدل عن المضيّ في هذا الطريق، وارتدّ عنه واجداً حقيقته في الشعر الغنائي. وهكذا راح أبو ريشة يعتلي المنابر في حلب، وأيضاً في دمشق، مرتقياً سلم الشهرة بسرعة غير معهودة، بفضل جمال شعره وسحر أدائه. وأصبح أبو ريشة الشاعر الأثير الذي كان الجمهور يتلهف إلى سماعه في المحافل، وإلى تتبع أشعاره الوجدانية والوطنية على صفحات الجرائد. وكانت مجلة (الحديث) الرائدة في حلب، التي كان يصدرها أديب الشهباء سامي الكيّالي، تحتضن كل جديد في شعره؛ حيث أصبح اسم أبي ريشة يتألق بجانب أعلام وأدباء العصر في بلاد الشام ومصر.

وهذه السنوات القليلة من عقد الثلاثينيات كانت خصبة في مسيرة عمر الشعرية، وسرعان ما تجمعت لديه - وهو في الخامسة والعشرين من عمره - وفرة من أشعاره، ما لبثت أن ظهرت سنة 1936 في ديوانه الأول حاملاً العنوان (شعر)؛ وكان ذلك كله جديراً بأن يرفعه إلى مراقي الشهرة. ثم أُسند إلى أبي ريشة في مستهل الأربعينيات منصب مدير دار الكتب الوطنية بحلب، وقد اعتُبر ذلك تكريماً معنوياً يليق بالشاعر الكبير.

في عام 1939، وغيوم الحرب العالمية الثانية تتلبد في سماء العالم، تزوج عمر وهو في الثلاثين من عمره من السيدة منيرة مراد، وهي من أُسرة لبنانية مرموقة في زحلة بالبقاع اللبنانية؛ وكانت هيفاء أنيقة، نَعِمَ معها عمر بالسعادة، وأنجبا أبناءً نابهين.

وبوسعنا القول: إنّ ربيع سنة 1944 كان انطلاقةً ذات شأن في مسيرة أبي ريشة وشهرته؛ حين انعقد المهرجان الألفي لأبي العلاء في ساحة مدرسة التجهيز بحلب (المأمون)، كان يوماً مشهوداً حضره أعلام الأدب من لبنان وفلسطين ومصر والعراق، وفيهم إسعاف النشاشيبي وأحمد أمين وإبراهيم المازني وطه حسين،

فضلاً عن لفيف من نبهاء القوم ورجال الدولة. وكان أبو ريشة يومئذ النجم المتألق الذي صفّق له الحاضرون طويلاً في غبطة بالغة، في حين كان طه حسين يميل بجذعه وبطربوشه ذات اليمين وذات الشمال منتشياً بما كان يسمع، ثم يقول بعد ساعة في ردهة فندق (بارون) العريق: «حقاً إنه شاعر، شاعر..». ويمكن القول إنّ شهرة أبي ريشة أخذت منذ ذلك اليوم تتجاوز حدود بلده ووطنه إلى رحاب سائر بلدان العرب؛ وإثر ذلك في سنة 1945، انتُخب أبو ريشة عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق.

وثمّة منعطف بارز في عالم الشعر والوطنية لم تعرف له سورية مثيلاً. حين حدثت نكبة العرب في فلسطين سنة 1948، بلغ السخط مداه بين الناس، وتكشف للشعب مدى التخاذل والضعف الذي كان عليه حكامه؛ إنّه جرح بليغ لكرامة العرب، بل إنه خزي وعار. وحدث بعد أسابيع قليلة أنه اجتمع على ضفّة النهر وفي موقع حديقة (اللونابارك) جمعٌ حاشد، وقف على رأسه عمر أبو ريشة ليلقي القصيدة الأشهر، وهي الميمية التي حملت عنوان (أمتي)؛ حيث عبّرت عن بالغ السخط والمرارة. وقد صبّ الشاعر غضبه على الحكام الفاسدين الذين أضاعوا فلسطين، ولا يبعد أن تكون هذه القصيدة المدوية قد أحدثت هزة في نفوس الجماهير، وأنّها أصبحت سبباً من أسباب سقوط الحكم في سورية بعد وقت قصير، وحدوث الانقلاب العسكري الذي قاده حسني الزعيم في صيف 1949. وفي هذه الفترة صدر ديوان أبو ريشة الثاني سنة 1947، وعنوانه: (من عمر أبو ريشة – شعر)، وكان وافياً متجاوزاً لسابقه في غزارة قصائده وفي جدتها وجمالها؛ وعلى هذا الديوان تقوم شهرة أبي ريشة الحقيقية، وتتجلى طاقته الإبداعية. ثم كانت بعد ذلك فترة مديدة نسبياً من تراخي أبي ريشة في النظام، تقارب الصمت أو الركود؛ فلم يظهر للشاعر ديوان آخر إلا في سنة 1971، أي بعد بضع وعشرين سنة، ودون أن يضمّ سوى إضافات شعرية محدودة، وكان يؤمل من الشاعر خلال هذه المدة – وهي مرحلة العمل الدبلوماسي خارج الوطن – أن يطلع على الملأ بعطاء آخر ذي شأن كسابق عهده، حتى لا يبدو كمن يعيش على سالف مجده.

كان انتقال أبي ريشة إلى العمل في السلك الخارجي وتعيينه ممثلاً لبلاده في عاصمة البرازيل أواخر سنة 1949، منعطفاً بارزاً في حياته؛ وقد تمّ ذلك بمبادرة حميدة من القانوني البارز أسعد الكوراني والمحامي الكبير فتح الله الصقال أمام رئيس الدولة حسني الزعيم؛ ليكون هذا الشاعر الرجل المناسب في المكان المناسب، بحيث يرجى منه أن يغدو جسراً وطيداً بين أمته في الوطن وأبنائها المغتربين في المهجر؛ وهذا ما كان من انبعاث نشاط اجتماعي وثقافي حافل فيما وراء البحار؛ حتى إنّ بعض المغتربين أخذوا يطلقون على أبنائهم اسم عمر حباً به وإعجاباً، من مثل ما عمد إليه الشاعر زكي قنصل نزيل الأرجنتين، كذلك مَثَّلَ أبو ريشة بلاده سفيراً في الأرجنتين والولايات المتحدة الأمريكية والهند والنمسا.. حتى سنة 1971، حين أحيل على التقاعد، وآثر بيروت سكناً له. وبفضل شخصية عمر الجاذبة، ولباقته الدبلوماسية، وإجادته اللغة الإنكليزية ولغات أخرى من تركية وفرنسية، نجح إلى مدى بعيد في إعطاء الآخرين أفضل ما يجدر بدبلوماسي إعطاؤه؛ كما أُتيح له أن ينتزع إعجاب عدد من الشخصيات السياسية والاجتماعية في العالم، مثل الرئيس الأمريكي كينيدي والهندي نهرو والرئيس الأرجنتيني بيرون... وسواهم، فضلاً عن عدد الرؤساء والملوك العرب، وفي مقدمتهم الملك السعودي فيصل بن عبد العزيز آل سعود.

ها قد بلغ أبو ريشة السبعين من عمره، وبدا أنه يمضي إلى الراحة الكبرى بعد طول المسير وتواصل الترحال؛ ليرحل عن العالم في 14 تمّوز 1980 في الحجاز، بعد أن أوصى بأن يُدفَنَ في مدينته الأثيرة حلب الشهباء، لينام قرير العين في أحضانها. كان موكب الدفن مهيباً حافلاً تحف به روضة من الأزهار يتقدمها إكليل رئيس الجمهورية. لقد انطفأت آنذاك تلك الشعلة الوضاءة، وهوى النسر من عليائه.

❖ ❖ ❖

كان أبو ريشة متميزاً في هيئته، تميزه في أشعاره وصوره، وفي حسن إلقائه ونبرات صوته؛ فقد حباه الله قدراً وافراً من الوسامة، وامتشاق القامة، وبياض البشرة، وشقرة الشعر. وكان مهيب الطلعة حسن الحديث، كما كان لشخصيته

وكلامه حضور لافت في المجالس، وقد عاد ذلك كله بالفضل إلى تألقه في المحافل، ووقفاته على المنابر، وأيضاً إلى نجاحه في عمله الدبلوماسي، وتعزيز علاقاته الشخصية مع كثير من الكبار ووجوده بينهم نداً لندّ. ويبدو ذلك جلياً في جانب من أشعاره، ولا سيما في قصائده الغزلية التي لا تنطوي على الاستجداء المعهود لرضا الحبيبة؛ فكان فيها قدر من الاعتداد بشخصيته تجاه صاحبته، وقد ينطقها ببعض ما يعتلج في نفسها تجاهه من إعجاب. ومثل هذا المنحى كاد ينفرد به عمر بن أبي ربيعة في الشعر العربي القديم، ونزار قباني في الشعر المعاصر.. وهؤلاء جميعاً يتسمون بالاعتداد، وبتضخم الأنا؛ ما يعرف في الدراسات النفسية والنقدية بالنزعة النرجسية.

ومن أبرز سجايا ريشة الترفع والإباء والشّمم والتعفف، وذلك يتجلى في بعض مواقفه عبر حياته، من ذلك مقاطعته للمنابر التي يرعاها الرسميون في دمشق مدة طويلة، بسبب امتعاضه من تصرّف بعض الإداريين بوزارة الخارجية تجاهه وهو سفير في الهند؛ ثم قبوله في الوقت نفسه إقامة ندوة شعرية في جامعة حلب، واعتذاره عن عدم مبيته في الفندق ضيفاً، كذلك عدم زيارته لمحافظ المدينة تجنباً لأيّ صبغة رسمية للندوة المقترحة؛ وكأنّ لسان حاله يقول: «مثلي لا يأتي إلى أحد، ولكن يؤتى إليه». وهذا ما كان حين بادر المحافظ إلى حضور تلك الندوة الحافلة، بل تفضل بعد انتهائها بدعوته إلى داره. وبعد نحو عام على قيام دولة الجمهورية العربية المتحدة والوحدة السورية- المصرية أجرت وزارة الخارجية تنقلات واسعة بين السفراء، شملت أبا ريشة؛ بحيث يُنقل من دلهي بالهند إلى تيرانا عاصمة ألبانيا؛ فوجد عمر في ذلك الإجراء مساساً به وتهميشاً له؛ وصعب عليه الامتثال والذهاب إلى موقعه الجديد المتواضع، وإذ ذاك اعتزم ترك العمل الدبلوماسي، وتقدم بكتاب استقالته إلى محمود فوزي، وزير الخارجية؛ وكان أن تلافى الرئيس جمال عبد الناصر الأمر، وأصدر مرسوماً بنقله سفيراً إلى النمسا.

إنّ مثل هذه المواقف ليست طارئة أو عارضة لدى شاعرنا؛ إذ إن الإباء والعنفوان متأصلان في شخصيته منذ حداثته. ويذكر العارفون أنّه حين صدر ديوان أبي ريشة، أهدى الشاعر بعض نسخه إلى كبار القوم، ومنهم فتح الله الصقال، وهو المحامي عن الزعيم إبراهيم هنانو الثائر في وجه المحتلين، فبعث

إليه الرجل بتحية تقدير مصحوبة بخمس وعشرين ليرة ذهبية، وكان أن قبل الشاعر تلك التحية، وأعاد المال إلى مصدره.

هذا التعفف في شخصية أبي ريشة هو الذي يفسر خلوَّ ديوانه من قصائد المديح. فقد صان نفسه عن الابتذال، وعصمها من ظاهرتي التزلّف والنفاق اللتين وصمتا العديد من شعراء العصر، وحتى في تصدي أبي ريشة لبعض الحكّام وساسة العصر كان أيضاً عفيف اللسان، وبقي في نطاق الانتقاد والخصام وربما الهجوم والتنديد، دون أن يهبط إلى حماة الشتم والهجاء، أو الحقد والتشفي، وآية ذلك قوله المنصف في تأبين الفقيد سعد الله الجابري: شهد الله، ما انتقدتك إلاّ أملاً أن أراك فوق انتقادي.

❖ ❖ ❖

تكاد شهرة عمر أبي ريشة تقوم على قصائده الوطنية والقومية على الرغم من أنّ هذه القصائد لا تشكل سوى أقلّ من ربع أشعاره. لقد كانت أحوال البلاد وما تعانيه من نضالها المرير في سبيل تحررها واستعادة عزتها هي الهاجس الأكبر في ضمير الأمة. وقد واكب الشاعر خلال مراحل يفاعته وشبابه وكهولته وهرمه مجمل الأحداث التي عاشتها سورية وسائر البلاد العربية في أكثر سنوات القرن العشرين. وقد بلغ انغماسه في الحياة النضالية أقصاه في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، التي تقع ضمن فترة الاحتلال الفرنسي لسورية، ثم وقوع نكبة فلسطين بعد ذلك.

وقد فهم منذ مطلع شبابه أنّ أمته العربية عريقة بتراثها غنية بأمجادها، وأنه لا سبيل إلى نهوضها وتجاوز واقعها إلا بعودة أبنائها إلى الجذور، وبعث العزيمة في النفوس. وقد تجلى هذا المنحى في وقت مبكر من حياته، حين ألف مسرحيته الشعرية (ذي قار) في مستهلّ ثلاثينيات القرن الماضي، مستمداً عناصر القوة والعزة لقومه من خلال انتصارهم على أعدائهم الفرس في أيامهم الغابرة.

وقد وجد أبو ريشة أنّ عظمة أمته العربية إنما تتجلى على خير وجه في رسالة الإسلام وسيرة عظماء المسلمين؛ ولذلك عزم على نظمه (ملحمة النبي) بادئاً بمقدمة اسمها (محمد)، وهي مطولة بلغت أبياتها المئة. ومطلعها:

أيُ نجوى مخضلة النعماء ... ردّدتها حناجر الصّحراء
وروتها على الوجود كتاباً ... ذا ضياءٍ أو صارماً ذا مضاء

والشاعر، خلال عرضه للمواقف المشرقة في سيرة الرسول وعظمته، كان يضع عينا على الغابر وعيناً على الحاضر؛ حيث قال في نهاية رائعته الهمزية:

فأعيدي مجد العروبة واسقي ... من سناه محاجر الغبْراء

وختم قصيدته مستبشراً بمستقبل وطنه متفائلاً بنهضة أمته:

قد ترفّ الحياة بعد ذبول ... ويلين الزمان بعد جفاء

وعلى غرار هذا، ومن خلال استيحائه لعظمة الأجداد، نظم أبو ريشة رائعته الأخرى (خالد) واجداً في ذلك القائد كلّ عناصر البأس وملامح البطولة:

نفحات النبي والفتح والعلـ ... ـياء والعز والفدى والبيان
رعشات في أضلعي ماجت الصّحـ ... ـراء فيها وماج فيها افتتاني
إنه ابن الوليد زغرودة النصـ ... ـر وأنشودة الجهاد الباني

ثم انعطف الشاعر إلى حال قومه ليقول في أسى ومرارة:

أنا من أمة أفاقت على العز ... وأغفت مغموسة في الهوان
عرشها الرث من حراب المغيريـ ... ـنَ منار الإباء والعنفوان
ما تخلوا عن الجهاد ولكن ... قادهم كل خائن وجبان

وعلى هذا الغرار ناجى أبو ريشة عدداً من رموز الإبداع في أدبنا العربي الأصيل، مثل أبي الطيب وأبي العلاء؛ وكان دأبه في كل حين أن يتّخذ من هؤلاء

الأسلاف الأفذاذ منطلقاً إلى تفريغ ما في نفسه ونفس جيله من ألم ومرارة، تجاه ما استشرى في شعبه من فساد وهوان:

يا أخا الحكمة السنية هل منـ ـــك التفات إلى صدى نجوانا
طالما كنت مبصراً في دياجيـ ـــك وكانوا في نورهم عميانا
كلهم في وليمة البغي يخشى أن يرى جوف غيره ملآنا
وتمشوا لدى الأعاجم حملا نـاً وصالوا في قومهم ذؤبانا

كان هاجس الأمة على الدوام يقلق الشاعر، وقلما كان يتناول موضوعاً اجتماعياً دون أن يعرّج على حال وطنه، وقصائدُه في تمجيد عظماء الغابرين والإشادة بأعلام الحاضر، مثل الزعيم إبراهيم هنانو والشهيد سعيد العاص لم تكن في حقيقتها إلا منطلقاً لتصوير مواقف البطولة ومعاني الفداء، وأمثولة رائعة لشباب الجيل.

وفي نظر ثاقب لواقع قومه، لم يكتف أبو ريشة بالتصدي لحكومات عصره فيما آلت إليه الحال؛ بل ذهب إلى أنّ الشعب نفسه يتحمل أيضاً تبعات هذا التردي، لأنه هو الذي أتى بأولئك الحكام وتركهم يعبثون بمقدرات الوطن، إنه يخاطب شعبه بصراحته المعهودة:

يا شعب، لا تشك الشقا ء ولا تطل فيه نواحك
أنت ارتضيت رجال أمـ ـــرك وارتقبت بهم صلاحك

وحين وقعت نكبة فلسطين، وقامت دولة إسرائيل، أصيب العرب بجرح بليغ في كرامتهم؛ ومنذ ذلك الحين أخذت القضية الفلسطينية تشغل حيزاً كبيراً في أشعار أبي ريشة. ففي ذلك العام تفجرت نفسه سخطاً ومرارة تجاه ما آلت إليه حال أمته؛ فكانت قصيدته المدوية (بعد النكبة) التي اشتهرت لدى الجيل باسم (أمتي):

أمتي، هل لك بين الأمم منبر للسيف أو للقلم
أمتي، كم غصة دامية خنقت نجوى علاك في فمي
ألإسرائيلَ تعلو راية في حمى المهد وظل الحرم

ثم يندد بتخاذل الدول العربية وتقاعسها في مواجهة الخطر الداهم:

رُبَّ «وامعتصـــــماه» انطلقـــــت ... مـــلء أفـــواه البنـــات اليُـــتّمِ
لامســـــت أسمـــــاعهم لكنـــــها ... لم تلامــــس نخـــوة (المعتصـــم)

خلال هذا، وفي إثر استقلال سورية وجلاء الأجنبي عن ترابها، خرجت البلاد من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر؛ وراحت تنشئ المدارس والجامعات، وتشيد المصانع والمؤسسات، وفي مقدمتها إنشاء الكلية العسكرية لتخريج صفوة من دروع الوطن، وإذ ذاك تصدر بيت من شعر عمر في ذلك الصرح الوطني؛ ليكون شعاراً أثيراً لدى ضباط المستقبل:

تقضـــي المـــروءة أن نمـــد جســـومنا ... جســـراً، فقـــل لرفاقنـــا أن يعـــبروا

ثم مضت أعوام والجرح في نفس الشاعر ونفوس قومه ما زال ينزف، حتى إذا ما عاد أبو ريشة من ترحاله المديد إلى حضن وطنه، وأخذت معالم الضعف تدب في جسده، طلع على الملأ بقصيدة أخرى جديدة مدوية بعد حين من الصمت حملت عنوان (عودة المغترب)؛ وهي من أواخر قصائده وأكثرها نضجاً وأشدها جرأة، قال في مطلعها رامزاً:

ألفيــت منزلهـــا بـــوجهي موصـــداً ... مـــا كـــان أقربـــه إليّ وأبعـــدا
وأغـــض مـــن طـــرفي حيـــاء كلمـــا ... عـــددت أعراســـي عليـــه وعـــدّدا
لمـــن الخيـــام علـــى العـــراء تزاحمـــت ... وكســـت مناكبـــه وشـــاحاً أســـودا
مـــرت بهـــا عـــبر الســـنين ولم تـــزل ... نُصـــباً علـــى جـــرح الكرامـــة شـــهّدا
والحـــاكمون، الثـــأر راح مفرّقـــاً ... مـــا بينـــهم والعـــار جـــاء موحّـــدا

بدا الشاعر من خلال قصائده المبكرة والمتأخرة، أشبه بمرجل جائش، أو بركان مضطرم، إذ لا يكاد يهدأ قليلاً حتى يعاود ثورانه.

❖ ❖ ❖

قد يبدو غريباً لأول وهلة أن نجنح إلى القول إنّ شاعرية عمر أبو ريشة وفنه التصويري ورؤاه المبتكرة، إنّما تتجلى في قصائده الوجدانية أكثر مما تبدو في سائر أشعاره؛ ومن اللافت أيضاً أنّ ما نظمه الشاعر عبر حياته المديدة من قصائده في الغزل وفي موضوع المرأة يفوق في عدده ما نظمه في الشعر الوطني وفي شعر الرثاء والشعر الاجتماعي.. ومع ذلك، وتبعاً لواقع العصر وأحوال الأمة لم تكن أشعاره في الغزل تحظى بسيرورة تضارع ما حظيت به قصائده المدوية في الوطنية والقومية، التي طغت في شهرتها على ما عداها من شعر؛ غير أنّ طليعة المثقفين ومتذوّقي الأدب لم تصرفهم قرعات الطبول عن نغمات النايات. وفي الأيام اللاحقة تخفت نبرات القصائد الوطنية وتخبو حدتها، بعد أن أدّت رسالتها على خير وجه خلال طور مديد من نضال عاثر وكفاح مرير. وعندئذ حين تهدأ الخواطر، وتتحقق الآمال، سوف تزداد قصائد أبي ريشة الوجدانية والغزلية والوصفية أيضاً تألقاً وجمالاً.

وأسلوب أبي ريشة، لا سيما غزله، يمتاز بالرّقّة والسلاسة، ويتدفق رقراقاً كماء الجدول:

مـــن أنـــتِ، كيـــف طلعـــت في ... دنيـــاي؟ مـــا أبصـــرت فيّـــا؟
في مقلتيـــــــك أرى الحيـــــــا ... ة تفـــــيض ينبوعـــــاً ســـــخيا
وأرى الوجـــــــود تلفّتـــــــاً ... سمحـــــاً وإيمـــــاء شـــــهيا

والمرأة عنده كائن جميل رقيق، يتسم بأنوثة آسرة، وينطوي على عالم محبب من الفتنة والسحر، كما يعجبه فيها الخفر والحياء، ففي قصيدته (طهر) يصوّر أبو ريشة لقاءه بفتاة عذراء في إطار طريف من القص المحبب:

ألفيتـــها ســـاهمة، ... شـــاردة تـــأملاً
طيـــف علـــى أهـــدابها ... كَســـرُها تـــنقّلا
ناديتـــها، فالتفتـــت ... نهـداً وشَـعراً مُرسلا
طوّقتـــها، يالَلشّـــذا ... مطوِّقـــاً، مقـــبِّلاً

فمـــا انثنـــت حـــائرة | ولا رنـــت تـــدلّلا
ولا درت وجنتـــــــها | مـــن خجـــل تبـــدّلا
كأنهـــا في طهرهـــا | أطهـر مـن أنْ تخجـلا

وعلى نفس الأسلوب من البساطة وعذوبة القص يروي لنا الشاعر المزيد من تجاربه العاطفية؛ كأن يستوقف فتاته التي سبق أن عرفها وتلقى منها رسائل شوق ولهفة، ليقول لها:

قفـــي لا تخجلـــي مـــني | فمـــا أشـــقاك أشـــقاني
كلانـــا مَـــرّ بـــالنُّعمى | مـــرورَ المتعـــب الـــواني
خـــذي مـــا ســـطّرت كفّـــاك | مـــن وجـــد وأشـــجان
صـــحائف طالمـــا هـــزّت | بـــوحيٍ منـــك ألحـــاني
لنطـــو الأمـــس ولنُســـدلْ | عليـــه ذيـــل نســـيانِ

وأغلب أشعار عمر في المرأة مستمدّ من تجاربه الغنية في واقع الحياة؛ وكثيراً ما يلتقط العادي فيحسن تصويره، وقد يرى فيه ما لا يراه سواه. ذات مرة رأى وهو يسير في شارع بإستانبول راهبة رائعة الحسن، فاتّجه نحوها وهي تهم بدخول الدّير، وأخذ يدها ليقبّلها، ثم مضى ليقول:

أمّـت كهـوف الـدير وهـي فتيّـةٌ | ورداؤهـــا كـــرداء مـــريم طيـــبُ
إنّـي لأعجـب كيـف تلمـس جيـدها | كـــفُ الصـــليب ويهجـــع المصـــلوب

ومن سمات غزل أبي ريشة احترامه إنسانية المرأة، وحرصه على تلمس روحها؛ فقد كان عفيفاً، نأى عن وصف محاسنها الجسدية، ولم يشأ أن يكون شاعر خصر وساق، وردف ونهد، وفي ذلك يقول: «ليس لي قطعة واحدة أهنت فيها المرأة، على الرغم من كل ما قاسيت منها ..»

ومن الطبيعي أن يكون لموروث الشاعر من جدوده الشيوخ، وما عُرِفَت به أسرته من انتمائها إلى الطرق الصوفية من قادرية وشاذلية ويشرطية، أثرٌ بيّن في

تعفّفه، وفي مفهومه للحب وسموه؛ فالحب عنده نجوى الطهر، وسر السعادة، وعذوبة الحلم. ويعبر عن ذلك في شعره أجمل تعبير، فيقول:

الحب مجلى الله، كم من عابد ... ساه بهيكله الوضيء وساهرُ
الحب، قرّبنا منه وعلّمنا ... ما قدس الله لا ما قدس البشر

وقد يخطو الشاعر حيناً في عالم المرأة، ثم لا يلبث أن يرتدّ إلى جذوره الصوفية؛ ليهّيمَ في خلوته الروحية:

هويتك في غصّة المؤمنين ... إلى جرعة في فم الكوثرِ
دعيني وحيداً أزجّي الخطا ... على مخصب الوهم والمقفر

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وأبدعه على مثاله، هي ذي فتاة رائعة الحسن عرضت للشاعر فقال:

عرفت بك الله بعد الضلالِ ... فدلّ البديع على المبدعِ

وما من ريب في أنّ أسفار أبي ريشة التي اقتضى معظمها عمله الدبلوماسي قد وسّعت آفاقه، وأغنت تجاربه، وعمقت رؤاه، سواء في الوصف أوفي الغزل، وفي هذا الصدد كتب قصيدته: (في طائرة)، حين كان في رحلة كما قال من البرازيل إلى تشيلي. وكانت إلى جانبه حسناء إسبانية، أخذت تحدّثه عن أمجاد أجدادها القدامى العرب دون أن تعرف جنسية من تحدثه؛ هي ذي الطائرة وقد:

وثبت تستقرب النجم مجالاً ... وتهادت تسحب الذيل اختيالاً
وحيالي غادة تلعب في ... شعرها المائج غنجاً ودلالا
طلعة ريّا، وشيء باهر ... أجَمالٌ؟ جلّ أن يُسمى جمالا
فتبسمتُ لها، فابتسمت ... وأجالت في ألحاظاً كُسالى
قلتُ يا حسناءُ: من أنتِ ومن ... أيِّ دوح أفرع الغصن وطالا
فأجابت: أنا من أندلس ... جنة الدنيا سهولاً وجبالاً

وجـــدودي، ألمـــح الـــدهر علـــى ذكـــرهم يطـــوي جناحيـــه جـــلالا
قـــد نمـــا المجـــد علـــى آثـــارهم وتحـــدّى، بعـــد مـــا زالـــوا، الـــزوالا
هـــؤلاء الصّـــيدُ قـــومي فانتســـبْ إن تجـــد أكـــرم مـــن قـــومي رجـــالا
أطـــرق القلـــب وغامـــت أعـــين برؤاهـــا، وتجاهلـــت الســـؤالا

هذه قصيدة من أطرف ما نظمه أبو ريشة، وهي قومية- غزلية معاً، وغير منسوجة عل منوال معهود؛ إنّها لوحة تضجّ بالحياة، وتمور بالحركة، تمازجت فيها ملامح الفتاة الإسبانية الحسناء، وروعة ماضي العرب التليد، فإذا هو مشهد حافل بالصور ورشاقة الحوار، فضلاً عن جلال الموضوع وحلاوة القصّ، أمّا آخر بيت - وهو بيت القصيد كما يقال - فهو (القَفلة) التي اشتهر بها الشاعر في الكثير من قصائده، وكأنّها فصل المقال وزبدة الخطاب، كلمات قليلة تنطوي على فيض من الرؤى والمشاعر؛ تاركة المجال للمتلقي لكي يبحر ما شاء له الإبحارُ في حنايا تاريخه المجيد.

❖ ❖ ❖

ومع أنّ غرض الوصف في حقيقته يكاد يشمل سائر أغراض الشعر؛ فثمة قصائد لأبي ريشة، وهي ليست بكثيرة، خالصة في الوصف، راسخة في الأذهان، ومنها قصيدته (طلل) وقصيدته (نسر)، ثم مطولته في وصف معبد (راجوراو)، وما كان من هذا القبيل.. فقد مرّ كما يُقال بصرح روماني قديم، لا يستطيع غير الظن أنّ يتحدث عن ماضيه، واسترعى انتباهه خلوه من الشوك وتألّق ترابه النظيف، فقال في نفسه: «إن الموت يقف أمام ضحيته مجروحَ الكبرياء، لأنه لا يستطيع أن يفتك به أكثر مما فتك»، ثم قال من قصيدة:

قفـــي قـــدمي، إن هـــذا المكـــا ن يغيـــب بـــه المـــرء عـــن حسِّـــه
رمـــالٌ وأنقـــاض صـــرح هـــوت أعاليـــه تبحـــث عـــن أُسِّـــه
أقلّـــب طـــرفي بـــه ذاهـــلاً وأســـأل يـــوميَ عـــن أمســـه
هنـــا يـــنفض الـــوهم أشـــباحه وينتحـــر المـــوت في يأســـه

والملاحَظ أنّ الشاعر أبا ريشة لم يأبه كثيراً لوصف مشهد الطلل القديم من حيث ظاهر شكله وهيئته؛ بل جنح إلى تصوير ما انطوت عليه نفسه من أحاسيس الدهشة والذهول، وحالة التأمل والاستغراق تجاه ذلك الأثر العريق، وما القافية أو رويها (السين) الذي يوحي بظاهرة الهمس المعهود وسط جو الهدوء والصمت، سوى عنصر من عناصر جمال القصيدة الحافلة بأطرف الصور؛ وهو يذكّرنا بسين البحتري في رائعته التي يصور فيها أيضاً إيوان كسرى، ذلك الأثر الباقي. ويستشفّ من هذه الأبيات المتوالية والمتلاحمة عنصرَ الزمان، وهو قوام الموضوع وجوهره؛ فهذا الزمان الدؤوب الذي اعتاد بجبروته ويده الباطشة أن يفني كلّ شيء، لم يعد بوسعه أن يفعل في هذا الصرح أكثر مما يفعل، فكأنّه شعر بعجزه عن إتمام ما كان فيه تجاه الأثر العنيد، فغلب عليه اليأس، وبذلك مات الموت منتحراً.

وعلى صعيد آخر، وحتى تتكامل النظرات بصدد موضوعات أبي ريشة وأغراضه الشعرية؛ قد يروق للقارئ المتذوّق أن يتوقف أمام أبيات متفرقة انبثّت خلال القصائد، وتلاحمت معها تلاحماً عضوياً؛ إنّها نظرات ثاقبة في الكون والحياة، أو هي نمط آخر من أشعار الحكمة المعهودة في أدبنا العربي. مثل قول أبي ريشة:

كل حيّ رهن الفناء، وتبقى … آية الله فوق طوق الفناء

وقوله:

درن النفسِ ليس يُمحى إذا لم … تَجرِ فيها مباضع الحكماء

وقوله:

لا يموت الحق مهما لطمت ... عارضيه قبضة المغتصب
شرف الوثبة أن ترضي العلا ... غُلب الواثب أم لم يُغلب
بورك الخطب، فكم لف على ... سهمه أشتاتَ شعب مُغضَب

وقوله:

لست تستطيع أن تكون إلاها ... فإن استطعت فلتكن إنسانا

كلها أشعار مكثفة المعاني سيارة على الألسن، وكأنها من جوامع الكلم.

أما أشعار أبي ريشة في الغزل، فهي أميل إلى القصر وقلة الأبيات، فضلاً عن إيثار البحور المجزوءة، كما تتسم عباراتها بالسلاسة والرقة وتنأى عن الفخامة والجزالة؛ وهذا ينطبق أيضاً على عدد من قصائده الوصفية الذائعة، ولاسيّما (طلل) و(النسر)..

❖ ❖ ❖

لقد واكب عمر أبو ريشة الحياة النضالية في هذا البلد الصابر، وشارك في كفاحه الطويل العاثر، فكان شوكة قاسية في جنب المحتل الغاصب وضد المستبد الظالم.

وكما كانت قصائده المتمردة تُشعل العزائم الباردة، وتُلهب المظاهرات الحاشدة.. كانت أشعاره في الوقت نفسه إنجيلَ الشبّان واليافعين، وبلسماً لجراح العشاق والمحبين، يجدون عبر قوافيها ترجماناً لما تنطوي عليه مشاعرهم، ومتعة عُلويّة لما تضطرب به أوتار قلوبهم، وهكذا كان شعر عمر في ضمير جيله: قلعة نضال وطني، ومنارة إشعاع أدبي؛ شعر يشتد كالحديد، وشعر يرقّ كالحرير:

فهو للحب وللحرب معاً ... وقوافيه لمن شاء شهود

وإنّ مثل هذا الشعر الملهم سوف يزداد على مرّ الأيام ألقاً وتوهّجاً، كما تـزداد الخمرة المعتقـة طيبـاً وتحلـو مذاقاً، أو كما يـزداد النـور في المـرآة نـوراً. إنهـا ملامـح الشاعرية وسمات العبقرية، بعد أن قطع الخلودُ عهداً على نفسه بأن يضع ميسمه علـى قريحـة أبـي ريشـة الشـاعرة؛ وسـوف يظـلّ هـذا الخلـود محمـولاً علـى أجنحـة قوافي الشاعر أبي ريشة، ما دام في الكون أذنٌ تعشق، وعينٌ تتملّى، ونفس تذوق.

د. عمر الدقاق

حكمت محسن

رائد الدراما الشعبية

(1910 – 1968)

من المتفق عليه أن الريادة المسرحية الأولى معقودة لأبي خليل القباني، حين قام بمَسْرَحة التراث العربي الحكائي والغنائي عربياً، في أول تجربة لتأصيل هذا الفن الوافد من الغرب.

بينما تتجلى ريادة حكمت محسن في تأسيسه للدراما الشعبية السورية: مسرحياً وإذاعياً وتلفزيونياً، وفي ابتكاره لشخصيات «كاركترات» درامية شعبية «دمشقية خصوصاً» من مثل: أبو رشدي، أبو فهمي، أم كامل، صابر أفندي، درويش، أبو صيَّاح، سعد حنِّي كفَّك، أبو شاكر. حتى صار الناس آنذاك، يسمون كل بخيل: أبو فهمي، وكل ثرثارة بين النساء: أم كامل.

ووجد كل مواطن «معَتَّر» في شخصية «صابر أفندي» صورته على خشبة المسرح، أو من خلال أثير إذاعة دمشق؛ حيث كانت الشوارع تخلو من الحركة حين تُذاع إحدى تمثيليات حكمت محسن.

وكان محسن قد ابتكر، في مسرحيته «بيت بالأجرة» شخصية «أبو صيَّاح»، قبضاي الحارة.. الزْكِرْت.. المُعَدَّل، وأداها على خشبة المسرح الفنان الشاب آنذاك: رفيق السبيعي، الذي سانده حكمت محسن حتى تمَّ تعيينه في إذاعة دمشق التي تأسست عام 1947، وكان صوت حكمت محسن أول الصادحين بها – بعد صوت رئيس الجمهورية شكري القوتلي – حيث أدى على الهواء مباشرة أحد مونولوجاته الانتقادية.

يتذكر الفنان رفيق السبيعي، في أحد حواراته: «بدأتُ عملي في تلفزيون دمشق عام 1962، وكان الفنان حكمت محسن يُعِدُ لبرنامج «نهوند» التلفزيوني،

فقمتُ بدور «سعد حنّي كفك» الملحن والمطرب، فقدمتُ أغنية «حُبك دوم ساكن مطرحو»، من ألحان: زهير منيني، ونالت إعجاب الناس».

يضيف فنان الشعب: «وكان في إذاعة دمشق ركن للأغاني الانتقادية الضاحكة، فقدمتُ فيه أغنية «داعيكم أبو صياح معدّل عَ التمام»، وهي أغنية تدعو للسلوك الصحيح في الأماكن العامة، وقد لحنها عدنان قريش. وفي عام 1963، بعدما توفي المخرج التلفزيوني سليم قطاية، تنادى الفنانون لعمل برنامج تلفزيوني يُخصَّص ريعه لأسرة المخرج الراحل، فبدأ خلدون المالح الإعداد لبرنامج «7×7»، وبما أن البرنامج منوع، كان عليَّ تقديم أغنية، فاخترت شخصية «أبو صياح»، وخطر ببالي مطلع أغنية: يا ولد لفّلّك شال. وكانت موضة الشعر الطويل والشارلستون منتشرة وقتها. كتب شاكر بريخان الأغنية ولحنها، فكان نجاحها كاسحاً. وهذا النجاح دفعني لمتابعة السير في هذا المنحى».

هكذا ارتدى رفيق السبيعي لبُوس شخصية ابتدعها حكمت محسن، لتكتمل موهبته وحضوره بمصداقية الشخصية التي قام حكمت محسن بنمذجتها من مهادها الشعبي الأول في حارات دمشق العتيقة. وعلى هذا المنحى، تابع زملاء حكمت محسن وتلامذته السير على منواله.

يقول الفنان تيسير السعدي في حوار له: «عندما مرض حكمت محسن، ولم يعد قادراً على الكتابة، خرجتُ ببرنامج «صابر وصبرية» مع زوجتي صبا المحمودي، وبدأنا العمل به في منتصف 1956، من إذاعة دمشق أولاً، ثم طلبت إذاعة لندن (B.B.C) شراء حلقاته بعد نجاحه».

ثمة التباسان في إجابة الفنان السعدي. فإذا كان الأمر حصل عام 1956، فلأن حكمت محسن لم يكن مريضاً أو توقف عن الكتابة، بل لأنه قد رفض التعاون مع إذاعة لندن، إثر العدوان الثلاثي على مصر، وأعلن ذلك في مؤتمر صحفي، عقده في دمشق آنذاك.

أما إذا كان الأمر مرتبطاً بمرض محسن، وتوقفه عن الكتابة، فقد حصل ذلك في منتصف عام 1965، وربما بين الرقمين: 56 – 65 خطأ مطبعي؛ حيث يؤكد السيد أيمن محسن أن والده قد أصيب بارتفاع ضغط شرياني دائم، كما

يؤكد المخرج غسان جبري أن ذاك قد أدى إلى إصابة حكمت بجلطة دماغية وشلل نصفي، قبيل سنة من وفاته. مع ملاحظة أن أغلب حلقات «صابر وصبرية» هي من تأليف وليد مارديني، ونثبته هنا من باب التوثيق، لنتابع أطياف تأثير مدرسة حكمت محسن على الحركة الفنية السورية...

خلع الفنان دريد لحام «الكاركتر» الغربي لأول شخصية فنية له: كارلوس، ليرتدي اقتداءً بطريقة حكمت محسن، طربوش غوار الطوشة وشرواله وقبقابه، حاصداً نجاحاً لافتاً بين كل الشرائح الاجتماعية السورية والعربية.

وتابع الفنان الكبير نهاد قلعي، طريقة القصَّاص الشعبي في استنباط شخصيات فنية من الحارة الشعبية، فابتكر شخصيته: حسني البورظان. وابتكر وساهم في تكريس شخصيات سواها: فطُوم حيِّص بيص: الفنانة نجاح حفيظ، وشخصية عبدو: الفنان زياد مولوي، وشخصية أبو عنتر: الفنان ناجي جبر، وشخصية أبو رياح: الفنان محمد الشماط، وياسينو: الفنان ياسين بقوش، الذي اكتشفه الفنان عبد اللطيف فتحي، بعد انتسابه إلى فرقة المسرح الحرّ في دمشق عام 1956، ثم أسند إليه دوراً في مسرحية «صابر أفندي»، التي أخرجها عام 1958، عن نص لحكمت محسن.

يقول الفنان ياسين بقوش، في حوار معه: «أطلق الفنان نهاد قلعي عليَّ اسم (ياسينو) في مسلسل «صحّ النوم»».

وكل تلك الشخصيات، ظهرت مع سواها في مسلسلي: (حمام الهنا 1967، ومقالب غوار عام 1968).

كما استثمر (مسرح الشوك) الذي أسسه وكتب له عروضه الفنان عمر حجو، نجاح ذلك الأسلوب في نمذجة الشخصيات، فشارك أبرزها: غوار الطوشة، حسني البورظان، أبو صياح، وسواهم، في عروضه الانتقادية.

وتابع أحمد قبلاوي، ما تبقى من تقاليد «المسرح الشعبي»، الذي ساهم حكمت محسن في تأسيسه، فكتب نصوصاً مسرحية، قدمها له «المسرح الجوَّال»، وتبدى ذلك أيضاً في مسلسله «الدولاب» بجزأيه اللذين عُرضا على شاشة التلفزيون السوري عام 1971- 1972 على التوالي، وهو من إخراج غسان جبري،

وبطولة: عبد اللطيف فتحي، عدنان بركات، طلحت حمدي، بسام لطفي، إغراء، رضوان عقيلي، توفيق العشا، وآخرين.

واستمر طيف تأثير حكمت محسن، حتى بعد وفاته بعقود، فقد استعار المخرج سمير ذكرى في فيلمه «حادثة النصف متر» شخصية «أبو فهمي» بأداء الفنان فهد كعيكاتي ذاته، ولكن كبائع حبال في أحد أسواق دمشق القديمة، حيث يأتيه بطل الفيلم، المتأزم نفسياً وعاطفياً، عقب نكسة حزيران، ليشتري متراً من الحبال، فيظل أبو فهمي ببرودته المعهودة يسأله عن نوع الحبل، ولماذا سيستعمله، حتى يُصرِّح البطل بأنه يريد متراً واحداً.. لينتحر! عندها ينصحه أبو فهمي ببخله المعهود فنياً، بشراء متر ونصف، والأفضل مترين «من شان العقدة.. بابا».

ثم إن الفنان فهد كعيكاتي ذاته، قد أدى قبيل وفاته: شخصية «أبو جندل» في مواجهة الفنانة سامية الجزائري «أم جندل»، لكن من دون ابتعاده، ولو مسافة عقدة حبل، عن لبوس شخصيته السابقة والمديدة: أبو فهمي، التي ابتكرها حكمت محسن مطلع خمسينيات القرن الماضي. وطوال تعاونه معه مسرحياً من خلال الفرقة السورية للتمثيل والموسيقا، وفي إذاعة دمشق، ثم في التلفزيون.

أحدث حكمت محسن نقلة نوعية من خلال مسلسله الإذاعي «مذكرات حرامي»، وهو أول مسلسل سوري يعالج مشكلة اجتماعية في قالب بوليسي، واكتملت تلك النقلة حيث تم تحويله إلى مسلسل تلفزيوني عام 1968، من إخراج علاء الدين كوكش، وبطولة: عبد الرحمن آل رشي، هاني الروماني، عمر حجو، سلوى سعيد، شاكر بريخان، وآخرين؛ حيث نال نجاحاً ومتابعة جماهيرية واسعة.

وأذكر أن التلفزيون السوري أيام الأبيض والأسود آنذاك، كان يعرض حلقة واحدة أسبوعية من كل مسلسل سوري أو عربي. ويقصدون بالمسلسل العربي: المصري. وكان مسلسل «مذكرات حرامي» يُعرض مساء الاثنين أو الثلاثاء، بعد نشرة الأخبار المسائية.

❖ ❖ ❖

وُلد حكمت محسن في استنبول عام 1910، لأبوين سوريين؛ فقد كان والده ضابطاً في الجيش العثماني، وعشية نشوب الحرب العالمية الأولى أرسل زوجته

وطفله حكمت إلى دمشق، لتعيش عند أهلها ريثما تنتهي الحرب، لكن الضابط صبحي محسن فُقد في حرب (السفر برلك)، ولم يعُد.

يقول الفنان حكمت محسن: «أقمنا أنا وأمي الطيبة، في بيت جدي بدمشق، وكان ضابطاً برتبة (بكباشي)، ثم ما لبث أن توفي تاركاً لزوجته وأولاده راتباً تقاعدياً، تقاسمه الورثة. فما كان منا إلا أن تابعنا حياتنا، أمي وأنا، بتلك الحصة الزهيدة من راتب جدي. وكنت آنذاك طفلاً لا يعي من الحياة شيئاً، سوى أمه، التي تعرف حكايات كثيرة وتبكي».

وكانت أمه قد عملت كمدرِّسة للأطفال، لتعيل نفسها وابنها. ويبدو أن ذلك لم يستمر، فما لبث ابنها، وهو في التاسعة من عمره، أن انخرط في العمل، ليساعد والدته في تدبير أمور المعيشة.

ويروي الفنان الكبير: «كان الانتقال من بيت إلى آخر سهلاً جداً علينا، لأنه لم يكن لدينا سوى حصير واحد وفراش واحد وصندوق خشبي يضم حوائجنا القليلة. وآنذاك، كنت بلغت العاشرة، واشتغلت أجيراً عند البقال والخضري والكوّا والحلاق، ثم حاولت أمي أن تعلمني صنعة، فجرَّبتُ عند أحد الحدادين، ثم أحد النجارين، ثم أحد الخياطين، حتى سبَّعْتُ الكارات، لكنني لم أتعلم سوى شيء من مهنة التنجيد، ولم أعرف في تلك السنوات العجاف سوى الحاجة والحرمان والجوع».

غير أن هذا سينعكس، فيما بعد، على إبداعاته، من حيث اختلاطه المبكر بالناس، وتعرفه على أنماطهم وأساليب عيشهم اليومي ومخزونهم من القصص والأمثال، كما على المنطوق العامي الخاص بكل فئاتهم الشعبية وشرائحهم.

هكذا، تنقل الفتى حكمت بين مهن مختلفة، حتى استقر في مهنة التنجيد، من غير أن يكتشف موهبته المخبوءة بين أكوام صوف «الفَرْشات» وثنايا قطن «المخدات» حتى أخذته قدماه، وهو على أعتاب الخامسة عشرة من عمره، ليحضر عرضاً مسرحياً لفرقة «أمين عبد الله» القادمة من مصر، فأخذته دهشة المسرح وكواليسه وانكشفت دواخله عن توق فني مخبوء.

هل نام حكمت محسن تلك الليلة؟ لا نعرف.. لكننا نعرف – حسب رواية ابنه أيمن – أنه في الصباح الباكر ذهب ليقابل الفنان المصري، طالباً منه بإلحاح الانضمام إلى فرقته المسرحية، فقبل أمين عبد الله أن يعمل الفتى معهم، متطوعاً، ومن دون أجر.

وافق حكمت محسن على الشروط، ورافق الفرقة في عروضها الدمشقية وجولاتها في المحافظات السورية، وصولاً إلى بيروت طوال سنة كاملة. نام أغلب لياليها جائعاً، إلى أن ترك الفرقة منهكاً، وعاد إلى دمشق، ليتابع ثانية عمله في مهنة التنجيد، التي انخرط من أجلها في تأسيس أول نقابة مهنية للمنجدين في سوريا، وأضحى أول رئيس لها، من غير أن نعرف بالضبط سنة التأسيس. وكأنما حكمت محسن أدرك مبكراً الضريبة، التي سيدفعها الفنان، فزاوج بين مهنته كوسيلة للعيش، وبين موهبته الفنية.

وإذا كان حكمت محسن قد تلقى قسطاً من التعليم على يد والدته، فإننا لا نعرف كيف تعلم الموسيقى، سماعاً، والعزف على العود، ثم أخذ يلحن ما يكتبه ويؤديه من مونولوجات غنائية انتقادية ضد الاستعمار الفرنسي، وناقدة للحالات الاجتماعية، حتى حاز شهرة أتاحت له تقديم حفلات خاصة به على مسرح «سينما العباسية» بدمشق، مطلع الثلاثينيات، بوجود منافسين له في هذا المجال، أبرزهم: سلامة الأغواني.

لكن البعض حاربه، لدرجة أنه ذهب إلى مسرح سينما العباسية، والصالة ممتلئة بالجمهور، فلم يجد الفرقة الموسيقية، وقد أغراها خصومه بالمال وغيره، فانسحبت. وطالبه عمال المسرح بأجورهم، فاكتشف أن عامل قطع التذاكر قد أخذ ثمنها وهرب، كما أن ديكورات الحفلة اختفت.

وحسب رواية ابنه أيمن: تطوع أحد أصدقاء أبيه، وكان عازفاً مبتدئاً، ليرافقه على آلة «الأكورديون» من خلف الستارة، فلم يواكبه جيداً في غنائه، ما أدى إلى فشل الحفلة، فأغمي على حكمت محسن، وتم نقله إلى البيت، فقال بعد أن استفاق، ساخراً: «كأن الجنّ كانوا يعزفون من ورائي».

هذه الحادثة، سببت له صدمة إزاء الشللية في الوسط الفني، فانزوى لفترة يزاول مهنته في التنجيد، ويكتب نصوصاً مسرحية وتمثيليات، من مثل مسرحية «أبو رشدو» التي لم يتسن له إنتاجها على الخشبة.

لكن ذلك الاعتزال المؤقت لم يستمر، إذ يروي الفنان تيسير السعدي: «شاهدت حكمت محسن يعمل مع بعض الفرق المحترفة في سوريا منتصف الأربعينات، قبل ذهابي إلى القاهرة للدراسة، فلما عدت من القاهرة قابلته في أحد الأسواق، فأعطاني قصة له مكتوبة باللغة الدارجة غنية بالاستعارات والمواقف والخلفيات والأمثال الشعبية، فأعجبتني القصة كثيراً، وكانت تلك بداية تعاوني مع حكمت محسن عام 1948».

وهكذا تشكّل الثنائي: حكمت محسن مؤلفاً وممثلاً، وتيسير السعدي مخرجاً وممثلاً أيضاً، فقدّما الكثير من الأعمال المسرحية والتمثيليات الإذاعية في إذاعة دمشق وسواها.

يقول الفنان تيسير السعدي: «بواسطة أصدقاء كانوا يعملون في إذاعة الشرق الأدنى (B.B.C) التي كانت تبث من قبرص، ومن بينهم: أمير البزق محمد عبد الكريم، والفنان التشكيلي نصير شورى، كعازف على الأكورديون آنذاك، قامت الإذاعة بتسجيل مسرحيتين لنا، هما: «يا آخذ القرد على ماله»، والثانية «نهاية كبير».

يتابع السعدي: «وبعد فترة، طلبوا قدومنا أنا وحكمت محسن إلى قبرص، فسجلنا ثلاثين حلقة إذاعية تحت عنوان: «صندوق الدنيا عجايب». وعندما عدنا إلى دمشق، كانت دهشتنا كبيرة حيث كنا نشاهد المارة في الأسواق وفي المقاهي وعند بائعي البوظة، يتجمعون عند أقرب راديو ليستمعوا إلى تمثيلياتنا. ومن هنا بدأت شهرتنا على الصعيد المحلي».

بينما يروي السيد أيمن محسن: «جاء الفنان تيسير السعدي إلى والدي، وبرفقته مخرج من إذاعة الـ (B.B.C)، اسمه عبد المجيد أبو اللبن، عارضاً تقديم تمثيليات إذاعية بمناسبة شهر رمضان، فذهبا إلى قبرص. وحين أرادت هيئة الإذاعة الاطلاع على ما أحضراه، فتح حكمت محسن حقيبته الجلدية، وأخرج منها قلم رصاص عريض – مما يستعمله النجارون آنذاك – قائلاً: لديَّ هذا

القلم.. فقط. وكان ذلك قبل بداية رمضان بيومين، فبدأ والدي يكتب الحلقة مساءً، فتسجل صباحاً ثم تذاع، حتى اكتمل مسلسله الإذاعي: صندوق الدنيا عجايب، الذي حقق نجاحاً باهراً بين الناس وفي الصحافة الفنية».

وبقلم الرصاص العريض نفسه، وعلى ورق كبير أسمر، ظل حكمت محسن وفياً لنوعية أقلامه وأوراق الكتابة، حتى آخر حياته، وكل تمثيلياته باللهجة المحلية الدارجة في دمشق. وفي هذا يكتب الصحفي الراحل حسين راجي: «كنتُ معجباً بغنى قاموس مفرداته الشعبية، وأسمع منه في كل مرة كلمات تثير فضولي، وأحار في اشتقاقاتها ومصادر لهجاتها، فيرمقني بنظرة لا تخلو من العتاب، وهو يقول: لغتنا العربية بحر، كما يقول حافظ إبراهيم، ولا بد لكل كلمة من هذه الكلمات مصدر في معاجم لغتنا الفصيحة».

يتابع حسين راجي في مقالته «حكمت محسن: عميد الأدب الشعبي»: «ومرة لفتت نظري كلمة وردت في إحدى مسرحياته، إذ قال على لسان أبو فهمي – الفنان فهد كعيكاتي – وهو يصف جارتهم الست حسيبة بأنها: جُخنَّة! ولما سألته عن معناها، قال: ابحث عنها في معجم لسان العرب. وسمعنا الأستاذ سعيد الجزائري، فأخذني إلى مكتبة الإذاعة، وكان يشغل آنذاك وظيفة أمين المكتبة، لنجد أن اللفظة العامية هي عربية حقاً، وأن معناها في لسان العرب: المرأة الرعناء».

بعد تجربته في إذاعة لندن، عاد حكمت إلى دمشق، فوجد أن شهرته قد سبقته إليها، وأنه قد نال شهادة اعتراف بموهبته من خارج بلده، ومن غير إذاعته الوطنية، كما قد تكرر ذلك مع أبي خليل القباني، ويتكرر مع فنانين ومثقفين سوريين بعده، من مثل: نزار قباني، أدونيس، فريد الأطرش، غادة السمان، محمد الماغوط، حنا مينة، أسمهان وآخرين، كانت قد احتضنتهم بيروت أو القاهرة، وأطلقت إبداعاتهم، فسبقتهم الشهرة إلى دمشق.

بعد عودته، أسس حكمت «الفرقة السورية للتمثيل والموسيقا»، بالتعاون مع: تيسير السعدي، أنور البابا، فهد كعيكاتي، وسواهم. كما صار يعمل في إذاعة دمشق، فقدَّم عبر أثيرها تمثيليات إذاعية اجتماعية ناقدة، تجاوز عددها أكثر من 800 حلقة إذاعية، ومن أبرز ما كتبه للإذاعة: «الخطَّابة»، «طاقية الإخفاء»،

«متّعب أفندي»، «تحت الشباك»، «مسرح دار الإذاعة»، و«مذكرات حرامي». بالإضافة إلى الكثير من الأغنيات والمونولوجات الاجتماعية الناقدة والبرامج الإذاعية المنوعة، تمثيلاً وغناء، من مثل برنامجه: «نهوند».

وللدلالة على نوعية التأثير الاجتماعي لمونولوجاته الناقدة، نذكر أن أغنية «الطّلعة من ورا .. النزلة من قدّام» التي غنتها أم كامل بصوت الفنان أنور البابا، قد نظمت حركة الصعود إلى، والنزول من، باصات النقل الداخلي بدمشق، فإذا رأى الركاب أحداً يخالف هذه القاعدة، ذكّروه بمطلع الأغنية.

وأراني السيد أيمن محسن رسالة طريفة من أحد المستمعين إلى والده، يشكره فيها، لأنه كان مختلفاً مع زوجته، حتى وصل بهما الشجار حدّ الطلاق، فاجتمع أهله وأهلها، إلى أن وصل بهم النقاش إلى لحظة توترت فيها الأعصاب، فتذكر أحد الحاضرين موعد بث تمثيلية حكمت محسن. فتح الراديو، فإذا الحلقة هي أيضاً عن نفس الموضوع، وقد حفلت بمفارقات كوميدية ضحك لها الجميع. وفي نهاية الحلقة اكتشفوا المفارقة التي وجدوا أنفسهم فيها، وعادت المياه إلى مجاريها بين الزوجين.

في عام 1959 عُرضت في دمشق مسرحية (صابر أفندي)، وهي من بطولة وإخراج: عبد اللطيف فتحي، وقد لاقت حضوراً لافتاً، وكانت النص المسرحي الوحيد الذي يعيد إنتاجه المسرح القومي بدمشق بعد وفاته عام 1968، وبتوقيع عبد اللطيف فتحي، بطولة وإخراجاً. وفي ذلك اعتراف متأخر من مسرح نخبوي بالقصاص الشعبي حكمت محسن، حيث ينطوي ذلك التوصيف: القصاص الشعبي، على تفسيرين بحسب الأهواء والآراء التي سادت في الخمسينيات والستينيات، من حيث أن هذا التوصيف يحتوي التقدير لذلك المبدع، أو يحتوي الإقلال من شأنه، كما سنرى لاحقاً مع أني منحاز لتوصيف حسين راجي له (عميد الأدب الشعبي)، وهو توصيف يتسع لكافة جوانب حكمت محسن الإبداعية.

❖ ❖ ❖

أواخر عام 1959، دعت مديرية الفنون في وزارة الثقافة لاجتماع تمهيدي شاركت فيه فرق: النادي الشرقي، المسرح الحر، النادي الفني، نادي أنصار المسرح، الفرقة السورية للتمثيل والموسيقا، وغيرها من الفرق المسرحية الدمشقية.

وقد خرج الاجتماع بقرار تشكيل «فرقة المسرح الشعبي»، التي كان حكمت محسن وعبد اللطيف فتحي من أبرز مؤسسيها، برئاسة المخرج محمد علي عيدو، وبمشاركة مظهر الشاغوري وعمر قنوع وآخرين.

وتمَّ أيضاً تشكيل «فرقة المسرح القومي»، فقدَّم أول عروضه عن نصٍ لأريستوفان، اقتبسه توفيق الحكيم، وتمَّ عرضه في 1960/2/25. بالإضافة إلى تشكيل فرقة أمية للفنون الشعبية، وفرقة مسرح العرائس. وكان ذلك حدثاً فنياً استثنائياً، لكنه كان بداية صراع صامت ثم أخذ مداه بين نخبة ثقافية تريد مسرحاً قائماً على تقديم كلاسيكيات المسرح العالمي، تمثلت في: فيصل الياسري، د. رفيق الصبان، وغيرها؛ وبين فنانين احترفوا المسرح، بعد معاناة مريرة، حيث خرجوا من تقاليد المسرح الشعبي، كحكمت محسن وعبد اللطيف فتحي، عندما اقترح حكمت أن تقدم فرقة المسرح الشعبي التابعة لوزارة الثقافة عروضها في كل حي دمشقي، وكأنه يريد للمسرح أن يعود إلى الرحم الشعبي الذي خرج منه، واستلهم مشاكله وفضاءاته وألوان طيفه الحكائي والغنائي.

وبينما كانت مسرحية «أريستوفان» تعرض على خشبة المسرح القومي ذهب حكمت محسن بمسرحيته «بيت للإيجار» إلى مسرح «المقاومة الشعبية» في سوق ساروجة، كما كان يسمى آنذاك. وتم عرضها أيضاً في أحياء الميدان والقنوات والمهاجرين وغيرها من أحياء دمشق الشعبية.

وقد تواترت عروض المسرح القومي بدمشق، بينما تعرضت عروض المسرح الشعبي لانتقادات النخبة الثقافية وفي الصحافة، حتى تمَّ بالتدريج إعاقتها وتجميدها، إلى أن صدر قرار دمج المسرح الشعبي بالمسرح القومي عام 1969، وشاهدنا الفنان عبد اللطيف فتحي يخرج من شخصية «صابر أفندي» ليؤدي على خشبة المسرح القومي دور (الملك لير).

وتلك مفارقة، كان وجهها الآخر عدم إتاحة الفرصة لتقاليد المسرح الشعبي أن تتطور بتراكم التجربة، وأن تتوزع على عدة فرق مسرحية، أخذت شيئاً فشيئاً تبالغ في التهريج، حتى وصلت إلى حدود الابتذال، كما نشهد في بعض تجارب ما يسمى بفرق المسرح الخاصة.

وكان حكمت قد أدرك مبكراً، أن وزارة الثقافة، ستطوي مشروع «المسرح الشعبي» وتتبنى الآخر: النخبوي. فحاول تأسيس مسرح خاص به، أطلق عليه ذات الاسم: المسرح الشعبي، تأكيداً منه على خياره الفني، وكتب له مسرحية «الأب»، ولم يستطع تجسيدها على الخشبة لافتقاره للتمويل!

قبل ذلك بسنوات، وفي عام 1961، كتب حكمت محسن مسرحيته الغنائية - وهي أقرب إلى فن الأوبريت - (يوم من أيام الثورة السورية)، اختار فيها يوم معركة جسر تورا في دمشق، التي عجز فيها الفرنسيون عن دخول غوطة دمشق عبر فرع من نهر بردى لا يتجاوز عرضه المتر الواحد، بفضل بسالة الثوار.

وقدم محسن في هذا العمل تراثاً سورياً شاملاً من خلال مشاركة الثوار القادمين من كل المحافظات السورية في دبكات وأغاني النصر. الجدير بالذكر، أن الموسيقار صلحي الوادي هو الذي قام بالتوزيع الموسيقي.

استمر محسن بعمله في إذاعة دمشق، لكنه على غرار تجربته مع المسرح الشعبي بوزارة الثقافة، تعرض إلى مضايقات، كما استهانت الكوادر الجديدة به، من حيث كونه مجرد قصاص شعبي! ولأول مرة يتعرض مسلسله الإذاعي «مرايا الشام» للرقابة، على يد من اهتم بكل شاردة وواردة، سائلاً حكمت محسن عن معنى تلك الجملة، وعما وراء الثانية، بالإضافة إلى الحذف والتشطيب غير الفني. بعد ذلك انتقل إلى وزارة الثقافة بصفة مستشار فني لا عمل له في كل حال. وتردى وضعه الصحي، فأصيب بارتفاع ضغط دائم، ثم بتصلب في الشرايين عام 1966، أدى إلى تعرضه إلى جلطة دماغية، نجا منها على هيئة شلل نصفي.

يتذكر المخرج غسان جبري، أنه وأصدقاء من الوسط الفني، قد اتفقوا مع القاص سعيد حورانية، وكان يعمل في المركز الثقافي السوفياتي آنذاك، على تكريمه، فتم ذلك بمبادرات شخصية، وحين صعد حكمت محسن إلى المنصة، طالبوه بكلمة بهذه المناسبة، قال كشأن المبدعين الكبار: «ماذا فعلت حتى تكرموني كل هذا التكريم؟».

بعد حياة غنية، توفي عميد الأدب الشعبي السوري حكمت محسن (أبو رشدي، وهي شخصيته الفنية التي عرف بها طوال أجيال) يوم 1968/11/19.

وقال د. شاكر مصطفى عنه، بعد وفاته: «لأنه أتانا من أعماق الشعب، ولأنه كان فناناً صادقاً وحساساً وذكياً، فقد استطاع أن يسجل اسمه كأحد أبرع المعبرين عن مكنونات الناس الذين عايشهم وأحبهم، وقد كنا طوال أكثر من عشرين سنة أثناء حياته، وما زلنا إلى الآن، مشدودين لما قدمه لتراثنا الفني الشعبي من قصص وتمثيليات ومسرحيات، تشهد له بالتفوق والتألق».

بينما قال الشاعر أحمد الجندي: «لم تكن في قصاصنا الشعبي الكبير حكمت محسن أشياء من مكسيم غوركي وحده، بل من شارلي شابلن أيضاً. ولما كنت أعتبره مبدعاً لا يقل أهمية عن الاثنين معاً، فلن أجد غضاضة لأقول إنه كان فيهما أشياء منه، وبإمكاننا أن نحل المشكلة إذا ما اتفقنا على أن الثلاثة هم من طينة إبداعية متميزة».

وإذا كان أغلب إبداع أبي خليل القباني قد ضاع، وكأن ذلك استمرار رمزي لحريق مسرحه، فمن المؤسف حقاً، أن يضيع ما تبقى من إبداع حكمت محسن، وهو يرقد اليوم في خمس حقائب جلدية بعهدة ابنه أيمن، وكانت وزارة الثقافة قد اعتذرت عن نشر نتاجه، بحجة أن الوزارة منذورة للفصحى، ولا تنشر كتباً باللهجة الدارجة.

نجم الدين سمّان

أكـرم الحـورانـي

الكفاح الطبقي

(1911- 1995)

كان الحوراني شخصية إشكالية، شغلت حيّزاً زمانياً طويلاً في عمر السياسة السورية؛ فمنذ فترة المراهقة كان قد وضع نفسه مع ذلك الجيل الصاعد بعفوية في قلب التغيير والرفض وازدراء الاعتدال؛ مما استوجب كراهية أعداء، ومحبّة أصدقاء. فمن غير صلة بهوى الشباب، بعيداً عن غواية الأعمار في السنّ المتفتح، كنت تجد في جيل الثلاثينات وما بعده، إخلاصاً قاسياً وتحدّياً يشوبه الاستهتار بالخوف أو الموت دون تحفظ.

ولد حسن أكرم الحوراني، حسب مدوّنات أبيه، يوم السبت في الرابع من تشرين الثاني عام 1911؛ وكان تسجيل الولادة بقلم أبيه رشيد على الصفحة الأولى من كتاب عزيز على قلبه بعنوان: (تاريخ أبي الفداء)، وهو من الكتب التاريخية المتداولة في حماة.

بالنسبة للحوراني الصغير، فإنه لا يتذكر شيئاً عن أبيه إلا بصورة ضبابية؛ فقد توفي والده بمرض (التيفوس) مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، لكن ذلك لم يُرتّب إرهاقاً معيشيّاً على كاهل العائلة، إذ ورث الأبناء عن أبيهم العزم والرجولة والاستقامة، مع القليل من صكوك تأجير الأراضي التي كان يمتلكها. كان الجد الأبعد لأكرم الحوراني - واسمه عثمان من عائلة الحلقي - قد ارتحل من بلدة جاسم في حوران إلى حماة منذ أكثر من أربعمئة عام من ولادة الحوراني الصغير؛ وقد ابتنى الجد لنفسه زاوية في الحي الذي سكنه، لممارسة الطريقة الرفاعية، فما إن توفي الجد ودُفن في زاويته المعروفة، حتى صار قبره مزاراً للتبارك، وقد خلفه في تدريس الطريقة ابنه أبو الوفا السيد علي، حيث تتلمذ على يديه كثيرون. وما إن توفي أبو الوفا حتى جاء ابنه من بعده.. هذا وسيحتفظ رشيد والد

الحوراني بتسلسل نسب العائلة التي تعود بحسب الشجرة المرسومة إلى تاريخ الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب.

كان والد أكرم الحوراني (الأفندي رشيد) عصامياً مُجّداً، يتقن اللغتين العربية والتركية، ويقتني مكتبة عامرة بألوان علوم اللغة والأدب والتاريخ والمنطق والطب... فيما الشروح والتعليقات بخط رشيد الجميل تملأ الهوامش من صفحات هذا الكتاب أو ذاك على واجهة المكتبة.

كان والد الحوراني مولعاً بالعمل العام أيضاً؛ فقد رشّح نفسه لمجلس المبعوثان (مجلس النواب في الآستانة) عن مدينتي حمص وحماة؛ بصفتهما دائرة انتخابية واحدة، إلا أنه أخفق في الفوز، ذلك لأن منافسه الشيخ عبد القادر الكيلاني حظي بدعم العائلات الثريّة النافذة؛ كعائلة الأتاسي الحمصية، وعائلات الكيلاني والبرازي والعظم وطيفور... في حماة.

وتعكس هذه الواقعة طبيعة الأوضاع الاجتماعية والسياسية في الدور الأخير من الحكم التركي.

ففي النظرة الجيوسياسية والتاريخية، فإن حماة تحمل اسماً سامّياً قديماً بمعنى الحصن؛ ويقدر المؤرخون بأن عمر المدينة إنما يعود إلى عشرين قرناً قبل الميلاد؛ وفي عصور الممالك الفينيقيّة احتلت حماة وقادش وكركميش... أهمية العواصم في زمننا الحديث؛ ورغم أفول نجم هذه المدن فإن حماة بقيت على الأقل ملتقى البوادي، حيث المنتجات الزراعية والحيوانية تعرض في ساحاتها دون انقطاع.

وحسب المؤرخ عيسى المعلوف في تاريخه الاجتماعي عن حماة عام 1910، أنّ عوائل أربع هي أهم ما في حماة من عوائل، العظم والبرازي والكيلاني وطيفور... تليها عائلات كريمة كبيت الحوراني والأعوج والبارودي والشرابي والقاري.. وفي الحقيقة فإن العائلات الأربع التي أتى عليها المعلوف هي التي امتكلت كلّ شيء؛ وكان من الطبيعي أن تحظى بمساحات إقطاعية شاسعة؛ فيما يرجع المؤرخون هذه المزايا لأصولهم التركية أو الكردية، وهي سياسات عثمانية مألوفة.

وكان على حماة أن تختار بين المتطور وضدّه؛ وفي تراصّ إقطاعي نادر اختارت العائلات الكبرى خط الوقوف في وجه التجديد؛ حيث تجد ملاذها في مساندة الحكم التركي المانع للتطور والرافض لبدعة الدستور.. ومن المفارقات الغريبة في مدينة محافظة كحماة، أن يقف رجال الدين وتجار وشباب مثقف... ضدّ الغاطس الظلامي الذي يلف الكثرة الكاثرة من جموع الشعب؛ فيما المطالبات بضرورة نزع الخرافة عن الدين؛ والمناداة بشيوع العلم والتعليم تملأ المدينة، وفي إطار هذا المشهد تتحدث مجلة (الإنسانية) عن موضوعات غاية في الفرادة، لاسيّما وأنها تصدر في حماة تحت عناوين ساخنة؛ مثل الدعوة للتصدي لحكم الاستبداد، ومناقشة نظرية النشوء والارتقاء لداروين، ونظرية تكوّن كوكب الأرض وتطوراته خلال أحقاب الزمن... كما تدعو المجلة في عرض راقٍ إلى حوارات في إبداع أبي العلاء المعري (والاستغفار) لإلحاده، فيما تزيّن الصفحةَ الأخيرة دعوةٌ إلى وجوب تعليم البنات، من حيث أنّ النساء نصفُ فاعلية المجتمع وارتقائه.

كانت مدارس الأفغاني وعبده والكواكبي ـ بعد إعلان الدستور العثماني عام 1909 ـ مدعاة للتأثير والتأثّر؛ وقد انخرط والد الحوراني (رشيد) في التشكيلات الاستقلالية؛ وكان رضا باشا الركابي (أحد أهم الضباط العرب في الجيش العثماني) من أهم أصدقائه؛ وازدانت حماة بشُبان ذوي تطلعات قومية وتحررية، كانوا قد وفدوا لتوّهم بعد التخرج من جامعات الآستانة التي ظلّت تمور بإرهاصات مستقبليّة واعدة.

سينفر الحوراني الصغير من حضانة الكتاتيب عند (الشيخة) أم نايف؛ إلى الجلوس على الحصير، فالشيخة كانت: «تعلمنا القرآن بعصاها وقسوتها وإرهابها.. بل وتشغلنا بتنقية حبوب الحمُص، لأن زوجها كان حِمصانياً، وفي مدرسة السيدة بهيجة حيث كنت ما أزال صغيراً على سن الدراسة؛ صرفني مدير المدرسة لكثرة عراكي مع التلاميذ».

في العام 1919 سيؤذن عُمر الحوراني بدخول المدرسة مع إخوته واصل وعبد الحليم؛ وكان أكرم يجلس بعقاله الفيصلي المُذهّب وكوفيته البيضاء وبزّته النظامية النظيفة مع أقرانه من عائلات الطبقتيْن العليا والوسطى؛ وفي مخيلّته ذكريات لطيفة عن مدرسة (دار العلم والتربية) التي أمر الأمير فيصل ببنائها تبرعاً

من جيبه الخاصّ دون أن يسمح بتسميتها باسمه؛ وسيتذكر الحوراني أسماء العديد من أساتذته: عثمان الحوراني، وعمر يحيى، وأحمد العبيسي، ومدرب الكشافة عبد الله مشنوق، كما سيتذكر من رفاق جيله صدّيق النعسان، وفايز الصابوني، وأكرم العاشق، ورفيق العظم، وأديب الشيشكلي... وآخرين.

كان وعي الحوراني لنفسه وخارجه قد جاء مبكراً مع طفولته؛ ربما لانتمائه لعائلة مُتّعلمة ومتنوّرة، أو لوجود واقع اجتماعيّ بائس، كما أن صور الأحداث التي يتناقلها الكبار؛ مثل الجو الحزين الذي خيّم على عموم العائلة إثرَ وفاة أبيه المبكر؛ أو مثل الجو المتكرر الذي شاع في سورية إثر إنذار غورو لحكومة الأمير فيصل في دمشق..

وفي هذه الأجواء سيتذكر الحوراني كيف قاد لفيفاً من أقرانه - ولم يجاوز التاسعة بعد - إلى محطة القطار في حماة؛ كي يتفرجّوا على موكب الأمير فيصل الذي كان على موعد مع زيارة المدينة؛ وفي جلسة خاصة (من كتاب أكرم الحوراني رجل للتاريخ) سيقول: «كنت ورفاقي الصغار في مُنتهى التأثر لمنظر الملك فيصل؛ فقد اكتست وجهَه شحوبة الكآبة، لكنه كان ينتزع ابتسامة لا يضنّ بها على مستقبليه، وقد بكينا يومها، لأننا سمعنا أن الفرنسيين سيدخلون سورية، لأن الثوار لا يملكون أسلحة وذخيرة ومؤناً، وعلى صغرنا فقد أدركنا يومها ضرورة أن تكون قوياً لانتزاع حقك كأمة».

كانت الأحداث مع تدرج الحوراني في العمر؛ وبعد دخول الفرنسيين دمشق إثر معركة ميسلون؛ واستشهاد يوسف العظمة في تموز عام 1920؛ تتصاعد لتشمل كلّ حضَرٍ وريف، ويتذكر الحوراني مثل حُلم في منام ثورَتَيْن كبيرتين في سورية؛ واحدة في جبال العلويين قادها الشيخ صالح العلي من العام 1920 إلى العام 1921، كما تزامنت هذه الثورة مع ثورة أخرى قادها الضابط العربي خريج الآستانة إبراهيم هنانو في حلب وجوارها؛ ولم يكتب النجاح لهاتين الثورتين؛ لانكسار التكافؤ وشح الموارد والتمويل، رغم أن المواطنين لم يضنوا بتقديم ما لديهم للثوار.

كان الحوارنيّ الذي تجاوز الثالثة عشرة لتوّه أصغر من أن يشكل إدراكاً شمولياً للحوادث التي تهز سورية من الشمال إلى الجنوب؛ فطفق يحفظ نصوص خطباء الوطنية السورية، كما يحفظ أبياتاً طويلة من الشعر الذي يطلقه شعراء من سورية وفلسطين والعراق ولبنان ومصر... «حتى خلتُ نفسي، أنني سأكون شاعراً» على حدٍّ قوله.

مع اندلاع الثورة في حماة في تشرين الأول من عام 1925؛ سيكون للحوراني دور الفتية في الثورات: (مراقبة تحركات الجيش الفرنسي، توزيع نشرات للوطنيين، إيصال محمولات خفيفة حاجة الثوار... الخ). وفي خريف 1928 كانت معارك حماة مع الفرنسيين من أشد المعارك شراسة؛ فقد تمكن الثوار من إزالة قوات جيش الشرق الفرنسي عن معظم استحكاماته ومراكزه ومخافره بقيادة الضابط العربي في الجيش الفرنسي فوزي القاوقجي؛ فيما استمر القتال من السابعة مساء إلى ما بعد الثانية ليلاً؛ وفي معرض التعليق على الثورة يذكر عثمان الحوراني مساعد القاوقجي الأيمن أنّ: ساعة صفر الثورة كان أذان العشاء، وشعارها: الله أكبر، وسيكون لاستشهاد الطبيب المحبوب صالح قنباز وقع الأسى في نفسية سكان حماة؛ فرغم استشهاد ما يزيد على ألف من الثوار والمدنيين؛ إلا أن استشهاد قنباز كان له وقع آخر، فقد خرج الطبيب من عيادته تحت أزيز الرصاص بلباس أبيض تخالطه بقع دماء؛ كي يسعف جريحاً في ساحة العاصي، فأرداه السنغال شهيداً فوق الجريح، ويكتب الحوراني فقرة محترمة في مذكراته تحكي شمائل الدكتور قنباز وسجاياه.

❖ ❖ ❖

بعد تخرج الحوراني من دار العلم والتربية (بالشهادة الثانوية الأولى التي تم إلغاؤها فيما بعد) استمزج الشاب الصغير رأي العائلة؛ وبصورة خاصة رأي ابن عم أبيه عثمان الحوراني الذي بات واحداً من أهم مُربّيه وأصدقائه بآنٍ واحد، ثم استقر الرأي أن يذهب إلى دمشق للالتحاق بمكتب عنبر؛ وهو ثانوية الحكومة الرئيسية في سورية، ويقع المكتب في منطقة اسمها مئذنة الشحم وسط العاصمة دمشق؛ وللأهمية فإن قادة سورية السياسيين ونوابها وأدباءها وأصحاب المهن العلمية كالطب والهندسة والرياضيات... كانوا جميعاً في تلك المرحلة من نتاج

مكتب عنبر؛ كما يمكننا القول أن التفتح السياسي المبكر الذي استحوزه أولئك الشباب ممن سيصبحون قادة أحزاب وجيش ومهن غاية في المستوى إنما تتلمذوا على أيدي المعلمين الكبار في مكتب عنبر؛ فيما ترافقت باكورة مراحلهم التدريسية لشباب الثانوية العليا مع واقع صريح في احتلال المنطقة على يد الإنكليز والفرنسيين؛ وكان ذلك يتزامن مع المرحلة الأولى من دراسة الحوراني في المكتب، فقد ابتدأ مع الفصل الدراسي مع خريف العام 1929، حيث تعم سورية من أقصاها إلى أقصاها حالة من السخط الشعبي العارم؛ لما خلّفته إدارة الانتداب من أوضاع اقتصادية وسياسية تمزيقية تبدّت في دويلات غورو السورية؛ مثل دولة لبنان الكبير، ودولة العلويين، ودولة دمشق، ودولة حلب، ودولة جبل الدروز، ثم صادف أنّ الدورات الزراعية (لأعوام الرمادة) في مرحلة المفوض السامي دوجوفنل، وخَلَفه المفوض السامي بونسو، كانت أقل من أن تقوم بأَوَدَ الشعب ونهب الاحتلال، وفي ظل هذه الأوضاع القاسية سيسافر الشاب أكرم الحوراني برفقة عمه مصطفى إلى دمشق بالقطار؛ وسيتعرف الحوراني على أصدقاء عمّه في مدرسة الحقوق؛ كالشاعر أمين نخلة والشاعر محمد البزم، ورغم شعوره بالغربة والحنين إلى الوطن الصغير، فإن الحوراني كان يتقصد الذهاب إلى الحفلات السياسية والمناسبات الوطنية؛ ليرى قادة الوطنية السورية آنذاك، مثل فوزي الغزي وهاشم الأتاسي وإبراهيم هنانو وشكري القوتلي وسعد الله الجابري وعبد الرحمن الكيالي وفارس الخوري... وغيرهم ممن سيشكلون قادة الهيئة السياسية الجديدة في سورية تحت اسم الكتلة الوطنية؛ وهي من بقايا حزب الاستقلال العربي (الفيصلي)؛ ومن الخارجين من حزب الشعب الذي سبق وأسسه الدكتور عبد الرحمن الشهبندر؛ وللملاحظة فإن أكرم الحوراني يومها كان إلى جانب الشهبندر، فيما كان عمه مصطفى إلى جانب الكتلة الوطنية.

في العام 1931 سيتخرج الحوراني من مكتب عنبر حيث تؤهله ثانويّته الانتساب إلى إحدى الجامعات؛ وكان قرارُه الالتحاق بالجامعة اليسوعية في بيروت بغرض دراسة الطب هناك؛ ولسبب ما فقد قرر الرجل العدول عن الطب؛ والعودة إلى سورية للالتحاق بمعهد الحقوق في جامعة دمشق؛ وكان لم يمضِ على وجوده في اليسوعية بضعة أشهر.

كان الحوراني يعيش جسداً في بيروت، لكن روحه كانت تعيش مع سورية وأحداثها الجسام فترة أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات حيث الانتخابات النيابية السورية على درجتين: الأولى في العشرين من كانون الأول لعام 1931؛ والدرجة الثانية في الخامس من كانون الثاني لعام 1932؛ وكان الاهتمام الأكبر الذي سيشغل طلبة اليسوعية ويشاغلهم رغم عمليات التزوير التي لجأ إليها الفرنسيون في معظم المدن السورية؛ ونشوب مظاهرات واعتصامات وعصيانات إلى درجة إطلاق الرصاص على المدنيين؛ فقد حصدت الكتلة الوطنية (المنادية بالاستقلال) معظم المقاعد النيابية بأكثرية تدعو إلى الإعجاب والغبطة.

كان الصراع في تفسير الحوراني وشباب اليسوعية بين مرشحي الحكومة الراضية ببقاء الانتداب، والمتفاهمة مع إدارته، وبين مرشحي الكتلة الوطنية المنادين بالحرية والاستقلال؛ وقد سبق لمحاكم غورو أن أطلقت أحكاماً بالإعدام ضد العديد منهم أوائل العشرينات؛ ويضيف الحوراني فارقاً آخر يقع في أس الإقطاعية حيث انتخبت أسرة البرازي الشاب حسني البرازي مرشح الحكومة؛ وتخلّت عن عميدها البارز نجيب آغا البرازي؛ لأنه كان مرشح الكتلة الوطنية المعارضة، وهكذا ليضم إلى زاوية نظره السياسية بُعداً اجتماعياً طبقياً؛ يراه في أسباب التخلف، بل نتيجة من نتائجه..

هذا وسيذكر المؤرخ فيليب خوري أن من أسباب رحيل الحوراني عن بيروت هو تلك المحاولة الفاشلة لاغتيال صبحي بركات رئيس المجلس النيابي السوري مع حكومة المديرين الفرنسية؛ ويشرح الحوراني الواقعة في مذكراته، بأنه اتفق وصديق سوري من حمص اسمه عبد الباسط البني، كان يدرس الطب في اليسوعية، على اغتيال بركات الذي يزور بيروت، وينزل في فندق رويال المعروف، وقد تنافس الحوراني مع البني على مَنْ يقوم بعملية الاغتيال، فوقعت القرعة على البني ثلاث مرّات، لأن الحوراني ظل يرفض نتيجة القرعة مرتين متتاليتين، وقد استشهد البني في المحاولة نتيجة لاستعصاء المسدس؛ فمجّدت صحف دمشق وبيروت عظيم العمل الذي قام به الفدائي الشهيد؛ كما أقام المُصلّون في دمشق صلاة الغائب على روحه؛ ثم بدأت الصحف الموالية للانتداب في سورية ولبنان تتحدث عن شريك البني في المحاولة؛ فوصفت الحوراني وهو يستطلع محيط الفندق قبل المحاولة!..

كان الحوراني حادَّ الطبع، عصبي المزاج، صاحب ابتسامة مشوبة بالمرارة، ولعلها انعكاس البيئة في نشأته، ولم يكن في هذه الطبيعة ما يشي بعقدة معيشية؛ فقد نشأ الحوراني في كنف أسرة موسرة ومتعلمة؛ أي في إطار طبقة وسطى واعية لم يطلها الإملاق؛ فحين تستطيع أسرة حموية إرسال ابنها أواخر العشرينات كي يدرس في دمشق وبيروت؛ فإنها أسرة لا تشكو من معسرة، وفي هذا ما يجعل الاحتمال ممكناً، فالحوراني أحد أبناء الطبقة الوسطى المتعلمة، كان منذ سني طفولته وشبابه مهجوساً بما هو عام؛ إذ لم نعثر على ضجيج غواية مراهقة، ولا هوىً شبابي خاصّ في مذكراته المُسهبة والباعثة على الضجر؛ وفي موسوعية تفاصيل تقع في ثلاثة آلاف وستمئة صفحة كبيرة موزعة على أربعة أجزاء؛ كان الحوراني من الشباب المنفعل، أمام مَشهدين: فلسطين والفلاح، فقد راعه مع الإضراب الشعبي الماراثوني عام 1936 أنّ فلسطين تتهود؛ وأثناء عودته من العراق إلى سورية إثر إخفاق ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941؛ سيُصعق الحوراني لمرأى خمسة آلاف قرية سورية يسكنها الجن والمرض والجوع..

كان بعد أن تخرج من كلية الحقوق في جامعة دمشق عام 1936 قد عاد أدراجه إلى حماة؛ وهو يحمل أقصوصة من مجلّة المعرض، كان سرور البارودي من أصدقاء طفولته في دار العلم والتربية قد أعطاها له في دمشق؛ وكان عدد المجلة مخصصاً للتبشير بولادة حزب جديد مع التعريف بمبادئه؛ ألا وهو الحزب السوري القومي، ثم انبهر الشاب بمقاطع مدوّية: (سورية للسوريين)، (والسوريون أمة تامة) وهي (قضية مستقلة بذاتها) أما حدود الوطن السوري فهي كما عرّفها المؤتمر السوري الأول الذي عقده الملك فيصل الأول: (أنّها تمتد من جبال طوروس شمالاً إلى العقبة جنوباً ومن المتوسط غرباً إلى العراق شرقاً).

لقد أغضب هذا الحزب (كلَّ مصلحة يمكن تصورها في المنطقة، فقد أوجد اتجاهه العلماني كَرَهاً له في الجامع والكنيسة؛ وضمن له تشديده على فلسطين عداوة الصهيونية العالمية والحكومة البريطانية؛ وجعله اعتقاده باتحاد رأس المال والعمل عدواً للشيوعيين؛ وأدت معارضته لانفصال لبنان عن سورية إلى غضب المارونية السياسية؛ كما عملت مقاومته للمحتلين الفرنّسيين في لبنان إلى ملاحقة سلطات الانتداب لشبابه..). ويبدو أن الشاب العائد إلى حماة قد عثر على خشبة

خلاصه؛ فالحوراني إضافة إلى إعجابه بالإيديولوجيا كان مغرماً بقواعد الأسس التنظيمية الصارمة في الحزب؛ ويقول الحوراني في مذكراته، إنه سبق له أن ناقش صديقه سرور البارودي فيما كان يشغله في عقيدة القومية السورية؛ وسبب انفصالها عن القومية العربية، وكانت الإجابة سريعة لكنها مقنعة؛ لأن قيام الوحدة السورية مرحليّ، وهو المقدمة الأساس لقيام الوحدة العربية، وفي ملاحظة إضافية من ديزموند ستيوارت يقول: «لقد عصفت القومية المتطرفة والتنظيم شبه العسكري ذو الألبسة الموحدة والصفوف المنتظمة مع أداء التحية الشبيهة بالتحية النازية؛ بخيال الشباب الذي ظل يشعر بالذل والهوان لمرأى الجيوش الأجنبية؛ وهي تحتل بلاده وتعيث فيها فساداً فوق فساد؛ إنّ كثيرين من الرجال الذين سيكون لهم أعظم الأدوار في المنطقة؛ كانوا قد أمضوا قسطاً وافراً من مراهقاتهم السياسية داخل هذا الحزب..».

وفي كتابه عن الصراع في سورية، يأتي باتريك سيل على واقعة انضمام الحوراني للحزب السوري القومي؛ فيقول: لقد وجد الحوراني ضالّته المنشودة في السوري القومي؛ لأن هذا الحزب يعكس طبيعته العُنفية، ففي تشكيلات الحزب النظرية ما يُبشر بفضيلة العمل والتضحية؛ وفي ذلك ما يتناسب وطبيعة الحوراني ونفسّيته؛ فالحوراني رجل عمل لا فكر، ومن المشكوك أنه اعتنق إيديولوجية سعادة بأكثر من إعجابه بأنساق تنظيماته..).

أما المؤرخ فيليب خوري فإنه يرجع اتصال الحوراني بالسوري القومي إلى أيام دراسته في لبنان؛ كما يرجع محاولة اغتيال بركات إلى تأثر الحوراني بأفكار الحزب الثورية؛ ومع ذلك فإن من مذكرات الحوراني ما يشي بالاهتمام بهذا الحزب؛ ومداومة الإطلاع على أدبياته في بيروت.

لم تكن التشكيلات شبه العسكرية في المنطقة حكراً على السوري القومي؛ كما لم تكن الأدبيات الداعية إلى الضرب بقوة الصاعقة بما فيها مبدأ الاغتيال الفردي وقفاً على الحزب المذكور؛ فقد كان هناك الجهاز السرّي للإخوان المسلمين في مصر، وهو منظمة شبه عسكرية ومتخفّية سبق لها أن مارست الاغتيال؛ كما كان في سورية منظمة شبيهة تحمل اسم منظمة القمصان الحديدية؛ ويقال إنَّ قريبَيْن للحوراني هما هادي ومصطفى الحوراني كانا من قيادة هذه المنظمة؛

كذلك هي منظمة الكتائب اللبنانية حين استهلّت دخولها إلى الساحة بكتائب رياضية وكشفيّة، فإذا بها تتحول على يد الشيخ الصيدلاني بيير الجميّل إلى كتائب سياسية متطرفة؛ لا تشكو هي الأخرى قلّة السلاح، كذلك هو الحزب التعاوني لفيصل العسلي في سورية.

كان التطرف يصبغ وجه المنطقة، فالعالم كان يستعد للتذابح في تلك المرحلة، فإضافة إلى شيوع أفكار الفاشية والنازية كان هناك إرهاصات لأفكار شيوعية ـ ستالينية؛ يقابلها أفكار شوفينية ـ قومية، فيما يتهيأ الإسلام السياسي لامتشاق السيف ورباط الخيل من جديد..

ولم يكن حمل السلاح من منظمات حزبية من الإشارات السلبية يومذاك؛ لكن ما حدث في حماة (مدينة السلاح للجميع) كان شيئاً آخر، فقد تعرض السوري القومي على يد تيارات إسلامية وعروبية متشددة إلى حملات قمع وعنف، مما اضطر العديد من شباب الحزب لإعلان التوبة والانسحاب؛ ومن أجل صدق النية في الانسحاب فإنه يتوجّبُ حَلْف اليمين على القرآن؛ وبذلك تكون أوضاع السوري القومي في حماة قد تضعضعت وأصابها العطب.

وفي أواخر شهر آب من العام 1937 سيحل الزعيم أنطون سعادة ضيفاً على آل الشيشكلي في حماة؛ وستكون البادئة إعادة تنظيم الحزب في المدينة؛ بعد أن اعتراه الوهن نتيجة عُنفية الحملات ضدّه؛ كان الحوراني المتواجد عن مُنفّذية حماة قد استبد به القلق نتيجة لإشكالات داخلية حزبية تتصل بقصر الايدولوجيا على (الأمة السورية)؛ كذلك على معنى التوحيد بين رأس المال والعمل، وهي إشكالات لم يجد أجوبة شافية لها داخل الأنساق العقائدية لفكر سعادة؛ وقد أشار المؤرخ الأمريكي جوناثان أوين صاحب أطروحة الدكتوراة عن تاريخ أكرم الحوراني ما بين 1947 و1955 بأن الحوراني: «كان يجد شيئاً من الضبابية وضرباً من ضروب التوفيقية بين رأس المال والعمل في حزب سعادة الذي ينتمي إليه؛ وبهذا المعنى فإن الحوراني كان أشد حسماً وراديكالية في المسألة الطبقية؛ من حيث أصبح داعية اشتراكيّاً بامتياز». سيعلن الحوراني في حضور الزعيم سعادة اعتذاره النهائي عن الاستمرار بالحزب؛ وسيعلن أمام الحضور انسحابه منه، وفي تفسير سياسي لاحق سينتقد الحوراني الأحزاب التي تولد من فوق منطلقة من إشعاعات

فكر نخبوية؛ حيث يعتري العطب أوصالها نتيجة تراكم عزلتها عن الواقع الجماهيري؛ فيما تظل تدور داخل عالم الكلمات والإنشائيات التأمّلية. ويصفه الدكتور سامي الجندي وهو أحد الرواد الأوائل في تأسيس البعث بقوله: «كان من الرجال القلائل الذين ينكبون على مراجعة تجاربهم، ولا يغيب عنه الواقع، إنه يتشبّث به ويستمد منه التحليل».

في الفضاء السياسي للأحداث في سورية كانت المرحلة تؤذن بالخيبة؛ فهناك إجهاض الثورة في العام 1936، وهناك نكول فرنسي عن تصديق المعاهدة السورية ـ الفرنسية رغم ما يعتريها من عيوب؛ وهناك ازدياد في تحكم الإقطاع عن طريق نفوذ الكتلة الوطنية؛ مما دفع إلى التفكير بخلق حالة جديدة، فمع نهاية العام 1937 كانت تتبلور فكرة ما عن تأسيس حزب جديد؛ يتسم بتشكيلٍ سري (ثوري)؛ وعلى السطح بتشكيل علني قانوني. وهكذا ولد حزب الشباب من مبادرة ثلاثية تشمل أسماء: عثمان الحوراني وأكرم الحوراني والمحامي بدر الدين علوش. وقد حظي الحزب ـ رغم حدوده المحلية- بشعبية واسعة، لا بحكم ما يتمتع به زعيمه (عثمان الحوراني) من سمعة ذاتية ونضالية فحسب (كان الرجل الثاني بعد القاوقجي في ثورة حماة 1925)؛ بل لأن ما صاغه أكرم الحوراني وبدر علوش من برنامج للحزب كان يحظى بتأييد شبابي واسع النطاق.

كان الانضمام على أساس البرنامج علامة وعي مبكرة بالنسبة لشباب لم يتخطوا الخامسة والعشرين من أعمارهم؛ فقد أشار البرنامج في مواده الثمانية عشرة إلى مجموعة أفكار متقدمة على زمانها؛ ومنها على سبيل المثال:

- الأمة العربية أمة واحدة بروابط التاريخ واللغة والاقتصاد...
- الوطن العربي هو كل أرض سكنها العرب تاريخياً، ونشروا فيها لغتهم، وطبعوها بطابعهم المتصل على مر العصور.
- غاية الحزب النضال من أجل هدم الحواجز الطائفية والعرقية والمذهبية و(الطبقية)..
- القضاء على الفساد في النظم الإقليمية والاقتصادية والاجتماعية القائمة.
- يستلهم الحزب الديمقراطية كمصدر أقوى من مصادر التقدم والمنعة واحترام الرأي الآخر.

- يؤمن الحزب بقوة بمبادئ (العدالة الاجتماعية)، حيث يتحقق ذلك بالقضاء على الإقطاع والألقاب والمراتب الصنعية، والعمل هو أعلى قيمة في المجتمع.
- يؤمن الحزب برفع مستوى المرأة وتحريرها من قيود الأسر والجهل والخرافة والعبودية.
- التعليم الابتدائيّ إلزامي، ويقع على عاتق الدولة مسؤولية تطبيقه، والإنفاق عليه كي يكون مجانياً وشاملاً.

وهناك موادّ أخرى يراها الحزب في ضرورات مجتمعية، كتحديد السقف الأعلى لملكية الأراضي للأفراد، وواجب تجفيف المستنقعات، وتشجيع التوازن في الهجرة السكانية الداخلية.

مع ولادة الحزب الجديد مجابهاتٌ متوقعة مع قيادات الكتلة الوطنية في حماة ستكون عند أول الطريق؛ ففي الثالث من نيسان عام 1939 سيعلن المذياع نبأً مفاجئاً وغامضاً عن وفاة الملك غازي في حادث سيارة؛ وستتقاطر الحلقات الشعبية الحموية التي صدمها وقع النبأ الأليم؛ وقد عزا حزب الشباب الحادثة لأسباب سياسية تآمرية؛ ذلك أنهم نظروا للملك غازي كداعية أول من دعاة تحرير سورية من الاستعمار الفرنسي؛ وفي مناسبة (أربعين الملك غازي) ستعود الحلقات إلى انتشارها وتراصّها؛ فيما كان المشهد ينذر بمصادمات لا تحمد عقباها؛ فمن جهة كان شباب وطلاب ومجاهدون، وعلى الضفة الأخرى كان يتجمع (قبضايات الإقطاع) وعلى رأسهم شيخ شباب اتصف بمهارة التحريض والخطابة: رئيف الملقي، فقد نزل إلى الساحة يحفه زعماء الأحياء الشعبية ممن عُرفتْ عنهم صفات الجرأة والعدوانية والتهور؛ وما هي إلا دقائق حتى كانت الحلقات تشتبك بالعصي والمدي والمسدسات.. ثم اكتفى المشهد بالجرحى دون القتلى نظراً لتدخل رجال الدرك والشرطة بشكل حاسم وسريع؛ فيما ستساق رؤوس الحلقات إلى السجن.

كانت هي المرة الأولى التي يدخل فيها الحوراني السجن لمدة خمسة عشر يوماً؛ سيتعرف الشاب على أوضاع السجون والمعتقلين لأسباب جنائية أو سياسية؛ كما سيتعرف على حجم المهانة التي يتلقاها الإنسان في وطنه!..

كانت حماة من الناحية السياسية الواقعية قد انشطرت إلى ثلاث مجموعات رئيسية؛ تتمثل أُولاها بالكتلة الوطنية التي يتزعمها الدكتور المستنير توفيق الشيشكلي؛ وهي شعبية متنورة غلب على زعيمها فضيلة الإرشاد والحض على تلقف المعرفة والعلم؛ ومجموعة ثانية تتمثل بالكتلة الوطنية أيضاً، لكنها تحظى بتأييد إقطاعية مغرقة، ويتزعمها الوجيه الإقطاعي السيد نجيب آغا البرازي؛ ثم وجهة ثالثة تتمثل بقيادة حزب الشباب والطلاب والمتنورين من رجال الدين (الإسلامي والمسيحي)، وسوف نرى أن هذه القيادة الشابة ستلتقي مع فرع الكتلة الوطنية التي يتزعمها الدكتور توفيق الشيشكلي في العديد من المواقف والأفكار.

هذا وستغذي واقعة اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر - صيف العام 1940 في دمشق - ينابيع المواجهات من جديد؛ ذلك أن الشائعات التي طافت سورية ظلت تقول بأن الكتلة الوطنية كانت وراء الاغتيال؛ وباستثارة رجال دين متطرفين يضعون الشهبندر على جادة الإلحاد بصفته داعية سفور للمرأة؛ وقد وَقَع الخبر في منزلة الصاعقة بالنسبة لأكرم الحوراني؛ فبكى هو وصديقه الأستاذ هاني السباعي الذي كان يزوره في مكتبه للمحاماة.

في فصل الربيع من العام 1941 كان العراق قد وصل إلى أسوأ أوضاعه على يد الإنكليز وسياسات الوصي وحكومات نوري السعيد المتعاقبة؛ وبناء على ضغط شعبي واسع وتأييد الجيش، فقد أُسندت رئاسة الحكومة إلى رشيد عالي الكيلاني، وهو من أسرة عراقية عريقة موزعة في أرجاء العراق وبلاد الشام؛ وبسبب من تداعيات الحرب العالمية وسقوط باريس تحت الاحتلال الألماني، فقد عمدت الإدارة العسكرية البريطانية في العراق إلى المسايرة والقبول بالحكومة العراقية الجديدة؛ لكن حكومة الكيلاني رفضت أن يكون العراق طرفاً إلى جانب الحلفاء في الصراع العالمي الدائر؛ بل وأكدت التزامها بسياسة الحياد بين الأطراف المتحاربة؛ وأعلنت عدم استعدادها لتحويل العراق إلى ثكنة حربية بريطانية؛ كما اشترطت في استبدال القطعات العسكرية البريطانية ألا تحل قطعة جديدة إلا بعد استكمال رحيل قطعة قديمة.

وبطبيعة الحال فقد اعتبرت بريطانيا هذا التمسك من حكومة الكيلاني بمثابة العصيان؛ ثم انهمرت دعايات الإعلام البريطاني تعم المنطقة بأسرها بأن الكيلاني حليف للنازية؛ وأن المحور هو الذي أوصله لهذا المنصب، ولم يعد أمام الكيلاني في وجه شراسة الهجوم الإعلامي البريطاني إلاّ أن يتمسك بموقفه داعياً الشعب والجيش للوقوف ضد اللعب بمصير العراق ومستقبله؛ مما أثار حفيظة الجيش البريطاني الذي خرج من ثكناته يريد احتلال بغداد من جديد؛ فتصدّت له تشكيلات عسكرية - مدنية مسلحة، ودارت رحى معارك في كل مكان، وقد صمدت الثورة التي اندلعت في الثاني من أيار 1941 مدة شهر كامل، اشترك فيها كل عربي قادر.

(لم تكن القطيعة العربية بحكم تقسيمات سايكس - بيكو قد أنشبت أظفارها بعد؛ هكذا لتجد المقاتل الفلسطيني عبد القادر الحسيني، والمحارب اللبناني فوزي القاوقجي، وصنوه المدني المعروف سعد، والمناضل السوري أكرم الحوراني، واللاجئ الإسكندورني سليمان العيسى، والقانوني المصري السنهوري ورفاقه عزام ومبارك... جنباً إلى جنب في ميادين القتال؛ لاسترداد الدَوْر والكرامة.

لقد التحق أكرم الحوراني بصحبة أربعين رجلاً من شباب حزبه ومدينته بثورة الكيلاني العراقية؛ لكن العدد الذي سيحصيه في السجون الفرنسية بعد فشل الثورة (سجون دير الزور وحلب) كان يشير إلى ما يزيد على ستمئة عربي جاؤوا إلى العراق لمناصرة الثورة هناك؛ كانت مشقة السفر بوسائط بدائية، من حماة إلى البادية، ومنه إلى البوكمال، فإلى عانه وحديثة وتكريت وسامرّاء وصولاً إلى بغداد؛ أصعب من أن توصف، وفي طريق الإياب ستحدث مشادة صاخبة بين الحوراني ومحافظ كركوك، لأن الأخير نفى أن يكون العراق عربياً!.

❖ ❖ ❖

كانت المحطة التالية التي نقلت الحوراني من موقع المعارضة الشعبية إلى موقع المعارضة المؤسساتية هي تلك الماثلة في انتخابات العام 1943 للمجلس النيابي السوري، وما من ريب أنّ الأمنية في الفوز كانت أقرب إلى قطف المستحيل؛ فقد تحدد دور الحوراني السياسي منذ البداية من حيث هو جهاراً مع قضية الفلاحين؛ والثائر ضد علاقات المُلكية القائمة على أسس قروسطية؛ ويكتب

الصحفي والكاتب الفرنسي أريك رولو تحقيقاً لصالح جريدة لوموند الفرنسية (عدد 16 تشرين الأول 1966)؛ يصنّف فيه الحياة الاجتماعية وسط سورية، فيقول: «في حماة كان الإقطاعي يملك حتى ثلاثين قرية، أما ملكيته الزراعية فيمكن أن تكون بين عشرة آلاف وخمسين ألف هكتار، فيما يُعامَل الفلاحون معاملة العبيد»، ويذكر جوناثان أوين على لسان الكاتبة الأمريكية إيفا غارزوسي في حولية الشرق الأوسط شتاء وربيع العام 1963 حيث تقول: «حتى العام 1958 فإن خمساً وأربعين بالمئة من أفضل الأراضي المروية، بقيت في يد اثنين بالمئة من كبار الملاكين القدامى».

وأمام هذا الواقع الحياتي لم تكن (النظرية) هي السلاح الحاسم في الصراع؛ فالنسبة العظمى من الفلاحين لا تعرف القراءة والكتابة؛ فكيف هي مع التنظير والنظريات، ولم يكن أمام الحوراني وحزبه الناشئ من خيار سوى خيار العمل في أوساط الفلاحين؛ فالموقف كان يقتضي التصدي لكل ما هو قائم؛ وقد برهن أنه يمكن أن يصلح كقدوة، حتى لو اضطر وصحبه إلى حمل السلاح. كانت المعركة الانتخابية قاسية إلى حدود إهراق الدم؛ فحي الحاضر بزعامته الإقطاعية يهيئ هجوماً مسلحاً ضد حي السوق؛ الأمر الذي استدعى قرع الطبول في حي العليليّات الشعبي؛ وكادت حماة أن تذهب إلى مذبحة مروعة، ومن المفارقات الغريبة أن رئيف الملقي عدو الأمس وحليف اليوم كان على قائمة شعبية واحدة مع الحوراني؛ وكانت إرهاصات هذه الأجواء المنذرة بأوخم العواقب تصل إلى زعامات الكتلة الوطنية في دمشق وحلب، وقد كفَّتْ الكتلة عن لعب دور المُحرّض ضد القائمة الشعبية (المؤلفة من رئيف الملقي وأكرم الحوراني)؛ وارتضت حكمة العقلاء في حماة، حيث تمت الموافقة على لجنة تحكيم بهدف التسوية، ثم أظهرت لجنة التحكيم التي اتخذت تسمية (لجنة الإصلاح) قدْراً كافياً من التوازن والعقلنة؛ لاسيّما وأن من رؤوسها رجُلَيْن يحظيان باحترام جامع؛ هما الأستاذ المصلح الشيخ سعيد النعسان رجل العلم والثقافة والتفتح؛ ثم المطران صاحب القضايا الوطنية والشعبية المعروف أغناطيوس حريكة، هذا وستُفتي اللجنة بقائمة ائتلافية تضم النقيضَيْن، الأمر الذي استدعى من الحوراني موقفاً رافضاً؛ لكن إصرار الشيخ النعسان والمطران حريكة أثنياه عن رفضه؛ ثم أذيعت أسماء القائمة على النحو

التالي: نجيب البرازي، رئيف الملقي، غالب العظم، أكرم الحوراني، فريد مرهج.. وما هي إلا ساعات حتى جاءت برقية المباركة من الرئيس القوتلي في دمشق؛ فأصبحت المعركة مُنتهية، وتحت قبة البرلمان سيخوض الحوراني وحيداً معارك قاسية ذات صلة بالأوضاع الشعبية ضد تواجد القوات الفرنسية؛ كذلك الأوضاع الحكومية والمالية والبرلمانية والعسكرية؛ فضلاً عن معارك ذات صلة خصوصية بالأوضاع الاجتماعية، فضلاً عن سجالات نارية ذات صلة بالأوضاع القومية؛ ولاسيّما قضية الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

كانت انتخابات العام 1947 (تموز) أقل حدة من سابقتها، ومع ذلك فإن الحوراني أمام عبد الرحمن العظم والشيخ محمود الشقفة والدكتور محمد السراج والمحامي رئيف الملقي؛ كان قد حصد أعلى الأصوات حين جاء ترتيبه الأول على جميع القوائم الانتخابية.

في المجلس النيابي الجديد برئاسة السيد فارس الخوري؛ سيشعر الحوراني بعدم الفائدة من استمراره في هذا المجلس؛ ففي حين يصدر قرار تقسيم فلسطين (1 أيلول 1947)؛ فإن المجلس يأخذ طريقه إلى مناورات تعديل الدستور، وتجديد الولاية لرئيس البلاد، فيما تصدر صرخات مناسباتية على صعيد الكلام، وفتور واقعيٍ على صعيد الفعل، إذ لا شيء للقضية الفلسطينية التي تحفها المخاطر من كل جانب؛ ولا شيء للتحرر العربي الذي يبدأ بمنظور الحوراني من قضية فلسطين، ويمر عبرها.

كانت فلسطين بالنسبة للحوراني تشكل بداية وعيه السياسي على العالم الخارجي؛ وقد أدرك في سن النضج مخاطر المفارقة بين وضع طارئ (احتلالي واستعماري) كما في سورية؛ ووضع حلولي استيطاني تصبح فلسطين بموجبه لشعب آخر.

ومن محاضر مجلس النواب بتاريخ 1947/12/1 سنعثر على الكلمة الوداعية التالية:

«أيها السادة النواب...

مَنْ المسؤول عن هذه الكارثة الفظيعة التي حلت بالعرب في فلسطين؟ أهُمْ أولئك الذين أغرقونا بهول الكلمة النارية، أم القادة الكبار الذين لم يعدّوا العدة ليوم مشؤوم؟ أليس من مسؤولياتكم إعداد العدة والتجنيد والإعداد والتدريب، كي نحول دون ضياع فلسطين النهائي...؟»

ومثلما فعل يوم ذهب إلى العراق، خرج من المجلس عائداً إلى حماة يفتش عن بارودته؛ وعن الذين نذروا أنفسهم فداءً للأرض المقدسة، فكان لواء بدر أعقبه لواء سعيد العاص، وستنشر جريدة اليقظة الناطقة باسم حزب الشباب رسائل من فلسطين: «إنني واثق حتى النهاية بأن المعركة هنا أكثر شرفاً من أية معركة أخرى؛ إنني أستنكر ألا يحمل مواطن ومواطنة معوله ورفشه بل وسكين مطبخه، وينتقل إلى أرض فلسطين».

في التاسع عشر من نيسان 1948 ستنشر جريدة القبس الدمشقية خبراً يقول: «وصل إلى دمشق مساء أمس عائداً من ميادين الجهاد نائب حماة الجريء الأستاذ أكرم الحوراني؛ وقد زاره كثيرون للوقوف على حقيقة ما يجري في أرض الجهاد فلسطين».

كان الحوراني قد أتمَّ شهره الخامس عند مستعمرات عكا وصفد وطبريا.. «لا مناص من تنفيذ قرار المجموع، فقد أشار المجاهدون ضرورة العودة إلى دمشق، وشرح الأحوال أمام المجلس بكل ما يجري دون أوهام أو تزويق؛ فأنت لا تستطيع تحمّل مسؤولية الناس، وهم يموتون هنا بسبب فقدانهم الذخيرة والمؤن والدواء.. بشكل شبه تام».

في الفاصل الزمني الوجيز بين عودة الحوراني، وقرار دخول القوات النظامية العربية في أيار 1948؛ كان الطلب إلى المجاهدين أن يسلموا مواقعهم لقادة الجيوش من الضباط؛ ويخلوا الطريق!..

❖ ❖ ❖

ستترك كارثة فلسطين جرحاً غائراً في جسد الأمة، وسوف تتراشق الأطراف اتّهامات متبادلة إلى درجة الوصف بالخيانة، فالجيوش تتهم الأنظمة، والأنظمة تقول بتقاعس كبار الضباط، وفي جميع الأحوال فإن الكارثة تسببت بسخط شعبي

لا مثيل له ضد الأنظمة السياسية بصورة عامة، وكان الناس على استعداد لقبول أي اتهام، بل والمطالبة بالقضاء على هذه الأنظمة المسؤولة عن سياسات المحسوبية والفساد؛ فضلاً عن التقاعس الخطير، مما أدى إلى انتصار إسرائيل ضد خمسة جيوش عربية مجتمعة.

وكان الجيش هو المؤسسة الوحيدة القادرة على إجراء التغيير المنشود، ومن الآن فصاعداً سوف يصبح اسم فلسطين على (بلاغات) الانقلابات العسكرية المتتالية كزخّ المطر. في الواقع السياسي والاجتماعي لتلك المرحلة، فإنه ما من شيء إلا ويدعو إلى الخيبة، وسيقول خالد العظم رئيس الوزارة الذي اعتقله حسني الزعيم مع رئيس الجمهورية في مذكراته مايلي:

«إنني لا أنكر سوء الحالة بشكل عام في البلاد، ورغبة الشعب الحقيقية في التخلص من القائمين على الحكم، غير أن سوء الحالة لم يكن هو الدافع الحقيقي وراء الانقلاب؛ فالزعيم ضابط أحمق، كان يستحث الخطى في سبيل التخلص من المحاكمة التي كانت تنتظره بتهمة تقاضي الرشوة والفساد في الجيش؛ كذلك بتهمة اتصالات سرية مع الخارج»، وهذه الأخيرة سيؤكدها مايلز كوبلاند مسؤول المخابرات الأمريكية في كتابه الشهير: لعبة الأمم حيث يقول: «... ثم انتهينا إلى نتيجتين بخصوص سورية، فهي مقبلة إما على ثورة دموية مسلحة يقودها الاشتراكيون على رأسهم غوغائي حماة؛ أو حركة عسكرية بدعم سري منا، وبالطبع فقد كنا مع خيارنا، لقد كان انقلاب الزعيم من إعدادنا وتخطيطنا، وقد حافظ الانقلاب - كما رسمنا له - على صبغة وطنية سورية أمام الجمهور».

كانت المنطقة هنا - بعد حرب عالمية عاتية ومدمرة - تؤذن بخروج قوة عظمى آلت إلى التآكل، ودخول قوة عظمى فتية، لم تنل منها الحرب إلا القليل، لكن قواعد اللعبة الجديدة ستختلف، وستختلف معها ساحات ملاعب ولاعبين، فالقوس النفطي الناجي من حراك جماهيري صاخب سيبقى خارج الفعاليات الانقلابية، إذ ليس من المعقول أن تجنح السياسات الأمريكية الجديدة إلى قلب نظام المملكة العربية السعودية؛ وقد حظيت شركتها النفطية المعتمدة (ستاندود أويل أوف كاليفورنيا) عام 1933 بعقد لاستثمار البترول (في مساحة 932 ألف كيلو متر مربع من أراضي السعودية؛ ولمدة 66 عاماً مقابل مئة ألف من الجنيهات).

أما في صدر المتوسط (ولاحقاً مصر) فإن الأمر يختلف، إذ ليس على صعيد المؤامرة فحسب، فإن الولايات المتحدة في سياساتها الخارجية بعيداً عن مشروع مارشال، كانت ترى في منطقتنا منطقة غافية في القرون، وأن المصالح الاستراتيجية والاقتصادية تتطلب نوعاً من الحداثة النسبية للدخول في عصر التبادل والتفاهم؛ فكما أريد لليابان وألمانيا وفرنسا وإيطاليا أن تكون ورشات عمل للشركات الأمريكية العملاقة (مشروع مارشال) فإن المنطقة العربية بحاجة ماسة لهذه النقلة اللازمة للتغيير، وكان هناك اعتبارات تتصل بضرورة استبدال الآليات التقليدية ذات الصلة التاريخية بالقرن الاستعماري البريطاني، ثم كانت الفرصة سانحة لوقوع الطلاق بين جماهير ساخطة بسبب إضاعة فلسطين؛ وأنظمة ساعية للتبرؤ منها، ثم كانت السياسة المنبثقة عن (ذهنية المأزق) الأمريكية التاريخية، حين ظل جون فوستر دالس وزير الخارجية يقرع على طبول وقوع سورية في براثن الشيوعية العالمية وحالات ذرائعية أخرى...

وفي سبيل استراتيجية التغيير وبسببها، فقد انداحت تنظيرات أكاديمية أمريكية، تقول بأن الجيش هو أداة التغيير الوحيدة في المنطقة، فبالنظر إلى فوات المجتمعات الفظيع، وبالنظر إلى رسوخ التخلف وستاتيكية التطور فإن الرافعة ستكون في الطبقة الجديدة؛ وإن الشرق مجتمع جديد يبنيه العسكريون إذ لا وجود لطبقات.

كانت مشكلة الحوراني أنه يعرف العديد من ضباط الجيش لأسباب تاريخية وموضوعية؛ ففي العراق مع ثورة الكيلاني كان قد تعرف على العديد منهم؛ وفي فلسطين سيتعرف على عدد أكبر، وقد زاد في المعرفة والتعارف أنّ الحوراني سيشغل مركز المقرر في اللجنة النيابية التي أنشأها المجلس النيابي السوري؛ بهدف دراسة أوضاع وزارة الدفاع، (والتحقيق بأسباب الهزيمة أمام إسرائيل)، وبحسب المادة 124 فإنه: «يحق للجنة استدعاء أيّ شخص مدني أو عسكري، مهما كانت صفته، إذا كان ثمة فائدة من سماع أقواله؛ فإذا امتنع فإنه يحق للجنة رفع طلب إلى رئيس المجلس من أجل مخاطبة وزير العدلية لرفع الدعوى ضده».

ونظراً لشهرة الحوراني كونه النائب الذي حمل البارودة إلى فلسطين؛ كما حمل مواقف اعتراضية ضد الحكم، فإن العديد من الضباط (على رأسهم حسني الزعيم رئيس الأركان)، كانوا يهرعون لملاقاة الحوراني، والهمس في أذنه عن نوايا

ودودة إليه، وأخرى ساخطة ضد فساد النظام ومحسوبياته. «كانوا يظنون أنني سأكون واحداً منهم، كوني على خط المعارضة ضد مساوئ الرئاسة والحكومات». بتاريخ 30 آذار 1949؛ أي مع صبيحة وقوع انقلاب الزعيم بالضبط ستطلق المفوضية الأمريكية (السفارة)، أن الحوراني يقف وراء انقلاب الزعيم، وسيكون لهذه الشائعة فعل النار بالهشيم، فقد أشارت البرقية ذات الرقم 171 المودعة في (ملف الوثائق رقم 890 المفرج عنه في آذار عام 1959 . من الأرشيف القومي الأمريكي) إلى ما هو بالحرف: «إنّ الحوراني هو من حاشية الزعيم، فهو الذي يكتب له بياناته وتصريحاته وإن غوغائي حماة؛ سيستقر أخيراً في الحكومة التي سيشكلها حسني الزعيم» وحسب تاريخ الحكومات في سورية فإن الزعيم لم يشكل حكومة، بل مجلساً لأمناء عامين يحلون محل وزراء، ومن المفارقة أن الحوراني لم يكن واحداً منهم، ولا حتى في وزارات الزعيم اللاحقة، هذا وسيخلط الخالطون أكرم الحوراني مع اسم أسعد الكوراني الذي جاء أميناً عاماً (أي وزيراً) لوزارة العدل في حينه.

لقد كان صاحب الاتهام بانقلاب الزعيم يغطُّ في نومه (في بيته الكائن في زقاق الصخر بدمشق)؛ عندما استفاق على قرع جنوني على الباب؛ ليجد في وجهه ضابطاً من الشرطة العسكرية، تقف خلفه سيارة جيب تقل جنوداً من الشرطة العسكرية، ثم حصل أن سيق الحوراني بعد السماح له بارتداء ملابسه إلى مقر الشرطة العسكرية وسط شارع النصر القريب من محطة الحجاز؛ وكان أول من صادفه هناك هو المقدم أديب الشيشكلي؛ وقد سأله الحوراني عما يجري، فأجاب بهمس: «لقد قام هذا المجنون بانقلاب عسكري، هل توافقني على اعتقاله» وما إن أنهى الشيشكلي كلامه حتى خرج الزعيم ليشرح في موعظة مطولة ما آلت إليه أحوال البلاد والعباد؛ وكان العديد من نواب المعارضة الذين تم استدعاؤهم للغاية نفسها يستمعون إليه.

لقد حافظ الحوراني على مسافة مع الزعيم، وكان الوحيد الذي يتحدث أمامه بجرأة ودون مواربة، وقد تعزى (مراعاة) الزعيم للحوراني، إلى معرفته المسبقة بعلاقاته القوية والواسعة بأوساط ضباط الجيش والقوات المسلحة بشكل عام. في الأسابيع الثلاثة الأولى من انقلاب الزعيم سيجتمع الحوراني بالزعيم بناء على

طلب ملحاح من الساسة السوريين ونواب المجلس؛ على رأسهم المرحوم فارس الخوري، حيث كان الظن بأن الحوراني هو الوحيد القادر على الحد من هيجاناته وتقلباته؛ ثم أدرك الحوراني ألا فائدة ترجى، فآثر العودة للإقامة في حماة.

كان انقلاب الزعيم واحداً من وجوه الصراعات الدولية على المنطقة؛ وقد تبيّن أن الزعيم خلال أربعة أشهر وسبعة عشر يوماً من حكمه كان قد أنجز ما لا تستطيع الحكومات إنجازه في سنوات؛ فقد راعى الزعيم تحقيق مصالح ثلاث: أمريكية باتفاقية التابلاين، وفرنسية باتفاقية النقد، وإسرائيلية باتفاقية الهدنة، ولا مجال هنا لشرح تفاصيل هذه الاتفاقيات وما ألحقته بسورية من أضرار، ولو أنه يمكننا القول سلفاً بأن النفس المنطوية على حب الذات واصطناع العظمة والأبهة بعصا الماريشالية ونظّارة المونوكل، هي التي ستعطي النموذج لما بعدها؛ حيث تعتبر البلاد في نظر الحاكم الشبيه، بمثابة مزرعة يفعل فيها ما يشاء ويأمر، له ولأسرته من بعده، لقد أطلنا في شرح ملابسات انطوت على بداهات غير مُعلّلة من حيث هي تنطلق على السمع والحكاية والنقل؛ وربما من مصادر موروثة في حلقات عامة (مضافات) ومكاتب ومقاهي ترصد المعلومات من مخيال تقاليد، وثقافة صحافة ذات ميول، وعداوات حزبية سياسية أو مناطقية أو طبقية... إذ ما كان لنا أن نطيل، لولا تلك البداهة المتخيّلة في علاقة الحوراني بانقلابات عسكرية جارية على هواه؛ فقد حصل أن انقلاب سامي الحناوي جاء رداً بريطانياً عاجلاً ضد ما ترسم الاستراتيجية الأمريكية لنفسها في المنطقة؛ وهي مأثرة إضافية من مآثر العامل الخارجي في وقوع الانقلابات العسكرية.

أما انقلاب أديب الشيشكلي صاحب طاقية الإخفاء لمدة سنتين فقد كان نصيب الحوراني منه النفي والتشريد خارج سورية؛ وقد يكون الانقلاب الوحيد الذي سبق للحوراني أن حرض عليه؛ إنما هو ذاك الانقلاب الذي أدى إلى سقوط نظام أديب الشيشكلي في سورية، ومع ذلك فإنه الانقلاب الوحيد الذي أعاد البلاد إلى وضعها الشرعي والدستوري في ثلاث: رئاسة الجمهورية، ورئاسة الوزارة، وانتظام عمل المجلس النيابي بأعضائه قبل الانقلاب، كما كان دون تغيير.

❖ ❖ ❖

في المحطة التالية لحياة الحوراني السياسية ستكون هناك واقعة محورية أخرى؛ ألا وهي تلك الواقعة المتعلقة بدمج البعث بالعربي الاشتراكي: ففي نقلة تاريخية سابقة (آذار 1951)، كان الحوراني ورفاق له في حزب الشباب، ينقلون الحزب من استقطاب محلي إلى حزب إقليمي تحت اسم حزب العربي الاشتراكي، وهذا هو الذي سيندمج مع البعث لاحقاً.

هذا وسيقول حواريو البعث القديم من أنصار الأستاذ ميشيل عفلق (وهيب الغانم، فيصل الركبي، عبد البر عيون السود، مع آخرين) بأن حزب البعث أساساً هو تيار فكر ومفكرين دون جند، وإن ما ينقصه مرتكزات شعبية وفلاحية وعمالية يحظى الحوراني بولائها؛ كذلك فإن ظروف النضال الصعبة ضد ديكاتورية الشيشكلي تتطلب توحيد كافة الجهود القومية والديمقراطية والتقدمية؛ وليس أقرب إلى البعث من العربي الاشتراكي، على جميع الصعد الفكرية والسياسية والبرنامجية، هذا وسيدعم ضباط عسكريون: (عدنان المالكي وبشير صادق ومصطفى حمدون وعبد الغني قنوت ومنير موسى باشا..) هذا التوجه في دمج الحزبين بحزب واحد، ورغم الاحتفال الشعبي الواسع بهذا الحَدَث الذي كان من شأنه توحيد أوسع قاعدتَيْن جماهيريتين وحزبيتين، إلا أن النفور بين القادة الثلاث (عفلق والحوراني والبيطار) كان قد ظهر بعد أشهر قليلة من الدمج؛ أي في حياة المنفى أيام الشيشكلي، وقد يعود ذلك لفروق طباع وأمزجة وممارسات وسياسات بحكم النشأة والتكوين والثقافة بين مستويَين أحدهما ينهل من مدرسة السوربون الفرنسية، وثانيهما ينهل من مدرسة الشقاء الواقعية، فقد اكتشف القادة أنفسهم بعد الدمج بأكثر مما قبله، وهو التناقض نفسه بين المأمول والواقع، وكان الانفصال في شتاء الستينات من القرن الماضي حين انعقد المؤتمر القومي الخامس للحزب في حمص، وقرر المؤتمر - بأغلبية أعضاء عراقيين- فصل جناح الحوراني ومن يواليه من الحزب وكانت المادة الأكثر إثارة في الهياج هي موقف الحوراني من واقعة الانفصال بين مصر وسورية؛ ففي حين تمسك جناح عفلق برومانسية القرع على باب استرداد الوحدة؛ كان الحوراني يرى في عودة نظام عبد الناصر، ما يضاعف خطأ فوق خطايا الارتجال والتسرع ورفض التدرّج في مسألة التقرّب من الوحدة بين قطرين متباعدين، ولعل الشرخ كان وليد تفارقات فكرين

في الأساس؛ ففي حين نظر الأستاذ عفلق إلى الوحدة نظرة صوفية مثالية ومجردة؛ كان ردّ جلال السيد على الفكرة القائلة بأن البعث لم يبرح مرحلة البلاغات التبشيرية والإنشائية في فكره؛ فقال: «إن البعث حركة فكرية قومية أخلاقية وإنسانية.. وبعد هذا كله تأتي السياسة»، أما زكي الأرسوزي فيصف الفكر العفلقي بأنه: «كان قد حُقن بجرعة زائدة من فلسفة ميتافيزيقية، كان قد تلقاها على أيدي أساتذة مثاليين في السوربون».

هذا وسينظر الحوراني إلى الوحدة التي انفصمت عراها على أنها تجربة الخطأ في التجربة السياسية، فابن المدرسة البرلمانية الواقعية نظر إلى التجربة خارج المُقدّس والمدنس؛ فهي في حكم الواقع ظاهرية وحدة، وواقعية أحكام طوارئ، وعرفيّة مع رأس الهرم الفردي. وفي مخيال الحوراني مع واقعة الانفصال أن الزمن يمكن إعادته إلى الوراء، فقد التحق للانخراط في النشاط السياسي الانفصالي تحت وهم استرداد سورية في تجربة سنوات ما بعد الشيشكلي بنزع الهويّة الانفصالية عن سورية؛ والتخلص من حكم شمولي تُغطّيه قداسة الوحدة.

كان الحوراني قد تطوّر إعجابه بعبد الناصر حين عمد إلى تأميم قناة السويس؛ وقد زاد في إعجابه صمود الرجل أمام العدوان الثلاثي 1956 بجيوش بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، ثم تطور الإعجاب إلى دعوة لإقامة اتفاقية عسكرية مشتركة لاسيّما بعد خطوة كسر احتكار السلاح؛ وبناء السد العالي بخبرة وتمويل سوڤيتي صريح؛ وكانت سورية من جهة مقابلة بحاجة إلى التحالف مع النظام الناصري لأسباب داخلية وخارجية؛ فرغم أن الجيش بعد سقوط الشيشكلي كان قد التزم ثكناته بالفعل؛ إلا أن سورية مع ذلك لم تهدأ، فمن مؤامرة السفير الأمريكي بدمشق السيد جيمس موس بمعاونة مسؤول الاستخبارات في السفارة السيد ويلبر إيفلاند بهدف قلب الوضع الدستوري؛ وجر سورية إلى حلف بغداد، إلى مؤامرة السفير اللاحق السيد فيرنون كاسن الذي حاول كسب لفيف من السياسيين والعسكريين بهدف محاولة جديدة لوضع سورية في سياسة الأحلاف ضد الكتلة السوڤيتية؛ ثم إلى مؤامرة كيم روزفلت، مدير الاستخبارات الأمريكية CIA، بمعونة مسؤول الاستخبارات الجديد في السفارة بدمشق السيد هيوارد ستون، يعاونه نائب القنصل السيد فرانك جيتون، والملحق العسكري السيد

الكولونيل روبرت مالوي، مما اضطر الحكومة السورية إلى الإعلان جهاراً (بعد القبض عليهم بالجرم المشهود)، بأنهم أشخاص غير مرغوب بهم للبقاء في سورية. ثم تعرضت سورية بعد إخفاق المؤامرات المذكورة أعلاه إلى اصطناع موقف تركي غاضب؛ أدى إلى ما عرف بالحشود العسكرية التركية على الحدود الشمالية لسورية؛ وكادت أن تنشب حرب إقليمية هدفها نقل الصراع مع إسرائيل إلى الشمال؛ وكان يصاحب هذه التطورات الدراماتيكية تصريحات أمريكية - بريطانية ساخنة، تقول بوقوع سورية في براثن الشيوعية العالمية، علماً بأن النائب الشيوعي (بكداش) من بين مئة وخمسة وعشرين نائباً كان وحيداً في المجلس؛ كان على المجلس النيابي السوري مع هذه الأحداث العصيبة أن يستعدّ لانتخابات رئيسه الجديد في الأول من تشرين الأول لعام 1957؛ وكان النائبان أكرم الحوراني وناظم القدسي على لائحة الترشيح لرئاسة لمجلس دون غيرهما؛ ومن بين أصوات مئة وخمسة وعشرين نائباً سينال الحوراني 63 صوتاً والقدسي 58 صوتاً؛ فلم يَنَلْ أيهما أكثرية الأصوات المطلوبة، فأعيدت المحاولة، وجاءت النتيجة كسابقتها، فطفق النواب يهنئون الحوراني بمنصبه الجديد. هذا وسيتلقى الحوراني برقية تأييد من رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر الإفريقي - الآسيوي السيد أنور السادات، وهي برقية مشبعة بأخطاء الفكر المصري عن المسألة القومية، حين لم تتجنب مصطلحات مثل: «إننا نقف إلى جانب قضيتكم، ونعرب لكم عن تأييدنا الأخوي في ساعة محنتكم للمحافظة على استقلالكم القومي، وكفاحكم البطولي ككفاح الشعوب المتحررة في آسيا وإفريقيا». وكأن سورية صاحبة قضية عادلة، لكنها تستأهل التأييد تماماً كأية دولة واقعة في آسيا أو أفريقيا. وبالطبع فإن الأحداث القادمة من وجهها السيّئ التي كانت تلف سورية لم تترك المهلة لرد ذي معنى من رئيس المجلس النيابي السوري الجديد، بل كان الرد في سطور مقتضبة: «أشكر لكم باسم ممثلي الشعب في سورية عواطفكم النبيلة ومشاعركم الصادقة إزاء بلدكم الثاني سورية».

❖ ❖ ❖

في الخامس من شباط عام 1958، وفي الدور الاشتراعي السادس، والدورة الاستثنائية السابعة، ستكون جلسة مدوية في تاريخ المجلس النيابي السوري منذ

فجر الاستقلال وحتى تاريخه المذكور، وكانت الجلسة برئاسة دولة السيد أكرم الحوراني وعضوية أميني السر راتب الحسامي وعبد المجيد رستم..

الغائبون بإجازة السادة: محمد المبارك، إلياس النجار.

الغائبون دون إجازة السادة: تركي بن مهيد، دحام الدندل، فرزت المملوك، فيصل العسلي، محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل)، نوري بن مهيد، خالد بكداش، فائق منان آغا.

ثم دخل الجلسة حضرة صاحب الفخامة السيد رئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي..

رئيس المجلس: سيدي صاحب الفخامة.

حضرات النواب المحترمين.

باسم الله العلي القدير، باسم الشهداء والمجاهدين، باسم الأمة العربية في الوطن الأكبر.. أفتتح هذه الجلسة.

حضرات النواب.

نص البيان المشترك المتضمن إعلان الجمهورية العربية المتحدة، يتلوه عليكم فخامة الرئيس شكري القوتلي.

كان أمراً هاماً وثميناً أمام الأحداث الداهمة أن تجد سورية حليفها على ضفاف النيل، من حيث هي ليست المرة الأولى في التاريخ، وكان البعث الذي أصبح الحوراني قائداً فيه في حركة اعتراض برهانية ضد نظرية السوري القومي التي تقول بسوريا كأمة تامة؛ فالوحدة مع مصر هي إثبات للخط العروبي القومي الذي نادى به؛ وقد نادى البعث بأن الوحدة القومية يجب أن تبدأ بمصر، وفي هذا الصدد سيؤكد الأستاذ عفلق: «لقد كانت لدينا قناعة منذ البداية أنه لا يمكن أن تكون هناك وحدة قومية دون الابتداء بمصر؛ ولا يعود هذا إلى إيماننا بأن مصر مؤهلة لتكون بروسيا العرب؛ أو أنها مركز القاعدة، وإنما لأننا رأينا قوى مصر المانعة للارتهان وهي تعمل، لقد آمنا دائماً بأن اتحاداً مع مصر سيغذي فيها العواطف القومية التي أضاءت مسيرتنا من قبل».

لقد كان واضحاً في ذهن الحوراني أن التنازلات المؤلمة، كحل الأحزاب، وحكومية الصحافة، ومحاسبة الرأي الآخر، وبجملة واحدة التضحية بالحياة الديمقراطية السورية، إنما جاءت لمنزلة الوحدة في اعتبارها المقدس، وكان على نظام الوحدة ألا يأتي من الوجه المخيف لما كان يخشاه الشعب في سورية، إذ ما حدث هو العكس تماماً، ففي 21 نيسان ـ ولم يمض على الوحدة أكثر من شهرين ـ صدر مرسوم من الرئيس يعفي فيه الفريق عفيف البزرة من منصبه كقائد عام للجيش الأول؛ وتعيين اللواء جمال فيصل بدلاً عنه، وفي 27 أيلول من عام الوحدة (ثمانية أشهر من عمر الوحدة) سيصدر رئيس الجمهورية قراراً بإعلان العمل بحالة الطوارئ؛ وفي 17 آذار 1959 سيعلن الرئيس خطاباً عاصفاً ضد خروتشوف؛ كما سيعلن قبوله استقالة عضو المجلس الأعلى للتخطيط عفيف البزرة؛ وفي أيلول 1959 سيعفى السيد رياض المالكي من منصبه كوزير للثقافة والإرشاد القومي؛ وفي 21 تشرين الأول من 1959 سيفوض المشير عامر بجميع اختصاصات رئيس الجمهورية المتعلقة بالسياسة العامة للإقليم الشمالي، ثم كان حزب الدولة في اختلاطات الاتحاد القومي، ومنه إلى مجابهات المشير مع وزير الزراعة والإصلاح الزراعي في سورية السيد مصطفى حمدون؛ ثم إلى الأزمة العاصفة التي تسببت بفعل إقدام إسرائيل على تحويل نهر الأردن. لقد قيل دائماً: إن أعظم الاستعصاءات البشرية هو ذلك الاستعصاء القائم بين النظر والعمل؛ ذلك أن التكييف المطلوب بين المأمول والمحمول يحتاج إلى تدرج صبور من الأدنى إلى الأعلى، ومن الجزء إلى الكل، ومن البسيط إلى المركب. وكان على الوحدة الجامعة أن تبدأ بسلسلة خطوات تنسيقية مُتمهلة على صعيد السياسة والاقتصاد والدبلوماسية والعسكرية... فعمر الانفصال العربي تجاوز ألف سنة، ولا يمكن في مثل هذا الواقع المعقد: أن تولد الوحدة بهوى رغبات وأمنيات وجيشانات عواطف عسكرية أو مدنية في مهلة قياسية رومانسية.

كان دور الحوراني في عقد الوحدة السورية ـ المصرية دوراً محورياً؛ وكان ذلك طبيعياً بالنسبة لسياسي ظل يتدرج في مدرسة الأماني القومية منذ نعومة أظفاره؛ ويدل على ذلك تاريخه السياسي الطويل كرجل اعتركته التجارب في الانخراط بالجماهير؛ والتماس نفسه قدوة في تحقيق أمانيها، فقد مارس الفعل

النضالي في مجابهات المجلس النيابي عندما كان وحيداً؛ كذلك مارسه بعنف السلاح في العراق وفلسطين؛ لكنّ الحوراني ظل ابن مدرسة التجربة الممارساتية في الخطأ والصواب؛ فقد دخل وخرج من السوري القومي، كما دخل وخرج من البعث العربي، كما أنه دخل وخرج من تجربة الوحدة مع عبد الناصر، وفي جميع الأحوال فإنه كان يخرج عن قناعة متأصلة يحملها في هدفه، لا لمناصبٍ يهتبل الفرصة للوصول إليها، فعمر الحوراني السياسي لا يتلاءم مع ما شغله من مراكز رسمية حتى في مرحلة الشباب والطموح؛ أما منصب نائب الرئيس في عهد الوحدة، فإنه حقاً كان بلا منصب في جميع المقاييس.

لقد انتهى الرجل إلى التشريد الأبدي بعد الثامن من آذار 1963، والمحزن أن جميع ضباط هذه الحركة كانوا من تلامذته؛ وطُلاب دعمه للدخول إلى الكلية الحربية، لاسيّما حين شغل منصب وزير الدفاع لخمسة أشهر من المرحلة الأولى من عَهْد الشيشكلي بعدم تدخله في السياسة.

❖ ❖ ❖

لا أدوار سياسية حقيقية مؤثرة تذكر للحوراني وهو في الشتات، ما عدا انهماك عرضي في نشاطات المعارضة السورية في الخارج؛ فإن اهتماماته كانت تنصبّ على العزلة والمطالعة في منفاه الباريسي؛ ولعلّةٍ تتصل بعدم القدرة على الاستمرار في مدينة تعتبر من أعلى المستويات في الإنفاق؛ فإنه قرر الرحيل إلى الأردن، وقد زاره الملك حسين في سكنه الجديد بعمّان، ولاحظ أن السكن يحتاج لكل شيء، ولم يتوان عن العرض بلغة مُلطّفة، واعتذر الحوراني بلغة مماثلة شاكراً للملك زيارته ورعايته.

مات الحوراني في عمان (1995)، ولم يكن في عداد ثروته ما يسعف لشراء قبر؛ وقد تفضّل أحد أبناء عائلة بسيسو الغزاوية بتقديم قبر للحوراني في مقبرة العائلة... لقد ولد في حماة ودفن في عمّان.

حمدان حمدان

فـؤاد الـشـايـب

شرف الريادة

(1911- 1970)

بتـاريخ 1970/7/11 ألقـت منظمـة صـهيونية قنبلـة حارقـة علـى مقـر مكتـب الجامعة العربية ـ في العاصمة الأرجنتينية بوينس آيرس؛ ودمرت جزءاً منـه، أصـيب علـى إثرهـا مـدير المكتـب فـؤاد الشـايب بالسـكتة القلبيـة، وكانـت الطـائرات الإسـرائيلية قبـل ذلـك بعقـدين مـن الزمـان أثنـاء حـرب 1948، قـد قصفـت مدينـة دمشق، حيث انفجرت إحدى قنابلها على الجدار المحاذي لمنزل فؤاد الشايب الـذي كـان ينـهي مخطوطـة روايتـه (أوراق موظـف)؛ حيـث رأى مـن فجـوة الجـدار المهـدم سـرير جـارتهم الشـابة الـتي مزقتـها القنبلـة؛ وهـي ـ في بيـاض شراشـفها، فهـرع لنجدتها، وعندما عاد إلى طاولته كانت أوراق المخطوطة قد تطايرت، وفقد الجـزء الأكبر منها.. فيما بعد وعبر محـاولات عديدة لم يستطع الكاتب إكمال مشروعه، وتوقف عن الكتابة نهائياً، وكأن تلك القنبلة الإسرائيلية قد أصابته ـ في مقتل، قبـل اثنتين وعشرين سنة من يوم بوينس آيرس المشؤوم..

فقد قتلت الصهيونية فؤاد الشايب مرتين وكان قبل ذلك قد علل ـ في رسـالة لـه إلى سـهيل إدريـس الـذي اسـتحثه علـى العـودة إلى الكتابـة بـالقول: (مـن أنـا لأنسـى الليـالي السـود ورائـي.. والليـالي السـود أمـامي؟ وهـل أرى ـ في يقظـتي ومنـامي سـوى هـؤلاء الأقـزام مـن بابـل الجديـدة يبنـون حصـوناً؛ ويصـنعون سـلاحاً، ولا ينفكـون يذهبون ويجيئون ـ في دوار من حماسـة وجنـون؛ وشـهوة شـيطان، عيـونهم الحمـر علـى حـدودي، وأرضـي وعاصـمتي، وبـيتي وأولادي، وأوراقـي ومـذكراتي، وصـور ذكريـاتي، وأرواح آبائي وأجدادي، وكل من أحب ـ في هذه الدنيا!). وقـد عـاد الكاتـب إلى ذلـك ـ في حديث إذاعي لـه ـ في 1958/8/3، فـذكر أنـه كلمـا كـان يعـود إلى مشـروع الروايـة؛ كـان مشـهد الغـارة يداهمـه، فتطالبـه نفسـه بالعمـل لا بالكتابـة. وتـوّج حديثـه الإذاعـي بالتوكيد على أنه لو خيّر بين رشاش وفراغ خمس سنوات ليكتب أثراً يأتي له بجائزة

نوبل للسلام؛ لأختار الرشاش. على أنه ينبغي أن يُضاف هنا أن بقاء مشروع رواية (أوراق موظف) معلقاً؛ توّج توقّف الكاتب من قبل عن كتابة القصة، وأن لهذه الأزمة الروحية الضارية والمعقدة جذوراً أخرى في تكوين وحياة فؤاد الشايب.

ولد الشايب في معلولا في 1911/11/21، وكتب مقالته الأولى وهو في العشرين، مهاجماً أم كلثوم التي رفضت آنئذٍ أن تتبرع للمجاهدين. وكان هذا الشاب الذي يلتهب حماسة قد انتقل إلى دمشق ليدرس في مدرسة الجامعة العلمية عام 1927، وينال الشهادة الثانوية عام 1928، مقرونة بجائزتي التفوق في اللغتين العربية والفرنسية، وقد درس الشاب الحقوق في معهد الحقوق بدمشق بين عامي 1929 ـ 1932، ثم سافر إلى فرنسا ليدرس اللغة الفرنسية وآدابها، وليدرس الحقوق أيضاً بين عامي 1932 ـ 1934. وما إن عاد متشبعاً بالثقافة الفرنسية بخاصة، حتى اندفع إلى الكتابة في الصحف الدمشقية والبيروتية، ثم وفي عام 1935، أصدر بالاشتراك مع كامل عياد وصلاح الدين المحايري وميشيل عفلق؛ مجلة (الطليعة) الأسبوعية. وقد كتب الشايب افتتاحية العدد الأول معبراً عن طبيعة وطموح هذا المشروع الثقافي: «إننا مرضى القلق! وإنه ليتداخل في أعماقنا ماضٍ مظلم، ويهفو إلينا من أبعاد مستقبل أظلم، ونحن بين ذاك الماضي وهذا المستقبل كسائرين في تيه، لا يُدرك أزله من أبده. إننا نخاف، ونحذر، وتهمس ضمائرنا المحمومة: ما هو مصيرنا؟! المصائب، التشرد، الجوع، الموت. فنحن عبيد هذه الأوهام وهذه الأسرار التي تأخذنا قيودها وتجرنا من أكبر قلب متحسس إلى أصغر دماغ متبلد؛ طفرة واحدة، وكوكباً واحداً، إلى جهة واحدة تجاه مصير واحد». ويختم الشايب الافتتاحية مشيراً إلى حَمَلَة مشروع المجلة: «إنهم يبتغون خيطاً من النور، يستلهمونه من نعمة الفكر، في حلوكة التيه الذي يتخبطون فيه بقلقهم وذعرهم».

بيد أن فؤاد الشايب سرعان ما فارق هذا المشروع، بعد ثلاثة أعداد فقط من المجلة؛ إذ يبدو أن التجانس الفكري بينه وبينها لم يكن كافياً أو قوياً. وقد كانت تلك الفترة تفور بولادة المشروعات الثقافية السياسية الكبرى، التي ستشكل بقية القرن العشرين عربياً؛ وأعني المشروع القومي العربي، والمشروع الماركسي، والمشروع القومي القطري، والمشروع الإسلامي، كما عبر في ذلك الحين الحزب الشيوعي، وعصبة العمل القومي، وجماعة الإخوان المسلمين، والحزب السوري القومي الاجتماعي.

وفي عام 1935، تكرّس اسم فؤاد الشايب كمثقف وكاتب ومبدع منخرط في الشأن العام؛ ومساهم في مشروع فكري سياسي، كما أُعلن ذلك العام أيضاً عن فؤاد الشايب كمبدع، فقد فازت قصته (ابن الأرملة) بالجائزة الأولى في مسابقة (الدهور) اللبنانية. وكتب أمين الريحاني عن فؤاد الشايب: «كاتب هذه القصّة يجيد الوصف ويحسن التصوير، فتقرأه دون ملل كأنك تسمع وترى». كما ثمّن محمود تيمور القصة من حيث دقة التصوير وسلامة التعبير، آخذاً عليها الاسترسال؛ فيما لو حذفه الكاتب لَمَا أخلّ بجوهرها، ووصف تيمور ـ كالريحاني ـ كاتب القصة بطول النفس.

وبين عامي 1935 ـ 1939، تدفقت مساهمات فؤاد الشايب في الدوريات السورية واللبنانية (فتى العرب ـ الاستقلال ـ المعرض ـ المكشوف...)؛ ثم جاء المفصل العراقي في حياته، إذ عمل مدرّساً في بغداد بين عامي 1939 ـ 1941، وترأس تحرير جريدة البلاد البغدادية خلال إبعاد صاحبها رفائيل بطي؛ ومن تلك الفترة التي شهدت احتدام الصراع الإنكليزي العراقي واندلاع الحرب العالمية الثانية؛ متح الشايب عدداً من قصصه كما سنرى، ويبدو أنه ما إن عاد من بغداد حتى قام في حياته مفصل الموظف وكاتب المقالة في دوريّات (الحديث ـ الصباح ـ أصداء ـ أنوار ـ الدنيا ـ النقاد ـ الآداب ـ المعرفة ـ الأديب...). ومن أبرز الوظائف التي تدرج فيها وتقلب: المدير العام للدعاية والأنباء عام 1954، ومدير عام في رئاسة الجمهورية العربية المتحدة في القاهرة عام 1959، ومدير الإرشاد القومي في وزارة الثقافة، ورئيس تحرير مجلة المعرفة، وأمين عام وزارة الإعلام ـ معاً ـ عام 1962، ومدير مكتب الجامعة العربية في بوينس أيرس عام 1967.

اقترن تمفصل حياة فؤاد الشايب على الوظيفة بالتوقف عن كتابة القصة القصيرة؛ وبوعود المشروعات الروائية إلى حين، ثم بالتوقف عن الكتابة الإبداعية والانصراف إلى كتابة المقالة والأبحاث الأدبية والفكرية والاجتماعية. وقد أحصى معدّو المؤلفات الكاملة لفؤاد الشايب الأعمال المعلقة أو الناقصة التالية فيما عثروا عليه في مخطوطاته:

1 ـ ذكرى لورنس: فصول من سيرة رجل وتاريخ أمة.

2 ـ لمن تقرع الطبول: بحث في تحليل ظاهرة الحرب.

3 ـ رواية (سيرة نفس).

4 ـ رواية (من أوراقي) أو (أوراق موظف).

5 ـ رواية (أيام الانحطاط).

والأخيرة هي مذكرات الكاتب في العراق، أما (أوراق موظف) فقد نُشِرَ منها فصل في مجلة (الآداب) عام 1956، بينما نُشِرَ مقطع من (سيرة نفس) في (الصباح) وثلاثة فصول في (الحديث) عام 1941. وإلى ذلك يذكر معدّو المؤلفات الكاملة التي أصدرتها وزارة الثقافة السورية، أن الكاتب يشير إلى مجموعة قصصية بعنوان (وادي الجن)؛ وإلى كتاب (أدب الثورات)، ولكن بلا أثر، ومثل هذه الوعود المعلقة الوعد بروايتين كبيرتين في مقدمة الكاتب لمجموعته القصصية (تاريخ جرح).

يعلل الكاتب حاله هذا مع الكتابة بقوله: «وفي حياتي العامة أنا لست سوى حركة تأكل نفسها، وتعض بأنيابها على كبدها وتغرق، قد تغرق فيما أرادت أن تسميه (المنصب الرفيع)، ولكنه غرق على أي حال. ولقد كان المنصب إجهازاً على ما تبقى من رسيس الشعلة المنطفئة»؛ فالوظيفة لا تترك وقتاً للشايب، فضلاً عن أن تفاصيلها تأتي على (الشعلة الإبداعية). وقد كتب لسهيل إدريس عام 1953: «هات لي الأمن والسلام والفراغ، أعطك ما شئت من الأدب وفنونه». والشايب في شكواه من ضيق الوقت صنو لعبد السلام العجيلي؛ وإن اختلفت الشواغل بينهما، إلا أن في حياة الشايب أسباباً أخرى أغمض وأعقد لانطفاء (الشعلة الإبداعية)؛ يرمّز لها ما أشرت إليه في صباح الغارة الإسرائيلية على دمشق عام 1948.

لقد توقف فؤاد الشايب عن كتابة القصة بعد مجموعته الأولى ـ الوحيدة (تاريخ جرح ـ 1944)؛ ويحدد حسام الخطيب في تقديمه للجزء الأول من المؤلفات الكاملة للشايب سبب هذا الانصراف عن القصة؛ بأن الكاتب ضلّ موهبته فيها، وتطلع إلى الرواية، ويبدو أن الخطيب قد استقى ذلك من قول الكاتب نفسه: إنه لا يود أن يزجّ نفسه في «إنشاء أدب القصة القصيرة وأدب المقالة مدشناً عهد النشر، بالنوع القصير النفس، الصغير الحجم»؛ لكن ذلك لا يبدو كافياً، وإن يكن الكاتب نفسه قد عبّر في مقدمته لمجموعة (تاريخ جرح) عن استيائه من نفسه؛ لأنه يزجّها في أدب غير شديد الخطورة كأدب القصة؛ فالشايب نفسه هو من يرى أدب

القصة أصعب الفنون؛ وليس هذا سوى واحد من تناقضاته التي سنراها، أما ما أرجحه فهو أن ذلك الشاب الطموح الذي خبر الثقافة الأوربية راح يعيش مأساة روحية منذ الرابعة والعشرين من عمره حين عاد من باريس؛ إنها مأساة جيل كما عبر في افتتاحية العدد الأول من (الطليعة)؛ وكما سيكتب عام 1951: «أنا من جيل لا يصلح أن يكون جندياً حامل رشاش.. ولا يصلح أن يضع نفسه في طريق الأدب الطويل الشاقّ؛ إنه جيل التشرد»، وقد وصف الشايب جيله أيضاً بالجيل الشقي، وينبغي التشديد هنا على أنّ الرجل قد تربى على نيتشه الذي قاده إلى أندريه جيد عملاق الثلاثينات الأوربية - كما يصفه - الذي قاده إلى دوستويفسكي؛ والذي قاده بدوره إلى غوركي... وإزاء هذا التكوين الثقافي - الروحي، هو تكوين الكاتب المكين في الثقافة العربية الإسلامية؛ وإزاء كل ذلك هي ضريبة الريادة التي كانت له في القصة مع ليان الديراني وعلي خلقي ومحمد النجار ومظفر سلطان، وهو يضيف ميشيل عفلق.

بعد كل هذه العجينة، يأتي ما هو من مياسم ذاتية الشايب وفرديته؛ فالرجل بالغ التدقيق والتشكك فيما يكتب، وبقدر ما كان يبدو شاباً طموحاً ومؤهلاً، كان يكابد الثقة فيما ينجز، وكان بالغ الجرأة على المجاهرة بذلك، وربما يكون لنمو حاسته النقدية شأن هنا؛ فعندما اختاره النقاد عام 1953 واحداً من أهم أدباء سورية مع عبد السلام العجيلي وشاكر مصطفى؛ تساءل: «وماذا فعلت لتشيلني المدائح إلى الصدارة؟». ومما يعزز الصدق في تساؤله، وينأى به عن زيف التواضع، ما ذكر في محاضرة من أنّ سعيداً الجزائري اقتلع منه معظم ما نشر من القصص في الصحف؛ مضيفاً أنّ: «كل قصة كتبتها، لم تخرج من يدي إلا وأنا أشعر بتفاهتها». وقد يحضر هنا ضعف الثقة بالنفس، لكن سيرة الشايب غير الإبداعية تدحض ذلك، أو تهوّن منه على الأقل، فلعل الأمر إذن هو غاية الصدق مع النفس، وغاية الصدق مع الإبداع، مما نأى بالكاتب عن مصير آخرين من أقرانه أو من التالين حين تفرغ الجعبة؛ فيصرّ واحدهم على الاجترار. أما فؤاد الشايب فما إن نَيّفَ على الأربعين حتى قال: «أنا حياتي الأدبية كجمل مُقْعَد، يعيش على اجترار الرواسب في معدته، وهبْ أنها سبع معَد.. فقد آن لها أن تفرغ، وإن الجمل ليرتقب مصيره». والخلاصة التي انتهى إليها مبكراً هي: «يأس من الإصلاح والصلاح،

قرف من الدعوات إلى عالم جديد، هزء بالمثاليات ودُعاتها. لقد خرج العالم مسعوراً من حروب التقتيل والتدمير، ومن خرج سالماً برأسه يود لو تطاح دونه ملايين الرؤوس: ولقد أعربت تلك اللامبالاة السارترية عن حقائق القرف والهزء والاستهتار والانغماس في سكرة عارمة». وقبل أن يبلغ الشايب الأربعين، كان قد كتب على إيقاع هزيمة 1948: «لقد شوهتني حياتي الأولى، فلا أصلح لدنياي الثانية، وشوهتني دنياي، فلا أصلح ثانية للحياة الأولى، فتأمل كيف انهزمت كي لا أكون الضحية وحدي، وكيف غدوت مرتين تلك الضحية. تلك هي حياة الجيل الجديد المشرف على الانطفاء». ولسوف يبلور الشايب تجربته، وقد بلغ الخمسين، فيرى نفسه جسراً للعبور عائماً بين الضفتين، وممزقاً بينهما أحياناً كثيرة، يدرك مصيره ولا يتمرد عليه، بل قد يشعر أحياناً بسعادة من أوطأه قدره لمرور الأجيال. وخلاصة الخلاصة أن: «طلب الرزق أذل كبرياءه، ومعاقرة الساسة مزقت ضميره، وكلاهما: الرزق اليومي والسياسة اليومية عطلا مواهبه وأحرقا طاقته، ونثرا للريح واللاشيء رماده».

❖ ❖ ❖

تميزت شخصية الشايب بالصدق والشفافية، الأمر الذي ساعده على أن يتغلغل كالماء في تراب الثقافة السورية حيث كان له تأثيراً واضحاً بين أقرانه؛ حتى ليقال: إن تأثير آراء فؤاد الشايب أكبر من تأثير قصصه. ومما يعزّز تأثير فؤاد الشايب بوجه عامّ، أنه كان صاحب مشروعات في بناء الحياة الثقافية، فهو الذي أسس مجلة (المعرفة) عام 1962، وقد رأينا مساهمته في تأسيس مجلة (الطليعة)، ومن مؤتمرات الأدباء العرب إلى عمله في مديريات المطبوعات والإذاعة والتلفزيون والدعاية والأنباء والإرشاد القومي؛ وصولاً إلى الجامعة العربية والأرجنتين، فقد كان محركاً ثقافياً لا يهدأ.

التفّتْ مبكراً حول فؤاد الشايب كثرة من الأقلام الجديدة؛ وكان بالغ الاهتمام بها، ومما يجلو طبيعة هذا الاهتمام ما قاله في مهرجان القصة في النادي العربي بدمشق عام 1953، ابتداءً بوصف جيله بالجيل الذي يريد أن يلتهم ويقرأ، أكثر مما يلذ له أن يفرغ ويكتب. وفي عرضه لتكوّنه الثقافي وجيله، بدا كأنما يرسم للتالين سبيل التكوين: من قراءة الميثولوجيات الإغريقية والمصرية والهندية، إلى قراءة دانتي

وسـرفانتس وملتـون والمعـري وشكسـبير وفاوسـت ورابليـه وراسـين ومـولبير وكـورني وفـولتير وروسـو وفـرانس وزولا وموباسـان وديكنـز وجيـد وبلـزاك ودوغـار ودوستويفسكي وبوشكين.. وتساءل: «وهـل يجـوز لقـاص عربـي أن يطمـح إلى كتابـة القصة العربية، دون أن يحيط بنشوء فن القصـة في الآداب العالميـة؟ وإذا لم يفتـه أن في ذلك تهويلاً على الناشئة، فقد أكد على أنـه لا يثبط عزيمـةً، ولا يصـغّر محاولـةً، بل يوجه طموحاً. ولذلك يسخر ممن يكتفي بالترجمات العربية، ليشـرع بـ (الأرنبـة)، فيروح يقضم المترجمات كالأرانب. ويحذر الشايب مـن الوقـوع تحـت جنـاح مؤلـف مـا، مهما عظم شأنه، كما يشدد على دور المعرفة في أدب القصـة، شـأنها شـأن أي كتابـة أدبية، والكتابة أيضاً عمـل وجهـد، لـذلك يستشـهد بعبـارة جـان كوكتـو «الأدب عـرق». أما تحذيره الأكبر فهو من المكافآت العاجلة في طريق الأدب؛ لذلك جهر بخشـيته مـن «أن ينام النـاجحون علـى الطريـق في ظـل أقـرب عوسـجة تافهـة». ومثـل خشـيته هـذه هـي خشيته من أن يطبق عصر السرعة مذهبـه في صـنع العجلـة علـى صـنع القصـة: «أخشى النايلون، وكل رخو رخيص يدخل في حياة الأدب والأدباء».

يؤكـد ذلـك إلحـاح الشـايب المبكـر والمتواصـل علـى الانشـغال بإنتـاج الأدب لا بسواه؛ لكأنه يحذر من السبيل التي مضـى هـو فيهـا، فهـو يـدعو الأدبـاء إلى الابتعـاد عـن مشـاغل الصـحافة، ولم يفتـأ يـردد مـا قالـه روجيـه مارتـان دوغـار عنـدما فـاز بجـائزة نوبـل: «عـن الأدب لا تكلمـوني. اصـنعوا منـه. أرجـوكم». مـن هنـا كـان فـؤاد الشايب يعنّف الجعجعة، وهـو يجـزم أن: «الأدب العربـي الجديـد، وفي مقدمتـه أدب مصـر، هـو حـديث عـن الأدب، لا أدب». ولا يكـاد يخلـو مـا كتبـه الشـايب فيمـا بـين الأدب والقومية أو الصـحافة أو الحرية أو الدولة، ولا ما كتبه في الترجمة أو النشـر، ولا ما كتبه في الأدباء أو ما قدم به لبعضهم... لا يكاد يخلو كل ذلـك ممـا طبـع مـا تقـدم، سـواء بثرائـه أم بـالحرارة والمواجهـة، ففـي البحـث الـذي قدمـه إلى مـؤتمر الأدبـاء العـرب (بلـودان 1956)، تحـت عنـوان (الأديـب والدولـة)، عـرض بإسـهاب لكتاب تومـاس هـوبس (اللفياتـان) مـن القـرن السـابع عشـر؛ ولكتـاب روسـو (العقـد الاجتماعي) من القرن الثامن عشر، وكل ذلك من زاوية علاقـة الفـرد بالدولـة الـتي أخذت شكل التنين؛ تماماً مثلما تحدث هوبز عن تنين الدولـة. وبمقابـل هـذا الـذي لا يفتأ يتضخم ويتعقد على حساب الفرد حتى يومنا؛ أسـهب الشـايب في الجمعيـة

المتمدنة التي تقر للفرد المفكر حتى حرية الخطأ؛ فلا تحاسبه عليه، وتضع الفكر الحر والمفكر الحر فوق ضرورات الرائج والدارج مهما تكن مبررات الدولة - اللوياثان. ومن هذا العرض التاريخي يخلص الشايب إلى طرح مبدأ لا اجتماعية القيم في الفن والأدب؛ هذه القيم التي لا تصدر عن الأنانية الفردية، ولا يعني الأخذ بلا اجتماعيتها عدم التحسس بنبضات المجتمع؛ بل قد تكون الحساسية معها أعمق، وإذ يتلمس الكاتب هذا الخيط الدقيق بين الدولة والأدب، لكأنه شعرة معاوية، يصدح بأن: «الأديب ملهم وليس مُلزَماً، فاتركوه لإلهامه، واعترفوا بأنه ملهم، فإن لم يكن صاحب إبداع، فإنه لن يأتيكم إلا بخرّثي المتاع، وإن كان مبدعاً فارتقبوه وارتقبوا معه المعجزات». وقد كانت في المؤتمر وبعده - في مجلة الآداب - سجالات حارة بين فؤاد الشايب وسهيل إدريس ويوسف إدريس وأنيس منصور حول ما تقدم. ففي عهد مؤتمر الأدباء ذاك، كان خطاب الالتزام عالياً، ماركسياً وقومياً، ولذلك اعترض المعترضون على بحث الشايب الذي لم يفته أنّ آراءه: «قد لا تنال رضا أنصار الدولة، وأنصار حمل السلاح، والتوجيه الملزم، والأدب الهادف».

بالعودة إلى الوراء، يتبيّن لنا أن آراء الشايب هذه مكينة في النفس؛ ففي مقابلة صحفية له من عام 1942، أعلن معارضته للأدب الموجه؛ سواء لخدمة القومية أم سواها من النزعات الحزبية، وإن يكن يعرّف الأدب على أنه: «استكمال عناصر القوة والحرية في جماعة من الجماعات». ويذهب الكاتب إلى أن: «الحد الذي يستطيع أدبنا خدمة حياتنا في دائرته حد قريب؛ حد محدود ضيق الفسحة، مطبق الآفاق». كما يذهب إلى أنه ليس عندنا أبراج عاجية، ولا أدباء عاجيّون، ولا غضاضة عنده من أن يتحكم موهوبو الأدب في شتى نواحي الحياة العامة: «فهم أصلح للعمل، مهما بالغت وظائفهم في إفساد أعضاء العمل والفكر فيهم». وفي مقام أبعد، وتحت عنوان (الأدب والحرية)، عرض للتجربة السوفياتية الأدبية ولسواها عرضاً نقدياً؛ ليجعل من حرية القراء مطلباً قومياً واجتماعياً وثقافياً؛ وليكرر ويؤكد أطروحته «أن الأديب ملزم نفسه إلزاماً طوعياً سخياً بقضايا قومه، والمطلب منه فنّيّ لا سياسيّ، ونوعيّ لا كميّ». وقد شدد في مقام آخر، على أن تأثير الفن غير مباشر، فهو يخدم الحياة بمعنى عام جداً، ولا يجوز قسره أو إلزامه.

هكذا... وإزاء السياسيّ والقوميّ والحزبيّ، كان فؤاد الشايب يدفع دوماً بالحرية، وكذلك بـ (الاجتماعي). ومن تجليات ذلك، ما اقترح في أسبوع الكتاب الذي أقامه اتحاد الناشرين اللبنانيين عام 1966 في بيروت؛ والاقتراح هو فكرة ميثاق عربي يكون مقدمة ومهاداً لاتحاد المثقفين والناشرين العرب؛ ولا سيما لإعلانهم لواجب الدولة الأول في حرث أضخم أمراض الأمة: الأمية؛ وقد كانت الأمية هاجساً أكبر للشايب على الدوام، كما كانت الغوغائية المتسترة بالجماهير وبالشعب، ففي قوله في (الأدب والصحافة) عدّ محنة الأدب أن يُساق تحت شارة العصر إلى حيث تريد غرائز الجماهير التي لا تفكر، وحيث يفرض عليه كما على الصحافة قانون الربح الأوحد؛ وإذا كان قد جعل للصحافة قانون الأخلاق وحده، فقد جعل لأدب قانون الأصالة الفنية وحده، وإذا كان قد شدد على أن الصحافة الحرة ليست مساومة على قيم الحرية؛ ولا اتّجاراً بها، فقد شدَّد على أن الأدب الذي (يميع) بالحرية، ويحمل في دمه أصباغاً وألواناً مختلطة مما يزف إليه، ويمتصه كيانه الضعيف، فإنه إذن أدب فاسد لا يقل فتكاً بجمهوره عن الصحافة الفاسدة.

في الكثير مما كتب فؤاد الشايب، يتلامح قدر أو آخر من النخبوية، ومن الانحياز للمثقف ضد المجتمع والدولة. لكن ذلك ليس غير قشرة واهية، يقابلها حرص الشايب على نكء الجراح. ففي حديث له عن الترجمة، يعدّ المجتمع المتخلف: «أعدى أعداء المثقفين الذين قد تزين لهم ثقافاتهم الممتلئة الواعدة أن يخدشوا براءة الوحش، أو يمسوا عفّته الملفوفة بأقماط المومياءات». أما جبن المثقف أو انتهازيته فيردها الكاتب إلى افتقاده من يحرسه أو يحميه: «أدولة تصنع من الخردل شراباً لكؤوس العرس، أم مجتمع يغط آمناً وراء أستار من نسيج العنكبوت؟». ويخلص الكاتب إلى أن علينا: «وقبل أن نتمنى أن يكون المثقف بطلاً، أو رسولاً، أو ولياً صاحب كرامة ومعجزة - وهذا ما قد يحدث في أمكنة وأزمنة ما، عندما تمتلئ نفس المثقف بثقافته، فيصعدها حد التوتر، ويتجرد فوق سلطان الدولة ومسلمات المجتمع ووجود الجمهور، ويصبح نزوعه إلى اللقاء بالفكرة نزوعاً صوفياً - أقول: قبل أن نتمنى ونعلل النفس بالمعجزات والفروسيات في عصرنا هذا، أولى بنا وأقرب إلى واقعنا وحاجاتنا إلى روح العالم في الوقت نفسه، أن نمشي في الطريق اللاحبة؛ وندعو إلى المألوف بالمألوف: «أن نحرر الشعب من

الأمية بالتعليم، لنصب في الحوض الثقافي أكبر كتلة من الجمهور، الذي تخلَّص من العناصر العازلة للحرارة فيه، وغدا قابلاً لتلقيها وقادراً على إرسالها». والترجمة واحد من عنوانات تلقي الحرارة، لذلك يدعو الشايب إلى تأسيس (دار الحكمة) من جديد، كما يفضل سوء الترجمة على غيابها؛ بسبب دورها في التفاعل مع الثقافات العالمية، وقد مضى الشايب في كتابات أخرى إلى هذا التفصيل أو ذاك، مما تشمله العنوانات الكبرى السابقة وسواها؛ فتحت عنوان (من تفكير أيام الحرب) أشار إلى أن الأدب العالمي يدين بقسم عظيم من ثروته إلى مخيلة الشعب معدداً: ألف ليلة وليلة، والشاهنامة، والإلياذة، والأوديسة، والكالفالا.. وتحت عنوان: (هل يجب أن يربح الكاتب من قلمه)، يتيمّن بمقولة فولتير في الأديب: «يجب أن يعيش كبورجوازي، ويكتب كنصف إله»، ثم أفاض في المهنة الجليلة القاسية: مهنة أنصاف الآلهة الكتابة مؤكداً حق الأدباء في أن يربحوا من أقلامهم بلا خوف على الموهوبين منهم من مزاحمة المضاربين بالوسائل الرخيصة الغثة؛ إلا أن الناس تعودوا عندنا على قرن الأدب بالفقر، والأديب بالمتصوف، ولا معنى عندنا للسؤال عن حق الكاتب في الربح من قلمه؛ لأن الناشر كاسد، بينما هو في الغرب تجارة، وعلى أية حال فالزمن هو الفيصل، ذلك أن للأدب ناموس: «لا تقوى على إزالة حرف من حروفه مصطلحات السوق والتجارة».

ثمة الكثير والهامّ أيضاً في مقالات وأبحاث ومحاضرات ومقابلات وأحاديث فؤاد الشايب، منها ما خصّ به الكتّاب الجدد، سواء في الحديث عنهم: نسيب الاختيار مثلاً، أو التقديم لأعمالهم: مقدمته لمجموعة ياسين رفاعية القصصية (العالم يغرق) عام 1963، ومنها ما هو عرض ونقد لكتب ولترجمات كمقدمته لترجمة سعيد القضماني: كتاب (أجواء) لأندريه موروا، وكعرضه لكتاب: (حياة هنريك إبسن)، أو عرضه لكتاب إلياس أبو شبكة: (روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة). وللشايب أيضاً نقوده المطولة في شعر أحمد الصافي النجفي والشاعر القروي، وكتابات أقل شأناً في أمين الريحاني وماري عجمي وجورج صيدح وزكي قنصل والأدب المهجري، وكتابات أكبر شأناً عما بين أبي العلاء المعري ودوستويفسكي وشوبنهاور في التشاؤم، وعن مفهوم القصة والرواية... ولأن هذا الأخير يتعلق أيضاً بتجربة الكاتب الإبداعية، سنبدأ به الحديث عن هذه التجربة.

عبر محاضرته عن (أدب القصة) ومقالته (كيف أكتب القصة) ومقدمة مجموعته (تاريخ جرح) يتبلور مفهوم الشايب للقصة وللرواية؛ وهو ما تضيئهُ مقابلات وبطون كتابات شتى له؛ وإذا كان كل ذلك لا يقدم نظرة متكاملة بقدر ما يقدم التماعات فنية وفكرية، فقد كان له صداه العميق في فضائه الثقافي، ولاسيّما لدى الشباب من الكتّاب والمثقفين. ويمكن أن نجمل تلك الالتماعات بالتالي:

- لا تُصنع القصة صنعاً، بل هي فيض نفسي وإلهام، تعتمل على اللاشعور، فالقواعد المرسومة قيود تحجب حرية الانبثاق.
- القصة النفسية وحدها تحمل معنى الحياة الحقيقي، أما القصة البوليسية وقصة الحدث فهي غير ذات معنى.
- في الواقعية: ما يهمّ أن تكون الشخصية ممكنة الوجود لا موجودة بالضرورة.
- القصة شعر باعتبار مؤلفها شاعراً أصيلاً، على أن القصة أو الرواية أصعب من الشعر، فالشعر حديقة والرواية صحراء.

يبدو هنا بقوة اتكاء الكاتب على الآراء الفرنسية في الفن بعامة: (دوهاميل، جيرودو، لاروشل..). ويمكن القول أنّ التلقائية هي السمة الكبرى لما يذهب الشايب إليه، وهو الذي ينفي أنّه يكلف نفسه أيّ عناء في وضع الخطط والأشكال والبرامج؛ ولا يرسم لشخص روائي سبيل حياته، وأحسن القصص بحسبانه هي التي لم يعمل فيها القلم ثانية سوى بعض ما يتعلق بشكلها اللغوي؛ وسيكون مألوفاً إزاء هذه التلقائية أن يقول الكاتب: « ... حتى يأتيني أن أرجّح أنني شخص روائي، تؤلف هذه السلسة الطويلة من حياتي يداً ليست لي، وقلماً ليس بيدي». بل إن الكاتب ليصدح: «لا أرى إنشاء القصة إلا أمراً علوياً».

يرادف بعضهم هذه التلقائية بالذاتية، وبهذه أو بهما، وبالفردية تثلثهما، يذهب الشايب إلى أن أقتل ما يقتل الفن، والفن الروائي بخاصة، أن يقول الكاتب لنفسه: سأصنع فناً: «فإن مجرد تفكيره بصناعة الفن ضياع للفن نفسه»، وبذا فالكاتب يرسم محيطه: «لا حباً بالرسم، بل للتعبير عن نفسه». على أنّ ما يدقق هذه الإطلاقية أن الشايب يتكئ على (شاردون) في القول: «إنّ الروائي يجب أن يستند دائماً على الواقع، وليدعْ خياله ينطلق من الواقع أيضاً». فوظيفة الخيال

الأدق هـي: «إعطـاء صـورة الأمـر الواقـع كمـا تؤيـده الحيـاة»، وفي هـذا مـا يتنـاقض بأقل أو أكثر مع ما سبقه، مثلما يتناقض معه حكم الشايب بخـروج محمـود تيمـور عـن كونـه روائيـاً؛ لأنـه يحـاول أن يصـنع فنـاً صـنعاً، ولأنـه أخطـأ في دسـه «صـور المحيط الصـريحة» في قصصـه، بـل إن الشـايب ينـاقض قولـه في الصـنع والتلقائيـة باعترافه في مقدمة مجموعته (تاريخ جرح) أنه أعاد كتابة بعض القصص مرتين.

قبـل كـل ذلـك أو بعـده، يظـل السـؤال الأكـبر: كيـف كتـب الشـايب القصـة؟ والجواب يأتي في إحدى عشرة قصة هـي مـا ضـمتها مجموعـة (تـاريخ جـرح)، وفي أربـع عشـرة قصـة ضـمّها المجلـد الأول مـن المؤلفـات الكاملـة للكاتـب. وهنـا يطلـع السؤال عما جعل لهذا العدد القليل من القصص شأنا في تاريخ القصـة في سـورية؛ أو في تاريخ القصة العربية؟ بل إن السؤال ليعيدنا إلى تهوين الكاتب نفسـه لمـا كتـب في القصـة؛ ودهشـته مـن الاحتفـاء بـه وبهـا، ولعـل للسـؤال أن يعيـدنا أيضـاً إلى مـا عرف به الكاتب من الشفافية والصدق كحافزين كبيرين لتأثيره في الفضاء الثقافي؛ فهل لهذا العامل غير القصصي شأن في المكانة التي احتلتها قصص الشايب؟

في مقدمة (تاريخ جرح) يذكر الكاتب أن القصص كتبتْ بـين عـام 1930 ـ 1940، مـا عـدا (العـانس) و(ربيـع يتضـور) اللـتين كتبتـا بـين عـامي 1941 ـ 1944. وتغلـب السيرية علـى قصـص الشـايب جميعـاً، كمـا تغلـب الفكـرةُ الشخصـيةَ في كثير منـها، حيث يعلو صدى القراءة، وينتأ أحيانـاً الاستعراض الثقـافي. ففي قصتيه الشـهيرتين (الشرق شرق) و(أحلام يولاند) يتدافر شكسبير وزولا ودانـتي، كمـا يتـدافر النقـاش مـرة في الأدب العجـائبي، ومـرة في الصـورة التقليديـة للشـرق في أذهـان الغـرب، وهاتان القصـتان تمتحـان مـن سـيرة الكاتـب الباريسـية، مثـل قصـته (مكتـوب) الـتي نشـرها عـام 1934. لكـن الطالـب السـوري في هـذه القصـة يصـادف الغـرائبي في باريس، ويمتلـئ بالدهشـة والحذر، بينمـا نـرى حسـن في (أحـلام يولانـد) قـد صـار أقرب إلى الموضوعية ـ بعدما قضـى حينـاً في باريس ـ مع صديقته الفرنسية المثقفة المفتونة بالشرق، لكن حسن ـ كما يصارح يولاند ـ ملازم لفطرته العربية في الأنثـى، ويمقت العيون الواسعة الزرقاء، فتصارحه هي بأنها لا ترغبـه حبيبـاً، وتتخـذ هـذه العلاقة المحكومة بالاستحالة لبوس استحالة لقاء الشرق والغـرب؛ فحسـن يـرى أن (الأدب المسموم) قد أفسد يولاند، ويولاند تـرى أن هـذا الأدب هـو عزاؤهـا الوحيـد

في مدينة آلية، ويولاند ترى أنّ حسن غريب في بلاده كما هي غريبة في بلادها، وقد جمعت المصادفة الغريبين في نقطة الافتراق؛ أما حسن الذي تعجبه سذاجتها حين تتحدث عن الشرق، فيخاطبها: «فالشرق لو تعلمين ما هو إلا الصحراء المحرقة والفقر والأديان، وما جئناكم إلا لنعرف كيف يعيش سكان الواحات في ظلال الرخاء والذكاء والعمران والإبداع والحركة والعمل، والحياة المملوءة بمكافأة الجهد والعناء؛ لنأخذ منكم ونقتبس من رقيكم».

وقد أكدت استحالة اللقاء هذه بين حسن ويولاند - الشرق والغرب قصة (الشرق شرق)، فأحمد في هذه القصة تبهره حياته الباريسية الجديدة، وتربكه، ويدهشه أن المرأة في كل مكان، وتعمل، ويتخيل أنها ملك مشاع كالهواء والماء، لكنها هي من تختار رفيقها، وأحمد الذي ينصبّ عليه تحقير سائق التاكسي: «أيتها البقرة الشرقية.. أما انتهينا من أحلامك؟» ليس له إلا أبناء بلده الذين يتكتلون في الجامعة والمقهى والمطعم. وحين ينضمّ إليهم، ولكل منهم رفيقته، يصير موضع سخرية الأخريات إلا لوسي الشقراء المهذبة ذات العينين الزرقاوين؛ وقد جاء بناء القصة ليلةً ليلةً على إيقاع تطور العلاقة بين أحمد ولوسي؛ فالشاب الذي كان بإمكانه أن (يصوم) عاماً أو عامين في دمشق؛ أمامه باريس التي يعيش الناس فيها أزواجاً وأعشاشاً، ورفاقه يدفعونه إلى لوسي، كما يدفعه جوعه الجنسي، لكنه صار عاشقاً، ولم يبادر لوسي التي زارته في غرفته مرة بعد مرة، حتى إذا انقطعت وراسلها، ردت على رسالته طالبة أن يكف عنها ومعلنة مقتها له: «أنا لست ملاكاً.. وأنت.. أنت لست رجلاً». وبذا يستحيل اللقاء بين الشرقي المفرط في الحساسية والخجل والطيبة، والرومانسي الحالم الجبان أمام المرأة، وبين الغرب العقلاني وفاعلية المرأة فيه واستقلاليتها العتيدة، وقد يكون مفيداً هنا - من جهة أولى - أن يُشار إلى محاضرة فؤاد الشايب في الجمعية السورية للفنون عام 1955، تحت عنوان (صور من الغرب)؛ حيث يتملى في كتاب (مديح الجنون) لإراسمُس الذي يقال إن لوثر قد باض البيضة، وإراسمُس فقسها، والعكس صحيح، وغاية الإشارة هنا هي أن الجذر الثقافي الغربي مكين في شخصية فؤاد الشايب، كما ظهر مراراً في كتاباته الأخرى، ومن جهة ثانية، قد يكون مفيداً أن يشار إلى قصة (ضحية الكنز) من خارج (تاريخ جرح)؛ حيث يعمل الزوج العراقي راغب وزوجته

الإنكليزية هيلينا مع الإنكليز؛ لكنهما عند نشوب الصراع بين العراقيين والإنكليز يهربان مخلفين الكنز الذي سيعود راغب إليه بعد هدوء الصراع؛ فإذا هيلينا كما سيكتشف من رسالتها قد فرّت بالكنز، وأدارت له ظهراً. إنها استحالة اللقاء بين الشرق والغرب من جديد.

في قصص (تاريخ جرح) الأخرى مروحة تتوزع سماتها بين السخرية (قصّتا: قبل المدفع ـ ملاك الموت) والرِّيف (قصّتا: جنازة الآلة ـ ملاك الموت)، وسوى ذلك مما تلفت فيه قصة (جموح القطِيع) التي تستبطن السخرية أيضاً من القطيعية على لسان حسني بك، الذي يرى الشعب حيواناً خرافياً أحمق ومفقوء العينين. كما يلفت أن القصة التي حملت المجموعة عنوانها قد كانت مسرحية من أربعة مشاهد، ويزيد ذلك التباساً أن المجموعة قد ضمّت تمثيلية (عودة قابيل) ذات الالتماعة الباهرة المتمثلة في إعادة محاكمة قابيل بجريمة قتل أخيه، والتي تنتهي بقتل قابيل لأخيه ثانية في قاعة المحكمة، ويبدو أن ما بين التمثيلية أو الحوارية والقصة ملتبس لدى فؤاد الشايب؛ إذ يذهب إلى الحوارية من القصص هي التمثيلية التي لا يمكن إخراجها، وصلتها بالمسرحية هي اللغة فقط.

في مجموعة (تاريخ جرح) كما في القصص التي لم تضمّها، يبرز اهتمام الكاتب بالشباب وبالجيل الجديد، فقصة (العانس) في المجموعة ترسم هجس الشقيقتين: نور العانس وعفيفة ابنة الستة عشر ربيعاً الناقمة على أمها المستبدة، والتي تهدد بالهرب أو الانتحار مع من تحب، أما خارج المجموعة فثمة عدد من القصص التي متحها الكاتب من سنواته العراقية، وتتعلق بالشباب إبّان نشوب الصراع بين العراقين والإنكليز، كقصة (مواليد 1916) أو قصة (الفراري) أو قصة (كرومي) أو قصة (عزيزة المرأة أو الفراشة) أو قصة (حياة بلا غد) أو قصة (لا تكسر نفسك)، ولا ننسَ هنا أن الكاتب كان شاباً في مطلع ثلاثينياته عندما كتب هذه القصص؛ وربما كانت طبيعة هذه القصص سبباً إضافياً لدويّ صداها بين الشباب.

لقد توزع فضاء قصص فؤاد الشايب بين الريف السوري والعراقي؛ وبين المدارس وفلسطين، وصدح فيها الخطاب المقاوم سواء للمحتل أم للأسرة الاستبدادية، لكن الكاتب توقف عن كتابة القصة مطلقاً الوعود برواياته؛ وسرعان ما تبيّن أن ما نشر من الوعد ظل محدوداً وملتبساً بالمذكرات، على النقيض من

الآراء المدوية، ومنها أن: «الفن الروائي أجلّ فنون الأدب شأناً، وأبعدها أثراً في حياة الشعوب. فالتاريخ جزء من الفن الروائي، والعلم في تكونه شيء من خيال الروائي. وعظماء الرجال في الدين والدنيا روائيون بالطبع على أنماط متباينة، والفن الروائي يعد مرحلة الكمال في صنعة الأدب». إلا أن هذا الدويّ ظل يفتقد الرصيد.

❖ ❖ ❖

اقترن مفهوم الكتابة لدى فؤاد الشايب بالإنشاء، وبلغ ذلك به حدّ العناية بالتنقيط أيما عناية، ولئن ابتدأ رهانه على القصة، ثم آل إلى الرواية، فقد تركّز الرهان أخيراً في المقالة والبحث، وعلى نحوٍ يجأر بأزمة المبدع وبسعي الكاتب إلى أن يكون فاعلاً في الحياة؛ ولاسيّما في الحياة الثقافية. وقد تحقق لما أبدع فؤاد الشايب في القصة ما جعله علامة كبرى في تاريخ القصة؛ بينما تحقق له ما هو أكبر مما مضى فيه كمثقف يكتب ويبني، وبهذه (الدراما) كانت لفؤاد الشايب بصمته على الحياة الثقافية السورية طوال عقود، ومنها ما لا يزال يخاطبنا حتى اليوم.

نبيل سليمان

خالد بكداش

عماد الشيوعيّة السورية

(1912-1995)

في بدايات القرن العشرين، كانت قرية عسال الورد تتعمشق بخجل فوق واحدة من الهضاب، التي تشكل سلسلة جبال لبنان الشرقية؛ قرية نائية تنقطع عن المدينة وعما حولها بسبب تراكم الثلوج، فيمكث سكانها في بيوتهم يمضون وقتهم في احتساء الشاي والمتة والتهام الخبز المحمص والبصمة ولبن الماعز. كانت القرية قد خرجت حديثاً من صراع مميت بين أتباع علي بك المؤيد سيد القرية، وأتباع الأمراء الجزائريين المقيمين في دمشق، الذين لبوا نداء فلاحي عسال الورد لتخليصهم من جور المؤيد، الذي سرعان ما ترك كل شيء وهاجر إلى أوروبا. ولا ندري أين كان علي بك المؤيد، عندما جرى في سنة 1931 لقاء غريب، سيترك أثره طويلاً على السياسة السورية، وربما العالمية. طرفا اللقاء كان رجل في مقتبل العمر اسمه ناصر حدة، وشاب أنهى لتوه دراسته الثانوية في مكتب عنبر، وانتسب لمدرسة الحقوق في الجامعة السورية، اسمه خالد بكداش.

كان الفتى خالد قد بدأ لتوه عمله كمراقب لأعمال الطرق، ورمت به الصدفة البحتة في قرية لا يزيد عدد سكانها على ثلاثة آلاف نسمة، وقد نزحت إليها عائلة حدّة من يبرود المجاورة. ونحن لا نعرف ما الحديث الذي دار بين الفتيين، ولكننا نعلم أن ناصر حدة ذكر اسم قبضاي شامي اسمه فوزي الزعيم، يقطن بالقرب من منزل خالد بكداش، وطلب من الأخير أن يلتقيه.

في دمشق التقى خالد بكداش مع فوزي الزعيم، وعرف منه أنّ في الشام حزباً سرياً اسمه الحزب الشيوعي، فسأل خالد: «وماذا يريد هذا الحزب؟».

«ضد الاستعمار، ضد الرأسمالية، ضد الإقطاع، يريد الاستقلال، وتوزيع الأراضي على الفلاحين، وإزالة الرأسمالية».

ولم يستغرق الأمر طويلاً قبل أن يوافق خالد بكداش على الانضمام إلى الحزب. كان في التاسعة عشرة من عمره. وفي الرابعة والعشرين صار أميناً عاماً لهذا الحزب.

ولد خالد بكداش لعائلة كردية في حي الأكراد بدمشق. كان أبوه ضابطاً في الجيش العثماني، وبعد دخول القوات الفرنسية إلى سورية، رفض على ما يبدو الانضمام إلى الجيش الفرنسي، فسُرّح، وبدأ يعمل أعمالاً مختلفة، كان آخرها مناظراً في التنظيفات. ويقول خالد بكداش: «إن هذا العمل أثر على صحة والدي. لقد مات والدي بمرض ذات الرئة، بسبب هذا العمل».

ولا يمكن بتحليل ذلك أن نقول إنّ عائلة بكداش كانت عائلة ميسورة، ولكنها كانت مستورة. ومع ذلك، فقد وجد الفتى خالد مناسبة لدخول مدرسة الدمشقيين الأرستقراطيين المعروفة باسم (مكتب عنبر). وحسب كلماته، فقد قُبل في المدرسة، بناء على شهادة فقر حال، وبعد أن نجح في المسابقة بعلامات جيدة. وهناك تعرف على رجالات، سوف يكون لهم دور في تاريخ سورية السياسي. هناك تعرّف على كامل عياد وبسام كرد علي وبشير العظمة ووجيه السمان وصلاح البيطار الذي كان يفوقه بصف واحد. وتتلمذ على أيدي أهم المدرسين الوطنيين في تلك الفترة، وبينهم أحمد جودت الهاشمي والشيخ عبد القادر المبارك.

ويبدو أنه كان نشيطاً في الحركة الطلابية، وليس لدينا ما يدعونا لعدم تصديقه عندما يقول إنه شارك في المظاهرات ضد الفرنسيين حتى قبل أن يصير شيوعياً، بل إنّ لدينا من الأسباب ما يدفعنا للقول إنّ انتسابه إلى الحزب، كان لأسباب وطنية قبل أن تكون طبقية. ووفق الألماني يوهانس رايسنر، الباحث في الشؤون السورية، فإن خالد بكداش كان يعنى بالشؤون الوطنية أكثر من عنايته بالشؤون الاجتماعية. ولقد لفت انتباهه نشاط الحزب ضد الاستعمار الفرنسي، قبل أن يلتفت إلى مطالبه بإلغاء الرأسمالية، التي لم تكن قد وجدت فعلياً، بالمعنى الحقيقي للكلمة.

ومن هنا نفهم لماذا، عندما كلف مع رفاقه رشاد عيسى وهيكازيون بويجيان وسيساك تيلاليان بتحرير صحيفة (المنجل والمطرقة)، حوّل هذه الجريدة إلى

جريدة مناضلة ضد الانتداب الفرنسي، ما جعل القوات الفرنسية تداهم مكتب الجريدة، وتعتقل جميع العاملين فيها؛ وحينها تعرض خالد بكداش إلى تجربة السجن لأول ولآخر مرة. وكانت فترة السجن فرصة له ليتعلم على يد هيكازيون بوياجيان مبادئ الاقتصاد السياسي. وهو يضيف «خرجنا من السجن أفضل مما دخلنا». ويبدو أنه ورفيقه بويجيان، قد حوّلا المحاكمة إلى محاكمة للاحتلال الفرنسي. وقد كانت المحاكمة علنية، وكان بين الحضور المناضل الوطني الكبير فخري البارودي، الذي جلس في المحكمة يصغي إلى اتهامات خالد ورفاقه للقادة الوطنيين بأنهم خونة، لأنهم يريدون توقيع معاهدة مع الفرنسيين على غرار معاهدة المصرية - البريطانية. وعندما أطلق سراح بكداش، بعد ذلك بأشهر، لقيه فخري البارودي في الصالحية، فناداه، وقال له:

«برافو عليكم. ولكن يا خالد، أنا خائن؟».

ونفهم من مذكرات خالد بكداش ، أنه أحس بالخجل أمام مناضل بحجم فخري البارودي، فأجابه متلعثماً:

«لا . نحن لم نكن نقصدك أنت». وهو جواب لم يكن موفقاً بطبيعة الحال، ولا ندري إن كانت هذه الحادثة قد أثرت على الشاب الشيوعي، ولكننا نعرف أنه ما إن تسلّم مقاليد قيادة الحزب، حتى رسم له طريقاً مغايراً عن السابق. وكان لسفره إلى موسكو، وحضوره مؤتمر الكومنترن السابع ولا سيّما خطاب ديميتروف زعيم الحزب الشيوعي البلغاري الشهير في العام 1935، أثر كبير في تغيير جزء كبير من قناعات الحزب فيما يتعلق بدور البرجوازية الوطنية في مقارعة الاستعمار. ويرى رايسنر أنّ «تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان يمكن أن يقسم إلى قسمين: أولهما ذو طابع اشتراكي ثوري بقيادة يوسف إبراهيم يزبك، وأما الثاني فقد ابتدأ في الثلاثينات بقيادة خالد بكداش وهو غير متطرف، وكان يعنى بالمسائل الوطنية قبل الاجتماعية». وعلى أيّة حال فقد تمتع بكداش بعلاقات طيبة مع قادة الكتلة الوطنية السورية التي قادت صراع السوريين من أجل الاستقلال. وفي باريس انضمَّ بكداش إلى وفد الكتلة الذي كان يرأسه هاشم الأتاسي، ويضم فارس الخوري وسعد الله الجابري وجميل مردم. وحين عاد إلى

سورية، توطدت علاقته بالزعيم الوطني شكري القوتلي، الذي أعطاه الحرّية في أن يكتب ويبشر داخل المجتمع السوري كما يشاء.

دفعت هذه السياسة بالحزب الشيوعي إلى مكان متقدم، وحظي الشيوعيون بتأييد نسبي لا بأس به، على النقيض من دورهم في غالبية الدول العربية الأخرى؛ فإثر تسلم بكداش زعامة الحزب، تمكن الشيوعيون، في ظل الحكومة الفرنسية الاشتراكية برئاسة ليون بلوم، من تنظيم أنفسهم في سورية دون أيّ مضايقات، غير أن ذلك أثار ريبة البعض ممن كانوا يتعاطفون معهم في سورية، من أمثال مؤسس حزب البعث ميشيل عفلق، الأمر الذي دفعهم إلى التساؤل بطريقة لا تتسم كثيراً بالبراءة، فيما إذا كان الشيوعيون يعملون حقاً من أجل الوطن. ولقد تم تطوير الحزب بزعامة خالد بكداش، بطريقة سمحت لمفكر مثل مكسيم رودنسون أن يتساءل عما إذا كان ما يزال يحق اعتباره حزباً شيوعياً.

تخرّج بكداش من مكتب عنبر، وانتسب إلى كلية الحقوق، بيد أنّه لم يستطع متابعة تحصيله العلمي، «بسبب الملاحقات». فراح يعطي دروساً بالرياضيات والفرنسية التي كان يجيدها، كما أجاد الروسية فيما بعد، وساعده ذلك في قيامه بترجمة العمل الماركسي الكلاسيكي (البيان الشيوعي)، من الفرنسية إلى العربية لأول مرة سنة 1932، ثم عمل في وزارة المالية، كما عمل في الصحافة، ولا سيما في جريدة (الأيام) التي كان مديرها عارف النكدي، وجريدة (القبس) التي رئس تحريرها نجيب الريس. ولكن حياته السياسية الفعلية كانت بعد سفره إلى موسكو «لتعلم الماركسية اللينينية»؛ حيث شغف بهذه النظرية إلى حدِّ التصوف.

في موسكو تعلم أن يحب ستالين وأن يكره كل خصومه: تروتسكي وكامينيف وزينوفييف وبوخارين. بعضهم يساريون وبعضهم تحريفيون وكلهم إما صهاينة أو منجرون وراءهم. ولكنه تعلم أيضاً تقديس ماركس وإنغلز ولينين، ولطالما ردد أنّه لم يأت بعدهم من يوازيهم. ومن هنا كان يقيس كل فعل سياسي أو جهد تنظيري بما كان يراه ماركس وإنغلز، ولكن بشكل خاص لينين. وحين غادر موسكو إلى فرنسا، أراد أن يتطوع للقتال مع الشيوعيين الإسبان ضد دكتاتورية فرانكو، ولكنهم «رفضوا تطوعي. قالوا لي إذاك: عملك في سورية».

ثمة فترة غير واضحة المعالم في تاريخ الحزب الشيوعي السوري إثر عودة خالد بكداش من موسكو وباريس. في هذه الفترة أطيح بالأمين العام السابق للحزب فؤاد الشمالي، وجيء بالسيد بكداش أميناً عاماً جديداً. وثمة القليل من المعلومات تفيدنا بالآلية التي تمّ فيها هذا الانتقال. وحتى السيد بكداش يمرّ على ذلك في مذكراته مروراً عابراً في سطرين ونصف. يقول: «في عام 1937 أصبحت أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوري. حدث ذلك بعد عودتي من موسكو، حيث عقد اجتماع لممثلي الكادر. وصار حكي، وتناقشنا. وكان ممثلو جميع المنظمات موجودين في هذا الاجتماع الذي انتخبت فيه». إثر ذلك أُثير كلام كثير حول الأمين العام السابق، وإمكانية أن يكون متعاملاً مع الفرنسيين، دون تأكيد رسمي من أيّ من مصادر الحزب.

ومع ذلك، فقد أثبت خالد بكداش أنه جدير بهذا المنصب. وهو استمر فيه قرابة الستين عاماً، وربما كان الأمين العام الذي أمضى أطول فترة في منصبه. وكان بكداش يتمتع بكاريزما قلّ نظيرها بين القادة الشيوعيين. كما تمتع بقدرة سياسية هائلة وقدرة على تنظيم الحزب وقيادته خلال الأزمات. وكان دائماً ينجح في الخروج به سالماً من المنعطفات الخطيرة. ولا شك أن تجربة الوحدة بين سورية ومصر والمحنة القاسية التي مرّ بها الحزب، دليل كبير على مقدرة بكداش السياسية والتنظيمية. ورغم أنّ بكداش رفض حلّ الحزب بناء على أوامر رئيس الجمهورية، ورغم أنه دفع الثمن غالياً، من دم وعمر الرفاق الشيوعيين، فإنه استطاع الخروج من التجربة بحزب موحد ومتماسك ومتين؛ بالمقابل خرج حزب البعث منقسماً إلى أربعة أقسام: قسم يقوده عفلق والبيطار، وآخر يقوده أكرم الحوراني، وثالث يقوده رياض المالكي، ورابع بقيادة اللجنة العسكرية، التي كانت منفية إلى مصر، ومن رموزها: محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد. غير أنّ هذه القدرة سوف تتعرض إلى امتحان أكبر، بعد هزيمة حزيران وسلسلة الانقسامات التي شهدها الحزب، منذ مطلع السبعينات، وحتى الآن.

إلى ذلك كان خالد بكداش يتمتع بحس أمني رفيع. وهو يقول عن نفسه إنه كان يشمّ حملة الاعتقالات عندما تأتي، فيأخذ كل الاحتياطات الأمنية اللازمة. ولذلك كانت فترة اعتقاله في مطلع الثلاثينات، إبان الاحتلال الفرنسي، أول وآخر

اعتقال له. وفي كل مرة كانت قوات الأمن تداهم بيتاً تحسبه فيه كان خالد بكداش قد فارقه قبل ساعات أو أيّام. ويروي بكداش قصة طريفة. ففي صبيحة الثامن من آذار، قامت قوات عسكرية بتطويق بناء كان يقيم فيه «لوجود ضباط انفصاليين فيه أيضاً. ولكنني خرجت خفية ولم ينتبه لي أحد».

ركز بكداش نضاله ونضال حزبه، إبان فترة الانتداب، على المطالب الوطنية. وكانت أهم معركة سياسية قادها، هي معركة المادة (116) من الدستور، الذي اضطرت فرنسا إلى إعطائه إلى السورين، بعد وصول الحكومة الاشتراكية إلى الحكم في باريس؛ ولكنها أصرت على وجود المادة (116) التي تسمح للدولة المنتدبة بإلغاء كل قانون لا توافق عليه.

وفي تلك الفترة وحَّد بكداش نضال حزبه مع نضال الكتلة الوطنية بزعامة شكري القوتلي، وكان بكداش يكنُّ للقوتلي احتراماً كبيراً، ويصفه بأنه «وطني كبير ويحترم المناضلين الوطنيين، بصرف النظر عن كل الاتجاهات». ويبدو أنّ الاثنين التقيا مراراً، ولعلَّ فضلاً يعود لخالد بكداش في إقناع القوتلي بضرورة المطالبة بخروج القوات الفرنسية والإنكليزية، حيث أنّ القوتلي كان يفضل التركيز على القوات الفرنسية، باعتبار أنّ انسحاب الإنكليز هو تحصيل حاصل.

وعلى أية حال، فقد كانت مرحلة الانتداب مرحلة مؤاتية لنمو الحزب الشيوعي وصورة أمينه العام خالد بكداش. ولكننا يحقُّ لنا أن نقول: إنّ مرحلة الاستقلال الأولى شهدت خفوتا في الألق الشخصي لخالد بكداش وللشيوعيين عموماً، وربما كان لانتهاء مرحلة النضال الوطني التي أتقنها خالد بكداش وقادها باقتدار، دور في هذا الخفوت؛ وربما كان لتنامي دور القوتلي وبقايا زعماء الكتلة الوطنية، دور في ذلك أيضاً؛ وربما، ثالثاً، كان لدور القضية الفلسطينية وصدور قرار التقسيم وموقف الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي المؤيد لهذا القرار، دور مؤثر آخر. ولا شك أنّ تأييد خالد بكداش والحزب الشيوعي لقرار التقسيم، الذي جاء، إما بناء على قناعة حزبية أو على أساس الرغبة في دعم موقف (الرفاق الكبار) في الاتحاد السوفيتي، قد أثر سلباً على صورة الحزب وصورة الشيوعية في سورية خلال النصف الثاني من الأربعينات ومطلع الخمسينات. ولم يكن

للشيوعيين أيّ مقعد في المجلس النيابي السوري طيلة مرحلة الأربعينات؛ وقد حاول خالد بكداش فيما بعد، ولا سيّما في المجلس الوطني للحزب الشيوعي السوري الذي انعقد في 1971، أن ينفي أنّ الشيوعيين لم يدعموا قرار التقسيم، بيد أنّ وثائق الحزب، ومن بينها وثيقة مهمة صادرة عن الأحزاب الشيوعية في سورية ولبنان والعراق وفلسطين، تؤكد هذا الموقف.

بيد أن الحزب الشيوعي حسّن صورته كثيراً إبان مرحلة الانقلابات العسكرية وحكم الجنرالات، ولا سيّما خلال حكم أديب الشيشكلي، حيث كانت البراعة التي أبداها خالد بكداش في قيادة العمل السري؛ والتضحيات التي قدمها الشيوعيون، عاملين في رسم صورة مشرقة للرجل وللحزب؛ ولا سيّما في أوساط المثقفين والكتّاب والفنانين. وقلة لا يعرفون أنّ حنّا مينة وشوقي بغدادي وسعيد حورانية، انتسبوا للحزب في تلك الفترة. هذه الفترة ساهمت في إعادة الحزب الشيوعي وقائده إلى صدارة الأحداث، مما مهّد الطريق إلى مرحلة من أهم المراحل في تاريخ خالد بكداش وحزبه.

هذه المرحلة هي مرحلة عودة الديموقراطية إلى الحياة السياسية في سورية، التي امتدت من سقوط حكم أديب الشيشكلي إلى سقوط سورية في أحضان الرئيس المصري جمال عبد الناصر. وشهدت هذه الفترة محطات أساسية في حياة خالد بكداش. ففيها خاض تجربة اللعبة الديموقراطية، وفاز بالنيابة من الجولة الأولى، سوية مع خالد العظم وصبري العسلي ومنير العجلاني، في حين اضطر الكثير من كبار السياسيين إلى خوض البالوتاج لكي يفوزوا بمقاعدهم النيابية، بمن فيهم: صلاح البيطار ومأمون كزبري وفيصل العسلي، وحتى سعيد الغزي الذي كان رئيساً للحكومة آنذاك. وجاء فوزه ساحقاً، بأكثر من عشرين ألف صوت، وجاء بذلك تالياً لخالد العظم الذي نال (23) ألف صوت، بيد أن الغريب أنّ خالد بكداش كان الوحيد الذي فاز للنيابة عن الشيوعيين الذين كانوا حزباً لا يستهان به، فلماذا لم يفز غيره في الانتخابات؟ لا يزال هذا السؤال بدون إجابة واضحة، وإن كان البعض قد أراد الغمز من قناة خالد بكداش بقوله إنه كان يقايض أصوات محازبيه ليكسب هو مزيداً من الأصوات. وليس لدينا دليل على صدق هذا الكلام أم كذبه.

ولكننا نعرف أن أصواتاً كثيرة أيدت خالد بكداش. وليس صحيحاً أنّهُ فاز بأصوات الناخبين الأكراد فحسب؛ فقد كان له مؤيدون في مختلف الحارات الشامية، بما في ذلك حي الميدان العريق. وأيده المجاهد الميداني محمد الأشمر، مما جعله يجمع عدداً كبيراً من مصوتي الميدان. ويذكر بكداش قصة طريفة جرت مع محمد الأشمر، فلكي يقدم الأشمر خدمة لبكداش، طلب إليه أن يذهب لتأدية صلاة الجمعة معه في الجامع الأموي، فيكسب بذلك أصواتاً إضافية. فقال له: «لا يا أستاذ محمد، أنا لم أدخل المسجد قبلاً، والآن تريدني أن أدخل إليه ونحن على أبواب انتخابات؟ سيقولون عني إنني رجل منافق». بعد ذلك بسنوات، حكى بكداش هذه القصة لماو تسي تونغ، الذي كان من رأيه أنه كان على بكداش أن يصلي الجمعة معه.

المحطة الثانية كانت وجود شكل من أشكال العمل الجبهوي الذي ضمَّ خالد العظم وخالد بكداش وصبري العسلي وحزب البعث الذي كان يقوده عفلق والبيطار والحوراني؛ واتخذ هذا الشكل التحالفي اسم (جبهة التجمع القومي) الذي كان مدعوماً من قبل العسكريين التقدميين. هذا التحالف هيمن على الخريطة السياسية لسورية منذ 1954 وحتى قيام نظام الوحدة السورية -المصرية في العام 1958؛ وهو الذي ساهم في دحر خطط الشعبيين لإقامة حلف بغداد، وغيره من المخططات التي كانت تهدف إلى إنهاء استقلال سورية، وإلحاقها بالتاج الهاشمي. وكان خالد بكداش، إضافة لكونه سياسياً، محنكاً، خطيباً مفوّهاً، وقد حظيت خطبه في البرلمان بتغطية إعلامية وحضور مكثف من قبل جميع النواب، ولاحظ دبلوماسي غربي أنه عندما يحين دوره في الكلام، فإنّ جميع النواب الذين يكونون خارج القاعة، يسارعون إلى الدخول لسماع كلمته.

ويحب الشيوعيون، ومعهم كثير من المحللين، أن يفكروا أنّ المد الشيوعي هو الذي دفع بالعسكر السوريين والبرجوازية السورية إلى الارتماء في حضن عبد الناصر، وثمة كثير من التنظير في هذا الاتجاه. وهذا يمكن أن يفسر الرفض المبدئي الذي أبداه خالد بكداش حيال الوحدة السورية. المصرية. وقد حدد الحزب الشيوعي موقفه من الوحدة، فربطها بالديموقراطية، وأصدر نقاطاً عشراً، اعتبرها نقاطاً لا بد منها لقيام أيّ وحدة بين أيّ بلدين عربيين.

وكان على بكداش وحزبه أن يدفعا ضريبة باهظة لهذا الموقف ولرفض بكداش الصارم حلّ الحزب، رغم كل المغريات والتهديدات، بيد أن صمود بكداش وصمود عدد كبير من أعضاء حزبه رسم حوله هالة من التقديس بين أتباعه، أدى فيما بعد إلى اتهامه بتكريس عبادة الفرد من قبل جزء من هؤلاء الأتباع أنفسهم، وشنّ خالد بكداش حملة منظمة ضدّ حكم الوحدة، وكتب كثيراً من المقالات، وألقى العديد من الخطابات في المحافل الدولية، شرح فيها كيف أثرت الوحدة سلباً على التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لسورية، ولعل أهمّ هذه المقالات تلك التي كتبها في (المجلة الدوليّة الجديدة)، في تشرين الثاني /1959/، وبسط فيها بوضوح كامل كيف أنّ نظام الوحدة قضى على التقاليد الديموقراطية التي تكونت في سورية تاريخياً، كحرية الكلام والنشر والصحافة وحرية الاجتماعات.

ولا يعتز خالد بكداش فقط بأنه رفض حلَّ حزبه، في حين قبلت بذلك كل الأحزاب الأخرى بما في ذلك حزب البعث؛ ولكنه يفاخر أيضاً بأنه لم يوقّع على وثيقة الانفصال التي وقع عليها عدد كبير من السياسيين السوريين، إثر اجتماعهم في منزل أحمد الشرباتي أواخر أيلول 1961، في حين وقّع عليه قوميون عرب استلموا مناصب عليا في حكم الوحدة، كأكرم الحوراني وصلاح البيطار. غير أنّ بكداش لم يكن في سورية إذّاك، ولا يستطيع أحد أن يجزم ما الذي كان يمكن له أن يفعل، إذا ما طُلب إليه حضور هذا الاجتماع وتوقيع الوثيقة.

عاد خالد بكداش إلى البلاد سراً، أثناء حكومة بشير العظمة. وكان شخصاً غير مرحَّب به من قبل قادة الانفصال، ولا سيّما العسكريين. وينقل عن الجنرال عبد الكريم زهر الدين قوله: «إنّ خالد بكداش، إذا عاد إلى سورية، فإن حبل المشنقة بانتظاره». وظل بكداش، طيلة فترة الانفصال وخلال الأيام الأولى لحكم البعث، محيّداً عن العمل السياسي المباشر؛ وكان يركز أكثر على إعادة بناء حزبه الذي تأثر كثيراً بالضربات المتلاحقة التي تعرض لها خلال حكم الرئيس جمال عبد الناصر؛ وظل طيلة هذه الفترة يعيش متخفياً، ولم يظهر للعلن ليعيش حياة طبيعية، إلا بعد أن استولى الجناح اليساري لحزب البعث على السلطة في 23 شباط 1966.

ترافق وصول حزب البعث إلى السلطة بتغير في المزاج العام للحركة الشيوعية العالمية؛ ونشأ ما عُرِفَ بنظرية التطور اللارأسمالي التي عنت وقتها أنّ بعض الأمم

يمكن أن تنتقل إلى الاشتراكية دون المرور بمرحلة الرأسمالية. وتقتضي الأمانة أنّ خالد بكداش كان من القلة الذين تمردوا على التوجه العام للحركة الشيوعية العالمية بقيادة خروتشوف، وجادل بقوة ضدّ وجهة النظر التي تقول بأن: «الطبقة العاملة في البلدان المتحررة حديثاً قد فقدت دورها نهائياً، وأنّ بناء الاشتراكية في هذه البلدان سوف يتم من دون أن يكون للطبقة العاملة في هذه البلدان دور أساسيٌ في هذه العملية». وظل يقاوم هذا الاتجاه بقوة، مما أضعف مكانته الدولية التي كان يحتلها في الحركة الشيوعية العالمية. بيد أنّ وصول حزب البعث إلى السلطة، وتوجه السوفييت للتعاون مع النظام الجديد باعتباره نظاماً (ديموقراطياً ثورياً)، أفقد بكداش كلّ أسلحته، واضطر أخيراً إلى الوصول إلى تسوية بينَ الوجه الجديد وبين قناعاته، تجسدت في المؤتمر الثالث الذي عقد في العام 1969.

وكان المؤتمر الثالث نقطة فارقة في تاريخ خالد بكداش وتاريخ حزبه الشيوعي؛ ففي هذا المؤتمر تجرأ بعض الرفاق واتّهموا بكداش بالفردية والتسلط وتشجيع عبادة الفرد، وبدأ أول انقسام في تاريخ الحزب يظهر على السطح، هذا الانقسام قاده الشيوعي الشاب رياض الترك الذي فرض على الحزب انتخابه عضواً في المكتب السياسي للحزب بعد المؤتمر الثالث؛ وأخذ هذا التيار المعارض للقيادة التاريخية لخالد بكداش ينمو ويكبر بسرعة متزايدة في صفوف الحزب، بشكل أرّق بكداش وأقضّ مضجعه، وكان يمكن أن تؤدي إلى هزيمة تاريخية له.

غير أنّ الخلاف داخل الحزب لم يكن خلافاً تنظيمياً بالدرجة الأولى بل خلافاً عقائدياً وسياسياً. وقد بدأ الخلاف إثر هزيمة حزيران 1967، عندما بدأت حركة انزياح كبيرة تشهدها القوى القومية والماركسية في سورية وغيرها من البلدان العربية. هذه الحركة تجسدت داخل الحركات القومية، ولا سيما القوميين العرب، بانزياح نحو الماركسية. وهكذا رأينا كيف تحول جورج حبش ونايف حواتمة وحتى أحمد جبريل ومفكرون بعثيون إلى الفكر الماركسي. أمّا في خندق الماركسية، فشهدنا انزياحات فكرية نحو الفكر القومي، في الأردن ولبنان والعراق وسورية؛ كان أبرزها ربما التيار الذي قاده رياض الترك داخل الحزب الشيوعي السوري.

ترافق نمو هذا التيار داخل الحزب مع وصول الرئيس الراحل حافظ الأسد إلى السلطة في عام 1970، وفتح مجالات أوسع للقوى القومية والماركسية

للمشاركة ولو شكلياً في الحكم عبر الجبهة الوطنية التقدمية. ويؤكد بعض المحللين أنّ حزب البعث لعب دوراً في انقسام الحزب الأول، كما في كل انقساماته اللاحقة .

وتمكن الترك، خلال سنتين، من حشد أكثرية واضحة في قيادة الحزب وقواعده؛ وانقسم المكتب السياسي إلى أكثرية يقودها الترك وتضم أغلبيّة السادة عمر قشاش ودانيال نعمة وظهير عبد الصمد وإبراهيم بكري، وأقلية تضم إضافة إلى خالد بكداش، ويوسف الفيصل. وهو السبب الذي جعل اتجاه الترك يأخذ اسم المكتب السياسي كتمييز له عن تيار خالد بكداش. وكان على بكداش أن يتحرك بسرعة، وهذا ما فعله. ولقد استطاع خلال فترة قصيرة، وبمساعدة كبيرة من سياسي محنك آخر هو يوسف الفيصل، على تغيير دفة الأمور من هزيمة إلى نصر جديد. أما الطريق الذي سلكه فهو تحويل الخلاف من خلاف تنظيمي يتمحور حول الدكتاتورية داخل الحزب، وظاهرة عبادة الفرد، إلى خلاف أيديولوجي سياسي جوهره «تحريف الماركسية والارتماء في أحضان الفكر القومي»، ومن ثمَّ الابتعاد عن (الرفاق الكبار) في الاتّحاد السوفييتي. واستنجد بكداش بفريقين من العلماء النظريين و«القادة السياسيين» من الحزب الشيوعي السوفييتي، الذين سارعوا إلى دعم وجهة نظر الزعيم التاريخي للحزب، بمواجهة تمرد «الرفاق البرجوازيين الصغار».

كان لانعقاد المجلس الوطني للحزب عام 1971، أثر كبير في تعزيز وجهة نظر الأمين العام، الذي كان قد تقدم بنقد ذاتي لدوره في التفرد بقيادة الحزب؛ ولعدم انعقاد مؤتمر عام للحزب لمدة خمس وعشرين سنة. غير أنّ هذه كانت المنطلق الذي انطلق منه بكداش، ليشنَّ هجوماً لا هوادة فيه على الاتجاه «البرجوازي الصغير» داخل الحزب. ويمكننا هنا أن نتخيل هذا القائد التاريخي بقامته المديدة وصوته الرجولي وحضور «أربعين عاماً من النضال»، وهو الشعار الذي سيرفعه بكداش بعد ذلك بعامين في حملته الانتخابية، وهو يبين كيف أنّ الحزب «يجذب عناصر من مختلف الفئات الاجتماعية دون استثناء، ولكن ليس لكي يتقولب معها، بل لكي يقلبها إلى العقليّة البروليتارية». أمّا أخطر هذه العناصر بالنسبة له فهي «البرجوازية الصغيرة التي قد تدفعها مصالح آنية أو إغراءات أو البحث عن زعامات

للدخول إلى الحزب، ولا سيّما في ساعات النهوض». وحدد بكداش أنَّ الخطر الأساسي، يأتي من هذه العناصر البرجوازية الصغيرة ومن تعصبها القومي.

لا ندري كم كان بكداش مقتنعاً بخطابه السياسي ذاك، ولكننا نستطيع أن نصف هذا الهجوم بأنه ضربة معلم. ولقد تضافرت جهود بكداش وصديقه (يوسف الفيصل) - ولكن ليس لأمدٍ بعيد - مع الدور الذي قام به السوفييت في إضعاف الجناح الذي قاده الترك إلى حد كبير. وانطلاقاً من أن الهجوم خير وسيلة للدفاع، سارع خالد بكداش ويوسف الفيصل لإعلان الوثيقة التاريخية الشهيرة، التي عرفت باسم (بيان نيسان) التي كانت بمثابة بيان انقسامي، أُقْصيَ بموجبه السيد رياض الترك ومجموعته من جنة الشيوعية المدعومة سوفييتياً، ولعب بكداش اللعبة بذكاء مشهود، حينما لم يذكر بالاسم إلا السيد رياض الترك، محيّداً بذلك المجموعة التي عرفت باسم (الثلاثي)، وتتألف من: دانيال نعمة، وظهير عبد الصمد. وكانت الضربة الأقوى التي ألمت بجناح الترك، هي عودة الثلاثي إلى جناح خالد بكداش، بعد أشهر من بيان نيسان. ولما كان خالد بكداش ودانيال نعمة عضوين في القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية، فقد عنى ذلك أن تيار الترك لم يعد ممثلاً بهذه القيادة، ويبدو أن الاتحاد السوفييتي ضغط على الرئيس الراحل حافظ الأسد ليعترف بجناح واحد من الحزب، على عكس ما جرى مع كافة القوى الأخرى الممثلة في الجبهة، والتي انقسمت جميعها، وبقيت كافة الأطراف ممثلة فيها.

مع ذلك، لم يطل المجال بالرجل الذي أصبح في حدود السبعين من العمر، عندما بدأ الجميع يخذلونه، وظل متمسكاً بالماركسية اللينينية ومنصب الأمين العام؛ فانسحبت مجموعة من الشيوعيين الدمشقيين بقيادة عضو المكتب السياسي مراد اليوسف، الذي تمرد أيضاً على تفرد خالد بكداش بالسلطة داخل الحزب. ولعل ذلك مهَّد للانقسام الأكبر الذي جرى في صفوف الحزب عام 1986، الذي قاده هذه المرة خالد بكداش نفسه، ضد الصديق التاريخي له: السياسي المحنك والمجرّب يوسف الفيصل. ولعل الأخير هو الوحيد الذي استطاع أن يحقق نصراً على القائد التاريخي الذي كان قد بلغ الخامسة والسبعين من العمر؛ والنصر الذي حققه الأخير أنه استطاع أن يحشد معه ليس فقط الأكثرية العددية

في قيادة الحزب، ولكن أيضا رجالاته التاريخية، ساحباً معه الثلاثي الشهير: نعمة، والبكري، وعبد الصمد، وموريس صليبي، وخالد حمامي؛ وأهمّ من ذلك استطاع أن يحظى بتأييد الاتحاد السوفييتي. وكانت وجهة نظر المبعوث السوفييتي بريماكوف واضحة في هذا الاتجاه.

إلى ذلك تمكن يوسف الفيصل من التنسيق مع العناصر التي كانت غادرت الحزب زرافات ووحداناً، فضمَّ إليه مجموعة مراد يوسف ويوسف نمر وواصل فيصل (اللذين كانا انسحبا مع رياض الترك ثم انشقا عنه ليشكلا حركة اتحاد الشيوعيين) وبدر الدين السباعي، المفكر الشيوعي الذي بقي منذ الانقسام الأول بين بكداش والترك خارج صفوف الحزب، داعياً لوحدة الشيوعيين، وأيضاً القائد الشيوعي بدر الطويل الذي كان قد ترك بدوره صفوف المكتب السياسي، وأعاد الاعتبار أيضاً لشخصيات شيوعية قديمة، كان بكداش قد تخلص منها لسبب أو لآخر، ومن أهمها المحامي والأديب المعروف نجاة قصاب حسن.

كان ينبغي لذلك أن يكون درساً للرجل الكبير الذي لم يعرف الهزيمة في حياته. ولكنه لم يستطع أن يلعب لعبته القديمة نفسها التي كان لعبها قبل أربعة عشر عاماً، وهي تحويل الخلاف التنظيمي إلى سياسي، فاتّهم يوسف الفيصل ومن معه بأنهم اشتراكيون ـ ديموقراطيون يريدون هدم الفكر اللينيني وإحياء فكر الأممية الثانية. كما اتهم تياراً (صهيونياً) داخل الحزب الشيوعي السوفييتي يقوده بوناماريوف بتعزيز الانقسام داخل الحزب. أمّا يوسف الفيصل فقد كان همه، كما يرى بكداش: «تخريب الحزب الشيوعي، وتحويله إلى ناد للثرثرة وتعدد المنابر». كان تعدد المنابر تهمة بنظر القائد الشيوعي الذي ظل حزبه يتضاءل، ويسقط منه الرفاق على الطريق، حتى تحول أخيراً إلى حزب عائلي ذي منبر واحد. وعندما جاء غورباتشوف إلى السلطة في الاتحاد السوفييتي، رأى خالد بكداش أنّ الوقائع أيدت رأيه، فلقد سار «الرفاق الآخرون الذين انفصلوا .. في طريق تأييد المرتدين والمنحرفين في الاتحاد السوفييتي».

كان خالد بكداش كردياً، ولكن القضية الكردية لم تشكل أبداً قضية مستقلة عن قضية الصراع الطبقي والوطني. كان يسمي نفسه كردياً من العرب المستعربة، ولطالما كرّر أن: «للعرب والأكراد تاريخاً مشتركاً». ثم يضيف أن القضية القومية

الكردية: «أثيرت في السنوات الأخيرة لغايات سياسية محضة». ورغم أنّه وقف ضد كل التيارات القومية العربية داخل حزبه وخارجها، فقد قاد حملة للتعريب داخل الحزب. والتعريب كان يعني تخليص الحزب من هيمنة الأرمن، ويفخر بكداش بهذا (الإنجاز). وهو يلخّصها ببساطة تثير الاستغراب: «كان هناك جماهير أرمنية في لبنان وسورية. وقد ضم الحزب أعداداً كبيرة من الأرمن». وبرزت في هذه الأثناء أن الأرمن كثيرون في الحزب. ولقد بذل كل جهد لكي يجعل أغلبية القيادات في الحزب عربية. ونجح في ذلك.

بيد أن التعريب امتدّ أيضاً إلى اليهود. ولا يُكنُّ خالد بكداش كبير مودة لليهود، سواء أكانوا شيوعيين أم لا. وفي هذا المجال يقول بما يشبه الفخر: «ليس لدينا يهود في الحزب الشيوعي السوري». ثم يحكي عن يهودي بولوني أرسله الكومنترن، ليعمل في صفوف الحزب في بيروت. «وبعد ذلك، ومع ظهور وجهه الصهيوني، عملنا على إبعاده، وأبعدناه: عملنا له باسبوراً وسفرناه. راح!».

ويقبل بكداش أن يضمّ الحزب يهودياً بشروط خاصة، ولكنه يرفض أن يكون في القيادة يهودي. وهي النصيحة التي قدمها إلى قيادة الحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي المصري: «طلبنا من الرفاق المصريين أن يخرجوا كل اليهود من قيادة الحزب». وعندما أبدى المصريون استغرابهم، وسألوه كيف يوفق بين مواقفه الأممية وموقفه من اليهود، كان جوابه بسيطاً: «يا أخي الأممية لا تقتضي وجود يهود في قيادة أحزابنا».

خالد بكداش، رجل ليس له أصدقاء، بل رفاق، يحب السباحة والصيد، مغرم بالشِّعر الجاهلي، بامرئ القيس وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم، ومن الشعراء المعاصرين الجواهري ونزار قباني وسعيد عقل. لا يعرف نزيه أبو عفش ورياض الصالح الحسين، ولكنه سمع شعراً لمحمود درويش ومظفر النواب. يدندن أحياناً بينه وبين نفسه، ويحب أم كلثوم وعبد الوهاب وأسمهان وفيروز. سمع بعض الأغاني لمارسيل خليفة والشيخ إمام، ولكن ليس عنده وقت للغناء.

يقرأ باستمرار، يراجع دائماً المراجع الماركسية وكتب لينين، كما يقرأ روايات وقصصاً. لم يقرأ غرامشي ولا ألتوسير ولا ماركوزا. يعجبه كتاب ستالين (أسس اللينينية). يجيد الفرنسية والروسية وقليلاً من الكردية. يعجبه تشيخوف

وتولستوي ودوستويفسكي وغوركي وموباسان وزولا وأندريه مالرو، ولا سيّما روايته (الشرط الإنساني). تعجبه الواقعية، ولكنه لا ينسى الرومانسية. وكنوع من التناقض، يقول إنه مع حرية الأدب والكتابة، وهو لا يحب رواية (دكتور جيفاكو) للمنشقّ الروسي باسترناك، ولكنه ضد أن تمنع من النشر.

وصال فرحة بكداش زوجته الأولى والأخيرة، وإن كان عرف بعض الفتيات قبلها، ولكنهن لم يكنَّ يردن الزواج برجل ملاحق. أحبته مرة ابنة أحد الأغنياء، ولكنه رفض الزواج منها، لأنها ابنة رجل أرستقراطي. حفظ القرآن، ولكنه لم يدخل مسجداً في حياته. لا يؤمن بالسحر. وشعاره «الدين لله والوطن للجميع».

سواء أأحببته أم كرهته، يبقى خالد بكداش واحداً من الذين رسموا تاريخ هذا الوطن في القرن العشرين.

وائل السواح

صلاح الدين البيطار

المؤسس الثاني

(1912-1980)

في مشهد جرى في المجلس النيابي، ولم يكن نادراً في خمسينيات القرن الماضي؛ استُهل قبل دخول رئيس الوزراء فارس بك الخوري إلى مبنى البرلمان الذي تمركزت عند مدخله مظاهرة من الطلبة اليساريين؛ أحاطت بفارس بك وهتفت بسقوطه ووزرائه بألفاظ نابية. بعد دخوله وقف أحد النواب وأخذ يصرخ ويزعق متهماً الشرطة بإطلاق الرصاص على الطلاب؛ ثم تبين كذب زعمه. تأثر فارس بك مما قوبل به، وألقى كلمة وجيزة قال فيها: «يؤسفني جداً أن أقابل بمثل هذه المظاهرات الغريبة العجيبة... من شبان هم كأولادي، وأنا حريص على ثقافتهم وعلى مستقبلهم... لقد ضحيت كثيراً في ماضيَّ الطويل، والآن أتقدم بتضحية جديدة واتُّهم بالخيانة...» وتابع كلامه وبيَّن أنه على استعداد ليسمع الاعتراضات والانتقادات على بيانه الوزاري. أما عن الآخرين ويقصد بهم جماعة اليسار: «الذين بيتوا أمرهم ولا يريدون أن يسمعوا كلامنا وينصفونا... والله بحسب الظاهر، لو وضعنا الشمس في يمينهم والقمر في يسارهم، لا يرجعون عما بيّتوا من الأمر».

عندما جاء دور نواب اليسار من حزب البعث، قال الدكتور وهيب غانم إنه لما رأى الخوري يتقدم إلى المنبر «أشفق على الشيخوخة مرة وعلى الوطن عشر مرات». على هذا النمط تكلم نواب اليسار رغم ضآلة عددهم (22 نائباً). المهم ما قاله الأستاذ صلاح الدين البيطار: «متى كان الحكم المستقر مبنياً على أكثرية نيابية؟ الحكم أيها السادة يقوم على أكثرية شعبية لا أكثرية برلمانية...». وذهب البيطار في كلمته إلى تبرير الانقلابات تعقيباً على البيان الوزاري الذي هاجمها: «... فالانقلابات العسكرية التي حدثت، يجب أن نعلم جميعاً بأنها ليست من فعل المغامرين، وأنها لم تنشا عن شهوة الحكم أو جنون في رأس المغامر، لأن أيّ مغامر

كان، لا يمكن أن يقلب الأوضاع ما لم يجد في الشعب تجاوباً، وما لم يجد في الشعب رغبة في التخلص من الحكم الذي أخذ على عاتقه أمر التخلص منه، فالانقلابات ظاهرة سلبية للحكم الديمقراطي الأجوف الذي لا نزال نصرّ على إبقاء البلاد فيه..».

وسوف تدور الأيام، لينقلب هذا الكلام على صاحبه صلاح البيطار، ليصبح واحداً من ضحاياه المرموقين، وليطالب بعدها بالديمقراطية والأكثرية البرلمانية، وينعت الانقلابيين بالمغامرين، وليدرك أن الشعب مضطر إلى التجاوب اضطراراً، وهو الخاسر الأكبر.

❖ ❖ ❖

ولد صلاح الدين البيطار عام 1912 في دمشق حي الميدان، لأسرة عريقة معروفة بالعلم والتدين. جده الشيخ سليم البيطار الملقب بالفرضي، وعمه الشيخ محمد البيطار شغل منصب أمين عام الفتوى في دمشق، وعمه الثاني الشيخ عبد الرزاق البيطار مؤلف كتاب «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر الهجري».

درس البيطار في مدارس دمشق، وأنهى المرحلة الثانوية في مكتب عنبر عام 1928. نجح في أول بعثة أوفدتها الحكومة لدراسة العلوم في باريس وتخصص بالفيزياء؛ وهناك اجتمع بميشيل عفلق، وسيرتبطان معاً بصداقة طويلة، يجمعهما طلب العلم والعمل الرفاقي الفكري والحزبي والسياسي في تنظيم واحد؛ وتتواكب حياتهما خطوة بخطوة، فقد أسسا الحزب نفسه، وخاضا المعارك ذاتها، وعاشا في خضم الأحداث عينها. حتى كادت مسيرتهما أن تتطابقا، على الرغم من الاختلاف في الدين فأحدهما مسيحي والآخر مسلم، والمفارقة أن الدين كان مبعث توافق بينهما، وإن كان على نحو متناقض في المآل، فعفلق المسيحي سيكني نفسه بأبي محمد، ويسمى ابنه باسم الرسول الكريم، ويعلن إسلامه في أواخر عمره. أما البيطار فسوف يتخفف من السمة الدينية في اسمه، فاسمه الحقيقي الذي سماه به أبوه هو صلاح الدين، وكان يؤثر أن يسمي نفسه صلاح البيطار.

تأثر البيطار في باريس بالأفكار الاشتراكية، وتعاطف مع الأحزاب والحركات اليسارية، ومال للحزب الشيوعي الفرنسي بسبب معاداته للاستعمار ومساندته للحركات الوطنية في المستعمرات؛ لاسيما معارضته لإرسال الجنود والإمدادات إلى المشرق العربي لتعزيز الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان.

عاد البيطار إلى دمشق في عام 1934 بعد أن أنهى دراسته مع عفلق، وعُينا في مدرسة التجهيز الأولى، درّس البيطار علم الفلك والفيزياء، ودرّس عفلق مادة التاريخ. كانا متلهفَين لنشر أفكارهما، كان الطلبة أكثر العناصر وعياً في المجتمع، وكانت المدارس أرضاً خصبة للأفكار السياسية؛ تُعبِّر البلاد من خلالها عن معارضتها وهمومها وتطلعاتها بواسطة الإضرابات. وكانت المظاهرات هي الوسيلة المعتمدة للاحتجاج، يُحرض عليها ويقودها الطلاب المتوزعون في ثانوية حكومية كانت (التجهيز الأولى)، وثانويتان أجنبيتان هما، (الفرير) و (اللاييك)؛ وأهليتان هما، (ثانوية العائدي) و (الآسية). يخرج الطلبة من الثانويات ويتجمعون عند أبواب مدرسة التجهيز ويتوجهون إلى كليتي الآداب والحقوق والطب في الجامعة القريبة، لتتشكل منهم مظاهرة تطوف شوارع دمشق الرئيسية، ينتهي بها المطاف في الجامع الأموي، هناك تعقد الاجتماعات وتلقى الخطب الحماسية.

استغل الأستاذان عفلق والبيطار التدريس للدعاية للفكر الاشتراكي، وشاركا في (ندوة المأمون) حيث كانت تقام المحاضرات واللقاءات الثقافية؛ كان عفلق يجد فيها متنفساً لميوله الأدبية كشاعر وكاتب قصة، ينشرها في الجرائد الدمشقية آنئذ. وقد أسسا معاً تجمعاً حمل اسم (جماعة الإحياء العربي)، وأصدرا نشرة بالاسم نفسه. كذلك تعاونا مع مجموعة من الأساتذة والمثقفين الماركسيين على إصدار مجلة (الطليعة) ذات طابع يساري، اتسمت بنظرات متحررة وثورية في قضايا الأدب والاجتماع والسياسة.

مع بدء اتصالهما بالأوضاع السياسية في دمشق، وجها إلى تركيبة الكتلة الوطنية انتقادات قوية بدعوى أنه يُسيرها سياسيون من أولاد العائلات الثرية لا تمكنهم انتماءاتهم الطبقية والعائلية من رؤية المصلحة الوطنية بشكل كلي؛ تحجبها مصالحهم الشخصية المادية والاقتصادية. كذلك انتقدوا الحزب الشيوعي السوري بسبب هيمنة الحزب الشيوعي الفرنسي على قراراته؛ وعلى

التأكيد كان لتأثير الكاتب الفرنسي أندريه جيد، في كتابه الذي يصف فيه رحلته إلى الاتحاد السوفيتي تأثيراً كبيرا عليهما، وفيه عبر جيد عن خيبته المريرة من النظام الشيوعي المطبق في روسيا الستالينية.

في زمن الانتدابات وعلى أعتاب الحرب العالمية الثانية، كان العالم العربي، لاسيما العراق وسورية، يعيش مرحلة طرح التساؤلات المصيرية، لم يغب عنها الأستاذان القادمان من باريس: ما موقع الأمة العربية... ماذا عن دورها في العالم؟!... ماذا يكون موقف الفكر العربي من الاتجاهات السياسية المعاصرة: الليبرالية، الماركسية، الفاشيستية، الاشتراكية، وهي بمجموعها كانت تعكس مشكلات المجتمعات الأوربية وآفاق تطلعاتها نحو المستقبل بعيداً عن حاجات الأمة العربية في هذا العصر؟

احتدمت المناقشات في الأوساط السياسية والفكرية في دمشق؛ حول القومية العربية والعروبة والإسلام، وكانت إجابات الأستاذان نقية وبريئة وحاسمة: القومية قدر محبب... القومية حب قبل كل شيء... القومية هي العروبة والإسلام.

على أن ثورة رشيد عالي الكيلاني التي اندلعت في العراق عام 1941 ضد الانتداب الإنجليزي، سوف تستأثر بمشاعرهما ونشاطاتهما، فيشكلان حركة (نصرة العراق) من طلاب وطالبات الثانويات والجامعة. ويطوفان من أجلها المدن السورية. ويصدران منشورات وبيانات بتوقيع حركة الإحياء العربي. في ذلك الوقت أدركا حاجة سورية إلى حزب عربي يستمد أيديولوجيته من وحدة العرب وتاريخهم ودورهم المنتظر في العالم. مهدوا لها بتشكيل حركة شباب البعث العربي.

وسوف ينساقان لتطلعاتهما المثالية، فيرفعان في 3 تموز 1942 كتاباً إلى وزارة المعارف، يستنكران فيه الأساليب المنتهجة في الامتحانات، ويتخلفان عن حضور الفحوص المدرسية الجارية. وفي 24 تشرين الأول، يرفعان كتاباً ثانياً باستقالتهما احتجاجاً على نظام التعليم المتبع في السنوات الأخيرة، وما وصل إليه من تدهور في البلاد، ويشيران إلى عجز الدولة عن الإصلاح.

بعد أن قدم البيطار وعفلق استقالتيهما، اختارا مقراً لهما، مقهى الطاحونة الحمراء القريبة من مدرسة التجهيز ليتسنى لهما الالتقاء بالطلاب كل يوم؛ متوجهين نحو الأجيال الناشئة، يزرعون فيهم الفكرة ويبذرون العقيدة داخل من سيكونون حَمَلَة مشاعل التغيير في المستقبل. في النصف الأول من الأربعينيات ستتبلور وبوضوح الأفكار الرئيسة: العرب أصحاب رسالة ظهرت معالمها في نموذج الإسلام الأول؛ وتكررت في التاريخ، ويمكن أن تتجدد دوماً بروحها لا بنصها. تجديد الدور التاريخي والإنساني الموحد لتجربة الإسلام، وإعطائه أشكالاً جديدة تفصح عن عبقرية الأمة العربية. رسالة الإسلام خلق إنسانية عربية. تجسيد فكرة الأمة المثلة الوحيدة للقومية العربية. وفي محاضرة ألقاها عفلق على مدرج الجامعة السورية، وجه نداءه إلى المسيحيين الذين جذبتهم فرنسا، ودعاهم للانخراط في حركة القومية العربية واعتبار الإسلام ثقافة قومية مرتبطة ببيئتهم الطبيعية. لم يستجب المسيحيون لدعوة عفلق، ولم يطمئن إليها المسلمون.

هذا الاختمار السياسي والفكري لم تغب عنه الأخلاق: يجب فهم السياسة كفرع من الأخلاق، مبادؤها مبادئ أخلاقية... نحن مثاليون قبل كل شيء...هل الغاية تبرر الواسطة؟ لن نفرق بين الغاية والواسطة، وسوف ننكر أي عمل سياسي يخون مبادئ الأخلاق... لن تكون السياسة حرفة، ولن نتحول إلى نفعيين.

❖ ❖ ❖

في 7 نيسان 1947 في حشد ضم حوالي مئتين من المثقفين والأساتذة والأطباء والطلبة، عُقد المؤتمر التأسيسي للحزب في مقهى الرشيد، أُعلن فيه عن قيام حزب البعث العربي، وتضمن البيان السياسي: «العرب أمة واحدة... حرية الكلام والاجتماع والاعتقاد... لن تكون للعرب حياة تقدمية إلا بانقلاب شامل على الواقع الفاسد...». وتم انتخاب صلاح البيطار عضواً في القيادة القومية، واُعتُبر المؤسس الثاني لحزب البعث بعد ميشيل عفلق عميد الحزب، وكان من المؤسسين أيضاً: زكي الأرسوزي وجلال السيد، وقرروا إصدار جريدة باسم البعث.

أثبت الحزب وجوده سواء في فشله الذريع في الانتخابات البرلمانية تموز 1947، أو بمشاركته بحرب فلسطين بإرسال كتيبة إلى الجبهة. وطالب الحزب

بعد الهزيمة والهدنة باستئناف الحرب ومحاكمة المسؤولين عن النكبة. ودعا إلى إضراب عام واجتاح الشوارع بالمظاهرات. ردت الحكومة بمنع التجول وفرض الأحكام العرفية، وأوقفت الشرطة خمسين عضواً من الحزب، وصدر بحق عفلق والبيطار أحكاماً بالسجن بتهمة التحريض على أعمال الشغب والتهجم على وزير الداخلية.

أيد البيطار في عام 1949 انقلاب حسني الزعيم، معتبراً أن الجيش أداة أمينة نفذت رغبة قومية: «لكن ما حدث لم يكن هو الانقلاب الذي يطمح إليه الحزب... ما نطمح إليه هو انقلاب شامل». على أن الحزب خلافاً لتقديراته الأولى، سيتلمح بعد فترة وجيزة بوادر دكتاتورية عسكرية؛ فحاول إسداء النصح لقائد الانقلاب، فذكره برغبة التغيير الشاملة التي دعته إلى تأييده، مع التشديد على الديمقراطية. فثارت ثائرة الزعيم ضد الحزب وأمر باعتقالات واسعة، طالت قادته وأفراده. ومما لاريب فيه أن عفلق والبيطار تعرضا في السجن إلى ضغوط نفسية وإهانات وتهديدات؛ مما جعل عفلق يكتب من داخل معتقله رسالة إلى دولة الزعيم يعترف فيها بأخطائه وأخطاء حزبه، ويعزو معارضته إلى تسرع بريء. ورجاه، بأن يقبل شباب حزبه في عداد جنوده البنّائين، وإذا لم يرغب فسوف يلزمون الحياد والصمت. أما بالنسبة له فقد اختار الانسحاب نهائيا من كل عمل سياسي. ويختم رسالته، مناشداً الأب الزعيم، الرأفة وألا يحمل حقدا على أبنائه.

شكلت الرسالة ضربة صاعقة وموجعة للحزب الذي نذر نفسه للنضال؛ وبلغ أعضاؤه الذروة في التصلب. إذ به يسقط مستسلماً بشخص عميده لدى أول مواجهة للنظام العسكري. بعد خروجه مع البيطار من السجن شن عليهما رفاقهما وتلامذتهما حملة تجريحية قاسية وطالبوا بمحاكمة عفلق، على أنهم سيتراجعون عن إدانته، ولن يفرّطوا به. كان عفلق يمثل ضمير الحزب وصانع مبادئه. فعادوا وجددوا ثقتهم به وولاءهم له.

بعد الإطاحة بالزعيم لم يتجاهل ضباط الانقلاب الثاني حزب البعث ومعه الحزب العربي الاشتراكي. فدعوا قادتهم إلى اجتماع في مبنى أركان الجيش ضم أغلب الأحزاب: كان الحدث الأول هو دخول حزب البعث لأول مرة إلى الحكم في الوزارة الجديدة يمثله ميشيل عفلق كوزير للتربية الوطنية، ما شكل اعترافاً بتأثيره

في أوساط الطلبة. والحدث الثاني، دخول الحزب العربي الاشتراكي الوزارة للمرة الثانية يمثله رئيسه أكرم الحوراني كوزير للزراعة، اعترافاً بتأثيره في الأوساط الفلاحية؛ فيما سيطر حزب الشعب على أغلبية المقاعد الوزارية.

لكن عفلق سيخفق في الدورة الأولى من الانتخابات البرلمانية، وينسحب في الثانية، ثم يستقيل من الحكومة احتجاجاً على تجاوزات ارتكبها وزير الداخلية في الانتخابات لصالح حزب الشعب. ومع هذا دخل البرلمان مرشح الحزب جلال السيد الذي لم ينجح بقوة الحزب، بل لما كان له من مكانة ونفوذ شخصيين في منطقته دير الزور. وهذا ما نبه الحزبيين إلى ضعف رصيدهم الشعبي في معقلهم دمشق. بينما نجح أكرم الحوراني عن مدينته حماه، دون أن يفقد مقعده في البرلمان منذ عام 1943، مما دفع أعضاء الحزبين إلى الدعوة لتوحيدهما في حزب واحد. لكن البيطار وعفلق على الرغم من صلاتهم الجيدة بالحوراني كانوا غير مقتنعين بأساليبه، وناوأا الفكرة بسبب ماضيه في الحزب القومي السوري، وسمعته كمغامر كان وراء انقلاب حسني الزعيم الذي كافأه بوزارة العدل في أول تشكيلة وزارية في عهده. بالإضافة إلى مساهمته في انقلاب الحناوي.

عقب فوز حزب الشعب في انتخابات الهيئة التأسيسية، سادت البلاد أجواء وحدة وشيكة بين سورية والعراق، مهد لها ممثلو حزب الشعب في البرلمان، بإعداد نص القسم النيابي مغفلين منه التأكيد على النظام الجمهوري للدولة. ومع أن عفلق والبيطار كانا ميالين لتأييد الوحدة، فقد كان للوحدة عليهما تأثير السحر الذي لا يقاوم. وكادا أن يوقعا على بيان الوحدة ويضحيا بالجمهورية، لكن مظاهرات الطلبة البعثيين، هتفت ضد الوحدة مع نظام ملكي، وفضلت النظام الجمهوري. مما اضطرهما إلى الخروج ببيان شددا فيه على مجرد فكرة الوحدة. وطالبا بالنسبة إلى الوحدة مع العراق بتوفر ضمانات تحافظ على النظام الجمهوري.

سينهي الانقلاب الثالث هذا الجدل، ويعلن الجيش حفظ استقلال البلاد ونظامها الجمهوري. فسارع الحزب وأيد العقيد الشيشكلي الذي وعد بترك إدارة البلاد لحكامها الشرعيين. لكنه لم يف بوعده وواظب على التدخل في شؤون الحكم، مما دفعه إلى الاصطدام بحزب الشعب مؤيد الوحدة مع العراق؛ فقام

بانقلابه الثاني وزج قادته بالسجن، بينما ناصره الحوراني وحزب البعث والقومي السوري، ولم يطل الأمر عندما منع الشيشكلي جريدة البعث واصدر حظراً عاماً على جميع الأحزاب السياسية.

لم ينته عام 1952 إلا وسارع حزب البعث العربي بمثقفيه من طلاب ومدرسين مع الحزب العربي الاشتراكي بفلاحيه وصغار العسكريين إلى الاندماج في حركة سياسية واحدة، سميت (حزب البعث العربي الاشتراكي)؛ ميشيل عفلق أمينها العام، وصلاح البيطار وأكرم الحوراني عضوان في لجنتها التنفيذية. واضطر الثلاثة للفرار إلى لبنان بعد التضييق عليهم. على الأثر طلب الشيشكلي من الحكومة اللبنانية إبعادهم عن أراضيها، فسافروا إلى روما. خلال غيابهم انتخُب الشيشكلي رئيساً للجمهورية وأُقرّ الدستور، وفازت «حركة التحرير» التنظيم الذي أنشأه الشيشكلي، بأغلبية المقاعد في البرلمان. أصدر الشيشكلي عفواً عاماً عن جميع خصومه السياسيين،عاد بموجبه الزعماء الثلاثة إلى البلاد ليمارسوا نشاطهم من جديد، وليسهموا مع بقية الأحزاب، بإسقاط حكمه بواسطة انقلاب عسكري انطلقت شرارته من حلب، بقيادة ضابط بعثي. وكانت حصة الضبّاط البعثيين في الانقلاب واضحة.

استدعى ضباط الانقلاب هاشم الأتاسي إلى رئاسة الجمهورية مع الهيئة التأسيسية؛ وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي في حكومة ائتلافية، تضم حزب الشعب والوطني والمستقلين، استأنفوا فيها منازعاتهم. أما حزب البعث الذي أُستُبعد من الحكومة، فوقف موقف المعارضة. وكانت أولى مهمات الحكومة التخلص من الضباط البعثيين عبر إجراء تنقلات واسعة في صفوف الجيش. وبدت البلاد على وشك انقلاب.

أجمع القادة الثلاثة، عفلق والحوراني والبيطار، على أن الأوضاع الداخلية غير مواتية لاستلام السلطة، بسبب ضعف البنية الداخلية للحزب، ولا يساعد النقص في كوادره على البقاء في الحكم. بالإضافة إلى الأخطار الخارجية المتمثلة في احتمال غزو، وراءه الإنجليز، وينفذه نوري السعيد. كما أن أمريكا وفرنسا كانتا مستاءتين من إبعاد الشيشكلي، ولن يتقبلوا تربع البعث على قمة السلطة. وقبل

هـذا وذاك، كـان رأي عفلـق والبيطـار... أن اسـتلام السـلطة، ينبغـي أن يكـون مـن خلال نضال الحزب والعمل الشعبي، وليس من خلال الجيش.

ومـع هـذا احتـدمت المناقشـات داخـل حلقـات الحـزب حـول ذلـك: «الطريـق المفتوح إلى الحكم الذي أغلقناه بأيدينا»، يتأسفون على فرصة لم تهتبل، ميَّعها تردد القادة عفلق والبيطار. وأخذت قواعد الحزب والضباط توزع التهم عليهما، وجرى تصنيفهما بين عميل إنجليزي وفرنسي وأمريكي، دون أن يشفع لهما شيئٌ.

بدأت قوة الضباط تتبلور وتتصاعد داخل الحزب، بحيث سيبدو فيما بعد وكأنه في ذلك الوقت بدأ الضباط بتشكيل الطابور الخامس الذي سيقضي على القادة التاريخيين؛ في حين كان تأثير الحزب آخذاً بالامتداد خارج سورية، في الأردن ولبنان والعراق، وينتشر من خلال جامعاتها إلى أرجاء الوطن العربي؛ وفي طريقه إلى الكويت والسودان والمغرب ومصر، تسجلها عناوين النشرات الحزبية: «رسالة الحزب يحملها الطلبة وتعبر الحدود. الحزب أصبح مصدر قوة وفاعلية في الحياة السياسية السورية، ولم يعد بالإمكان إسقاطه من الحساب».

في ربيع 1955، حضر البيطار مؤتمر عدم الانحياز في باندونغ كممثل عن الحزب الذي شكل ضمانة البلاد ضد الانزلاق نحو أي تحالف غربي، ومن ثمّ لن يمر مشروع الهلال الخصيب، ولا الأحلاف العسكرية التي يقودها الأمريكان ضد الخطر الشيوعي، ومن ضمنها مشروع دالاس لحل المشكلة الفلسطينية بالتعويض على اللاجئين وتحويل خطوط الهدنة إلى خطوط دائمة. وكان الرد عليها الدعوة لحلف عربي ومعاهدة للدفاع، وصدور بيان ثلاثي مصري - سعودي - سوري، ومعاهدة للدفاع سوريّة - مصريّة.

بعدها تلاحقت الأحداث: تأميم قناة السويس، العدوان الثلاثي على مصر، وقوف جماهير الشعب العربي إلى جانب الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي حقق انتصاراً سياسياً لمصر؛ كان انتصاراً للأمة العربية التي ساندته. بات الطريق إلى الوحدة سالكاً، لم تقف في طريقه المؤامرة العراقية ثم الأمريكية، وما نتج عنهما من فضائح ورشاوى أطاحت بأحزاب وسياسيين مرموقين؛ واستطاعت جبهة المعارضة المكونة من نواب البعث وكتلة خالد العظم وبكداش من انتخاب

أكرم الحوراني رئيساً لمجلس النواب؛ ودخول صلاح البيطار إلى الحكومة وزيراً للخارجية في حكومتي صبري العسلي الثالثة والرابعة. ومنذئذ سوف تتعدد زيارات البيطار إلى مصر ويجري هناك حوارات مع المثقفين المصريين، وتنشأ بينه وبين عبد الناصر علاقة قوية، ويبدي شديد إعجابه بشخصية الرئيس المصري.

في أوائل عام 1958 توجه إلى القاهرة أربعة عشر ضابطا للاجتماع بعبد الناصر دون علم الحكومة؛ وتركوا وراءهم إعلاماً بأن ما سيطلبونه هو وحدة اندماجية. فتُقرّر الحكومة إرسال الوزير البيطار للاطلاع على محادثات الوحدة لتكون على علم بما يجري، لكنّه انضم إلى الوفد واشترك بالمحادثات، وتم الاتفاق على شكل الوحدة ومحتواها. وفوجئت الحكومة السورية بنصّ المحضر التاريخي الذي اتخذ بعد اجتماع طويل «سورية ومصر دولة واحدة، ورئيس جمهورية واحد». وفي 5 شباط وقع النواب في سورية على مضبطة إعلان الوحدة، وفي 21 شباط تم الاستفتاء في مصر وسورية على انتخاب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة.

قبل صدور المرسوم الرئاسي لدولة الوحدة بحل جميع الأحزاب والتشكيلات السياسية، حسب شروط عبد الناصر وموافقة الأحزاب عدا الشيوعي. حلَّ حزب البعث نفسه تكيفاً مع الوضع الجديد، وتسلم البعثيون السابقون مناصبهم الوزارية في الحكومة المركزية والإقليمية، وعُين أكرم الحوراني نائباً لرئيس الجمهورية، وصلاح البيطار وزيراً للدولة.

بعد أشهر انتشر انطباع في الأوساط البعثية عن حصول تمييز ضدهم في الحكومة والإدارات، وشكا صلاح البيطار للرئيس عبد الناصر عن عمليات إبعاد وتحيز ضدهم في الإقليم الشمالي دون أن يلمس منه أي مردود لتصحيح الأوضاع؛ مما دفعه فيما بعد إلى الاستقالة من منصبه الوزاري، كذلك أكرم الحوراني كنائب للرئيس ومعهم الوزراء البعثيون في الإقليم الشمالي؛ احتجاجاً على الأخطاء المرتكبة وليس على الأسس التي قامت عليها الوحدة، وحصروا انتقاداتهم بالمسؤولين وأجهزة المخابرات؛ وبالمقابل شن عبد الناصر حملة اتهامات ضد البعث خلال احتفالات الذكرى الثانية للوحدة؛ لكنه لم يذكر البعث بالاسم؛ واصفاً بعض مواقفه بالانتهازية لدرجة جعلت مسؤولي الحزب يقاطعون

الاحتفالات في مدينة حلب. وسوف يحضر القادة البعثيون سراً المؤتمر القومي لحزب البعث في بيروت آب 1959.

وفي العام التالي لم يختلف المؤتمر القومي الرابع لحزب البعث عن سابقه، سوى في أن عفلق مارس نقداً ذاتياً بإدانته قراره بحل الحزب وتغاضيه عن الضمانات الديمقراطية والتقدمية؛ لكنه بقي حريصاً على الوحدة. وفي صباح 28 أيلول 1961 جرى الانقلاب على الوحدة، وحدثت كارثة الانفصال.

كانت المفاجأة في أن اثنين من قادة البعث هما صلاح البيطار وأكرم الحوراني سارعا إلى تأييد الانقلاب؛ ووقعا على وثيقة الانفصال إلى جانب حزب الشعب والوطني والإخوان المسلمين والحزب الشيوعي، بل وشاركا في صياغة الوثيقة، وأشيع عنهما بأنهما كانا على علم بالانقلاب قبل وقوعه، لكن البيطار سيتراجع تحت ضغط من عفلق عن توقيعه على الوثيقة في بيان كان أسوأ من الوثيقة نفسها، مبرراً الحركة العسكرية بأنها كانت ضد حكم الطغيان والتسلط، ومقترحاً حلاً على أساس التكافؤ والمساواة.

بعدما التزمت قيادة البعث الصمت، هاجمت في أول بيان رسمي لها الحكم الإقليمي الفردي، وحملت عبد الناصر مساوئ حكم الوحدة، وفي بيانها الثاني هاجمت الرجعية السورية التي تحاول جاهدة دفع الحياة السياسية في سورية نحو حكم ديكتاتوري عسكري.

عارض البيطار عودة الوحدة إلا على أساس فيدرالي؛ فاتهمه خصومه، بمحاولة الحزب السيطرة على سورية تحت لافتة وحدوية. لكن الأثر السلبي جداً الذي أحدثه توقيعه على وثيقة الانفصال بين كوادر حزب البعث سيكون مردوده عليه قاسياً جداً، كان ما أتلفه من الصعب إصلاحه، ووصمة ستلحق به باستمرار. ولقد عاقبه الشعب بإسقاطه في الانتخابات النيابية التي جرت أواخر عام 1961.

تعاقبت خلال فترة الانفصال التي لم تدم أكثر من 18 شهرا ست حكومات في دمشق. وعلى الرغم من الحظر الحزبي، تشكلت في مواجهة دولة الانفصال قوى جديدة هي حركة الوحدويين الاشتراكيين والجبهة العربية المتحدة، إلى جانب حركة القوميين العرب الموجودة من قبل، وعودة حزب البعث العربي الاشتراكي

الذي أعيد تشكيله في أواخر عهد الوحدة. وقد ناضلت هذه القوى التي سميت يومئذ بالوحدوية ضد الانفصال، إلى أن وقع انقلاب 1963 (ثورة 8 آذار)، ومعها وصل البعث إلى الحكم.

شُكلت الوزارة الأولى في 9 آذار 1963 برئاسة البيطار واستمرت شهرين ويومين، وقد أصدر بمجرد توليه السلطة وبالاتفاق مع مجلس قيادة الثورة مرسوماً تشريعياً بعزل 74 سياسياً شاركوه الحياة السياسية خلال العهود السابقة؛ قضى المرسوم بعزلهم مدنياً ومنعهم من ممارسة حقوقهم السياسية والعمل في الصحافة وحق التوظف؛ تولى البيطار رئاسة الوزراء أربع مرات، اثنتان خلال عام 1963 وواحدة عام 1964 والأخيرة عام 1966، تخلل حكومات البيطار هذه حكومتين للفريق أمين الحافظ عامي 1963 وعام 1964، وحكومة عام 1965 ليوسف زعين.

خلال ثلاث سنوات مضطربة تتالت محادثات للوحدة بالاتفاق برفقة العراقيين مع عبد الناصر، دون أن تفضي إلى شيء، سوى أنها كرست واقع الانفصال، وجرى تصفية رفاق الدرب والسلاح من الناصريين أحزاباً وضباطاً، وأخيراً احتدام الصراع الشرس بين القيادة القومية والقيادة القطرية مدعومة من اللجنة العسكرية التي كانت تدير الحكم في البلاد فعلاً. وسوف يضع انقلاب 23 شباط 1966 حداً لمسيرة صلاح البيطار السياسية في سورية. ففي صبيحة ذلك اليوم، تم القبض على أعضاء القيادة القومية: أمين الحافظ، ميشيل عفلق، صلاح البيطار، منيف الرزاز، محمد عمران، منصور الأطرش، شبلي العيسمي. على أن يُقدموا للمحاكمة أمام محكمة حزبية خاصة لمحاكمتهم على ما اقترفوه بحق الحزب والثورة، وأُعلن بيان من القيادة القطرية المؤقتة لحزب البعث العربي الاشتراكي، أنّ ما قامت به من ثورة ما هو إلا رفض ليمينية البيطار وتسلط عفلق، لاستهانتهما برأي الحزب وقواعده ومنظماته: «إن القيادة القطرية تعلم علم اليقين أن التخريب الذي مارسه عفلق داخل الحزب، والآثار السيئة التي ولدها مجيء صلاح البيطار وتهديده للمكاسب الاشتراكية التي حققها الحزب؛ والتي وضعته في مكانه الطليعي بين الحركات الاشتراكية العربية والعالمية، هذه الآثار

وهذا التخريب لم ينعكس داخل القطر السوري فحسب، بل انعكس على كل منظمات الحزب القومية».

استطاع البيطار الفرار إلى لبنان، فصدر حكم غيابي بإعدامه عام 1969، وبعد الحركة التصحيحية التي قام بها حافظ الأسد عام 1970. صدر عفو عنه، فعاد إلى سورية لفترة قصيرة، ثم ما لبث أن سافر إلى فرنسا حيث استقر في باريس.

في كانون الثاني 1978 استدعاه الرئيس الأسد، وكان يأمل في أن يبقى البيطار المؤسس الثاني للحزب في دمشق كثقل مضاد لعفلق المؤسس الأول الذي استقر في بغداد، لكن خمس ساعات من المحادثات فشلت في رأب الصدع بينهما، فعاد البيطار إلى باريس، وأنشأ مجلة دورية أطلق عليها اسم (الإحياء العربي)، داعياً إلى ديموقراطية أرحب ومحذراً من الطائفية. ورغم أنه كان مستقلاً عن البعث العراقي، أُشيع بأنه كان على اتصال بالسلطة هناك وبالسياسيين السوريين الملتجئين في العراق. والواضح أنه أصبح نقطة جذب لأنواع مختلفة من المعارضين، ويمكن أن يشكل خطراً حقيقياً.

عموماً من الصعب إدراك حقيقة المخاوف التي أثارها. فالنظامان السوري والعراقي، رغب كل واحد منهما بأن يكون البيطار في صفه، لا سيما بعد أن أصبح محور تحرك المعارضة السورية في الخارج.

في باريس 21 تموز 1980، سيُغتال في الشارع جوار البيت الذي يقيم فيه بمسدس كاتم للصوت.

على الرغم من مكانة البيطار الحزبية، لم يترك تراثاً فكرياً مهماً، مثلما فعل صديقه عفلق، الذي اعتبر الأب الفكري لحزب البعث. ترك البيطار بعض الحوارات والمداخلات المهمة مثل «القومية العربية في الفكر والممارسة» والكثير من المقالات التي تبقى أسيرة راهنها وظروفها. كان سياسياً عملياً أكثر منه منظراً، اقتحم صميم العملية السياسية قبل استلام البعث للسلطة، ولم تكن منفتحة ولا حرة، كانت محكومة بالمناورات والمساومات، وتشوبها دائماً تدخلات العسكر، وبعده

أمست محكومة للعسكر كلية؛ لهذا كان يعلن غير ما يخفي، ويكتب غير ما يقول في جلساته الخاصة.

في العقد الأخير من حياته أدرك متأخراً المأزق الذي شارك فيه بتفكيره المثالي والنظري وممارساته البراغماتية الخطرة، وربما كان في إصداره دورية (الإحياء العربي) وهو الاسم القديم للنشرة التي أصدرها مع عفلق في أواخر الثلاثينيات؛ ارتداداً إلى بداياته السياسية، بدايات الشباب البريئة المعافاة من أمراض التطلّع للسلطة، والقوة المموهة بالأيديولوجيات الحتمية.

على الرغم من مكانة البيطار الحزبية، لم يخلّف وراءه تراثاً فكرياً مهماً، مثلما فعل صديقه عفلق الذي أُعتُبر الأب الفكري لحزب البعث، لكنه ترك بعض الكتب صغيرة الحجم، منها كتابان بالاشتراك مع ميشيل عفلق: «القومية العربية وموقفها من الشعوبية ـ دمشق 1944» و«البعث والحزب الشيوعي ـ دمشق 1944». وكتابان: (نشر الأول منهما في الخمسينيات بدمشق بعنوان (الفئة الحاكمة في طريق الانهيار)، والثاني (السياسة العربية بين المبدأ والتطبيق ـ بيروت 1960)، وبعض الحوارات والمداخلات المهمة مثل (القومية العربية في الفكر والممارسة)، والكثير من المقالات التي تبقى أسيرة رهنها وظروفها.

وداد سكاكيني

ضد الجهل

(1913 - 1991)

«آسفني، في خلال الأربعين من هذا العصر، والمرأة العربية تنهض من خمولها فتتعلم، وتتقدّم، وتدخل الجامعة، وتشارك في خدمة المجتمع، أن تبقى متهمة بالقصور والتخلّف.. وكانت أقلام الأعلام من أدبائنا ترميها بكل نقيصة».

بعد نحو ثلاثة عقود من صدور رواية (أروى بنت الخطوب)، أفصحت وداد سكاكيني عن دوافع كتابتها للرواية، بما تصدّر من قول لسكاكيني نفسها، وبما يبدو جهراً بمقاصد السرد في نتاجها القصصي والروائي والفكري جميعاً، بل بما هو دالّ ومباشر على أنّ ثمّة مؤرّقاً مركزياً كان يشغلها في مجمل ما أنجزت في حقول الإبداع والنقد والفكر معاً؛ أي تعرية الوعي البطريركي الشائه الذي يعوّق تحرّر المرأة العربية، ويحدّد حركتها ووجودها في هوامش ضيّقة، وينظر إليها بوصفها هامشاً في، أو استكمالاً لمعادلة التقدم والتطور الحضاريين، لا طرفاً أساسياً أو متناً فيها.

ولم تكن سكاكيني، في هذا المجال، نسيجاً وحدها من النساء اللواتي سبقنها إلى الحياة في نهاية القرن التاسع عشر، أو اللواتي ولدنَ معها في الربع الأول من القرن العشرين؛ فالمعارك التي خاضتها كانت امتداداً لمعارك التنوير التي كانت كوكبة من النساء قد أسهمت فيها جنباً إلى جنب المنوّرين العرب آنذاك، أمثال: ماري عجمي، وسلمى صائغ، وهند نوفل، وملك حفني ناصيف، ولبيبة هاشم.

ولدتْ وداد سكاكيني في مدينة صيدا (لبنان) سنة 1913، وتخرّجت في الكلّية الإسلامية ببيروت. وبعد عملها في التعليم لنحو عشر سنوات، تركته لتتفرّغ للأدب، ومن ثمّ لتقترن بالدكتور زكي المحاسني، وتستقرّ معه في دمشق، ثمّ في مصر سنة 1944.

وفي مصر التي عاشت فيها، وأسرتها لسنوات، خاضت معارك فكرية وأدبية دفاعاً عن المرأة، وانتصاراً لقضاياها، وأسهمت في الكتابة في صحف ومجلات عدة، منها: (المكشوف)، و(العرفان) اللبنانيتان، و(الحديث) الحلبية.

كانت مصر هامشاً رحباً لوداد سكاكيني لتأكيد حضورها على المستويين الأدبي والفكري، ولئن كان لزواجها من زكي المحاسني دور مهم في تعزيز ذلك الحضور وتأكيده، فلقد كان لاستقرارها في مصر دور أكثر أهمية في توطيد صلتها مع الحياة الأدبية العربية آنذاك، التي عدّها وديع فلسطين «أزهى عصور النهضة الثقافية في بلاد العرب»، بوصفها مرحلة لقاء «بأكبر القيم الفكرية في أجواء قلّ نظيرها وعياً وتطوراً وانفتاحاً على الشرق والغرب، ومسايرة لتيارات العلم والمعرفة والحضارة في أمصار الدنيا»، حسب فلسطين نفسه، الذي وصف تلك المرحلة من حياة سكاكيني وزوجها بقوله: «ما أحسب عربياً من غير مصر مقيماً أو عابراً أو متردداً، وفّق على دقائق الحياة الأدبية والاجتماعية في مصر كما وفق عليها هذان الزوجان».

أنجزت وداد سكاكيني ما يزيد على واحد وعشرين مؤلفاً، تتوزع بين خمسة حقول: القصة القصيرة، والرواية، والنقد الأدبي، والدراسة الأدبية، والتأريخ.

وقد بدأت، سنة 1935، قاصة، واستطاعت في وقت قصير أن تسطّر اسمها في سجل كتّاب القصّة العرب، إذ حازت، وهي لم تتجاوز النصف الأول من العقد الثاني من عمرها، جائزة مجلة: (المكشوف)، التي كان شارك فيها تسعة وخمسون قاصاً، وأسهم في تحكيمها أعلام الأدب والنقد آنذاك، أمثال: عمر فاخوري، وخليل تقي الدين، وتوفيق يوسف عواد، ويوسف غصوب، وبطرس البستاني، وفؤاد أفرام البستاني، وفؤاد حبيش.

ولعلّ أبرز ما ميز نتاجها القصصي، والروائي بآن، التزامها بقضايا المجتمع، وقبل أن يتعرّف الأدباء العرب إلى فكرة الالتزام، أي «بوحي من ذاتها وإحساس صادق بحاجات المجتمع العربي» حسب وصف محمد مندور لها. وقد مثّلت قضايا المرأة العربية ومشكلاتها مكوّناً مركزياً في معظم موضوعات ذلك النتاج وأسئلته، بوصفها قضايا المجتمع ومشكلاته لا قضايا المرأة وحدها، ولا

سيما الحرية، والكرامة، والحقوق، والواجبات، التي تحرّر الوعي من العادات والقيم الاجتماعية المعوّقة للتطور والتقدم، والتي تسهم في بناء مجتمع متحضّر جدير بانتمائه إلى العصر.

وإذا كان من المهمّ الإشارة إلى أنّ مجموعاتها القصصية الستّ هي أقلّ من خمس في الواقع، لأنّ بعض النصوص التي كوّنت عدداً من المجموعات كانت القاصة أعادت نشره في مجموعات تالية، فإنه من المهم أيضاً الإشارة إلى أنّه يمكن عدّ تلك المجموعات مجموعة واحدة، أو نصاً قصصياً واحداً، بسبب حفاوة القاصة بموضوع واحد، هو العادات والتقاليد الاجتماعية، التي تناسل عبر تلك النصوص على شكل مؤرقات متعددة حكائياً، وموحّدة دلالياً، أو على مستوى مقاصد القصّ ومغازيه.

ويمكن تبيّن ذلك في نصوص مجموعتيها الثانية والثالثة: (مرايا الناس)، و(بين النيل والنخيل)، اللتين تقدّمان غير مثال لإلحاح القاصة على كتابة مهمومة بشاغل لا يتجاوز مركز الدائرة فيه، أي كتابة تحتفل بتصوير طقوس الخطبة والزواج والولادة والموت، وسوى ذلك ممّا يدور في فلك المناسبات الاجتماعية، وعلى نحو سياحيّ دفع بالدكتور نعيم اليافي، في معرض دراسته للمجموعتين، إلى التساؤل عن «قيمة القصص التي تقتصر على تسجيل العادات والشعائر والتقاليد»، وإلى وصفه لتجربة القاصة في المجوعتين نفسيهما بقوله: «وصورها تمتلئ بالدقائق والجزئيات، بل تكاد تطفح من دون ضرورة باللحظات الميتة من الواقع المباشر»، ومن ثمّ إلى وصف شخصياتها بأنها شخصيات هيكلية، وغير ممتلئة إنسانياً.

ومهما يكن من أمر ما انتهى اليافي إليه في هذا المجال، فإنّه لا يمكن تجاهل الدور الريادي لوداد سكاكيني في التجربة القصصية السورية، كما لا يمكن تجاهل دورها في التأسيس للحضور النسوي في تلك التجربة التي كانت، حتى بداية عقد الخمسينيات، وقفاً على الرجال، أي حتى ظهور نتاج كلّ من: منوّر فوّال، وسلمى الحفّار الكزبري، وإلفة الإدلبي، ومن ثم: خديجة الجرّاج النشواتي، وكوليت خوري، وثريّا الحافظ، وغادة السمّان في بداية الستينيات.

ولا تكتسب وداد سكاكيني أهميتها ومكانتها من ذلك الدور الريادي للصوت النسوي في تلك التجربة فحسب، بل، أيضاً، من كونها إحدى أبرز قاصات عصرها، على المستوى العربي، في إخلاصها لقضايا المرأة ومشكلاتها، وفي محاولات استنهاضها، عبر الكتابة القصصية وسواها من فنون القول الأخرى التي مارستها سكاكيني نفسها، من حال العطالة التي ظلّت المرأة العربية ترزح تحت نيرها الغاشم لعقود طويلة من الزمن، والتي أمعنت، بآن، في توثين الذكر، وتهميش الأنثى، تحت دعاوى لا رصيد لها في الأصول التي كانت القوى الكابحة لتحرر المرأة تنطلق منها، أو تصدر عنها.

وقد عزّزت سكاكيني ذلك في نتاجها الروائي أيضاً، الذي يمكن عدّه تنويعاً على نتاجها القصصي على مستوى الموضوعات خاصة، إذ ظلّت مشكلات المرأة العربية وقضاياها الهاجس المركزي لمجمل أسئلة السرد في نصوصها الروائية، كما في روايتها: (الحبّ المحرّم)، التي قدّمت فيها نموذجاً للمرأة المثقفة المغلولة إلى أصفاد الأعراف والقيم الاجتماعية الرثّة. فعلى الرغم من بلوغ (نديدة)، بطلة الرواية، مستوى معرفياً يحصّنها ضدّ تلك الأعراف والقيم، فإنها تواجه إخفاق علاقتها بـ(سهيل) بالتردّد على المشعوذين لتستجديهم كتابة الرقى والتمائم والتعاويذ، معللة ذلك بقولها: «لئن كنت فتاة مثقفة ومعلّمة، فإنّ عالم الروح يستهويني ويناديني».

كانت نديدة قد تعلّقت بسهيل إلى حدّ لم تعد تجد معنى للحياة من دونه، وحين عارضت أمّ سهيل زواج ابنها منها، بدعوى أنهما أخوان بالرضاع، تنكّرت لكلّ ما ثقفته في حياتها من معارف وعلوم، وحقدت عليها، لأنها، في تقديرها، هي التي أقصتها خارج فردوس الجنس الذي تنتمي إليه: «أحسّت أنها انحرفت عن بنات جنسها، ولم تكن كأمها أو مثل صواحبها وأترابها اللائي لم تفسد طباعهن المعرفة، ولا شغل حياتهن الحبّ، فكرهت الكتب وأرادت أن تنتقم من الحبّ».

وشأن سواها من الكثير من الروائيات العربيات اكتفت سكاكيني برصد الواقع حولها، أو بنسخه وتصويره على نحو مباشر، لا يتجاوز سطوحه إلى عوامل الكبح المبدّدة لقوى المرأة فيه، وشأن الكثيرات أيضاً واجهت الوعي البطريركي بوعي نسوي مضادّ، يبدو بوصفه قصاصاً من جنس الرجال عامة، لا حفراً في

مرجعيات ذلك الوعي على غير مستوى. وليس أدلّ على ذلك ممّا صدّرتُ به هذه الدراسة من قول لسكاكيني نفسها حول دوافع كتابتها لروايتها: (أروى بنت الخطوب)، التي ألحّت فيها على تصوير بطلتها أروى بوصفها ضحية الرجل دائماً، وبأنّ حياتها متوالية من اعتداءاته المستمرة عليها.

لقد كانت أروى، بتعبير الشاعر العربي القديم، حَصَاناً، رزاناً، لا تُشكّ بريبة. امرأة جميلة، وكريمة الخلق، ومخلصة لبيتها وزوجها «فهي ما مدّت عينيها إلى هفوة أو دنيئة، ولا نصبت شركاً للعقول، ولم يكن لها يد في لهفة الأنظار عليها وحسرة النفوس، بل كانت ثمرة طيبة على شجرة لا تنال، كلّ الأفواه تشتهيها وهي في حصانة وعصمة، دونها اقتحام الموت وركوب الخطوب».

وعندما سافر زوجها، في تجارة له، إلى العراق، وائتمن أخاه عليها، لم يصن الأخير الأمانة، وحاول مراودتها عن نفسها. امتنعت عليه، فحقد الأخ عليها، واتهمها بخيانتها لأخيه.

وإمعاناً من الروائية في هجاء الرجل، كيفما اتفق لها ذلك وأمكنها ذلك أيضاً، لم تدع فرصة في الرواية في إقناع القارئ بأنّ الرجال جميعاً شهوانيون، ولا يحفظون الودّ، وأنأى ما يكونون عن قيم الشهامة، والوفاء. ومن أمثلة ذلك الأعرابي الذي وجد أروى في بادية تدمر، وعطف عليها في البداية، لكنه سرعان ما حاول الاعتداء عليها، وخادمه الذي يحاول ما كان سيده قد حاوله، وحين تمتنع عليه، يتهمها بسرقة مال سيده، وكذا الشاب الذي أنقذته من الأصفاد التي كان يرسف بها، والذي ما إن علم بأنّ مخلّصه ليس فارساً بل امرأة ساحرة الجمال، حتى نسي صنيعها معه، وحاول ما حاوله سابقاه، وعندما لم يحقّق ما كان يطمح إليه احتال لبيعها إلى قافلة مسافرة إلى مصر.

وكما انتهى اليافي إلى وصف نتاج سكاكيني القصصي بافتعال الأحداث، انتهت إيمان القاضي، في معرض دراستها لتلك الرواية، إلى القول إنّ سكاكيني لا تقنع قارئها في سيرورة الأحداث والشخصيات «فالأحداث مفتعلة مصطنعة، بعيدة عن المنطق، والشخصيات مقحمة مركّبة لتؤدي غرضاً واحداً: إدانة الرجل وإظهار لؤمه وغدره وخيانته وتهالكه على المرأة وتعذيبه لها، فغرائزه هي التي تتحكّم به،

ومن أجلها لا يتورّع عن هدم كلّ القيم والقضاء على كلّ المثل، وارتكاب أبغض المعاصي، وانتهاك أقدس المحرّمات».

ولعلّ ذلك كلّه، وسواه ممّا اتسم به نتاج سكاكيني القصصي والروائي، هو ما دفع الأغلب الأعمّ من المشتغلين بالنقد في سورية إلى النأي عن ذلك النتاج، والاكتفاء بتقديم إشارات عابرة إليه. وبسبب ذلك لم تكن علاقتها بالأوساط الأدبية السورية على النحو الذي اتسمت به علاقتها بالأدباء العرب، غير السوريين، حينما كانت في مصر. وممّا يمكن التمثيل له في هذا المجال، وفيما يؤكّد مواجهتها لما لحق بنتاجها من أحكام نقدية قاسية، بمتابعتها الكتابة والنشر، وبإصرارها على تحدّي إرادات الوعي البطريركي الذي لم يسلم من أذاه بعض المبدعين والنقّاد والمفكّرين، ذلك السجال الحارّ الذي خاضته مع د. عبد الكريم الأشتر، في غير عدد من أعداد مجلة (المعرفة) السورية منتصف الستينيات، بعد نشر د. الأشتر لمقال بعنوان: (وثائق لم تكتب في أدب المهجر)، فتصدّت، إثره، لتصويب ما بدا لها أنه معلومات وآراء غير صحيحة حول ذلك الأدب، وقارعت الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، بندّية لافتة للنظر، وفيض من المعرفة جدير بالتقدير.

لقد كان لتعدّد اشتغالات سكاكيني في غير جنس أدبيّ، وفي غير حقل كتابيّ، ولمواقفها الناجزة من العالم حولها، دور مركزيّ، في تقديرنا، في عدم إتقانها لنصّها على المستوى الفنّي، شأن معظم كتّاب العقود الخمسة الأولى من القرن العشرين، الذين دأبوا على استثمار مختلف أشكال القول للجهر بآرائهم وأفكارهم في قضايا الوجود والحياة، وفي آليات تقدّم مجتمعاتهم وتطوّرها، وإلى حد تجلّت أعمالهم الأدبية معه بوصفها معرضاً للأفكار أكثر من كونها أعمالاً أدبية بالمعنى الدقيق للتعبير من جهة، وبوصفها وسائل للجهر بتلك الأفكار أكثر من كونها أسئلة من جهة ثانية. ولعلّ ذلك ما يعلّل امتلاء نصّ سكاكيني السردي، قصاً ورواية، شأن أولئك أيضاً، بحوارات مطوّلة تفصح عن رسالة النصّ أكثر ممّا تبدو منبثقة من داخل النصّ نفسه، أو من حركة الأحداث والشخصيات فيه.

لم تكن سكاكيني، فيما كتبت في حقل الإبداع القصصي والروائي، تُعنى بتقنيات السرد، بل كان جلّ ما يشغلها الرسالة التي يجب أن يؤديها نصها السردي، ولذلك ظلّ إبداعها أسير تقاليد وقيم فنية كلاسيكية، تتقدّم فيها

مقاصد السرد، وغاياته، وأهدافه، على وسائل صوغها الفني لذلك كله. ولذلك أيضاً لا يمكن اكتشاف أيّ تطوّر في تجربتها في هذا المجال، بل ما يمكن عدّه عطالة فنّية تستجيب للوظيفة التي يجب أن ينهض النص بأدائها، لا للبناء الذي يتجلّى ذلك النص معه ومن خلاله بوصفه إبداعاً قبل أن يكون فكراً.

ولا يمكن مغادرة الحديث عن سكاكيني أديبة من غير الإشارة إلى إسهاماتها في حقل النقد الأدبيّ الذي لم تدخر جهداً في الإدلاء بدلوها فيه، ولعلّ أبرز ما يمكن الانتهاء إليه من أطروحات لها في هذا المجال، وممّا تضمّنه كتابها: (نقاط على الحروف)، وممّا يحيل على سواها من أعلام النقد لا على نفسها، قولها إنّ النقد الأدبيّ علمٌ يرتكز على أسس، وليس هوى ومزاجية، وأنه هادف وموجّه، وعليه تسديد الخطا والدعوة إلى الإتقان وأخذ العدة المرتكزة على ثقافة واسعة ومراس.

وسواء اتفق المرء مع نتائجها النقدية، أو لم يتفق، فإنه من غير الصواب تجاهل الدور الذي نهضت به في محاولات التنظير لقيم وتقاليد في النقد الأدبي العربيّ الحديث، ومن أمثلة ذلك تأكيدها على أنّ النقد الأدبيّ عامة، لا العربيّ وحده، يتطلّب حوامل مركزية ثلاثة: معايير واضحة ودقيقة، وثقافة عميقة شاملة، وأهداف إنسانية رفيعة. ودعوتها، في معرض سعيها إلى التأصيل لكتابة نقدية بريئة من الأهواء والأغراض الشخصية، إلى التخفّف من المناهج والنظريات الوافدة، وإلى إنجاز نقد منبثق من الإبداع العربيّ، وليس مستورداً من خارجه.

تناولت وداد سكاكيني في نقدها الأدبيّ مختلف الأجناس الأدبية الحديثة، ولا سيما القصة القصيرة والشعر، ومن أبرز آرائها فيما يخص الأولى قولها إنّ القصة في الأدب العربي المعاصر ما تزال مضطربة ولم تكتمل عناصرها الفنية بعد، وإنّ ذلك لا ينفي وجود قصص ناضجة مستوفية للشروط، وليس أدلّ على ذلك، في تقديرها، من أنّ ثمّة عدداً من تلك القصص تُرجم إلى غير لغة.

وأمّا في حقل مقارباتها لتجارب بعض الشعراء العرب المعاصرين لها، فإنّ من أهمّ ما يخلص المتتبّع لتلك المقاربات إليه ترجّحها بين حدّين لا ثالث لهما: التبخيس، أو التمجيد، ومن دون قرائن علمية دالّة على ما كانت تعتقده، أو تنتهي إليه.

ولكي لا يظلّ ذلك التوصيف لنقد سكاكيني معلّقاً في الفراغ، يمكن الإشارة إلى نقدها الفادح بنتاج شفيق جبري، وإلى إعجابها، الفادح أيضاً، بنتاج عدنان مردم بك الذي رأت في ديوانه: (نجوى) شعراً جزلاً، وزاخراً بالعواطف الوطنية والصور الفنّية، التصاوير بتعبيرها، وكذا بنتاج إيليا أبي ماضي الذي وصفته ببلبل الروض الذي يترك في القلوب صدى تغريده الجميل، وبأنه فلسف الحياة بالأمل والتفاؤل، ونظر إلى الأمور من وجهها الضاحك، وبأنه نقل خياله المجنح إلى آفاق مفعمة بمفاتن الطبيعة وسحر الحضارة.

ومهما يكن من أمر القيمة الفنية لإبداع سكاكيني، والقيمة العلمية لنقدها، فقد شغلت، طوال ستة عقود من حياتها الأدبية، القرّاء والمبدعين والنقّاد والمفكّرين الذين وجدوا في نتاجها جميعاً ما يليق به من أسئلة وأسئلة مضادة. ومهما يكن أيضاً من أمر اتفاق أولئك، أي: القرّاء والمبدعين والنقّاد والمفكّرين، حول دورها ومكانتها وأهميتها في الحياة الثقافية العربية خلال ما يزيد على ستة عقود، أو اختلافهم، فإنّه من الإنصاف تثبيت ما وصفه وديع فلسطين بها، في كتابه: (وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره)، أي قوله إنها في «صدارة الصدارة من المشتغلات بالأدب في عصرنا الحديث»، وبأنها كانت عربية العقيدة والاتجاه، وإنسانية النزعة، والحفيظة في جميع كتاباتها على مكارم الأخلاق ومفاخر المبادئ ومناقب الضاد وقيم الدين.

رحلت وداد سكاكيني عن عالمنا سنة 1991، بعد حياة تكاد تكون رغدة على المستوى الاجتماعي، مضنية على المستوى الأدبي، وبعد أن أنجبت ثلاثة أولاد: زكوان، وزكاء، وسماء، وقبل ذلك كلّه بعد أن قضت ما يزيد على عشر سنوات أسيرة الوحدة، والتجاهل، ومترفّعة عن اللهاث وراء وسائل الإعلام، أو المؤسسات الثقافية الرسمية التي لم تكلّف نفسها عناء المشاركة في نعيها، أو في رحيلها إلى مثواها الأخير.

لقد أقضّت سكاكيني مضاجع الجهل والتخلّف والتهميش، التي كانت تهدد واقع المرأة العربية، طوال نصف قرن من الزمن، ولم تأبه لمحاولات نفيها خارج فردوس الإبداع، بل تحدّت مجمل ما كان يعترض مسيرتها من

عقبات، وتابعت الكتابة والنشر إلى أن وجدت نفسها، من دون إرادة منها، رهينة منزلها لنحو عقد من الزمن.

وبعد، فلعلّه من المهمّ، ومن الدالّ بآن، الإشارة أخيراً إلى أنّ سكاكيني غالباً ما كانت تتجنّب الإشارة إلى انتمائها إلى قطر عربيّ محدّد، وإلى أنه كثيراً ما كان يصعب عليها أن تقول للآخرين ما إذا كانت لبنانية، أو سورية، أو مصرية، إذ لم يكن ذلك يعنيها قطّ.

وأخيراً، فلعلّ المقبوسات الثلاثة التالية من بعض مقالاتها، وخطبها، تضيء جوانب ممّا سبقت الإشارة إليه.

- «طريقنا إلى المجد النسوي المنشود أن نكون خير الأمهات والزوجات، وأخلص المديرات والمربيات للبيوت والأبناء وأوفى المجاهدات للعروبة والوطن، وعلى أن لا نهجم على زهد النهضة هجوم الجياع على القصاع. فما كل امرأة ينبغي أن تكون زعيمة أو معلمة، ولا كل سيدة يجب أن تصير طبيبة أو موظفة. فكل من النساء لما خلقت له من أمومة أو زعامة، من تدبير للمنزل أو تمرّس بالفنون، أو القضايا الاجتماعية والإنسانية».

- «مهما شاقنا الجديد، وأخذنا بطرافته وروعته، فإننا لا نستطيع أن نتخلص من القديم، إذ إنّ في مطاويه الزاد والذكرى، وفيه الذخيرة والأحداث. والماضي حقيبة كل إنسان. إنه القطار المشحون الذي نجرّه وراءنا كما تجرّ هادية القطار قافلة الحديد وراءها، كذلك نحن الفانين لا نعيش من غير ماضينا فهو ملتصق بلحمنا ودمنا، ماثل في عاداتنا وتقاليدنا، في آثارنا الفكرية والفنية».

- «والمرأة بحسب تركيبها العضوي ونزوعها إلى السماحة والرحمة وإيثار السلامة والعافية، كانت أقرب للتقوى من الرجل الذي ازدحمت على بنيته الشديدة وتبعاته الثقال وتجاربه المرهقة عوامل عديدة كان من تأثيرها اضطراره إلى المادية والأنانية التي قد تتجافى عنها التقوى أحياناً، ومتى شعّ في قلب المرأة ذلك الجوهر الأبدي فقد سارت على هداه وكان دليلها في تحقيق ذاتها وتهذيب شخصيتها وذوقها وفاقاً لما التمسه لها علماء النفس والتربية فيما يلائم طبعها ورسالتها في رعاية الأسرة والأمومة واستغلال الموهبة فيما يرفع شأنها ويعزز

بيتها وأنوثتها ويدل على خصائصها وتقدمها. فتقوى المرأة هو الملجأ الروحي لضمان سعادتها في بيتها والمجتمع الذي تعيش فيه، ومتى جفت ينابيعه في نفس المرأة هبت من أغوارها لفحات الجحيم.

ومن نكد الدنيا على الإنسانية أن تصطنع التقوى نساء فيهن سم الأفاعي ونيوبها، فإذا سدرت بالفكر من أجل هذه الظاهرة الخبيثة رأيت خطرها الاجتماعي يستتر كالبارود حتى إذا مسته النار نسف البناء وما فيه وأضر ما يتسلل إلى عالم المرأة هذه الآفات المقنعة بشتى الأشكال والألوان».

نضال الصالح

مؤلفاتها

في القصة القصيرة:

- الخطرات (1932)
- مرايا الناس (1945)
- بين النيل والنخيل (1947)
- الستار المرفوع (1955)
- نفوس تتكلّم (1962)
- أقوى من السنين (1978).

في الرواية:

- أروى بنت الخطوب (1946)
- الحبّ المحرّم (1947).

في النقد الأدبيّ والدراسة الأدبية:

- سواد في بياض (1959)
- نساء شهيرات من الشرق والغرب (1960)
- نقاط على الحروف (1960)
- ميّ زيادة في حياتها وآثارها (1970)
- شوك في الحصيد (1981)
- سطور تتجاوب (1978)

في الدراسة والتأريخ:

- أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء (1945)
- بنات الرسول
- إنصاف المرأة (1947)
- العاشقة المتصوفة (1955)
- قاسم أمين (1970)
- عمر فاخوري (1970)
- سابقات العصر وعياً وسعياً وفنّاً (1986).

أنطون مقدسي

شيخ المثقفين السوريين

(1914 - 2005)

ولد أنطون ميخائيل المقدسي في يبرود عام 1914، ودرس الابتدائية وقسماً من الثانوية فيها، والقسم الآخر في دمشق بين عامي 1933 و1934.

حصل على إجازة في الفلسفة وشهادة في الأدب الفرنسي من جامعة مونبلييه في فرنسا، ثم حصل على إجازة الحقوق، وأخرى في العلوم السياسية من مدرسة الحقوق الفرنسية في بيروت، وكانت ما تزال تابعة لجامعة ليون الفرنسية في ذلك الوقت.

عمل مدرساً للفلسفة في حمص، ابتداء من عام 1940، ثم في حماه ودمشق وحلب، ومدرساً لعلم النفس والتربية بعد ذلك في دار المعلمين بحلب ثم بدمشق، ومدرساً للفلسفة اليونانية في جامعة دمشق طوال عشرين عاماً، ومدرساً للفلسفة السياسية في المعهد العالي للعلوم السياسية مدة أربع سنوات.

بعدها أصبح مديراً للتأليف والترجمة والنشر في وزارة الثقافة، بدءاً من العام 1965، وصولاً إلى العام 2000، حيث فُصل من وظيفته بسبب مقالاته النقدية للوضع القائم في سوريا.

لم يؤلف أنطون المقدسي أي كتاب، سوى ما جمعته دار «رياض الريس» تحت عنوان (افتراق الجسد العربي) ومشاركته في كتاب «الأمة على مشارف الألف الثالث» الذي صدر عن دار النهار في بيروت، تكريماً له. وبالمقابل فقد اهتم بكتابة المقالات والترجمات.

يعتبر أنطون مقدسي أحد شهود هذا العصر. نهض بأدوار مهمة في المراحل المفصلية في تاريخ سوريا الحديث، حيث كان أحد مؤسسي «الاتحاد الاشتراكي» مع أكرم الحوراني. وضع دستوره ونظامه الداخلي، لكنه لم يعد زعيماً سياسياً.

وكان أحد كاتبي وثيقة اندماج «الاشتراكي» مع «البعث العربي». لكنه لم يدخل إلى لعبة السلطة والمناصب. بل نأى بنفسه عن حزب البعث العربي الاشتراكي، حين وصل إلى السلطة في عام 1963.

عاش المقدسي حياة مليئة بالفكر والعمل والمواقف، وأخلص لخياراته، رغم ما كابده في سبيلها من آلام، وما تعرض له من متاعب. حتى يمكن القول إن مسيرة الواقع والفكر الحديثين لبلادنا والعالم موجودة في سيرته.

تأثر به معظم المثقفين والسياسيين في سوريا لجدة وعمق كتاباته، التي مثلت لحظات مفصلية في مسيرة الثقافة والفكر والسياسة في سوريا. وفي هذا السياق عبر هو عن نفسه عندما قال: «منذ البداية قررت أن أكون مثقفاً، وأن أبقى مثقفاً. وبما أن المثقف لا يمكن أن يكون حيادياً، قررتُ أن أتخذ موقفاً نقدياً، وألا أنتظر أي وظيفة سياسية أو تكريماً زائفاً». فالثقافة هي التي أملت عليه أن يكون منحازاً إلى من لا يعرف وإلى ما ينقصه من معرفة. وقد كان في هذا يعيش دهشة دائمة ممتزجة بنوع من السخرية المهذبة، التي تذكرنا بسقراط.

كان المقدسي صاحب ثقافة واسعة، ممتدة من الجاهلية إلى الإسلام إلى الفلسفة اليونانية والفلسفة الغربية الحديثة والثورة الفرنسية وثورة أكتوبر والثقافة المعاصرة.

كان على اطلاع واسع في الآداب، وعلى دراية واسعة في الفن، خصوصاً في الفن التشكيلي، والموسيقا. كان موسوعياً بالمعنى الذي يفهمه العرب في العصور الغابرة من هذه الكلمة.

عاصر المقدسي، على امتداد حياته الطويلة والتي ناهزت القرن تقريباً، أهم الأحداث التي مرّ بها العالم العربي خاصة والعالم بصفة عامة. فقد ولد مع نشوب الحرب العالمية الأولى، ومع اندلاع ثورة أكتوبر. وعاصر الانتداب الفرنسي على سوريا، وشهد بنفسه ضياع فلسطين، وعاش تجربة الوحدة المصرية - السورية، وما تلاها من خبرات وتجارب مرت بها سوريا حتى عام 2005.

كان للآخر حضور بارز في عقل المقدسي، وكان مهموماً بأن يضع كل ثقافة في خدمة الآخر. وبهذا لم تعد الثقافة لديه ملكاً شخصياً أو امتيازاً فردياً، بل وديعة وطنية يجب أن توضع في خدمة الآخر، أي الشعب بكليته، والإنسانية أيضاً.

وبذلك، فقد كان المقدسي أبعد ما يكون عن أن يفكر في مصالحه الشخصية أو منافعه الذاتية، ومن ثم فقد عاش حياته مخلصاً لهذا الآخر، واضعاً كل طاقاته تحت تصرف الآخر. وقد بلغ حبه للأمة العربية أنه صرح ذات مرة بأنه إن خُيِّر بين الانتماء إلى كنيسة وبين الانتماء إلى الأمة العربية، فإنه يفضل الانتماء إلى الأمة على الانتماء إلى كنيسة.

بدأ المقدسي حياته في عصر مفعم بآمال التحرر والانعتاق من سطوة الخارج، ولكن حياته اختتمت في عصر الخيبة. وبقي عقله وذهنه ورأسه دائماً خارج الخيبة تماماً؛ إذ كانت لديه ثقة بالشعب، وبأن الإنسان لا بد أن ينطوي وجدانه على مشروع تحرر. ومن ثم فإن واجب الثقافة الحقيقية، أن تضع نفسها في خدمة هذا الإنسان، ذلك لأن هذا الإنسان هو أثمن ما في الوجود.

❖ ❖ ❖

عاد أنطون مقدسي من فرنسا عام 1952، بعد أن أمضى فيها سنوات طويلة للدراسة. وعند عودته كان يعاني من مرض ألمَّ بجملته العصبية، حال بينه وبين أن يكون قادراً على القراءة لنفسه. وقد تطوع في تلك الفترة المهندس سهيل شباط بالتردد على منزل الأستاذ المقدسي في الأمسيات والقيام بمهمة القارئ له. ومع ذلك لم يكن قادراً على القراءة طويلاً، لأنه كان مجهداً غاية الإجهاد. ولم يستأنف حياته العادية، إلا بعد وقت طويل من عودته إلى دمشق.

يروي الأب الياس زحلاوي عن الأستاذ المقدسي - وقد كان شديد الالتصاق به - أنه كان ينطوي على عواطف مسيحية دينية عميقة، وأنه أثناء مرضه في فرنسا كان يخاطب الصليب، الذي كان موضوعاً أمامه بقوله: «أنا مصلوب مثلك ومعك». ولكن ذلك لم يمنع المقدسي من أن يكون حافظاً عن ظهر قلب لعدد هائل من النصوص القرآنية، جنباً إلى جنب مع نصوص الكتاب المقدس.

كان همّ المقدسي أن يبني إنساناً نظيفاً مؤمناً محباً، يعرف كيف يجمع بين المنطق والحياة، بين الروح والحياة، بين الأمانة للبلد وبين الأمانة للذات. ولذلك لم يكن يتردد في تلبية كل دعوة توجه إليه إذا ما شعر أن في حضوره ما من شأنه أن ينفع البلاد والعباد. فقد كان إنساناً موحد الوجود، ما يقوله يعيشه. وذات مرة طلب إليه أن يعرف «المسيحية العربية»، فقال: «المسيحي = مواطن + خدمة».

وقد كان الأستاذ المقدسي شديد التواضع، زاهداً في كل ضروب التكريم التي عرضت عليه، والتي كان يستحقها عن جدارة واستحقاق. ومن ذلك ما انتوى اليبرودي المعروف الدكتور بطرس حرب أن ينظم له حفلاً تكريمياً يليق بمقامه. ولكنه اعتذر عن قبول ذلك بأدب جمٍّ، واستحياء وتواضع. وعندها استُعيض عن هذا الحفل التكريمي، الذي كان من المزمع إقامته في بيروت أو دمشق، بتأليف كتاب جماعي، يشارك فيه عدد من الأصدقاء المقربين للأستاذ المقدسي، كما يشارك فيه الأستاذ المقدسي نفسه بكتابة واحد من فصوله. وقد صدر هذا الكتاب تحت عنوان «المسألة القومية على مشارف الألف الثالثة»، وقد ساهم في إنشاء هذا الكتاب كل من الشاعر المعروف أدونيس والمطران جورج خضر، إلى جانب عدد كبير من أصدقاء الأستاذ المقدسي. واختتم الكتاب بالفصل الذي كتبه الأستاذ المقدسي نفسه، تحت عنوان «الأمة الإشكالية». وقد صدر الكتاب عام 1990م.

لقد كان المقدسي قادراً دوماً على البدء من جديد. وهذا يعني أنه كان قادراً على تجاوز نفسه واستنباط بدايات جديدة، وذلك يشهد على سعة فكره وعظيم تصميمه.

وكان الأب الياس زحلاوي، كلما التقى الأستاذ المقدسي واستمع إلى أفكاره الجديدة، ومشاريعه الفكرية والسياسية والاجتماعية، يقول له: «إنك تتحدث كما لو أن أمامك فسحة من مئة عام». وكان دائماً يجيب «الأبدية هي اللحظة الحاضرة».

ومن هموم المقدسي الأساسية «أن يقرب الكنيسة العربية من الواقع العربي، أي أن يجعلها جزءاً لا يتجزأ من الواقع العربي، أن يطورها، أن يجعلها تتبنى القضايا العربية بكل حيثياتها، وبكل مخاطرها، وبكل رهاناتها». لذلك كتب العديد

من الرسائل في سنواته الأخيرة إلى البطاركة والأساقفة، يشرح لهم رأيه بكل صراحة في القضايا العربية، وما يراه من واجب الكنيسة العربية أن تفعل وتقول.

ومما يذكر للأستاذ المقدسي محاولاته المتكررة للانخراط في حوار بنَّاء مع الكنيسة الكاثوليكية، الفاتيكان بروما. فلقد توج حياته في السنتين الأخيرتين بتوجيه رسالتين إلى قداسة البابا الراحل يوحنا بولس الثاني. ولا يخفى على أحد أن موقف البابا الراحل من القضايا العربية بعامة، كان موقفاً إيجابياً، فلطالما ارتفع صوته منددا بالظلم في فلسطين، ولطالما ارتفع صوته منددا باحتلال العراق.

يعود تاريخ الرسالة الأولى إلى الثامن من آذار عام 2003، وقد تلقى جوابها في الرابع من نيسان 2003، ثم كتب رسالة أخرى بلهجة أشد وأقوى، وقد كان ذلك بتاريخ 2003/12/19، تحدث فيها عما يجري في فلسطين، ويقول لقداسة البابا: «هذا الذي يسمى وعداً بالأرض، أنا لا يمكن أن أقبل به ولا يمكن أن أفهمه». قال ذلك بصراحة تامة. ولكنه لم يتلق جواباً لهذه الرسالة. والسؤال الذي يطرحه الأب زحلاوي، بصدد ذلك، هو: «هل وصلت الرسالة إلى قداسة البابا؟». يجيب الأب زحلاوي عن هذا السؤال بالنفي. فهو يرى أن البابا كان سيجيب بما يراه مناسباً لو أنه اطلع على الرسالة بنفسه.

❖ ❖ ❖

لم يكن أنطون مقدسي مجرد ظاهرة عابرة في حياة الثقافة السورية والعربية. وعندما نقول: «الثقافة السورية»، فهذا يعني أن له دوراً فيها. فقد مرَّ حينٌ من الدهر، كان فيه متعاطفاً مع الفكرة السورية، أو مجمل أفكار الحزب القومي الاجتماعي السوري؛ إذ يبدو أنه قد وجد في هذه الأفكار السورية نوعاً من الإجابة عن الأسئلة، أو على الأقل بعض الأسئلة، التي كانت مطروحة على الواقع.

إن الفلسفة اليونانية في نظر أنطون مقدسي، هي سدرة المنتهى، أو سدرة الابتداء، التي لا يمكن لأي تفلسف إلا أن ينطلق منها. وأفلاطون وأرسطو، هما في نظره الينبوع الذي لا يحق لأي فيلسوف أن يوصف الفلسفة ما لم يعايشهما لفترة طويلة، وما لم يتتلمذ عليهما لوقت طويل، وما لم ينخرط معهما في حوار عبر نصوصهما والشروح التي دونت على هذه النصوص عبر تاريخ الفلسفة بأكمله.

ويبدو أن المقدسي كان ينظر إلى هاتين الفلسفتين على أنهما الفلسفة ذاتها، بمعنى من المعاني، وذلك لكونهما قد اتخذتا من المشكلة الأنطولوجية مركزاً لتأملاتهما وتحليلاتهما لشتى جوانب الخبرة الإنسانية. وما نعنيه بذلك، هو أنه من المتعذر على الفيلسوف أن يتصل بالمشكلة الأنطولوجية، إلا إذا كانت نصوصهما وسيطاً بين الفيلسوف وبين هذه المشكلة، ومن ثم، فكلما قرأنا نصوص أفلاطون وأرسطو - نحن التلاميذ السوريين - انبعث عبقٌ من هذه النصوص، يذكرنا بالمقدسي وبتأويلاته الرائعة لهذه النصوص ووقفاته الطويلة عندها، التي كنا نستشعر عندما نستمع إلى محاضراته، بأنه يودّ لو استرسل إلى ما لانهاية في قراءة هذه النصوص والتعليق عليها. ونؤكد للقارئ بأن هذا الإحساس لم يزايلنا مذ كنا طلبة حتى اللحظة الراهنة التي نكتب فيها هذا النص عن أنطون مقدسي ذاته.

إلا أن هذه الأهمية التي شغلتها الفلسفة اليونانية في اهتمامات أنطون مقدسي، لا تعني أبداً أن جهوده قد اقتصرت عليها، فمن المعروف أن له إسهامات هامة في النقد الأدبي وفي الدراسات اللغوية والدراسات المسرحية والتشكيلية وفي الترجمة، وخاصة تقويمه للكتب التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة السورية، ضمن دائرة الترجمة والنشر، التي ترأس أعمالها لأكثر من ثلاثين عاماً.

ولو أردنا أن نستخلص الفكرة الرئيسية، التي كان عقل أنطون مقدسي مشغولاً بها، لقلنا: لقد كان هذا الفكر في خطوطه الرئيسية يشكل محاولة للإجابة على سؤال واحد أساسي هو: ما الواقع؟ وكيف السبيل إلى النهوض بهذا الواقع؟ وكيف السبيل إلى فهمه؟ وكيف السبيل إلى تغييره؟ فقد كان المقدسي يشعر بالمرارة تجاه الواقع العربي بعامة والسوري بخاصة. ومردّ هذا الشعور بالمرارة إلى ما كان يراه المقدسي من عجز الإنسان في منطقتنا عن أن يدفع بالواقع إلى الأمام ولو خطوة واحدة.

لقد كان المقدسي مهموماً بالواقع وفهمه من أجل تغييره، وما ذلك إلا لأن قضية الحداثة قد كانت شاغله الأكبر، أو هي بمثابة العلة الغائية التي تضغط على فكر المقدسي وعقله، من أجل استكشاف كل ما من شأنه أن يصل بنا إلى الحداثة. ومن هنا، لم يكن فهم الواقع وتغييره غاية في حد ذاته، وإنما هو وسيط أو عقبة ينبغي

تذليلها تمهيداً للوصول إلى الحداثة. وهكذا فإن جدل الواقع والحداثة، داخل فكر المقدسي، يشكل نقطة الانطلاق الجوهرية لمشروعه الثقافي والوطني والإنساني.

ومصطلح الواقع عند المقدسي، أغنى من أن تقتصر دلالته على الواقع الخارجي، أو الواقع الباطني، وإنما هو يشير إلى جملة العناصر الروحية والمادية المتشابكة في بنية واحدة، فتجعل الروح والمادة على اتصال، وتجعل العقل والواقع الخارجي على ارتباط، وتجعل الفكر مرتبطاً بصفة عامة بموضوعاته المختلفة.

هذا الارتباط الوثيق بين العقل والوجود، وبصفة عامة بين الذات والموضوع المتعين في صور الوجود المختلفة، يكافئ ما كان يشير إليه المقدسي بمصطلح الواقع. فالواقع في ذهن المقدسي، لا يجوز اختزاله إلى جملة من الوقائع البسيطة مثل وجود الكراسي والموائد والقلاع والحصون والقصور. كما أن الواقع عنده غير قابل للقياس الكمي أو الاقتصادي، بمعنى الاكتفاء بهما مقياساً وحيداً نستنبط منه تصوراتنا وأحكامنا حول الواقع؛ بل الواقع لديه هو جملة العلائق التي تربط بين الفكر وموضوعه. ولذلك، كانت مشكلة العلاقات هي تلك النظرة العلائقية التي تتشابك فيها عناصر كثيرة متنوعة لا سبيل إلى حصرها، إلا من باب التبسيط، مثل قولنا: روح ومادة، عقل ووجود، فكر وموضوع. على أننا لو بقينا في مستوى هذه الثنائية، لوضعنا أنفسنا في موقع العاجز عن تفهم فكر المقدسي، حول مسألة العلاقات تفهماً حقيقياً.

والحقيقة أن «العلائقية» هي الجوهر الحقيقي لما أطلقت عليه اسم «الواقع». وهنا لا بد من التنبيه إلى أن المقدسي كان ينفر من استخدام كلمة «جوهر»، وذلك لأن هذه الكلمة تشير إلى الطبائع الثابتة، وقد كان بالمثل شديد النفور من فكرة «الطبائع الثابتة»، وهو يذهب بدلاً من ذلك إلى أن الكينونة أو الوجود إنما هي علاقة وعلائقية.

وبذلك، فإذا كان الوجد - وهو ما يتعين الواقع من خلاله - إنما هو علائقية أو سلسلة من العلاقات التي تتحدد في علاقة واحدة كبيرة أو شاملة تحيط بالكون بمجمله - أي الكون الذي تتحدد فيه كل العناصر الروحية والمادية في كينونة واحدة - فإن هذه العلائقية لا يمكن أن تكون علائقية جوهرية، بل هي سيالة متدفقة

متغيرة ومتحولة لا ثبات لها. ولو كانت هذه العلائقية متسمة بالجوهرية، لكانت مناقضة لطبيعة العلائقية، ولما كان من الممكن لنا أن نصفها بأنها علائقية على نحو من الأنحاء. ذلك لأن فكرة العلائقية مناقضة لفكرة الجوهرية. ومن ثم، فقد كان المقدسي ينظر إلى العلائقية على أنها سيّال متصل من التغير والتطور والصيرورة الأبدية المستمرة، وهو ما من شأنه أن يجعل فكرة التقدم ممكنة.

ولو لم تكن العلائقية متسمة بهذه الخصائص - أي سيالة متدفقة ومتطورة ولا جوهرية - وكانت بدلاً من ذلك تشير إلى كيان جوهري ثابت ومستقر عصي على التغير، لكنا بإزاء مسافة محددة لا يمكن للعلائقية أن تتجاوزها، الأمر الذي يجعلها مضطرة في كل مرة تصل فيها إلى نهاية مسارها الممكن، أو الحد النهائي الذي تسمح به إمكانات هذه الجوهرية لها في التطور، إلى أن تنعكس على نفسها وترتد إلى بدايتها على هيئة نشاط دائري أو دوري، يعيد إنتاج ذاته في كل مرة يصل إلى حدود تطوره القصوى، بحيث نصبح أمام تكرار ممل غير قادر على أن يعرض علينا أي جديد، طالما أن كل الممكنات التي يتم فضها في كل دورة من دورات حياة هذه العلائقية هي ذاتها، وليس من سبيل إلى إضافة أي عنصر جديد إلى هذا النشاط.

لقد كان المقدسي يرفض هذا التصورات جملة، ويحرص كل الحرص على أن يتجنبها، وعلى أن يطهر فكره منها. كما أنه كان على يقين بأن كثيراً من مشكلاتنا وكثيراً من أوجه عجزنا عن فهم واقعنا إنما هي ناجمة عن إحساسنا أو إيمان أكثرنا بالجوهرية الثابتة، فضلاً عن إيمان الكثيرين منا بفكرة الدائرية نتيجة لرسوخ كثير من الأفكار التقليدية المترسبة عن الماضي وعن بعض المعتقدات في العقل الجماعي للعرب والسوريين عامة.

وربما كان من بين أشد الأخطار التي تنطوي عليها فكرة الدائرية التي بمقتضاها نجد أنفسنا أمام عود على بدء لا ينتهي، طالما أن اتحاد البداية بالنهاية أمر ضروري، هو أننا نجد أنفسنا أمام ماض دائم أبداً خالٍ من كل مستقبل. وذلك لأن الدورة نفسها ستتكرر في كل مرة، ومن ثم يفقد الزمان والمكان ما ينطويان عليه من حيوية وخصوصية.

هكذا كان المقدسي يفهم معنى العلائقية المرادفة عنده للواقع والمناقضة مناقضة تامة لمفهوم الجوهرية أو لمفهوم الطبائع الثابتة، الأمر الذي جعل المقدسي في كثير من الأحيان، يبدو أنه أقرب إلى أفلاطون - على الرغم من امتلاكه لعقل تحليلي أرسطي دقيق - وذلك لأن الطابع الديالكتيكي العميق الذي تمتاز به محاورات أفلاطون قد كان المقدسي أميل إليه بطبيعته وفطرته. لهذا بدا التحليل الأرسطي لمستمعي المقدسي مجرد مرحلة من مراحل الديالكتيك الأفلاطوني، وبذلك أعاد المقدسي بناء التصور الأرسطي عن التحليل، مثلما أعاد بناء التصور الأفلاطوني عن الديالكتيك، فوحّدهما ودمجهما لكي يخرج علينا بفكرة جديدة تمثلت وتجسدت في فكرته عن العلائقية.

لقد كانت هذه العلائقية في نظر المقدسي، هي سبيلنا إلى دخول عالم الحداثة، بمعنى أن تصوره للكينونة أو الوجود على هذا النحو - أي على أنه سلسلة من العلاقات، أو على أنه علاقة شاملة محيطة بكل شيء - هي ما كان من شأنها أن تمكننا من الدخول في عالم الحداثة. ومن هنا انشغل المقدسي بعد تأسيس فكرته عن العلائقية بموضوع الحداثة.

ومما يستلفت الانتباه أن المقدسي قد أولى الحداثة الأدبية والفنية اهتماماً فائقاً، حتى ليكاد يكون متجاوزاً لما أولاه من اهتمام للمذاهب الفلسفية المعاصرة. ومردّ ذلك إلى أنه كان يعتقد أن العرب شعب من شعوب القول، أي شعب يحتفل باللغة وينزلها منزلة رفيعة في حياته. وعلى ذلك، فما دامت الذهنية العربية ذهنية قول وبيان، فإن المدخل إلى الحداثة لا بد أن يكون بالنسبة لأمة مثل الأمة العربية، مدخلاً أدبياً لغوياً. وربما كانت هذه الواقعة هي التي تفسر لماذا كتب المقدسي عشرات المقالات وأعطى عشرات المقابلات التي نلتقي بها موزعة ومفرقة في الصحف. ولعل هذا ما جعله يعتقد بأن الحداثة الأدبية والفنية يمكن أن تكون مدخلاً للحداثة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الأمر الذي يفسر منح المقدسي الحداثة الأدبية والفنية الأولوية على سائر صور الحداثة الأخرى.

ولعل هذه الواقعة ذاتها هي التي تفسر لنا أيضاً ميل المقدسي إلى القول الشفوي أكثر من ميله إلى الكتابة والتدوين. بل إن الملاحظة الدقيقة تكشف للقارئ ما نشره أنطون مقدسي من مقالات ودراسات، أن البيئة اللغوية في ما كتبه

المقدسي أقرب إلى أن تكون بنية شفوية منها إلى أن تكون بيئة كتابية شديدة التعقيد. فهو يكتب مثلاً ويتكلم، وكلامه صورة فكره، وهكذا فليس ثمة فجوة واسعة بين قوله وكتابته، أو قوله وفكره. بل بوسع من يعرف المقدسي معرفة عميقة وعن قرب أن يلاحظ أن لغته اليومية في التعامل مع أصدقائه وأسرته ومرؤوسيه، هي الأخرى لا يمكن إدراجها في العامية تماماً، كما أنها لا يمكن اعتبارها بعيدة عن الفصحى. فالقول عند المقدسي، قول يعكس الحياة ويردد إيقاعها الباطني من غير تكلف ولا عناء. وهذا القول لا يستهدف إلا أمراً واحداً، هو ربط القول بالحقيقة أو الفكرة بالحياة.

وربما كانت هذه الخصائص المميزة لقول المقدسي أو خطابه ليست مستقلة عن الخصائص العامة للثقافة العربية بعامة، ولهذه الثقافة كما تعينت خصائصها الماهوية في ذهن المقدسي ذاته.

فالخاصية الرئيسة لهذه الثقافة هي أنها ثقافة شفوية، ولم يتم تدوين كثير من عناصرها إلا بعد مضي قرنين على الرسالة المحمدية.

وقد أكدت الثقافة العربية الشفوية حقوقها كاملة في ذهن المقدسي وطبعت قوله - وحتى القول المكتوب - بطابع الشفوية والعفوية المحببتين.

غير أن الحداثة أيضاً، قد أكدت حقوقها بقوة لا تقل عن ذلك. وهو ما يتجلى في إلحاح المقدسي على أهمية النقد الأدبي وتحليل النصوص باستخدام أحدث المناهج النقدية وتوظيف أشد الفلسفات حداثة وعصرية، إضافة على ذلك.

ومن هنا ظهر ميل قوي في فكر المقدسي، ابتداء من النصف الثاني في حياته إلى قراءة النصوص الأدبية وتحليلها وتفكيك عناصرها التي تتسم بالتركيب الشديد داخل البنية الأدبية للنص. وهذه سمة من سمات الحداثة لا تخفى على كل ذي بصيرة. وانطلاقاً من هذه النظرة بدا للمقدسي أن كل شيء في هذا العالم نص، أي هو شيء ينتظر التحليل والتفكيك. فالكتاب نص، والبيت نص، والرجل نص، والمرأة نص، ومن ثم فالكون بمجمله نص؛ فتتحول بذلك مهمة الفيلسوف من عالم الفكر الصوري إلى تأويل النص وقراءة النص واختراق النص. كل ذلك بقصد استكشاف الأبعاد المختلفة للنص، مما يجعل الحداثة برمتها لا تزيد عن كونها نوعاً من التأويل

المبتكر والحديث للنص. وبذلك يصبح من الميسور للذهنية العربية - فيما يرى المقدسي - الدخول إلى عالم الحداثة انطلاقاً من إعادة تفسير النصوص، وإعادة بناء الأدب واستكشاف مناطق جديدة، وخاصة للغة العربية، قد كانت مجهولة من قبل العرب، بسبب النقص في قدرتهم على القراءة والتأويل الحديثين.

لقد كان المقدسي على وعي بالخصائص العامة للحداثة الغربية، غير أن طابعها التكنولوجي المميز قد شدّ انتباهه واستأثر بتحليلات خاصة منه. والمقدسي لذلك كله لا يخرج عما ذهب إليه كثير من فلاسفة الغرب ونقاده، فاشترك المقدسي معهم في إبراز مخاطرها ونتائجها السلبية المحتملة على حياة الفرد والجماعة. ولكن المقدسي ينفرد عنهم بذلك الوعي العميق الذي ذهب بمقتضاه إلى أن صوراً من الحداثة غير التكنولوجية ينبغي أن تكون متقدمة عليها، أو على الأقل مصاحبة لها في إطار عملية التحديث التي كان يأمل بأن ينخرط العرب فيها. ومن هنا بدت الحداثة الأدبية، وصور الحداثة الإنسانية الأخرى، في الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، تتمتع بنظره على الأقل، بنوع من الأولوية المنطقية على الحداثة التكنولوجية.

وعلى الرغم من كل ما توفره الحداثة التكنولوجية من تيسير للعلاقة بين الإنسان والمادة المعرفية: كتب مطبوعة، أقراص ليزري ومدمجة، شبكة الإنترنيت بمجملها.. إلخ، فقد ظل المقدسي يحنّ، وبصورة قوية إلى ثقافة القول، إلى ثقافة التواصل المباشر، للاتصال المباشر بين الأفراد داخل الجماعة الواحدة، التي تستمد وجودها من ثقافة واحدة وموحدة. ذلك لأن القول أو الخطاب الشفوي يخلق علاقة أعمق مع الوجود أو الكينونة من ذلك الاتصال الذي توفره الكتابة. فالكتابة والكتاب وسيطان في نهاية المطاف، وأما القول أو الخطاب الشفوي، ففسحة مباشرة أو فضاء تنفتح فيه الأشياء وتكشف عن ماهياته ودلالاته، مما يعيد للنص مقدرته من جديد على إعادة بناء النص، ما دام كل شيء في هذا العالم إنما هو نص. فهذا يعني أن الحداثة عند المقدسي ليست سوى نوع من إعادة بناء الوجود أو إعادة بناء لما يدعوه المقدسي بـ«الواقع». وبذلك تصبح الحداثة مرادفة لإعادة بناء الواقع في الاتجاهات المرغوبة أو المفضلة، من قبل جماعة بشرية معينة.

وربما تكون ذروة إسهاماته في الحداثة في نهاية حياته، تتمثل في نوع من المشاركة السياسية الفعالة في الحراك الاجتماعي والسياسي الذي شهده المجتمع السوري ابتداء من العام 2000 بعد طول غياب لمظاهر الحياة من هذا المجتمع، وهو ما يتمثل في الرسائل التي وجهت إلى كبار مسؤولي الدولة، وفي مبادرته التوقيع على أهم البيانات التي أصدرها المثقفون السوريون مطالبة منهم بتحقيق كل صور الإصلاح التي يحتاجها المجتمع، وعلى رأسها الإصلاح السياسي. ولا ينبغي أن ينظر إلى هذه الإسهامات في الحداثة السياسية على أنها منفصلة عن نظرته العامة إلى الحداثة فيما الإصلاح في نهاية المطاف، كما فهمه المقدسي، سوى نوع من قراءة الواقع قراءة جديدة، أو صورة من صور التأويل الممكنة التي من شأنها أن ترتقي بالواقع إلى مستوى القيم التي أصبح الفرد والجماعة مشغولين بها ومتطلعين إلى تحقيقها تحقيقاً فعلياً في حياتهم الفردية والاجتماعية.

وكل ذلك يسمح لنا بالقول: إن المقدسي قد وسَّع مفهوم الحداثة، عندما أصبحت الحداثة جزءاً لا يتجزأ من تصوره لها، فضلاً عن مقدرته على الدمج بين هذا النوع من الحداثة وبين الحداثة الأدبية، والحداثة الفلسفية، فاكتملت بذلك للمقدسي رؤية واسعة أو فضاء شامل، اندمجت فيه الفلسفة بالسياسة والأدب في منظور واحد وموحد، يعايش شتى المشكلات الكونية، ويتعين في الوقت نفسه، في أدق المشكلات الوطنية.

كان المقدسي بذلك فيلسوفاً وأديباً وناقداً، وواحداً من رواد المجتمع المدني الكبار، ولكنه كان قبل ذلك كله إنساناً ومواطناً.

غير أن هناك وجهاً آخر للحداثة في تفكير المقدسي، يتمثل في تصوراته عن المجتمع المدني، وحسبنا أن ندعه يعبر عن هذه الأفكار بلغته وعلى طريقته الخاصة. فالمقدسي يحاول أن يرسم تاريخاً للمجتمع المدني، من خلال تطور المدينة عبر التاريخ: المدينة الإغريقية، المدينة الأوروبية، في العصر الحديث، ثم ما أحدثته الثورة الفرنسية من تغيرات عميقة في الثقافة السياسية والممارسة الديمقراطية للشعوب الأوروبية. وفي ضوء هذا التطور يستطيع المقدسي أن يحدد مكانة المدينة العربية وماهيتها ووقع المجتمع المدني فيها، ليخلص من ذلك كله إلى تحديد طبيعة السلطة العربية، استناداً إلى المعطيات السابقة بجملتها.

في المدينة الإغريقية كانت السيادة فيها للمواطنين، ديمقراطية مباشرة، وكل قانون كان يعلق مباشرة في الساحة، ويأتي المواطنون ويصوتون ليس على القانون فقط للقيام بمهمته، سنة، سنتين أو نصف سنة، أقل أو أكثر. يقول أرسطو إن فضيلة المواطن هي الأمر والطاعة، يعني عندما يوضع في مركز الآمر، عليه أن يأمر، وعندما تنتهي مهمته، عليه أن يعود إلى صفوف المواطنين ويطيع، هذا أول نموذج للمدينة في المجتمع المدني.

ديمقراطية مباشرة وتصويت، وسيادة القانون بالدرجة الأولى، المثال على ذلك: حكم على سقراط بالموت لأسباب فيها الكثير من الدسائس، أعطي المجال ليترك أثينا على الأقل، كي لا ينفذ فيه حكم الإعدام، وقدمت له عروض ليتجنب حكم الإعدام، فأبى، وقال: يجب أن أطيع قانون المدينة. إذاً ديمقراطية مباشرة، حكم مواطنين، وفكرة المواطنة هي فكرة أرستقراطية.

والمدينة الأوروبية انبثقت من قلب الإقطاع، إذ كان الذين يتركون الإقطاع، يتجمعون في مكان معين. من هنا أتت كلمة برجوازية، برجوازية تعني ساكن المدينة، تطورت تدريجياً حتى الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر، هذه الثورة التي تمت في إطار الثورة الصناعية الأولى، الثورة الفرنسية كشفت المفهوم الأرستقراطي للمواطن، البلد مؤلف من مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات أمام القانون، المفهوم الثاني، الذي كشفته هو مفهوم الأمة. في اليونان، لم تكن موجودة بل كان هناك مدن. ثالثاً: الاقتراع المباشر، التصويت العام لكل المواطنين بنفس السوية والأكثرية تؤلف البرلمان. هذه المفاهيم التي أتت مع الثورة الفرنسية، ثم مفهوم التفاوت بين الطبقات الذي تحدث عنه كارل ماركس، هذه المفاهيم: المواطنة، المساواة أمام القانون الاقتراع لاختيار ممثلي الشعب، هي الأطر التي تكون بها المجتمع المدني.

المجتمع المدني لم يظهر في الغرب إلا أواخر القرن التاسع عشر، وقام على نظام إقامة البلديات، البلدية هي حكومة المدينة وإذا تضخمت المدينة قسمت إلى إمارات. مدينة باريس (20) حارة، وكل حارة لها بلديتها، التي تنتخب رئيسها الرمزي (وفي سوريا ما زلنا نأخذ بنظام البلدية العثمانية، مع أن تركيا تركته).

المجتمع المدني إذاً يقوم على البلدية، بلدية منتخبة مباشرة من الشعب، فرئيس البلدية والبلدية ليسوا موظفين بل أعضاء في المدينة لهم دور سياسي، المحافظ له وظيفة، مدير المنطقة له وظيفة، أما البلدية ليست لها وظيفة، هي كيان سياسي، وهذا هو بالضبط المجتمع المدني، كيان سياسي ينظم كل أمور المدينة: المدارس، الطرق، المواصلات، علاقات الناس ببعضهم، وكل ما يخص الناس هو من تنظيم هذه البلدية. وهذا هو النموذج البرجوازي الذي لا يزال حتى الآن معمولاً به. لذلك فإنه في أوروبا يأتي انتخاب البلديات بنفس أهمية انتخاب البرلمان.

ولكي نفهم المدينة العربية، لا بد لنا من أن نتذكر أن العربي بفطرته تاجر، يتردد بين النظام العشائري (نظام البادية) حيث العلاقات شخصية، وبين المدينة حيث النظام يقوم على القانون. والأمثلة على ذلك: في الماضي، الأحكام السلطانية من القرن الخامس للهجرة (الثاني عشر الميلادي) تقول إن الجنود كانوا مرتبين كل حسب قبيلته. وابن خلدون في القرن الثامن الهجري (الخامس عشر الميلادي) كان أول من تكلم عن المجتمع، أو عن الاجتماع البشري والعمران، وكان يرى أن الدولة تكون قريبة في البداية من العصبية القبلية، وعندما تنتقل إلى المدينة تزول، هذا قول لأكبر عالم اجتماع عربي.

إذاً، نقاط الضعف في المدينة العربية: بقايا العشائرية أولاً، وهذه الكيانات السياسية المفتعلة ثانياً ما تزال البادية حاضرة فيها. فالمدينة العربية تشكو من تأرجحها بين بقايا العشائر القديمة والحياة في المدينة، وهذا التأرجح كما سنرى هو الذي أفادت منه السلطات. وهذه أول نقطة ضعف في المدينة العربية.

النقطة الثانية أن الحلفاء في الحرب العالمية الأولى وعملياً فرنسا وبريطانيا، وبالدرجة الأولى بريطانيا، جزأت البلاد العربية بعد أن كان مجال التاجر العربي يمتد حتى أيام العثمانيين من بلغاريا ومكدونيا في البلقان إلى المغرب، هذا المجال ضاق وأصبح بحدود القطر العربي السوري مثلاً.

فما هي السلطات الحاكمة في البلاد العربية الـ 22؟ أعددها: سلطة عرفية انقلابية، سلطة دينية، سلطة عشائرية، سلطة ثقافية، وبالنتيجة سلطة مدنية المدينة تقريباً ليس لها وجود. إذاً التساؤل من يحكم مدينة دمشق؟ السلطة المدنية

غائبة تماماً، لا يوجد سلطة مدنية، فالمحافظ موظفٌ عاديٌ، السلطة المدنية هي المدينة التي تنتخب حكامها في البلدية والعمدة حيث هذا منصب سياسي؛ إذاً تحكمها السلطات التي ذكرت وأترك لكم الإجابة. فالسلطة هي عرفية انقلابية، سلطة دينية، سلطة عشائرية، سلطة ثقافية، أما السلطة المدنية فغائبة. والشعب تحت الوصاية، فالحاكم العربي يعتبر الشعب قاصراً وعليه أن يلقنه ما يقول. ومن جملة ما يلقنه لا فصول المجتمع المدني ولا المعلومات الأدبية، بل الأيديولوجيا التي يعتقد أنه يحكم، أو التي توفر له المسوغات العقلية والفكرية والأخلاقية حتى يحكم، وطالما كان الحكم على هذا الشكل، وما دام الشعب يُعتبر قاصراً، فسينتهي كل شيء وكل عمل يجب أن يقوم به على تحرير الشعب والمجتمع المدني، فالمطالبة بالمجتمع المدني هو خير وسيلة من جملة هذه الوسائل.

د. يوسف سلامة

مصطفى السباعي

المؤسس والمراقب الأول

(1915 - 1964)

ينتمي مصطفى السباعي إلى جيل الكبار في التاريخ السوري الحديث. وقد ولد في مدينة حمص عام 1915، في عائلة مدينية حمصية، قدّمت سلسلةً متصلةً من علماء الدين. وفي هذه العائلة تفتح وعي السباعي الفتى، وتكوّن، ليعززه بانتسابه إلى الثانوية الشرعية، التي تخرج منها في حدود العام 1932، ليتابع دراسته في جامعة الأزهر بالقاهرة. تكوَّن السباعي في بيئةٍ إسلاميةٍ صرفةٍ، غير أن وعيه الإسلامي سيندمج مع الوعي السياسي الوطني، فلقد كانت سنوات تكوينه الأساسية هي سنوات الانتداب الفرنسي على سورية. كان السباعي الشاب، مثل معظم أبناء جيله من الطلبة الشباب، منخرطاً في العمل الوطني وتظاهرات الشباب، ما عرّضه مع بعضهم إلى توقيف الفرنسيين له في العام 1931، بتهمة توزيع منشوراتٍ سريةٍ.

كانت حمص، التي عاش فيها السباعي الفتى والشاب، معقلاً للحركة الوطنية السورية ولكتلتها القيادية الأساسية: الكتلة الوطنية، التي كان هاشم الأتاسي رئيساً لها، وهو من جيل الأعيان، الذين تحولوا من العثمانية إلى العروبية، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة العثمانية، وكان رئيساً لأول مجلس نيابيٍ في مملكة فيصل العربية.

لكن المنعطف الأساسي في حياة السباعي كان في العام 1933، حين قرر متابعة دراسته الجامعية في جامعة الأزهر بمصر. سافر بالباخرة إلى مصر، وتوقفت باخرته في فلسطين، حيث حضر أحد دروس الشيخ السوري المقاوم عز الدين القسَّام في جامع حيفا. تركت هذه الدروس بصماتٍ عميقةً في روحه وتكوينه الحساس، الذي أخذ يتميز بنزعته الحركية. وفي جامعة الأزهر، كانت

حركات الشباب المصري موارةً، وتمتلك موقعاً حصيناً لها في الأزهر. وكان من أبرزها شباب جماعة الإخوان المسلمين، التي انتقل مقرها قبل حوالي سنتين من وصول السباعي إلى مصر من الإسماعيلية إلى القاهرة. كان الاستقطاب المحتدم في الحياة المصرية في العشرينيات والثلاثينيات، هو الاستقطاب بين المدرسة القومية المصرية المتوسطية - التي ترى هوية مصر عبر جذور العلاقة ما بين تاريخها الفرعوني قبل الإسلامي عبر المتوسط باتجاه أوروبا - وبين مدرسة الشرق التي ترى تلك الهوية عبر محورية الإسلام. ومن الطبيعي أن ينجذب السباعي الشاب إلى مدرسة الشرق، وأن يجد في جماعة الإخوان المسلمين التي مثّلت أحد أركان تلك المدرسة موقعاً طبيعياً له.

شكّلت حيوية الشباب الإخواني المصري في الأزهر مدخل انخراط السباعي في الجماعة، التي كان خطابها الراديكالي الإسلامي يجذب بطبيعته الشباب المصري الساخط على الأحزاب التقليدية البرلمانية المصرية، وفي مقدمتها حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين. كان هذا الشباب، المتحرق لإجلاء البريطانيين عن مصر، يهتف إبان اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتقدمها إلى مصر، بحياة رومل ويستحثه: إلى الأمام... إلى الأمام يا رومل. ولم يكن هذا بسبب تكوين نازي، بل بسبب أن الألمان كانوا ضد البريطانيين. وفي هذا المناخ المتوتر، انخرط السباعي في نشاط الحركات الشبابية الطلابية الراديكالية، التي حاول الإخوان المسلمون أن يخترقوها. وكان السباعي، تبعاً لذلك، ركيزة للجماعة في أكثر من حركة سرية. ولقد تعرض السباعي، في هذه الفترة، إلى أول تجربة له في الاعتقال، إذ قامت السلطات باعتقاله مع عدد كبيرٍ من الطلاب رداً على التظاهرات الشبابية المؤيدة لحركة رشيد عالي الكيلاني في العراق (نيسان 1941)، وتم إيداعه السجن قرابة ثلاثة أشهر، ثم نقله إلى معتقل (صرفند) بفلسطين، حيث بقي أربعة أشهر أخرى، ثم أُطلق سراحه بكفالة، ليخرج من تجربة السجن حركياً ناضجاً بامتياز.

عاد السباعي إلى سورية، بعد أن حصل على إجازة العالمية من الأزهر، يحمل رسالة بناء تنظيمٍ سوريٍ لجماعة الإخوان المسلمين التي كانت تتطلع إلى مد تنظيمها في سياق مفهومها عن نفسها كحركةٍ إسلاميةٍ عالمية. كان مؤسس

الجماعة ومرشدها الأول حسن البنا، يراهن على حيوية السباعي في تلك المهمة. وقد تمكَّن السباعي بمساعدة سعيد رمضان، صهر حسن البنا والقيادي المجرب في الجماعة، من إرساء أولى اللبنات من خلال عمله على اتخاذ الجمعيات الإسلامية السورية، التي كانت تتسمى فيما بينها منذ أواسط الثلاثينيات باسم جمعيات شباب محمد، أساساً لإعادة بنائها في تنظيمٍ جديدٍ يتبع إلى الجماعة الأم بمصر. ونجح في حدود العامين 1944-1945 في هذه المهمة ليتم دمج هذه الجمعيات تحت اسم (جماعة الإخوان المسلمين)؛ حيث تم انتخاب السباعي ليكون أول مراقبٍ عامٍ للجماعة بسورية. وكان السباعي أول من حمل هذا اللقب التنظيمي في تنظيم الإخوان، وينطوي على الاعتراف بالخضوع إلى المرشد العام بمصر. وشكلت انتخابات المجلس النيابي السوري في العام 1947 أول مناسبةٍ لاختبار التنظيم الوليد قوته، حيث خاض الانتخابات، وتمكن من إيصال ثلاثة نوابٍ له إلى عضوية المجلس. وبمناسبة قرار تقسيم فلسطين في أواخر العام 1947 برزت حيوية الجماعة، من خلال إصدارها مع حزب البعث العربي وقوى أخرى، بياناً من الجامع الأموي لمنع تقسيم فلسطين. وحين وقعت الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى في العام 1948، كان السباعي على رأس كتائب الإخوان المسلمين المتطوعة في إطار جيش الإنقاذ الذي شكلته الجامعة العربية، غير أنه رغب بوضع تلك الكتائب قتالياً في مواقع قوات الجهاد المقدس، التي كان يقودها المقاوم الفلسطيني المقدام عبد القادر الحسيني، ابن عم مفتي فلسطين الشيخ أمين الحسيني. ولقد خاض السباعي على رأس تلك الكتائب كل معارك القدس الكبرى، وعاد إلى سورية. وحين قام الانقلاب السوري الأول الذي قاده الزعيم حسني الزعيم، رحبت الجماعة على غرار معظم الأحزاب السورية، وفي مقدمتها حركات الشباب، بالانقلاب الجديد، غير أن إجراءات الزعيم التحديثية، وصدور بوادر عنه في الاقتداء بمصطفى كمال أتاتورك، أثارت فزعها، ولاسيما أن الزعيم قام بإغلاق صحيفة الجماعة: (المنار). وفي هذا العام 1949، أنهى السباعي دراسة الدكتوراه في جامعة الأزهر، ودافع عن أطروحته الشهيرة (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) التي ستبقى مع كتابه الآخر المثير (اشتراكية الإسلام) من أشهر كتبه. لكن ما إن سقط الزعيم وجاء الانقلاب الثاني، الذي قاده الزعيم سامي

الحناوي، والذي أعاد الحياة الدستورية إلى البلاد، حتى أخذت الجماعة، تحت قيادة السباعي، تدخل في منعطفٍ جديدٍ، صبغته شخصية السباعي بميولها الفكرية والحركية المتواشجة.

لعب السباعي، في هذه الفترة، دوراً ديناميكياً في تمكين الجمعية التأسيسية السورية من إقرار دستور العام 1950، إذ أثارت الفقرة التي تنص على أن: الإسلام دين الدولة، جدلاً كبيراً امتد إلى الشارع، وكاد أن يتسبب بفتنةٍ طائفية. وقد قطع السباعي طريق الفتنة، بأن تقدم بنفسه، بوصفه عضواً في لجنة وضع الدستور مع رشدي الكيخيا، إلى لجنة الدستور بتعديل المادة من «الإسلام دين الدولة» إلى أن «الإسلام دين رئيس الدولة». كان دستور 1950، ما عدا ما يتعلق بالأحوال الشخصية، دستوراً علمانياً. ولم يكتف السباعي بتمكين التعديل من الإقرار، بل تولى الدفاع عنه، بوصفه من أكثر دساتير دول العالم الإسلامي إسلاميةً، بل ودعا تلك الدول إلى الاحتذاء بالدستور السوري. وقد انفرد السباعي هنا عن سائر الشخصيات الإسلامية بالاستخدام الإيجابي لمصطلح العلمانية، ودافع عن القانون الإسلامي بوصفه قانوناً علمانياً على حد تعبيره حرفياً. وكان يقصد بالعلمانية على الأرجح ارتباط وظائف التشريع الإسلامي بتحقيق المصلحة أنى وجدت، إذ كان السباعي ينتمي إلى فضاء الفكر الإصلاحي الإسلامي الذي يرتبط بخط الأفغاني والكواكبي ومحمد عبده.. إلخ في مدرسة الإصلاح الإسلامي، أكثر من انتمائه إلى الاتجاه الذي بلوره الشيخ رشيد رضا في منتصف العشرينيات، واعتنقه مؤسس جماعة الإخوان المسلمين ومرشدها العام الأول حسن البنا. ولقد اهتم السباعي هنا بمفهوم المصلحة، وهو نفسه مفهوم المنفعة في الفكر التنويري الليبيرالي، وكان من رواد استئناف الدعوة إلى تشغيل التشريع الإسلامي في ضوء نظرية المقاصد الشرعية، التي تتجاوز الفهم القياسي التقليدي والكابح للفقه الإسلامي، كما استقرت مدارسه المذهبية منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وفي ذلك كان السباعي يستأنف تبني مدرسة الإصلاح الإسلامي، ولاسيما خط محمد عبده والطاهر بن عاشور لهذه النظرية، التي يسهل فيها فهم سؤال محمد عبده المرير، عن فرنسا التي وجدها مسلمة دون مسلمين ومصر التي وجد فيها مسلمين من دون إسلام، فكل ما يحقق مقاصد الشريعة هو إسلامي.

وبهذه الروح المستنيرة ناقش السباعي إشكالية العلاقة بين الدين والدولة بمناسبة إثارتها في مداولات الجمعية التأسيسية إبان وضع دستور 1950، وقد ألقى في العام 1953 في جمعية «عباد الرحمن» البيروتية الإخوانية محاضرةً شيقةً عن ذلك، لم يدع فيها أي مجالٍ للشك في أنه يتبنى علمانيةً منفتحةً واستيعابيةً مقابل العلمانية الصلبة أو النضالية التي تشكل حيزاً من حيزات العلمانية، وترتبط بالمفهوم الراديكالي الفرنسي للعلمانية. وشكل ذلك عنصراً أساسياً في رؤية السباعي لإمكانية تحويل الحركة الإسلامية في سورية والتي يشكل الإخوان المسلمون عصبها الأساسي إلى حركة ديموقراطية إسلامية على غرار الأحزاب الديموقراطية المسيحية في أوروبا.

ولقد عبر عن ذلك في عدة إشارات، ووضع تطور جماعة الإخوان المسلمين في سورية في ذلك الاتجاه، الذي كان محتملاً في مسارٍ ديموقراطيٍ، يقوم على أوسع أشكال المشاركة السياسية والاجتماعية الممكنة. ولقد اختبر السباعي، من خلال قيادته للجماعة، إرهاصات هذا التوجه، إذ زج الجماعة الوليدة في النسق السياسي السوري التعددي البرلماني، وخاضت الجماعة بقيادته انتخابات العام 1947، ووصل منها ثلاثة أعضاء إلى البرلمان السوري، كان من بينهم الشيخ معروف الدواليبي الذي سيتحول بعد فترةٍ وجيزةٍ ليعمل كأحد أقطاب حزب الشعب الوليد. وفي انتخابات الجمعية التأسيسية السورية في العام 1949، شكل السباعي جبهةً سياسيةً قويةً، سماها بالجبهة الإسلامية الاشتراكية، والتي كانت قائمتها الانتخابية مؤلفةً من مسيحيين ومسلمين، وعملت هذه الجبهة كواجهةٍ برلمانيةٍ لجماعة الإخوان المسلمين. وكان انتخاب السباعي نفسه نائباً لرئيسها بعد تحولها إلى مجلس للنواب اعترافاً بقوة حضور هذه الجبهة. وربما كان برنامج الإخوان المعلن من خلال هذه الجبهة أول برنامج متكاملٍ وواضحٍ من نوعه في كامل التنظيم الإخواني العالمي. لكن مشروع بناء السباعي للجماعة قوطع بتمرد راديكاليٍ عليه في العام 1953، تصدره ثلاثة من الوجوه الشابة، كانوا أنور حمادة الذي غدا لاحقاً أحد شخصيات الحركة الناصرية وقيادييها في سورية، وعبد المجيد الطرابلسي الذي غدا وزيراً للأوقاف في عهد الرئيس السوري الراحل

حافظ الأسد، وعلي الحسن، الشقيق المعروف في عائلة الحسن الفلسطينية التي لعبت دوراً بارزاً في العمل الفلسطيني.

كان التمرد نوعاً من محاولة انقلابٍ على قيادة السباعي في سورية، وكان مرتبطاً بانقسام جماعة الإخوان بمصر داخلياً بين جناحٍ راديكاليٍ يدعم جمال عبد الناصر ومدعوم منه في وقتٍ واحد، وبين جناح المرشد العام الثاني حسن الهضيبي الذي فشل عبد الناصر في انتزاع قرارٍ مؤسسي إخواني بعزله من المرشدية العامة للجماعة. وكان المتمردون الشباب قد برروا انقلابهم بعلاقات الجماعة مع حزب الشعب، وتكتيكها البرلماني في التغيير، لكن توضح بعد فترةٍ أن هذه المحاولة قد ترافقت مع محاولة عسكرة الجماعة على غرار وضعها في مصر، وتشكيل جهازٍ خاصٍ في صفوفها، تم زرع نواته في مدينة حماة. وتولى عملية الزرع عدد من كوادر الجهاز الخاص المصري الذين كان نجيب جويفل أبرزهم، ويعمل تحت واجهة مدرس في المعهد الإسلامي. لكن جويفل في الحقيقة لم يكن سوى أحد الرجال السريين لجمال عبد الناصر الذي كان قد قرر زعزعة عمق الهضيبي في التنظيم السوري، وانكشفت بعد فترة علاقته بالمخابرات المصرية، ليعمل ضابطاً شبه معلنٍ لها في السفارات المصرية، ولاسيما في الأردن حتى نهاية السبعينيات.

كان لهذا التمرد أثره في كبح مؤشرات تحوُّل الجماعة إلى نواة حزب ديموقراطي إسلامي، إذ سيفرض ذلك على السباعي الالتزام بتغليب الجانب الدعوي على الجانب السياسي، وهو ما أثر في انسحاب الجماعة من انتخابات العام 1954، بعد سقوط الشيشكلي، لكن محمد المبارك الذي ينتمي إلى جيل الآباء في الحركة الإخوانية السورية تمرد على القرار، وخاض الانتخابات وكاد أن يسقط لولا نجدة أصوات الإخوان له في اللحظات الأخيرة من الجولة الثانية في الانتخابات.

على الرغم من موافقة السباعي على انسحاب الجماعة من العمل السياسي في العام 1954، فإن التطور الموضوعي للأحداث كان يدفع الجماعة باتجاه العودة إلى السياسة. كانت المواجهة بين جناح المرشد العام الهضيبي ومجلس الضباط

الثوريين بقيادة البكباشي جمال عبد الناصر قد وصلت إلى أوجها، حيث استخدم الهضيبي سورية التي يوجد فيها تنظيم قوي ومعترف به قانونياً وسياسياً كنوعٍ من قاعدةٍ خلفيةٍ له في إدارة الصراع، مع محاولات عبدا لناصر الهيمنة على الجماعة، وتحقيق انقلابٍ داخليٍ فيها يحول قوتها الشعبية من قيادة الهضيبي الليبيرالية إلى القيادة الثورية الجديدة. ومن هنا شكلت زيارة الهضيبي وإخوانه إلى سورية في العام 1954 استفزازاً كبيراً لعبدا لناصر، الذي رأى فيه محاولةً لهز سمعة المجلس الثوري الجديد في سورية، التي كانت قواها السياسية تنظر يومئذ إلى عبدا لناصر كدكتاتور متعطش للسلطة أتت به السفارة الأمريكية إلى الحكم.

إثر تمخض المواجهة في مصر عن حملة الاعتقالات، بعد اتهام الجماعة بمحاولة اغتيال عبد الناصر في حادثة المنشية بالاسكندرية، في أواخر العام 1954، وتشكيل محكمة الشعب الثورية، التي مزقت التنظيم الإخواني، وأودعت قادته في المعتقلات، وعلقت بعضهم على أعواد المشانق، تحولت الجماعة السورية بقيادة السباعي إلى القاعدة الأساسية للعمل الإخواني العربي، ليغدو السباعي بعد فترةٍ وجيزةٍ رئيساً للمكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في الدول العربية، الذي اضطلع بوظائف مكتب الإرشاد العام الذي غيّب عبد الناصر معظم أعضائه في السجون أو علقهم على المشانق، بعد محاولتهم الفاشلة لاغتياله. لكن العدوان الثلاثي على مصر في تشرين الثاني 1956 غير كلياً من مواقف السباعي واتجاهاته نحو عبد الناصر. كانت صورة عبد الناصر ومجلسة الثوري، قد أخذت تتغير إيجابياً في العام 1955، طرداً مع تزعم مصر للموقف ضد الأحلاف، والتمسك بمعاهدة الدفاع العربي المشترك، ولكن عدوان السويس حوّله إلى بطلٍ قوميٍ من الموصل إلى عدن.

طوى السباعي جراحات الجماعة، وأرسل برقيةً شهيرةً إلى جمال عبد الناصر، يضع فيها نفسه وإخوانه في الدفاع عن مصر. وكانت محنة الإخوان النفسية، قد أخذت تتعقد بين الجماهيرية الزاحفة لعبد الناصر في كل مكان وبين ثقل المحنة التي رماهم بها. تجاوز السباعي ذلك، وترتب على ذلك عودته إلى السياسة، من دون أن يهمل العمل الدعوي في تجذير الجماعة وتصليب

عودها تربوياً أو دعوياً. ففي هذا العام 1955، كشف السباعي عن حركة ديناميكية دؤوبة في كل مكان، فكان يلقي المحاضرات، ويبين أسس الجماعة، ويسهم في تأسيس كلية الشريعة بجامعة دمشق، ويسهم بتأسيس مجلة (الشهاب) الأسبوعية، التي استمرت في الصدور إلى قيام الوحدة مع مصر عام 1958، ويحصل على ترخيص مجلة (المسلمون) الشهرية بعد توقفها في مصر، و قد ظلت المجلة تصدر في دمشق حتى عام 1958، حيث نقلها صاحبها سعيد رمضان، وهو صهر حسن البنا، مقرها وتحريرها إلى مقره في جنيف بسويسرا، فأصدر السباعي بدلاً منها مجلة (حضارة الإسلام الشهرية)، وظل السباعي مشرفاً على المجلة إلى حين رحيله في العام 1964.

إلى جانب العمل الدعوي التربوي، عاد السباعي إلى الانخراط في الفعل السياسي، وقرر خوض الانتخابات التكميلية في دمشق في العام 1957، لكن التجمع القومي التقدمي، الذي كان جزءاً مما يمكن تسميته تجاوزاً بمجلس قيادة ثوري عسكريٍ – أمنيٍ- سياسيٍ مسيطر على البلاد يومئذ ومدعوم شعبياً، دعم مرشحه وهو مرشح البعث رياض المالكي شقيق العقيد عدنان المالكي، الذي اغتاله رقيب في الشرطة العسكرية ينتمي إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي في العام 1955. وعلى الرغم من أن المالكي قد فاز بأغلبية بسيطة على السباعي، فإن سقوط السباعي في الانتخابات قد هزه، من منطلق أن دمشق المدينة الإسلامية العريقة قد رفضت مرشحاً إسلامياً. وترافق هذا الإحباط مع إصابته بشللٍ جزئيٍ، أقعده عن العمل السياسي، لتنتقل قيادة العمل اليومي في الجماعة وفي المكتب التنفيذي إلى نائبه الدمشقي عصام العطار.

كان المجتمع السياسي السوري يهرول بكل عجلاته صوب الاتحاد، فالوحدة مع مصر، وهو ما تم في 22 شباط 1958. وقد دفع السباعي بالجماعة لتأييد الوحدة الاندماجية، والتي قبل بها الإخوانيون على مضض، بالنظر إلى ميراث المحنة بينهم وبين عبد الناصر، لكنهم قبلوا بذلك خوفاً من سقوط سورية بأيدي الحركة الشيوعية. لكن موقف السباعي كان متميزاً عن إخوانه، فلقد أخذ يعتبر عبد الناصر قائداً للأمة العربية والإسلامية في مواجهة الاستعمار الغربي. ومن

هنا، قام الإخوان بحل التنظيم، وتحوَّل قسم منهم إلى الخلوات الصوفية والتقوية. كانت قرارات الإصلاح الزراعي التي قامت بها حكومة الوحدة وطبقتها، قد أخذت تغير موازين القوة والسلطة في سورية باتجاه حل المشكلة الفلاحية بشكلٍ جذري. ولقد أصدر السباعي في العام 1959، في هذا السياق، كتابه المدوي يومئذ في الفضاء الإسلامي وهو (اشتراكية الإسلام) الذي جاء بمثابة «مانيفست» للإصلاح الزراعي. وقد تبنى فيه السباعي التأميم قبل صدور قراراته. كان الكتاب شرعنةً إسلاميةً لإجراءات عبد الناصر وسياساته الاجتماعية. وقد استقبله عبد الناصر بترحابٍ شديدٍ، ووزعته أجهزته في كل مكانٍ.

لم يكن السباعي يداهن في ذلك عبد الناصر، فالإصلاح الزراعي الجذري لحل المشكلة الفلاحية، كان في صلب مواقفه منذ العام 1950، وما قبله من خلال برنامج الجبهة الإسلامية الاشتراكية في العام 1949، وعرف السباعي بدفاعه عن إصلاح زراعيٍ جذريٍ، واصطدم بكبار الملاك الذين تمسكوا بأن ينص الدستور السوري في العام 1950 على أن تحديد الملكية ليس له مفعول رجعي، بل يطبق على الملكيات الجديدة الناشئة، كما أن نزعة السباعي العروبية كانت قويةً، وكان ينظر إلى الأمة العربية كوحدةٍ متميزةٍ داخل الأمة الإسلامية، وكان منذ العام 1950 في طليعة من تبنى اتخاذ سورية والمجموعة العربية يومئذ لسياسة الحياد ضد الاحلاف، وخطابه في العام 1955 شهير، في أن عدو الإسلام ليس الشيوعية بل أفعال الاستعمار الغربي وسياساته. لم يكن مصطلح الاشتراكية غريباً عن الخطاب الإخواني، ولكن كان يقصد به العدالة الاجتماعية تميزاً عن الشيوعيين واليساريين. غير أن السباعي مضى بعيداً في تأسيس ذلك ضمن رؤيةٍ أشمل، تلخصت بأن الشيوعية ومركزها السوفييتي صديق للعرب، وأن ما لا يمكن قبوله في الشيوعية هو أسسها المعرفية الفلسفية، لكن مبادئها الاقتصادية والاجتماعية تلتقي مع الإسلام. وكان ذلك جرعةً كبيرةً في الخطاب الإسلامي الخاضع لشروط المحنة. ولقد ووجه الكتاب بردود عديدة، واعترض عليه البعض، من زاوية أنه لم يؤد إلى رفع الضغط عن الجماعة بمصر، لكن السباعي لم يكتب هذا البيان بهدف رفع الضغط عن إخوانه في مصر، وإن استحث عبد الناصر على إصدار عفو عام والإفراج عن المعتقلين والمحكومين.

هذا ما انكشف في الموقف من الانفصال السوري في 28 أيلول 1961، حيث وقفت الجماعة بكل قوةٍ ضد النظام الانفصالي، ورفضت تأييده، وكانت في ذلك تعبر عن سياسة السباعي الذي رفض منذ العام 1956 وضع الجماعة في مواجهة عبد الناصر. خلال الانفصال ضبط السباعي حركة الجماعة التي فشل السياسيون السوريون وفي مقدمتهم خالد العظم من جذبها لتحويلها إلى قوةٍ في جبهةٍ معاديةٍ للناصرية في سورية. ولقد قاوم السباعي الضغوط، ولم يعترف قط بشرعية الانفصال. كانت وطأة الشلل الذي مني به السباعي في العام 1957 قد هدّت صحته، التي أخذت تتدهور بشدةٍ، إلى أن توفي في يوم السبت 3 أكتوبر/ تشرين الأول 1964. ولقد أبنه الدكتور محمد الفاضل الذي كان صديقاً له بكلمةٍ مؤثرة، وكان الفاضل يومئذ من ألمع القانونيين والأكاديميين السوريين الذين ينتمون إلى الجيل المثقف الأول في الطائفة العلوية السورية. في العام 1976 كانت الجماعة قد سارت بعيداً عن خطى مؤسسها ومراقبها الأول مصطفى السباعي، وقام أحد جهازها الطليعي المقاتل المنشق عن الإخوان داخل الإخوان باغتيال محمد الفاضل قبيل وصوله إلى مكتبه في رئاسة جامعة دمشق التي كان رئيسها، في مفارقة تراجيديات المصير.

محمد جمال باروت

أحمد عسه

شهاب الصحافة السورية

(1915- 2005)

خلافاً لما هو شائع في حياة الصحفيين، اختفى الصحفي أحمد عسه، عدة مرات، دون أن يعرف مكانه بالضبط. يقال إنه سافر إلى فلسطين، وأمضى زمناً في المملكة العربية السعودية، ثم في المغرب. غاب عن الأنظار والأسماع لفترات متعددة، ثم غاب عن سورية إلى أن غيبه الموت. ماذا كان يفعل ما بين عام 1963، عندما قامت الثورة في سورية، وعام 2005 يوم وفاته 10 شباط؟ إن كتابيه الضخمين: (معجزة فوق الرمال)، الذي تحدث فيه عن المملكة العربية السعودية، و(المعجزة المغربية)، الذي خصَّ به المملكة المغربية بمديح، يدلان على أنه أمضى الجزء الثاني من حياته في هاتين المملكتين، لكن لا أحد يعرف ماذا فعل في فلسطين عندما ذهب إليها مرة، وربما مرات في صدر شبابه؟!

❖ ❖ ❖

كانت الحرب العالمية الأولى قد اندلعت، وخاضتها تركيا العثمانية إلى جانب ألمانيا، قبل سنة واحدة من مولد أحمد عسه، عام 1915، في حي الميدان بدمشق، من أسرة متوسطة الحال. وقد حدثت التغييرات الكبرى في سورية في تلك الفترة، وشهدها أحمد صغيراً: اندحار الجيش العثماني، وقيام الثورة العربية التي انطلقت من مكة المكرمة بقيادة الشريف حسين، وتتويج ابنه فيصل ملكاً على سورية، إلى فرض الانتداب الفرنسي على البلاد بموجب اتفاقية سايكس – بيكو، ومن ثم الاعتراضات والمظاهرات والثورة التي اندلعت عام 1925، عندما كان ما يزال في العاشرة. لقد شكلت هذه الأحداث المتلاحقة خلفية لإحساس أحمد بالاضطرابات التي عصفت بالبلاد منذ يوم مولده، ولا بد أنه اشترك ببعض المظاهرات أيام الثورة.

على الرغم من أن أباه كان يعمل جزاراً في حيه، إلا أنه رغب في أن يعلم أبناءه، ويثقفهم، وينجيهم من الكار الذي عمل هو فيه، فأرسل ابنه أحمد إلى المدرسة الابتدائية، التي منحته شهادة (السرتفيكا)، كما أرسل أخوته.

كان أحمد عسه قد آنس في نفسه القدرة على التعبير، منذ سنواته الأولى في المدرسة، وقد شجعه أساتذته على الكتابة، عندما طالعوا المواضيع التي كان يكتبها في درس الإنشاء. وحين وجد نفسه يحمل السرتفيكا، وبسبب نزعته الاستقلالية، وازدرائه لكار أبيه، التحق بجريدة (ألف باء) التي كان يصدرها يوسف العيسى، مذ كان أحمد في الخامسة من عمره، والتي استمرت بالصدور حتى عام 1958. ولا بد أن عمله في هذه الجريدة، رغم عدم تجاوزه سن السابعة عشرة، قد أكسبه حرفية ومهارة في صنع الخبر وتتبعه وصياغته، فبرع في هذه الصناعة، ووجد فيها تطوراً نوعياً عن كار أبيه، كما وجدها تلبي طموحه في الظهور والارتقاء.

استمر أحمد في العمل في جريدة (ألف باء) عدة سنوات، وكانت عينه على جريدة (الأيام)، التي كانت الكتلة الوطنية قد أصدرتها، ثم اشتراها «نصوح بابيل» منها. كان يريد الاشتراك في تحريرها، ليتقرب من أعضاء الكتلة الوطنية التي رأى بعينه الطموح، أنها ستمسك بمقاليد الأمور يوماً ما في سورية بعد الانتداب. انتقل إلى العمل في (الأيام). وأثناء ذلك انتقلت ملكيتها إلى «نصوح بابيل» الذي بدا شهبندري الهوى، مما أربك أحمد عسه، وجعله يترك التحرير في «الأيام» ويعمل رئيساً لتحرير جريدة «الكفاح» التي أصدرها أمين سعيد عام 1939، مع بداية الحرب العالمية الثانية. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يعمل فيها رئيساً لتحرير جريدة محلية، وكان قد تزوج، وبلغ سن الرابعة والعشرين.

❖ ❖ ❖

عصفت الحرب بسورية، فانتقلت تبعيتها إلى حكومة فيشي المتعاونة مع الاحتلال الألماني لفرنسا المسيطرة على سورية، أول الأمر، إلى أن حررها جيش فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول والحلفاء، فاستُصدر قرار بالاستقلال، لم تكن فرنسا جادة فيه، مما عرض البلاد إلى عدوان عسكري على المجلس النيابي بخاصة، وعلى سائر المدن السورية بعامة، وارتكبت مجازر بحق الشعب السوري.

في هذه الظروف، وبعد أن عمل عسه في جريدة (الكفاح)، غاب عن سورية، وربما سافر إلى فلسطين التي كانت تحت الانتداب البريطاني، وتعم فيها انتفاضات عربية متلاحقة ضده، لإحساسهم الواقعي بأن الهجرة اليهودية إليها قد تفاقمت، إلى حد أن اليهود باتوا، بمعرفة سلطة الانتداب ومساعدتها، قاب قوسين أو أدنى من إعلان دولتهم، واغتصاب فلسطين العربية.

ولا يذكر مؤرخو الصحافة السورية شيئاً عن غياب أحمد عسه في فلسطين، وما إذا كان قد اشتغل في الصحافة العربية أو غيرها قبل إعلان دولة إسرائيل بسنوات، فكانت مرحلة من مراحل غيابه عن المسرح بعامة، وعن الصحافة السورية بخاصة، وقد تكرر هذا الغياب أكثر من مرة في حياته التي بلغت التسعين سنة.

❖ ❖ ❖

ظهر أحمد عسه في سورية، بعد نكبة فلسطين عام 1948 وهزيمة الجيوش العربية، وإعلان الهدنة، وقرار تقسيم فلسطين الذي صدر عن مجلس الأمن، وربما حالفه الحظ بأن حزب الشعب الذي كان أحد قطبي السياسة السورية بعد الاستقلال، مع الكتلة الوطنية، القطب الثاني، كان يزمع إصدار جريدة سماها (لسان الشعب)، فاختير أحمد رئيساً لتحريرها، وقد صدر العدد الأول منها في دمشق في 2 – 3 – 1949 مُصدراً بمقال افتتاحي لرئيس التحرير، وبأربع صفحات. كانت صحف الاستقلال تصدر أيضاً، لكن هذه الصحيفة أغلقت بعد 18 يوماً، عندما حدث انقلاب حسني الزعيم في 30 – 3 – 1949، وقد خاب أمل أحمد عسه في ركوب موجة حزب الشعب الذي كان يمثل المعارضة، ويتأهب للحلول محل الكتلة الوطنية في الحكم، كما كان قد خاب في الكتلة الوطنية قبل ذلك.

لم يكن أحمد عسه قد عرض عضلاته الصحفية إلا قليلاً، وقد استسلم لغياب الجريدة الثانية التي رأس تحريرها في سورية، وقبع في بيته مع زوجته الأولى «مفيدة العمري» (التي رزق منها بأربعة أبناء، بنتين هما نجوى وأمل، وولدين هما مروان وغسان) ينتظر الفرج. ويبدو أنه فكر وقتئذٍ بمغادرة الوطن إلى الأبد.

غاب أحمد عسه عن الساحة بعامة وعن الصحافة بخاصة، عدة سنوات، لم نعرف ماذا فعل في بدايتها، إلى أن ظهر فجأة كمدير للإذاعة في عهد انقلاب

العقيد أديب الشيشكلي. وفي هذا الموقع، ظهرت مواهبه الإعلامية. قدمت الإذاعة مجالاً واسعاً له ليطلع على أخبار الدولة وأخبار العرب وأخبار العالم. ومع أنه كان من الناحية النظرية غير مكلف بإعداد الأخبار، فهو مدير الإذاعة، ومهمته البرامج ككل. إلا أن قفزة نوعية قد توضحت آثارها في طريقة أداء نشرات الأخبار وإعدادها. وقد مده أديب الشيشكلي بالمال والرجال لتكون الإذاعة معبرة عن مرحلة هامة من مراحل سورية المستقلة، كبلد يعنى بالصناعة والزراعة، ويهتم بالاقتصاد، بصورة خاصة. غير أن الريح تجري بما لا تشتهي السفن؛ ففي صباح يوم 25 شباط 1954 أذاع الرئيس (رتبة عسكرية) مصطفى حمدون من إذاعة حلب الإضافية، بياناً أعلن فيه «أن قيادات الجيش في المحافظات الشمالية والشرقية والغربية قد انفصلت عن دمشق، وطلبت إلى الزعيم أديب الشيشكلي التخلي عن منصبه ومغادرة البلاد حالاً، حقناً لدماء أبناء الوطن الواحد، وإلا فإن الزحف قادم باتجاه دمشق».

كانت ورطة لأحمد عسه، حيث سار الناس في مظاهرة صاخبة إلى دار الإذاعة، فاضطر إلى الهرب عبر السطح إلى بيته في «زقاق الصخر» بدمشق، وكان يدرك أنه قد فَقَدَ وظيفته التي سخر لها موهبته، والأهم أنها وفرت له التعاطي مع الأخبار من موقع المسؤول الأول.

❖ ❖ ❖

ما الذي أعطاه أحمد عسه للإذاعة، وماذا أخذ منها ؟

مما لا شك فيه أن موهبة أحمد عسه قد بدت في قيادته لمجموعة الموظفين، فنيين كانوا أو إداريين. وقد استطاع بشخصيته القوية وباستخدامه لأساليب متطورة في الإعلام المسموع، أن يرتقي بالإذاعة من مجرد إذاعة محلية محدودة، لا تسمع إلا على نطاق ضيق، في دمشق، إلى إذاعة عربية هامة، تسمع على نطاق العالم العربي كله، أكثر من الموجات التي تحمل برامج خاصة إلى العالم كله. كان تأثيره كبيراً، وبدلاً من أن يكون صانع أخبار أو كاتبها، اتجهت الصحافة في تلك الفترة إليه كمصدر للأخبار. وقد كتب عن إدارته عدد كبير من الصحفيين، بما في ذلك مجلة للإذاعة، أصدرها باسم مجلة (الإذاعة السورية)، وعهد برئاسة

تحريرها إلى الصحافي سعيد الجزائري الذي كان صحافياً مرموقاً، خاصة في حقل تنشيط الحركة الثقافية في البلاد، على الرغم من أن الثقافة كانت غير مأجورة في الصحف.

عرف أحمد عسه كواحد من كبار الإعلاميين في تلك الفترة، وقد قبع في بيته، ينتظر الفرصة ليعود إلى كاره الأصلي: الصحافة، مع زوجته الثانية السيدة «فخرية هنانو» ابنة حلب، التي كانت تعمل مذيعة في القسم التركي، والتي يبدو أن حباً قد نشأ بينه وبينها خلال فترة إدارته للإذاعة. وإضافة إلى قوة شخصيته، فقد تمتع بإدارة حسنة، جعلته شبيهاً بمنصب وزير.

❖ ❖ ❖

ركب أحمد عسه، بسرعة، الموجة الجديدة التي رحَّلت الشيشكلي إلى خارج البلاد، السعودية، ثم البرازيل. وسرعان ما اختلط بالضباط المنتصرين، الذين أعادوا الحكم الديموقراطي إلى البلاد. ولا أحد يدري كيف نشأت الصداقة بينه وبينهم، وعلى الأخص كيف تعمقت مع زعيمهم أكرم الحوراني الذي كان نجمه قد ازداد سطوعاً بعد الانقلاب على الشيشكلي. ومن يقرأ أحمد عسه، بعد هذه الصداقة، يظن أن عسه ولد اشتراكياً أكثر من الحوراني نفسه، فافتتاحياته في صحيفة (الرأي العام)، تدل على ذلك.

في أواسط عام 1954، وبعد شهرين تقريباً من الانقلاب على الشيشكلي، استصدر أحمد عسه ترخيصاً لجريدته الخاصة (الرأي العام). ولم يجد كبير عناء في الحصول على رخصتها، فالحكومة الوطنية التي كانت تؤمن بالديموقراطية، وبالرأي الحر، أذنت لعدد من الصحفيين بإصدار جرائد ومجلات، حتى بلغ عدد الصحف اليومية في تلك الفترة أكثر من 20 جريدة يومية، بين صباحية ومسائية، مع عدد من المجلات.

في أيار 1954، صدر العدد الأول من جريدة (الرأي العام)، وكان أحمد عسه يمارس مهامه كرئيس تحرير لها، وكان نزيه الحكيم شريكاً في ملكيتها وله منصب المدير المسؤول. وفي صدر صفحتها الأولى كتب «جريدة يومية سياسية مستقلة»، غير أنها كانت تعبر عن الاتجاه اليساري الذي سيطر على البلاد، والذي كان يتزعمه

أكرم الحوراني أحد قادة حزب البعث العربي الاشتراكي. انفصل نزيه الحكيم عن شريكه بعد مدة، وأصدر بدءاً من 23 - 9 - 1962 جريدته الخاصة باسم (الوحدة العربية). وقد استمرت «الرأي العام» بالصدور، إلى أن نشر القانون 195، الذي توقفت بموجبه بعض الصحف، ومنها «الرأي العام» بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة، وتم التعويض عليها، بشكل يتناسب وقدر الجريدة وأهميتها.

❖ ❖ ❖

كان تأثير «الرأي العام»، في الفترة الممتدة من تاريخ صدورها حتى يوم توقفها عام 1958، قوياً، حتى غدت صحيفة سورية الأولى، لا بافتتاحيات رئيس تحريرها أحمد عسه فقط، وإنما في تعبيرها عن روح تلك المرحلة الموارة بأحداث جسام، منها العدوان الثلاثي على مصر، وقبله أسبوع التسلح في سورية، والضجة حول حلف بغداد، واستغناء الملك الشاب حسين بن طلال عن الفريق جون باغوت غلوب، البريطاني، رئيس أركان الجيش الأردني، وتأميم قناة السويس، ثم بروز مشروع الوحدة بين مصر وسورية، واستعجال الضباط لتنفيذه، في وحدة متراصة اندماجية. وكان إسهام أحمد عسه فعالاً في جميع هذه المواضيع المصيرية، عن طريق افتتاحياته اليومية. وكان مقاله اليومي يعبر عن وجهة نظر أكرم الحوراني والضباط السوريين، الأمر الذي جعل أعضاء في حزب البعث الاشتراكي يتساءلون عن سر هذه العلاقة، التي كانت تربط الحوراني كزعيم سياسي بارز، بعسه الصحفي. ويروي حمدان حمدان في كتابه الضخم (أكرم الحوراني رجل للتاريخ)، واقعة جرت معه شخصياً، فقد كان في زيارة الحوراني في بيته في «منطقة التجارة» في تلك الفترة، ومعه عدد من رفاقه البعثيين، ومنهم سركيس سركيس، وأحمد الخالد، ونايف عساف. سألوا الحوراني عن هذه العلاقة، وأبدوا دهشتهم منها، ومن سهر الزعيم البعثي الاشتراكي يومياً تقريباً في مبنى الجريدة، قرب محطة الحجاز في دمشق، فرد الحوراني مبتسماً: «عندما دخلتم سألتموني: ما هي الأخبار؟ من أين آتي بالأخبار إنْ لم أكن في مصنعها؟»، وهو يعني الجريدة ورئيس تحريرها. وهذا مثال على أن الحوراني لا يشير إلى نفسه بأنه صانع الأخبار في سورية، وأن الصحافي أحمد عسه كان يعبر عن طروحاته وأحلامه ومشاريعه التي هي من صلب برنامج حزب البعث العربي الاشتراكي، في

الافتتاحيات التي كان يكتبها، وفي زاوية : كواليس، التي كان يحررها بنفسه، وكانت بوحي من الحوراني وبعض أعضاء الحزب.

❖ ❖ ❖

كان نجاة قصاب حسن وجبران كوريه وآخرون محررين في «الرأي العام»، ويبدو أن جبران كورية كان قد تعرف على أحمد عسه عندما زار الأخير ألمانيا، حيث كان جبران يقيم. وعندما عاد إلى سورية عمل معه سكرتيراً للتحرير ثلاث سنوات (1955– 1957)، كما عمل في الجريدة الكاتب والشاعر محمد الماغوط. لكن هؤلاء، وإنْ كانت نتاجاتهم في الجريدة ذات أهمية، وتلقى قبولاً حسناً من القراء، إلا أن افتتاحيات وكتابات أحمد عسه كانت ذات تأثير قوي، وكانت تساير موجة عارمة من سياسات البلد بعامة، وحزب البعث العربي الاشتراكي بخاصة، في مخاطبة الجماهير واللعب بعواطفها فيما يخص التقارب السوري - المصري، والدعوة إلى الاتحاد أو الوحدة. كان أحمد عسه يمتدح الرئيس جمال عبد الناصر، بعد تأميم القناة في خطابه في عيد الثورة، وكان إلى جانبه في معركة قناة السويس التي أعقبت التأميم، واشتركت فيها دول ثلاث هي بريطانيا وفرنسا وإسرائيل. ولا يُنسى كيف بدأ أحمد عسه مقاله الافتتاحي ذات يوم بجملة مأثورة لعبد الناصر يستهل بها خطاباته: «زي النهارده»، فألهب المشاعر، ونفدت أعداد الجريدة بعد ساعة من صدورها في الصباح، وفي العموم كانت الجريدة تنفد كل يوم، بعد الصدور بساعات.

بدا أحمد عسه يحسن مخاطبة جماهير القراء باللغة المطلوبة التي كانت تدغدغ العامة من جهة، وتلبي رغبات السياسيين القائمين على رأس الدولة الوطنية البرلمانية الديمقراطية من جهة أخرى. ومع أنه كان ثمة صحف معارضة، إلا أن الجريدة كانت تتصدى لها بدعم وتوجيه من أصحاب الاتجاه الوحدوي في الجيش، ومن الزعيم أكرم الحوراني، صديق رئيس التحرير، ومن طلاب الوحدة العربية، ومن أهل اليسار.

❖ ❖ ❖

على صفحات «الرأي العام» نلاحظ وقوفها ورئيس تحريرها أحمد عسه في مقدمة صحف المعارضة للرئيس شكري القوتلي، الذي عاد للرئاسة للمرة الثالثة عام 1955، وتأييدها لخالد العظم في معركة الرئاسة الدائرة التي خسرها. ويقول منذر موصللي في كتابه (الصحافة السورية ورجالها) إن جريدة (الرأي العام) «كانت تجنح إلى فتح معركة عريضة مع القوتلي وأنصاره، وتستعمل عبارات يطالها القانون»، ومما كتبه رئيس تحريرها في هذا الصدد: «إن حزب الشعب أراد القوتلي رئيساً للجمهورية من جديد، لأنه يريد منه أن يكون رأس الحربة التي تنخر الروح الوطنية، ليجعل الجيش السوري جيشاً يحارب ليأكل لا جيشاً يدافع عن سيادة سورية، يريده أن يكون رأس الحربة التي تنخر الحركات التقدمية في سورية، لأن الشعب قد تحول نحو الاشتراكية».

وقد تكون هذه المعركة التي قادتها «الرأي العام» بشراسة دفاعاً عن اليسار السوري، وربما عن الاشتراكية كعنوان عريض، مقدمة للهواجس التي ركبت الرئيس جمال عبد الناصر، عندما ذهب إلى مصر وفد من الضباط والسياسيين السوريين للتباحث حول وحدة القطرين. ففي حين كان يصر السوريون على قيام وحدة اندماجية، كانت مصر تتخوف منها وتريد اتحاداً. ولم يغب عن بال جمال عبد الناصر هيمنة الحركة اليسارية على الحياة في سورية، ولأنه كان يقرأ جرائد اليسار السورية يومياً، ومنها، بل أبرزها «الرأي العام»، التي كان يقف وراءها الزعيم السوري اليساري البارز أكرم الحوراني، فقد اتخذ قرارن عندما قامت الوحدة الاندماجية، بفرضٍ سوريٍ، على أن يصفي الأحزاب القائمة في سورية، جميعاً، ومعها بعض الصحف الراغبة في ذلك.

ويعود منذر موصللي في كتابه المذكور إلى القول: (كان من الطبيعي أن يشهر سيف الحل على الصحف أيضاً لنفس البواعث والأسباب التي حلت بموجبها الأحزاب بالضرورة، فقد توقفت جريدة «البعث» وجريدة «الشعب» وجريدة «النور»، وهي كلها صحف حزبية وتعبر عن أحزاب سورية كبرى)، وكان هذا مقدمة لتصفية الصحف الأخرى، وأبرزها الرأي العام..

ويضيف: (أحس رجال الصحافة بأن حريتهم لم تعد كالسابق، فقد ضيق الحكم عليهم، وكان أخشى ما يخشاه أصحاب الصحف هو توقيف الجريدة عن الصدور نهائياً، لأن التعطيل المؤقت لم يعد معمولاً به).

وقد صدر قانون تنظيم الصحافة رقم 195، ونلاحظ أنه القانون نفسه الذي كان معمولاً به في مصر بعد ثورة 1952، وأنيطت مهمة منح الترخيص بـ (الاتحاد القومي)، الذي شكله جمال عبد الناصر، وهذا القانون «يتناقض مع حرية الفكر والممارسة الذاتية للصحافة بوصفها مهنة متخصصة» كما يقول الموصللي. وهكذا ربطت الصحافة بحزب الدولة، دولة الوحدة «الوحيد».

شمل توقف الجرائد عن الصدور أمهات الصحافة السورية القديمة والجديدة وعلى رأسها (الرأي العام) و (القبس) و (ألف باء)، وقد دفع لجميع الصحف المكتوبة التعويضات التي نص عليها القانون، وتربع عبد الناصر على كرسي الرئاسة بصحف مملوكة للدولة غالباً.

❖ ❖ ❖

اختفى أحمد عسه، بعد توقف جريدته، ولم يعد يذكر قط، مع أنه كان مالئ الدنيا وشاغل الناس في سنوات ما قبل الوحدة، التي امتدت منذ عام 1954، حتى عام 1958، وهو عمر جريدته. كان قد تزوج ثانية، من السيدة فخرية هنانو مذيعة القسم التركي في الإذاعة السورية كما قلنا، وكان عرفها عندما كان مديراً للإذاعة أيام عهد الشيشكلي، ورزق منها بولد اسمه عمران، وبنت اسمها دنيا. وأغلب الظن أن عسه سافر إلى جهة غير معلومة، كعادته كلما وجد نفسه بلا عمل.

ظهر أحمد عسه عقب الانفصال، عام 1961، وتقدم بطلب لإعادة إصدار جريدته ذائعة الصيت «الرأي العام»، غير أنه كان من المتعذر الموافقة على طلبه، لأنه قبض تعويضاً عنها، فاستبدل الاسم باسم ثان هو (الصدى العام)، وهي جريدة مماثلة تماماً لشقيقتها (الرأي العام) من حيث الحجم وعدد الصفحات وطريقة الإعداد. صدرت الجريدة، وأقبل الناس على اقتنائها، كما كانت عليه جريدته الأولى عند الجمهور من قبول وإقبال، غير أنه لم تمض سوى أسابيع،

حتى حوّل كلمة «الصدى» إلى كلمة «الرأي» بدون إذن، وبإرادة شخصية، فعادت (الرأي العام) إلى سابق عهدها تصدر بالاسم نفسه، وبدأت تحل محل سابقتها في التأثير على الناس.

كانت «الرأي العام» الجديدة تؤيد الانفصال، ولكن بحذر، ومضت كعادتها في سابق عهدها، تتقرب من اليسار السوري البعثي العائد، خاصة بعد أن رجع إلى الساحة موحداً كما كان، بفضل قواعده باسم «حزب البعث العربي الاشتراكي»، لكن فرحة أحمد عسه بعودة جريدته إلى الصدور، والتفاف القراء حولها، لم تدم طويلاً، فقد قامت ثورة آذار عام 1963، وصدرت قرارات بإيقاف الصحف جميعها عن الصدور، وبعزل مدني لبعض أصحاب الصحف، مع عدد كبير من السياسيين. تضرر أحمد عسه، فقرر الاختفاء هذه المرة أيضاً. وكان الناس يظنون أن اختفاء أحمد عسه مؤقت. لكن، ومع استمرار الثورة، على الرغم من رفع العزل عمن عزلوا، مضى أحمد عسه في اختفائه هذه المرة 42 عاماً، حتى وفاته، ولم يعد إلى دمشق أبداً.

❖ ❖ ❖

أمضى أحمد عسه الشهور الأولى من حياته، بعد ثورة آذار، في بيروت، التي كان يلجأ إليها المطرودون والمبعدون والهاربون، ولا يعرف ما إذا كان قد عمل في تلك الآونة، وكانت زوجته الثانية معه، في حين أنه ترك زوجته الأولى، المطلقة، في دمشق مع أبنائها. ويبدو أنه كان قد فتح خطوطاً، أثناء عمله في الصحافة في سورية، مع عدد من المؤسسات والدول، عرف منها دولتان عربيتان هما المملكة العربية السعودية والمملكة المغربية. ويرجح متابعون أن خطوطه قد امتدت إلى دول أخرى، غير أن نتاجه المعلوم في تلك الفترة، التي طالت إلى يوم وفاته 10 شباط 2005، قد اقتصر على كتابين هما «معجزة فوق الرمال» الخاص بالمملكة العربية السعودية، و«المعجزة المغربية» الخاص بالمملكة المغربية. ونلاحظ كبر حجم الكتابين، مما يدل على أنهما بانوراما موسعة لرؤيته لقيام الدولتين في العصر الحديث على أساس أنه معجزة في كلا البلدين. كما نلاحظ طابع الإشادة في الوصف، باعتبار السعودية

والمغرب معجزتين خارقتين في تشكلهما وفي طرائق الحكم فيهما، وفي ممارستهما السياسية والاقتصادية والعمرانية، وفي جميع الميادين.

ماذا في الكتاب الأول؟

صدر (معجزة فوق الرمال) عام 1965، بطبعته الأولى، أي بعد سنتين فقط على عزل أحمد عسه سياسياً، ويقع في أكثر من خمسمئة صفحة. ومع أنه صدر على نفقة مؤلفه، في بيروت، وطبع في مطابع الأهلية اللبنانية، فإنه من الواضح أن تمويل طباعته قد جاء عن طريق المعجزة نفسها التي يمتدحها المؤلف دون حياد.

يقول في مقدمة الكتاب: «ترى، ما هي قصة هذه الظاهرة المعجزة؟ كيف نشأت وتعلمت وعلمت؟ كيف قادت وظفرت؟ كيف قفزت بمجتمع بدوي من طور حضاري إلى طور جديد؟

ما هي معالم المجتمع الجديد ومشاكله، ومظاهر تخلفه وتقدمه، ونموه وتطوره، وأثره على المنطقة التي وجد فيها وتأثر بها وأثر؟

إن الإجابات عن هذه الأسئلة تحكي قصة عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، بل قصة نشأة المملكة العربية السعودية، معجزة عبد العزيز فوق رمال الصحراء العربية، فلنبدأ باسم الله بسرد هذه القصة وتقليب صفحاتها».

ونقلب صفحات كتابه، فنجد أضواء على التاريخ، ونظام الحكم والإدارة والنهج الفيصلي، والسعودية والبترول والتنمية الاقتصادية، وتطور المواصلات، ونحو مجتمع ناهض يتكامل ووثبة التعليم والرعاية الصحية، وكل هذه الصفحات تصب في الإشادة بدور الملك فيصل في بناء الدولة السعودية، بعد مؤسسها، وفي «النهج الذي ينهجه الملك فيصل في تجربته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يطبقها في المملكة السعودية».

إن الكتاب جاد في تصوير نهضة المملكة في تلك الفترة، أي قبل أكثر من أربعين سنة، ويبدو أن أحمد عسه، قد أمن عن طريقه المال الكافي ليستمر خارج سورية، بوضع مريح.

ولا نعرف الأسباب التي دعت أحمد عسه، بعد الانتقال إلى المملكة ا لعربية السعودية، والإقامة فيها، إلى تركها والانتقال إلى المملكة المغربية ليقيم فيها إلى

يومه الأخير، فقد يكون راق له التحدث عن المعجزات، فصمم على الكتابة عن معجزة أخرى في أقصى المغرب العربي، بعد عشر سنوات من كتابه الأول.

يعزو أحمد عسه الأسباب إلى أن «المكتبة العربية تكاد تكون خلواً من مرجع يعرف بالمملكة المغربية ماضياً وحاضراً، رغم الأدوار التاريخية الكبيرة التي لعبها المغرب في الماضي، ورغم الجهود البطولية التي بذلها لاستعادة استقلاله». وهذا مدخل مناسب لتبرير كتابته لـ (المعجزة المغربية)، كتابه الذي يقع في 750 صفحة.

وعلى المنهج نفسه الذي اتبعه في كتابه الأول، سار أحمد عسه في كتابه الثاني، فكتب (أضواء على التاريخ)، و(الحسن الثاني)، الذي ألف الكتاب في عهده وبرعايته، و(التطور الاقتصادي)، و(النقد والمؤسسات البنكية)، و(الثورة الحسنية في القطاع الفلاحي)، و(السدود المائية الكبرى) و(الصناعات التحويلية والصناعات الاستخراجية)، والفوسفاط (الفوسفات) و(الثورة في قطاع السياحة والمواصلات) و(نهضة التعليم)، و(نحو صحة أفضل) و(الحركة العمالية) و(تشريعات العمل)، مستهدفاً مديح الملك حسن ومملكته بإفراط ملحوظ.

ويبدو أن هذا الكتاب قد أمن له مالاً ممنوحاً من الذين تحدث عنه، ليعيش مرتاحاً في المملكة المغربية، ويمضي فيها، مع زوجته الثانية وولديهما دنيا وعمران، بقية حياته حتى وفاته عن تسعين سنة، بالتمام والكمال.

❖ ❖ ❖

تدل مسيرة حياة أحمد عسه، على مكابرة، ربما كانت مقصودة، فقد آثر البعد عن الوطن نصف عمره تقريباً. صحيح أنه لم يرم القلم ولم ينس مهنته، إلا أنه لم يقبل أن يكون معزولاً، وعلى الهامش، ولذلك اختفى وانتمى إلى مجتمعات أخرى، قد تكون قدمت له المال، مقابل خدمات «إعلامية» لا أظنها تتفق مع طموحه القديم الذي انهار تماماً، بقيام الثورة، لكنه، باختفائه الأخير عزل نفسه، هو أيضاً، وهذه هي قمة المكابرة، والمفارقة.

إلا أن أحمد عسه، في انتمائه إلى وطنه أو في عزله أو عزلته ومن ثم في ظهوره واختفائه وتناوبهما، ترك شارات استفهام وأسئلة بلا أجوبة: أين كان يذهب

عندما كان يختفي؟ وما هي مراميه عندما كان يظهر؟ ماذا يعمل؟ كيف كان يعيش؟ من أين له المال؟ ما هي أسراره وخفاياه؟

لقد توفي الرجل في المغرب، ودفنت هذه الأسئلة معه، فكان مثل شهاب لمع فجأة، تاركاً بصمة في الصحافة السورية، ما زالت تذكر بعد نصف قرن، ثم انطفأ، ولعله انطفأ قبل أن يموت.

عادل أبو شنب

تيسير السعدي

شيخ الفنانين السوريين

(1917 -   )

لو أن جهة ما قامت باستبيان رأي الفنانين السوريين المخضرمين ممن تجاوزوا السبعين من أعمارهم؛ وسألتهم عن أساتذتهم في بداياتهم الصعبة، فإن اسماً واحداً سيتكرر - على الأرجح - بين الجميع، إنه الفنان القدير والمخضرم تيسير السعدي، الذي يستحق لقب شيخ الفنانين السوريين بامتياز؛ ليس لأنه الأكبر سناً بينهم فحسب، وإنما أيضاً لكونهم تتلمذوا على يديه، ولكونه أحد أبرز مؤسسي ورواد الفن السوري في القرن العشرين. إذ من يصدق أنه قضى /65/ سنة من عمره المديد في الفن متنقلاً ما بين خشبات المسارح وكاميرات التصوير وخلف ميكروفون الإذاعة؟! ولو نسي الجمهور السوري جميع ما قدمته إذاعة دمشق في عصرها الذهبي، فلن ينسى مطلقاً تمثيليات (صابر وصبرية)، التي قدمها الفنان تيسير السعدي مع زوجته الفنانة صبا المحمودي، على امتداد سنوات طويلة؛ واشتهرت تلك التمثيليات التي اعتمدت أساساً على (المناكفات العائلية)؛ حتى طغت على أعمال معظم نجوم الكوميديا في سوريا .

❖ ❖ ❖

ليس معروفاً بدقة تاريخ ولادة تيسير السعدي، وإن كان مسجلاً رسمياً في العام 1917م. وسيروي لنا - في حوارنا المطول معه - سبب هذا الالتباس فيقول: «في زماننا لم يكن الآباء يسجلون أطفالهم فور مجيئهم إلى الدنيا؛ بل ينتظرون حتى بلوغ الطفل سن الدراسة؛ وهنا يبدأ الأب بالتذكر، فيقول للموظف: «هذا الطفل جاءني في العام الذي احترق فيه الجامع الأموي» أو «جاءني في عام الثلجة الكبيرة»...، أبي قال للموظف: «هذا الولد جاء في عام دخول الأمير فيصل إلى دمشق»، وكان ذلك عام 1918؛ ولا أعرف سبب تسجيلي في العام 1917 وليس 1918».

وتعود عائلة السعدي إلى أصول دمشقية عريقة؛ وقد جاء اللقب من الطريقة الصوفية المعروفة بالطريقة السعدية؛ حتى أن جد فناننا يعتبر من مشايخ الطريقة المعروفين كما يخبرنا: «حتى يومنا هذا هناك زاوية باسم هذه الطريقة في حي الميدان؛ وزاوية أخرى في حي القيمرية، وكانت تقام فيهما الأذكار. وأهلي من مشايخ الطريقة، وبخاصة جدي. وفي طفولتي كنت ألبس جبة وأضع اللفة، وأذهب إلى الزاوية بانتظام، لأشارك في تلك الأذكار بضغط من أهلي».

وحينما نسأله عن بداية عهده بالدراسة، يفاجئنا بأنه بدأ تعليمه في الكتّاب، وأنه لم يكن ثمة مدرسة ابتدائية في حيه آنذاك: «بدأت تعليمي في الكتّاب، وكان ثمة كتّاب في سوق الحرير قرب قصر العظم والبزورية؛ وكان الذهاب إليه عملية تعذيب قاسية؛ فكنا نستيقظ صباحاً دونما أدنى رغبة في الذهاب إلى الشيخ؛ وكان منظراً مألوفاً للغاية أن تشاهد أباً يحمل ابنه على كتفيه ويقوده إلى الشيخ، والولد (يبلعط) محاولاً التخلص من قبضة الأب والهرب بعيداً. أما سبب خوفنا من الكتّاب فيعود إلى (فلقة) الشيخ الجاهزة دوماً بانتظارنا؛ بالإضافة إلى عذاب الجلوس على الحصيرة؛ تحت مطر الشتاء والبرد القارس، حيث تتجمد أقدامنا من البرد، حتى أننا ما إن نعود إلى منازلنا حتى يسارع أهلنا إلى إلصاق (العلق) على أصابعنا المتجمدة، كي تمتص الدماء وتعود الحياة إلى أطرافنا مجدداً، فتخيل! لذلك كله كان الذهاب إلى الكتّاب رعباً حقيقياً؛ وعموماً فإن دراستنا فيه كانت تقتصر على حفظ القرآن الكريم والقليل من الحساب».

بعد تلك البداية الشاقة، سيلتحق الطفل بمدرسة البحصة الابتدائية (قرب جامع يلبغا المعروف)، وبعد نيله الشهادة سيخفق في الالتحاق بمدرسة عنبر المعروفة باسم (مكتب عنبر)؛ وتضيق الخيارات أمام الأب، فالمدارس الإعدادية والثانوية كانت قليلة في دمشق آنذاك؛ كانت هناك مدارس منيف العائدي وآلغرير والعازارية (وهي المدارس التي كان يتردد عليها إخواننا المسيحيون)، وباعتبار أن أبي كان شيخ طريقة إسلامية معروفة؛ لم يكن من المقبول إرسالي إلى واحدة من تلك المدارس؛ إلى أن جاء من حدثه عن مدرسة «اللاييك»؛ وهي مدرسة علمانية لا تتعاطى الشأن الديني، فكان الوضع بالنسبة لأبي أفضل نسبياً من إرسالي إلى مدرسة مسيحية؛ وهكذا وضعني أبي في هذه المدرسة وكان عمري آنذاك 12 . 13 سنة).

في المدرسة الجديدة وجد الفتى الصاعد مناخاً اجتماعياً مغايراً لما عهده في حيّه المحافظ، يختصره بهذه المعادلة: «في نهاية العشرينات لم تكن تجد في أحيائنا فتاة غير محجبة؛ فإذا بنا نجد أنفسنا في مدرسة اللاييك مع الفتيات السافرات جنباً إلى جنب في صف واحد ومقعد واحد». وسيبدأ ذهن الفتى بالتفتح واكتشاف الحياة أكثر فأكثر: «هناك اكتشفنا أشياء جديدة، مثل الفن التشكيلي، المسرح، الموسيقى الكلاسيكية،... أهلنا لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ذلك، وكان هذا سبب نبوغ جيلنا. كنا مدهوشين من كل شيء، نتساءل على الدوام: ما هذا؟!». وتكتمل المصادفات السعيدة في حياة الفتى بمجيء فرقة مسرحية فرنسية إلى دمشق؛ ثم إلى المدرسة؛ لتقديم مسرحية (أوديب) الشهيرة. ويبدأ البحث بين التلاميذ عمن يشارك في أداء دور ابن (جو كاستا)، زوجة أوديب وأمه الحقيقية؛ ويقع الخيار على تيسير السعدي بسبب ملامح وجهه الإغريقية؛ أما الممثل الفرنسي الذي قام بأداء دور أوديب، فلم يكن سوى العملاق (جان أوليفييه). وتبرق عينا العجوز الثمانيني وهو يتذكر تلك الأيام: «رغم ضعف ذاكرتي اليوم، لكنني لا أنسى مطلقاً ذلك الفنان العظيم بحق. رحت أقف على المسرح وأراقب الأداء المذهل للفنانين الفرنسيين: أصوات مدربة، أداء، تعبير، إحساس.. كل هذه الأشياء لم نكن نعرفها هنا، كنت مدهوشاً، كان أحدهم يلقي شعراً بالفرنسية، ولم أكن أفهم ما يقوله، ولكنني - لدهشتي من أدائه - نسيت دوري أنا! كان يفترض بي أن أركع أمامه حين يقترب مني، فنسيت. حتى ذكّرني همساً بدوري فركعت. وباختصار... جعلوني أعشق الفن».

وهكذا بدأت الانعطافة الكبرى في حياة الشاب اليافع الذي سيكون عليه أن يتشرد ويجوع بالمعنى الحرفي للكلمة؛ وأن يعمل خمسة عشر عاماً بالفن مجاناً! قبل أن يكرّس اسمه ومكانته في واجهة المشهد الفني السوري. وفي تلك الفترة التقى السعدي بشابّين يماثلانه سناً وطموحاً؛ وهما الفنان التشكيلي نصير شورى والنحات فتحي محمد؛ ليشكّلوا معاً (شلّة)، سيتاح لها أن تلعب دوراً بارزاً في تاريخ الفن السوري في القرن العشرين.

وبالعودة إلى الدراسة في (اللاييك)، فقد حدثت في سوريا أزمة اقتصادية طاحنة في أواسط الثلاثينات؛ فانهارت العملة وحل الكساد، وعجز الأب عن دفع أقساط المدرسة لابنه؛ وما كان من الشاب المكافح سوى الالتحاق بالمدرسة

التجارية الإيطالية في منطقة (عرنوس)؛ وهي مدرسة مجانية تقدم للطلبة كتباً وملابس؛ وتهيئهم لمتابعة دراستهم في إيطاليا، وكان مدرّس الرياضيات فيها (جودت الهاشمي)، أشهر مدرس في دمشق آنذاك.

ولكن الحظ استمر يعاند تيسيراً الشاب الذي ما إن أوشك على نيل شهادة البكالوريا، حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية؛ وقام جيش الاحتلال الفرنسي بمداهمة المدرسة الإيطالية (الفاشية) واعتقال أساتذتها وزجهم في السجن؛ وطرد الطلبة منها!.

ويتذكر السعدي مساهمته في النضال الوطني ضد الاحتلال الفرنسي فيقول«لقد اعتصمنا في الجامع الأموي، وكنا نرمي المحلات التجارية بالحجارة، لإجبار أصحابها على إغلاق متاجرهم والتظاهر معنا».

❖ ❖ ❖

بدأ الفنان الشاب بالعمل في الفن عبر تشكيل الفرق وتقديم العروض في الحفلات والأعراس. وكان ثمة بذرة أولى أو جيل واحد سبقهم على هذا الدرب الشائك؛ يتذكر منهم عبد الوهاب أبو السعود، وتوفيق العطري، ووصفي المالح، وظهرت الأندية الفنية مثل (نادي الكشاف الرياضي) و(نادي الفنون الجميلة)، التي بدأت تقدم حفلاتها كل خميس؛ حيث تعرض فصولاً من المسرحيات العالمية، وقد شارك فيها السعدي. يتذكر: «كان العرض يتم في دار عربية واسعة؛ تتسع قاعتها لحوالي 300 كرسي، فكان يأتي لحضور العرض زعماء الأحياء ووجهاء المدينة أمثال: خالد العظم وفخري البارودي وغيرهما؛ وكان هناك مغنون مثل مصطفى هلال وفرقته الموسيقية». وعن مصدر تلك النصوص المسرحية المقدمة، يتذكر السعدي أن عبد الوهاب أبو السعود كان يُحضر تلك النصوص من فرنسا؛ ويترجمها بنفسه، ويشارك في تمثيلها أمام الجمهور!

يتحدث السعدي بحماس عن دمشق الأربعينات؛ عن مسارحها وصالاتها السينمائية وجمهورها المتعطش للفن والثقافة؛ وهو بالطبع يفضل تلك المرحلة على الزمن الراهن الذي انحدر فيه الفن؛ وبات تكسباً وسعياً إلى المال والشهرة وحسب! ولكن أكثر ما يثير غيظه وألمه معاً؛ غياب فن خيال الظل (كراكوز

وعيواظ) عن عالم الفن اليوم! ويقول إنه عايش جميع الفنون في القرن العشرين: «كراكوز، الحكواتي، السينما الصامتة، السينما الناطقة، السينما الملونة، المسرح، الفونوغراف، الإذاعة، تلفزيون الأبيض والأسود، التلفزيون الملون، القنوات الفضائية... كل هذا عايشته واشتغلت فيه»!

ولكن حنينه وشجنه يذهبان باتجاه الفن المنقرض: خيال الظل، لأنه (غير نكهة). ويشرح أكثر: «للأسف الشديد فإن المشتغلين في خيال الظل كانوا يحفظون القصص في ذاكراتهم ولا يدونونها. وقد بحثت كثيراً فلم أجد سوى قصة واحدة في (مركز الدراسات الشرقية) الفرنسي في دمشق؛ كان كاتب فرنسي يدعى (إدموند بيزيه) قد جاء إلى دمشق، وشاهد خيال الظل؛ فكتب عنه دراسة هامة بالفرنسية، وأكد فيها أن خيال الظل يطابق شروط المسرح المعاصر؛ فهناك المقدمة والعقدة والحل والحبكة والحوار الخفيف القصير؛ وبالفعل كان الفرنسي محقاً، إذ كان العرض يبدأ دوماً بتقديم فصل مضحك يسمى (الغرزة)؛ ثم يأتي فصل تمهيدي لمضمون القصة، ثم يبدأ كأي مسلسل معاصر، وإذا كان الكراكوزاتي منشرحاً فيمكن أن يستمر عرضه لساعتين أو ثلاث دونما انقطاع؛ ألا يقال إن فلاناً مات من الضحك؟ لقد حدث هذا بالفعل في دمشق! ألقى الكراكوزاتي نكتة فضحك الجمهور طويلاً، وأحد المشاهدين ظل يضحك حتى تشنج ومات! أما بالنسبة لي، فقد كنت أضحك وأنا نائم، حينما أسترجع تفاصيل العرض!». نغوصُ في ذاكرة تيسير السعدي أكثر، فيتذكر أن مقر عروض خيال الظل كان في سوق ساروجا، وأن الكراكوزاتي الذي عاصره كان يدعى «أبو صياح حبيب»، نجل الكراكوزاتي الشهير علي حبيب الذي كان أستاذ الفنان الرائد أبو خليل القباني!

وهكذا تتسلسل الأسماء والأجيال، لنكشف أن القباني عمل كراكوزاتياً، وتتلمذ على يد علي حبيب، وأن خيال الظل كان يتضمن أدواراً وموشحات وأغانٍ، ويتذكر السعدي أن (أبو صياح حبيب) كان (رذيلاً) و(زفر اللسان)؛ ولكنه كان يستخدم البذاءة والفحش اللفظي كأداة للنقد الاجتماعي؛ كأن يهاجم الأوضاع السياسية في البلاد، أو النظام الحاكم، أو كبار التجار: «من هنا قيل عن الكراكوزاتي أنه بذيء، ولكنني أنا لا أراه بذيئاً، لأنه فن شعبي، والفن الشعبي حافل بهذه الصفات دوماً، حتى في الأدب والروايات، يُسمح بالبذاءة والفحش.

الآن كيف تقال النكتة الشعبية؟ معظم النكات المضحكة بذيئة، ولكنها تقال على ألسنة الجميع دونما إحساس بالعيب»!

❖ ❖ ❖

يتذكر السعدي أن أفضل دور قدّمه في تلك المرحلة كان (قيس) في مسرحية (مجنون ليلى) لأحمد شوقي؛ وعند تقديم العمل في دمشق حضره رئيس الجمهورية الشيخ (تاج الدين الحَسَني)؛ والمندوب السامي الفرنسي آنذاك الجنرال (كاترو)؛ وبعد العرض هنأه الجميع، وتحلق حوله المثقفون الكبار، وعلى رأسهم (شكيب الجابري)، ونصحوه بالسفر إلى مصر ودراسة التمثيل؛ لصقل موهبته الفنية، وأعطوه كتاب توصية للمشرفين على المعهد.

عمل السعدي بالنصيحة وسافر إلى القاهرة عام 1945؛ وتدبر له والده مسألة التمويل، رغم اعتراض إخوته الذين قالوا للأب:

كيف تدفع له كل هذه النقود وهو ذاهب لدراسة الفن والتمثيل؟ فأجابهم الأب الشيخ المتصوف والمتنور:

أنا أتوسم فيه الخير، ولا أحد يعرف من أي طريق يمكن أن يأتي هذا الخير!

ويتذكر السعدي أن أباه كان يرسل له 150 ليرة سورية؛ أي ما يعادل 16 جنيهاً آنذاك، وهو مبلغ هائل بالمقاييس المصرية (إذ كان معاش مدير المدرسة في مصر ثلاثة جنيهات).

كانت القاهرة تعيش آنذاك أوج انطلاقتها وتوثبها؛ ويتذكر: «وجدت هناك عمالقة أمثال أحمد شوقي، المازني، طه حسين، ومن الصحافة كان محمد التابعي، روز اليوسف، أحمد أمين. كل هؤلاء اجتمعوا في عصر واحد، عالم كامل بحد ذاته، ولذلك سمي بعصر النهضة، أين هو الآن؟! في معهد التمثيل درسني طه حسين المسرح والفن اليونانيين؛ كنا نكتب خلفه، ولازلت أحتفظ بمحاضراته هنا في بيتي. أستاذ الإلقاء في المعهد كان شيخاً قديراً من الأزهر، علّمنا فن التجويد. الأستاذ عبد الوارث عسر كان يدرّسنا علم النفس...».

وسرعان ما عقد الشابّ المتوثب صداقات وعلاقات طيبة مع الأوساط الفنية والأدبية والصحفية؛ كان أبرزها صداقته مع آل عبد القدوس: الفنان محمد عبد

القـدوس، وزوجتـه الرائـدة الصـحفية روز اليوسـف، وابنـهما الكاتـب إحسـان عبـد القدوس، وبلغت تلك الصداقة حداً جعله ينزل في بيتهم كثيراً؛ وكان يُعتبر بمثابة ابن للعائلة. وكل ذلك جعله يعشق القاهرة ويتعلق بها، وكان يمكن أن يبقى ويعمل هناك لولا نصيحة إحسان البليغة «إذا بقيت هنا ستجد الكثير من أمثالك، ستعمل وربما تنجح، ولكن مثلك مثل الجميع، بينما لو عدت إلى دمشق فستكون من الـرّواد، وسيتذكرك تاريخ الفن على الدوام كمؤسس للفن السوري!» وهذا ما حصل.

ويجب أن نذكر هنا أن السعدي شارك - بالتوازي مع دراسته - في أعمال هامة مع الفنان نجيب الريحاني؛ أما إنجازه الحقيقي فكان مشاركته في بطولة فيلم (الهانم) إلى جانب فاتن حمامة، وكان الشابان في بدايتهما الفنية، وقام السعدي بتدريب حمامة على اللهجة الشامية، بإدارة المخرج بركات، وكان الفيلم مقتبساً عن القصة الفرنسية الشهيرة (بائعة الخبز). قصة الأم المتسولة التي تركت ابنتها في بلد آخر، وقامت بالتسوّل وإرسال المال إليها كي تتعلم وتكبر؛ دون أن تعرف البنت شيئاً عن أمها. وقامت المنتجة (آسيا داغر) بتعديل القصة بحيث تجري الأحداث بين دمشق والقاهرة.

وحينما يراجع السعدي تجربته في قاهرة الأربعينات يقول: «ذهبنا أنا والفنان التشكيلي نصير شورى والمخرج محمد فتحي؛ كنا أول جيل يتفتح على الحياة والحضارة والفن؛ قبلنا كان من تأتيه رسالة في دمشق يذهب من حي الميدان إلى ساحة المرجة ليجد من يقرأها له أو يكتب جواباً عليها!...».

❖ ❖ ❖

خلال دراسته في مصر اعتاد السعدي على العودة إلى دمشق براً بالسيارة عن طريق فلسطين؛ كان ذلك في العام 1945 أو 1946، لم يعد يتذكر جيداً، وكانت إذاعة الشرق الأدنى (B. B. C) تُبَثُ من يافا؛ ويعمل فيها أبرز نجوم الفن في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر؛ وشارك السعدي في تقديم أعمال كثيرة فيها؛ وبعد اندلاع حرب 1948، انتقلت الإذاعة إلى بيروت وقبرص بطواقمها الفنية؛ وكان الفنانون السوريون يتحمّسون للعمل معها بسبب مردودها المالي الذي كان أعلى من مردود إذاعة دمشق.

وعموماً بدأ السعدي - إثر عودته من القاهرة عام 1949 - بمشروع ضخم سيتواصل على امتداد عقود؛ وهو مشروع تكريس اللهجة الشامية في الفن، إذ كان سائداً آنذاك أن الجميع بمن فيهم السوريين يقدمون أعمالهم باللهجة المصرية؛ وقام السعدي بتأسيس (الفرقة السورية)، وتعاون مع الكاتب (عبد الهادي الدركزنلي)، الذي يعود إليه اختراع الشخصيات الشعبية أوائل الخمسينات، التي اشتهرت كثيراً فيما بعد؛ وباتت قريبة من روح الجمهور، مثل «أم كامل» و«أبو فهمي» و«أبو صياح».

إلى أن وقعت في يد السعدي مسرحية لحكمت محسن؛ قرأها فذهل بها، وسارع لتحويلها إلى مسرحيتين لصالح إذاعة الشرق الأدنى في قبرص؛ وهناك ما إن استمعوا إلى التسجيل حتى اتصلوا بحكمت محسن؛ وتعاقدوا معه على المجيء إلى قبرص حيث قدم لهم برنامجاً منوعاً بعنوان (صندوق العجائب)، حقق نجاحاً كبيراً؛ وهنا تذكر إداريو إذاعة دمشق ذلك الكاتب الهام الذي لفظوه سابقاً بسبب ثيابه المتواضعة وهيئته الزرية من الفقر والمعاناة!! والآن وبعد نجاحه الساحق من إذاعة الشرق الأدنى عاودوا الاتصال به عن طريق السعدي؛ وتعاقدوا معهما على راتب ثابت بحدود 100 ليرة سورية بالإضافة إلى 35 ليرة عن كل تمثيلية، متضمنة ثمن النص!

استمر عملهما في الإذاعتين معاً، وفي إذاعة الشرق الأدنى كان يطلب من محسن كتابة فواصل تمثيلية في برنامج شهير بعنوان (إنس همومك)؛ كان يشارك فيه فنانون كبار أمثال الأخوين رحباني وفريد الأطرش وفيلمون وهبي.

وبعد عدوان 1956 على مصر، استقال جميع الموظفين العرب في الإذاعة؛ وقام الفنانون - بمن فيهم السعدي ومحسن - بمقاطعة الإذاعة.

ولكن السعدي يعترف بالدور الكبير الذي لعبته تلك الإذاعة، ذات الحرفية العالمية «نحن تدربنا في إذاعة الشرق الأدنى على يد كبار الخبراء الإنكليز في فن الإعلام؛ وهؤلاء الخبراء لم يدربونا على سينما الأذن فقط، وإنما دربونا على فن التشويق».

ويتحدث عن سر نجاحه فيعيده إلى جديته العالية والصارمة: «كنت آتي بالنص وأجلس لأقرأه، وأعيد كتابته من جديد بخطي، جميع الأعمال والتمثيليات

التي قدمتها التي تعد بالآلاف كتبتها بخط يدي؛ لأنني وأنا أكتب النص مجدداً أصحح فيه، وأستمع لأصوات الممثلين؛ فأكتشف من يصلح لهذا الدور ومن لا يصلح. الآن لا توجد تلك الجدية».

❖ ❖ ❖

كان زواج تيسير السعدي من صبا المحمودي عام 1953 واحداً من أفضل الزيجات في الوسط الفني؛ فقد نجح هذا الثنائي الفني في تقديم آلاف التمثيليات الإذاعية التي لازال الجمهور يتذكرها بحنين بالغ حتى يومنا هذا؛ رغم مرور عقود على انطلاقتها، وحينما نتذكر العصر الذهبي للإذاعة (سينما الأذن كما يسمّيها السعدي)، نتذكر على الفور ذلك الثنائي الطريف (صابر وصبرية). [استمرت حلقاته من أواخر الخمسينات وحتى منتصف الثمانينات].

تعود أصول الفنانة صبا المحمودي إلى تونس لجهة الأب؛ أمها سورية، جاء الأب إلى دمشق واستقر فيها، درست صبا التمريض، وسافرت لإكمال دراستها في جامعة (أدنبرة) في إنكلترا؛ تعلمت ثلاث لغات غير العربية، وهي التركية والفرنسية والإنكليزية، تجولت كثيراً في أوربا، وعملت مع الأمم المتحدة، واكتسبت تلك الطلاقة التي أعجبت تيسير كثيراً: «لقد انطلقت في الحياة، ولم تكن حبيسة البيت كبنات جيلها، والفن يحتاج إلى طلاقة». وبعد عودتها إلى دمشق شاركت في تأسيس مكتب لرعاية الطفولة والأمومة؛ ثم جمعية (المبرة)، بمشاركة نسوة من العائلات الدمشقية المعروفة؛ وحينما شعرت بالحاجة للإعلان عن أهداف الجمعية عبر الإذاعة؛ اقترح عليهن الدكتور شاكر مصطفى اسم تيسير السعدي الذي بدأ يتردد على مكتب الجمعية؛ وهناك التقى بالفتاة الطموحة التي ستشاركه عمله وحياته معاً.

وتقرر تقديم تمثيلية إذاعية تشرح أهداف الجمعية؛ والطريف أن التمثيلية كتبت على لسان شخصيات ذكورية، وقامت نساء الجمعية بأداء الأدوار الرجالية! وتم اختيار صبا لأداء دور الشخصية الشعبية الشامية المعروفة (أبو صياح)، فقدمته بنجاح باهر لفت نظر تيسير السعدي وحكمت محسن اللذين اكتشفا موهبتها الفنية الكبيرة.

وسرعان ما تقاطعت مصائر الشابين الصاعدين، فتقدم تيسير لخطبة صبا، ورفض الأهل تزويج ابنتهم من ممثل، ولكن الفتاة كانت حازمة في موقفها، فأجبرت أهلها على الموافقة، وبالفعل تم الزواج.

وبدأت صبا تشارك في بعض التمثيليات الإذاعية عبر تقديم دور (بنت البلد) مع تيسير، وكان الكاتب الشعبي (حكمت محسن) يزودهما بنصوص تلك الأعمال إلى أن اصطدم - مجدداً - مع الإدارة التي لم تقدر تلك الموهبة الكبيرة حق قدرها؛ فوجهت إليه عقوبة خصم 10 ٪ من الراتب بسبب تأخره خمس دقائق عن الدوام الرسمي؛ لنترك السعدي يروي الواقعة المؤلمة: «كنت أنا رئيس دائرة آنذاك، ولذلك وصل كتاب العقوبة إليّ، وعندما رأى حكمت محسن الكتاب وقرأه، لم يقل شيئاً، أقسم لك، لم ينطق بكلمة، نظر إليه ملياً ثم التفت خارجاً من المكتب، ومن يومها صمت ولم يعد للكتابة، حتى أصيب بالفالج ومات!».

❖ ❖ ❖

بعد توقف حكمت محسن عاش تيسير السعدي أزمة البحث عن كاتب آخر يزوده بالنصوص الدرامية التي تلتقي مع حسه الشعبي الساخر؛ إلى أن التقى بالكاتب (وليد مارديني) ليثمر هذا اللقاء حلقات (صابر وصبرية) الشهيرة.

يقول السعدي إنه صاحب الفكرة التي تعود إلى بداية عمله كمخرج إذاعي؛ وأنه أخرج الكاتب مارديني من برنامج لطيف وساخر كان يعده بعنوان (أوعا تضحك) ودعاه للعمل معه في مشروع أهم؛ وهكذا تتالت حلقات (صابر وصبرية) التي قدمها الثنائي تيسير وصبا على امتداد سنوات طويلة؛ ولاقت إقبالاً شعبياً منقطع النظير.

لا يتذكر السعدي بدقة عدد الحلقات التي قدمت من المسلسل الشهير؛ ولكنه يجزم بأنها تربو على ثلاثة الآلاف؛ والأغرب من ذلك تأكيده على أن العدد الذي كتبه مارديني يتجاوز عشرة الآلاف حلقة« كان يسلمني عشر تمثيليات فأختار منها واحدة وأرفض الباقي، وحتى تلك الحلقة التي وافقت عليها كنت أعمل عليها عشرة أيام قبل التنفيذ؛ كانت لدى الكاتب قدرة هائلة على الاسترسال، إنه كالسيل الهادر، ومن الطبيعي في هذه الحالة أن تفتقر كتابته إلى التركيز؛ فكنت أنا أستلم

هذه المهمة، فأركز الحلقة، وأبحث فيها عن اللمعة واللمحة والنكتة...». وعن أسباب توقف المسلسل الشهير يقدم تيسير السعدي درساً ثميناً لكل فنان ومبدع؛ حينما يعترف: «بمجيء اللحظة التي شعرت فيها بأن المستوى قد هبط، عندها قلت للكاتب: وليد أصبحت تكرر نفسك، لنتوقف هنا فهذا أفضل. وهكذا كان، لم يعد لدينا جديد نقدمه».

ويتذكر السعدي ـ بمرارة ـ كيف عادت صبا إلى عملها السابق، ثم إلى شركة أدوية؛ كي تعيل الأسرة التي لم يكن دخل الفنان الكبير قادراً على إعالتها؛ ويتذكر أن مكافأة التمثيلية الواحدة كانت خمس عشرة ليرة سورية فقط لا غير؟!

❖ ❖ ❖

يرفض تيسير السعدي تحزب الفنان، لأنه يعتبر الشعب بأسره (زبوناً) له. ومن ثمَّ لا يجوز للفنان أن ينتمي لشريحة دون أخرى؛ أو لفئة اجتماعية ضد أخرى. ولكن ذلك لا يمنعه من تبني هموم شعبه، ومشاركته آلامه وآماله، ويكشف أنه بدأ بقراءة الكتب الجادّة منذ الثلاثينات؛ وأنه كان يتردد بانتظام على مكتب الحزب الشيوعي السوري بدمشق؛ لقراءة الكتب واستعارتها من المكتبة، وأن الكاتب (نجاة قصاب حسن) قاده إلى ذلك المكتب والمكتبة؛ ومن ثم قادته قراءاته وتجاربه إلى موقف من الحياة؛ يلخصه على النحو التالي: «كنا اشتراكيين بمعنى من المعاني، ولو راجعت اليوم تمثيلياتنا من أول إلى آخر تمثيلية؛ لن تجد فيها سوى الحديث عن هموم الناس الفقراء والبسطاء».

وما لبث أن كون صداقات مع أبرز كتاب عصره كصدقي إسماعيل وحسيب كيالي، اللذين كان يجالسهما في مقهى (الروضة) الشهير بدمشق.

أما موقفه من السلطة والمسؤولين فتلخّصه هذه القاعدة الذهبية التي سار عليها طيلة حياته: «ما إن يصبح أحد أصدقائه أو معارفه وزيراً أو مديراً عاماً حتى يتوقف السعدي عن صداقته فوراً؛ ويقطع علاقته به تماماً، فلا يذهب لتهنئته، ولا يراه مطلقاً!» وحينما يتحدث عن المسؤولين الذين عاصرهم يظهر احتراماً خاصاً للرئيس شكري القوتلي ورئيس الوزراء خالد العظم؛ كما يحمل احتراماً ومودة

لسياسيَّين اثنين من تلك الحقبة هما (فخري البارودي) و(حسني تللو)، اللذين كانا من مشجعي الفن في مرحلة صعبة للغاية بالنسبة لمن امتهن هذه الحرفة.

❖ ❖ ❖

يحمل تيسير السعدي الثمانيني النزق في قلبه الكثير من المرارة تجاه حصاده من تلك الرحلة الشاقة والطويلة؛ يتذكر كيف كانت الشوارع تخلو من المارّة للاستماع إلى أعماله؛ وكيف كان الناس يتواعدون على اللقاء قبل أو بعد تمثيلياته، بينما هو وزوجته وأولاده يشكون العوز: «كنا نمر في الشارع، ونتأمل واجهات المحلات بغصة، نشتهي كل ما هو معروض فيها دون أن نتمكن من شراء شيء! كنّا نشتهي الجلوس في مطعم. وهذا الحرمان هو الذي دفعني لإبعاد أولادي عن طريق الفن. ابني الكبير مهندس مقيم في أميركا، وابنتي مهندسة ديكور».

يحكي كيف يرسل له ولده (500) دولار في الشهر؛ حالياً يعتاش منها هو وزوجته، يتحدث عن تشاؤمه من حال الفن السوري والعربي راهناً؛ يتألم من خيباته الكثيرة ورهاناته الخاطئة؛ يعتبر أنه ينتمي إلى أول جيل يتفتح على الفن والأدب والموسيقى: «جيل أبي لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك؛ جيلنا هو الذي أدخل الفن والأدب إلى المجتمع؛ كان لدينا أمل بأنه سيأتي اليوم الذي نجد فيه المجتمع العربي وقد أنتج فناً إنسانياً راقياً بمستوى عالمي؛ كان هذا حلمنا الكبير، وللأسف لم يتحقق. لقد طال عمري أكثر مما ينبغي، وعندما أشاهد ما يقدم اليوم أصاب بالخيبة؛ وأشعر بأنهم لا يقدمون اليوم أعمالاً أفضل بكثير مما كنا نقدّم؛ ومن سوء حظنا أيضاً أن مكانة الفن تتدهور في العالم بأسره؛ وليس عندنا فقط».

أما زوجته الفنانة الكبيرة صبا المحمودي ترفض رفضاً قاطعاً المشاركة في الحوار؛ وتكتفي بابتسامة لطيفة على وجهها المشبع بأحزانه؛ وهي تنسحب بسرعة من الجلسة بعد تقديم القهوة؛ ويعزو السعدي السبب إلى كونها (قرفة) من كل تلك المهنة؛ وأنها لم تنل منها شيئاً، ويشعر بالذنب كأنه (ورطها)!:«مشكلتها أكبر من مشكلتي، فأنا خلقت للفن، وعلي أن أتقبله بحلوه ومره، ولكن هي لديها مهنة محترمة، ودخل محترم واهتمامات أخرى، لقد عشنا من راتبها كما أخبرتك، وعلّمنا أولادنا منه أيضاً».

ويعود إلى مسألة الأجيال، ليوبخ الأجيال اللاحقة التي خيّبت أمله، خاصة وأن جيله كان يعتبر نفسه (مسودّة) للجيل الآتي، ولكن الآتي لم يكن أفضل!

وعما يفعله في هذه الأيام يقول إنه يجلس وحيداً ويتأمل كثيراً؛ يتنزه قليلاً، وأحياناً يعود إلى أرشيفه الضخم، ويستمع مجدداً إلى إحدى تمثيليات «صابر وصبرية»، وينفجر من الضحك! أما عزاؤه الوحيد، ولحظة الإحساس بالحبور عنده، فهي عندما يوقفه رجل في الشارع ليصافحه، ويهتف: (سقى الله أيامك يا أستاذ)!.

وفيق يوسف

جمال عبد الناصر

سورية الناصرية

(1918 - 1970)

كان الوقت منتصف ليل 12/11 كانون الثاني 1958، حين أقلعت طائرة من دمشق متوجهة إلى القاهرة، من دون علم الحكومة السورية، على متنها وفدٌ يتألف من أربعة عشر ضابطاً من أعضاء المجلس العسكري، بعد أن حملوا معهم مذكّرة إلى الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وقعوا عليها جميعاً قبل المغادرة، تطالبه بالوحدة الشاملة الفورية:

(إن القيادة العامة للجيش والقوى المسلحة السورية، شعوراً منها بمسؤوليتها القومية ودورها التاريخي، ووفاء منها للشعب العربي في سورية الذي حملها مسؤولية الدفاع عن بقائه وسلامته لتعلن أن كل وحدة غير شاملة، ليست إلا تحالفاً بين جيشين تابعين لدولتين منفصلتين.... كما تعلن باسم جميع القوات المسلحة أنها على أتم استعداد لتحمل جميع الواجبات الدفاعية التي تقتضيها الوحدة الفورية؛ وتعتبر نفسها منذ الآن ملزمة بتنفيذ كل ما تتلقاه من أوامر وتوجيهات تُعطى إليها من القيادة العامة الموحدة مهما ترتب على هذا التنفيذ؛ وفي الوقت نفسه تحمّل كل حكومة أو فئة تتهاون في تنفيذ هذه الوحدة خطورة ونتيجة عملها تجاه الشعب العربي بأسره؛ وتجاه الأجيال العربية الصاعدة.)

لم تكن المطالبة بالوحدة بين البلدين فكرة جديدة، فبعد المعركة ضد حلف بغداد طرح الرئيس السوري شكري القوتلي أواخر عام 1956 مشروعاً لاتحاد فدرالي تحت اسم «الدول العربية المتحدة»؛ يضم سورية ومصر كنواة، بابه مفتوح لانضمام أية دولة عربية. وفي شباط 1957 في أثناء المناقشات المحتدمة حول مشروع «إيزنهاور» طرح رئيس الوزراء صبري العسلي اقتراحاً على عبد الناصر بإقامة الوحدة، وفي شهر تموز من العام نفسه مع كثافة الضغوط على سورية، اتخذ مجلس الوزراء قراراً بإقامة اتحاد فيدرالي مع مصر؛ ثم زار وفد برلماني

مصري برئاسة أنور السادات دمشق في شهر تشرين الثاني 1957؛ خلاله اتخذ البرلمان السوري قراراً بإعلان إرادته في الوحدة بين البلدين؛ أعقبه زيارة وفد برلماني سوري إلى مصر، فاتخذ مجلس الأمة المصري في حضوره قراراً بالاستجابة لرغبة البرلمان السوري في الوحدة.

بداية شهر كانون الثاني، أوفد الرئيس عبد الناصر مبعوثاً خاصاً؛ لينقل وجهة نظره إلى المجلس العسكري السوري، تلخصت في موافقته على الوحدة، لكنه يرى أنها قضية أخطر بكثير من مجرد إجراء يُتّخذ لمواجهة أزمة طارئة؛ وأن الوحدة لكي تقوم على أساس سليم ينبغي أن يجري الإعداد لها بعناية؛ خلال فترة لا تقل عن خمس سنوات، لكن الأمور في دمشق كانت تتسارع على وقع المخاطر الخارجية، وفرضت إجراء تنقلات واسعة للقطعات العسكرية السورية؛ ولم يكن قادة كتل الضبّاط المتنازعين على استعداد لتنفيذ هذه التحركات؛ فتأزم الموقف إلى حد دعا بعضهم إلى إعلان حالة استنفار في وحداتهم خيفة من انتهاز إحداها الفرصة للقيام بتحرك مفاجئ، قد يؤدي إلى انقلاب؛ وتنادوا إلى اجتماع لحل الموقف الشائك وتداعياته المحتملة؛ ومال بها الرأي إلى تسليم مقاليد الأمور إلى عبد الناصر، فهو وحده القادر على الفصل بين الأطراف المتعارضة؛ ولم ينفض الاجتماع إلا وقرروا مقابلة الرئيس المصري؛ لكي يمسك بالأمور ويتولى بنفسه حسم المواقف، على أن يقبل بوحدة فورية بين البلدين، تنقل إليه مسؤولية المصائر، وتحمّله وحده تبعة توجيهها.

اعتذر عبد الناصر، على الرغم من معرفته بأن الضبّاط يمسكون بزمام القوة الحقيقية في سورية؛ ولم يقبل البحث في أمر الوحدة، إلا مع حكومة مسؤولة شرعياً ودستورياً؛ مع إدراكه بأن الظروف ستفرض عليه القبول بشكل ما من الأشكال المطروحة. كان عدم القبول يعني احتمال دفع سورية إلى الانفجار على مستوى الجيش والشعب معاً؛ انفجار لا يمكن تطويق نتائجه، بعد أن وصلت إليه أخبار المظاهرات التي اكتسحت المدن السورية؛ تردد هتافاً عفوياً واحداً: (بدنا الوحدة باكر باكر...)

في يوم 16 كانون الثاني، أرسلت الحكومة السورية - بعد أن علمت بسفر الضباط إلى القاهرة - وزيرَ الخارجية صلاح الدين البيطار للمشاركة في

المناقشات، هناك دُعي مع الضباط إلى احتفال في مجلس الأمة المصري بذكرى الدستور، فأحدث ظهورهم جواً ملتهباً بالحماسة، وحين دخل عبد الناصر إلى مبنى المجلس، فوجئ بأن المجلس كله تحول إلى مظاهرة عارمة تطالبه بالوحدة، فيما تقدم الأستاذ صلاح الدين البيطار إليه قائلاً: جئت ممثلاً عن الحكومة السورية أحمل طلباً رسمياً منها بإقامة الوحدة، قال هذا على مسمع من الجميع، فانفجرت القاعة بالمشاعر الملتهبة إلى درجة أن الكثيرين أجهشوا بالبكاء، وانتابت بعضهم نوبات هستيرية، فيما تعالت الهتافات بطلب الوحدة فوراً.

كانت لدى عبد الناصر ثلاثة شروط: الأول: استفتاء شعبي على الوحدة، يقول فيها الشعبان رأيهما الحر، ويعبران عن إرادتهما واختيارهما. الثاني: إيقاف النشاط الحزبي، وقيام الأحزاب السورية بحل نفسها دون استثناء. الثالث: عدم تدخل العسكر في السياسة نهائياً، والانصراف إلى مهامهم القتالية والدفاعية. أما أعضاء المجلس العسكري، فعليهم الخروج من صفوف الجيش والاشتغال بالسياسة، لأنهم بالفعل يشتغلون بها.

في دمشق، تجددت المناقشات بين الضبّاط وفي داخل الأحزاب وأركان الحكم من جميع الاتجاهات؛ وسوف يقبل حزب البعث بحل نفسه تنظيمياً، مع أنه لم تكن قد مضت سوى بضع سنوات على دمجه مع الحزب الاشتراكي، وتحقيقه لانتصارات ملموسة في مجال السياسة الداخلية، في حين سينتقل الحزب الشيوعي إلى العمل السرّي؛ ويغادر زعيمه خالد بكداش البلاد، أما الساسة البرجوازيون، وعلى رأسهم خالد العظم من المخضرمين مع العسكر والجماهير؛ فأعلنوا أن الاتحاد هو الشكل الأمثل للوحدة، لكن أصواتهم ضاعت في ضجيج الحماسة، فاختاروا الصمت. كان رأيهم أن الوحدة الاندماجية، لن يصنعها قائد مهما كان ملهماً وعظيماً، طالما يعتمد على حفنة من العسكريين المتناحرين؛ وأحزاب طامحة للسلطة أكثر من الوحدة، وشعب يحلم أكثر مما يعمل.

لم يعترض الضبّاط على ترك الجيش وأن يصبحوا وزراء في حكومة الوحدة القادمة. قبلوا بشروط عبد الناصر، الموقف لا خيار فيه، والأمور خرجت من أيدي الجميع، المظاهرات تعم البلاد، لا بديل عن الوحدة الفورية، الحل والربط أصبح بيد الشعب. وكان، أفضل من وجد التعبير الصحيح عن البتّ في الأمر من

قبل الشارع السوري هو الرئيس شكري القوتلي في اجتماع مجلس الوزراء يوم 30 كانون الثاني؛ حينما راح يردد الآية الكريمة : «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان».

في الأول من شباط أعلن رئيس الوزراء السوري الاتفاق على أسس الوحدة بين سورية ومصر؛ وفي الخامس منه، انعقد في القاهرة اجتماع لمجلس الأمة المصري؛ وفي دمشق اجتماع لمجلس النواب السوري، واتخذ المجلسان قراراً بالموافقة على طرح أسس الوحدة لاستفتاء عام يجري يوم 21 شباط؛ وترشيح جمال عبد الناصر رئيساً، وكانت نتيجة الاستفتاء موافقة كاسحة، أعلنت في 22 شباط، الذي أصبح عيداً للوحدة. تنازلت سورية عن اسمها لتصبح الإقليم الشمالي، ومصر لتصبح الإقليم الجنوبي: شعب واحد، جيش واحد، تحت علم واحد، علم الجمهورية العربية المتحدة، رئيسها جمال عبد الناصر.

عندما وصل جمال عبد الناصر إلى دمشق يوم 24 شباط، كان يدخلها لأول مرة في حياته، رئيساً منتخباً لبلد لم يره من قبل؛ وكان استقباله فيها مشهداً بالغ التأثير؛ ومن المستحيل نسيانه، مع أنه أحاط قدومه بالسرية البالغة، فلم يُعلن عنه، بل وفاجأ مستقبليه عندما نزل من الطائرة، لكن سرعان ما انتشر خبر وصوله، فامتلأ الطريق من المطار إلى قصر الضيافة بالناس؛ وغصت الساحة المقابلة للقصر بهم، وعجت بألوف المواطنين ومن ثم بمئات الألوف من الرجال والنساء والشبان والفتيات وطلبة المدارس والشيوخ والأطفال؛ قدموا إلى حي أبي رمانة موجات إثر موجات، فكان يخرج يطل عليهم من الشرفة، ثم يدخل لمقابلة السياسيين السوريين.

في إحدى المرات التي خرج فيها لتحية الجماهير، وقف مذهولاً أمام سيل من البشر لا ينقطع، ولا يفتأ يتزايد، كأن دمشق جاءت عن بكرة أبيها لترحب به، سأل عبد الناصر بدهشة، وكان إلى جواره الصحافي محمد حسنين هيكل: ما رأيك؟! أجابه هيكل: لو لم أكن أعرفك، لقلت لك تذكر أنك بشر.

توحدت مشاعر السوريين حول عبد الناصر، وكان بلا مراء اختصاراً لحركة التحرر العربي، ورمزاً لتوجه يرفض التبعية.

❖ ❖ ❖

لا يمكن فهم هذه الخطوات المتسارعة التي تمت بسهولة وسلاسة دراماتيكية فائقة؛ إن لم نضعها في إطارها العربي والدولي.

كانت سورية بعد الاستقلال، إحدى ساحات تنافس المصالح الدولية في المنطقة، أُستُهلّ الصراع بانقلاب حسني الزعيم 1949، الذي وقّع اتفاقية التابلاين لنقل البترول عبر خط أنابيب تمر من الأراضي السورية إلى البحر. وبعد أشهر الانقلاب الثاني بقيادة سامي الحناوي، وكان موالياً لبغداد، لحساب شركة بترول العراق البريطانية. تلاه الانقلاب الثالث، قاده العقيد أديب الشيشكلي، والذي لم تستقر مقاليد الحكم له إلا بعد الانقلاب الرابع؛ حاول أن يعيد ترتيب الأوضاع، لكن سرعان ما تكتل الضباط ضده، وأزاحوه بانقلاب خامس عام 1954. بعد إسقاط الشيشكلي سلم العسكرُ الحكمَ للمدنيين؛ وعاد الضباط إلى ثكناتهم، واستردت سورية ذلك الضجيج الديمقراطي بقوته وتسيبه، من خلال الأحزاب وصحافة حرة ونشطة. وستشهد الانتخابات أفولاً لقوة الأحزاب المحافظة، وتوهجاً في شعبية حزب البعث الذي سيدخل البرلمان بـ 22 نائباً، ويشكل القوة الضاربة للمعارضة في تجمع يساري يضم حوالي الستين نائباً من بينهم المستقل (خالد العظم) والشيوعي (بكداش).

أُنتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية، وطورد أعضاء الحزب القومي السوري إثر اغتيال العقيد عدنان المالكي؛ وسقطت حكومات وتشكلت حكومات، ودائماً لضمان التعهد بعدم الانضمام إلى الأحلاف العسكرية التي بات يروج لها الأمريكان، ويدعون من خلالها إلى إقامة ترتيبات دفاعية ضد الخطر الشيوعي، أعقبها مشروع دالاس لحل المشكلة الفلسطينية بالتعويض على اللاجئين، وتحويل خطوط الهدنة إلى خطوط دائمة. كان رد سورية عليها: دعوة لحلف عربي ومعاهدة للدفاع العربي.

كانت دمشق قبلة الوطن العربي؛ ومنها أخذت تتعالى دعوات الاستقلال والحرية والوحدة، مما جعلها وعن جدارة قلب العروبة النابض. لم يكن في المشرق العربي دولة مستقلة أكثر من سورية. كان العراق تحت النفوذ البريطاني ومثله الأردن، والسعودية على وفاق مع الأمريكان، ولبنان مازالت تعتقد بفرنسا الأم الرؤوم؛ ولا تمانع بأم أمريكية إضافية. أما مصر فقد كانت الفكرة الرائجة عن

عبد الناصر في أوساط الأحزاب، هي أن البكباشي المصري الذي طرد الملك فاروق وأعلن الجمهورية متآمر، يحرك الأحداث من وراء ستار، استحوذ على السلطة، بعد أن خرج ظافراً من صراعه مع الفريق محمد نجيب، وتصفية الأخوان المسلمين، منتهجاً نهجاً ديكتاتورياً، وما هو إلا شيشكلي على نمط مصري. لكن حزب البعث لن يغمط الثورة المصرية جوانبها الإيجابية: إلغاء المَلَكية، وتوزيع الأراضي على الفلاحين. جاءت وقفة مصر مع سورية إثر الهجوم الإسرائيلي على الحدود السورية تأكيداً للتضامن العربي؛ تبعها كسر احتكار السلاح بتوقيع سورية على صفقة شراء أسلحة من تشيكوسلوفاكيا؛ ومصر على صفقة مماثلة. بعدها سيكتشفون في سورية، أن عبد الناصر المهندس الحقيقي لحركة الضبّاط الأحرار، وهو ثوري حقيقي يتمتع بقدرة فائقة على الصبر والتحمل، ذكي، صلب، بارد الأعصاب، ويحظى بثقة زملائه الضباط، كما أنه يعي بعمق وعن تجربة ضعف النظام العربي والإمكانات التي تمتلكها الأمة العربية؛ وفي كتابه (فلسفة الثورة) يرسم موقع مصر في الدوائر المحيطة به (العربية ـ الإفريقية ـ الإسلامية)؛ ويحدد تطلعاته الوطنية وطموحاته من خلالها.

كانت اقتراحات الأمريكان تتوالى بدواعي وقوع سورية في قلب منطقة استراتيجية هامة مكشوفة دون دفاعات؛ لا تسمح لها قدراتها العسكرية كدولة مستقلة حديثاً صد هجوم سوفيياتي محتمل؛ مما يملي عليها المشاركة في جبهة تضم تركيا والعراق والأردن لإيقاف المد الشيوعي. وفي حال حدوث عدوان على الأراضي السورية، لن يقفوا مكتوفي الأيدي وسوف يسارعون لإنقاذها، بالمقابل على الحكومة السورية السماح لهم باستعمال الطرق والسكك الحديدية والموانئ؛ وأيضاً معاملة البريطانيين بالمثل بحكم تواجدهم في المنطقة. كان المشهد السياسي محتقناً بفعل الضغوط الأمريكية والبريطانية؛ دون أن يعملوا حسابهم إلى أنه سيتفجر في مكان آخر، لم يكن بعيداً.

لم يتأخر الانفجار، في 26 تموز 1956، أعلن الرئيس عبد الناصر من مدينة الإسكندرية تأميم قناة السويس؛ كانت الغاية من التأميم تمويل عملية تحديث مصر ببناء السد العالي على مجرى النيل؛ لإنتاج الطاقة اللازمة للتصنيع، وريّ مئات الملايين من الهكتارات الزراعية. أطلق الإنجليز والفرنسيون

تهديداتهم باحتلال القناة، إن لم يتراجع عبد الناصر عن قراره، لكن عبد الناصر سيواصل تحديه، توجهت أنظار السوريين صوبه، هذا رجل يتحدى الاستعمار الغربي!! جابت المظاهرات الشوارع تهتف بدعم مصر بالرجال والعتاد، واحتشد الآلاف في الملعب البلدي للتطوع في قوات المقاومة الشعبية، وأكدت الحكومة التزامها باتفاقية الدفاع المشترك.

في 30 تشرين الأول، بدأ العدوان على مصر، وكان ثلاثياً: هجوم إسرائيلي على سيناء وفرنسي وبريطاني من البحر والجو. اشتعلت سورية من أقصاها إلى أقصاها استنكاراً وغضباً، وطالب الضباط الحكومة بعمل ما، استبعد رئيس الوزراء القيام بشيء، كيف ندخل معركة نحن بعيدون عنها؟! على أن الضبّاط حددوا هدفهم: إسرائيل، أما العمل: فحشود وتهديدات واجتياز حدود. أصر رئيس الوزراء على انتظار عودة القوتلي رئيس الجمهورية، الذي كان في زيارة رسمية لروسيا، في موسكو كان هو الآخر يستحث السوفييت على القيام بعمل ما.

لكن السفير الأمريكي الذي قابل رئيس الوزراء فتح عينيّ الأخير على أعمال استفزازية باشرتها سورية؛ وضّحها السفير بأنها أعمال تعرقل نقل البترول العراقي إلى البحر؛ ويعتقد أن الإنجليز في حال مُنع عنهم البترول لن يردعهم شيء عن القيام بعملية إنزال في محطات الضخ الثلاث ليضمنوا تدفقه؛ وعلى ذلك فإن أمريكا تنصح الحكومة السورية بالامتناع عن كل ما من شأنه تهديد المصالح الاقتصادية للخطر؛ وأيّ عمل استفزازي سيفسر على أنه عمل عدواني، ويشير إلى أن سورية دخلت الحرب فعلاً. كانت أمريكا التي تنصح، إنما تحذر من جهة وتهدد من جهة أخرى. استدعى رئيس الوزراء رئيس الشعبة الثانية المقدم عبد الحميد السرّاج رأس حربة الضبّاط؛ وتشكى غاضباً: إذا كانت سورية لا تستطيع مواجهة الإنجليز والفرنسيين، فكيف ومعهم الأمريكان؟! في حمأة المشاعر المتأججة لن يجد رئيس الوزراء أذناً صاغية في سورية كلها؛ ولن يتأخر الوقت عندما سيأمر المقدم السرّاج بنسف أنابيب النفط العراقي، ضارباً عرض الحائط بالتهديد البريطاني والتحذير الأمريكي... كانت تلك هي ضربة البترول. وفي القاهرة كان الرئيس عبد الناصر من على منبر الأزهر يخطب: «إننا جميعاً

سوف نقاتل ولن نستسلم، سوف أقاتل معكم إلى آخر قطرة من دمي.» وأجابه بحر من البشر: «حنحارب... حنحارب.»

كان التأميم حدثاً هائلاً بحق، ولا يمكن قياس آثاره ومفاعيله الهائلة في ذلك الوقت، إذ مازالت نتائجه تتفاعل حتى الآن، كان إعلاناً بحق الشعوب في التصرف بثرواتها الطبيعية، والاستفادة من مزايا موقعها الجغرافي. وكان لانتصار عبد الناصر السياسي على الحملة العسكرية الفرنسية البريطانية الإسرائيلية، أن شدّت أنظار العرب إليه، لاسيّما السوريين، الذين جددوا طلبهم للوحدة، وبدا الطريق إليها سالكاً. لكن ورغم الإجماع الشعبي والرسمي، يجب تمهيده من العراقيل، وببعض التصفيات التي عجلت بها المؤامرة العراقية ثم الأمريكية، وما نتج عنهما من فضائح ورشاوى أطاحت بأحزاب وسياسيين، هذا في الداخل. أما في الخارج، فقد برزت أمريكا وعلى المكشوف كخصم للتحرر العربي، وسترى في إمدادات السلاح الروسي وقوع سورية فريسة للشيوعية الدولية، وبالتحول إلى معسكر سوفييتي، لذا وقبل أن تتحول بالكامل، عرضت وصايتها تحت مشروع (مبدأ إيزنهاور)؛ بزعم أن هناك فراغاً في الشرق الأوسط، يجب مَلْؤُهُ بالمساعدات الاقتصادية؛ فخرجت المظاهرات: «لا فراغ في سورية، الفراغ في رأس إيزنهاور».

لم يتوقف الضباط عن التدخل في مشهد لم يعد مأموناً وشديد التوتر؛ وسوف يبلغ أشده في الخريف، فالجيش أصبح بوتقة للسياسة وخلافاتها، أما الأحزاب فباتت قيمة أي حزب تقاس بقدرته على التأثير على الضبّاط، وتعلق نفوذ السياسيين بمدى صلاتهم بالجيش. كان اختلاف الرأي بينهم خطراً، ويمكن أن يتحول في أية لحظة، إلى: تحركات ألوية وكتائب ومدافع ودبابات وعصيان ورفض تنفيذ أوامر؛ كان هناك ضبّاط يمثلون حزب البعث العربي الاشتراكي، وآخرون الحزب القومي السوري، وضباط متعاطفون مع الحزب الشيوعي، وغيرهم من ذوي الاتجاهات القومية ككتلة عبد الحميد السراج رئيس الشعبة الثانية (المخابرات).

فرضت كتل الضباط آراءها على مصادر القرار، بما فيها القصر الجمهوري؛ ولم يخفوا صلاتهم الحزبية. وكانت ارتباطات بعضهم تؤدي إلى عاصمتين على وجه التحديد: الرياض وبغداد، استمراراً للصراع بين السعوديين والهاشميين؛ كما

كان لبعضهم ارتباطات تؤدي إلى بيروت، وكانت قد أصبحت عاصمة توجيه وإدارة للحرب الباردة في المشرق العربي، بعد بروزها كقاعدة خلفية لعمليات البترول؛ ومركز تنصت للمخابرات الدولية يرصد تحركات المنطقة؛ وكان هذا البروز معرضاً ومكشوفاً ومهدداً من أية قوة تحكم دمشق.

استعاد الصراع بين الغرب والروس زخمه، وسيحاول الروس أن يجدوا لأنفسهم موطئ قدم في المنطقة. كانت الثغرة هي سورية، وباتت بعد التأميم أكثر دولة مستهدفة في منطقة الشرق الأوسط؛ والأكثر ممانعة لأي حلف تحت وصاية غربية، والمطلوب هو السيطرة عليها من البريطانيين. وكان الحكام العراقيون على استعداد لدعم أي انقلاب فيها، فسورية بالنسبة إليهم جزء من مشروع الهلال الخصيب، والهاشميون في الأردن اعتبروها محور سورية الكبرى، في حين مازالت الأحلام تراود الفرنسيين باستعادة نفوذهم فيها، أما الأمريكيون فحماية لمصالحهم النفطية، كانت شركة (أرامكو) تراها أقرب طريق يحمل بترولها إلى البحر المتوسط.

بدأ خريف 1957 بإعلان واشنطن عن شحنات سلاح عاجلة، تحملها الطائرات عبر جسور جوية إلى عواصم عربية، قيل إن الخطر السوفييتي يوشك أن يدهمها. مما أدى إلى التركيز على شخصية الزعيم الشيوعي خالد بكداش، فوُصف بالعميل السوفييتي الذي تلقى تدريباته في موسكو، مما جعل الحزب الشيوعي ينتهز الفرصة، ويوحي بأن له دوراً كبيراً في رسم السياسة السورية، وتأثيراً في الجيش من خلال الضابط (عفيف البزرة) رئيس الأركان، في حين كان الحزب أحد القوى، ولم يكن أهمها على الإطلاق، عموماً لم تكن الجسور الجوية الأمريكية أكثر من صخب إعلامي غربي، فيما كانت التهيئة والإعداد يجريان على الجبهات المحيطة تمهيداً لحصار سورية وغزوها؛ حشود عسكرية تركية على الحدود الشمالية، وقوات عراقية تتجمع على الحدود الشرقية، وتحرشات إسرائيلية في الجنوب.

في 13 تشرين أول، ظهر في ميناء اللاذقية أسطول مصري يضم بضع ناقلات للجنود وثلاث مدمرات، تحمل ما مجموعه لواءين كاملين من القوات المصرية مع أسلحتهما الثقيلة من المدفعية والمدرعات؛ هذه الحركة عكست صدى

هائلاً في العالم العربي، واختلفت موازين القوى في الشرق الأوسط، سورية ليست وحيدة، وارتفعت الأصوات مطالبة بالوحدة بين مصر وسورية.

ذلك هو المشهد الذي سبق الوحدة.

أما المشهد الذي أعقبها، فلن يستمر كما قُدّر له إلى الأبد، ففي فجر يوم 28 أيلول حدثت حركة انقلابية في سورية، قامت بها بعض قطعات الجيش، احتلت المراكز الرئيسة في دمشق وأصدرت البلاغ رقم 1 وسجلت انتهاء الوحدة، بعد مرور ثلاث سنوات وسبعة أشهر على قيامها.

❖ ❖ ❖

أشعل قيام الجمهورية العربية المتحدة المنطقة بالمخاوف، وشكَّل المثال السوري خطراً على الحكام العرب؛ وجاذبية لشعوب البلدان العربية من المحيط إلى الخليج، التي وجدت في عبد الناصر فاتحاً يعيد الأمجاد العربية؛ ما دفع عبد الناصر ليشرح هذه الفكرة لصحفي فرنسي كي لا تشتبه بالاستعمار التقليدي أو بالفتوحات العسكرية: «أنا لست فاتحاً، أنا كما تقولون بالفرنسية مغناطيس». تحرك الغرب ضد الدولة الجديدة، تحت تأثير توقعاته بأن التأثيرات الناجمة عنها لا تضمن بقاء سيطرتهم على الإمدادات النفطية؛ بل وفكر البريطانيون باحتلال منابع البترول من خلال القيام بعمل عسكري مشترك مع أمريكا وفرنسا، لا يتوقف عند حدود لبنان؛ ويمتد إلى سورية والعراق. في ذلك الوقت كتب الرئيس اللبناني كميل شمعون إلى الرئيس الأمريكي يسأله، عما إذا كان يستطيع الاعتماد على «مبدأ إيزنهاور» لحماية لبنان المعرض للخطر العربي؛ إثر اضطرابات اشتعلت في قرى الجبل على الطريق إلى دمشق؛ طالبوا خلالها بالوحدة، وانتقلت عدواها إلى بيروت؛ فطلب تدخلاً أمريكياً عسكرياً، متحججاً بإنقاذ مسيحيّي الشرق. كاد شمعون أن يحول الاضطرابات إلى حرب صليبية، أما طلاب الوحدة اللبنانيون فكادوا أن يحولوها إلى ثورة، فسارع (إيزنهاور) وأصدر الأمر إلى الأسطول الأمريكي السادس بتحريك بعض قطعه إلى شرق البحر الأبيض المتوسط؛ وفي الوقت نفسه اجتاحت ثورة 14 تموز العراق، وقضت على العائلة المالكة، وأعلنت قيام النظام الجمهوري. كذلك قام الفريق إبراهيم عبود قائد الجيش السوداني بتولي زمام السلطة؛ إثر افتعال أزمة بين مصر والسودان حول مياه النيل والسد

العالي؛ بالإضافة إلى دعم عبد الناصر الكامل للثورة الجزائرية باحتضانه حكومة المنفى؛ وتهريب السلاح إلى الجزائريين.

كل هذا أكد الهواجس الغربية. حتى أن الرئيس الروسي خروشوف شارك الغرب ظنونه، ففي لقاء مع عبد الناصر وصفه بأنه مدبر ثورات، قائلاً له: الواضح أن ضبّاط الانقلاب هم من رجالك. لكن عبد الناصر لم يكن يعرف هؤلاء الضبّاط، ولم يلتق في حياته بواحد منهم، وصارحه: أنا لست وراء كل حدث يجري في الوطن العربي.

الأمر الذي لا يمكن إغفاله، هو أن حركة التحرر الوطني في الخمسينيات تحولت إلى تيار اكتسح البلدان المستعمرة الممتدة من جاكارتا في أندونيسيا إلى الدار البيضاء في المغرب العربي؛ وهبت رياح التغيير بعد تأميم قناة السويس على القارة الإفريقية؛ فشهدت خلال سنوات قليلة استقلال حوالي عشرين دولة.

عزا عبد الناصر الثورات في العالم العربي إلى وجود مخزون محبوس من الآمال والتطلعات لدى العرب، الذين بدا لهم أن الثورة المصرية قد فتحت الطريق؛ فتدافع المخزون والمحبوس من الطاقات: تيارات وحركات عارمة بغير ترتيب من أحد وبغير تخطيط. وأنا - والقول لعبد الناصر - أول من يساوره القلق نتيجة تدافع الأحداث؛ فهذا التدافع ليس فقط أكثر مما يحتمله أعصاب الغرب؛ بل إنه أكثر مما نستطيع نحن تحمل مسؤوليته، المشكلة أننا لا نستطيع صد عفوية الجماهير، ولا حقها المشروع في تكسير أغلال التبعية.

على أن الغرب سيفقد أعصابه مراراً، ويستخدم وسائله الدعائية في شن حرب نفسية على الجمهورية العربية المتحدة؛ تدفقت مع تصاعدها ملايين الدولارات على السوق السياسية، فشهدت بيروت توسعاً في نشاط المخابرات الغربية؛ فغذّت بالمال مرتزقة الصحافة الذين كانوا على شاكلة جماعة إذاعة مصر الحرة؛ وهي جماعة تمولها المخابرات الفرنسية، كانت تذيع على موجاتها أخباراً كاذبة: «الشعب يساق في الشوارع ليهتف للوحدة»، «عبد الناصر يرسل وزيري الأشغال والأوقاف إلى دمشق؛ لبحث إمكانية استيعاب سورية لمليون مصري مهاجر»، «الوحدة مازالت حبراً على ورق، ومع ذلك بدأت معركة الاستغلال». ووصفت الصحف العميلة عبد الناصر بالديكتاتور، وبأن لديه جدول

أعمال محدد للسيطرة على المنطقة بلداً بعد بلد، كما كان هتلر يفعل، وإذا استولى على الشرق الأوسط فسوف يسيطر الشيوعيون على النفط. ولم ينج عبد الناصر كذلك من حملات الروس الدعائية إبان أزماته المتوالية مع موسكو، فعدا عن اتهامه الدائم بالوقوف مع البرجوازية العربية ضد الطبقة الكادحة العربية؛ شن الشيوعيون العرب من فوق المنابر الروسية هجوماً على دولة الوحدة؛ لقيامها بحل الأحزاب الشيوعية، ومطاردة أعضائها، ومحاصرة نشاطاتهم العدائية، وصنفوا عبد الناصر مع الفاشست والهتلريين.

لن تنجح الحملات الدعائية في تشويه صورة عبد الناصر؛ كانت شخصيته الكارزمية الآسرة قد جعلت منه رمزاً لاستعادة العرب لكرامتهم؛ واختلطت شخصيته كبطل قوميّ في نظر السوريين بصورة صلاح الدين الأيوبي قاهر الغرب الصليبيّ؛ كان بنشأته البسيطة وحياته المتواضعة البعيدة عن مظاهر الأبهة والثراء والزهد في المتع الشخصية قريباً إلى قلوبهم؛ كما كان منيعاً على المغريات، وغير قابل للإفساد، مما جعل عملاء المخابرات الأمريكية يسخطون عليه: «مشكلتنا مع عبد الناصر أنه رجل بلا رذائل، فلا نحن قادرون على شرائه، ولا على ابتزازه، لا نملك سوى أن نبغض هذا الرجل من أعماق قلوبنا، نحن لا نستطيع أن نمسه بشيء، إنه نظيف إلى حد لا يطاق!!».

❖ ❖ ❖

لم يكن عبد الناصر عدواً للغرب، كان الغرب عدواً له، وشن عليه حرباً لم تهدأ طوال مدة حكمه لأسباب كثيرة أحدها: لم يتصور أن بلدين مستعمرين، كانا مجرد تابعين له على الهامش، نهضا حديثاً من تحت الاحتلال والانتداب، يتوحدان في دولة واحدة، أخذت تتحكم بمصيرها وتتنطح لأدوار كبرى، على أنّهم سيضعون حلين لمشكلتهم مع عبد الناصر: اغتياله، أو فرض هزيمة ساحقة عليه بواسطة إسرائيل. وسوف يجربون بواسطة عملائهم اغتياله أكثر من مرة ويفشلون، أما هزيمته عن طريق إسرائيل فسوف تتحقق في عام 1967 بدعم أمريكي مطلق؛ لذلك لا غرابة أن تحمل الأجيال التي عاصرت عبد الناصر، أو التي مازالت تعي

مرحلته، أو تستعيد تلك الفترة، أن تحمل نحو الغرب عداء سافراً، وتتهمه بعدم توفير أيّ فرصة لإجهاض طموحات العرب المشروعة.

كما لم يكن صديقاً أعمى للدولة السوفياتية، كانت خلافاته مع الزعماء السوفييت شديدة، وكادت أن تصل أكثر من مرة إلى نقطة اللاعودة، وكان أشهرها معركته التي خاضها معهم من سورية، بعد ثورة العراق وانقلاب عبد الكريم قاسم على الضبّاط القوميين بمساعدة الشيوعيين؛ عندما خطب (خروشوف) مهاجماً سياسة الجمهورية العربية المتحدة؛ ومعلناً حملة مركزة أيّد فيها الشيوعيين العراقيين، وأخذ يحرضهم، ولم يكن هؤلاء بحاجة إلى مزيد من التحريض، كان صوتهم في بغداد أعلى الأصوات، والمحاكمات الاستثنائية تُصدر أحكام الإعدام بالجملة على القادة والضباط القوميين؛ وطوابير الإعدام رمياً بالرصاص، أو على المشانق مصيرٌ يتربص كل يوم بمئات من العسكريين والمدنيين.

من شرفة قصر الضيافة في دمشق وبمناسبة الاحتفال بالعيد الأول لقيام الوحدة، ردّ على الرئيس الروسي: «هناك خلافات بيننا وبين الاتحاد السوفييتي، لكل بلد نظامه الاجتماعي الخاص، ولكل بلد عقائده التي يؤمن بها، نحن لا نتدخل في عقائد الآخرين، ونرفض أن يفرض الآخرون علينا عقائدهم.... لسنا في حرب مقدسة ضد الشيوعية، وإنما متمسكون بمبادئنا. لم نحاول أن نقنعهم بها، ولا أن نصدّرها إليهم.» وخطب في حلب: «نحن لا نستلهم الوحي، ولن نستلهمه من أية عقيدة غير عقائدنا.» وفي اللاذقية: «لسنا مستعدين لقبول التبعية لأي طرف في الغرب أو في الشرق.» وفي جبل العلويين: «إن الشيوعيين العرب يلعبون دور الطابور الخامس في خدمة الاستعمار سواء كانوا يعرفون ذلك، أو يجهلونه.» فيما استبيحت مدينة الموصل في عملية إرهاب لم يسبق لها مثيل، بعد قمع حركة تمرد العقيد عبد الوهاب الشواف، وقُتل الناس بالمئات وأُرغم الذين أيدوا التمرد من المدنيين على حفر قبورهم قبل إطلاق الرصاص عليهم، وجرى شنق العشرات بأعمدة النور، فتابع عبد الناصر حملته ووصف الشيوعيين من ساحة الجلاء بدمشق بأنهم: «عملاء للأجنبي، لا يتحركون إلا بتعليمات.» فصعّد (خروشوف) من انتقاداته، وركز على فكرة القومية العربية، بأنها ليست أساساً صالحاً للوحدة، وإنما الأساس هو وحدة الطبقة العاملة في العالم، وقال إن عبد الناصر يتصرف بأسلوب أحمق، وأنّ

رأسه ساخن، ويتصور أنه يستطيع فرض سياسته على العالم. ردّ عليه عبد الناصر في اليوم نفسه من داخل المسجد الأموي الكبير: «لن نبيع بلادنا لا بملايين الدولارات ولا بملايين الروبلات. خروشوف حر فيما يقول ويفعل في الاتحاد السوفيتي، أما نحن فلسنا تحت وصاية أحد».

❖ ❖ ❖

ما أخفق فيه الغرب، سينجح بفعله الذين صنعوا الوحدة ومعهم أعداؤها من الدول العربية الملكية وخصومها في العراق؛ ومن الداخل الأحزاب المختلفة، الشيوعي، والأخوان المسلمون، والوطني، والشعب، والبعث!! وإذا كان مفهوماً عداء الأحزاب كلها، لكن حزب البعث وحده بحاجة إلى تعليل، إذ كان على رأسها.

بعد حل حزب البعث نفسه، انخرط البعثيون في دولة الوحدة، وتسلموا مناصب وزارية، تُوجّت برئاسة أكرم الحوراني للمجلس التنفيذي السوري، بعد بضعة شهور أخذ عبد الناصر يتلقى شكاوى من صلاح البيطار وغيره من المسؤولين البعثيين عن عمليات إبعاد وتحيز ضدهم في الإقليم الشمالي؛ ومن الجانب الآخر كانت الاعتراضات على ما اعتبر تخطيطاً من البعثيين لاحتكار السلطة في الإقليم الشمالي؛ تتوالى من أكثر من جهة، فقد كان البعثيون يعملون على تسريح ضباط سوريين بعد فرزهم إلى ذوي انتماء شيوعي وأخوان مسلمين، وآخرين مشكوك في ولائهم من الشوام والحلبية والعلويين؛ وكان مجرد تعيين بعثي في وزارة أو إدارة، يعني أن يأخذ بتنظيفها من الرجعيين، الموالين للحزب الوطني وحزب الشعب والشيوعيين والإخوان المسلمين.

ومن الجدير بالذكر أنه ومنذ اليوم الأول للوحدة، ظهرت في مصر جبهة قوية ضد البعث. وبالتحديد في القيادة حول عبد الناصر ممن وجدوا أن قادة البعث سيشاركون في القيادة، ويزاحمونهم على أماكنهم ونفوذهم، كذلك في دمشق، رأوا أن البعث سيحكم سورية ويزيحهم جميعاً.

أثار الحصار حنق البعثيين، كانوا يطمحون إلى قيادة دولة الوحدة من خلال عبد الناصر، بعد أن أعطوه سورية، وضحوا بحزبهم في محراب الوحدة. بدأت الانتقادات، تناقلها رفاق الحزب المنحل عن تمصير سورية: تعيين مسؤول مصري

كمستشار شخصي لعبد الناصر لشؤون الإقليم الشمالي؛ الملحق العسكري المصري يتولى إدارات القوات المسلحة السورية؛ احتلال الضباط المصريين للمراكز الحساسة في الجيش السوري، عبد الناصر يعتمد على وزير الداخلية العقيد عبد الحميد السراج الذي أحكم قبضته على الأوضاع الداخلية.... وبلغت الحساسية حدَّ تصوير وجود الضباط المصريين في سورية والبالغ عددهم 850 ضابطاً على أنه احتلال؛ ووجود الضبّاط السوريين في القاهرة البالغ عددهم 200 ضابطاً على أنه إبعاد. استقال الوزراء البعثيون من الحكم احتجاجاً على الأخطاء، بدعوى أن مصر تستأثر بكل شيء انطلاقاً من موقف إقليمي؛ فهاجمهم عبد الناصر، ونعتهم بالأقلية الوصولية المستغلة، وأنهم يسعون للسيطرة على دولة الوحدة. فيما بدأ الخلاف بين البعثيين والسرّاج مبكراً، عندما اتهم السراجُ البعثَ بأنه يريد الاستيلاء على السلطة بالمؤامرات؛ وبالمقابل اتهم البعثُ السراجَ بتحويل سورية إلى دولة بوليسية هدفها تكميم الأفواه.

خرج حزب البعث من الحكم، وتحول إلى حزب سرّي معارض، وانضم بذلك إلى جبهة من بقايا النظام السابق على الوحدة، بمن فيهم الأطراف الذين عارضوا قيامها أصلاً، ومنهم الشيوعيون، وأصبحت العناصر البعثية مطاردة من قبل المخابرات أسوة بالأخوان المسلمين والشيوعيين، هذه الجبهة اتسعت إثر صدور القرارات الاشتراكية وتأميم الشركة الخماسية؛ وضمت إليها البرجوازية السورية، وكان لها أكبر الأثر في ضرب الوحدة.

جمع عبد الحميد السرّاج بين يديه مفاتيح الحكم في العمل السياسي: من التنظيم الشعبي الممثل في الاتحاد القومي إلى جهاز الأمن الممثل في المباحث والمكتب الثاني؛ وساد الرأي في دمشق بأنه أصبح الحاكم الفعلي لسورية؛ ولتدارك هذا الوضع طلب عبد الناصر من المشير عبد الحكيم عامر أن يكون ممثلاً له في سورية، فوصل الخلاف بينهما إلى حدود مهينة لكليهما، فالمشير الذي انتصر للفئات التقليدية والمحافظة في انتخابات الاتحاد القومي؛ وأبعد العناصر ذات الماضي البعثي، عمل كذلك على نقل ضبّاط السرّاج إلى القاهرة، فيما اتهم السرّاجُ الضباط المحيطين بالمشير بأنهم ينوون القيام بانقلاب ضد الوحدة.

استشعر عبد الناصر الخطر مبكراً، وجمع الوزراء وصارحهم بأنه لا يستطيع أن يترك الأحوال في الإقليم الشمالي على ما هي عليه؛ إنّ تناقضات دعاة الوحدة وخلافاتهم تسبب له المتاعب أكثر مما يسببها أعداء الوحدة؛ كانت التناقضات الثانوية بين الأشخاص قد طغت على التناقض الرئيسي بين الوحدة وأعدائها.

ستتراكم الاتهامات الظالمة على عبد الناصر، وإذا كنا لا نستطيع إنكار حماسة البعثيين في قضية فلسطين، لكن مبالغاتهم ذهبت بهم إلى حد اتهامه بالخيانة؛ لامتناعه عن التصدي بالسلاح لمحاولات إسرائيل تحويل مجرى مياه نهر الأردن؛ ومما لا شك فيه أن أصحاب هذا الزعم أغفلوا - عن حسن نية وربما عن جهل - الظروف الدولية ومخططات الدول الكبرى ونواياها، والاستفزازات الإسرائيلية، وعدم القدرة على خوض حرب لم يجر الاستعداد لها. ومن الخارج، لم تكفّ الإذاعات الرجعية والممولة عن بث أكاذيب بلغت حد المهاترات في إثارة النعرات الإقليمية؛ والتهجم على مصر، ونعت إجراءات عبد الناصر في سورية بالتسلط الفرعوني والدكتاتورية الناصرية؛ وسلب أموال الناس بقرارات التأميم، وإدعاء التحول الاشتراكي، وزجّ الأبرياء في السجون.

كان صراعه القاسي والمؤلم مع الإخوان المسلمين بعد اختلافه معهم ومحاولتهم اغتياله؛ قد دفعته ضراوته إلى مطاردتهم وإرسالهم إلى السجون والمشانق؛ فاتُّهم بالابتعاد عن الدين والكفر والمروق والإلحاد. في الحقيقة، لم يقبل عبد الناصر بأسلمة الدولة، رغم أنه كان متديناً بعمق ومتنوراً، دعم وآزر إصلاح الأزهر، كان مسلماً جيداً، لم يقرب الشراب في حياته كلّها، يصوم ويصلي، وأدى فريضة الحج مرتين، وقد أكد لخروشوف: «إن المحتوى الحضاري لفكرة القومية العربية هو محتوى إسلامي؛ الشعوب العربية متمسكة بأديانها، وأية دعاوى تتجه إلى الإلحاد لا مستقبل لها على الإطلاق في العالم العربي».

كما كان لغياب الديمقراطية وتسلط أجهزة المخابرات فرصة كبرى في الانقضاض على الوحدة؛ مع أن الهدف الأول كان حمايتها، وتحقيق العدالة الاجتماعية، لكنهما رجحا على الحرية والديمقراطية اللتين باتتا مؤجّلتين في علم الغيب الثوري.

❖ ❖ ❖

وبالعودة إلى خلافاته مع حزب البعث، فمما لاشك فيه أن البعث حمل التقدير لشخص عبد الناصر، حتى أن ميشيل عفلق وحَّد بينه وبين مجمل حركة التقدم العربي ومستقبلها؛ وقال لكاتب فرنسي: إنه رجل خارق للعادة... لقد كبر مع الأحداث، وأثبت أنه في مستوى الظروف. بينما شبهه أكرم الحوراني بعمر بن الخطاب تعبيراً عن إعجابه الشديد به. وبعد نشوب النزاع بينهما بلغ الاعتقاد بقيادة الحزب بأن دوره ينبغي أن يشمل: «تثقيف عبد الناصر وجماعته من الجاهلين، ودفعهم في الاتجاه السليم» في حين كان من المستحيل على عبد الناصر أن يقبل بأيّة وصاية عليه، أو وضع يلعب فيه دور الواجهة، كان في الواقع قوة حقيقية وفعلية ومؤثرة.

وكما لا ينبغي إغفال محاولات الوقيعة بينهما، التي نجح كثير من العناصر السورية والمصرية في إحداثها؛ كذلك لا يمكن إهمال أنه من بين الأخطاء الكثيرة المرتكبة التخلص من العسكريين السوريين بنقلهم إلى العمل السياسي، لممارسة أعمال غير مؤهلين لها؛ كما لم تكن لأعضاء الوزارة من السوريين سلطة عملية تنفيذية في الحكومة المركزية؛ بالإضافة إلى أساليب السرّاج القمعية في التعامل مع السياسيين من جميع الأطراف؛ وربما الأهم إفراغ الحياة السياسية من التنظيمات الحقيقية الفاعلة.

لم يعتقد عبد الناصر بالأحزاب، اعتمد على الجماهير، حزبه كان الجموع الغفيرة من البشر، أما ديمقراطيته الشعبية؛ فالخطابات المباشرة، كان البديل عن الحزب والأعضاء والتثقيف السياسي. أما وسائل انتشاره التقنية؛ فإذاعة صوت العرب وجهاز الترانزستور، فخلال زيارته إلى سورية توجه إلى الشعب، وشرح خلافاته مع خروشوف بشان العراق، وبعد إقصاء البعث القى في سورية 23 خطبة في 23 يوماً، عرض فيها وجهة نظره في أرجائها، وفي شباط 1961، بعد قوانين التأميم نشأ تيار مضاد لإجراءاته الاشتراكية، فألقى 10 خطب في 12 يوماً.

بالرغم من التباينات والصراعات والخلافات بين الناصرية والبعث، فهما ينتميان إلى ظاهرة فكرية سياسية واحدة، هي القومية العربية في مواجهة

تحديات العصر، ومن الممكن عزو انهيار الوحدة إلى عدم استيعاب القادة السياسيين خصائص القطرين المحلية؛ ولم تؤخذ درجات التفاوت بينهما بالحسبان، فما يجوز هنا لا يجوز هناك، والعكس صحيح.

❖ ❖ ❖

جعل عبد الناصر من الجمهورية العربية المتحدة حدثاً عملياً؛ يطفو باستمرار على سطح الخارطة الدولية؛ لها رأي في التحولات الكبرى ومجرياتها؛ وكان إحساس الشعب السوري أنه على صلة بما يجري في العالم؛ بل وفي خضم الأحداث يشارك في صنعها. كان عبد الناصر زعيمه ورجله والمعبر عنه، هذا الإحساس المغالي النقي والبريء كان حقيقياً، لذلك كان إحساس الشعب بالغبن كبيراً، عندما عاد إلى حدوده القديمة، حدود سايكس بيكو، بعدما اجتاز البحر إلى مصر، وتغلب على العوائق الجغرافية؛ إذ به ينزوي في بلده من جديد، نهباً للانقلابات وللمجهول.

كانت الوحدة حلماً عظيماً، من فرط جموحه لم يأخذ بواقع وجود خصائص وظروف اجتماعية واقتصادية، لابد من عمل حساب لها. الحدود وإن كانت مصطنعة خلقت مع تراكم السنين مستجدات واقعية من الصعب إنكارها أو تجاوزها أو التقليل من شأنها.

حلم لم يستطع صانعوه دفع تكاليف استمراريته، وقبلها تحويله إلى واقع صلب، ولهذا بقي مجرد حلم تحقق شكلياً بالاستفتاء والقوانين والمراسيم؛ واكتمل على السطح بالحماس والخطابات والتصريحات؛ أما في العمق، فمبتكر، وهذه الوحدة الاندماجية للذين حققوا نصراً وطنياً كاملاً، لم يستطيعوا التنازل عن طموحاتهم الشخصية في الحكم والسلطة، ولم تقبل أطرافه العديدة أن تكون ضحايا لوحدة قد لا تدوم إلا باستبعادهم؛ وهي في حقيقتها كانت وحدة مؤقتة، فالسياسيون اليساريون رغبوا فيها لإنهاء عهود الانقلابات وتدخلات العسكر، أما السياسيون التقليديون فلخوفهم من انخفاض المناعة السورية إزاء التغلغل البعثي والمد الشيوعي؛ فيما تسابق

الضبّاط إليها هرباً من نزاعاتهم مع بعضهم بعضاً؛ وبالنسبة للجميع كانت مجرد تحصين من الأخطار الخارجية التي أخذت تهدد سورية.

لن تنقطع الصلة بين الشعبين السوري والمصري، ثمة ما يجمع بينهما، على الرغم من السياسات التي ذهبت بالسلطات إلى خلافات مستحكمة؛ وأحياناً إلى حد التناقض، وما بقي بين السوريين وعبد الناصر علاقة عاطفية لم تفصم؛ لقد مثّل لهم أملاً مضيئاً وثاقباً، اخترق عتمة ليل كان حالكاً، وفيما بعد عندما ازداد حلكة، شكل الرجاء للناس البسطاء والفقراء. ومازال الكثيرون يحسون حتى بعد مضي زمن طويل، أن فترة الوحدة كانت مرحلة عزيزة إلى نفوسهم؛ والأجمل في تاريخهم وذكرياتهم، عاشوها تحت ظلال سورية الناصرية، ولا غرابة في أن السوريين كانوا بعض الأحيان في مواقفهم ناصريين أكثر من عبد الناصر نفسه. في عام 1967، بعد الهزيمة، سيناشدونه مع الشعب المصري في 10/9 حزيران العودة عن استقالته. وفي عام 1970، سيفجعون بموته، ويبكونه بكاء مرّاً، في يوم كان حزيناً، صادف في 28 أيلول ذكرى يوم الانفصال.

فواز حداد

عبد السلام العجيلي

القيمة الأكثر ثباتاً

(1918 – 2006)

كان يتعمد السير في طريق جانبية قل عدد سالكيها، ليحظى بالهدوء كي يساعده على القراءة وهو في طريقه إلى مطحنة والده، التي اعتاد العمل فيها خلال العطلة المدرسية. ثم يقف وراء القبان ليتقاضى أجر الطحن بعد وزن أكياس القمح المطحون، فيستغرق في القراءة إلى درجة، لا يفطن فيها إلى الذين خرجوا من المطحنة دون أن يزنوا الطحين، ما عرضه مراراً لتأنيب والده وتعنيفه.

ولع عبد السلام العجيلي بالقراءة، رافقه حتى نال منه تقدم السن، ولم يعد قادراً على القراءة كما اعتاد. كان عدد الكتب التي يقرأها سنوياً يتجاوز المائة. أكتشف متعة المعرفة، منذ عثر في أدارج والده على مجلد ضخم يؤرخ للعشرة المبشرين بالجنة، وثابر على المطالعة بنهم. وسوف يفتش لدى رفاقه عن الكتب التي يقتنيها أهلهم من حكايات شعبية مثل: تغريبة بني هلال وقصة الزير أبو ليلى المهلهل، وسيرة حمزة البهلوان وعنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن. في زمن لم يكن في بلدته الصغيرة الرقة مكتبة لبيع الكتب، وإنما دكاني اسمه صبحي عوف يأتي من حلب ببعض الروايات البوليسية الهزيلة، فكان يستأجرها ويعيدها إليه. كما وجد في مكتبة قريب لأمه كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه وروايات جرجي زيدان، فقرأها كلها. ثم راح يتردد على مضافة عائلته في أيام الأزمات السياسية، وفي أيام رمضان بعد صلاة العشاء، ليستمع إلى عمه يقرأ في فتوح الشام للواقدي، أو قصة مترجمة عن التركية تتحدث عن صالحة خانم وسرور آغا أيام السلطان عبد الحميد.

في العشرينيات من القرن الماضي، اضطر لقطع دراسته الثانوية في مدرسة تجهيز حلب بسبب مرض ألم به، ليعود إلى بلدته وينصرف إلى القراءة مدة أربع سنوات، كان لها أثر بالغ في حياته، إذ تفتحت في هذه الفترة ميوله الأدبية، وتشكلت نواة ذخيرة ثقافية غنية، ستمكنه لاحقاً من ناصية اللغة الأدبية

الرفيعة، وسيلقبه الأصدقاء بالحكواتي، لما يتمتع به حديثه من تشويق وظرافة في القص، ولن تقل قدراته الكتابية عن قدراته الشفهية، مع أن الثانية أكثر متعة لمن يعرف العجيلي عن كثب.

❖ ❖ ❖

حين كانت الأمية فاشية في مجتمع الرقة، كانت أسرة العجيلي تتميز بكثرة المتعلمين من أفرادها. الكبار منهم كان تعليمهم تركياً، لقرب عهدهم بالحكم العثماني؛ الرجال منهم يتكلمون التركية ويقرأونها ويكتبونها، كذلك بعض النساء كنَّ يتكلمنها. أما الصغار فراحوا ينتسبون إلى المدرسة الوطنية الوحيدة في البلدة، وهي مدرسة ابتدائية عربية صرف، كان العجيلي واحداً من تلامذتها. وعندما سأله الأستاذ: ماذا تتمنى أن تكون في المستقبل؟ أجاب: أحلم بأن أصبح طبيباً يخدم الإنسانية ويخفف آلام المرضى. كان ذلك حين لم يكن هناك أي طبيب من أبناء المنطقة، فيتعين على أهالي البلدة حمل مرضاهم إلى حلب للطبابة والعلاج، لكن طموح العجيلي تغير مع وصوله إلى المرحلة الثانوية والتحاقه بتجهيز حلب عام 1929، لمتابعة دراسته الثانوية، قبل أن ينقطع عنها ويقرر العودة لنيل الشهادة في وقت كان والده يشكو من نقص السيولة النقدية. ويتذكر العجيلي كيف قالت أمه لوالده: بع الكرد الفلاني وابعث بابنك إلى المدرسة، والكرد قطعة ارض زراعية على الفرات صغيرة، فباع والده الكرد ليتمكن الابن من متابعة الدراسة. لكن أبيه، في حبه للأرض، وكرهه لأن يبيع شيئاً مما يملك، كان يعتب على زوجته بين الحين والآخر لإشارتها عليه بما كان يكره، فيقول لها جعلتني أبيع ذلك الكرد! فترد عليه: أما يسرك أنك علمت عبد السلام ليصير إلى ما صار إليه؟ فلا يملك إلا أن يبتسم ابتسامة الراضي.

يعتز العجيلي بوالديه كثيراً، ويبرر تشدد والده وصرامته، بأنه كان منصفاً، وينفي عنه الاتهام بالحرص في مجتمع يتباهى أهله بالتبذير وبالكرم الكاذب، كان أكرم من كثيرين على أهله وعلى ذوي الحاجة، وأورث أبنه حب العمل وكره البطالة، والصدق في القول والاستقامة في المعاملة. أما عن والدته، فقد ورث عنها الاعتزاز بالنفس والعطف ورهافة الذوق، ولطف المعاملة.

اكتشف خلال مرحلة الدراسة الثانوية في داخله ميلاً لدراسة الفيزياء، إلا أن الجامعة أعادته إلى أمنيته الأولى، إذ لم يكن فيها من اختصاص علمي سوى الطب، المهنة التي مارسها العجيلي بشغف وحب كبير، منحها حياته والتزم بها، فأعطته ولم تبخل عليه من الناحية النفسية والفكرية، ما لا يوجد في غيرها من أعمال الحياة، وكان يقول دائماً: «إذا خيرت، فلن أتخير لحياتي غير العمل الذي أمارسه، وبالطريقة التي أمارسه بها».

❖ ❖ ❖

كان العجيلي طبيباً قبل أن يكون أديباً أو سياسياً، ما هيأ له موقعاً اجتماعياً مرموقاً ومؤثراً يستند أساساً إلى مكانة عائلته في مجتمع عشائري يتباهى بأصوله، وعائلة العجيلي تنتمي إلى قبيلة البو بدران العراقية، الحسينية النسب، المقيمة في قرية «الجرن» أو القرن بجانب الموصل، وتعيش هذه القبيلة حياة نصف حضرية في السهول المحيطة بمدينة الموصل، وقد نزحت بعض أسرها وأفخاذها في أيام الحكم العثماني إلى أماكن أخرى غير العراق، سورية بصورة خاصة. وكان خروج أسرة العجيلي بداية الى الرها «أورفا»، ثم انتقلت الى وادي الفرات «الرقة» في منتصف القرن التاسع عشر.

كان والد عبد السلام العجيلي، أول من استقر استقراراً دائماً في منزله الحجري، فهجر اقتناء قطعان الماشية واللحاق بها في موسم الرعي إلى السهوب المعشبة، وانصرف بروح عملية غير مألوفة في شمال شرق سورية، إلى الزراعة واستخدام الآليات فيها، إلى جانب ممارسته لألوان أخرى من النشاط في العمل. إلا أن الصبي عبد السلام ظل يعيش مع أبناء عمومته الحياة البدوية، وخضع مع كل أهله لعادات العشائر وتقاليدها. فكان يلحق بأقاربه في الصيف وأثناء العطلات المدرسية إلى حيث ينزلون من البادية، ينام تحت بيت الشعر ويشارك الصبيان في احتجاز الخراف عند حلب نساء الحي لأمهاتها، ينام قرب موقد النار ويركض في السهول ينبش جذور النباتات البرية التي كانوا يغرمون بأكلها: الشويخ والكعوب والحيلوان والضبح، وامثالها. ليصح في العجيلي فيما بعد وعن جدارة قول صديقه الشاعر نزار قباني إنه «أروع حضري عرفته البادية، وأروع بدوي عرفته الحاضرة».

❖ ❖ ❖

أواخر شهر تموز من سنة 1918 أو 1919، ولد عبد السلام العجيلي، للحاج علي المحمد الويس والحاجة مزنة الحميد العلوش العجيلي، وهما أبناء عمومة حملوا اسم العائلة، حينها لم يكن في الرقة سجلات ثابتة للمواليد، لذلك يفضل العجيلي التاريخ الأول لضيق منه بالذين يحاولون إنقاص ما يقدرون على إنقاصه من أعمارهم، و«كأن فرق سنة واحدة يهب الشباب لمن فارقه». لذا لم يكن لديه أي مانع عام 1943 أن يقيم دعوى في المحكمة شبه روتينية للحصول على قيد نفوس جديد يعدل مواليده الى عام 1912 بدلاً من 1918، ليتمكن من الترشح لأول انتخابات نيابية في العهد الجديد، بعد نيل سورية لاستقلالها الشكلي، والوعود بإجراء انتخابات نزيهة.

في معهد الطب العربي بدمشق، مثّل طالب السنة الثانية لعائلته الأمل في الحصول على كرسي في مجلس النواب، كان جده لأمه قد فشل، ومن ثم والده بالحصول عليه في الانتخابات السابقة، التي جرت تحت الانتداب الفرنسي، وكانت حكومة الانتداب تعيق وصول الأصوات الوطنية والمناهضة لها إلى المجلس، فكيف سيدعون شاباً صغير السن، عُرف بنشاطه الطلابي بالفوز بمقعد نيابي؟ فقد كان رئيساً للجنة الطلابية في ثانوية التجهيز بحلب، شارك حين عمت الإضرابات كافة أنحاء سوريا، لاسيما حلب عام 1939، بالاحتجاج على سلب السلطة الفرنسية لواء اسكندرون ومنحه لتركيا، وكان طلاب ثانوية التجهيز في طليعة المتظاهرين والداعين إلى إغلاق الأسواق وتوقف الأعمال والخروج إلى الشارع، ما اضطر وزير المعارف الدكتور عبد الرحمن الكيالي للذهاب إلى مدينته حلب، لتهدئة الأمور والاجتماع مع لجنة الطلاب والطلب منهم الرجوع إلى الدراسة مادامت الحكومة الوطنية مستمرة في معالجة المسألة، لكن محاولات التهدئة لم تفلح في التخفيف من حماستهم، وخرجت اللجنة ذاتها في مظاهرة حاشدة، رد عليها وزير المعارف بفرض عقوبة على مدرسة التجهيز بالإغلاق لمدة أسبوعين، وكان الطلبة على أبواب الامتحانات مما هدد برسوبهم، فذهب العجيلي إلى وزير المعارف وطلب منه تحميله وحده مسؤولية عدم الالتزام بالوعد، لأنه رئيس اللجنة الطلابية التي لم تفِ بما تعهدت به. فغضب منه الوزير، وتراجع عن قرار إغلاق المدرسة، لكنه فصله من المدارس السورية كافة.

بيد أنه في اليوم التالي طلب من مدير المدرسة إبلاغ الطالب العجيلي العودة إلى المدرسة، على أن لا يعود لمثل تلك الأنشطة مرة ثانية.

العجيلي الذي انتقل إلى دمشق لدراسة الطب، لم يبتعد عن النشاط الطلابي السياسي، وكان في مقدمة الذين خرجوا أواخر عام 1943، انتصاراً لرجالات لبنان الاستقلاليين الذين اعتقلتهم السلطة الفرنسية آنذاك (الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح ورفاقهما)، وفي مقدمة المبتهجين لإطلاق سراحهم. ومن الطريف أنه في ذلك الوقت ارتجل تصميماً للعلم اللبناني ليرفع في مقدمة تظاهرة الابتهاج، وكان العلم اللبناني قبل الاستقلال هو العلم الفرنسي مضافاً إليه شجرة أرز في مربع في زاويته العليا. أما العلم الذي ارتجله، فكان علم سورية نفسه، وقد وضع ثلاث أرزات حمر، مكان النجمات الثلاث الحمر على الشريط الأبيض بين اللونين الأسود والأخضر. ذلك العلم لم يمثل لبنان سوى في ذلك اليوم.

لم يكن حظه في انتخابات 1943 أفضل من حظ والده وجده، فلم تنجح القائمة التي كان احد أركانها، ليعود مجدداً إلى الدراسة وإلى نشاطه السياسي مع التهيؤ لانتخابات الدورة التالية عام 1947، بعد نيل سورية استقلالها التام عام 1946.

عقب رجوعه إلى بلدته طبيباً عام 1945، افتتح عيادة خاصة، اختلط من خلالها مع أهالي منطقته كلها، وعندما حان وقت الترشيح طلب مقابلة رئيس الجمهورية شكري القوتلي، ليسأله إذا ما كانت الانتخابات حرة حقاً، وإن لم تكن كذلك فهو يفضل إلا يدخلها من الأساس. فقال له الرئيس: ستكون حرة، والحكومة لن تتدخل ضد أحد، اتكل على الله، وإذا لمست أي تدخل فما عليك سوى إبلاغي شخصياً دون المرور على أحد سواي، في أي وقت تشاء.

خاض العجيلي الانتخابات وحقق الفوز المأمول، وبعدها خاض أهم تجاربه الوطنية مع قضية فلسطين الآخذة بالتفاعل، إثر صدور قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام 1947، القاضي بالتقسيم. فثارت الشعوب العربية على القرار في مختلف بلدانها، ورفضته الحكومات وقررت مقاومة تنفيذه بكل وسيلة، وفي مقدمة تلك الوسائل، قامت الجامعة العربية بتشكيل جيش الإنقاذ ليدخل الأرض الفلسطينية، ويحول دون قيام الكيان الصهيوني.

تـألف جـيش الإنقـاذ مـن فـوجين مـن المجاهـدين المتطـوعين بقيـادة فـوزي القاوقجي، الذي ترأس الفوج الأول المشكل من العرب عموماً، والثاني سمي فوج اليرموك، تشكل من السوريين بقيادة الضابط أديب الشيشكلي. التحق العجيلي بفوج اليرموك في كانون الثاني عام 1948، وكان نائباً عن الرقة في مجلس النواب، وبرفقته النائب أكرم الحوراني. وحقق بذلك أمنية خامرته قبل أحد عشر عاماً، حين قرر الالتحاق بثورة فلسطين ضد الانكليز عام 1937، وقصد دمشق دون علم أهله بعد انتهائه من دراسة الثانوية، مقرراً الاكتفاء بها ومكرساً حياته للجهاد في سبيل الوطن. وقابل المحامي شفيق سليمان بعد أن علم بتوليه إرسال المجاهدين إلى فلسطين. حين رآه المحامي، قال له: يا بني ارجع إلى بلدتك، وتابع تعلمك.. الثورة أكثر حاجة إلى بواريد وخرطوش منها إلى الرجال.

ومع انخراطه في جيش الإنقاذ، ستثبت له تلك التجربة الغنية والفذة، صحة كلام المحامي. وفي كتابه: «فلسطينيات» يروي ما تكشف له في ميدان المعارك، مما خيب أمل الشاب المثالي آنئذ؛ وكان من سوء الحظ، أن سير أمور العرب منذ عام 1948 وحتى اليوم، جاء مؤيداً لتقديراته السيئة التي وضعها ذلك الحين.

ارتباطه الواعي بالقضية الفلسطينية، لم تضعفه الخيبة التي مني بها بعد التحاقه بالمجاهدين، وإنما سيحيله إلى قصص مؤثرة، من أشهرها قصة «نبوءات الشيخ سليمان»، التي قال عنها احد وزراء الخارجية العرب لأصحابه: «كلما حدثت نكبة في البلاد العربية تتعلق بالقضية الفلسطينية، أقرؤوا هذه القصة، لتعرفوا أن كاتبها قد تنبأ بما يجري الآن».

❖ ❖ ❖

عام 1949 سيشهد قيام حسني الزعيم بأول انقلاب عسكري، ويبتعد عن السياسة، عائداً إلى بلدته وعيادته، حتى قيام حكومة الانفصال عام 1961، وتكليفه عام 1962 بين شهري نيسان وأيلول بثلاث وزارات، الثقافة والإعلام والخارجية. ما سيعرضه لانتقاد الكثيرين لقبوله المشاركة في حكومة الانفصال ضد الوحدة والرئيس عبد الناصر، فقد خيب ظنهم فيه وما يعرفونه عنه كإنسان مثالي قومي متجرد، إلا أنه كان مقتنعاً بما فعله، لأن مشاركته في حكومة بشير

العظمة جاءت في الفترة الثانية من مرحلة الانفصال، التي كان أحد أهدافها إعادة الوحدة مع مصر، إنما بالطريقة التي تنتفي بها المآخذ ونقاط الضعف التي أدت إلى تسلل الفكرة الانفصالية إلى نظام الحكم السابق. ومع أنه لم يمتلك إيماناً عميقاً بإمكانية إعادة الوحدة، لكنه كان من الذين فكروا مخلصين بوجوب عمل كل شيء لبناء وحدة جديدة تقوم على أسس سليمة. في تلك الفترة، أبدى فاعلية أكبر في الحياة السياسة من الفترة الأولى، غير أن طعم المرارة في العمل السياسي كان أقوى، وقد عبر عنها قائلاً: «إن كانت لي ذكريات مرضية في عملي السياسي، فهي ذكريات لا تمت إلى السياسة بصلة».

❖ ❖ ❖

بقيت الصفة الأدبية للعجيلي هي الأكثر شيوعاً بين الناس، وعرف ككاتب أكثر مما عرف كطبيب أو سياسي، رغم منجزه الإنساني الهام الذي حققه من خلال مهنته كطبيب في بلدته الرقة. حتى أنه حين ذهب إلى النيابة، وترك العيادة، وتفرغ لمسؤولياته الجديدة كنائب، كان يقضي إجازاته في الرقة، فصادف في إحداها، أن طرق بابه بعد منتصف الليل رجل ومعه طفلة عمرها حوالي 6 سنوات مصابة بألم في عينها، ولم يكن في الرقة سوى طبيب حكومي لم يكن مواظباً على الدوام في عيادته. فحص الطفلة، وإذا بعينها مصابة بتقرح قرني خطير، وحين سأل والدها لماذا تركتها هكذا؟ قال لأننا لم نجد الدكتور، ولا ندري ماذا نفعل! تألم كثيراً، وقال في سره، لأجل النيابة أصيبت هذه الطفلة بالعمى.

ما يحسب له كطبيب، دوره الأساسي في مكافحة شلل الأطفال، وكان ذلك في الثمانينات، بعد ملاحظته كثرة الإصابات بهذا المرض، فعمل بالتعاون مع منظمة الصحة للحصول على لقاحات مجانية، الأمر الذي سرعان ما تجاوبت معه الحكومة، وبتوجيه من رئيس الجمهورية حافظ الأسد قامت الحملة الوطنية لمكافحة هذا المرض، ومنذ ذاك الحين أصبح اللقاح مجاناً للجميع، إلى أن قضي تقريباً بشكل نهائي على مرض شلل الأطفال في سوريا.

❖ ❖ ❖

أكثـر مـا يلفـت النظـر في حياتـه الغنيـة والمتنوعـة علـى الأصـعدة كافـة، هـو التصـاقه بمدينتـه الصـغيرة «الرقـة». كـان لا يطيـق الابتعـاد عنـها، رغـم النيابـة ورحلاته وتطوافه في جهات الأرض الأربع، فلم يكن يكتب إلا فيها، واشتهر عنه القول، إنه لو خير بين الرقة ومكان آخر في العالم لاختار العيش في الكونغو! لأنه بطبعه يحب الحياة الصعبة، ويجيب من يستغرب ارتباطه الوثيق بمدينته النائية: إنهم يريدون مني أن أفكر بعقليتهم واشعر بمشاعرهم، لي عقليتي الخاصة التي لا ترى في الانجازات الثقافية وما يتعلق بها من شهرة وبعد صيت الأهمية التي يرونها هـم لها. حـالي مثـل حـال النـاس الـذين أنـا منـهم، ومصـلحتهم هـي الـتي تسـترعي اهتمامي وتدفعني إلى أن أكون بالقرب منهم دوماً، غير متطلع إلى كسب مادي أو علـو مقـام، لا أجـد مـبرراً لانسـلاخي عـن بلـدي، لأن الحيـاة في غيره أجمـل وأكثـر إمتاعاً، ولو أنـي بحثـت عـن الأجمـل والأمتـع لتجـاوزت عاصـمة بـلادي إلى عواصـم أخـرى أعرفهـا واعـرف الطريـق إليهـا، حافلـة بكـل مـا هـو لـين وطيـب. لسـت مـن الطامحين إلى لعب أدوار كبرى؛ طموحي، إذا كان هـذا يعتبر طموحاً، هـو أن أقـوم بواجبي بقدر ما أتمكن عليه، والباقي هو قبض الريح وباطل الأباطيل.

لا شـك أن العيـادة كانـت المسـاحة الأهـم الـتي هيـأت للطبيـب العجيلـي أجـواء نموذجية لمد أواصر التواصل الإنساني العميقة مع المجتمع البدوي الذي عاش فيه، ولقد أحب البدو وقدرهم. وليس من الغرابة أن يصبح مرجعاً مهماً للمستشرقين في فهم طبيعة البداوة، وقد نوه عالم الاجتماع الفرنسي (جاك بـرك) أكثـر مـن مـرة إلى أهمية كتاب «عيادة في الريف» في هذا الخصوص. ومن الأمثلة الطريفة التي يسوقها العجيلـي لتوضـيح الفـرق بـين القـروي والبـدوي مـن خـلال خبرتـه في العيـادة، أن القرويين وأبناء البلد يتزاحمون كلٌ يريد الدور له، أما البدوي فينتظر حتى يناديه، فهـو مهـذب بكلماتـه، مهـذب بتقـديره، وعنـدما يسـأله كيـف أصـبحت يقـول (والله الحمد لله) فيما يقول القروي يقول (والله ما نمت الليل) كي يعطي أهمية لنفسه.

العجيلي الأديب المرموق والسياسي المخلص والوطني المناضل،عرف فيه أهله وأبنـاء مدينتـه طبيباً بارعاً وإنسـاناً رائعاً، لم ينسـهم لحظـة، لاسـيما حـين تسـلم وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة، فوجه إليهم شكره ومحبته، ورأى في تكريمه تكريماً لهم من خلال شخصه، لأنه واحد منهم، ولـيس لأنـه أفضـلهم. وقد

قابل أهالي الرقة العجيلي بالحب والتقدير ذاته، وربما أكثر، فقد كبر مع بلدته، فكبرت به، وبات رمزاً لها يرد ذكره في الأهازيج الشعبية:

غربـــــي طاحونـــــة عيـــــاش   دق النجـــــــر بالليـــــــل

وآنـــــي دخيـــــل الـــــدكتور   عبـــــد الســـــلام عجيلـــــي

وحظـي في مجتمعـه بمكانـة جعلتـه شـديد الحـرص علـى مراعـاة تقاليـده وأعرافه، تمثل هذا جلياً في صداقاته مع النساء، إذ توخى دائماً الابتعاد عن بنات بيئته. ويلاحظ النقاد ان ليس بين بطلات قصصه ورواياته أي امرأة من بيئته، وأن غالبيتهن كنَّ إما من المدن السورية البعيدة أو أجنبيات، ويُرد ذلك إلى احترامه الشديد لخصوصية مجتمعه العشائري، وسمعته وسمعة أهله، متجنباً كل ما يثير مشاعر المحيطين به، مراعياً سلوكيات وسطه المحافظ. ومما يرويه، أن نساء بدويات كن يتبادلن الحديث لديه في غرفة الانتظار، ريثما يأتي دورهن بالكشف، سألت إحداهن ترى من هؤلاء الأطفال؟ مشيرة إلى صور إعلانات لأغذية وأدوية أطفال معلقة على جدران العيادة، فأجابتها الثانية أنهم أولاد الدكتور من زوجاته الأجنبيات.

❖ ❖ ❖

لم يكتـف بمـا نالـه مـن خـبرة حياتيـة ضـمن بلدتـه، بـل دأب علـى السـفر والسـياحة إلى أوروبـا ومنـاطق أخـرى في سـعي لإرواء حاجتـه إلى المعرفـة، منـذ أكتشف أن باستطاعته تغطية نفقات رحلاته السياحية. وكان ذلك عام 1951، أثناء حديث مع صديقه غالب سالم في مقهى البرازيل في حلب، إذ قال له صديقه لو كنت املك ألف ليرة سورية لسافرت إلى باريس وأقمت فيها شهراً كاملاً، فسأله وهل تكفي ألف ليرة للذهاب إلى باريس، أنا أملك ثلاثة آلاف ليرة. فكانت أول سفرة له إلى باريس التي أقام فيها مدة تزيد عن ستة شهور تنقل خلالها في دول مجاورة، بعد أن أناب عنه في العيادة طبيباً آخر، كان يرسل له حصته من عمله فيها ما يزيد عما كان يجنيه صاحبها.

من حينها، دأب على زيارة أوروبا كل صيف، وقد أولع بالسفر فكثرت رحلاته الى مختلف أنحاء العالم من فنلندا والسويد في الشمال حتى اسبانيا والبرتغال في الجنوب، وزار ما بين البحر الأسود وإنكلترا، وبعض هذه البلدان زارها مراراً، كما زار البلاد العربية، وأمريكا الجنوبية والبرازيل والأرجنتين والولايات المتحدة الأمريكية وإيران والبلاد الروسية، وعدداً من بلدان الشرق الأقصى بين الهند واليابان وغيرها. لم يكن في رحلاته مجرد سائح، وإنما باحث أيضاً؛ حاول تعميق معرفته بتلك المجتمعات عبر علاقات صداقة وثيقة وحميمة للوصول إلى أسرارها، ليقدمها لاحقاً في قصص مشوقة، كانت على قدر كبير من الغنى والتنوع.

تعرف على الكثير من الأدباء والنقاد، وأقام معهم صلات صداقة إنسانية أكثر منها ثقافية، من أبرزهم جاك بيرك، وعبد الرحمن بدوي، يونس بحري، أديب مروة. كما تركزت علاقته مع الوسط الثقافي في سورية ولبنان، وكان أحد مؤسسي «عصبة الساخرين»، وكانت له جلسات شيقة مع الرحابنة. ويحتفظ بالكثير من أخبارهم الطريفة وذكرياته المشتركة معهم.

❖ ❖ ❖

رغم تفرغه للطب، خصص وقتاً للأدب. فكان الأديب المتعدد الجوانب. بدأ حياته بكتابة القصة ونظم الشعر، ثم اتجه لكتابة القصة القصيرة، التي أضفت عليها شخصيته الأدبية طابعها المميز، وجرب كتابة أجناس أدبية أخرى كالرواية والمقامة والمقالة والمسرح، ناهيك عن محاولاته البسيطة والطريفة في رسم الكاريكاتير، إلا أنه عرف ككاتب قصة، ولو نظرنا إلى مجموع نتاجه الكتابي، لوجدنا أن قصصه تشغل مساحة تزيد عن الربع، فموهبة القص لديه أساسية، انصرف إليها بعدما تأكد من قصور موهبته الشعرية كما يقول، هذا من جانب ومن جانب آخر لاكتشافه أن الشعر بات أضيق من احتواء التجارب المعقدة في عصرنا، فابتعد عن نظمه إلى حد ما، لكنه بقي حافظاً ومردداً له. كتب المقامة والأرجوزة والزجل، ضمن إطار الهواية واللهو، حتى أن بعض قصائده الغزلية لم تر النشر لجرأتها ولم ينشرها مراعاة لقيم مجتمعه، ومكث يتبادلها مع الأصدقاء في جلسات الصفاء والمرح.

شكلت القصة للعجيلي في مرحلة ما الوعاء الشامل الذي مكنه من وضع الشعر والسياسة والفلسفة والتطلعات العلمية، وندر أن كتب مقالاً أو ألقى محاضرة أو حادث أحداً، إن لم تحضره قصة توضح ما يريد نقله من أفكار للآخرين، فقد كان دخوله إلى عالم الكتابة من باب الولع بالقراءة، التي فتحت له آفاقاً واسعة لم تكن الحياة لتفتحها في بلدة صغيرة نائية.

بدأت محاولاته الكتابية من سن اثنتي عشرة عاماً، بتأليف تمثيلية فجة حول قصة تاريخية جرت في ضواحي الرقة، ثم كتب قصة بوليسية، وحين قرأ «آلام فرتر» بدأ بكتابة مذكرات شخصية. يعتبر العجيلي تلك المحاولات مضحكة، إلا أن أول ما نشره حين كان لا يزال طالباً في الثانوية قصة «نومان»، وقعها باسم مستعار، ونشرت عام 1936 في مجلة الرسالة المصرية، التي كان يصدرها الأستاذ الزيات، وهي المجلة الأدبية الأولى في العالم العربي، ومكث يكتب باسم مستعار حتى عندما كتب في الصحف الدمشقية الأدبية والسياسية، إلى أن اكتشف الصحافي الأديب سعيد الجزائري هذا الطالب الذي يدخل المسابقات فيفوز فيها، ثم لا يتقدم الى أخذ الجائزة لئلا يُعرف اسمه. وكانت تلك بداية صداقته مع سعيد الجزائري الذي كشفه للقراء، وشجعه على الكتابة.

❖ ❖ ❖

اعتبر العجيلي واحداً من المؤسسين الذين أسهموا بدور رئيسي في إرساء تقاليد القصة العربية وتطورها، إذ أسس بحق فن الحكاية، وقد حول مشاهداته في رحلاته إلى قصص في كتابيه «حكايات من الرحلات» و«دعوة إلى السفر». تميز بأسلوبه السردي الساحر، وبمقدرته على تطوير مختلف الأجواء والحالات والشخصيات والإيحاء بمقارنة الحياة ومحاكاتها، كما تميز بنزعة رومانسية معتدلة مشبعة بحس الفكاهة والدماثة والشاعرية، مما جعل لكتاباته تأثيرها الواضح على العديد من كتاب جيل الخمسينيات والأجيال اللاحقة. وحققت له مكانة أدبية مرموقة عربياً وحتى عالمياً، ومع هذا كان ينفر من فكرة احتراف الأدب، وقد رد بعض النقاد هذا النفور إلى الايدولوجيا التي كانت سائدة في الأوساط الثقافية العربية، فترة الصعود القومي والمد اليساري، إيديولوجيات كان

يعتبرها غوغائية، مفضلاً الاستقلال في السلوك، وتجنب التقرب إلى ذوي النفوذ مدعيّ العمل لخير الطبقات الكادحة، فلم يعمل في وظيفة، ولم ينتسب إلى حزب، أو إلى أي تنظيم نقابي مستقل أو رسمي، رافضاً دعوات كثيرة تلقاها، مؤثراً منذ مغادرته العمل السياسي عام 1962 النأي بنفسه بعيداً عن السلطة، أيا كان نوعها. بعدما وجد أن ثمة تعارضاً بين رؤيته كمثقف ورؤيته كسياسي في الفترات المحدودة التي احترف فيها السياسية كنائب ووزير، في فترة النيابة أكثر منها في فترة الوزارة. هذا التعارض أبعده أيضاً عن الاحتراف السياسي رغم المؤهلات التي رآها الآخرون فيه، ورغم المغريات الكثيرة للسلطة، لسبق اضطراره إلى التنازل عن قناعاته إرضاء للناخبين أو مجاملة للحاكمين، في سبيل الوصول إلى غاية يريدها، أو اعترافاً بفضل أو جميل قدم إليه، لذا انصرف عن الاحتراف السياسي، وليس عن الاهتمام والمتابعة وطرح الآراء حول السياسة. ونظر إلى الإبداع كرسالة إنسانية سامية، وليس كسباً مادياً، قد يصح كل ذلك، كما قد يصح أيضا أن يكون التهرب من النقد الأدبي الصارم وما يجره على صاحبه من عداوات مجانية سبباً في عدم الإقرار باحتراف الأدب، ومع ذلك لم يسلم من تجريح وصل حد اتهامه بالإقطاعية والأرستقراطية والعيش في برج عاجي، ووصفه أحد النقاد بأنه كولونيالي استعماري!! مع العلم أنه التزم العيش في الرقة حتى حين كانت قرية كبيرة غائصة بالوحل ومختنقة بغبار العجاج، هذا عدا كون الارستقراطية والإقطاع ليست أشكالا معروفة في حياة البداوة، لذا كان من التعسف نسبه إلى البرجوازية وكانت مجتمعاً غير مجتمعه. مع أنه عُرف بارتباطه بهموم أمته والتزامه الوثيق بقضايا شعبه.

كان من الطبيعي تعرض العجيلي لهذا النوع من الانتقاد والتشهير، في الفترة التي أعقبت ثورة 8 آذار، عندما «أصبح كل ما سبقها عرضة للانتقاد والتشهير حتى النقمة»، لاسيما وأنه كان طبيباً وكاتباً سياسياً في ذلك العهد البائد، وإن لم يكن كذلك في نظر كل الناس الذين عرفوه أو قرأوا له أو سمعوا به، ففي احد الاجتماعات الحزبية الذي ضم وجوهاً مختلفة بين ذوي مكانة وآخرين من البسطاء، ورد ذكر العجيلي، فانبرى واحد من الحضور وقال: «أنا أعرفه، إنه

ارتوازي»؛ حيث التبس على ذلك الواحد الفرق بين «البرجوازي» الذي تناهضه الثورة وبين «الارتوازي» اسم الآبار الحديثة حينذاك.

حافظ العجيلي على حريته الشخصية، وابتعد عن التقولب ضمن قالب جاهز، حتى لو كان من صنعه، دون أن يعني ذلك الفوضوية أو العدمية، وأدت خصائصه النفسية المتجسدة في سلوكه الشخصي مثل تجسدها في كتاباته إلى سوء تفاهم مع الآخرين، فحين كان اليمين غالباً في البلاد، نُظر إليه على انه يساري، وحين تغلب اليسار رآه كثيرون يمينياً، والسبب يرجع إلى أنه لم يرفع عقيرته بشعار معين، وتخلف عن الانتساب لتنظيم معين، وأحياناً لتباعده عما يراه غير لائق بقيمة الفكر.

لا يمكن اختزال سيرة العجيلي كطبيب وأديب وسياسي في صفحات معدودة، لأنها من الغنى بمكان، ويُقصر تكثيفها عن الإحاطة بها، ويفقدها الكثير من المتعة التي لا يشعر بها سوى مجالسيه وقرائه. سيرته هي مزيج من الحكمة والمعرفة والطرافة معاً، سيرة تدون وقائع يومية لمجتمع، وأحداث مفصلية لوطن، وقيم إنسانية لحياة طويلة عريضة عاشها العجيلي بشغف، روض نفسه على القناعة بما حصل عليه، معزياً نفسه بما فقده أو خسره، بأنه مقدر له، وبقي دائم الاهتمام بالحاضر والمستقبل، دون رغبة لتكرار الماضي الذي تنعم به في زمانه. وحسبنا دلالة قوية على المكانة التي وصل إليها، ليس في الثقافة العربية وحسب، بل على مستوى أوسع بكثير، في حادثة طريفة لدى طلب الملحق الثقافي الفرنسي منه المرور إلى مكتبه في دمشق أواخر الثمانينات، حينها فوجئ بالملحق الثقافي، وقد حصل من أقربائه في الرقة على صورة للعجيلي في صباه يرتدي الزي العربي على ظهر حصان، وكان قد قام بترميم الصورة وتكبيرها. ولدى استقباله سأله أن يضع توقيعه عليها ليعلقها في صدر مكتبه. فقال له، كيف تضع صورة لي بهذا الحجم في صدر المكتب؟ إنه مكان لصورة الرئيس فرنسوا ميتران لا صورتي! رد عليه الملحق الثقافي جاداً وبإعجاب كبير: أنت قيمة أكثر ثباتاً من ميتران.

توفي العجيلي صباح الأربعاء في 5 نيسان سنة 2006 بعيد رحيل صاحبه محمد الماغوط بيومين.. (مات على سروج الخيل): هكذا وصف أهالي الرقة موت رجل بلدتهم، ومضى كما أراد، معززاً مكرماً محمولاً على الراحات بعدما أوصى

قبيل وفاته، ألا يجري له حفل تأبين رسمي ولا شعبي، ولا خطابات ولا قصائد، إنما جنازة عادية بسيطة.

كان العجيلي يتمنى موتاً بسيطاً بأسهل الأسباب، يدهمه وهو في أتم العافية، وكان يبرر قائلاً: لقد شبعت من الحياة، عشتها بكل ما فيها، وما عدت أرغب في المزيد.

سعاد جرّوس

مؤلفاته

أصدر أكثر من ثلاثة وأربعين كتاباً ما بين قصة ورواية وشعر ومقالات، وهي:

1 ـ بنت الساحرة ـ دار مجلة الأديب ـ بيروت، 1948.

2 ـ الليالي والنجوم ـ شعر ـ دار مجلة الأديب ـ بيروت، 1951.

3 ـ ساعة الملازم ـ قصص ـ دار العلم للملايين ـ بيروت، 1951 .

4 ـ حكايات من الرحلات ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة، 1954.

5 ـ قناديل إشبلية ـ قصص ـ دار الآداب ـ بيروت 1956.

6 ـ الحب والنفس ـ قصص ـ دار الآداب ـ بيروت 1959.

7 ـ باسمة بين الدموع ـ رواية ـ المكتب التجاري بيروت، 1959.

8 ـ الخائن ـ قصص ـ دار الطليعة ـ بيروت، 1960.

9 ـ رصيف العذراء السوداء ـ قصص ـ دار الطليعة ـ بيروت 1960.

10 ـ المقامات ـ إصدار خاص ـ 1963.

11 ـ دعوة إلى السفر ـ دار عويدات ـ بيروت، 1963.

12 ـ الخيل والنساء ـ قصص ـ دار الأداب ـ بيروت، 1965.

13 ـ أحاديث العشيات ـ محاضرات ـ وزارة الثقافة ـ دمشق 1965.

14 ـ أشياء شخصية ـ دار صحافيا ـ بيروت 1968.

15 ـ فارس مدينة القنطرة ـ قصص ـ دار الآداب ـ بيروت 1971.

16 ـ حكاية مجانين ـ قصص ـ دار العودة ـ بيروت 1972.

17 ـ السيف والتابوت ـ محاضرات ـ محاضرات ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق، 1974.

18 ـ قلوب على الأسلاك ـ رواية ـ الأهلية للنشر والتوزيع، 1974.

19 ـ ألوان الحب الثلاثة (بالاشترك مع أنور قصباتي) ـ دار العودة/ الكندي، 1975.

20 ـ أزاهير تشرين المدماة ـ رواية ـ وزارة الثقافة ـ دمشق 1977.

21 ـ عيادة في الريف ـ رواية ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق، 1978.

22 ـ سبعون دقيقة حكايات ـ محاضرات ـ دار الكاتب العربي، 1978.

23 ـ المغمورون ـ رواية ـ دار الشرق العربي ـ بيروت 1979.

24 ـ الحب الحزين، دار الشرق ـ بيروت 1979.

25 ـ وجوه الراحلين، دار الثقافة ـ دمشق 1982.

26 ـ في كل واد عصا ـ مقالات ـ دار الحوار ـ اللاذقية، 1984.

27 ـ فصول أبي البهاء ـ قصص ـ دار طلاس ـ دمشق 1986.

29 ـ حفنة من الذكريات ـ محاضرات ـ دار طلاس، دمشق، 1987.

30 ـ موت الحبيبة ـ قصص ـ دار طلاس ـ دمشق، 1987.

31 ـ جيل الدربكة ـ مقالات ـ رياض الريس للكتب والنشر ـ بيروت لندن 1990.

32 ـ فلسطينيات عبد السلام العجيلي ـ دار فلسطين ـ دمشق 1994.

33 ـ محطات من الحياة ـ محاضرات ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق 1995.

34 ـ مجهولة على الطريق ـ قصص ـ رياض الريس للكتب والنشر ـ بيروت لبنان، 1997.

35 ـ ادفع بالتي هي أحسن ـ مقالات ـ رياض الريس للكتب والنشر ـ بيروت، لبنان، 1997.

36 ـ أحاديث الطبيب ـ مقالات ـ دار عطية ـ بيروت ـ لبنان 1997.

37 ـ خواطر مسافر ـ مقالات ـ دار الأهالي ـ دمشق 1997.

38 ـ أرض السياد ـ رواية ـ رياض الريس للكتب والنشر ـ بيروت، لبنان 1998.

39 ـ ذكريات أيام، جزأين مقالات ـ رياض نجيب الريس ـ بيرون لبنان، 2000 ـ 2002.

40 ـ أجملهن ـ رواية ـ رياض نجيب الريس ـ بيروت لبنان، 2001.

41 ـ حب أول حب أخير ـ رواية رياض نجيب الريس ـ بيروت لبنان، 2003.

أبو خليل القباني
يوسف العظمة
عبد الرحمن الكواكبي
مريانا مراش
طاهر الجزائري
محسن الأمين
إبراهيم هنانو
شكيب أرسلان
عز الدين القسام
عبد الحميد الزهراوي
أحمد جمال باشا
هاشم الأتاسي
محمد كرد علي
رضا سعيد
فارس الخوري
عبد الرحمن الشهبندر
ساطع الحصري

علي الدرويش
صالح العلي
فيصل الأول
عمر البطش
أحمد مريود
أحمد العائدي
فخري البارودي
ماري عجمي
سعيد العاص
حسني الزعيم
فوزي القاوقجي
تاج الدين الحسني
سلطان الأطرش
شكري القوتلي
فوزي الغزي
محمد الأشمر
جميل مردم بك
خير الدين الزركلي

رواية اسمها سورية

2500 S.P